

حُلَا الْإِسْمَاءِ السُّورِ الْقُرْآنِيَّةِ

عَلَى

مَحَاوِرِهَا وَ مَوْضُوعَاتِهَا

مَعَ خَرَايِطِ ذَهْنِيَّةِ السُّورِ الْقُرْآنِيَّةِ

نَعْيِنَ عَلَى فَرْمِ السُّورَةِ وَحَفَظَهَا

تَأَلَّفَ الذَّكُورُ
مُعَرَّرٌ بِعَالِي حَسَنِ عَرَفَاتٍ

مَوْضِعُ الرِّسَالَةِ نَاشِرُونَ

حَلَالَةُ التَّائِبَةِ إِلَى اللَّهِ وَالْقُرْآنِ

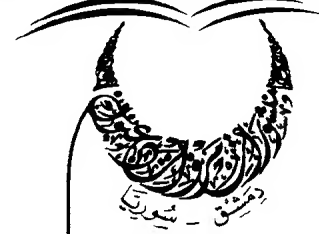
عَلَى

مُحَاوَرَاتِهَا وَمَوْضُوعَاتِهَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

انتشار بالواد الطيف

مؤسسة الرسالة ناشرون



جميع الحقوق محفوظة للناسخ
الطبعة الأولى
٢٠١٨ هـ - ١٤٣٩

هاتف: ١١ ٢٣٢١٢٧٥ (٩٦٣)

فاكس: ١١ ٢٣١١٨٣٨ (٩٦٣)

ص ب : ٣٠٥٩٧

بيروت - لبنان

تلفاكس: ١٧٠٠٣٠٢ (٩٦١)

١٧٠٠٣٠٤ (٩٦١)

ص ب : ١١٧٤١٠

Resalah
Publishers

Damascus - Syria

Tel: (963) 11 2321275

Fax: (963) 11 2311838

P.O.Box: 30597

Telefax: (961) 1 700 302

(961) 1 700 304


P.O.Box: 117460


Beirut - Lebanon

[Http://www.resalah.com](http://www.resalah.com)

E-mail: resalah@resalah.com

 [facebook.com/resalah2007](https://www.facebook.com/resalah2007)

 twitter.com/resalah1970

 [instagram.com/resalahpublishers](https://www.instagram.com/resalahpublishers).

حقوق الطبع محفوظة © 2018م لا يُسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو
أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام
ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه.
ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى
دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

①

ISBN 978-9933-23-070-8



9 789933 230708

دُالَاتِرَائِيَّاتُ السُّورِ الْقُرْآنِيَّةِ

عَلَى

مَحَاوِرِهَا وَ مَوْضُوعَاتِهَا

مَعَ خَرَائِطَ ذَهْنِيَّةٍ لِلْسُّورِ الْقُرْآنِيَّةِ

تُعِين عَلَى فَرْهِمِ السُّورَةِ وَحِفْظِهَا

تَأَلَّفَ الذَّكُورُ

عُمَرُ عَلِيُّ حَسَّانٍ عَرَفَانٍ

مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةِ نَاشِرُونَ



الإهداء

إلى كل مؤمن أحبَّ القرآن العظيم، وخاضَ
غمارَه وسَبَرَ أغوارَه بنِيَّة صادقةٍ وقلبٍ مخلص،
لاستنباط حقيقةٍ تكشف وجهاً من وجوه إعجاز
هذا الكتاب العظيم الخالد، أُهدي هذا العمل
المتواضع.

تقديم بقلم الدكتور

أحمد إسماعيل نوفل

الحمد لله الذي أكرمنا وشرفنا بالقرآن، وصلى الله على النبي الأمين الذي بلغنا القرآن
وبيّن لنا القرآن، وبعد:

فإننا لسنا نبالغ أبداً إذا قلنا: إن القرآن بحر لا تنتهي درره وجواهره ونفائسه ولآلؤه ومعانيه
وموضوعاته ولطائفه وتحفه...، ولذلك لا تنتهي الكتب عنه وإن بلغت الملايين، وعطاء الله
للعباد فيما أودعه في القرآن من معاني وموضوعات ما له من نفاد. إنها كلمات الله...
والدراسات الموضوعية واحد من ميادين البحث في القرآن، وهي بلا مبالغة أيضاً بحر
محيط من الموضوعات لا ساحل له، ولا حدّ له.

وقد وفق الباحث عمر عرفات أيما توفيق في اختيار موضوع من بحر الموضوعات
المتعلّقة بالقرآن، ولكنه موضوع يشمل القرآن كلّّه، وذلك هو: «العلاقة بين اسم السورة
ومحورها وموضوعاتها، دراسة تحليلية تطبيقية»، وقد تشرّفتُ بالإشراف على هذا
الموضوع، وقلت للباحث عرفات: «إن رسالتك هذه أو بحثك هذا سيكون كتاباً يسدُّ فراغاً
في المكتبة التفسيرية أو المكتبة القرآنية»، وها قد كان... وها هو يأخذ طريقه إلى النشر
وإلى أيدي القراء، لعله يجيب عن أسئلة طالما دارت في الأذهان، وأهمّها:

هل يلخص اسم السورة موضوعاتها؟

وهل يعبر الاسم عن الوحدة الموضوعية للسورة؟

أم أنه ليس كذلك بالضرورة؟

وقد كان من دأب الباحث ونهجه أن يقدم بأقوال السادة العلماء، ثم يعقّب بقوله هو،
لا لأنه يردُّ أقوال العلماء، بل هو يردّ نبعها ويستقي منها، ويزيد ما يراه... فلا بد أن يكون
للباحث قول، وإذا كان اكتفى بالنقل عمّن سبق فلماذا التأليف والكتب؟

والباحث عمر عرفات مجتهد مخلص، نشأ في بيئة علم وبيت علم.. ومع العلم ذوق وخلق وتواضع، فإذا قال: هذا رأيي، قاله لا ليرفع، ولكن ليُعلم أن هذا ما أذاه إليه اجتهدُه ونظره، لا أنه يقدّمه على العلماء، لكنه يقدّمه بين يدي القارئ والعالم، فإن كان من ملاحظة وجهت إليه.

وأزعم أن الباحث لم يتكلّف في بيان الوحدة الموضوعية للسورة، أو مدى تمثيل العنوان واسم السورة لوحدها الموضوعية، وإنما كان يربط ما حقّه الترابط، فالقرآن عروة وثقى، ولا تكلف في القول بتناسقه وتضافره وترابطه وتوثق الصلات بين موضوعاته وآياته.. فهذا هو الأصل، والتكلف نقيض هذا.

وحتى أعطي مثلاً على منهجية الطالب، فتحت الرسالة بلا ترتيب فكانت سورة «الفتح»، وابتدأ الباحث بقوله: «الدلالات اللفظية والسياقية لاسم السورة»، فقال، وألخص حتى لا يطول التقديم: «والفتح: النصر، وخلاصة المعنى اللغوي يدور حول النصر والظفر، أما الدلالة السياقية، فالفتح كناية عن فتح الحديدية، والفتح انتشار الإسلام ودخول الناس في دين الله، وقد دخل كثير من الناس الإسلام بعد صلح الحديبية»، ثم نقل عن المفسرين قدماء ومُحدثين وجه الربط بين محور السورة وموضوعاتها واسمها، فقال: «محور السورة يدور حول التعريف بصلح الحديبية وبيان صفات المؤمنين فيه، والبيعة والإشارة إلى فتح خيبر..».

ثم لخص الأقوال التي ذكرها بأن محور السورة هو: «بيان أن الثبات على صدق الإيمان والثقة بالله وبرسوله يورث الرضا ويهيئ للنصر، ولما كان صلح الحديبية هو أدل ما في السورة على ثبات المؤمنين وصدق إيمانهم، سميت السورة باسم الفتح».

ثم يبين موقفه وقوله إذ يقول: «وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين الدلالات اللفظية والسياقية لاسم السورة»، ثم قسّم السورة إلى أربعة أقسام: «مقدمة تحوي الامتنان من الله على رسول وعلى المؤمنين، وثانياً: بيان موقف المتخلفين عن الصلح، وثالثاً: بيان خيرات هذا الصلح على المؤمنين، ورابعاً: خاتمة مؤكدة لما سبق..».

وبعد، فهذا نموذج موزج شديد الإيجاز لتعلم منهجية الباحث، وهكذا تسير معه هذا

الكتاب، والذي كان أطروحة جامعية، التقت على مناقشتها لرفع سويتها وتعديلها وتهذيبها عقول جمهرة من أساتذة كلية الشريعة في الجامعة الأردنية وبعض أخواتها من الجامعات الأردنية .

وأسأل الله أن يكون توقعنا من هذه الرسالة أو هذا الكتاب في محله أن يسد فراغاً في المكتبة، وأن يسهم في بيان الوحدة الموضوعية للسر القرآنية، وفي الربط الوثيق بين اسم السورة ومحورها ومقاطعها وموضوعاتها .
والله يتولى الجميع بالتوفيق .
ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .

الدكتور

أحمد إسماعيل نوفل

أستاذ التفسير وعلوم القرآن / الجامعة الأردنية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين القائل في محكم تنزيله: ﴿الرَّ كُنْتُ أَهْكَمْتُ ءَايَتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، والقائل: ﴿حَدَّ تَنْزِيلٍ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كُنْتُ فَصَّلْتُ ءَايَتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ١-٣]، وصلى الله تبارك وتعالى على سيدنا محمد القائل: «تعاهدوا القرآن، فوالذي نفسي بيده لهو أشدُّ تفصيلاً من الإبل في عُقْلِهَا»^(١)، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، وبعد:

فإن القرآن الكريم كتاب الدعوة الإسلامية، وقد شاعت حكمة الله أن جاء هذا القرآن مكوّناً من سور، وكل سورة تشتمل على آيات لعرض الموضوعات المتناولة في هذه السورة، وقد جاءت كل سورة من سور القرآن مسماةً باسم معيّن ليميّزها عن الأخرى، وفي غالب الأمر يكون هذا الاسم فيه إشارةً إلى أحد الموضوعات البارزة في السورة.

وانطلاقاً من الإيمان بأن القرآن الكريم منزلةٌ عن العبيّة، وكل شيء فيه جاء وفق الحكمة الإلهية، وانطلاقاً من أمر الله تعالى، وأمر نبيه ﷺ بالتفكير والتدبر في آيات القرآن، كان لا بد أن تكون هناك ضرورة للإجابة حول تساؤلات عدة تدور في ذهن قارئ القرآن حول موضوع أسماء السور، كالتساؤل حول السر في انتقاء هذه الأسماء للسور دون غيرها، وحول علاقتها بمحور السورة وبموضوعاتها، وبالواقع الذي نزلت فيه.

من هنا كانت فكرة هذا الكتاب الذي كان بالأصل رسالة جامعية قدّمت لنيل درجة الدكتوراه في الجامعة الأردنية عام: (٢٠١٥ م، الموافق لعام: ١٤٣٦ هـ)، وقد كانت

(١) أخرجه الإمام البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب فضائل القرآن، باب استذكار القرآن وتعاهده، برقم: ٥٠٣٢، وأخرجه أيضاً الإمام مسلم، المسند الصحيح، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الأمر بتعهد القرآن، برقم: ١٧٩٢. ومعنى «تفصيلاً» أي: تفلّناً.

بعنوان: «العلاقة بين اسم السورة القرآنية وموضوعاتها، دراسة تحليلية تطبيقية»، ثم لما أردت إصدارها ككتاب حوّلت العنوان إلى: «دلالة أسماء السور القرآنية على محاورها وموضوعاتها»، فالكتاب يهدف إلى تحليل أوجه العلاقات بين اسم السورة القرآنية ومحورها وموضوعاتها، من خلال التطبيق العملي على سور القرآن الكريم، وإثبات أن أسماء سور القرآن توقيفية من الله، وليست اجتهادية من الرسول ﷺ أو الصحابة، من خلال بيان أن اسم السورة التوقيفي كان هو الأجدر والقمين بالسورة.

هذا وقد اعتمدت في هذا الكتاب منهجاً مطّرداً للكتابة، وتفاصيل ذلك:

- فأول ما أبدأ به في السورة المتناولة بيان الدلالة اللفظية لاسم السورة، إن كان لدلالته اللفظية علاقة مباشرة بموضوعات السورة.

- ثم أبين الدلالة السياقية لكل اسم من أسماء السور القرآنية، وأعني بالدلالة السياقية: نظرة تحليلية إلى السياق الذي ذكر فيه اسم السورة.

- ثم أستطلع آراء بعض المفسّرين والكاتبين حول موضوع علاقة اسم السورة بموضوعاتها ومحورها أو وحدتها الموضوعية، ثم أجمع كلامهم بحيث يكون فقرة مستوعبة لما قالوه، مما له علاقة مباشرة بموضوع الكتاب.

- ثم أنظر نظرة تحليلية للسياق الكلي للسورة المتناولة، محاولاً استخلاص محور جامع لكل موضوعاتها، فإن وجدت شيئاً لم يذكره من سبقني بنيت على أقوالهم بزيادة ما عنّي لي، وإن لم أصل إلى شيء جديد اعتمدت كلامهم مع التلخيص الجامع المانع.

- ثم أحاول إثبات المحور الذي توصلت إليه - سواء إذا أضفت على من سبقني شيئاً جديداً أم لم أضف - بما امتازت به كل سورة من الألفاظ التي انفردت بذكرها السورة المتناولة، أو الألفاظ التي تكررت بشكل لافت في السورة.

- ثم أقسّم السورة المتناولة إلى موضوعات رئيسية، وأعطي لكل موضوع عنواناً معبراً عنه، ليسهل بيان أوجه العلاقة بين اسم السورة وهذه الموضوعات، علماً بأن تقسيم السورة إلى موضوعات قبل الدراسة التحليلية لها أمر معروف ومتبع عند كثير من المفسرين، لا سيّما سيّد قطب في تفسيره «في ظلال القرآن».

- ثم أعرض هذه الموضوعات عرضاً تفصيلياً مبيناً أوجه العلاقة بينها وبين اسم السورة، وأذكر من الآيات ما يعطي صورة متكاملة للقارئ حول العلاقة بين اسم السورة وموضوعاتها.

- ثم أتبع السورة بشكل هندسي يكوّن خارطة في الذهن ملخّصة حول محور السورة وموضوعاتها، ليساعد على فهم السورة وحفظها.

وينبغي لي أن أبين أن موضوع هذا الكتاب قائم على الاجتهاد، فاستنباط محور السورة أمر اجتهادي، وتقسيمها لموضوعات أمر اجتهادي أيضاً، ومحاولة بيان أوجه العلاقة بينها وبين اسم السورة أمر اجتهادي أيضاً، ومعلوم أن الاجتهاد أمر معرّض للصواب والخطأ، ولا أدعي أن ما ذكرته من أوجه العلاقة بين اسم السورة ومحورها وموضوعاتها هو نهاية المطاف، بل هي مجرد محاولة جادة معرّضة للصواب والخطأ، ولربّما ستأتي دراسات أكثر تعمقاً ويظهر لها ما لم يظهر لي ويبقى الأمر اجتهادياً، ويبقى شأن القرآن أنه يغلب ولا يُغلب.

ولا يسعني إلا أن أقول أن ما كان في هذا الكتاب من صواب فهو بتوفيق من الله، وما كان فيه من خطأ فهو من نفسي ومن الشيطان، ويطيب لي أن أتمثل بقول الإمام جلال الدين المحلي رحمه الله^(١):

حمدتُ الله ربّي إذ هداني لما أبديتُ من عَجْزي وضَعْفِي
فَمَنْ لي بالخطأ فأردُّ عنه وَمَنْ لي بالقَبُول ولو بحَرْفٍ

والحمد لله في بدءٍ وفي ختمٍ



(١) ينظر: تفسير الجلالين، عند تفسير آخر سورة الإسراء.

التمهيد

قبل البدء بالدراسة التحليلية التطبيقية على سور القرآن لبيان أوجه العلاقة بين اسم السورة ومحورها وموضوعاتها، لا بد لي أن أمهّد للموضوع بتناول موضوع أسماء السور من حيث النظر إلى كونها توقيفية أم اجتهادية، وبيان جهود العلماء السابقين حول موضوع هذا الكتاب، إذ إن الفضل لا بد أن يُنسب لأهله، ولقد لفت موضوع هذا الكتاب نظر عدد منهم، وقد كانت لهم آثار لا ينبغي التغافل عنها:

أولاً: أسماء السور بين التوقيف والاجتهاد:

لقد وُجد خلاف بين العلماء حول مصدر أسماء السور، أتوقيفية هي، بمعنى أنها من عند الله تعالى أوحى بها إلى النبي ﷺ؟ أم هي اجتهادية من النبي ﷺ أو الصحابة الكرام؟ وقبل بيان هذا الاختلاف، لا بد من تعريفات موجزة لتكون مدخلاً إلى الكتاب:

الاسم لغة: جاء في معاجم اللغة أن الاسم هو ما يعرف به ذات الشيء والأظهر مما ذكرته هذه المعاجم أن أصله: سَمُوْ، من السَّمُوْ وهو الرفعة والعُلُوْ، وهو الذي به رفع ذكر المسمّى فيُعرف به^(١).

والسورة لغة: المنزلة الرفيعة، مأخوذة من السُّور، وهو الحائط، أصلها: سَوْرٌ، وهو أصل يدل على العلو والارتفاع، والسُّورة من البناء: ما حَسُنَ وطال، وقد قيل: إن أصلها: سَوْرٌ، وهي البقية، فالسورة بقية من القرآن وقطعة منه^(٢).

(١) ينظر: ابن فارس، معجم المقاييس في اللغة، ص ٤٩٠، والأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٤٢٨، وابن منظور، لسان العرب، ج ٧، ص ٢٦٧. وقد قال: «مَنْ قَالَ إِنَّ اسْمًا مَأْخُودٌ مِنْ وَسَمْتٍ، فَهُوَ غَلَطٌ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ اسْمٌ مِنْ سُمْتِهِ لَكَانَ تَصْغِيرَهُ: وَسِيمًا».

(٢) ينظر: ابن فارس، معجم المقاييس، ص ٤٩٧، والأصفهاني، المفردات، ص ٤٣٣، وابن منظور، لسان العرب، ج ٧، ص ٢٩٨. ولعل اشتقاقها من السور أرجح، لأنه لا توجد قراءة متواترة في لفظة «سورة» في القرآن بالهمز. ينظر: خاروف، الميسر في القراءات الأربع عشرة.

السورة القرآنية: «يطلق اسم السورة اصطلاحاً على طائفة من آي القرآن ذوات فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات»^(١).

ويعود وجه التشابه بين السور في اللغة والسورة القرآنية إلى أكثر من اعتبار: «إما لما فيها من وضع كلمة بجانب كلمة، وآية بجانب آية، كالسور توضع كل لينة فيه بجانب لينة، وإما لما في السورة من معنى العلو والرفعة المعنوية الشبيهة بعلو السور ورفعته المعنوية، وإما لأنها معجزة تُخرس كل مكابر، ويحقّ الله بها الحق ويبطل الباطل، ولو كره المجرمون، أشبه بسور المدينة يحصنها ويحميها من غارة الأعداء وسطوة الأشقياء»^(٢).

بعد هذه التعريفات أصبح بالإمكان الانتقال إلى موضوع بيان مصدر أسماء السور الذي اختلف فيه العلماء، ويمكن تفصيل آرائهم على النحو الآتي:

أولاً: اعتبار أسماء سور القرآن الكريم توقيفية:

لقد كان هذا رأي الإمام الزركشي رحمه الله حينما قال: «وينبغي البحث عن تعداد الأسامي، هل هو توقيفي أو بما يظهر من المناسبات؟ فإن كان الثاني، فلن يُعدم الفطن أن يستخرج من كل سورة معاني كثيرة تقتضي اشتقاق أسمائها وهو بعيد». وقال تحت عنوان: اختصاص كل سورة بما سميت: «ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سميت به، ولا شك أن العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق؛ لإدراك الرائي للمسمى، ويسمّون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها»^(٣).

وقد كان هذا رأي الإمام السيوطي رحمه الله حينما قال: «وقد ثبت أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار، ولولا خشية الإطالة لبيّنت ذلك»^(٤).

(١) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص ١٨٦.

(٢) الزرقاني، مناهل العرفان، ج ١، ص ١٩٥.

(٣) الزركشي، البرهان، ص ١٩٠.

(٤) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج ١، ص ١٠٦. ولم يتطرق إلى هذه القضية الإمام السخاوي في كتابه: جمال القراء وكمال الإقراء، ولا الإمام ابن الجوزي في كتابه: فنون الألفان في علوم القرآن.

وكان هذا أيضاً رأي الإمام الأشموني رحمه الله حينما قال: «اعلم أن ترتيب السور وتسميتها وترتيب آيها وعدد السور مسموع من رسول الله ﷺ ومأخوذ عنه، وهو عن جبريل»^(١).

ومن الكاتبيين المعاصرين في علوم القرآن الذين اعتمدوا القول بأن أسماء سور القرآن توقيفية: الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس، معتمداً على ورود أحاديث متعددة عن النبي ﷺ تُذكر فيها أسماء السور صراحة، ومن الذين اعتمدوا هذا القول من المعاصرين أيضاً الأستاذ الدكتور محمد المجالي، والدكتور عادل حسن^(٢).

ثانياً: اعتبار بعض أسماء السور توقيفية، وبعضها الآخر اجتهادياً من الصحابة رضي الله عنهم:

كان هذا رأي الأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة في بحث له موسوم بـ «اسم السورة يمثل روحها العام» حينما ردّ على كلام الإمام السيوطي المذكور آنفاً، فقال: «إن كان مراد هذا الحافظ طيب الله ثراه من الثبوت الذي زعم مجيء الحديث في كل اسم من أسماء سور القرآن على درجة صالحة للحجية من تواتر أو صحة أو حسن، فغير مسلم، فإن الباحث في كتب السنة وكتب التفسير بالمأثور يدرك لا محالة أنه مطلب عزيز المنال»، ثم ذكر خلاصة رأيه «فأما التحقيق الذي نقول به وندين الله عليه في هذه القضية بعد إتقان البحث وإنعام النظر، فهو أن التوقيف قد ثبت بالفعل في بعض السور، وقد لا يتيسر شيء أصلاً في العديد من السور ما يدلّ على توقيفيته، فالمنصف حينئذ يأخذ الحيطة ويلزم الجادة، فلا يقول بالتوقيف إلا فيما ثبت فيه التوقيف، وما لم يثبت فإنه يتوقف فيه على أقل تقدير»^(٣). وقد

(١) الأشموني، منار الهدى في بيان الوقف والابتداء، ص ٥٧.

(٢) ينظر: أ. د. فضل عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، ج ١، ص ٤٣٨. أ. د. محمد المجالي، الوجيز في علوم الكتاب العزيز، ص ١٩٧، ود. عادل حسن، الجمان في علوم القرآن، ص ٣٨٥، ٣٨٦، معتمداً على قول الزركشي والسيوطي السابق ذكرهما. ولم يتطرق إلى هذه القضية من المعاصرين الدكتور الزرقاني في كتابه: مناهل العرفان في علوم القرآن، ولا الدكتور عدنان زرزور في كتابه: علوم القرآن، ولا أحمد مصطفى إبراهيم في كتابه: علوم القرآن.

(٣) أ. د. إبراهيم عبد الرحمن خليفة، اسم السورة يمثل روحها العام، بحث مستلّ من حولية كلية أصول الدين، القاهرة، العدد: ٩، ١٩٩٢. ص ٨ و ١١. بتصرف. وينظر: أ. د. مصطفى رجب، فيض المنان في علوم القرآن، ص ٤١.

اعتمد هذا القول من الكاتبين المعاصرين في علوم القرآن الأستاذ الدكتور مصطفى رجب معتمداً على التعليل ذاته .

أقول: إنه يُسَلَّم للأستاذ الدكتور خليفة عدم وجود أحاديث صحيحة مرفوعة للنبي ﷺ في كل أسماء السور، ولكن: هل يدل ذلك على أن أسماء السور التي لم يصح فيها أحاديث عنه ﷺ اجتهادية؟ لقد اعتمد القائلون بأن ترتيب الآيات في القرآن توقيفي على حديث عام في هذا الموضوع، وهو قوله ﷺ: «أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: ٩٠] . . إلى آخرها^(١). ولكن هل صح عنه حديث في ترتيب كل آية من القرآن؟ لا يمكن لأحد أن يزعم ذلك، وعليه فيمكن للقائلين بأن أسماء السور توقيفية أن يعتمدوا على أحاديث عامة تثبت أن أسماء السور كانت مقررة في أذهان الصحابة، كقول الصحابي حذيفة رضي الله عنه: «صليت مع النبي ﷺ ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المئة، ثم مضى . . فافتتح النساء . . ثم افتتح آل عمران . .»^(٢).

فلماذا لا نقول: إن أسماء السور كانت مقررة في أذهان الصحابة الكرام نظراً لورود أحاديث متعددة عن النبي ﷺ ذكرت فيها أسماء السور صراحة، ثم نقل الصحابة أسماء السور بالتواتر إلى التابعين، وهم نقلوها إلى أن وصلتنا، تماماً كما حصل في قضية ترتيب الآيات في السورة؟

ولعله مما يفيد في هذا الموضوع كلامٌ للباحثين عيسى وادي ومحمود مهنا، إذ طرحا أسئلة عدّة تدعم القول بأن أسماء السور توقيفية، منها: لو كان الصحابة هم الذين قد سموا السور، فكيف اتفقوا على السور التي لها اسم واحد وهي الأكثر، واختلفوا على أسماء السور الأخرى، ولماذا يصعب تبرير أسماء السور أحياناً كسورة يونس التي سميت باسمه، ولم تذكر فيها قصته، ولماذا اختيرت أسماء بعض السور من الآية الأولى كسورة الرحمن،

(١) ينظر: أحمد بن حنبل، المسند، برقم: ١٧٢٤٠.

(٢) ينظر: مسلم، المسند الصحيح، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، برقم:

وبعضها من الآية الأخيرة كسورة الماعون، وهل يمكن للصحابة أن يسمّوا سوراً في القرآن بأسماء حشرات كالعنكبوت، أو حيوانات كالبقرة، أو بأسماء أخرى كـ «الكافرون» و«المنافقون»؟^(١).

أقول: ويمكن أن أضيف تساؤلات أخرى: فلماذا سمّيت سور بأسماء أنبياء كيوسف وهود، ولم تُسمّ سور بأسماء آخرين كموسى مع أن قصته أكثر قصص القرآن عرضاً؟ ولماذا سمّيت سورتان في القرآن بحرف واحد هما: «ص»، «ق»؟ وهَبْ أن سورتَي «طه» أو «يس» نزلتا بدون اسم، واجتمع أهل الأرض ليضعوا لهما اسمين، هل ستراهم يتفقون على هذين الاسمين، ولا يختارونهما من الموضوعات البارزة فيهما كحديث سورة طه عن السامري، أو عن قصة آدم، وكحديث سورة «يس» عن موضوع البعث، أو عن قصة أصحاب القرية؟ فإن كان الصحابة هم الذين اختاروا اسمي «طه» و«يس» لهاتين السورتين، ولغيرهما من السور الكثيرة التي تثير أسماؤها العجب والتساؤل كسورة النمل أو التين، فما الحكمة التي دفعتهم لاختيار هذه الأسماء إذاً؟

فيترجح لي أن أسماء السور توقيفية، وسبب هذا الترجيح الاجتهادُ العقلي الذي يثير التساؤلات السابقة وغيرها، وإن لم يصحّ عن النبي ﷺ حديث مرفوع في كل اسم من أسماء سور القرآن. والله أعلم.

وقبل أن أنتقل إلى النقطة الثانية ينبغي أن أذكر أن الدكتور منيرة الدوسري قد أثبتت في كتابها «أسماء سور القرآن وفصائلها»، بعد الدراسة التحقيقية أن السور التي كان لها أكثر من اسم توقيفي بدليل صحيح مرفوع إلى النبي ﷺ هي: الفاتحة فقد سمّاها النبي ﷺ بعدة أسماء منها: أم الكتاب والسبع المثاني وغيرها، والبقرة وآل عمران فقد سمّاها النبي ﷺ بالزهاوين، والتوبة سمّاها ببراءة، والمُلْك سمّاها بتبارك والمنجية، والفلق والناس سمّاها بالمعوذتين. ولم يصحّ أيّ حديث مرفوع إلى النبي ﷺ بسند صحيح في تسمية أيّ سورة أخرى بأكثر من اسم، بل كان ذلك من اجتهادات الصحابة كتسميتهم سورة الإسراء

(١) عيسى إبراهيم، ومحمود مهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٢-٨.

بسورة بني إسرائيل، وسورة غافر بسورة المؤمن، وسورة القلم بسورة «ن»، وسورة الصفات بالملائكة^(١).

وأعتقد أنه لم يكن من مقصود النبي ﷺ إعطاء أسماء جديدة لهذه السور، إنما أراد أن يصفها بصفات مميزة لها، وكذلك السور التي سمّاها ﷺ من الآية الأولى منها، كقوله لمعاذ ﷺ: «إذا أمت بالناس فاقرأ بالشمس وضحاها، وسبّح اسم ربك الأعلى، واقرأ باسم ربك، والليل إذا يغشى»^(٢)، فإني أعتقد أنه ﷺ أراد تحديد هذه السور لمعاذ ﷺ حتى لا يذهب ذهنه إلى سور أخرى، لا أنه أراد تسميتها بغير أسمائها. ولذلك سأقتصر في هذا الكتاب حسبما ترجّح لديّ على الأسماء التوقيفية للسور فقط.

ثانياً: جهود السابقين في هذا الموضوع:

أ - جهود بعض الكاتبين في علوم القرآن:

لقد لفت هذا الموضوع نظر بعض الكاتبين في علوم القرآن فذكروا بعض الإشارات حول هذا الموضوع توحى تلميحاً بل تصريحاً أحياناً بضرورة الاعتناء به، ومن هؤلاء العلماء:

الإمام الزركشي رحمه الله في كتابه البرهان، فقد حاول تعليل تسمية سورة البقرة لقريئة ذكر قصة البقرة المذكورة فيها، وتسمية سورة النساء لما تردّد فيها من أحكامهنّ، وتسمية سورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها. وحاول الإجابة عن سبب تسمية سورة هود بهذا الاسم مع أنه قد ذكر فيها غيره من الأنبياء، فأجاب بأن اسمه لم يتكرر في سورة أخرى كتكرّره في هذه السورة، فقد ذكر فيها أربع مرات، وعلّل تسمية سورة «ق» لتكرار هذا الحرف فيها^(٣).

(١) ينظر: د. منيرة محمد الدوسري، أسماء سور القرآن وفوائدها، ص ١٠٠ وما بعدها. والكتاب في الأصل رسالة ماجستير قدمت في كلية الآداب للبنات في الدمام.

(٢) ينظر: مسلم، المسند الصحيح، كتاب الصلاة، باب القراءة في العشاء، رقم: ٩٧٥.

(٣) ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ص ١٩٠.

وقد نقل الإمام السيوطي رحمه الله كلام الزركشي، ثم طرح ثلاثة تساؤلات: عن عدم وجود سورة باسم موسى عليه السلام مع أن قصته أكثر القصص ذكراً في القرآن، وكان أولى سورة أن تسمى باسمه طه أو القصص أو الأعراف، فأجاب لبسط قصته في هذه السور الثلاث ما لم يبسط في غيرها، وعن عدم تسمية سورة باسم آدم عليه السلام مع ذكره في عدة سور، فأجاب كأنه اكتفاء بسورة الإنسان، وعن عدم تسمية الصفات باسم إبراهيم عليه السلام مع ذكره فيها، وكذلك سورة «ص» لم تسم باسم داود عليه السلام. ولم يجب لكنه قال: «فانظر في حكمة ذلك»^(١).

وقد كان للعلماء الكاتبيين في علوم القرآن في عصرنا أيضاً جهود في هذا الموضوع، كالأستاذ الدكتور فضل حسن عباس، فبعد أن ذكر أن أسماء السور توقيفية طرح سؤالاً: أتعلمُ أسماء السور؟ فأجاب بأنه إذا تم ذلك في كثير من السور لوضوح العلاقة بين الاسم والسورة كسورة يوسف، فإنه لن يتم في كثير من السور أيضاً، وذكر مثلاً على ذلك سورة يونس، سميت باسمه ولم تذكر فيها قصته^(٢). وقد علل تسمية سورة إبراهيم في كتابه قصص القرآن الكريم حينما قال: «حدثنا القرآن الكريم عن إبراهيم عليه السلام بأنه أمة وأنه أبو الأنبياء... وسورة إبراهيم، السورة التي سميت باسمه، أرادها الله أن تكون أمة في السور كذلك فلها من اسمها نصيب، من أجل ذلك وجدنا هذه المحاضرة والمحاورة التي تنسب إلى الرسل، وما كان بينهم وبين أقوامهم، ولم نجد مثلها في غير هذه السورة الكريمة، إنهم تجمعوا ولكن في هذه السورة كما يتجمع الأبناء في بيت الأب»^(٣).

ب - جهود بعض المفسرين:

ولقد لفت هذا الموضوع أيضاً نظر بعض المفسرين، فتجد كثيراً منهم يشير إلى أحد أوجه العلاقة بين اسم السورة ومحورها أو أحد موضوعاتها، وقد كان كلامهم حول هذه

(١) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج ١، ص ١١٣.

(٢) ينظر: أ. د فضل عباس، إتقان البرهان، ج ١، ص ٤٣٨. أقول: بل لعله يتم تعليل ذلك في كل سور القرآن في هذا الكتاب إن شاء الله.

(٣) أ. د فضل حسن، قصص القرآن الكريم، ص ٨٥. بتصرف. وهو يشير إلى الآيات ٨ - ١٤ من هذه السورة.

القضية يدلّ غالباً على عمق تحليلهم واهتمامهم بها، وأبرز هؤلاء المفسّرين: المهامي، والبقاعي، وسيد قطب، وابن عاشور، ومؤلفو التفسير الموضوعي^(١). وقد انطلقوا من قاعدة أن اسم السورة له علاقة مباشرة بمحورها، وكانوا يشيرون إلى هذه العلاقة قبل البدء بتفسير السورة، لكن كلامهم حول هذه القضية ما زال بحاجة إلى المزيد من التحليل ليس لبيان أوجه الربط بين اسم السورة ومحورها فحسب، بل لبيان علاقته بكل موضوعاتها.

ج - جهود بعض الكاتبين في الوحدة الموضوعية للسور القرآنية:

وقد كان لبعض الكاتبين في موضوع الوحدة الموضوعية للسور أيضاً جهود متعلّقة بأسماء السور، فبيان الوحدة الموضوعية للسورة يقتضي بيان العلاقة بين اسمها ووحدتها الموضوعية، وهذا موضوع لفت أنظار السابقين كالإمام الفيروزابادي في كتابه: البيان بمقاصد سور القرآن، الذي يقوم على فكرة أن لكل سورة مقصداً - محوراً - تدور عليه موضوعاتها، وقد كان جهده بمثابة دعوة إلى النظر في هذا الموضوع، ومنهم كذلك الإمام الفراهي في كتابه: دلائل النظام، إذ عقد فيه فصلاً أسماه «عمود السورة إجمالاً» وهو يقوم على فكرة أن لكل سورة محوراً يجمع موضوعاتها، وألحقه بفصل أسماه «مطالب السور»، وقد بيّن فيه العلاقة بين موضوعات السورة ومحورها، ولكنه تناول عدداً محدوداً من السور^(٢).

ومن العلماء المعاصرين الذين كتبوا في هذا الموضوع الدكتور محمد حجازي في كتابه: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، إذ كان من مقرّرات كتابه أن السورة الواحدة وحدة كاملة، لها هدف واحد قد يستتبع أغراضاً مختلفة غالباً، وقد أثبت ذلك بتناوله سورتي النساء والمائدة بالدراسة التحليلية، ومنهم كذلك الدكتور رفعت فوزي في كتابه:

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن وتيسير المتّان بعض ما يشير إلى إعجاز القرآن، وكان ذلك منهجه في كل السور، والبقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، وكان ذلك منهجه في كل السور، وابن عاشور، التحرير والتنوير، وكان ذلك منهجه في بعض السور، وسيد قطب، في ظلال القرآن، وكان ذلك منهجه في بعض السور، إلا أنه امتاز بذكر الوحدة الموضوعية للسور، وأ. د مصطفى مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، وكان ذلك منهجهم في كل السور.

(٢) ينظر: الفيروزابادي، البيان بمقاصد القرآن، والفراهي، عبد الحميد، دلائل النظام، ص ٩١ - ١٠٥.

الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، فقد تناول فيه ثلاث عشرة سورة من القرآن لاستنباط الوحدة الموضوعية فيها، وهذه السور كلها مكية ما عدا سورة الأحزاب^(١).

وقد ذكرت عند الحديث عن جهود المفسرين في موضوع هذه الدراسة أن سيّد قطب كان أبرز من تناول في تفسيره في ظلال القرآن موضوع الوحدة الموضوعية للسور القرآنية، لكنه في كثير من السور لم يكن يبيّن أوجه العلاقة بين اسم السورة ووحدتها الموضوعية وموضوعاتها، في حين أنه أجاد جداً في السور التي بيّن فيها أوجه العلاقة بين اسم السورة ووحدتها الموضوعية كحديثه عن سورة الأعراف أو الأحزاب وغيرهما.

كانت هذه أبرز القضايا التي أردت إثباتها في مقدّمة الكتاب وفي تمهيده، وسأنتقل إلى الدراسة التطبيقية على جميع السور القرآنية، متّبعاً المنهج الذي أثبتته في المقدّمة، ومستعيناً بالله وطالباً منه التوفيق والسداد.



(١) ينظر: د. محمد محمود حجازي، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، ص ٤٢-٥٣، ١١٥-١٢٥، د. محمد رفعت، الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية.

سورة الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
 ② الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ
 وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ
 الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦ ﴿

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس رحمه الله: «الفاء والتاء والحاء: أصل صحيح يدلّ على خلاف الإغلاق»^(١)، وزاد الإمام الأصفهاني رحمه الله: «فاتحة كل شيء، مبدؤه الذي يُفتح به ما بعده، وبه سُمّي فاتحة الكتاب»^(٢)، وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى كونها أول سورة في القرآن، فهي كالمقدمة له والخلاصة لما فيه من أصول الإيمان التي فصلت السور الأخرى في تقريرها.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة تحوي كليات العقيدة الإسلامية، وكليات التصوّر الإسلامي، فهي تثبت استحقاق الله تعالى لجميع المحامد وصفات الكمال، واختصاصه بملك الدنيا والآخرة، واستحقاقه العبادة والاستعانة بالسؤال في المنّ بالتزام صراط الفائزين، فاسم السورة يشير إلى أنها تساعد على إزالة الحواجز بين الإنسان وتلقي الهدايا الربانية، ويشير إلى كونها مقدّمة القرآن ومفتاح مواضيعه وجامعة لأهمّ قضاياها^(٣).

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٨٣٤.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ٦٢١.

(٣) ينظر: البقاعي، نظم الدرر، ج ١، ص ١٢، وقطب، في ظلال القرآن، ج ١، ٢١-٢٦، ورضا، تفسير المنار، =

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: التعريف برَبِّنا مُنزل هذا الكتاب العظيم، فهو الرَّبُّ الرحمن الرحيم المالك، والتعريف بواجب العباد تجاه ربِّهم، وهو التوجه له وحده بالعبادة والاستعانة به للتوفيق إلى الصراط المستقيم. ولما كان تعريف هذه السورة بمنزل الكتاب وبواجب العبد تجاه ربِّه شاملاً لأصول الإيمان التي نزل القرآن لتقريرها، سميت بالفاتحة للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة التعريف برَبِّنا مُنزل هذا الكتاب، والتعريف بواجب عباده تجاهه سبحانه.

وبتأمل موضوعي السورة يبرز الترابط بينهما وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة لقسمين: أولهما: التعريف برَبِّنا مُنزل هذا الكتاب، وثانيهما: التعريف بواجب العباد تجاه ربِّهم^(١).

أولاً: جاء القسم الأول من السورة ليُعرّف الناس بمُنزل هذا الكتاب: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ ۝﴾، وافتتاحها باسم الله يدل على أنه تعالى هو الحق الذي يستمد منه كل موجود

= ج ١، ص ٢٨-٣٢، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ص ١٣١-١٣٢، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ١، ص ١٥، ١٦، والندوي، أبو الحسن، دراسات قرآنية، ص ١٢٧-١٣١، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٧، ود. محمد عناية الله سبحاني، البرهان في نظام القرآن في الفاتحة والبقرة وآل عمران، ص ٦٥، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ١٦-١٩.

(١) التعريف بمنزل الكتاب شملته الآيات: ١-٤، والتعريف بواجب العباد: ٥-٧، ومن لطائف هذه السورة أنها تميزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور تعرف بمنزل الكتاب: أ) فهي الوحيدة التي تكرر فيها ذكر الاسمين الجليلين ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، ثم هي الوحيدة التي يشكل فيها هذان الاسمان لوحدهما آية كاملة، ب) قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ذكر هنا فقط بهذا الإطلاق، بينما في سور أخرى كانت هذه العبارة جزءاً من الآية، إلا في سورة الصفات، فقد كانت هذه العبارة هي الآية الأخيرة منها، ولكنها متصلة بما قبلها من التسبيح والتنزيه لله تعالى، ج) قوله ﴿مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾ لم يذكر إلا هنا، وقريب منه في سورة آل عمران ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الدُّنْيَا﴾: ٢٦، ثانياً: ومنها أمور متعلقة ببيان واجب العبد تجاه خالقه: أ) فقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، ب) وكذلك قوله ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، ج) وقوله ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾. وينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

وجوده، ودالّ على اختصاصه تعالى بالإلهية، واختيار صفتي «الرحمن الرحيم» بالذكر مناسب جداً لسياق التعريف بهذا الخالق العظيم، لأنهما أكثر الصفات ترغيباً بالإيمان، ثم هما من أكثر الصفات تعلقاً بالخلق، بمعنى أنهما من أكثر الصفات تجلية في الخلق، وبيان أنه ربّ العالمين دالّ على توحيد الربوبية كما لا يخفى.

ثانياً: وبعد التعريف بمنزل هذا الكتاب، انتقل السياق إلى التعريف بما يجب على العباد تجاه خالقهم الذي أنزل عليهم هذا الكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فيما أنه تعالى وحده الإله والرّبّ للعالمين، ينبغي اختصاصه تعالى بالعبادة والاستعانة، ويطلب الهداية إلى الصراط المستقيم، وهي غاية كل مؤمن مؤمل بما عند الله من الثواب، وراهب مما عند الله من العقاب في يوم الدين، ولذلك يرجو من ربّه أن لا يخرج عن الصراط المستقيم، فيكون من المحرومين من الاستقامة لزيغهم عن الصراط المستقيم بتعمّد حتى استحقوا الغضب، أو بجهل حتى استحقوا الضلال.

وبتأمل هذين القسمين تجد أن السورة حوت خلاصة الدين الذي فصلته سور هذا الكتاب كما ذكر الأفاضل، ولذلك سمّيت بالفاتحة لكونها كالمقدمة لهذا القرآن، وفي ذلك أبلغ دلالة على المحور المذكور.



سورة الفاتحة

سورة التعريف بربنا مُنزل هذا الكتاب، والتعريف بواجب عباده تجاهه

القسم الأول: (الآيات ١-٤)

التعريف بربنا مُنزل هذا الكتاب:

- افتتحت السورة بـ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ مما يدلّ على اختصاصه تعالى بالإلهية.
- وبيان أنه: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، وأنه المستحقّ للحمد لأنه وحده ربّ العالمين، دالّ على اختصاصه تعالى بصفات الربوبية.
- وأعادت التأكيد على أنه: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ لأنهما أكثر الصفات ترغيباً بالإيمان، وأكثرها تعلقاً بالخلق، فرحمته سبقت غضبه.
- وبيان أنه: ﴿مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فيه تأكيد على اختصاصه تعالى بالإلهية والربوبية معاً.
- فالقسم الأول من السورة أثبت أن منزل هذا الكتاب هو الإله الربّ المالك والمدبّر لشؤون الخلق في الدنيا والآخرة.

القسم الثاني: (الآيات ٥-٧)

التعريف بواجب العباد تجاه ربهم:

- بعد بيان أن الله وحده إله العالمين وربهم، بيّنت السورة واجب العباد تجاه خالقهم، إذ ينبغي أن يَخْضُوه وحده بالعبادة والاستعانة وبطلب الهداية إلى الصراط المستقيم، وهي غاية كل مؤمن مُؤمِّل بما عند الله.
- ولذلك يتوجّه المؤمن إليه بالدعاء أن لا يخرجّه عن الصراط المستقيم حتى لا يكون من المغضوب عليهم ولا الضالين.

سورة البقرة

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَخِذْنَا هُزُؤًا
قَالَ أَعُودُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٧٥﴾ قَالُوا آدَعُ لَنَا رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا
هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصٌ وَلَا يَكَرُّ عَوَانٌ بَيْنَكَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا
مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا آدَعُ لَنَا رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا آدَعُ لَنَا رَيْكَ
يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ قَالَ
إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ
فِيهَا قَالُوا أَلَن تَن جَنَّتْ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ
نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٨٠﴾ فَقُلْنَا أَصْرَبُوهُ بَعْضُهَا
كَذَلِكَ يُخَيُّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٨١﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سميت هذه السورة الكريمة بـ «البقرة» لذكر قصة البقرة التي أمر بنو إسرائيل بذبحها،
حينما قُتلت منهم نفسٌ ولم يعلموا القاتل، فأمرهم الله بضرب القاتل ببعض البقرة المذبوحة
فيحيى ويخبر عن قاتله، ومن أبرز دلالات القصة بيان تنطع وتلكؤ وتردد بني إسرائيل في
تنفيذ هذا الأمر، إذ راجعوا نبيهم موسى عليه السلام فيه ثلاث مرات، قائلين في كل مرة:
«ادع لنا ربك»، بالإضافة إلى أن القصة تعرض مظهراً دالاً على قدرة الله على إحياء الموتى.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها،
فذكروا أن من مقاصد السورة الدعوة إلى الإيمان بالغيب، وبقدرة الله على البعث ليوم

الحساب، ومن مقاصدها إقامة الدليل على أن القرآن هدى يجب أن يتبع في كل ما جاء به، وذكروا أن الخطاب في السورة يمكن أن يقسم لقسمين: خطاب لبني إسرائيل أو متحدّث عنهم يبيّن موقفهم من استقبال الدعوة الإسلامية في المدينة المنورة، وخطاب للأمة المسلمة ذات النشأة الجديدة، يحوي أحكاماً يُعدها لحمل أمانة الخلافة في الأرض، وهما قسمان يجمعهما محور واحد: بيان منهج خلافة الله في الأرض بين مَنْ أضعوه ومَنْ أقاموه. وذكروا أن قصة البقرة هي أدلّ ما في السورة على هذا المحور^(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة: تربية الأمة الإسلامية وإعدادها لحمل أمانة الخلافة في الأرض، وبيان استحقاقها لهذا الشرف لالتزامها بالصفات التي ارتضاها الله لخلفائه في الأرض، والتي من أهمّها: الاستسلام لأوامر تعالى والمصارعة إلى طاعته، والذي يدعوهم لذلك إيمانهم بالغيب وبقدرة الله على البعث للحساب، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى بيان زوال شرف الخلافة عن بني إسرائيل بعدما تخلّوا عن الصفات التي تؤهلهم لذلك، وإنما اختير اسم «البقرة» لهذه السورة لأن سياق قصة البقرة مع التعقيب الإلهي عليها أدلّ ما في السورة على هذا المحور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان منهج خلافة الله في الأرض بين مَنْ أضعوه ومَنْ أقاموه.

وبتأمّل موضوعات السورة يظهر الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالات اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ستّة موضوعات: أولاً: مقدّمة تبيّن صفات الأمة الإسلامية المؤهلة للخلافة في الأرض، لالتزامهم بالمنهج الذي ارتضاه الله للخلافة،

(١) ينظر: المهايبي، تبصير الرحمن، ج ١، ص ٣١، والبقاعي، نظم الدرر، ج ١، ص ٢٤، وقطب، في ظلال القرآن، ج ١، ص ٢٨-٣٥ و ٧٧-٨٠، ورضا، تفسير المنار، ج ١، ص ٨٠-٩٢، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ص ٢٠١-٢٠٦، وأ.د. مسلم، وملاّوّه، التفسير الموضوعي، م ١، ص ١٩-٣٣، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ١١-١٣، د. محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ص ١٦٣-٢١١، ومحمد قطب، دراسات قرآنية، ص ٢٨٧، ود. محمد عناية الله، البرهان في نظام القرآن في الفاتحة والبقرة وآل عمران، ص ٤٣٠-٤٣٧، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ٧٣-٧٥، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور، ص ٢٠-٣٨.

وثانياً: بيان للعدو الخارجي الظاهر لأمة الإسلام وهم الكافرون، وللعدو الداخلي الخفي المخادع وهم المنافقون، وثالثاً: دعوة للناس للقيام بالمهمة التي خلقوا من أجلها، ألا وهي الخلافة في الأرض، وتأكيد ذلك بقصة آدم عليه السلام، ورابعاً: بيان لأسباب زوال شرف الخلافة عن بني إسرائيل مع تحذير للأمة الإسلامية من الوقوع في تلك الأسباب، وخامساً: توجيهات وأحكام للأمة الإسلامية تؤهلهم للخلافة في الأرض مع التحذير من التهاون بها، وسادساً: خاتمة تحوي تأكيداً لما سبق^(١).

أولاً: جاء في مقدمة السورة بيان للصفات التي ارتضاها الله عز وجل لخلفائه في

(١) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١-٥، وبيان العدو الخارجي والداخلي للأمة الإسلامية: ٦-٢٠، ودعوة الناس للقيام بواجب الخلافة: ٢١-٢٩، وقصة آدم عليه السلام المؤكدة لهذا الواجب: ٣٠-٣٩، وبيان أسباب زوال استحقاق الخلافة عن بني إسرائيل: ٤٠-١٤١، والتوجيهات والأحكام للأمة الإسلامية مع التحذير من التهاون بها: ١٤٢-٢٨٢، والخاتمة: ٢٨٣-٢٨٦. ومن لطائف هذه السورة أنها تميزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وهي أمور لم تذكر في سور أخرى، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة ببيان نكول بني إسرائيل السابقين والمعاصرين منهم للنبي ﷺ عن مؤهلات الخلافة في الأرض: فانظر مثلاً عن بني إسرائيل السابقين: (أ) التفصيل في طلبهم أطعمة تخرج من الأرض بدلاً من المَن والسلوى: ٦١، (ب) قوله تعالى عنهم ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾: ٧٤، وقريب منها في سورة الحديد: ١٦، (ج) التفصيل في عدم استجابتهم لميثاق تحريم سفك الدماء: ٨٤، ٨٥، (د) اتباعهم ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان: ١٠٢، (هـ) نكولهم عن طاعة طالوت إلا قليلاً منهم: ٢٤٦-٢٥١، وانظر مثلاً عن أهل الكتاب المعاصرين له ﷺ: (أ) قوله تعالى لهم ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِكُمْ﴾: ٤١، لم يذكر إلا هنا، (ب) وكذلك قولهم ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾: ١١١، (ج) وقوله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾: ١١٣، (د) وقوله ﴿وَلَنْ رَضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ بِلْتَمِهِمْ﴾: ١٢٠، ثانياً: ومنها أمور تؤكد استحقاق أمة النبي ﷺ للخلافة لالتزامهم بأحكام الله وإيمانهم بالآخرة: (أ) فهي أكثر سورة ذكرت فيها «الآخرة»، وذلك عشر مرات، وأكثر سورة ذكر فيها «اليوم الآخر» وذلك سبع مرات، وأكثر سورة ذكر فيها «الموت» وذلك خمس مرات، وبمراجعة سياقاتها جميعاً سيتبين لك أنها تؤكد إيمان المؤمنين بالآخرة، وقلة إيمان بني إسرائيل بها إن لم يكن منعداً، (ب) هي الوحيدة التي فصلت في موضوع القبلة لتمييز المسلمين المستخلفين في الأرض عن باقي الأمم: ١٤٢-١٥٠، (ج) والوحيدة التي ذكرت السعي بين الصفا والمررة: ١٥٨، وقد فصلت في بعض أحكام الحج: ١٩٦-٢٠٣، (د) وقد فصلت في موضوع القصاص والدية: ١٧٨-١٨٢، وذكر هذا إشارة في سورة المائدة: ٤٥، (هـ) وقد فصلت في موضوع صيام رمضان: ١٨٣-١٨٧، (و) وموضوع الطلاق والإرضاع: ٢٢٦-٢٤٢، (هـ) وفي موضوع النفقة وبيان فضلها: ٢٦١-٢٧٤، (ز) وتحريم الربا: ٢٧٥-٢٨٠، (ح) وانظر آية الدين: ٢٨٢. فطالما التزم المؤمنون بهذه الأحكام فهم المؤهلون للخلافة بعد نكول بني إسرائيل عنها. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

الأرض، وهي تمثل خلاصة المنهج المرتضى لخلافة الله في الأرض، وهي صفات اختص بها المؤمنون، وسرى أن هذه الصفات ذاتها أمر بها بنو إسرائيل ولم يلتزموا، فزال عنهم شرف الخلافة: ﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ۝ ٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ ٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ ٤ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ ٥﴾، ويلفت النظر أن السياق مدح المؤمنين بالغيب، ويبين أن من صفاتهم: إقامة الصلاة: وهي مظهر لعبادة الله بالغيب، والإنفاق: وهو مظهر يدل على إيمان المنفق بالأجر الغيبي الذي وعده ربه به، والإيمان بجميع الكتب المنزلة: وهو مظهر للإيمان بالغيب أيضاً؛ لأنهم لم يروا هذه الكتب وإنما آمنوا بها، لأن الله أخبرهم عنها، واليقين بالآخرة: وهي من أهم قواعد الدين الغيبية.

أقول هذا لأنه سيأتي بيان قلة إيمان بني إسرائيل بالغيب إن لم يكن منعداً، وقد كان هذا هو السبب الرئيس لزوال شرف الخلافة في الأرض عنهم. فأنت ترى أن هذه الأمور الجليلة التي أمر بها المؤمنون يدعوهم تقوى الله إلى الأخذ بها على محمل الجد والهمة، وسترى في قصة البقرة كيف كاد بنو إسرائيل ينكلون عن أمر إلهي يسير وهو ذبح بقرة، فلم يكن في قلوبهم شيء من التقوى يدعوهم للمبادرة بتنفيذه، بل على العكس ظنوا أن نبيهم عليه السلام يهزأ بهم، وتنظعوا في الأمر أي تنطع. ولا يخفى الترابط بين إحياء الله للقتيل في تلك القصة وبين الدعوة إلى الإيمان بالغيب واليقين بالآخرة في هذه المقدمة.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى أمر خطير في تربية الأمة الإسلامية الناشئة وإعدادها، ألا وهو تحديد أعداء هذه الأمة وكشفهم وفضحهم لأخذ الحذر منهم، فالعدو الأول ظاهر مجاهر بالعداوة وهم الكافرون: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٦﴾ حَتَّمُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ ٧﴾، فبعد هذه المفاصلة العقدية بيننا وبينهم، أصبح على الأمة الإسلامية إذا أخذ الحيطة والحذر منهم، حتى يبقوا مؤهلين لخلافة الأرض.

وأما العدو الثاني فهو عدو داخلي خطير ماكر مخادع: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمْ آخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾، ولاحظ كيف بيّن السياق أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فما الذي يحملهم على الأخذ بصفات المؤهلين للخلافة إذا؟ بل هم هجروا تلك الصفات واتبعوا سبيل الإفساد والضلال، فوجب على الأمة الإسلامية أخذ الحيطة والحذر منهم.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى دعوة الناس للقيام بالواجب الذي خلقوا من أجله، ألا وهو الخلافة في الأرض، وقد عرض السياق بعض الآيات الكونية الداعية إلى الالتزام بهذا الأمر، ثم أكد ذلك بقصة أبيهم آدم عليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾، فالواجب عليهم إذا أن يؤمنوا بالله ويتقوه، ولاحظ كيف بيّن السياق أن الله خلق المدعويين وأسلافهم، وفي ذلك بيان لقدرته على بعثهم للحساب كما خلقهم أول مرة.

وقد عرض السياق أمراً تربوياً آخر للمؤمنين، وهو أنهم يأخذون ما يأتيهم من ربهم مستسلمين للحكمة الإلهية فيه، ولا يدعوهم خفاء الحكمة من ذلك إلى الاستهزاء كما يفعل الكافرون: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُوا مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٦﴾﴾. فالؤمن المؤهل للخلافة في الأرض يتلقى الأمر الإلهي بالتسليم والتنفيذ، والكافر يدعو استهزؤه بهذا الأمر إلى ترك الطاعة واتباع سبيل الإفساد.

وانظر إلى قوله تعالى الداعي إلى الإيمان باليوم الآخر: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ ءَمُونًا فَأَخْبَعَكُمْ ثُمَّ يُبْسِتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾. وذكر اليوم الآخر متلائم مع قصة آدم عليه السلام، فآدم عليه السلام يمثل بداية خلق البشر، واليوم الآخر يمثل نهاية مصير البشر.

ويظهر في قصة آدم عليه السلام مع التعقيب عليها الصفات المؤهلة للخلافة في الأرض، فقد ركّز السياق في هذه القصة على ميزة آدم على الملائكة بالعلم الذي علّمه الله إياه، مع التحذير من العداوة الأزلية لإبليس: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ سَٰبِقُونَ سَبِّحُكَ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٥﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ٣٦ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ٣٧﴾ ، فقد حظي آدم عليه السلام بالعلم الذي يؤهله للخلافة في الأرض، ولاحظ التحذير من العدو الأول للبشرية: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ ٣٨﴾ وَقُلْنَا يٰٓآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّٰلِمِينَ ٣٩﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ٤٠﴾ ، فقد كانت هذه بداية قصة استخلاف البشر على الأرض، ولاحظ كيف جاء التعقيب داعياً إلى تلقي هدى الله بالتسليم التام، ومبيّناً قدرة الله على البعث والحساب: ﴿فَلَقَىٰ ءَادَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَةً فَتَبَّ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ الْتَوَابُ الرَّحِيمُ ٤١﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٤٢ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّآرِ هُمْ فِيهَا خٰلِدُونَ ٤٣﴾ . فأنت ترى أن السياق يدعو الأمة الإسلامية إلى التسليم لأوامر الله والمبادرة إلى تنفيذها، لأن هذا ما يبقئهم مؤهلين للخلافة، وسيأتي كيف زال هذا الشرف عن بني إسرائيل لتنطعهم وترددهم في أوامر الله، وقد كانت قصة البقرة أدل ما في السورة على ذلك.

رابعاً: ثم انتقل السياق إلى بيان أسباب زوال شرف الخلافة في الأرض عن بني إسرائيل، وأبرز هذه الأسباب هو عدم أخذهم الأوامر الإلهية على محمل الجد، واللافت للنظر أن السياق ابتدأ بفضحهم من الأصل، منذ زمن موسى عليه السلام، وكلما كان السياق يذكر نعمة أنعمها الله عليهم، كان يعقبها بذكر موقف مخزٍ لهم إزاء هذه النعمة، وستجد أن عصي التأديب الإلهي ما زالت تضرب ظهورهم منذ ذلك الوقت إلى زمن النبي ﷺ.

ابتدأ الحديث عن بني إسرائيل بأمرهم بذات الصفات المذكورة أول السورة، وهي الصفات المؤهلة للخلافة، لكنهم لم يلتزموا بها: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْ يُبْهِكُمْ وَإِنِّي فَازَهُبُونَ ﴿١١﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْرَوْا بِعَابَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتِقُونَ ﴿١٢﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ ﴿١٣﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿١٤﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٥﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ يَنْتُظُونَ أَتَهُمْ مُلْقَاؤُ رَبِّهِمْ وَأَنْتُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٧﴾﴾، فقد أمرهم السياق بالإيمان بجميع الكتب وبجميع الرسل الذين حُتُموا بسيّدنا محمد ﷺ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإحسان إلى الناس، والإيمان باليوم الآخر. وقد ذكر السياق هذه الصفات لبيان نكول بني إسرائيل عنها، فقد كانوا أول كافر بالنبي ﷺ وبالقرآن في المدينة المنورة.

ثم انتقل السياق إلى عرض نِعَمِ الله على أسلافهم، كيف كان موقفهم من هذه النعم، فقد كانت أول وأكبر نعمة عليهم: ﴿وَإِذْ بَخَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٢١﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٢٢﴾﴾، وقد أعقبها السياق بذكر أكبر معصية لهم: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٢٥﴾﴾. وعبادتهم العجل أمر دال على انعدام إيمانهم بالغيب، فهم يبادرون إلى عبادة إله يرونه بأعينهم، ويتركون عبادة الخالق سبحانه؛ لأنهم لا يرونه.

وهذه نعمة أخرى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٢٦﴾﴾، وفتح لهم باب التوبة من عبادة العجل فأمرهم بقتل أنفسهم وهو أحد أساليب التأديب الإلهي، وفي المقابل انظر إلى هذا الموقف: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ إِلَٰهَ جَهَنَّمَ فَاَخْذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٨﴾﴾، وطلبهم رؤية الله جهرة دال على انعدام إيمانهم بالغيب كما لا يخفى، ولاحظ ذكر قدرة الله على الإحياء بعد الإماتة.

وبعد أن ذكر السياق نعمة تظليلهم بالغمام، وإنزال المَنَّ والسُلَى، عرض السياق

موقفهم المخزي إزاء أمر الله لهم بدخول القرية: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَنْقُضُونَ ﴿٥٩﴾﴾، ولاحظ ذكر التأديب الإلهي حينما أنزل عليهم الرجز.

وبعدما عرض السياق نعمة تفجر الماء من الحجر باستسقاء موسى عليه السلام، عرض موقفهم المشين حينما فَضَّلُوا على نعمة المَنِّ والسلوى التي تأتيهم من الغيب، فَضَّلُوا قائمة من الأطعمة يريدون رؤيتها تخرج من الأرض بأعينهم. وانظر إلى هذا الأمر الإلهي بأخذ أوامر الله على محمل الجد والحزم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾، وانظر ماذا كان موقفهم: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾، وذكرهم السياق بأحد أساليب التأديب الإلهي حينما خالفوا أمره في يوم السبت: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ جَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

إن عدم إيمانهم بالغيب حرمهم من الوفاء بالعهود والمواثيق بينهم وبين الله تعالى، وهون عليهم الاستخفاف بالأوامر الإلهية والنكول عنها، مما أدى إلى زوال شرف الخلافة في الأرض عنهم.

وانتقل السياق إلى قصة البقرة، وأعتقد أنها تحوي أحد عجائب الأسلوب المعجز للقصص القرآني، فقد قَدَّمَ السياق ذكر أمرهم بذبح البقرة على موضوع القتل، واللافت للنظر أن السياق ابتدأ القصة بهذه العبارة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ وأعتقد أن المقصود من تصدير القصة بهذه العبارة بيان سهولة ويسر هذا الأمر الذي أمروا به، فكل ما هو مطلوب ذبح بقرة، ثم عرض السياق كيفية تنطعهم وترددهم في الأمر البسيط، وكأن السياق يقول: إذا كان بنو إسرائيل ترددوا وتنطعوا وأعادوا سؤال نبيهم حول هذا الأمر اليسير ثلاث مرات، كيف سيكونون مؤهلين لشرف الخلافة الكبرى في الأرض وما تستلزمه هذه الخلافة من الصفات الجليلة، وفي رأيي أن هذا الملحظ كان أحد أسباب تسمية السورة بهذه القصة:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَخَذْنَاهُ زُحُوتًا قَالِ أَعُودُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُنْهَلِكِينَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَذْعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا أَذْعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا شَسْرٌ تَطْطِرُ ﴿٧٩﴾ قَالُوا أَذْعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٨٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا آلَتَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨١﴾﴾، ولاحظ أولاً: كيف ظنوا بنييهم سوءاً فقالوا بوقاحة: أنتخذنا هزواً؟ ولاحظ ثانياً: سؤالهم الوقح ثلاث مرات: أذعُ لَنَا رَبُّكَ؟ وكأنَّ الله تعالى ربُّ موسى عليه السلام فقط وهم لا يعترفون به، ولاحظ ثالثاً: التماذي في التنطع والتلکؤ والتردد فقد سألوا عن صفاتها ولونها أيضاً، ولاحظ رابعاً: قوله تعالى ﴿فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾...

إن هذا القسم من القصة يؤكد ما سبق من أخذهم الأوامر الإلهية حتى لو كانت يسيرة على محمل الهزء والاستخفاف، وما ذلك إلا لانعدام إيمانهم بالغيب، وفي ذلك تربية للأمة الإسلامية المأمورة بالتسليم لهدي الله والمبادرة إلى تنفيذه، حتى لو خفيت عليهم الحكمة منه كما مرَّ عند آية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا...﴾ [البقرة: ٢٦].

أما القسم الثاني المتمم للقصة، فنجد فيه بيان قدرة الله على إحياء هذا القليل، وفي ذلك إشارة لقدرة تعالى على البعث والحساب: ﴿وَإِذْ قُلْنَا نَفْسًا فَادْرَأْهَا فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٨٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَرُبُّكُمْ ءَايَتُهُ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، إن عرض قدرة الله تعالى على الإحياء أمام أعينهم فيه أجلُّ موعظة لهم، لأنهم لو كانوا يوقنون باليوم الآخر وما فيه من الحساب لما توانوا عن تنفيذ أوامر الله تعالى، وفي ذلك تربية للمؤمنين الذين يدفعهم إيمانهم بالغيب ويقينهم بالآخرة إلى المبادرة إلى تنفيذ أوامر الله واجتناب نواهيه.

ولقد عقب السياق على القصة ببيان قساوة قلوب بني إسرائيل التي تزيد على قساوة الحجارة، وما ذاك إلا لضعف إيمانهم إن لم يكن قد انعدم.

وبعد هذه القصة التي ختم بها فضح أسلافهم، انتقل السياق إلى فضح بني إسرائيل

المعاصرين للنبي ﷺ، ولبيان أنهم ما زالوا على نفس العقيدة والشاكلة، فكان لا بد من التحذير منهم: ﴿أَنْظِمُوا أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضْفِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾، فهم يمتنعون عن الإيمان ببعثة النبي ﷺ مع علمهم بصدقه؛ حسداً من عند أنفسهم.

وقد عرض السياق جهل عوامهم، وكذب وافتراء علمائهم بتحريفهم الكتاب، وانظر ضعف إيمانهم وجهلهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَنْتَاهَا تَفْهُوتُ﴾ قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾.

وهم ما زالوا يعرضون عن أوامر الله بدل الالتزام بها: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِالْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٨٢).

وانظر كيف يمتنعون عن الإيمان بالقرآن مع علمهم بصدقه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَأْمِنُوا بِمَا نُنَزِّلُ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُوا بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيََاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٩١) ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٩٢) فهم يدعون ظاهراً الإيمان بكتاب موسى والحقيقة إن أعمالهم تدل على غير ذلك، فهل تأمرهم التوراة بقتل الأنبياء وعبادة العجل؟!

ولقد بين السياق السبب الأكبر لتصرفاتهم هذه، وهو أنهم قوم ماديون وإيمانهم بالغيب وبالأخرة قليل أو منعدم: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَنَجْذِئَهُمْ أَجْرَهُمُ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِي أَشْرَكُوا بَدِئَهُمُ لَوْ يَمَسُّهُمُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُخْرِجِهِمْ مِّنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾.

ومن تصرفاتهم المخزية التي حدَّثنا السياق بها: عداوتهم للملائكة وخصوصاً جبريل عليه السلام، وتفضيلهم اتباع ما تتلوه الشياطين من السحر والكذب على كتاب ربهم، وقلة

أدبهم مع النبي ﷺ حتى أمر المؤمنون بالحذر من الوقوع بذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَفُولُوا أَنْظَرْنَا وَأَسْمِعُوا لَوْلَا رَأَيْنَاكَ كَذَّابًا أَلَيْسَ ۖ﴾.

وفي خلال سياق فضح هؤلاء اليهود المعاصرين تجد السياق يذكر المؤمنين بالصفات المذكورة أول السورة ويدعوهم للالتزام بها، وأن لا يقعوا بما وقع به هؤلاء، فقد أمرهم بالتسليم للحكمة المرادة من النسخ، وأن لا يكون ذلك باباً للشك: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلُهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ﴾، وانظر هذا التحذير: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ ءِلَّا يُبَنِىٰ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۖ﴾، وانظر هذا الأمر الذي يذكر بالصفات المذكورة أول السورة: ﴿وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَّحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۖ﴾.

ولم يقتصر السياق على التحذير من اليهود فقط، بل حذر أيضاً من النصارى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ؕ قَالَ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۖ﴾، وانظر قوله تعالى: ﴿وَلَنْ رَّضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۖ﴾، فموقف اليهود والنصارى من الأمة الإسلامية المؤهلة للخلافة في الأرض واحد.

فأنت ترى أن السياق يركّز على بيان أسباب زوال شرف الخلافة عن أهل الكتاب بعدما غيروا وبدّلوا، وقد كان الدافع لهم على ذلك انعدام إيمانهم بالغيب وبالآخرة، وبأمر المؤمنين بالثبات على الصفات التي ارتضاها الله لخلفائه في الأرض، والذي يدفعهم لذلك إيمانهم بالغيب وبقينهم بالآخرة، وهذا محور قد دلّت عليه قصة البقرة مع التعقيب الإلهي عليها أبلغ الدلالة.

ثم انتقل السياق إلى عرض قصة إبراهيم عليه السلام، وتجد فيها استسلامه التام لأوامر الله تعالى، وأن من يستحقّون الانتساب إليه هم فقط من التزم بالصفات المؤهلة للخلافة: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ؕ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ؕ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ

عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٢٦﴾ ، وانظر هذا القول لسيدنا إبراهيم : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَفِي سَآئِرِ الْمُصِيدِ ﴿٢٢٧﴾ ولاحظ قوله : ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ، وهذا متناسب مع الصفات المذكورة أول السورة، وانظر هذه الدعوة منه عليه السلام الدالة على اختصاص الأمة الإسلامية بالانتماء له : ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ دُرَيْتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَارِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٢٩﴾ ، وانظر كيف كان إبراهيم عليه السلام مستسلماً لأمر ربه، وموصياً أولاده بذلك : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِِّ الظَّالِمِينَ ﴿٢٣٠﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَىٰ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٢٣١﴾ . فالسياق يعرض هذه القصة ليبين للمؤمنين أن الاستسلام لأوامر الله هي صفة الأنبياء، فعليهم الالتزام بها ولا يנקلوا عنها كما صنع بنو إسرائيل .

ثم عقب السياق بالرّد على اليهود والنصارى الزاعمين زوراً وكذباً انتماءهم الديني لإبراهيم عليه السلام، ومبيناً أن الأمة الإسلامية هم فقط من نال هذا الشرف : ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢٣٢﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَمْ مُسْلِمُونَ ﴿٢٣٣﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ لَوْلَا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ نَسِيَكَ اللَّهُ وَهُوَ السَّعِيجُ الْعَكِيمُ ﴿٢٣٤﴾ ، وانظر قوله تعالى : ﴿أَمْرٌ لِّقَوْلِهِمْ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَرَأَيْتُمْ لَكُمْ شُرَكَاءُ شَهِدَتْ عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٣٥﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَفِلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

خامساً : وبعد أن فضحت السورة بني إسرائيل وبيّنت أن من أهم أسباب زوال شرف الخلافة عنهم إنما هو عدم إيمانهم بالغيب الذي دفعهم إلى عدم استسلامهم لأوامر الله، انتقل السياق إلى ذكر عدد من الأوامر والتوجيهات للأمة الإسلامية أمراً إياهم بالالتزام بها وأخذها على محمل التسليم والجدّ والهمة، فكان أول أمر الالتزام بتحويل القبلة إلى البيت

الحرام، بلا التفات إلى عدم تسليم السفهاء - وهم اليهود - لهذا الأمر الإلهي؛ لأنهم لم يدركوا الحكمة المرادة منه: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١٧٧﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَلَكُمْ إِنَّكَ اللَّهُ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ١٧٨ .

فقد امتازت الأمة الإسلامية بقبولتها التي ارتضاها الله لها، بينما أراد اليهود أن يبقى المسلمون تابعين لهم في استقبال بيت المقدس، ومعلوم أن ذكر الصلاة متناسق مع الصفات المذكورة أول السورة للمؤهلين لخلافة الأرض، ثم إن الصلاة من أبرز مظاهر عبادة الله بالغيب وإن لم يره المؤمنون.

وأعاد السياق تذكير المؤمنين بالصفات التي ارتضاها لهم، من ضمنها اليقين باليوم الآخر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ١٥٦﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَعْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ١٥٧﴾ وَلَتَبْلُوَنَّهُمْ بَشَاءً مِّنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ١٥٨﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ١٥٩﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَخِرُونَ ١٦٠﴾ ، وهذه الآيات تبين أن الابتلاء سنة الاصطفاء، وترتبي المؤمنين على الصبر والثبات، وأن لا يهنوا ولا يضعفوا، فهم على الحق.

ومن الأوامر والتوجيهات للأمة الإسلامية أيضاً: عدم التحرج من السعي بين الصفا والمروة، والتحذير من الشرك، ومن اتباع خطوات العدو الأزلي للبشرية - أعني الشيطان - والتزام ما أحل الله من الطعام، واجتناب ما حرمه، ومن الأوامر التي تحفظ المجتمع أيضاً القصاص في القتل: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧١﴾ ، وحفظ الوصية، وبيان أحكام الصيام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ ، ومقاتلة أعداء الله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونََكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ١٩١﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفَّنْتُمُوهُمْ وَآخِرُهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُوهُمْ وَالْفَنَاءُ

وقد أسهم القصص القرآني أيضاً في بيان أهم أسباب زوال الخلافة عن بني إسرائيل، فمن ذلك خوفهم من الموت لقلّة إيمانهم بالآخرة وعدم استعدادهم لها: ﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، وانظر هذه القصة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى آلِ الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لِهْمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

بِالْقَلِيلِ ﴿٤٣﴾، وهم مع ذلك جادلوا نبيهم في أن يكون طالوت ملكاً عليهم، وخالفوا أمره وشربوا من النهر، وجبنوا عن القتال إلا فئة قليلة منهم. . وفي ذلك تربية لأمة الإسلام على التسليم لأوامر الله والأخذ بها على محمل الجد والهمة والعزيمة.

وقد بين السياق للمؤمنين عظمة الله عز وجل الذي ارتضاهم خلفاء في الأرض، وذلك يدعوهم إلى الالتزام بأوامره: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤٤﴾،

ولاحظ وصف الله عز وجل بالحي القيوم، فهو لا يموت وقائم على أعمال العباد وقادر على بعثهم يوم القيامة لمجازاتهم عليها، وهذا متناسق مع جو السياق الدال على قدرة الله على البعث من ناحية، ومن ناحية أخرى متناسق مع أمر المؤمنين باليقين بالآخرة في أول السورة، ومن ناحية ثالثة متناسق مع القصص التي تدل على قدرة الله على الخلق والبعث، كما جاء في قصة آدم عليه السلام، وكما سيأتي في باقي القصص.

وليكتمل التناسق عرض السياق قصصاً أخرى دالة على قدرة الله على البعث والحساب، فانظر إلى قصة إبراهيم الأولى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾، وانظر هذه القصة: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴿٥٩﴾﴾ [بعض الآية: ٢٥٩]، وانظر إلى القصة الثانية لإبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَظْمَنَ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

وبعد ذلك كله انظر إلى هذا الأمر للأمة الإسلامية في أواخر السورة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾. فأنت ترى أن السياق السورة يربي المؤمنين على الالتزام بأوامر الله والثبات على الصفات التي ارتضاها لهم والتي

أهمها: اليقين بالآخرة، وذلك متناسق مع قصة البقرة مع التعقيب عليها اللذين أفادا زوال هذه الصفات عن بني إسرائيل مع رؤيتهم قدرة الله على البعث عياناً.

سادساً: بقيت الخاتمة التي تجد فيها إعادة التذكير بعظمة الله تعالى الذي ارتضى الأمة الإسلامية خلفاء في الأرض، وأعاد تذكيرهم بالصفات التي تبقيههم مؤهلين للخلافة: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٨٨﴾.

﴿إِذْ أَمَرَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّوهُ بَيْنَ أَيْدِي مَنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ١٨٩﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ١٩٠﴾.

والمتمامل في هذه الآيات يظهر له جلياً تناسقها مع مفتتح السورة الذي أمر المؤمنين بالصفات ذاتها، وكان المؤمنين التزموا بالصفات التي ذكرها الله أول السورة والتي تمثل المنهج المرتضى لخلافة الأرض، حتى عرضت الخاتمة موقفهم المعلن عن إيمانهم بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله، معتمدين على إيمانهم بالغيب وبقينهم بالآخرة، فهم قد فهموا الغاية المقصودة من هذه السورة، والتزموا بمنهج الله أفضل التزام، فاستحقوا بكل جدارة أن يكونوا هم فقط المؤهلين لخلافة الله في الأرض، بعد زوال هذا الشرف عن بني إسرائيل، وبذلك يلتقي البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسمها أبلغ الدلالة.



سورة البقرة

سورة بيان منهج خلافة الله في الأرض بين مَنْ أضعوه ومن أقاموه

الموضوع الأول: (الآيات ١-٥)

المقدمة التي تبين صفات المستحقين لخلافة الله في الأرض، لالتزامهم بالمنهج الذي ارتضاه الله للخلافة:

- افتتحت السورة ببيان صفاتهم، فهم الذين يؤمنون بالقرآن ويتبعون هداه.
- وهم يؤمنون بالغيب ويطيعون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون، فهم يقيمون تعاليم دينهم.
- وهم يؤمنون بما أنزل على النبي ﷺ وما أنزل من قبله من الكتب، وبالأخرة هم يوقنون.
- ومدحتهم المقدمة حين بينت أنهم على هدى من ربهم وأنهم المفلحون.

الموضوع الثاني: (الآيات ٦-٢٠)

بيان «العدو الخارجي» لأمة الإسلام المؤهلة للخلافة في الأرض. وهم الكافرون. و«العدو الداخلي» وهم المنافقون:

- بعد بيان صفات المستحقين للخلافة عند الله في الأرض، انتقل السياق إلى تحذيرهم من عدوهم الخارجي وهم الكافرون: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.
- ثم حذرهم من عدوهم الداخلي وهم المنافقون: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَإِلَّا يَتَوَّبُ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وبيّن صفاتهم، فهم يخادعون الله والذين آمنوا، وهم في قلوبهم مرض، وإذا قيل لهم: لا تفسدوا في الأرض قالوا: إنما نحن مصلحون، وبيّن أنهم اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين.
- إن تحذير أمة الإسلام المؤهلة للخلافة في الأرض فيه تربية وإعداد لهم لأخذ الحيطة والحذر من الأعداء الذين يريدون إخراجهم من مظلة الخلافة عن الله في الأرض.

الموضوع الثالث: الآيات: (٣٩-٢١)

دعوة الناس للقيام بالمهمة التي خلقوا من أجلها وهي خلافة الأرض وفق المنهج الرباني:

■ بعد بيان صفات المؤهلين للخلافة في الأرض وبعد تحذيرهم من أعدائهم، انتقل السياق إلى دعوة الناس للقيام بواجبهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ فهم مأمورون بعبادة خالقهم.

■ وهم مأمورون باتباع هدى الله دون أن يجدوا منه حرجاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

■ وهم مأمورون بالإيمان باليوم الآخر: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَتُونَا فَاحْتَكُمُ ثُمَّ يُبَيِّنُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

■ وقد عرض السياق قصة آدم عليه السلام وفيها بيان أن الله علمه الأسماء كلها ليجعله مؤهلاً للخلافة في الأرض.

■ وقد بينت القصة العداوة الأزلية بين إبليس وبين آدم عليه السلام وبنيه، إذ يداوم إبليس على إخراج الناس عن منهج الله في خلافة الأرض.

■ إن دعوة الناس للقيام بواجبهم مع تحذيرهم من عدوهم الأزلي فيه أبلغ تمهيد لما سيأتي من بيان نكول بني إسرائيل عن الخلافة عن الله في الأرض.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٤٠-١٤١)

بيان أسباب زوال شرف الخلافة عن بني إسرائيل القدامى منهم والمعاصرين للنبي ﷺ، مع تحذير لأمة الإسلام من الوقوع في تلك الأسباب:

■ ابتدأ السياق ببيان أن الله قد أمرهم بالوفاء بعهد الله، لكنهم كانوا ينقضون عهد الله في كل مرة، فقد أمرهم بالإيمان بالقرآن المصدق لما معهم، وأن لا يكونوا أول كافر به، لكنهم كانوا أول كافر به.

■ وأمرهم بالصلاة والزكاة لكنهم لم يلتزموا بها. ثم فصل السياق في عرض أسباب نكول بني إسرائيل القدامى عن الخلافة في الأرض، فقد كانوا يقابلون نعم الله عليهم بالكفران والتكذيب والاستهزاء.

■ فقد نجاهم الله من آل فرعون ثم واعد موسى لينزل عليه الهدى، فإذا بهم يعبدون العجل في غيابه.

■ ومما يدل على عدم إيمانهم بالغيب أنهم قالوا: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾.

■ وقد أمروا بدخول القرية سجداً فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم.

■ وقد أخذ الله عليهم الميثاق بأخذ ما آتاهم من الهدى بقوة ورفع فوقهم الطور تهديداً لهم، ثم تولوا من بعد ذلك.

■ وقد أمرهم نبينهم بذبح بقرة، وهو أمر سهل يسير، فراجعوه في هذا الأمر ثلاث مرات، حتى ذبحوها وما كادوا يفعلون.

■ وقد أحيا الله القليل أمام أعينهم ليكون ذلك آية على بعثهم وحسابهم، لكن إيمانهم بالآخرة كان منعماً.

■ ثم انتقل السياق إلى بيان أسباب نكول بني إسرائيل المعاصرين للنبي ﷺ عن شرف الخلافة في الأرض، فهم ما زالوا على شاكلة أسلافهم يحرفون الكلم من بعد ما عقلوه.

■ ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِضُنُفُهُمْ إِلَّا بِبَغِيٍّ قَالُوا لَوْ أَنَّهُمْ يَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُم لِيُخَاجِبَكُمْ بِهِ﴾.

■ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَزُومُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَنُكَفِّرُكُ بِمَا وَرَاءَهُ﴾.

■ وهم لضعف إيمانهم بالغيب يودّ أحدهم لو يُعمّر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر، وقد اتخذوا جبريل عليه السلام عدواً.

■ وقد بيّن السياق أن النصراني أيضاً قد زال عنهم شرف الخلافة كما زال عن اليهود: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَانِي عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَانِي لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾.

■ بيّنت قصة إبراهيم أنه كان موحداً مسلماً لله تعالى داعياً إياه أن يبعث في ذريته رسولاً منهم، وقد كان سيدنا محمد ﷺ هو جواب الدعوة.

■ وقد أمر السياق بني إسرائيل أن يؤمنوا بما أنزل على أنبيائهم وما أنزل على النبي ﷺ لكنهم آمنوا بما أنزل عليهم وكفروا بما وراءه.

■ بيّنت السورة أن يعقوب عليه السلام حال احتضاره أوصى بنيه بعبادة الله وحده، وعدم الشرك به، وأن الله اصطفى لهم الدين فلا يموتن إلا وهم مسلمون، وفي هذا أبلغ ردّ على بني إسرائيل الذين كفروا وكذبوا بالنبي ﷺ وما أنزل عليه من القرآن.

■ كل هذه الأسباب تبين نكول بني إسرائيل عن شرف الخلافة عن الله في الأرض، وتحذّر المؤمنين من الوقوع فيها لثلا يزول هذا الشرف عنهم أيضاً.

الموضوع الخامس: (الآيات: ١٤٢-٢٨٢)

توجيهات وأحكام لأمة الإسلام الذين اصطفاهم الله لخلافة الأرض، مع التحذير من التهاون بها:

■ بعد بيان نكول شرف الخلافة عن بني إسرائيل لعدم التزامهم بأوامر الله، انتقل السياق إلى أمر المؤمنين بأحكام تمثل المنهج الذي ارتضاه لخلافة الأرض.

■ فقد ميّزت سورة البقرة أمة الإسلام عن باقي الأمم بالتوجه في الصلاة إلى الكعبة، وهو البيت الذي بناه أبو الأنبياء، دون الالتفات إلى اعتراض السفهاء من بني إسرائيل.

■ أمرهم بالسياق بالاستعانة بالصبر والصلاة، وبين لهم كثيراً من الأحكام وأمرهم بأخذها مأخذ الجد في التطبيق، حتى لا يكونوا كبنِي إسرائيل الذين استهانوا بأحكام الله ونكلوا عنها.

■ فقد أمرهم بالقصاص في القتلى، وبحفظ الوصية وبصيام رمضان كما كُتِبَ على الذين من قبلهم، وأمرهم بمجاهدة أعداء الله بلا جبن ولا نكول.

■ وفَصَّلَ في أحكام الحج والعمرة، وبين أحكام الطلاق وفَصَّلَ في أحكام الدِّين.

■ وقد بيَّن السياق أن الذي يدفع أمة الإسلام إلى الالتزام بأحكام الله هو إيمانهم بالغيب وبقينهم بالآخرة التي فيها الثواب والعقاب.

■ أسهم القصص القرآني المعروف في هذه السورة في تقرير حقيقة قدرة الله على البعث والجزاء، ليرسخ في قلوب المؤمنين هذه الحقيقة فيلتزموا بأحكام الله على أكمل وجه.

■ كما ترى في قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم، وكما ترى في قصة إبراهيم مع الذي ادعى أنه يحيي ويميت، وكما في قصته مع الطيور الأربعة التي أحيها الله، وكما في قصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها.

■ بعد ذلك كله أمر السياق المؤمنين بالاستعداد ليوم الحساب الذي يوقنون به، ليلتزموا بأحكام الله، ويبقوا مؤهلين لخلافة الأرض.

الموضوع السادس: (الآيات: ٢٨٣-٢٨٦)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

- أعادت التذكير بعظمة الله الخالق الذي له ما في السماوات والأرض، والذي ارتضى الأمة الإسلامية خلفاء في الأرض.
- بيّنت التزام أمة الإسلام بالصفات المذكورة أول السورة، فهم آمنوا بالله ورسوله ﷺ وملائكته وكتبه ورساله جميعاً، لا يفرقون بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا.
- في هذا تعريض ببني إسرائيل الذين آمنوا بما أنزل إليهم وكفروا بما وراءه من الرسل والكتب، وعادوا الملائكة، وقالوا سمعنا وعصينا، حتى زال عنهم شرف الخلافة في الأرض.
- وبيّنت الخاتمة أن أمة الإسلام مؤمنة بالغيب موقنة بالآخرة، وهم مبتهلون إلى ربهم ويدعون أن يبقئهم تحت ظلّ شرف الخلافة عنه في الأرض، وبذلك التقى البدء والختم في هذه السورة على المحور المذكور.

سورة آل عمران

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾
ذُرِّيَّتَهُ بِعَصَاهُ مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي
نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سميت هذه السورة الكريمة باسم «آل عمران» لورود ذكر اصطفائهم على العالمين فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾، وقد فصل السياق في ذكر قصة آل عمران من البداية على نحو لا تجده في سورة أخرى، ليكون في ذلك أبلغ ردّ وأوضح حجة على أهل الكتاب المغالين في شأن عيسى وأمه عليهما السلام، فاسم السورة دالّ على اصطفاء الله لأهل التوحيد والصلاح.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن المقصد الأول لهذه السورة هو إثبات الوحدانية لله عز وجل، وقد سميت بآل عمران؛ لأن فيها ذكر اصطفاء آل عمران على نحو لم ينزل في سورة غيرها مثله، وقد جعل الله هذا الاصطفاء دليلاً على اصطفاء أمة محمد ﷺ، وقد كشفت السورة عما التبس على أهل الكتابين في شأن عيسى عليه السلام، فالسورة تبين معالم الاصطفاء ومعارجه وهي: البذل والعطاء لله والاستسلام له، وتلقي كل ما يأتي منه بالقبول والطاعة، والتبذل والدعاء له، والتوحيد والإخلاص له سبحانه، وقد ذكرت أيضاً أموراً معينة على هذا الاصطفاء، مثل: العلم، وموالاته المؤمنين والتحذير من موالاته غيرهم والتهوين من شأن الكافرين مع هذا التحذير، وحب الآخرة، وهذه كلها أمور مبثوثة في السورة بشكل واضح^(١).

(١) ينظر: الفيروزآبادي، البيان بمقاصد سور القرآن، ص ٣٩، المهامي، تبصير الرحمن، ج ١، ص ١٠١، =

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان اصطفاء الله لأمة النبي ﷺ أمة التوحيد الخالص من خلال بيان اصطفاء الله لآل عمران، ومعالجة ما نتج عن موقف الناس تجاه اصطفاء أمة التوحيد من حقد، إن كان على صعيد أهل الكتاب، أو على صعيد المشركين. وإنما اختير اسم «آل عمران» لأن في بيان اصطفائهم على العالمين تبرئة لأكثر شخصية أثيرت حولها فرية الشرك، أعني عيسى ابن مريم عليه السلام. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان الاصطفاء الخاص لآل عمران والاصطفاء العام لأمة الإسلام، وما نتج عنه من مواقف الأمم الأخرى.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين دلالات اسم السورة «آل عمران» وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة موضوعات كبيرة: مقدّمة تبين اصطفاء أمة التوحيد وموقف الكافرين من ذلك، ثم معالجة معركة أمة التوحيد المصطفاة مع أهل الكتاب، ثم معالجة معركة أمة التوحيد المصطفاة مع المشركين، ثم خاتمة مؤكدة لما سبق^(١).

= والباقعي، نظم الدرر، ج ٢، ص ٣، وقطب، في ظلال القرآن، ج ١، ص ٣٥٧، ٣٥٨، ورضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ج ٣، ص ١٠٨، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣، ص ١٤٣، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ص ٢٧، ود. محمد عناية الله، البرهان في نظام القرآن في الفاتحة والبقرة وآل عمران، ص ٦٣٥ - ٦٣٩، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن، ص ٣٥-٤٧.

(١) مقدمة السورة شملت الآيات: ١ - ١٨، ومعركة أمة التوحيد مع أهل الكتاب: ١٩ - ١١٥، والمعركة مع المشركين: ١١٦ - ١٧٨، والخاتمة: ١٧٩ - ٢٠٠. ومن لطائف هذه السورة أنها تميزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور دالة على اصطفاء أمة التوحيد: (أ) فهي الوحيدة التي تكرر فيها ذكر «الإسلام»: ﴿إِنَّ الْذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾: ١٩، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾: ٨٥، وهما عبارتان لم تتكررا في القرآن، (ب) هي مع سورة البقرة الوحيدتان اللتان تكررت فيهما مشتقات الجذر «اصطفى»: آل عمران: ٣٣، ٤٢ (مرتين)، والبقرة: ١٣٠، ١٣٢، ٢٤٧، ولكن آل عمران تميزت بأنها الوحيدة التي ذكر فيها الجذر «محصى» الدال على الاصطفاء: ﴿وَلِيُخَيِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: ١٤١، ﴿وَلِيُخَيِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾: ١٥٤، (ج) قوله ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾: ٣١، ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، (د) وكذلك قوله ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾: ١١٠، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بمعالجة موقف أهل الكتاب: (أ) فقوله تعالى ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: ٢٠، ذكر هنا فقط، (ب) وكذلك قوله ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ

أولاً: جاءت المقدمة تقرّر وحدانية الله عز وجل وتبين اصطفاء الأمة الإسلامية الموحدة، وهو خير افتتاح؛ لأنه يبرز الحقيقة التي من أجلها اصطفى الله أمة التوحيد: ﴿الْمَ ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝﴾، وأعتقد أن ذكر قدرة الله عز وجل بعد ذلك على تصوير الناس في الأرحام كيف يشاء، ملائم لما بينته السورة حين الكلام عن آل عمران من خلق عيسى عليه السلام في رحم أمه بلا أب، واستجابة دعوة زكريا عليه السلام حينما رزقه الله بيهيى وقد كان قد بلغ من الكبر عتياً، وامراته عاقر.

ولاحظ اصطفاء أمة النبي ﷺ الموحدة بالكتاب، واصطفاء أهل العلم الراسخين منهم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَمَّا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۝﴾.

وقد بينت المقدمة موقف الكافرين من أمة التوحيد المصطفاة وهونت من شأنهم، من خلال الإشارة إلى موقعة بدر الكبرى التي أيد الله بها المؤمنين بنصره: ﴿قُلْ لِلَّهِ كَفَرُوا سَقَطُوا وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسَّرَ الْمُهَادُ ۝ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخَرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ۝﴾.

ثم انتقل السياق إلى بيان أن الاصطفاء في ميزان الله مختلف عن ميزان البشر، فليس للشهوات المختلفة من النساء وحب البنين والمال اعتبار عند الله، إنما الاصطفاء في ميزانه تعالى يكون بالتقوى والعمل الصالح: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ

= يَبْنَوت وَيَبْنَوت إِلَّا تَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ ۝ ٦٤، وكذلك قوله ﴿أَفَعَدَّ دِينُ اللَّهِ يَبْغُوتَ ۝ ٨٣، ثالثاً: ومنها أمور متعلقة بمعالجة موقف الكافرين والتهوين من شأنهم: أ) قوله تعالى ﴿قُلْ لِلَّهِ كَفَرُوا سَقَطُوا وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۝﴾: ذكر هنا فقط بهذه الصيغة: ١٢، وقريب منها في سورة الأنفال: ٣٦، ب) وقوله ﴿وَيَمَحُ الْكُفْرِيَتَ ۝﴾: ١٤١ ذكر هنا فقط، ج) وكذلك قوله ﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ۝﴾ متع قِيلَ ثُمَّ مَارَبَهُمْ جَهَنَّمَ ۝: ١٩٦، ١٩٧. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

الْمَقْنَطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿٧﴾ قُلْ أُوْتِيتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِيَلْزِمَنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتُكَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَنْزَجُ مَطَهَّرَةً وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٨﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَعْمَانَا فَافْغِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٩﴾ الْفَكْرَيْنِ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَفْزِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٠﴾ .

ولاحظ كيف قرّر السياق حقيقة التوحيد بأبلغ العبارات وأكثرها صدقاً: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٧﴾ .

فأنت تلاحظ أن السياق في المقدمة يركّز على بيان اصطفاء الأمة الإسلامية الموحدة بقيادة المصطفى ﷺ، وموقف الكافرين الحاقدين من ذلك، مع تحديد أسباب ذلك الاصطفاء، وفي ذلك إعداد للمؤمنين الموحدين لبدء المعركة العقديّة مع أهل الكتاب.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى بيان موقف أهل الكتاب من أمة التوحيد المصطفاة، فبيّنت حسدهم وحقدهم، وخروجهم من ظل الاصطفاء الرباني بعدما كفروا بآيات الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْسِنَةٌ وَمَا اٰخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَنِيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ إِلَهَهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٨﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَكَدُوا فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ . ولاحظ كيف أعاد السياق تقرير حقيقة أن الدين المصطفى عند الله هو الإسلام وحده فقط، وأن ما دفع أهل الكتاب لأخذ موقف معادٍ من أمة التوحيد إنما هو حسدهم وحقدهم.

ثم انتقل السياق إلى بيان أن الاصطفاء أمر بيد الله وحده، بعدما بيّن في المقدمة أسباب الاصطفاء في ميزانه تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٢﴾﴾ ، وذلك ملائم لتوجيه عدد من التوجيهات للأمة المصطفاة عند الله، فقد حذّرتهم من موالاته

الكافرين وبيان أن ليس بيدهم من الأمر شيء: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّهُ وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ٧٨﴾.

وأمرتهم بطاعة القائد المصطفى ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ٣٢﴾.

وذلك تهيئة لما سيذكره السياق من استئصال فرية الشرك والتحريف العقدي عند أهل الكتاب من الجذور.

ثم ابتدأ السياق بعرض قصة عيسى عليه السلام من أصلها، ليكون في ذلك أشد البيان والوضوح على سبب اصطفاء آل عمران على العالمين، ومن ناحية أخرى في ذلك أبلغ رد على أهل الكتاب المغالين في عقيدتهم: فبين السياق أن أم مريم (امرأة عمران) كانت مؤمنة بالله، متبلة إليه أن يحفظ ذريتها من الشيطان الرجيم، فاستجاب الله دعاءها وبيّن أنها جديرة بالاصطفاء الرباني بسبب إيمانها وتبثلها، وكافأها بأن كفّل ابنتها نبياً كريماً: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ إِنِّي نَبِّئُكَ بِمَا لَمْ يَحْكُمُ الْأَوَّلُونَ وَإِنِّي أَنبِئُكَ بِمَا لَمْ يَنبِئُ الْأَوَّلُونَ وَإِنِّي أَنبِئُكَ بِمَا لَمْ يَنبِئُ الْأَوَّلُونَ ٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾ إِذْ قَالَتْ أَمْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُكَ إِنِّي لِلَّهِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٧﴾.

وقد كان من الملائم جداً ذكر اصطفاء زكريا وابنه يحيى عليه السلام، وذلك للتشابه الواضح بين خلق عيسى عليه السلام بلا أب، وإكرام زكريا عليه السلام بيحيى مع كونه كبيراً في السن وامرأته عاقر: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ٣٩﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي عُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ٤٠﴾.

ثم انتقل السياق إلى بيان اصطفاء مريم عليها السلام بمعجزة عظيمة من الله ، وقد أمرها الله بما يؤهلها لذلك الاصطفاء : ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُكَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ٤١﴾ يَمْرُؤُكَ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ٤٢ ذَلِكِ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمْنَاهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ٤٣ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُكَ إِنَّ اللَّهَ ابْتِخَرَكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ٤٤﴾ ، فلاحظ أولاً كيف قرّر السياق أن مريم عليها السلام كانت طاهرة صالحة عابدة قانتة لربها عز وجل ، وفي ذلك ردّ لأيّ فرية قد تخطر في البال حول ما سيأتي عن ذكر عيسى عليه السلام ، ولاحظ ثانياً بيان أن النبي ﷺ لم يكن حاضراً وقتئذٍ وأن ذلك من أنباء الغيب يوحيها الله إليه ، ليكون في ذلك تلقين لأمة التوحيد المصطفاة حجة الدفاع عن مبدأ التوحيد المستفاد من هذه القصة .

ثم انتقل السياق إلى عرض أهمّ حدث في القصة ، وهو ما يتعلق بعيسى عليه السلام ، وبيان أنه ليس إلا عبداً من عباد الله ، اصطفاه الله وعلمه الكتاب والحكمة ، وجعله رسولاً إلى بني إسرائيل : ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُنْزِلُ الْمَوْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ٥١﴾ ، وتتمّة لما يتعلق بموضوع عيسى وتبرئته من تهمة الشرك ، عرض السياق كيف أنجاه الله من كيد الماكرين : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ٥٢﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقُوبَ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ٥٣﴾ ، ولا يخفى ما في ذلك من رد فرية شبهة حول عيسى عليه السلام فيما يتعلق بموضوع قتله أو صلبه .

وبعد أن فصّل السياق في الأسباب الحقيقية لاصطفاء آل عمران ، عاد السياق لتلقين الحجة لأمة التوحيد المصطفاة ضدّ شبهات أهل الكتاب : ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ

﴿١٧﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿١٨﴾ ، وانظر قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّاهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَقْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٩﴾ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ ، فالسورة تدعوهم إلى الدخول في مظلة الاصطفاء الرباني، فيكونوا من أهل التوحيد، ولكنهم تولَّوا، وأمة التوحيد أعلنت استسلامها لله عز وجل، وبقيت تحت مظلة الاصطفاء الرباني.

وردد السياق شبهات كثيرة من أهل الكتاب تجاه أمة التوحيد، كالفريات المتعلقة بإبراهيم عليه السلام، فبيّن السياق أن إبراهيم عليه السلام لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين، وأن أولى الناس به إنما هم أمة التوحيد بقيادة المصطفى ﷺ: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ ، وبيّن السياق سبب خروج أهل الكتاب من مظلة الاصطفاء الرباني: فهم يكفرون بآيات الله، ويلبسون الحق بالباطل، ويشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، ويلوون ألسنتهم بالكتاب، وانظر إلى قوله تعالى الذي حكم منذ الأزل باصطفاء النبي المصطفى ﷺ ودين الإسلام، وبيّن موقف الناس من ذلك: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ آلِ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا أَتَيْنَهُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحَمَلِهِ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْعُوثُ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ ، وانظر قوله تعالى المؤكّد لهذه الحقيقة: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ .

وقبل الانتقال إلى الجبهة الأخرى من المعركة - أعني موقف المشركين تجاه أمة التوحيد - أمرت السورة المؤمنين بعدد من الأوامر لتهيئتهم لخوض تلك المعركة: فأمرتهم بالنفقة في سبيل الله، وأداء العبادات كالحج، وتحريم موالاة الكافرين من أهل الكتاب، وتقوى الله حقّ تقاته، والاعتصام بدينه الذي اصطفاه لهم وعدم التفرّق، والأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر، وبيان خطورة المنافقين، كل ذلك مصحوب بتهوين شأن الكافرين وبيان أسباب خروجهم عن مظلة الاصطفاء الرباني، وانظر هذه الآية: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٣﴾﴾. فأنت تلاحظ أن دلالات اسم السورة «آل عمران» وما يعبر عنه من بيان الأسباب التي اصطفاهم بها على العالمين، مترابط أشد الترابط مع بيان صفات الأمة الموحدة المصطفاة، ومع التحذير من موقف أهل الكتاب المغالين في عقيدتهم مغالاة أخرجتهم من مظلة الاصطفاء الرباني.

ثالثاً: ثم انتقلت السورة إلى بيان موقف المشركين من أمة التوحيد المصطفاة، وذلك من خلال عرض مواقف من غزوة أحد، مع التعقيب عليها بتوجيهات تبقي المؤمنين في مظلة الاصطفاء الرباني، وأول توجيه تراه أن السياق سمى الانسحاب من المعركة فشلاً: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾، ومن ذلك أيضاً بيان معية الله في المعركة للمتقين الصابرين: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَ رَبُّكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ أَلَمِ الْيَوْمِ الَّذِي مَزَلْتُمْ فِيهِ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُبَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ أَيَّامٍ مِنْ أَلَمِ الْيَوْمِ الَّذِي مَزَلْتُمْ فِيهِ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِنُظْمِيقَ قُلُوبِكُمْ بِهِ وَمَا الْتَصَرُّ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٣﴾﴾. ومن العجيب أن السورة في سياق الحديث عن المعركة ذكرت تحريم الربا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٢٤﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٢٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٢٦﴾﴾، وتناسب ذلك فيما أرى واضح، فكيف ينتصر في المعركة من يأكل الربا وقد أعلن الله الحرب على آكل الربا في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ زُورٌ ءَمُولُكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

ومن التوجيهات المذكورة لأمة التوحيد المصطفاة أيضاً: الإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ والعفو عن الناس، والتوبة من الذنوب وعدم الإصرار عليها.

ولاحظ كيف يرفع السياق الروح المعنوية والنفسية لدى المؤمنين، بعدما ما أصابهم من الفرح في معركة أحد، مُبْتَدَأً أن الله ناصرهم إذا تحقق فيهم الإيمان: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٥) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ تُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٣٦) .

ولاحظ أيضاً كيف ذكر السياق أن الابتلاء سُنَّةُ الاصطفاء: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٣٦) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَلِكِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ (١٣٧) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَتُّونَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٣٨) . ولاحظ أيضاً كيف يثبت السياق المؤمنين ببيان حال الذين اصطفاهم الله في الأمم السابقة: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ (١٣٩) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٠) فَكَانَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤١) .

ومن التوجيهات المذكورة في سياق الحديث عن معركة أحد أيضاً التحذير من موالة الكافرين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٢) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٤٣) ، والتحذير من كيد المنافقين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّئُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٤٤) ، والثقة بنصر الله والثقة بالقائد المصطفى ﷺ: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٤٥) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا غُلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٤٦) ، والتحذير من كيد الشيطان: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٤٧) . وغير ذلك من التوجيهات الكثيرة التي تبقي المؤمنين في ظل الاصطفاء الرباني، كما اصطفى آل عمران الذين سميت السورة باسمهم .

رابعاً: بقيت الخاتمة وفيها تلخيص لكل ما سبق، فقررت أن الابتلاء لأجل الاصطفاء سُنَّةُ إلهية ماضية إلى يوم الدين: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ

مِنَ الظَّهْرِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَاتَّبِعُوا بِاللَّهِ وَرُسُلَهُ وَإِن تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧١﴾ ، وانظر قوله تعالى المحذّر من كيد أهل الكتاب والمشرّكين الحاسدين لما أكرمنا الله به من الاصطفاء: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِن عَزَمِ الْأُمُورِ ﴿١٧٢﴾﴾ .

وأعاد التحذير من الموقف المعادي لأهل الكتاب، الذين أخرجهم كفرهم ومغالاتهم العقديّة من مظلة الاصطفاء الرباني: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٧٣﴾﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٧٤﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِرَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧٥﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٧٦﴾ ، وانظر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَكُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُذِلَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ .

وأكدت أن الابتلاء سنة الاصطفاء: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنَ بَعْضٍ فَأَلَّيْنِ هَاجِرُوا وَأُخْرِجُوا مِّن دِينِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقَتِلُوا لَا تُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا تُدْخِلْنَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٧٨﴾﴾ .

وهوّنت من شأن الكافرين المعادين: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴿١٧٩﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ إِلَهَادٌ ﴿١٨٠﴾﴾ . وختمت السورة بآية جامعة تبقي من يلتزم بما فيها تحت مظلة الاصطفاء الرباني: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبُرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨١﴾﴾ ، وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة، كونه أدلّ ما في السورة على سُنَّةِ الله في اصطفاء أهل التوحيد والدفاع عنهم ضدّ المعادين والمغالين، فكان بحقّ قميناً وحقيقاً بأن تسمّى السورة به .

سورة آل عمران: سورة بيان الاصطفاء الخاص لآل عمران والاصطفاء العام لأمة الإسلام وموقف الأمم الأخرى من ذلك

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٨)

المقدمة التي تبين اصطفاء أمة التوحيد وتعرض بإيجاز موقف الكافرين من ذلك:

- افتتحت السورة ببيان أن الله خصَّ أمة التوحيد بالكتاب الخالد: ﴿رَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.
- ويؤيد ذلك أيضاً قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكُمُ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾.
- هَوَّنت المقدمة من شأن الكافرين المعادين لأمة التوحيد المصطفاة: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ كَغُرُوغٍ سَعْتُهُمْ وَتَحْزَنُونَ إِلَّا جَهَنَّمَ وَيَنصَرُّونَ إِلَيْهَا﴾، وقد ذكرتهم بهزيمتهم في بدر.
- وبيّنت أن معيار الاصطفاء عند الله ليس بالشهوات والمال والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة بل بالتقوى والعمل الصالح.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٩-١١٥)

معالجة معركة أمة التوحيد المصطفاة مع أهل الكتاب.

- بعد بيان اصطفاء الله لأمة التوحيد، انتقل السياق إلى التفصيل في عرض موقف الأمم من ذلك فابتدأ بأهل الكتاب وبيّن أن الذي أخرجهم من مظلة الاصطفاء الرباني إنما هو حسدهم وبغيهم وكفرهم بآيات الله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا إِلَّا كِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَيِّنُهُمْ﴾.
- حذّر السياق المؤمنين من موالاتهم: ﴿لَا يَتَّبِعُوا الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.
- وأمر المؤمنين بطاعة القائد المصطفى ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.
- عرض قصة اصطفاء آل عمران من الأصل، وفي ذلك ردّ على أيّ فرية متعلّق بمريم وعيسى عليهما السلام.
- بيّنت القصة أن امرأة عمران كانت عابدة متبلة له أن يحفظ ابنتها وذريتها من الشيطان الرجيم.
- وبيّنت أن الله اصطفى مريم بمعجزة عظيمة تكريماً لها فحملت بعيسى عليه السلام بلا زوج.
- وقد اصطفاه الله وجعله رسولاً إلى بني إسرائيل مؤيداً بالمعجزات الباهرات، وفي ذلك ردّ لأيّ فرية حوله وحول أمه: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ①﴾.
- ثم لفت السياق أمة التوحيد الحجة ضد فريات أهل الكتاب: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَآبَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.
- وقد ردّ السياق كثيراً من فريات أهل الكتاب المتعلقة بإبراهيم عليه السلام، ببيان أنه كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١١٦-١٧٨)

معالجة معركة أمة التوحيد مع المشركين:

■ ثم انتقل السياق لمعالجة موقف المشركين من أمة التوحيد المصطفاة، فعرض بعض أحداث معركة أحد مع توجيهات عدة تُبقي المؤمنين في مظلة الاصطفاء الرباني.

■ فقد سمى السياق الانسحاب من المعركة فشلاً، وبين معية الله في المعركة للمتقين الصابرين: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

■ وقد حرم السياق الربا في وسط الكلام عن المعركة لأن أكل الربا قد أعلن الله عليه الحرب فلا يمكن أن ينتصر.

■ وقد رفع الروح المعنوية والنفسية للمؤمنين: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٧﴾﴾، وحذر من موالاة الكافرين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فِرْقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

■ وقد أمرهم بالثقة بالله وينصر الله: ﴿إِنْ يَصْرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، وحذرهم من كيد الشيطان: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُم وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات ١٧٩-٢٠٠)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت تقرير أن الاصطفاء سُنة إلهية ماضية إلى يوم الدين: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.

■ وأعادت التحذير من الموقف المعادي لأهل الكتاب: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا لَأَنَّا نُؤْمِنَ بِرُسُولِهِ حَتَّىٰ يَأْتِيَآ بِفِرْيَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ الْبَيْتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

■ وقد أعادت التهوين من شأن الكافرين المعادين: ﴿لَا يَرْزُقُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴿١٢١﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيُسَّ إِلَهُآءُ ﴿١٢٢﴾﴾.

■ وكما افتتحت السورة ببيان اصطفاء الله لأمة التوحيد، ختمت بآية جامعة مانعة تبقي من التزم بها تحت مظلة الاصطفاء الرباني: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

سورة النساء

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّكُمْ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِسُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثًى وَتِلْكَ وَرِيعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَقَ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ نَحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴿٤﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى بيانها لكثير من الأحكام الخاصة بالنساء، وهي أحكام شاملة للناحية الاجتماعية كأحكام اليتامى من النساء، وأحكام الزواج والطلاق وبيان اللواتي يحلّ للرجل الزواج منهنّ واللواتي يحرمن، كما وأن هذه الأحكام شملت الناحية المالية أيضاً، فقد فصلت في أحكام الميراث، وجعلت للنساء نصيباً مفروضاً منه، وبيّنت بعض أحكام المهر، ففي تسمية السورة بهنّ حثٌّ على إيتائهنّ حقوقهنّ التي كتب الله لهنّ، وهي حقوق كان يلحقها الجور في الجاهلية إن لم تكن معدومة أصلاً، فقد كانت النساء أكثر الفئات استضعافاً في الجاهلية، فجاء الإسلام وجعل لهنّ سورة خاصة باسمهنّ؛ لإنصافهنّ.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن السورة تعرض لموضوع النساء كرمز للمستضعفين، وتدعو إلى نصرة المستضعفين كاليتمى وحفظ حقوقهنّ، فالسورة تركّز على القضايا ذات الأثر الهامّ في البناء المجتمعي، ولذلك أمرت بالاستقرار الداخلي القائم على الأسرة، والاستقرار الخارجي

بحفظ شخصية الأمة، فهي تمحو من المجتمع الإسلامي ملامح المجتمع الجاهلي، وتعرفه بأعدائه الراصدين حوله والتمتعين فيه، فحرمت أكل حقوق الأيتام، والجور على الضعاف والنساء، وأبدلت هذه الملامح بمعالم المنهج الرباني الداعي إلى الإنصاف والإصلاح لهذه الفئات المستضعفة، وأكثر هذه الفئات افتقاراً لهذا النساء، ولذلك سميت السورة بهن^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الالتزام بما جاء في شرع الله من الإحسان والعدل داخل المجتمع المؤمن لاسيما الفئات المستضعفة، مع التحذير من العدو الداخلي المتمثل بالمنافقين، والخارجي المتمثل بأهل الكتاب والمشركين، لحقدهم على الهدى الرباني الذي حظي به المؤمنون، ولما كانت النساء هي الفئة الأكثر استضعافاً، سميت السورة بهنّ للدعوة إلى الإحسان والعدل إليهنّ. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة الدعوة إلى إقامة الإحسان والعدل داخل المجتمع المؤمن لاسيما المستضعفين، مع التحذير من حقد الأعداء في الداخل والخارج.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام، أولها: مقدّمة تدعو إلى تقوى الله والإحسان وإيتاء الفئات المستضعفة في المجتمع حقوقها، ثانياً: التفصيل في عرض بعض الأحكام المالية والاجتماعية الخاصة بالنساء، وثالثاً: الدعوة إلى تحقيق العدل والإحسان في داخل المجتمع المؤمن لاسيما النساء، مع التحذير من العدو الداخلي والخارجي، رابعاً: الخاتمة المؤكّدة لما سبق^(٢).

(١) المهامي، تبصير الرحمن، ج ١، ١٣٨، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٢، ص ٢٠٤، ٢٠٥، وقطب، في ظلال القرآن، ج ١، ص ٥٥٤-٥٧١، ورضا، تفسير المنار، ج ٦، ص ٨٢-٨٤، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٤، ص ٢١٢-٢١٤، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٢، ص ٢، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٤٧، ود. حجازي، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، ص ٤٢-٥٣، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٤٨-٥٥، وأ.د. إبراهيم خليفة، اسم السورة يمثل روحها العام، ص ١٨-٣٥.

(٢) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١-١٠، وبيان أحكام النساء: ١١-٣٥، والدعوة إلى الإحسان مع التحذير من العدو: ٣٦-١٦٢، والخاتمة: ١٦٣-١٧٦. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة بالله تعالى تدعو إلى الإحسان وتحذر من =

أولاً: جاء في مقدّمة السورة دعوة إلى تقوى الله تعالى، والإحسان إلى الفئات

= (الإساءة، أ) فهي أكثر سورة ذكرت فيها عبارة (وكفى بالله...) وإليك التفصيل: قوله تعالى ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ حَيِيًّا﴾ لم يتكرر إلا في هذه السورة: ٦، ٨٦، ولم يذكر مرة أخرى إلا في سورة الأحزاب: ٣٩، وقوله ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ لم يتكرر إلا هنا أيضاً: ٧٩، ١٦٦، وقد ذكر في سور أخرى ولكن مرة في كل سورة، وهي أكثر سورة تكرر فيها قوله ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾: ٨١، ١٣٢، ١٧١، وقد ذكرت في سورة الأحزاب مرتين: ٣، ٤٨، والإساءة مرة: ٦٥، وقوله ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكُنْ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾: ٤٥، لم يتكرر في القرآن بهذه الصيغة، وانظر قريباً منه في سورة الفرقان: ٣١، وقوله ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ عَلِيماً﴾: ٧٠ لم يتكرر كذلك، (ب) ثانياً: هي أكثر سورة ذكرت فيها عبارة ﴿وَكَانَ اللَّهُ...﴾ وإليك بعض التفصيل: فقوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ذكر هنا سبع مرات: ٢٣، ٩٦، ١٠٠، ١٠٦، ١١٠، ١٢٩، ١٥٢، والثامنة: ٢٥ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وتبعها سورة البقرة إذ ذكرت هذه العبارة فيها سبع مرات، وقوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيمًا﴾ ذكر هنا سبع مرات: ١١، ١٧، ٢٤، ٩٢، ١٠٤، ١١١، ١٧٠، والثامنة: ٢٦ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وتبعها سورة التوبة إذ ذكرت فيها هذه العبارة ست مرات، وقوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِينًا﴾ لم يذكر إلا هنا: ٨٥، وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾: ١ ذكر هنا وفي سورة الأحزاب: ٥٢، بصيغة قريبة، وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ ذكر هنا: ٣٤، وفي سور أربع: الحج: ٦٢، ولقمان: ٣٠، وسبأ: ٢٣، وغافر: ١٢، بصيغة الرفع لا النصب، ووصف الله بكونه ﴿تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ تكرر في ثلاث سورة فقط، هنا: ١٦، ٦٤، والبقرة: ٣٧، ٥٤، ١٢٨، ١٦٠، والتوبة: ١٠٤، ١١٨، (ج) بإمكانك أن تضيف أنها السورة الوحيدة التي تكررت فيها العبارة ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ قَتِيلًا﴾: ٤٩، ٧٧ ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾، ولم تذكر هذه العبارة مرة أخرى إلا في سورة الإسراء: ٧١ ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾، ثانياً: ومنها أمور تدعو المجتمع المسلم إلى الإحسان والعدل، (أ) هي أكثر سورة تكررت فيها كلمة «اليتامى»: ٢، ٣، ٦، ٨، ١٠، ٣٦، وتبعها سورة البقرة بأربع مرات، (ب) هي الوحيدة التي تكررت فيها كلمة «التوبة»: ١٧، ١٨، ٩٢، (ج) هي الوحيدة التي ذكرت فيها كلمة «السفهاء» وأريد بها المعنى الحقيقي كونهم فئة مستضعفة لخفة عقولهم: ٥، (د) والوحيدة التي تكررت فيها كلمة «المستضعفين»: ٧٥، ٩٧، ٩٨ (وهذه عن الرجال والنساء)، ١٢٧ (عن الولدان)، (هـ) والوحيدة التي فيها قوله ﴿وَلَيَحْشُرَنَّ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُ ضَعْفًا﴾: ٩، وقريب منه في سورة البقرة: ٢٦٦، وقوله ﴿وَيَخْلُقُ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾: ٢٨، (و) هي وسورة الأنعام أكثر سورتين ذكر فيهما مشتقات الفعل «وَضَى» العائد على الله، في النساء ثلاث مرات: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾: ١١، ﴿وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ﴾: ١٢، ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ...﴾: ١٣١، وفي الأنعام ثلاث أيضاً: ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، والرابعة في سياق النفي ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْنَاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا﴾: ١٤٤، (ز) هي وسورة البقرة الوحيدتان اللتان تكرر فيهما فعل الأمر «آتُوا»، في النساء ثلاث مرات: ٢ (عن اليتامى)، ٤ (عن النساء)، ٧٧ (عن الزكاة)، وفي البقرة ثلاث أيضاً: ٤٣، ٨٣، ١١٠ (كلها عن الزكاة)، (ح) هي وسورة النحل أكثر سورتين تكرر فيهما كلمة «حسنة»، وذلك أربع مرات في كل واحدة: ٤٠، ٧٨، ٧٩، ٨٥، وفي النحل: ٣٠، ٤١، ١٢٢، ١٢٥، (ط) هي إحدى السور الخمس التي تكررت فيها كلمة «أحسن» بصيغة أفعال التفضيل: ٥٩، ٨٦، ١٢٥، وثلاث مرات في كل من السور: النحل، الإسراء، العنكبوت، الزمر، (ي) هي إحدى السور الثلاث التي تكرر فيها المصدر «إحسان»: ٣٦، ٦٢، وفي البقرة: ٨٣ و ١٧٨، ٢٢٩، والرحمن: ٦٠ (مرتين)، (ك) هي الوحيدة التي تكرر فيها الفعل «تعدلوا»: ٣، ١٢٩ (عن النساء)، ١٣٥ (عن المجتمع)، كما أن قوله ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ الْاَنَاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾: ٥٨ لم يتكرر بالصيغة ذاتها، =

المستضعفة في المجمع بشكل موجز: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدِلُوا الْفَيْثَ بِالْطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِسُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَىٰ وَتِلْكَ وَرِيعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ ۖ أَلَّا تَعْلَمُوا ۝٣﴾ ، وافتتاح السورة بالدعوة إلى تقوى الله خير مفتتح ، لأنه إذا تحقّق التقوى في المجتمع سيتحقّق ما ينشأ عنه من الإحسان والعدل ، ولاحظ بيان فضل النساء ، إذ لولا هنّ لما وجد النسل البشري ، وهذا متلائم مع اسم السورة ، وداعٍ إلى الإحسان إليهنّ ، وقد ذكرت المقدّمة اليتامى من النساء لكونهنّ أشدّ فئات المجتمع استضعافاً ، ولاحظ الأمر بالإحسان والعدل لليتامى بإيتائهم حقوقهم .

ثم أمرت المقدّمة بحفظ حقوق السفهاء كونهم فئة مستضعفة لخفة عقولهم ، وأمرت بإيتاء اليتيم ماله بمجرد إيناس الرشد منه ، وأمرت بالإحسان لمن يحضر قسمة مال المتوفّى من أولي القربى واليتامى والمساكين ، وحذّرت من الإساءة وعدم الالتزام بالإحسان والعدل ، مذكرة بخوف الإنسان على ذريته الضعيفة بعد موته .

فالمقدّمة كما ترى تدعو إلى الإحسان والعدل بشكل موجز قبل التفصيل ، مع التركيز على النساء ؛ كونهنّ أضعف فئات المجتمع .

ثانياً : ثم انتقل السياق إلى التفصيل في عرض بعض الأحكام المتعلقة بالنساء ، وكلها أحكام تدعو إلى الإحسان والعدل ، وقد ابتدأ السياق بالأحكام المالية الخاصة بهنّ ، لكونها أكثر الحقوق عرضة للإساءة والحرمان ، ففصّل السياق في موضوع الميراث ، وحدّد أصحاب الفروض من الرجال والنساء بقدر لا مجال للزيادة أو النقصان فيه ، وراعى في ذلك مختلف الحالات كموت الزوج أو الزوجة أو الأب . . . وختم ذلك بقوله محذراً من

= وقريب منه في سورة الشورى : ١٥ ، ثالثاً : ومنها أمور تحذّر من العذر الداخلي والخارجي : فقوله ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ : ٤٥ ، لم يتكرر بالصيغة ذاتها ، وكذلك قوله ﴿إِنَّ الْكُفْرَيْنَ كَأَنَّهُ لَكُؤٌ مُّشِيكٌ﴾ : ١٠١ ، وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ : ١٤٠ ، وقوله ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ : ١٤١ . ينظر للمراجعة : عبد الباقي ، المعجم المفهرس .

الإساءة: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْقَوْزُ الْأَعْلَى ۝١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝١٤﴾.

ثم انتقل السياق إلى بيان الأحكام الاجتماعية المتعلقة بعلاقة الرجال مع النساء، فحذر من الفاحشة وأمر بحبس من تثبت عليهنّ الفاحشة بالبيوت، وأمر بإيذاء اللذين يأتيانها من الرجال. وعقب ذلك بالحث على المسارعة إلى التوبة.

وأمر السياق بالإحسان والعدل إلى النساء في المعاشرة بالمعروف، حتى لو كرههنّ الرجال، فعسى أن يكره الرجال شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً، وبين للرجال عدم جواز أخذ شيء من المهر بعد الطلاق، وحرّم عليهم ما نكح آبائهم من قبل، وفصل في بيان المحرّمات من النساء على الرجال، وبين أن الرجال قوامون على النساء بما فضلهم الله من قوّة الجسم والقدرة على مشاقّ العمل ولإنفاقهم عليهنّ، وبين حكم المرأة الناشز وأمر زوجها بالوعظ، ثم الهجر في المضجع، ثم الضرب دون أن يبغى عليها سبيلاً، فإن الله كان علياً كبيراً، وإن لم يُجد ذلك نفعاً فيُلجأ للتحكيم. ومن اللافت أن السياق حذر من الأعداء الذين يحسدون المجتمع المؤمن على ما حظوا به من الهدى الرباني: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢١﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ۝٢٢﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلُقَ الْإِنْسَانِ ضَعِيفًا ۝٢٣﴾. وهذا يؤكد المحور المذكور.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى الدعوة لتحقيق الإحسان والعدل في المجتمع الإيماني، لاسيّما في الفئات المستضعفة فيه ومنها النساء، مع التحذير من المنافقين وهم العدو الداخلي، وأهل الكتاب والمشرّكين وهم العدو الخارجي، وبيان حقدهم على الهدى الرباني الذي حظي به المؤمنون: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝٣٦﴾، والأمر بالتوحيد هو رأس الدين، ولاحظ الأمر بالإحسان للوالدين وذوي القربى وغيرهم مما يحقق التكافل الاجتماعي.

ثم حذر السياق من البخل والبخلاء، ومن الذين ينفقون أموالهم رياء الناس، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وهؤلاء هم المنافقون، وقد بين السياق مصيرهم إذ سيؤدون يوم القيامة لو تسوى بهم الأرض ولا يكتُمون الله حديثاً، وقد أمر السياق المؤمنين بالإحسان في أداء العبادة، فنهتهم عن الصلاة وهم سكارى - قبل تحريم الخمر - وأمرهم بالاغتسال من الجنابة، وبيّن حكم التيمم.

ثم انتقل السياق إلى التحذير من العدو الخارجي الحاقد الحاسد: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ۝٤٥﴾، فهم يحسدوننا على ما منَّ الله علينا من الإحسان والعدل، وقد بين السياق أنهم كانوا قد أمروا بذلك ولكنهم حرّفوا الكلم عن مواضعه، حتى استحقوا اللعن من الله.

ثم عاد السياق إلى أمر المؤمنين بالإحسان والعدل، فأمرهم بأداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بين الناس بالعدل، وانظر هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٤٦﴾، فطاعة أولي الأمر إذا أمروا بالمعروف أبرز مظاهر الإحسان والعدل.

ومن الآيات المحذرة من المنافقين قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ۝٤٧﴾، وإنما أمروا بتحكيم الرسول ﷺ لكونه حكماً بالإحسان والعدل.

ثم انتقل السياق إلى بيان بعض أحكام القتال، وهي أحكام متعلقة بالإحسان والعدل أيضاً: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ وَمَا لَكُمُ لَا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ۝٧٩﴾، فعلى المؤمن أن يقاتل لنصرة المستضعفين من إخوانه المؤمنين رجالاً ونساءً، وقد حذر السياق من المنافقين المتقاعسين عن القتال والمتصلين منه والمخالفين لأحكام الله فيه، ومن الأحكام التي فصل فيها السياق حكم المعاهدين

وأصحاب الهدنة، فقد أمر السياق بعدم قتالهم طالما حفظوا عهودهم، وهذا من الإحسان والعدل حتى مع الأعداء.

وبمناسبة الحديث عن القتال، بيّن السياق حكم من يقتل أخاه المؤمن متعمداً، فجزاؤه جهنم خالداً فيها، وبيّن السياق حكم القاتل أخاه المؤمن خطأ، وحرّم السياق على المقاتلين قتل مَنْ يُلقِي السلام من الناس دون بيّنة، وانظر هذه الآيات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمُشْرِكِينَ مَا تَلَيْكَ بِأَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٩٧ إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝٩٨ قَالُوا لَيْكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ۝٩٩﴾، فأبيّ حكم أحسن وأعدل من حكم الله؟ وقد فضّل السياق في حكم صلاة الخوف، وهذا من باب الأمر بالإحسان في العبادة.

وقد حذر السياق من مشاققة الرسول ﷺ من بعد ما تبين الهدى، وحذر من اتباع سبيل غير المؤمنين، ويبين أنه تعالى لا يغفر لمن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وحذر من الشيطان المريد الذي توعد بني آدم بالإغواء والإضلال، وبذلك يبرز الفرق بين أولياء الرحمن الآمرين بالعدل والإحسان، وأولياء الشيطان الصّادين عن سبيل الله، ولكي يكتمل الترغيب والترهيب، عرض السياق مصير الفريقين يوم القيامة.

كان هذا فيما يتعلق بأحكام المجتمع بمختلف فئاته، مع الأمر بالحفاظ على المجتمع من العدو الخارجي الحاقداً، ثم عاد السياق إلى التفصيل ببعض أحكام النساء كونهن أكثر فئات المجتمع استضعافاً، فقد حذّر السياق من حرمان يتامى النساء من حقوقهنّ، وأمر بالإحسان للمستضعفين من الولدان والقسط لليتامى، وبيّن أنه لا جناح على المرأة أن تصلح بينها وبين زوجها إن خافت منه نشوزاً أو إعراضاً، وأمر الرجال بالعدل بين الأزواج قدر المستطاع، ويلاحظ كثرة الدعوة إلى تقوى الله، للتحذير من الإساءة للمستضعفين من النساء واليتامى.

وقبل الانتقال إلى الخاتمة أعاد السياق التحذير من العدو الداخلي، ويّين السياق أن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم، وهم مذبذبون بين الإيمان والكفر، ثم حذر السياق

من العدو الخارجي، فأمرت المؤمنين بعدم اتخاذ الكافرين أولياء، وبيّنت نكول أهل الكتاب عن الهدى الذي أنزل على موسى وعيسى عليهما السلام، فأخذوا الربا وقد نهوا عنه، وأكلوا أموال الناس بالباطل، وفي بيان ذلك دعوة للمجتمع المسلم إلى الالتزام بما أنزل على نبيهم ﷺ من الهدى.

فهذا القسم الأكبر من السورة كما ترى يأمر المؤمنين بتحقيق الإحسان والعدل داخل المجتمع المؤمن لاسيما النساء، ويحذّرهم من حقد وحسد أعدائهم في الداخل والخارج.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أمرت المؤمنين بالالتزام الهدى الذي أنزل على نبيهم ﷺ مع بيان أنه ذات الهدى المنزل على الأنبياء والرسل قبله، وحذّرت من الكفر به أو الصّد عنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ٧٦﴾.

وأعادت دعوة أهل الكتاب إلى الانتهاء عما حرفوه من الكتاب والغلو في الدين، وبيّنت مصير من التزم بما جاءه من هدى ربه، ومن استنكفوا واستكبروا عنه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيَرْفَعُهُمْ أَجُورُهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ٧٧﴾، وكما افتتحت السورة بدعوة الناس إلى تقوى الله والأمر بالإحسان والعدل للمستضعفين لاسيما النساء منهم، ختمت بدعوتهم إلى التزام البرهان والنور الذي جاءهم من الله، وبيّنت حكم الكلاله وما فيه من الإحسان والعدل سيما النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ٧٨﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعَصَمُوا بِهِ فَسُيِّدْهُمْ فِي رَحْمَةِ مِنِّهِ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ٧٩﴾ يَسْفُتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمَرُوا هَلْكَ لَكُمْ وَلَوْ أَنَّهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُتْنَتَيْنِ فَلَهُمَا النِّصْفَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَالِمًا ٨٠﴾.

وبذلك يلتقي البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور والذي دل عليه اسم السورة أبلغ والطف الدلالة.

سورة النساء

سورة الدعوة إلى إقامة الإحسان والعدل داخل المجتمع المؤمن لا سيما المستضعفين،
مع التحذير من حقد الأعداء في الداخل والخارج

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٠)

المقدمة التي تدعو إلى تقوى الله والإحسان
للفئات المستضعفة في المجتمع وإيثارها
حقوقها:

■ افتتحت السورة بالأمر بتقوى الله، وبيان
فضل النساء اللاتي ينشأ النسل من
أرحامهن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ
مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا
كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾.

■ ثم أمرت المقدمة بالإحسان إلى اليتامى
بإيثارهم أموالهم، وأكدت على العدل
والإحسان ليتامى النساء كونهن أشد الفئات
استضعافاً.

■ وأمرت بالعدل والإحسان للسفهاء
المستضعفين لخفة عقولهم، وكذلك
بالإحسان لمن حضر قسمة الميراث ومن
أولي القربى واليتامى والمساكين.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١١-٣٥)

التفصيل في عرض بعض الأحكام المالية
والاجتماعية الخاصة بالنساء:

■ فصل السياق في موضوع الميراث، وحدد
لكل وارث نصيبه، وجعل للنساء منه نصيباً
مفروضاً، وختم أحكام الميراث بالتحذير
من الإساءة فيه: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
وَيَتَّقْ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ
عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

■ ثم فصل السياق في بعض الأحكام
الاجتماعية الخاصة بالنساء، فحذر من
الفاحشة، وأمر بحبس من تثبت عليها
الفاحشة في البيوت، وأمر بالعدل والإحسان
إلى النساء في المعاشرة بالمعروف، وبيّن
عدم جواز أخذ شيء من المهر بعد الطلاق،
وفصل في بيان المحرمات من النساء على
الرجال، وبيّن حكم المرأة الناشز.

■ وحذر السياق من الأعداء الحاقدين
الحاسدين: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ
وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُقِيلُوا مِثْلًا
عَظِيمًا﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٣٦-١٦٢)

الدعوة إلى تحقيق العدل والإحسان داخل المجتمع المؤمن لا سيما النساء، مع التحذير من العدو الداخلي والخارجي:

■ ابتدأت هذه الأحكام بالأمر بالتوحيد وهو رأس الدين، ثم تبعه أحكام لتحقيق العدل والإحسان: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

■ حذر السياق من البخل، ومن المرائين وبين أنهم هم المنافقون وأنهم العدو الداخلي.

■ ثم حذر من العدو الخارجي وهم أهل الكتاب: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُشْرُونَ أَلْسِنَتَهُم بِرِيبِئُونَ أَن يَقُولُوا الْفَيْلُ يُرِيدُونَ أَن تَصَلُّوا عَلَىٰ سَبِيلِ﴾.

■ ثم أمر المؤمنين بأداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بين الناس بالعدل، وطاعة أولي الأمر، وبين بعض أحكام القتال وما يتعلق بها من العدل والإحسان كنصرة المستضعفين من الرجال والنساء.

■ وحذر من مشاققة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين، وفضل في بعض أحكام النساء، فحذر من حرمان يتامى النساء حقوقهن، وأمر الرجال بالعدل بين الأزواج قدر المستطاع.

■ وأعاد التحذير من العدو الداخلي (المنافقين)، وبين أنهم مذبذبون بين الإيمان والكفر، وبين نكول بني إسرائيل عن الهدى الذي جاء به موسى عليه السلام، وبين أنهم كانوا يأكلون أموال الناس بالباطل.

الموضوع الرابع: (الآيات: ١٦٣-١٧٦)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت أمر المؤمنين بالتزام الهدى الذي جاء به النبي ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾.

■ وأعادت التحذير من أهل الكتاب الذين حرفوا كتابهم وغالوا في دينهم: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمُ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

■ وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى تقوى الله وإقامة العدل في المجتمع المؤمن لا سيما النساء والمستضعفين، ختمت ببيان حكم الكلاله وما فيه من العدل والإحسان للنساء.

سورة المائدة

﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِثُونَ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٧﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَقْطَمِينَ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَعَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَآرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١٠٩﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٠﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سميت هذه السورة الكريمة باسم «المائدة» لذكر قصة المائدة التي طلبها الخواريون من سيدنا عيسى عليه السلام، لتكون معجزة مادية محسوسة دالة على صدقه في نبوته، فاستجاب الله لهم وأنزل المائدة وتوعد من يكفر بعد ذلك بالعذاب الأليم، فاسم السورة يحذر من الكفر بعد الإيمان، إذ نزول المائدة على بني إسرائيل كان بمثابة عقد بينهم وبين الله تعالى ينبغي أن يثبتوا بموجبه على الإيمان والتوحيد.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً للربط بين موضوعات السورة ومحورها واسمها، فذكروا أن من مقاصد السورة الوفاء بما دلّ عليه ميثاق العقل من توحيد الله شكراً على نعمه ودفعاً لنقمه، والأمر بالتزام التشريع الإلهي الذي يهدف لإقامة المجتمع المسلم مع بيان دوره في الأرض وموقفه تجاه أعدائه، وإبطال الجاهلية بمختلف صورها، وذكروا أن قصة المائدة بدلالاتها على التوحيد وإبطال العقائد الزائغة حول عيسى عليه السلام، وبدلالاتها على أن من خالف الأمر الإلهي بعدما رأى المعجزة فقد عرّض نفسه للعذاب،

ولمناسبتها لموضوع الأطعمة، كانت هي الأجدر لتسمية السورة^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: أمر الأمة الإسلامية بالالتزام بالعقود التي ألزمهم الله بها، والتي أجلها التزام عقيدة التوحيد، والتحذير من التهاون بهذه العقود أو إضاعتها كما حصل من اليهود والنصارى، وإنما اختير اسم «المائدة» لهذه السورة لأن أبرز دلالات قصة المائدة مع التعقيب عليها بيان أن إجابة طلب قوم عيسى عليه السلام لمعجزة مادية دالة على صدقه، كانت بمثابة عقد موثق بين الله وبينهم على عدم الكفر بعدها، ولكن منهم من عاد إلى الكفر والشرك بعد ذلك كما بين التعقيب. فهذه القصة مع التعقيب الإلهي عليها أدل ما في السورة على التحذير من الوقوع بنقض العقود مع الله والتي أجلها التزام عقيدة التوحيد. وقد تميّزت هذه السورة عن السور التي تشاركها بأسمائها في موضوع القصص القرآني بأنها سورة دعوة المؤمنين إلى الوفاء بالعقود التي بينهم وبين الله تعالى.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين دلالات قصة المائدة التي سمّيت السورة باسمها، فمعظم السياق في السورة يخاطب المؤمنين بأوامر ونواهي يعتبر كل منها بمثابة عقد بينهم وبين الله، فواجبٌ عليهم الوفاء بها، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن تقسيم السورة إلى ثلاثة أقسام رئيسية: أولاً: مقدّمة تأمر المؤمنين بالوفاء بالعقود التي بينهم وبين الله والمتمثلة بجملة من الأحكام والتوجيهات الربانية لهم، ثانياً: بيان لوجوب المفاصلة العقدية بين الأمة الإسلامية المأمورة بالالتزام لعقودها مع الله، وبين أهل الكتاب وأهل الجاهلية الذين نقضوا هذه العقود ولم يلتزموا بها، ثالثاً: خاتمة مؤكدة لما سبق^(٢).

(١) ينظر: المهاييمي، تبصير الرحمن، ج ١، ص ١٧٧، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٢، ص ٣٨٤، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٢، ص ٨٢٥-٨٣٠، ورضا، تفسير المنار، ج ٧، ص ٢٠٠-٢٠٥، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٦، ص ٦٩-٧٣، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٢، ص ٢٨٧، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ص ٧١-٧٦، ود. حجازي، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، ص ١١٥-١٣١، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ٨٣-٨٧، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور، ص ٥٧-٦٨.

(٢) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١-١١، والمفاصلة بين أمة الإسلام وأهل الكتاب والجاهليين: ١٢-١٠٨، والخاتمة: ١٠٩-١٢٠. ويجب أن أنه إلى أن لفظة «العقود» الواردة في السورة تعني: «كل ضوابط الحياة التي»

أولاً: المقدمة، وقد افتتحت ببدء للمؤمنين بأمرهم بالالتزام بالعقود التي ألزمهم الله بها، ثم عرض السياق بعضاً من هذه الأوامر والنواهي التي يعتبر كل منها بمثابة عقد بين المؤمنين وربهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَتُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكُمْ عَاقِبَةُ الْحَبْلِ وَأَنْتُمْ حُرُّمْ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ ، ولاحظ أن النداء بـ (يا أيها الذين آمنوا) يعطي دلالة التزامهم بعقد التوحيد، فالتوحيد أساس الإيمان، ومما يلفت النظر أن معظم الأوامر والنواهي في المقدمة مما يتعلق بالطعام، وهذا متلائم مع اسم السورة «المائدة»، بالإضافة إلى كونها عقوداً يجب الوفاء بها. فلا يأكل المؤمن إلا مما أحله الله له، ويجتنب كل ما حرمه الله من مأكّل ومشرب، ومن الأوامر والنواهي المذكورة في المقدمة: حفظ شعائر الله، وتحريم القتال في الشهر الحرام، وتحريم الصيد على المُحَرَّم، وبيان المحرّمات من اللحوم، وتحليل الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب، والتفصيل في أحكام

= قررهما الله ، سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٢، ص ٨٣٥، فهي تشمل الجانب العقدي بدءاً من التوحيد، وانتهاءً بالجانب العملي وما يحتويه من أوامر ونواهي. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة بأمر المؤمنين بالتزام العقود بينهم وبين الله: (أ) فهي أكثر سورة في القرآن جاء فيها النداء بـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، إذ ذكر فيها هذا النداء شاملاً الأوامر والنواهي الإلهية للمؤمنين ست عشرة مرة، وقد أشار لذلك الغزالي، نحو تفسير موضوعي، ص ٧١، وقد ذكرت فيها عبارة ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَاؤُكُمْ﴾ خطاباً للأمة الإسلامية مرتين: ٢، ٨، ولم تذكر هذه العبارة في حق المؤمنين في سورة أخرى، (ج) هي أكثر سورة تكررت فيها مشتقات الجذر «حكم» على صيغة الفعل: ففعل الأمر «احكم» العائد إلى النبي ﷺ ذكر فيها أربع مرات: ٤٢ (مرتين)، ٤٨، ٤٩، والفعل المضارع «يحكم» العائد إلى الأمر بتطبيق حكم الله ذكر سبع مرات، منها ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿الظَّالِمُونَ﴾ ﴿الْفَاسِقُونَ﴾، (د) ذكر فيها الوضوء بتفصيل لم يتكرر: ٦، (هـ) وكذلك حكم المحاربة: ٣٣، ٣٤، وحكم السرقة: ٣٨، ٣٧، ثانياً: ومنها أمور متعلقة ببيان نكول اليهود والنصارى عن العقود التي بينهم وبين الله: (أ) فعبارة ﴿وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ عَنْ دِينِ اللَّهِ﴾ قد جاءت وصفاً لليهود مرة واحدة: ١٣، ووصفاً للنصارى مرة واحدة: ١٤، ولم تذكر هذه العبارة في سورة أخرى من القرآن، (ب) نكول بني إسرائيل عن قتال أهل القرية التي أمروا بدخولها لم يذكر إلا هنا: ٣٣، ٣٤، (ج) وكذلك قوله تعالى عنهم ﴿سَنُكْفِيهِمُ أَكْثَلُ وَشَحَّاتٍ﴾: ٤١، ٤٢، (د) قوله تعالى عن النصارى ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لم يذكر إلا هنا: ١٧، ٧٢، (هـ) كذلك قوله ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾: ٧٣، وقريب منه في سورة النساء: ١٧١، (هـ) وكذلك قول اليهود والنصارى ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا﴾: ١٨، لم يذكر إلا هنا. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

الوضوء والتيمم، وحفظ الشهادات، وانظر قوله تعالى الأمر بالتزام هذه الأحكام: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي أَتَيْتُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ٧٥﴾، فكل هذه الأوامر والنواهي بمثابة عقود بين المؤمنين وبين ربهم يجب عليهم الوفاء بها. ولا يخفى أن هذه العقود أساسها التوحيد، فإذا انعدم التوحيد لم يعد لها فائدة، وهذا وجه الترابط - فيما أرى - بين دلالة قصة المائدة على نقض بني إسرائيل عقدهم مع الله بالتزام التوحيد، وبين هذه المقدمة الداعية لالتزام العقود مع الله، والتي أساسها التوحيد.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى بيان وجوب المفاصلة العقدية بين الأمة الإسلامية المأمورة بالتزام عقودها مع الله، وبين اليهود والنصارى والجاهليين الذين نقضوا هذه العقود، فابتدأ السياق باليهود: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ٧٦﴾ فِيمَا نَقُضُوا مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَافِيَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ٧٧﴾، وثنى بالنصارى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَتُكَ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ٧٨﴾، فموقف هاتين الأمتين من عقودهما مع الله واحد، وهو النقض والترك والإهمال.

وفي خلال عرض مواقف اليهود والنصارى من عقودهم مع الله، يدعوهم السياق إلى ترك باطلهم واتباع الهدى الذي أنزله الله على سيدنا محمد ﷺ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ٧٩﴾، وانظر قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٨٠﴾. وقد عرض السياق موقف اليهود والنصارى

من العقد الأكبر بينهم وبين الله، أعني عقد التوحيد: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٧٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ٧٨﴾.

ثم انتقل السياق إلى جانب من العرض القصصي لموقف مخزٍ لبني إسرائيل تجاه عقدٍ بينهم وبين ربهم يتعلق بالقتال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقَوْمُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا تَمْنُونَ وَمَا تَكْفُرُونَ ٧٩﴾ يَقَوْمُ أَذْكُرُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَى الْأَذْيَارِ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ٨٠﴾ قَالُوا يَمْوَسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ٨١﴾ فقد أحجموا عن القتال حينما أمرهم ربهم به: ﴿قَالُوا يَمْوَسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا مُعْدُونُ ٨٢﴾، فكان جزاء نقضهم لهذا العقد أن حرم الله عليهم تلك الأرض المقدسة.

وأعقب السياق قصة بني إسرائيل بعرض قصة ابني آدم، وفيها نقضٌ لعقد تحريم القتل بغير حق، فقد أقدم القاتل على قتل أخيه حينما كان مأموراً بالإحجام عن ذلك، وبذلك تكتمل الصورة التناسقية بين القصتين: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ٨٣﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ٨٤﴾ إِنَّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ٨٥﴾ فَطَوَعَتْ لَمْ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٨٦﴾^(١). فقصة بني إسرائيل إحجام في موضع الإقدام، وقصة

(١) ذكر الأستاذ الدكتور عودة أبو عودة لطيفة من لطائف الآية الأولى في هذه القصة، وهي: أن حرف القاف تكرر فيها تسع مرات، والآية سطر ونصف، ومع ذلك يقرؤها الإنسان بسلاسة تامة دون أن يحس بثقل لحرف القاف المكرر، وذلك أمر يعجز عنه البشر، ينظر: شواهد في الإعجاز القرآني، ص ٩٢.

ابْنِي آدَمَ إِقْدَامٍ فِي مَوْضِعِ الْإِحْجَامِ، وَكِلَاهُمَا مُخَالَفٌ لِلْعَقْدِ مَعَ اللَّهِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمَوْضُوعِ الْقَتْلِ.

وانظر كيف عَقَّبَ السياق مخاطباً بني إسرائيل الذين كانوا كثيراً ما يقدمون على قتل أنبياءهم، وهم مأمورون بالإحجام عن ذلك: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٢١﴾﴾. فالسياق كما ترى يعرض نكول بني إسرائيل عن عقودهم مع الله، فكلما أخذ الله عليهم عهداً بمثابة عقد بينهم وبينه، خالفوا هذا العقد ونكلوا عنه.

وقد ذكر السياق أمراً للمؤمنين متعلقاً بموضوع القتل، وهو بيان حَدِّ المحاربة، وأعقبه بِحَدِّ السرقة وهي قد تكون دافعاً للقتل إذا فوجئ السارق. وأمر المؤمنين بالتزام بحفظ هذه العقود والتزام التقوى.

وانتقل السياق إلى ذكر موقف المنافقين من عقد الإيمان بالله، فهم يسارعون في الكفر، وإلى ذكر موقف اليهود من حفظ عقود الله في التوراة، فهم سَمَاعُونَ للكذب، ويحرِّفون الكَلِمَ عن مواضعه، وأكَّالون للسحت، ولا يقبلون بحكم التوراة فكيف يقبلون بحكم النبي ﷺ؟ ثم انتقل السياق إلى عرض موقف النصارى من حفظ عقود الله في الإنجيل، وبيَّن أن مَنْ لم يحكم بما أنزل الله فهو الكافر والظالم والفاسق.

ثم أعقب ذلك بأمر المؤمنين بالتزام عقود الله في القرآن: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وقد حذَّر السياق أكثر من مرة من موالاته اليهود والنصارى بعدما بيَّن نقضهم لعقودهم مع الله، وبيَّن لهم الموالاته الحقيقية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَاكِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾، وقد ذكر السياق بعض مواقف أهل الكتاب من التزام المؤمنين بالعقود، فهم يتخذون الصلاة هزواً

ولعباً، ويظهرون الإيمان ويخفون الكفر، ويسارعون في الإثم والعدوان وأكل السحت، ويقولون عن الله أقوالاً تظهر كفرهم، كقولهم: يد الله مغلولة، ويشركون بالله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَتَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّكُمْ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ۝﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾. ولا يخفى الترابط بين هاتين الآيتين وبين قصة المائدة مع التعقيب الإلهي عليها من تبرئة عيسى وأمه عليهما السلام من فرية الشرك.

وبعد أن قرّر السياق وجوب المفصلة العقدية بين أمة الإسلام وبين أهل الكتاب، ذكر عدداً من الأوامر والنواهي والتوجيهات للأمة الإسلامية أمراً إياهم بحفظها والالتزام بها، فأعاد التذكير بأكل الحلال من الطيبات، وحفظ الأيمان وبيان كفارتها، والأمر باجتناب عادات الجاهليين، فحرّم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وأعاد التذكير بتحريم صيد البرّ على المُحرّم، وأحلّ صيد البحر، وعظّم من شأن الكعبة وشعائر الله، وحذّر من عقائد الجاهليين الباطلة: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن بُدَّ لَكُمْ سُؤُوكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ۝﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَاجِدَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَآكَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝﴾. وأمر بحفظ شهادة الوصية وغلظ على من كتمها أو حرقها.

فأنت ترى أن معظم سياق السورة يركّز على أمر الأمة الإسلامية بحفظ عقودها مع الله تعالى بدءاً من التوحيد وانتهاءً بالأحكام العملية التعبدية، مع التحذير مما وقع به أهل الكتاب والجاهليون من نقض هذه العقود التي أمرهم الله بها، والتي أجلّها عقد التوحيد. وذلك متناسق مع قصة المائدة التالية والتي أهمّ دلالاتها بيان نقض بني إسرائيل لعقد التوحيد وهو أهمّ عقد مع الله.

ثالثاً: بقيت الخاتمة وهي عبارة عن مشهد أخروي يعرض جانباً من نِعَم الله تعالى على سيّدنا عيسى عليه السلام، ويركّز السياق في هذه الخاتمة على إبطال دعوى بني إسرائيل

بإلهية عيسى وأمه عليهما السلام، وهم بذلك نقضوا أهم عقد بين الله والبشر، أعني عقد التوحيد: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ (١٠٦) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُزَيِّدُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّثْبِتٌ (١٠٧) ، فهذه المعجزات أيد الله بها عبده ورسوله عيسى عليه السلام، ولولا أن أكرمه الله بها لما كان له أن يأتي بأحدها .

وقد أسهم العرض القصصي أيضاً في بيان نقض بني إسرائيل لعقد التوحيد، فعرضت قصة المائدة طلب بني إسرائيل لمعجزة مادية محسوسة يرونها بأعينهم، حتى تطمئن قلوبهم للإيمان: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِ وَرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٨) قَالَ الْخَوَارِجُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ (١٠٩) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَقَطِمِينَ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنَّ قَدْ صَدَقْتَنَا وَكَوْنٍ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٠) ، ولاحظ أن الذي طلب هذه المعجزة المادية هم الخواريون، وهم خلاصة بني إسرائيل وصفوتهم^(١)، فكان طلبهم هذا بمثابة عقد بينهم وبين الله تعالى على الإيمان والتصديق، ولقد أجاب الله طلبهم ورتب على من يكفر بعده عقوبة شديدة: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (١١١) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٢) ، وهكذا اكتمل العقد بين الله تعالى وبني إسرائيل، ونزل عليهم مائدة رأوها بأعينهم ولم يعد لهم حجة .

(١) يقول سيد قطب رحمه الله: «إنهم الخواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به ورسوله عيسى، فأمنوا وأشهدهم عيسى على أنفسهم، ومع هذا فهم بعدما رأوا من معجزات عيسى ما رأوا، يطلبون خارقة جديدة.. فأما أصحاب محمد ﷺ فلم يطلبوا خارقة واحدة بعد إسلامهم.. وهذا هو الفارق الكبير بين حواربي عيسى عليه السلام، وحواريي محمد ﷺ». في ظلال القرآن، ج ٢، ص ٩٩٨. بتصرف.

لكن هل التزموا بالوفاء بهذا العقد؟ إن التعقيب الإلهي على هذه القصة يجيب على هذا السؤال: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُخَيَّ ٱلْأَهْلِينَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيْ أَن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِيْ بِحَقٍّ إِن كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١٧١﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِيْ بِهِ ؕ إِنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيَّ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧٢﴾ إِن تَعَدُّهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٧٣﴾﴾ ، فهم قد خانوا عقد الإيمان والتوحيد وأشركوا عيسى وأمه عليهما السلام مع الله تعالى ، وقد برأ الله عبده ورسوله من هذه الخيانة ، إذ إنها حصلت بعد رفعه من بينهم . فالدلالة السياقية لهذه القصة مع التعقيب الإلهي عليها يبرز لنا عدم وفاء بني إسرائيل لأهم عقد بينهم وبين الله تعالى ، وهو عقد التوحيد الذي ينبنى عليه ما سواه من العقود بين الله والبشر ، ولذلك اختصت هذه القصة بتسمية السورة بها .

ثم ختمت السورة بتعقيب إلهي على قول عيسى عليه السلام ييشر من التزم بعقوده مع الله تعالى ووفى بها ، ومقرراً لمبدأ التوحيد ، إذ إن الله وحده سبحانه مالك السماوات والأرض وما فيهن: ﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٧٤﴾﴾ . لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير ﴿١٧٥﴾ ، فهذا الختام المبين لعظمة الله تعالى والداعي للالتزام الصادق بعقوده يتلاءم مع مفتتح السورة الذي أمر المؤمنين بوفاء عقودهم مع الله . فالتقى الختام والبدء على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة .



سورة المائدة

سورة دعوة المؤمنين إلى الوفاء بالعقود التي بينهم وبين الله تعالى

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١١)

المقدمة التي تأمر المؤمنين بالوفاء بعقودهم مع الله تعالى:

■ افتتحت السورة ببدء للمؤمنين يأمرهم بالوفاء بالعقود التي ألزمهم الله بها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾.

■ وبيّنت بعض أنواع الحلال والحرام من الأطعمة ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْفَرِ إِلَّا مَا يَتَلَبَّسَ عَلَيْكُمْ غَيْرَ بِحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾.

■ وأمرتهم بحفظ شعائر الله وحرمت القتال في الأشهر الحرم، وفصلت في أحكام الوضوء والتيمم، وأمرت بحفظ الشهادات، وهذه كلها بمثابة عقود بينهم وبين خالقهم سبحانه وتعالى، يجب أن يوفوا بها: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَنْفَعُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٢-١٠٨)

بيان وجوب المفاصلة العقدية بين المؤمنين الملتزمين بعقودهم مع الله، وبين أهل الكتاب وأهل الجاهلية الناقضين لهذه العقود:

■ بيّن السياق نقض اليهود لعقودهم مع الله تعالى، فبعدما أخذ الله ميثاقهم وبعث منهم اثني عشر نقيباً، وأمرهم بالصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسول، إذا بهم ينقضون ميثاقهم إلى أن استحقوا لعنة الله، وجعل قلوبهم قاسية، وبيّن أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به.

■ وبيّن السياق نقض النصارى لعقودهم مع الله تعالى، فهم أيضاً نسوا حظاً مما ذكروا به، حتى أغرى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة.

■ وقد أمر السياق الأمتين المذكورتين باتباع الرسول ﷺ الذي يبيّن لهم كثيراً مما كانوا يخفون من الكتاب.

■ وبيّن السياق كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم، وبيّن جهل الأمتين حينما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه.

- ذكر السياق عدداً من الأوامر والنواهي والتوجيهات للأمة الإسلامية أمراً إياهم بحفظها والوفاء بها، فأمر بأكل الحلال من الطيبات وحفظ الأيمان وبتن كفارتها، واجتناب عادات الجاهلين؛ فحرّم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وحرّم صيد البرّ على المُحرّم، وعظّم من شأن الكعبة وشعائر الله، وأمر بحفظ شهادة الوصية وغلظ على من كتمها أو حرّفها.
- كل هذه الأوامر والنواهي تعتبر عقوداً بين أمة الإسلام وبين خالقهم سبحانه، ينبغي عليهم الالتزام بها حتى لا يصير حالهم كحال أهل الكتاب أو الجاهليين الذين نقضوا عقودهم مع الله تعالى.

- عرض السياق قصة موسى عليه السلام مع قومه حينما أمرهم بقتال أهل القرية، لكنهم نقضوا العهد وأحجموا في موقع الإقدام.
- في المقابل عرض السياق قصة بني آدم وهي تعرض إقدام القاتل على القتل في موضع الإحجام.
- عقّب السياق على القصتين بتحريم القتل بلا سبب على بني إسرائيل الذين كانوا هم أكثر الأمم إقداماً على قتل الأنبياء.
- حذّر السياق من المنافقين المسارعين إلى الكفر ونقض عقد الإيمان.
- ثم أمر السياق المؤمنين بالوفاء بعقودهم مع الله التي أمرهم بها في القرآن: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ﴾.
- حذّر السياق أكثر من مرة من موالاة اليهود والنصارى بعدما تبين نقضهم لعقودهم مع الله، وأمرهم بالموالاة الحقيقية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَاكِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.
- أعاد السياق بيان كُفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم، وبيّن براءة عيسى من هذه القرية، وبيّن أنه كان يدعو إلى التوحيد.

الموضوع الثالث: (الآيات ١٠٩-١٢٠)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ عرضت مشهداً أخروبياً يبين براءة عيسى وأمه من فرية إشراكهما مع الله بالعبادة، وذلك حين نقض النصارى أهمّ عقد بينهم وبين الله، وهو عقد التوحيد، فاتخذوا عيسى وأمه إلهين من دون الله.

■ عرضت إجابة الله لدعاء عيسى عليه السلام أن ينزل مائدة من السماء كما طلب الحواريون وكان نزولها بمثابة عقد بينهم وبينه تعالى على أن لا يعودوا إلى الكفر والشرك: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُرْسِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْمُتْلِمِينَ﴾ ﴿١١٥﴾.

■ وقد بين التعقيب على القصة أن النصارى نقضوا هذا العقد وأشركوا عيسى وأمه مع الله تعالى بالعبادة.

■ وكما افتتحت السورة بأمر المؤمنين بالتزام عقودهم مع الله، ختمت ببشارة المؤمنين الصادقين الملتزمين بهذه العقود، وأهمها عقد التوحيد: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿١١٦﴾. ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١١٧﴾.

سورة الأنعام

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِغْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٦٤﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْذَوْهُمْ وَلَيْسُوا عَلَيْهِمْ دِينُهم وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءَ بِرِغْمِهِمْ وَأَنعَمُ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّمَّةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهم وَصْفُهُمْ إِنَّهُمُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٦٧﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٦٨﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى حديثها عن بعض أحكام الله فيما يتعلق بالأنعام، وبيانها أن ما كان يدعيه الجاهليون من أحكام الأنعام إنما هو جهل محض قادم إليه شركهم بالله تعالى، ففي تسمية السورة بالأنعام إشارة إلى أن الله هو خالقها وهو الذي سخرها للإنسان، وبالتالي فهو وحده المشرع للأحكام المتعلقة بها، وأي تشريع من البشر فيها من دون الله إنما هو مظهر من مظاهر الشرك والجهل، لأنه اعتداء على حق الله في شرعه.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها،

فذكروا أن السورة تعرض حقيقة التوحيد في مجال الكون وفطرة النفس البشرية ومشاهد القيامة، مما يثبت كمال القدرة وشمول العلم والتفرد بالخلق لله وحده، فالله هو الخالق الرازق المالك صاحب القدرة والحكم والقهر، والعليم بالغيب والأسرار، وهذه خصائص الإلهية التي لا ينازعه فيها أحد، وبذلك يعتبر الجاهليون بمزاولتهم التحليل والتحريم في الذبائح والأنعام من أهم القضايا التي تعالجها السورة، ولذلك سمّيت بهذا الاسم^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان دلالة الآيات الكونية والآيات القرآنية على شمول علم الله تعالى وكمال قدرته، فله وحده الحكم والتشريع، ولما كان افتراء المشركين فيما يتعلق بأحكام الأنعام بأهوائهم وضلالهم أدلّ ما في السورة على إعراضهم عن آيات الله بنوعيتها، سمّيت السورة بالأنعام للتأكيد على أن الحكم والتشريع من حق الخالق فقط. فاسم السورة يعبر عن المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان اختصاص الله تعالى بالحكم والتشريع لأنه الرّبّ الإله الخالق ذو القدرة المطلقة والعلم الشامل.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى خمسة أقسام: أولها مقدّمة تبيّن بإيجاز دلالة الآيات الكونية والقرآنية على تفرد الله بالإلهية، وثانيها: التفصيل في بيان دلالة الآيات بنوعيتها على كمال قدرة الله وشمول علمه وتفردّه بالحكم، وثالثها: عرض قصصي يؤكّد تفردّه تعالى بالإلهية والحكم، مع تعقيب ببيان موقف المكذّبين، ورابعها: التفصيل في عرض افتراءاتهم بالهوى والضلّال على أحكام الله، وأهمّها ما يتعلّق بالأنعام،

(١) ينظر: المهاييمي، تبصير الرحمن، ج ١، ٢٠٧، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٢، ٥٧٨، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٢، ١٠١٥-١٠٢٩، ورضا، تفسير المنار، ج ٨، ٢١٧-٢٣٥، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٧، ص ١٢٣-١٢٧، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٢، ص ٣٩٦-٣٩٩، وأحمد عطا عمر، تفسير سورة الأنعام، ص ٩-١٤، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٩١، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٦٩-٧٨.

وخامسها: الخاتمة المؤكدة لما سبق^(١).

أولاً: جاء في مقدمة السورة إثبات أن الله تعالى وحده له الإلهية، وقد نطقت بذلك آياته الكونية والقرآنية: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ① هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُتَّسِمٌ عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ②

(١) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١-١٠، ودلالة الآيات القرآنية والكونية على الله: ١١-٧٣، والعرض القصصي: ٧٤-١١٧، وبيان افتراءاتهم: ١١٨-١٥٤، والخاتمة: ١٥٥-١٦٥. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة بالله تعالى ثبت تفرّده بالإلهية والحكم والتشريع، أ) فهي الوحيدة التي اختصت بقوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾: ١، ب) هي وسورتا المائدة ويوسف فقط اللواتي تكرر فيهن المصدر «حكم» بدون إضافة لضمير: ﴿إِنْ أَمَرْتُ إِلَّا بِأَمْرٍ﴾: ٥٧، ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾: ٦٢، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلِكُتَّ وَالْحُكْمُ وَالشُّبُهَةُ﴾: ٨٩، والمائدة: ٤٣، ٥٠ (مرتين)، ويوسف: ٢٢، ٤٠، ٦٧، ج) تقدم في الحديث عن سورة النساء أنها مع سورة الأنعام أكثر سورتين تكرر فيهما الفعل «وصى» المنسوب إلى الله، د) هي أكثر سورة تكرر فيها ذكر «الأجل» مع الفعل «قضى»: ٢ (مرتين)، ٦٠، هـ) هي الوحيدة التي تكررت فيها «الحُجَّة» المنسوبة لله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾: ٨٣، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْكَبِيرَةُ﴾: ١٤٩، ز) هي إحدى السور الأربع اللواتي تكرر فيهن المصدر «الغيب» بأكثر عدد: ٥٠، ٥٩، ٧٣، وباقي السور: هود، يوسف (لكنها امتازت عن السور الأربع بذكر كلمة «غيبات» مرتين)، سبأ، ثلاث مرات في كل منها، ح) هي الوحيدة التي فيها قوله عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: ٧٥، وهذه العبارة عن الله ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾: ٧٣ لم تتكرر، والوحيدة التي ذكر فيها الاسم الجليل «القاهر» بصيغة اسم الفاعل: ١٨، ٦١، والوحيدة التي فيها قوله ﴿قُلْ أَتَى شَيْءٌ أَكْبَرَ شَيْئَةً قُلِ اللَّهُ شَيْدُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾: ١٩، وكذلك قوله ﴿تَا قُرْطَانًا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾: ٣٨، وكذلك قوله ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحَايَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ③: ١٦٢، وهي الوحيدة التي فيها وصف الله بأنه ﴿فَالِقُ الْخَيْلِ وَالنَّوَى﴾: ٩٥، وأنه ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾: ٩٦، إذ لم تذكر صيغة اسم الفاعل «فالق» في موضع آخر، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بالكافرين تدل على إعراضهم عن آيات الله واتباعهم الهوى، أ) فهي أكثر سورة تكرر فيها الفعل الماضي «كذب» دون إضافة لضمير: ٢١، ٦٦، ١٤٨، ١٥٧، ب) هي أكثر سورة تكرر فيها الفعل الماضي «افتري»: ٢١، ٩٣، ١٤٤، وأكثر سورة تكرر فيها الفعل المضارع «يفترون»: ٢٤، ١١٢، ١٣٧، ١٣٨، وهي الوحيدة التي ذكر فيها المصدر «افتراء»: ١٣٨، ١٤٠، ج) هي إحدى السور السبع التي تكرر فيها الفعل الماضي «ضلّ»: ٢٤، ٩٤، وباقي السور: النساء، المائدة، يونس، النحل، الإسراء، النجم، د) قوله تعالى ﴿قُلْ لَا أَنْبِئُكُمْ عَنْهُ إِذَا﴾: ٥٦، لم يتكرر بالصيغة ذاتها، وكذلك قوله ﴿وَلَا تَنْبِئُ عَنْهُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: ١٥٠، وقوله ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: ١١٩، هـ) وقوله ﴿إِنِّي لَنَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾: ١٩، لم يتكرر، وكذلك قوله ﴿قُلْ هَلْ شَهِدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾: ١٥٠، و) هي الوحيدة التي تكرر فيها وصف الكفار بأنهم «يعدلون» بربهم: ١، ١٥٠، والوحيدة التي وصفهم بأنهم «يصدفون» عن آياته: ٤٦، ١٥٧ (ثلاث مرات)، والوحيدة التي تكرر فيها الفعل المضارع «يستهوون»: ٥، ١٠. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٢﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٣﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤﴾، ولاحظ بيان أن الكافرين يساؤون مع الله آلهة أخرى بالعبادة مع كونه هو وحده الخالق، وفي ذلك إشارة إلى بيان أن افتراءهم على أحكام الله - وأهمها في هذه السورة الأنعام - إنما هو صورة من صور الشرك، ولاحظ إعراضهم عن الآيات القرآنية بعد أن لم تكفهم الآيات الكونية.

وقد بينت المقدمة مدى تكذيبهم، إذ لو نزل عليهم القرآن على شكل كتاب من السماء ولمسوه بأيديهم، لقالوا؛ هذا سحر مبين، ومن فرياتهم أنهم طلبوا أن ينزل مع الرسول مَلَكٌ يشهد له، وقد ردَّ السياق عليهم بأن الملائكة إنما تنزل بأمر الله، وستنزل بهم العذاب إن أصرّوا على سخريتهم واستهزائهم.

فالمقدمة إذاً تثبت أن الله وحده له حقّ الإلهية، وبالتالي فله وحده حقّ الحكم في ما خلق، وليس للبشر أن يتدخلوا في ذلك من دونه.

ثانياً: ثم انتقل السياق بعد المقدمة الموجزة، إلى التفصيل في دلالة الآيات بنوعيتها على تفرّد الله تعالى بالإلهية والحكم ببيان كمال قدرته وشمول علمه، فأمرت السورة المكذّبين بالسير في الأرض لينظروا عاقبة المكذّبين قبلهم، وأمرتهم بالإجابة عمّن له ما في السماوات والأرض، وبينت أن الله وحده هو الخالق والمالك، وله ما سكن في الليل والنهار، وانظر هذه الآية: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخِذُوا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يُطْعَمُ قُلُوبُ الَّذِينَ أُمِرَتْ أَنْ آكُوتَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١﴾﴾، فهو وحده الخالق الرازق ولا وليّ غيره.

وقد بينت السورة موقف المكذّبين من آيات الله القرآنية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾، وانظر قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِغِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾، وقد عرضت مصير المكذّبين يوم القيامة إذ سيندمون ويتمنون أن يرجعوا إلى الدنيا ويكونوا من المؤمنين.

ومن الآيات الدالة على كمال قدرته تعالى وشمول علمه والمهددة للمكذّبين قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾، فكما أنه هو الخالق، فهو القادر على إنزال العذاب على المكذّبين بآيات الله بنوعيها. ومن الآيات الدالة على علمه تعالى وقدرته بيان أنه عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، وبيان أنه الذي يتوقى الأنفس بالليل ويبعثها في النهار، وهو القاهر في عبادته، فلا ولي لهم من دونه.

إن التفصيل في عرض دلالة الآيات على كمال قدرة الله وشمول علمه يؤكد تفرّده تعالى بحق الإلهية والحاكمية، وفي ذلك أبلغ ردّ لما سيأتي من التفصيل في عرض افتراءاتهم على أحكام الله تعالى، وأهمها ما يتعلق بالأنعام.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى عرض قصصي يؤكد تفرّد الله تعالى بالإلهية والحكم، فعرض السياق قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه، إذ كان العرب يزعمون انتماءهم الديني إليه، فجاءت هذه القصة لتردّ عليهم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٦﴾ وَكَذَلِكَ رَأَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٨﴾﴾، ولاحظ أن الله ملأ قلبه يقيناً بما أراه من الآيات الكونية، وأكرمه بآيات الوحي، وفي هذا توبيخ للمكذّبين بهذه الآيات كما تقدّم، ولاحظ استدراجه لعقول قومه ليسوقهم إلى التوحيد، فأبطل كون الكوكب إلهاً، وكذلك القمر، وكذلك الشمس، ثم صرخ فيهم مبيناً تبرّأه مما يشركون، وتوجيهه وجهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً.

وقد بيّن السياق محااجة قومه له، وقد ردّ عليهم بأنه لا يخاف من ألتهم لأنه لا تملك ضرراً ولا نفعاً، بل هو يخاف خالقه فاطر السماوات والأرض، وختم السياق القصة ببيان ما أكرمه من الذرية الصالحة، إذ جعل منهم الأنبياء، ولاحظ بماذا ختمت قصته: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾، فقد

أرسلهم الله بالآيات ليحكموا بين الناس بما أَرَادَ اللهُ، ولاحظ تهديد الكافرين المعرضين عن الآيات، والذين يفترون عليه في أحكامه.

وانتقل السياق إلى الرّدّ على أهل الكتاب، كونهم يخفون كثيراً مما أنزل عليهم، ويغيّرون أحكام الله وفق أهوائهم: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ لِيَجْعَلُوهُ قُرْآنًا يَتَذَكَّرُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُهُ مَا لَمْ تَلَّمُوا أَنَّهُ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١١﴾﴾. فهذا يؤكد أن الله وحده هو مرسل الرسل جميعاً، لبيان تفرّده بالإلهية والحكم في خلقه.

وقد أعقب السياق هذا العرض القصصي بما يدل على إلهيته وكمال قدرته وشمول علمه، ليوبّخهم على شركهم، فيبين أنه تعالى فالق الحَبّ والنوى، وفالق الإصباح، وهو الذي جعل النجوم ليهتدي بها الناس، وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرج به الجنات، ثم انظر ماذا كان موقفهم: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٢﴾﴾ بديع السموات والأرض أئنّ يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴿١٣﴾﴾.

رابعاً: ثم انتقل السياق بعد تقرير أن الإلهية والحكم لله وحده، إلى التفصيل في افتراء المشركين على أحكام الله تعالى، وأهمها ما يتعلق بالأنعام: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنَّمُ اللَّهُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنَّمُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُررْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّوا بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١٥﴾﴾، فقد ابتدأ السياق بتذكيرهم بأن الله هو الخالق الحكيم، وهو وحده المشرّع، ولاحظ بيان أن افتراء المشركين على أحكامه تعالى إنما هو ضلال وهوى وجهل واعتداء.

واللافت للنظر أنه في وسط الحديث عن أحكام الأنعام، عرض السياق مدى الغواية المشتركة بين الجن والإنس، فقد كانت الجنّ توحى للإنس بوساوس الشرك والكفر، والإنس يطيعونهم، وهم بذلك خرجوا عن شرع الله حتى استحقوا العذاب: ﴿يَمَعُشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُذَكِّرُوكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ لِحَيَاةِ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٦﴾﴾، إن هذا العرض

يضيف سبباً آخر لافتراء المشركين بالهوى والضلال على أحكام الله، وهو استجابتهم لوساوس الجن المغوية.

ثم عرض السياق بعضاً من مظاهر اعتداءاتهم الباطلة على حكم الله، فجعلوا لله نصيباً من الأنعام، ولشركائهم نصيباً آخر، وجعلوا بعض الأنعام حِجْراً لا يطعمها إلا مَنْ يشاؤون، وأحلّوا لذكورهم ما في بطون الأنعام وحرّموها على إناثهم، وإن كان ميتة فهم فيه سواء، وبعد هذا العرض انتقل السياق إلى ردّ أهوائهم وتقريعهم عليها، ببيان أن الله هو منشئ الجنات المعروشات وغير المعروشات، وهو منشئ الأشجار بمختلف الطعوم، وهو خالق الأنعام وجاعلها للناس حمولة وفرشاً، وأمرهم بأن يأكلوا مما رزقهم الله وأن لا يتبعوا خطوات الشيطان الذي يرسل جنوده لإغواء البشر كما تقدم.

وبيّن أن الله أحلّ من الأنعام ثمانية أزواج، اثنين من كلّ من الضأن والمعز والإبل والبقر، ثم سألهم ليسخر من جهلهم وليردعهم عنه: ﴿قُلْ أَتُكْفِرُونَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَحْنُ بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (بعض الآية: ١٤٣)، ثم أمر السياق النبي ﷺ ببيان أنه لا يجد فيما أوحى إليه من الخالق الحكيم سبحانه محرّماً من الأنعام إلا ما كان ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير أو ما أهلّ لغير الله به، ولكي يكتمل التهيب عرض السياق ما جوزي به اليهود حينما افتروا على أحكام الله تعالى، فقد حرم الله عليهم كل ذي ظفر، وحرم عليهم شحوم البقر والغنم إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم، وبيّن أن ذلك إنما هو جزاء بغيهم على أحكام الله.

وبعد هذا التفصيل المتعلق بأحكام الأنعام، انتقل السياق إلى بيان ما أحلّه الله وحرّمه من الأمور العقدية والأحكام الاجتماعية، فأمر المؤمنين بعدم الشرك بالله شيئاً، وبالإحسان إلى الوالدين، وبعدم قتل الأولاد من الفقر، وعدم القرب من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبعدم القرب من مال اليتيم، وإيفاء الكيل والميزان بالقسط، واتباع صراط الله المستقيم، وعدم اتباع سبل الغواية فيضلّوا عن صراطه.

إن هذا التفصيل كما لا يخفى يؤكّد أن الله وحده هو الإله الخالق، وبالتالي فله وحده حق التشريع والحكم في كل ما يتعلق بحياة البشر الذين خلقهم الله، وأن أيّ تدخّل من

البشر في أحكام الله بغير إذنه إنما هو افتراء وجهل وضلال واعتداء، وموصل في النهاية إلى أن يكون صورة من صور الشرك بالخالق الحكيم. ومن أجل ذلك سُمّيت السورة بالأنعام لأنها تشير إلى مدى الجهل والضلال الذي كان عليه المشركون، وإلى مدى حكمة الله في تشريعه، وإلى اختصاصه وحده بحق الحكم لأنه وحده المختصّ بحق الإلهية.

خامساً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت الأمر باتباع شرع الله، وبيان أن ما سواه ضلال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهٖ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

وأعادت التذكير بوجوب الإيمان بآيات الله القرآنية، وعدم الإعراض عنها كما أعرض السابقون: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

وبيان أن دين النبي ﷺ إنما هو دين إبراهيم عليه السلام من قبل، وهو الدين القائم على توحيد الله في العبادة والتوجه إليه بما خلق من الذبائح: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦١﴾﴾ قُلْ إِنَّا صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

وكما افتتحت السور ببيان دلالة الآيات الكونية والقرآنية على تفرد الله بالإلهية والحكم، ختمت ببيان أنه وحده الخالق للبشر والمدبر لشؤون حياتهم، مع الترغيب باتباع حكمه والترهيب من الإعراض عنه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ لَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّكُمْ لَفَنَوْرٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾، وبذلك التقى البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الأنعام

سورة بيان اختصاص الله بالحكم والتشريع لأنه الربُّ الإله الخالق
ذو القدرة المطلقة والعلم الشامل

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٠)

المقدمة التي تبين بليجاز دلالة الآيات الكونية والآيات القرآنية على تفرّد الله بالإلهية:

- افتتحت السورة ببيان أن الله وحده هو ربّ العالمين، فهو خالق السماوات والأرض.
- وبيّنت أنه هو الذي خلق البشر من طين، وأنه تعالى يعلم السر والجهر، فهو وحده المتفرد بالإلهية.
- وبيّنت دلالة الآيات القرآنية على تفرّده بالإلهية: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ١٠﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١١-٧٣)

التفصيل في بيان دلالة الآيات بنوعيتها على كمال قدرة الله وشمول علمه وتفرّده بالحكم:

- بيّن السياق أن الله هو الخالق الرازق: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ وَجْهًا فَاظِرًا لِسَمَوَاتٍ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ١١﴾ فلا وليّ غيره.
- وبيّن موقف الكافرين المعرضين عن دلالة الآيات القرآنية على الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَرُ بِمَنْ أَقْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ قُلُوبُهُمْ ١٢﴾.
- وبيّن تفرّده تعالى بالحكم والتصرف في خلقه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَسَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ١٣﴾.
- وبيّن أن الله عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، وأنه هو الذي يتوفى الأنفس بالليل ويبعثها في النهار، وأنه هو القاهر فوق عباده.
- إن عرض دلالة هذه الآيات على كمال قدرة الله وشموله ليؤكد تفرّده بالحكم والتشريع، وأهم ذلك في هذه السورة حكمه في الأنعام التي خلقها.

الموضوع الثالث: (الآيات ٧٤-١١٧)

عرض قصصي يؤكد تفرد الله تعالى بالإلهية والحكم، مع تعقيب ببيان موقف المكذبين:

■ عرض السياق قصة إبراهيم ليرد على كفار قريش الذين يزعمون انتماءهم الديني له، فبينت القصة نصح إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر، لينبذ عبادة الأصنام، وعرضت كيف أراه الله ملكوت السموات والأرض فملاً قلبه يقيناً.

■ وبيّنت كيف استدرج عقول قومه فأبطل بالحجة عبادة الكواكب والقمر والشمس، ثم تبرأ من شركهم وأعلن توجهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً، وعرضت أن ألهم لا تملك ضراً ولا نفعاً، بل الضر والنفع في يد الخالق سبحانه وتعالى.

■ ثم هدّد السياق المكذّبين بحقائق الوحي، وردّ على أهل الكتاب الذين يخفون كثيراً مما أنزل عليهم.

■ وأعقب السياق بما يؤكد ما جاء في قصة إبراهيم عليه السلام من تفرد الله بالإلهية والحكم، فبيّن أن الله خالق الحبّ والنوى، وفالق الإصباح، وأنه هو الذي جعل النجوم ليهتدي بها الناس، وأنزل من السماء ماء فأخرج به الجنات، ثم كان موقف الكافرين أنهم أشركوا بهذا الخالق: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات ١١٨-١٥٤)

التفصيل في عرض افتراءات المشركين بالهوى والضلال على أحكام الله، وأهمّها ما يتعلق بالأنعام:

■ ذكر السياق أن الله هو الخالق الحكيم، فهو وحده المشرع: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنْتُمْ أَلَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَنْتُمْ أَلَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ.

■ ثم بيّن دور الجنّ في إغواء الإنس بوساوسهم، وعرض بعضاً من مظاهر اعتداءاتهم على حكم الله بالباطل، إذ جعلوا لله نصيباً من الأنعام ولشركائهم نصيب آخر، وجعلوا بعضها حِجْراً، وأحلّوا ما في بطون الأنعام لذكورهم وحرموه على إناثهم، وإن كان ميتة فهم فيه سواء.

■ وقد ردّ السياق عليهم ببيان أن الله هو الخالق ذو القدرة الإلهية المطلقة، فهو الذي أنشأ الجنات المعروشات وغير المعروشات، وهو الذي أنشأ الأشجار ذات الأطعمة المختلفة.

■ وكما هو الخالق فهو الرازق، الذي خلق الأنعام وجعلها حمولة وفرشاً، وقد أمر العباد بالأكل مما رزقهم الله دون اتباع خطوات الشيطان.

■ ثم بيّن حكمه الله تعالى في الأنعام، فقد أحلّ منها ثمانية أزواج، اثنين من كل من الضأن والمعز والإبل والبقر، ولم يحرم من الأنعام

إلا ما كان ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير
أو ما أهلاً لغير الله به .

■ وبعد بيان حكمه الله في الأنعام، انتقل
السياق لبيان حكمه في الأمور العقدية
والاجتماعية، فأمر بعدم الشرك بالله،
والإحسان إلى الوالدين، وبعدم قتل الأولاد
خوفاً من الفقر، وعدم قرب مال اليتيم وإيفاء
الكيل والميزان واتباع صراط الله وعدم اتباع
سبل الغواية .

■ هذا التفصيل في عرض الأحكام يؤكد تفرد
الله تعالى بالحكم والتشريع كونه الخالق ذا
القدرة المطلقة والعلم الشامل .

الموضوع الخامس : (الآيات : ١٥٥-١٦٥)

الخاتمة المؤكدة لما سبق :

■ أعادت الأمر باتباع شرع الله، وبيان أن ما
سواه ضلال : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ
فَأَتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ
سَبِيلِهِ﴾ .

■ وأعادت التذكير بوجوب الإيمان بآيات الله
القرآنية، وعدم الإعراض عنها كما أعرض
السابقون : ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ
لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ
وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً﴾ .

■ وبيّنت أن دين إبراهيم عليه السلام هو دين
التوحيد في العبادة والتوجه بالذباح : ﴿قُلْ
إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَهُ
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ
صَلَافِيَّ وَشُكْرِيَّ وَحَيَايَ وَمَعَافِيَّ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

■ وكما افتتحت السورة ببيان دلالة الآيات
الكونية والقرآنية على تفرده تعالى بالإلهية
والحكم، ختمت ببيان أنه وحده خالق البشر
ومدبر شؤون حياتهم مع الترغيب باتباع
حكمه والترهيب من الإعراض عنه : ﴿وَهُوَ
الَّذِي جَعَلَ لَكُم خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ
بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ
الْعِقَابِ وَإِنَّكُمْ لَعُتُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٢﴾﴾ .

سورة الأعراف

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهْتُولَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن منظور: «عُرف الديك والفرس والدابة وغيرها: منبت الشعر والريش من العنق، وأُعْرِفَ الفرسُ: طال عُرفُه، وعُرف الأرض: ما ارتفع منها، والجمع: أعراف، والأعراف في اللغة: جمع عُرف وهو كل عالٍ مرتفع، قال الزجاج: الأعراف: أعالِي السور»^(١). وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود على أرجح الأقوال إلى وصف حال من تساوت حسناتهم وسيئاتهم يوم القيامة، إذ يوقفون على أعالِي سور بين الجنة والنار، ثم يدخلهم الله الجنة بفضلِهِ ورحمته، فاسم السورة يدلّ على قدرة الله على البعث والحساب وجزاء المؤمن وجزاء الكافر يوم القيامة^(٢).

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن مقصودها إنذار مَنْ أَعْرَضَ عَمَّا دَعَا إِلَيْهِ الْكِتَابُ فِي السُّورَةِ الْمَاضِيَةِ - الْأَنْعَام - من التوحيد والاجتماع على الخير، وتحذيره بقوارع الدارين، وأدلّ ما فيها على هذا

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج ١٠، ص ١١٣.

(٢) من المفسرين الذين اعتمدوا هذا القول: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، م ٥، ص ٣٥٢٢. والزمخشري، تفسير الكشاف، ج ٢، ص ١٠٣، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٢٩٨.

المقصد أمر الأعراف، فإن اعتقاده يتضمّن الإشراف على الجنة والنار والوقوف على حقيقة ما فيهما، وهذا المحور متمثّل في موضوعات السورة، إذ تعرض مسيرة العقيدة في التاريخ البشري، وموقف المؤمنين والمكذّبين من الأقوام تجاهها^(١).

ويمكن أن ينبنى على الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان بآيات الله تعالى وتعظيمها من خلال عرض مسيرة العقيدة التي جاءت بها هذه الآيات عن طريق الرسل في التاريخ البشري، والتحذير من بأس الله في الدنيا والآخرة لمن كذّب بها واستكبر عنها. وقد اختير اسم «الأعراف» لهذه السورة لأنه أدلّ ما في السورة على حقيقة وقوع بأس الله في المكذّبين والمستكبرين عن آيات الله التي جاء بها الرسل، ونجاة المؤمنين بالرسول والآيات وأمانهم من بأسه تعالى، ثم إن أهل الأعراف أكثر الناس خوفاً من بأس الله في ذلك الموقف العصيب. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة الدعوة إلى الإيمان بآيات الله التي عرضتها مسيرة العقيدة في التاريخ البشري، والتحذير من العقوبة الدنيوية والأخروية لمن كذّب بها.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وإليك بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام: أولاً: مقدّمة تدعو إلى الإيمان بما تحذّر به آيات القرآن العظيم من الحساب في اليوم الآخر، ثانياً: عرض قصصي لمسيرة العقيدة التي جاء بها الرسل منذ آدم إلى موسى مع بني إسرائيل، مع بيان عاقبة المؤمنين وعاقبة المكذّبين بهذه الآيات، ثالثاً: تعقيب بذكر أدلة عقلية على عقيدة التوحيد ومحدّرة من الكفر

(١) ينظر: الفيروزآبادي، البيان بمقاصد القرآن، ص ٤٥، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٣، ص ٣، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٣، ص ١٢٤٤، ورضا، تفسير المنار، ج ٨، ص ٢٧٤٨، وج ٩، ص ٣٣٤٤، وما بعدها، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٨، ص ٧، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٣، ص ١، والصابوني، صفوة التفاسير، ج ١، ص ٤٠٢، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ١٠٩، ود. شحاتة، أهداف كل سورة ومقاصدها، ج ١، ص ٩١.

بآيات الله ومن والشرك، رابعاً: خاتمة مؤكدة لما سبق^(١).

أولاً: جاءت مقدمة السورة داعية إلى الإيمان بالقرآن المنزل على النبي ﷺ، كونه آخر الآيات التي أنزلها الله على الأنبياء والرسل: ﴿الْمَصَّ ۝ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِئَلَّا يُذَكَّرَ بِهِ ۝ وَذِكْرُنَا لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ أَتَعْبَهُوا مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مِمَّا تَذَكَّرُونَ ۝ ۞﴾، ومحذرة من عقوبة من لم يؤمن بآيات الله يوم القيامة، واللافت للنظر أنك تجد قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرَبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَبَاءَهَا بَأْسًا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ۝ ۞﴾ فما كان دَعْوَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝ ۞﴾ المحذر من بأس الله، وتجد فيها أيضاً أن سبب الخسران في يوم القيامة هو: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ۝ ۞﴾ وهذا يؤكد المحور المذكور، فإنه يحذر من بأس الله في المكذبين الذين سيبتن مشهد الأعراف حقيقة وقوع بأس الله بهم.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض مسيرة عقيدة التوحيد، فابتدأ السياق بقصة آدم عليه السلام، وهي قصة منسجمة تماماً مع التحذير من العقوبة الأخروية، لأنه عليه السلام يمثل البداية للبشر، ويوم القيامة يمثل نهاية مطافهم، من أجل ذلك عُرض مشهد الأعراف الذي

(١) المقدمة شملت الآيات: ١ - ١٠، والعرض القصصي لمسيرة التوحيد: ١١ - ١٧١، والتعقيب بذكر أدلة التوحيد: ١٧٢ - ١٩٨، والخاتمة: ١٩٩ - ٢٠٦. ومن لطائف هذه السورة أنها تميزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: سورة الأعراف أكثر سورة في القرآن وردت فيها لفظة (بأسنا) بالضمير العائد على الله تعالى، انظر الآيات: ٤، ٥، ٩٧، ٩٨. وانظر الآيتين: ٩٤، ١٦٥ اللتين تفيدان التحذير من بأس الله أيضاً، ثانياً: هي أكثر سورة في القرآن وردت فيها لفظة (آياتنا) وعبارة (كذبوا بآياتنا)، انظر الآيات: ٣٦، ٤٠، ٦٤، ٧٢، ١٠٣، ١٣٦، ١٤٦، ١٤٧، ١٧٦، ١٧٧، ١٨٢. وانظر الآيتين: ٣٧ ﴿كَذَّبَ بِآيَاتِنَا﴾، و٥١ ﴿بِآيَاتِنَا يَجْعَدُونَ﴾، ٩ ﴿بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾، ثالثاً: هي أكثر سورة في القرآن وردت فيها لفظة (استكبروا)، انظر الآيات: ٣٦، ٤٠، ٧٥، ٧٦، ٨٨، ١٣٣، ولاحظ الآيات: ١٣ ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، ١٤٦ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، ٢٠٦ ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾. رابعاً: هي أكثر سورة في القرآن وردت فيها لفظة (رسالات) العائدة على الله، انظر الآيات: ٦٢، ٦٨، ٩٣، ١٤٤ وانظر الآية: ٧٩ (رسالة ربي)، خامساً: بإمكانك أن تضيف أنها الوحيدة التي ذكرت فيها (الواح موسى) التي فصل الله فيها آياته وأحكامه: ١٤٥، ١٥٠، ١٥٤. وكل ذلك يؤكد المحور المذكور. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس. وسيأتي بيان مزيد من لطائفها عند الحديث عن سورة الإسراء إن شاء الله تعالى.

يبين حقيقة وقوع بأس الله يوم القيامة بمن استكبر عن آياته، ونجاة المؤمنين بهذه الآيات، قبل التفصيل في عرض مسيرة العقيدة بذكر نوح عليه السلام بداية وإلى موسى عليه السلام نهاية، واللافت أنك تجد في القصة تركيزاً على تكبر إبليس عن الأمر الإلهي بتفصيل لا تجده في سورة أخرى من القرآن، ولاحظ قوله تعالى: ﴿قَالَ فَأَهِيطَ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (١٣)، وذلك ملائم لمحور السورة، فإبليس أول المتكبرين، وهو أكبر داعٍ إلى التكبر عن آيات الله. وسيبين مشهد الأعراف مصير هؤلاء المتكبرين.

ولاحظ في التعقيب على القصة قوله تعالى المحذر من الاستكبار عن آيات الله: ﴿يَبَيِّنْ أَدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا يَنْتَهَى عَنْهُنَّ وَأَتَىٰ فَمَنَ اتَّقَىٰ وَاصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ؟، وفيه تصريح بالدعوة إلى الإيمان بآيات الله ورسله وعدم التكبر عنها.

ثم انتقل السياق إلى مشهد أخروي يبرز حقيقة وقوع بأس الله في المكذبين والمستكبرين عن آياته: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (٤١)، وحقيقة أمان المؤمنين من بأس الله تعالى، وأن الذي نجاهم إيمانهم بآيات الله ورسله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ فَجَازَىٰ مِنْ تَحَنُّنِهِمْ الْأَنهَرُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ أُرِثْتُمْوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾.

ويأتي مشهد الأعراف ليؤكد هذه الحقيقة بأجلى صورة، فلاحظ قوله تعالى عن المستكبرين والكافرين: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِذْ نُودُوا بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾، ولاحظ كيف حاق بهم بأس الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٥٥) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ

هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١﴾، بينما نجا أهل الأعراف من بأس الله؛ بسبب إيمانهم: ﴿أَمْثَلُكُمْ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٢﴾.

فإذاً، اسم السورة «الأعراف» ودلالاته يطلعنا على حقيقة وقوع بأس الله في المكذبين والمستكبرين عن آيات الله ورسله، ونجاة المؤمنين من ذلك البأس. فلننظر مدى الترابط بين ذلك وباقي موضوعات السورة.

ثم انتقل السياق إلى ذكر بعض الأدلة العقلية على التوحيد، وفي ذكر هذه الأدلة مزيد دعوة إلى تعظيم الآيات التي أنزلها الخالق العظيم على رسله عليهم السلام، فالله الذي يغشي الليل النهار، وسخر الشمس والقمر والنجوم، وأرسل الرياح بُشْراً، وأنزل من السماء ماء فأحيا به بلدة ميتاً، كذلك يخرج الموتى، وتتناسب هذه الأدلة مع دلالات اسم السورة من جهتين: فالتوحيد هو الأصل الأعظم الذي تدعو إليه رسل الله وآياته، وقد بين مشهد الأعراف مصير من آمن وكذب بالآيات والرسل، ثم إن ذكر قدرة الله على إحياء الموتى يثبت حقيقة مشهد الأعراف الأخروي.

ثم انتقل سياق السورة إلى قصة نوح عليه السلام، فتجد فيها الدعوة إلى الإيمان برسالات الله: ﴿أَتْلُغْكُمْ رِسَالَتِي رَبي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾، ثم لاحظ التركيز على موقف الملائكة المتكبرين: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنِكَ فِي صَلَائِ مُبِينٍ ﴿٤﴾ وتجد فيها التحذير من بأس الله الذي حاق بالمكذبين، ونجاة المؤمنين: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٥﴾. وقد فصل مشهد الأعراف حقيقة وقوع بأس الله في المتكبرين يوم القيامة، ونجاة المؤمنين في ذلك اليوم.

ثم تأتي قصة هود عليه السلام، فتجد فيها الدعوة إلى الإيمان: ﴿وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦﴾، وتجد فيها التركيز على موقف الملائكة المتكبرين أيضاً: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنِكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٧﴾، وتجد فيها أيضاً أن بأس الله قد حاق بالمكذبين، ونجاة المؤمنين: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾.

ثم تأتي قصة صالح عليه السلام، فتجد فيها أيضاً بيان موقف المستكبرين عن آيات الله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ اتَّعَلَمْتُمْ أَنَّكَ صَالِحٌ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّكَ قَالُوا إِنَّا بِكَ أَرْسَلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾، وتجد بأس الله قد حاق بهم بسبب تكذيبهم: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَاصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٧٨﴾ فَنَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحْتَسِبُونَ النَّصِيبَ ﴿٧٩﴾﴾.

ثم تأتي قصة لوط عليه السلام، فتجد فيها أيضاً عرض موقفهم المتكبر: ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ ﴿٨٧﴾، وتجد فيها نجاة المؤمنين، وبأس الله قد نزل بالمجرمين: ﴿فَأَنبِئْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَذَابَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

ثم تأتي قصة شعيب عليه السلام، فتجد فيها الدعوة إلى الإيمان بآيات الله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴿٨٥﴾، وتجد فيها موقف المستكبرين: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَٰئِكَ كَافِرِينَ ﴿٨٨﴾، وتجد فيها بأس الله ومكره قد حاق بهم بسبب كفرهم برسالات الله: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَاصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٢﴾ فَنَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

فأنت تلاحظ أن كل هذه القصص حوت تركيزاً على الدعوة إلى الإيمان بآيات الله ورسالاته، وحوت تركيزاً على موقف المستكبرين والمكذبين وبيان كيف حاق بهم بأس الله، وتركيزاً على نجاة المؤمنين من ذلك البأس، وذلك متناسق أشد التناسق مع مشهد «الأعراف» الذي أكد كل ذلك في اليوم الآخر بالتفصيل.

ثم يأتي التعقيب الإلهي على هذه القصص محذراً من بأس الله ومكره لمن كذب، ومثبتاً قانوناً ربانياً يقي المؤمن من ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا

يَكُنَّا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٧٧﴾ أَوَ آيَنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٧٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٧٩﴾ .

ثم تأتي قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وقد امتازت قصته في هذه السورة بعدة أمور تؤيد المحور الذي ذكرته، وتتلاءم مع اسم السورة «الأعراف» بدلالاته المذكورة:

فقد عرضت الموقف المستكبر لفرعون وملئه: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٧٨﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ فَأَمَّا ذَا ثَمَرُوتَ ﴿٧٩﴾ قَالُوا أَرْحِمْنَا وَأَخَاهُ وَارْسِلِ فِي الْمَدَائِنِ خَبِيرِينَ ﴿٨٠﴾ يَا ثُوكَ بِكُلِّ سَجِرٍ عَلِيمٍ ﴿٨١﴾ ، ومن ذلك أنها فصلت في عرض الآيات التسع التي أيد الله بها موسى عليه السلام ولا تجد ذلك في سورة أخرى من القرآن، وعرضت الموقف المستكبر لفرعون وملئه منها: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٨٣﴾ ، وانظر ماذا كان سبب غرقهم: ﴿فَأَنقَضْنَا مِنْهُمْ فَاغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ ﴿٨٤﴾ . فالتركيز على موقف المستكبرين والمكذّبين مهيمن على سياق القصة.

أما فيما يتعلق بقصة موسى عليه السلام مع قومه من بني إسرائيل فتجد فيها أموراً قد انفردت هذه السورة بعرضها، وهي متناسقة مع المحور المذكور ودلالات اسم السورة، فمن ذلك: ذكر طلب بني إسرائيل من موسى عليه السلام آلهة يعبدونها بعدما مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فكان هذا المشهد عرضاً لموقفهم من آيات الله مع فرعون وقومه التي رأوها بأم أعينهم، ثم كانت النتيجة أنهم أرادوا عبادة إله غيره! ولم يكد موسى عليه السلام يفارقهم حتى اتخذوا العجل إلهاً من بعده، وانظر كيف نزل بهم بأس الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ .

ومن ذلك طلب موسى عليه السلام رؤية الله عز وجل، واصطفاء موسى سبعين رجلاً لميقات الله، فأخذتهم الرجفة ، وبمقارنة بسيطة بين هذه الأمرين نجد أن موسى عليه السلام قد قال حينما أفاق: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، وأما بنو

إسرائيل فقد أصرّوا على الكفر حتى يروا الله جهرة، فأخذتهم الرجفة، فشتان بين مقولة موسى عليه السلام، وبين موقف قومه.

ومن ذلك التركيز على أهمية الإيمان برسالات الله إلى موسى عليه السلام: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ١٦١﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَامِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ١٦٢﴾، ولاحظ قوله تعالى في المتكبرين والمكذبين بتلك الآيات: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّآيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ سِيلَ الرُّشْدُ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَكُذِّبُوا سَبِيلَ الَّذِي يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ١٦٣﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٦٤﴾.

وفي سياق ذلك تأتي دعوة إلى الإيمان برسالة سيدنا محمد ﷺ كونه يمثل نهاية العرض التاريخي لمسيرة العقيدة التي جاءت بها آيات الله المنزلة على رسله، فانظر قوله تعالى المؤكّد لمحور السورة المذكور: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ الَّذِي آتَيْنَا الَّذِي يَحْدُوهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ١٧٧﴾ قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٧٨﴾.

كما وأن الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله ﷺ مؤكّد لما ذكرته المقدّمة من الدعوة إلى الإيمان بالقرآن والتحذير من العقاب يوم القيامة لمن كفر.

ومن ذلك التفصيل في مخالفتهم يوم السبت وإنكارهم على الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، فهذا أيضاً موقف مشين لبني إسرائيل من آيات الله تعالى، ثم تجد أن الله قد أنزل بهم بأسه فمسحهم قردة وخنازير. فأنت تجد أن السياق يركّز على المواقف المشينة لبني إسرائيل بعدما رأوا من آيات الله ما رأوا، لكنهم أصرّوا على الاستكبار والكفر، وفي

هكذا تجد بعد النطواف في مواضع السورة كلها أنها جاءت متضمنة لموضوعين يمثلان محور السورة: تعظيم آيات الله التي عرضتها مسيرة العقيدة في التاريخ البشري، والدعوة إلى الإيمان بها وبيان نجاة مَنْ آمَن، والتحذير من بأس الله لمن كذب بها واستكبر عنها. وهما موضوعان قد جلاهما مشهد الأعراف الذي سمّيت السورة باسمه أيّما تجلية. ولذلك سمّيت السورة به للدلالة على المحور المذكور.

سورة الأعراف

سورة الدعوة إلى الإيمان بآيات الله التي عرضتها مسيرة العقيدة في التاريخ البشري،
مع التحذير من العقوبة الدنيوية والأخروية لمن كذب بها

الموضوع الثاني: (الآيات ١١-١٧١)

عرض قصصي لمسيرة العقيدة التي جاءت بها آيات الله المنزلة على الرسل من لدن آدم إلى موسى عليهما السلام مع بيان عاقبة المؤمنين والمكذبين بها:

■ ابتداء عرض مسيرة العقيدة منذ بداية قصة خلق أبي البشر، فقد خلق الله آدم وأسجد له ملائكته، وعرضت القصة تكبر إبليس عن الأمر الإلهي وتوعده إغواء بني آدم.

■ وقد عقب السياق بعد نزول آدم من الجنة بالدعوة إلى الإيمان بالله التي يوحىها إلى رسله: ﴿بَيِّنْ يَادَمُ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكَ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكَ آيَاتِي فَمَنْ أَتَقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٥٥﴾.

■ عرض مشهد الأعراف حقيقة وقوع بأس الله بالذين كذبوا بآيات الله وجحدوا بها فكانوا من أهل النار، وعرض نجاة الذين آمنوا من بأسه تعالى فكانوا من أهل الجنة، فكان هذا المشهد حلقة الوصل بين عرض بدء خلق الإنسان، وبين عرض المصير الأخروي لبني آدم قبل تكملة عرض مسيرة العقيدة.

الموضوع الأول: (الآيات ١-١٠)

المقدمة التي تدعو إلى الإيمان بما تحذر به آيات القرآن من الحساب في اليوم الآخر:

■ افتتحت السورة بالدعوة إلى الإيمان بآيات الله التي أنزلها على النبي ﷺ: ﴿الْقَمَرَ ١﴾ كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِئُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنَ رَزَقٍ ٣﴾.

■ ثم دعت إلى الإيمان بما تحذر به آيات الله من الحساب الأخروي: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ٤﴾ فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ٥﴾ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٦﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ٧﴾.

■ ثم تابع السياق عرض مسيرة العقيدة،
فعرضت دعوة نوح عليه السلام قومه بآيات
الله، لكنهم كذبوه: ﴿كَذَّبُوهُ فَأَجْتَنَّهُ وَالَّذِينَ
مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

■ ثم عرض قصة هود عليه السلام الذي أبلغ
قومه رسالات ربه، لكنهم كذبوه: ﴿فَأَجْتَنَّهُ
وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعُوا دَائِرَ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

■ ثم قصة صالح عليه السلام الذي أيده الله بآية
الناقة، لكنهم كذبوه وعقروا الناقة، فأهلكهم
الله وأنجاه ومن آمن معه.

■ ثم قصة لوط الذي حذر قومه من إتيان الفاحشة
التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، لكنهم
قالوا: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ
يَبْظَهَرُونَ فَأَجْتَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِّنَ
الْمُتَّبِعِينَ ﴿١٦﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا قَانظِرًا
كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

■ ثم قصة شعيب الذي جاء قومه ببينة من ربهم،
لكنهم كذبوه فأهلكهم الله: ﴿فَقَتَلُوا عَنْهُمْ وَقَالَ
يَقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ
فَكَيْفَ ءَامَنُوا عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

■ ثم عرض قصة موسى عليه السلام الذي أيده
الله بتسع آيات قد فصل السياق في عرضها
على نحو لا يوجد في سورة أخرى، وعرض
موقف فرعون وقومه الذين أغرقهم الله بأنهم
كذبوا بآيات الله وكانوا عنها غافلين.

■ ثم عرض السياق طلب بني إسرائيل من موسى
آلهة من دون الله، بعدما رأوا من آيات الله ما
رأوا.

■ وعرض السياق عبادتهم للعجل، وفصل في
موضوع السبب على نحو لا يوجد في سورة
أخرى، ليؤكد بذلك حقيقة وقوع بأس الله
بالمكذبين والمتلاعبين بآيات الله وأحكامه.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٧٢-١٩٨)

تعقيب على عرض مسيرة العقيدة التاريخية بذكر
أدلة عقلية تؤكد عقيدة التوحيد وتحذر من الكفر
بها:

■ فالله هو الذي أخذ من بني آدم من ظهورهم
ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم: ألسنت
بريكم؟ قالوا بلى شهدنا.

■ عرض السياق مصير الذي آتاه الله آياته،
فانسلخ منها وأتبعه الشيطان فكان من
الغاوين، فكان مثله مثل الكلب.

■ دعا السياق إلى التفكر في ملكوت السماوات
والأرض.

■ وبين موقف بعض الناس إذ يجعلون الله شركاء
فيما يؤتيهم الله من الذرية، فتعالى الله عما
يشركون.

الموضوع الرابع: (الآيات: ١٩٩-٢٠٦)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

- أعادت التحذير من إبليس، إذ هو العدو الأول الذي يدعو بني آدم إلى الكفر بآيات الله.
- وردت على فريات المكذبين من أمة النبي ﷺ حول القرآن.
- وأمرت بتوقيف آيات الله والإنصات عند قراءتها كما أمرت المقدمة بتوقيف آيات الله.
- وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى اتباع الهدى الذي جاء به آيات الله، ختمت ببيان أن الملائكة لا يستكبرون عن عبادة الله ويسبحونه، وهي بذلك تدعو البشر إلى أن يكونوا كالملائكة في الإيمان وطاعة الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ سُحُودٌ﴾.

سورة الأنفال

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «النون والفاء واللام: أصل صحيح يدل على عطاء وإعطاء، منه النافلة: عطية الطوع من حيث لا تجب، ومنه نافلة الصلاة... ومن الباب: النَّفْل: الغنم، والجمع: أنفال، وذلك أن الإمام يُنْفَلُ المحاربين، أي يعطيهم ما غنموه»^(١)، فوصف الغنائم بالأنفال يدل على أنها عطية وزيادة من الله للمسلمين، وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فمن المعلوم أن هذه السورة نزلت تعقيباً على غزوة بدر التي كان من أحداثها أن غنم المسلمون بعض الغنائم من المشركين، وقد ذكر الأستاذ الدكتور عودة أبو عودة أن تسمية الغنائم بالأنفال فيه إشارة إلى أن الهدف الحقيقي من قتال الأعداء إنما هو لرفع كلمة الله، فإذا حدث أن غنم المسلمون شيئاً بعد أن يحققوا هذا الهدف، فإن هذه الغنائم زيادة رزقهم الله إياها^(٢).

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ١٠٣٩.

(٢) أ. د. عودة، شواهد في الإعجاز القرآني، ص ٩٤-٩٧، وقد ذكر لفظة جميلة أخرى، وهي أن السياق كرر كلمة «الأنفال» وليس بينهما إلا كلمة «قل»، والعهد في القرآن أن لا يكرر الكلمة المسؤول عنها، بل يعيد عليها بضمير مناسب، كقوله تعالى ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوْفِيتٌ لِلنَّاسِ وَالْمَحْجُوزَاتِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وذلك لأن إعادة الضمير على الكلمة المسؤول عنها يدل على أنها أشياء ثابتة، فالأهلة هي الأهلة، والمحيض هو المحيض، لكن في إعادة كلمة الأنفال دلالة على أن الأنفال عرضة للتغير من =

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً للربط بين موضوعات هذه السورة ومحورها واسمها، فذكروا أن بدء هذه السورة بالأنفال التي هي نتيجة معركة بدر، فيه تربية نفسية للمؤمنين بأن المبدأ أهم من العرض الدنيوي الزائل، فاسم السورة يحذّر من أن يتحوّل قتال المسلم من إعلاء كلمة الله إلى طلب المغانم الرخيصة، ومن جهة أخرى تطمئن السورة المؤمنين إلى أن القتال الخالص لله سيؤدي في النهاية إلى الأنفال التي هي الزيادة، فالاهتمام بالأصول يؤدي إلى تحصيل الفروع، ومن مقاصد هذه السورة أنها تعطي مبررات تقرير إلهية الله في الأرض وتحقيق منهجه في حياة الناس، فحديث السورة عن غزوة بدر الكبرى التي جعلها الله فرقاناً في مجرى التاريخ البشري، لا يجوز معه الاختلاف على الغنائم القليلة في تلك الواقعة، فسياق السورة يستلّ أن هذه المعركة بجماليتها من صنع الله وتدبيره، بقيادته وتوجيهه، بعونه ومدده، بفعله وقدره، له وفي سبيله، ومن ثم تجريد المسلمين من الأنفال، وتقرير أنها لله وللرسول، حتى إذا ردها عليهم كان ذلك مناً منه وفضلاً^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: تربية المؤمنين على التعبئة النفسية والمادية للجهاد في سبيل الله وطاعة الله ورسوله ﷺ، وبأن تكون النية في ذلك صادقة لوجه الله تعالى فقط، وذلك لأن مقاليد الأمور كلها بيده تعالى يقبّلها كيف يشاء، وإنما سمّيت السورة بالأنفال؛ لأن الدلالات اللفظية والسياقية لهذه الكلمة من جعلها لله وللرسول، ثم ردها على المؤمنين امتناناً من الله، أدلّ ما في السورة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة التعبئة النفسية والمادية السليمة للجهاد.

== حيث الزمان والمكان والكمية، ولو أعاد السياق على الأنفال بضمير: هي، لتؤمّن أن الإجابة كانت عن أنفال معركة بدر فقط. ولكان لنا أن نسأل: فما حكم أنفال أحد أو حنين مثلاً؟

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ١، ص ٢٧٧، والباقعي، نظم الدرر، ج ٣، ص ١٨١، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٣، ص ١٤٤٠-١٤٦٩، ورضا، تفسير المنار، ج ١٠، ص ٩٢-١١٧، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٩، ص ٢٤٧، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٣، ص ١٣٢، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ٤٨٥-٤٨٧، ووادي، ومهنّا، من دلالات أسماء السور، ص ٨٦-٩٢، ونوفل، د. أحمد، الحرب النفسية من منظور إسلامي، ط ١، دار الفرقان، عمان، ٢٠٠٤، ص ٩٢-١٠١.

(١١) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١- ٤، والتعبئة النفسية والمادية للجهاد: ٥- ٦٣، والخاتمة: ٦٤- ٧٥. ومن لطائف هذه السورة أن محورها ومحور سورة التوبة التي تليها يعطيان صورة متكاملة، فسورة الأنفال محورها التعبئة النفسية والمادية للجهاد مع صدق النية، دون التفات إلى عرض الدنيا، وسيأتي أن محور سورة التوبة التربية على اعتماد الجهاد سبيلاً للحفاظ على الدين ونشره، مع الدعوة إلى التوبة من المخالفات التي وقعت من بعض المؤمنين والمحسوبين عليهم من المنافقين والأعراب فيما يتعلق بالجهاد، وإليك بعض أوجه التناسق بين السورتين: أولاً: ذكرت مشتقات الجذر «نصر» المتعلق بدين الإسلام في السورتين ثماني مرات في كل منهما: انظر الآيات التالية في سورة الأنفال: ١٠ ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، ٢٦ ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنُصْرِهِ﴾، ٤٠ ﴿وَقَعَمَ الْنُصِيرُ﴾، ٦٢ ﴿أَيَّدَكَ بِتُصَيَّرِهِ﴾، ٧٢ ﴿وَالَّذِينَ آمَرُوا وَنَصَرُوا﴾، ﴿وَإِنْ أَسْتَصِرَّكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾، ٧٤ ﴿آمَرُوا وَنَصَرُوا﴾، وانظر في سورة التوبة: ١٤ ﴿وَيُصِرُّكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، ٢٥ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾، ٤٠ ﴿إِلَّا نَصْرُهُ فَفَءَ نَصْرَهُ اللَّهُ﴾، ٧٤ ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، ١٠٠ ﴿الْأَنْصَارُ﴾، ١١٦ ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، ١١٧ ﴿الْأَنْصَارُ﴾، ثانياً: ذكرت مشتقات الجذر «ولي» في سورة الأنفال ثلاث عشرة مرة، بينما في سورة التوبة ذكرت خمس عشرة مرة، وفيما يلي بعض التفصيل: (أ) جاء في الآيتين: ١٥، ١٦، من سورة الأنفال قوله تعالى ﴿فَلَا تَقُولُوا لِدُنْيَاكُمْ﴾، و﴿وَنَنْوِيْلَهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾، وانظر الآية ٢٥ من سورة التوبة عما حصل في غزوة حنين ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾، (ب) انظر الآية ٤٠ من سورة الأنفال ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ﴾، وانظر الآية ٥١ من سورة التوبة ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾، والآية ١١٦ ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، (ج) ذكرت كلمة «أولياء» في السورتين مرتين في كل منهما، انظر الآية ٧٢ في سورة الأنفال ﴿وَالَّذِينَ آمَرُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، وانظر الآية ٧١ في سورة التوبة ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، وانظر الآية ٧٣ في سورة الأنفال ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، وانظر الآية ٢٣ في سورة التوبة ﴿لَا تَتَّخِذُوا مَآبَاءَكُمْ وَلِئُونَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ أَسْتَجَبُوا لِكُفْرِهِمْ﴾، وثالثاً: خذ هذه الأمثلة على التناسق فيما يتعلق بالأموال: (أ) انظر الآية ٢٨ في سورة الأنفال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، وانظر الآية ٢٤ في سورة التوبة ﴿قَدْ إِنْ كَانَ مَالُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَلِئُونُكُمْ وَلِئُونُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ أَفْتَنَافُكُمْ وَتَحْزَنُكُمْ كَسَادَهَا وَمَسْكَنُكُمْ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ﴾، (ب) انظر الآية ٧٢ في سورة الأنفال ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وانظر الآية ٢٠ في سورة التوبة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَفْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾، (ج) انظر الآية ٣٦ في سورة الأنفال حول تصيير أموال الكافرين حصرة وخسارة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُؤْفِكُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾، وانظر الآية ٦٩ في سورة التوبة حول الموضوع نفسه:

أولاً: جاء في المقدمة سؤال يحوي عتاباً وتوجيهاً للمؤمنين حول موضوع الأنفال، إذ لم يكن من المفترض فيهم أن يقاتلوا مع رسول الله من أجل هذه الأنفال، ولذلك رفعها الله من أيديهم وجعلها في يد الله ورسوله ﷺ: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۖ﴾ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) ، ولاحظ أن السياق بعد أن رفع حكم الأنفال إلى الله ورسوله ﷺ، قد أمرهم بتقوى الله وإصلاح ذات البين، وطاعة الله والرسول ﷺ، وكل ذلك بمثابة تعبئة نفسية للمؤمنين، فما ينبغي للمؤمن أن يسأل عن العرض الزائل، بل ينبغي له أن يتحلّى بهذا الصفات ويكلّ أمره إلى مولاه ذي القدرة المطلقة، ولاحظ الأمر بالإنفاق الذي هو بمثابة تعبئة مادية للجهاد، فما من حرب إلا وهي بحاجة لأموال من أجل تجهيز الجيش، ولاحظ أيضاً وعدهم بالرزق الكريم من لدن الله تعالى، فالمنفق إنما ينفق ابتغاء الأجر والثواب من الله فقط، ولا يلتفت إلى عرض الدنيا .

فأنت تلاحظ إذاً أن هذه المقدمة قد أوجزت الحديث عن محور السورة الذي دلّ عليه اسم الأنفال .

= ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا...﴾، ورابعاً: مشتقات «نفق» العائدة على الأموال في سورة الأنفال ذكرت خمس مرات، انظر منها الآية ٦٠ ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾، وذكرت هذه المشتقات في سورة التوبة عشر مرات، انظر منها الآية ١٢١ ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَوِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُنِيبٌ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣)، وخامساً: اسم الله تعالى «العزیز» ذكر في سورة الأنفال أربع مرات : ١٠ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ٤٩ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ٦٣ ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ٦٧ ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وفي سورة التوبة ذكر مرتين : ٤٠ ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ٧١ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وسادساً: جاء الأمر ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في سورة الأنفال ثلاث مرات : ١، ٢٠، ٤٦، وانظر الآية ٧١ في سورة التوبة ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، وسابعاً: وصف المنافقين بأنهم في قلوبهم مرض جاء مرة في سورة الأنفال : ٤٩، ومرة في سورة التوبة : ١٢٥، وثامناً: انظر الآية ٣٢ في سورة الأنفال ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا﴾، وانظر الآية ٣٣ في سورة التوبة ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾، وتاسعاً: كلمة «الباطل» جاءت مرة في سورة الأنفال : ٨، ومرة في سورة التوبة : ٣٤. ينظر: عبد الباقي، المعجم المفهرس. وإذا راجعت هذه المواضع في سياق السورتين ستجد أنها جاءت على نحو يناسب المحور المذكور ودلالات اسم كل سورة منهما .

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى زيادة البيان في تربية المؤمنين على التعبئة النفسية والمادية للجهاد في سبيل الله، وبشرط أن تكون النية خالصة له تعالى، وقد كان أول توجيه لهم معابتهم على كراهية بعضهم القتال في المعركة، وتفضيلهم لغنيمة قافلة أبي سفيان: ﴿كَأَنَّكَ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾، ولاحظ التحذير من تفضيل عرض الدنيا على القتال، فالله تعالى بحكمته أراد أن تتحول الظروف من غنيمة القافلة إلى المواجهة العسكرية لقريش، فلا ينبغي للمؤمن الجدال في ذلك، علماً بأن الله قد وعدهم بالنصر. وكل ذلك كما ترى تعبئة نفسية للجهاد.

ثم انتقل السياق إلى بيان بعض ما امتنَّ الله به على المؤمنين في تلك المعركة، فقد استجاب الله لاستغاثتهم وأمدَّهم بألف من الملائكة، وغشاهم النعاس وجعلهم أمنة من لدنه، وأنزل عليهم من السماء ماء ليطهرهم به، وأذهب عنهم رجز الشيطان، وربط على قلوبهم، وثبت أقدامهم وأمدَّهم بالنصر، فالمعركة إذاً «بجملتها من صنع الله وتديره، بقيادته وتوجيهه، بعونه ومدده، بفعله وقدره، له وفي سبيله»^(١)، وإذا كان الأمر كذلك فلم تسألون عن الأنفال إذاً؟

ومن الأوامر التي تعبى المؤمنين نفسياً للقتال تحريم الهروب من المعركة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْاَذْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقَالٍ أَوْ مُتَحَرِّيًا إِلَيْكَ فِتْنَةً فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾.

ومن الأمور التي تصب في تعبئة المؤمنين للقتال نفسياً أيضاً تهوين شأن الكافرين: ﴿ذَلِكَ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدًا لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾، ولاحظ ذكر معية الله للمؤمنين، التي تملأ نفوسهم اطمئناناً؛ لأن الله ذا القدرة المطلقة معهم.

(١) قطب، في ظلال القرآن، ج ٣، ص ١٤٦٤.

وانظر إلى هذا الأمر الخاص بالمؤمنين: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٦﴾﴾، وانظر إلى هذا الامتنان الإلهي عليهم الذي يبين كمال قدرة الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَاوَسْتُمْ وَاتَّخَذْتُمْ بِضُرِهِمْ وَرَزَقِكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَنُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحْزَنُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا آمَوْلَكُمُ وَأَوْلَدُكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾، ولاحظ ذكر رزقهم الطيبات، ولاحظ التحذير من أن يوقع حب المال والدنيا في الخيانة، ولاحظ التحذير من فتنة الأموال والأولاد، ألا يرتبط ذلك مع التحذير من الانشغال بالأنفال عن أن تكون النية خالصة لوجه الله تعالى؟

وانظر إلى هذا التهوين من شأن الكافرين والمتعلق بالأموال أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ لِيَمِزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣١﴾﴾، فهم يعتمدون على أموالهم في نيتهم السيئة وهي الصّد عن سبيل الله، ولاحظ كمال القدرة الإلهية في تصيير هذه الأموال وبالأحرى وحسرة عليهم، ولاحظ كمال قدرته تعالى في حشرهم إلى جهنم يوم القيامة، إن هذا كله يحذر المؤمنين من الركون إلى الأموال والعرض الزائل، ومن أن تكون النية لأي شيء سوى وجه الله، بالإضافة إلى ما فيه من تعبئة نفسية ومادية تحثهم على الجهاد والإنفاق في سبيله.

والآن بعد هذه الأوامر المعبّنة لنفسية المؤمنين مادياً ومعنوياً، انتقل السياق إلى التفصيل في حكم الأنفال الذي رفعه إلى الله ورسوله ﷺ أول السورة: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَلِالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَفَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٢﴾﴾، فبعد أن رجعت النية إلى مسارها الصحيح، وأصبحت نفسية المؤمنين معبّاة بتعبئة صحيحة، امتنّ الله برّد الأنفال عليهم، ولاحظ إعادة التذكير بالإيمان وبطاعة الرسول ﷺ، فلا ينبغي

أن تكون هذه الأنفال هدفاً لكم، إنما هي مجرد جزاء عاجل بسيط لا يعدل شيئاً أمام الجزاء الأخروي الآجل لمن آمن وصلحت نيته.

ومن الأمور التي تبين كمال القدرة الإلهية في تسيير الأمور والظروف حسب مشيئته تعالى، أن أرى الله رسوله ﷺ جيش العدو في منامه قليلاً، فبشر أصحابه بذلك ورفع معنوياتهم، وقد أرى الله المؤمنين عدوهم قليلاً أيضاً في بداية المعركة، وانظر إلى هذا الأمر الذي يرفع معنوية الجندي المؤمن عالياً في السماء: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٩﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾، فذكر المؤمن لربه في تلك الموقف العصيبة يجعله مطمئناً بأن الله ذا القوة والقدرة المطلقة معه، ولاحظ التحذير من التنازع المؤدي للفشل، والأمر بالطاعة التامة لله ولرسوله ﷺ.

وقبل الانتقال للخاتمة بين السياق أن الكافرين قد جعلوا من الشيطان ولياً لهم، فكانت النتيجة أنه نكص على عقبيه وتبرأ منهم، وحذر السياق من المنافقين ذوي القلوب المريضة، وأمر المؤمنين بعدم الالتفات إليهم، والتوكل على الله، وذكر السياق شيئاً من أحكام السلم، فللمؤمنين أن يجنحوا للسلم شريطة أن يكون العدو هو من يطلب ذلك.

وانظر إلى هذا الأمر الإلهي المعبر عن محور السورة ودلالات اسمها بأبلغ صورة: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

فأنت ترى أن هذا القسم الأكبر من السورة يحوي عرضاً مفصلاً لمحور السورة من عدة جوانب، فهو يعبئ المؤمنين نفسياً ومادياً، ويبرز لهم كمال القدرة الإلهية في توجيه الأمور والظروف حسب إرادته الحكيمة، وبالتالي يجب الاعتماد عليه وحده، دون الالتفات إلى عرض زائل يغير النية كالأنفال، كما وأنه يهون من شأن الكافرين. وكل ذلك مترابط أشد الترابط مع دلالات اسم السورة.

ثالثاً: بقيت الخاتمة التي تحوي تأكيداً لكل ما سبق، فقد أعادت التذكير بالتعبئة النفسية والمادية للجهاد: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢﴾ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ

الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ أَلَنْ خَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ ، وحذرت من الركون إلى شيء من عرض الدنيا مما قد يغير النية فلا يجعلها خالصة لوجه الله: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنْيَ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُنْجِزَ فِي الْأَرْضِ تَرْيُودَاتٍ عَرْضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ، وانظر إلى هذا الامتنان الإلهي على المؤمنين المتقين: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٨﴾ ، فقد أعاد لهم الأنفال التي اختلفوا عليها ، لكن بعد أن صحت نياتهم ، وكملت تعبتهم النفسية والمادية .

وكما افتتحت السورة ببيان صفات المؤمنين بعد أن عاتبهم على طلبهم الأنفال ، ختمت السورة أيضاً بذكر صفات المؤمنين ، « ولاحظ أن آخر السورة الكريمة عاد للحديث عن صفات المؤمنين ، ولكنه جعل للإيمان علامات ومؤشرات أخرى أرقى من هذه في الرتبة وأشد في التطبيق: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ ، وكأن السورة الكريمة تلفتنا إلى أن التربية قد آتت ثمراتها وأكلها الطيب ، فهاهم المؤمنون قد علت درجاتهم من مجرد إقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله ، إلى الهجرة والجهاد والإيواء والنصرة ، ولاحظ كيف تناغم وتناسق أول السورة مع آخرها»^(١) . وهكذا التقى البدء والختام على محور التعبئة النفسية والمادية للجهاد في سبيل الله دون التفات إلى عرض الدنيا ، وهو ما دلّ عليه اسم السورة ، وتناسق معه أكمل التناسق .



(١) نوفل ، د . أحمد ، الحرب النفسية من منظور إسلامي ، ص ٩٣ .

سورة الأنفال

سورة التعبئة النفسية والمادية للجهاد

الموضوع الأول: (الآيات ١-٤)

المقدمة التي تعالج موضوع الأنفال وتبين الصفات التي ينبغي أن يتحلّى بها المؤمنون:

- افتتحت السورة بالأمر بتصحيح نية القتال بأن تكون خالصة لله دون الالتفات إلى عَرَض الدنيا: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ﴾.
- ثم أمرت المؤمنين بتقوى الله وإصلاح ذات البين وطاعة الله والرسول ﷺ، وفي ذلك تعبئة نفسية للجهاد.
- وبيّنت أن المؤمنين الذين إذا ذكروا الله وجلت قلوبهم، وتزيدهم آيات الله إيماناً وعليه يتوكلون، ويقىمون الصلاة، وينفقون مما رزقهم الله، والأمر بالنفقة بمثابة تعبئة مادية للجهاد.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٢٥-٦٣)

التعبئة النفسية والمادية للجهاد من خلال بيان بعض مَنَنَ الله تعالى على المؤمنين في معركة بدر:

- ابتدأت بمعاتبة بعض المؤمنين الكارهين للقتال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرَبّاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَافِرُونَ﴾.
- ومما يعبى نفسية المؤمنين أن الله قد وعدهم إحدى الطائفتين، إما القافلة أو الحرب، وقد عاتبهم السياق على تفضيلهم القافلة على القتال.
- ومما يعبى نفسية المؤمنين أيضاً قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾.
- ومن ذلك تهوين شأن الكافرين: ﴿ذَلِكَم وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾.
- ومن ذلك الأمر بطاعة الله ورسوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.
- ومنه التحذير من خيانة الله والرسول وخيانة الأمانات.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٦٤-٧٥)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

- أعادت التذكير بالتعبئة المادية والنفسية للقتال: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ حَرِصَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾.
- وقد حذرت من الركون إلى الدنيا لأنها تغير النية السليمة: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُنْجِسَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان الصفات التي ينبغي أن يتحلّى بها المؤمنون، ختمت بتذكيرهم بهذه الصفات لكن برتبة أرقى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

- ومما يعبى المؤمنين مادياً للقتال التحذير من فتنة المال والأولاد: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَاكُمُ وَأَوْلَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.
- وقد بيّنت السورة أن الأموال التي ينفقها الكافرون للصد عن سبيل الله ستكون حسرة عليهم ثم يغلبون.
- بعد هذه الأوامر التي تعبى المؤمنين نفسياً ومادياً للقتال تعبئة سليمة، بيّنت السورة حكم الأنفال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ الْفَرَقَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.
- وقد أمرت السورة المؤمنين بذكر الله تعالى حالة الحرب، وبالثبات على الحق وطاعة الله والرسول ﷺ وبعدم التنازع، وحذرتهم من كيد الشيطان.
- ومما يعبى المؤمنين مادياً للقتال قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

سورة التوبة

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ
الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ
إِنَّهُمْ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ
عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ
اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٨﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «التاء والواو والباء كلمة واحدة تدلّ على الرجوع، يقال: تاب من ذنبه، أي: رجع عنه»^(١)، وقد أكد الإمام ابن منظور رحمه الله ذلك حيث قال: «التوبة: الرجوع من الذنب. . وتاب إلى الله يتوب توباً وتوبة ومتاباً: أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة. . وتاب الله عليه: وفقه لها»^(٢)، وأما أهمّ الدلالات السياقية لاسم السورة فهي دعوة المؤمنين إلى التوبة من المخالفات التي حصلت من بعضهم في غزوتي حنين وتبوك.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم السورة ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة تتناول موضوع التوبة من جميع جوانبه ولكافة الأطراف، فقد تضمّنت توبة الله تعالى على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار، وجاء فيها دعوة للمقصرين بالتوبة والرجوع عن التقصير، وفتحت مجالاً للتوبة لغير المؤمنين لعلهم يتركون مخالفاتهم، كما وأن هذه السورة قد تضمّنت أحكاماً نهائية في العلاقات بين الأمة الإسلامية وسائر

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ١٧٥.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج ٢، ص ٢٤٤. بتصرف.

الأمم في الأرض، وتضمنت تصنيفاً ووصفاً دقيقاً للمجتمع المسلم يبرز ما وقع منهم من أعمال غير منسجمة مع المنهج الرباني، وكل ذلك دلّ عليه اسم السورة «التوبة»^(١).

لكنني لاحظت أن الموضوع الرئيسي الذي يتعلق بالدلالات اللفظية والسياقية لاسم السورة هو الجهاد، فمن الممكن أن يبنى على الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: تربية الأمة الإسلامية على اعتماد الجهاد سبيلاً للحفاظ على الدين ونشره في الأرض، وذلك من خلال بيان بعض مخالفات المسلمين التي تستوجب التوبة في غزوتَي حنين وتبوك، وبيان مخالفات تستوجب التوبة حصلت من المحسوبين عليهم من المنافقين والأعراب، والتحذير من أعمال تستوجب التوبة حصلت من المشركين وأهل الكتاب. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة الدعوة إلى التوبة من المخالفات المتعلقة بالجهاد الذي ينبغي أن يتخذ سبيلاً للدفاع عن الدين ونشره.

وبتأمل موضوعات السورة يظهر الترابط بينها وبين الدلالات اللفظية والسياقية لاسم السورة، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن تقسيم السورة إلى خمسة موضوعات رئيسية، أولها: مقدّمة تدعو إلى المفاصلة العقدية بين الأمة المسلمة والمشركين، مع التحذير من أعمال المشركين التي تستوجب التوبة، وثانيها: توجيهات تربوية للأمة المسلمة مع ذكر بعض مخالفات تستوجب التوبة في غزوة حنين، وثالثها: التحذير من أعمال تستوجب التوبة لأهل الكتاب والمشركين، ورابعها: توجيهات تربوية للأمة الإسلامية مع ذكر بعض مخالفاتهم ومخالفات المحسوبين عليهم من المنافقين والأعراب في غزوة تبوك، وخامسها: خاتمة مؤكّدة لما سبق^(٢).

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ١، ص ٢٩٢، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٣، ص ٢٥٥، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٣، ص ١٥٦٤ - ١٥٧٠، ورضا، تفسير المنار، ج ١١، ص ٧٢ - ١٠٥، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٠، ص ٩٩، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٣، ص ١٩٠ و ١٩١، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ٥١٥ - ٥١٧، ووادي، ومنها، من دلالات أسماء السور، ص ٩٤ - ١٠٠.

(٢) مقدّمة السورة شملت الآيات: ١ - ١٥، والتوجيهات للأمة المسلمة مع ذكر مخالفات يوم حنين: ١٦ - ٢٨، والتحذير من أهل الكتاب والمشركين: ٢٩ - ٣٧، والتوجيهات التربوية للأمة المسلمة مع ذكر مخالفات غزوة =

أولاً: جاء في مقدمة السورة توجيهات عدّة للأمة المسلمة تدعوها إلى المفاصلة العقدية بينها وبين المشركين، وتدعو المشركين إلى التوبة والإيمان بالله، وإلا فإن الحرب معلنة من المسلمين عليهم: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١﴾ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين ٢ وأذن من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ٣، فالمقدمة تربّي الأمة الإسلامية على مبدأ جهاد أعداء الله إذا أصرّوا على كفرهم ولم يتوبوا إلى خالقهم، وقد بينت المقدمة كذلك بعض الأسباب الداعية إلى المفاصلة بين المسلمين والمشركين وضرورة قتالهم إن أصرّوا على كفرهم: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يُرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَسِيقُونَ ٨﴾ اشتروا عيانت الله ثمناً قليلاً فصدّوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون

= تبوك: ٣٨-١١٠، والخاتمة: ١١١-١٢٩. ومن لطائف هذه السورة: أولاً: ما ذكره مؤلفو التفسير الموضوعي والباحثان عيسى ومحمود من أن سورة التوبة أكثر سورة في القرآن تكرر فيها مشتقات الجذر «توب»، وذلك سبع عشر مرة، ينظر: المصدران السابقان في ذات الصفحات المشار إليها، وإليك بعض تفصيلات هذا التكرار: سورة التوبة والبقرة أكثر سورتين في القرآن نسبت فيها التوبة إلى الله تعالى، وقد كان ذلك عشر مرات لكل منهما، ولكن سورة التوبة امتازت بكونها أكثر سورة في القرآن نسبت فيها التوبة إلى البشر، وذلك سبع مرات ولأصناف مختلفة من البشر: ثلاث مرات عن المشركين: ٣، ٥، ١١، ومرتان عن المؤمنين: ١١٢، ١١٨، ومرتان عن المنافقين: ٧٤، ١٢٦، وثانياً: سورة التوبة أكثر سورة في القرآن ذكرت فيها مشتقات الجذر «جهاد»، وكان ذلك عشر مرات، وإليك التفصيل: جاء فعل الأمر بصيغة الجمع «جاهدوا» في سورة التوبة مرتين: ٤١، ٨٦، ولم يتكرر هذا الفعل بهذه الصيغة في القرآن إلا في هذه السورة، وسورتا التوبة والأنفال أكثر سورتين في القرآن تكرر فيهما الفعل الماضي بصيغة الجمع «جاهدوا» في سياق مدح المجاهدين، وذلك ثلاث مرات، انظر الآيات من سورة التوبة: ١٦، ٢٠، ٨٨، لكن سورة التوبة امتازت بمرة رابعة بصيغة المفرد «جاهد»: ١٩، وقد جاء فيها أمر النبي ﷺ بالجهاد «جاهد» مرة واحدة: ٧٣، وقد اشتركت في ذلك مع سورتي التحريم والفرقان، وقد جاء فيها ذم المنافقين لتركهم الجهاد مرتين: ٤٤، ٨١، وقد جاء فيها المصدر «جهاد» مرة واحدة: ٢٤، وثالثاً: سورة التوبة أكثر سورة في القرآن تكرر فيها فعل الأمر للمؤمنين بصيغة الجمع «قاتلوا»، وذلك خمس مرات: ١٢، ١٤، ٣٦، ١٢٣ (عن قتال الكفار والمشركين)، ٢٩ (عن قتال أهل الكتاب)، ورابعاً: سورة التوبة أكثر سورة تكرر فيها مشتقات الجذر «ضيق» في سياق ذم ترك الجهاد، وذلك ثلاث مرات: ٢٥ ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾، ١١٨ ﴿سَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾، ١١٨ ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾. ينظر: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

﴿٩﴾ لَا يَرْقُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخِزْنُكُمْ فِي الَّذِينَ وَتُفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ، فهم إذا كانوا لا يقيمون اعتباراً لآيات الله تعالى، فكيف سيكون عندهم احترام لمعاهداتهم مع المؤمنين؟ ولا حظ دعوتهم إلى التوبة وإقامة الصلاة، التي تجعلهم إخواننا في الدين إن التزموا بها .

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى توجيهات تربوية للأمة الإسلامية، تبرز لهم أن دينهم وحده هو الحق، وأن السبيل للدفاع عنه ونشره هو الجهاد، وتدعوهم إلى التوبة من المخالفات التي وقعت من بعضهم في غزوة حنين: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَهً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٣﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٤﴾ ، فعمارة مساجد الله إنما تكون حسب المنهج الذي ارتضاه، وأبن سدانة البيت وسقاية الحجيج التي كان يقوم بها المشركون من الإيمان بالله والجهاد في سبيله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ .

وقبل الانتقال إلى ذكر مخالفات بعض المسلمين في غزوة حنين، ذكر السياق توجيهات تربوية عدة متعلقة بموضوع الجهاد أيضاً، فقد بين السياق أن مَنْ آمَنَ وهاجر وجاهد في سبيل الله هم أصحاب الدرجة العظمى عند الله، وحذر من موالاته الكفار حتى لو كانوا من الآباء أو الإخوان، وحذر أيضاً من تفضيل الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشائر والأموال على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله، وهذه توجيهات بمثابة تهيئة لذكر مخالفات غزوة حنين .

ثم انتقل السياق إلى ما يتعلق بغزوة حنين: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٦﴾ ، فهذه المخالفة المذكورة تقع في صميم

العقيدة، وهي متسقة مع التوجيهات المذكورة قبلها، وذلك أنه قد حصل اعتماد على الكثرة من دون الله، وكادت أن تؤدي للهزيمة لولا لطف الله، ولكن باب التوبة مازال مفتوحاً: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧).

فأنت تلاحظ أن هذه التوجيهات تربي المؤمنين على اعتماد الجهاد في سبيل الله سبيلاً للدفاع عن الدين ونشره في الأرض، وتدعوهم إلى التوبة من المخالفات التي وقعت منهم فيما يتعلق بهذا الموضوع، وذلك متلائم مع دلالات اسم السورة كما لا يخفى.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى أمر آخر خطير فيما يتعلق بموضوع التربية، وهو بيان المخالفات التي وقعت من أهل الكتاب وبعض المشركين تستوجب عليهم التوبة إلى الله، فيجب على المؤمنين الحذر منها، مع بيان وجوب جهادهم إن هم أصروا على كفرهم: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٩)، فالدفاع عن دين الله ونشره إنما يكون بجهاد هؤلاء حتى تكون الكلمة العليا لدين الله، فإما أن يتوب أهل الكتاب إلى الله ويؤمنوا، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

أما الأعمال والمعتقدات الباطلة التي وقع فيها أهل الكتاب، فهي أنهم أولاً زعموا أن عَزْرِيّاً وعيسى ابن مريم أبناء الله تعالى، وثانياً: أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله يطيعونهم في الباطل طاعة عمياء، وثالثاً: أنهم يريدون إطفاء نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ورابعاً: أن كثيراً من أحبارهم ورهبانهم - وهم الصفوة - يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله، ويكتزون الذهب والفضة ولا يؤدّون حقّ الله فيها، ولاحظ أن هذه المخالفات متسقة مع التوجيهات السابقة للمؤمنين، إذ حذرتهم من تفضيل القرابة والأموال على حبّ الله ورسوله ﷺ والجهاد في سبيله.

وأما العمل الذي ذكره السياق وحذّر المؤمنين منه فيما يتعلق بالمشركين، فهو أنهم يتلاعبون في تقديم وتأخير الأشهر الحرم؛ ليبيحوا لأنفسهم القتال، وذلك ظلم يجب الحذر منه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ

كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ، ولاحظ الدعوة إلى قتالهم كافة كما يقاتلون هم المؤمنون كافة، وهذا متسق مع محور السورة الداعي إلى الجهاد للحفاظ على الدين ونشره .

رابعاً: ثم انتقل السياق إلى الموضوع الأكثر خطورة فيما يتعلق بموضوع التربية على الجهاد، وهو بيان بعض مخالفات المسلمين في غزوة تبوك، وبيان مخالفات المحسوبين عليهم من المنافقين والأعراب، ويلاحظ أن هذا الموضوع قد أخذ الحجم الأكبر من السورة، وذلك لتعدد مخالفات المسلمين في تلك الغزوة ذات الظروف العسيرة، ولتعدد وخطورة مخالفات المنافقين والأعراب فيها، ولا يخفى أن المنافقين بمثابة عدو داخلي يجب التحذير منه .

وقد قدم السياق ذكر المخالفة الأولى للمؤمنين اهتماماً بشأنهم، وهي تناقل بعضهم عن النهوض للقتال في غزوة العُسرة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتِلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ ، ولاحظ إعادة التذكير بعدم تفضيل الدنيا على الجهاد، وانظر قوله تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ .

ثم شرع السياق بعرض تفصيلي لمخالفات المحسوبين على المسلمين من المنافقين والأعراب، وقد ابتدأ ذلك بعتاب النبي الكريم ﷺ على قبول أعدائهم الكاذبة، فقد كانت أولى مخالفاتهم هي تذرّعهم بالأعداء الكاذبة حتى لا يخرجوا إلى القتال، وقد بيتوا نية السوء تجاه النبي ﷺ: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَسْتَوِلُوا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ ، وكرهوا تقديم النفقات لتجهيز الجيش، وكانوا يلمزون المطّوعين من المؤمنين في الصدقات، وتلقظوا بالفاظ في حق النبي ﷺ تنم عن عدم إيمانهم: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ ، وهم على استعداد أن يحلفوا بالله كاذبين ليرضوا الرسول ﷺ والمؤمنين، والله أحق أن يرضوه، وهم يأمرّون بالمنكر وينهون عن المعروف، وقد حذر السياق من موالاتهم، وأمر بأن تكون

الموالة للمؤمنين فقط: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.

وانظر إلى هذا الأمر المنسجم مع محور السورة: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾، ومن الأوامر الداعية إلى المفاصلة بين المؤمنين وبين هؤلاء المنافقين النهي عن الاستغفار لهم: ﴿أَسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٨﴾﴾، ولم يكن الأعراب بأقلّ سوءاً من المنافقين: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾، فهم أيضاً يكرهون الخروج للقتال ويؤثرون راحة الحياة الدنيا، وانظر قوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُودِ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾، ولم يغفل السياق إنصاف الأعراب المؤمنين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ويتخذون ما ينفقون قربة عند الله وصلوات الرسول ﷺ.

فأنت ترى أن هذا القسم الأكبر من السورة يدعو المؤمنين إلى التوبة من المخالفات التي وقعت منهم في غزوة تبوك، ويحذّرهم من الأعمال التي قام بها المنافقون والأعراب، وهذا منسجم مع محور السورة ودلالات اسمها كما لا يخفى.

خامساً: بقيت الخاتمة التي تحوي تأكيداً لما سبق، فقد أعادت التذكير بمحور السورة الداعي إلى التزام منهج الجهاد للحفاظ على دين الله ونشره: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرَّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٠﴾ التَّائِبُونَ الْعَمِدُونَ الْحَدِيثُونَ السَّخِيحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾﴾، ولاحظ أن أول صفة للمؤمنين هي وصفهم بالتائبين، لينسجم ذلك مع دلالات اسم السورة، ولاحظ

أيضاً أن صفاتهم المذكورة تقابل بصورة عكسية ما قام به المنافقون والأعراب من المخالفات.

وقد أعادت الخاتمة التذكير بالمفاصلة العقدية بين المؤمنين والمشركين، ونهت عن الاستغفار لهم حتى لو كانوا أولي قربي، وجاء في ختام السورة امتنان من الله تعالى على الرسول ﷺ وعلى المؤمنين الذين وقع من بعضهم مخالفات في غزوة تبوك تستوجب التوبة: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَلْفَضُوا فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ يَهْمُ رَوْفٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ آمَنُوا خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٨﴾﴾، وأعادت التذكير بأخذ الحيطة والحذر من المنافقين والأعراب المتصلين من الجهاد في سبيل الله.

وكما افتتحت السورة ببراءة الله ورسوله ﷺ من المشركين الحائدين عن منهج الله، وأمر المؤمنين بالتزام منهج الجهاد للحفاظ على الدين، ختمت كذلك بالتحذير من المنافقين والأعراب المتصلين من الجهاد في سبيل الله، وأمرت المؤمنين بموالاة الله ورسوله ﷺ والالتزام بالمنهج الرباني: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٢٠﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَا مِنْ بَرٍّ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٢٢﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٤﴾﴾، وهكذا التقى البدء والختام على محور السورة الداعي إلى التزام الجهاد في سبيل الله والتوبة من المخالفات المتعلقة به، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة التوبة

سورة الدعوة إلى التوبة من المخالفات المتعلقة بالجهاد الذي ينبغي أن
يتخذ سبيلاً للدفاع عن الدين ونشره

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٦-٢٨)

توجيهات تربوية للمؤمنين مع ذكر بعض
مخالفات غزوة حنين:

- دعت السورة إلى اعتماد مبدأ الجهاد لنشر الدين: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾.
- وبينت أن الجهاد في سبيل الله أعظم عند الله من سقاية الحاج وسدانة البيت: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.
- أما فيما يتعلق بغزوة حنين فقد بين السياق أن الذي نصر المسلمين في ذلك اليوم هو الله، وليس كثرتهم التي أعجبتهم.
- وقد بقي الباب مفتوحاً للتوبة من تلك المخالفات: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

الموضوع الأول: (الآيات ١-١٥)

المقدمة التي تدعو إلى المفصلة العقدية بين أمة
الإسلام وبين المشركين:

- افتتحت السورة بإعلان براءة الله ورسوله من المشركين.
- وجاء فيها تربية للمؤمنين على مبدأ جهاد أعداء الله إن أصرّوا على كفرهم، ولم يتوبوا إلى خالقهم: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْإِنْسَانُ الْحُزْمَ فَاقتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَرُّوا عَنْكُمْ فِي الدِّينِ وَتُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٩-٣٧)

التحذير من أعمال تستوجب التوبة متعلقة بأهل الكتاب والمشركين:

■ دعت السورة إلى قتالهم لأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

■ بين السياق زيف عقائد اليهود والنصارى حينما زعموا أن عُزَيْرًا وعيسى ابن مريم أبناء الله تعالى، وبين أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وأنهم يريدون إطفاء نور الله بأفواههم، وأن كثيراً من أحبارهم ورهبانهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله.

■ وبين السياق أن المشركين يتلاعبون في تقديم الأشهر الحرم وتأخيرها ليبيحوا لأنفسهم القتال، وقد أمرت السورة بقتالهم كافة كما هم يقاتلون المؤمنين كافة: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا بُقِلْتُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٣٨-١١٠).

توجيهات تربوية للمؤمنين مع ذكر بعض مخالفاتهم ومخالفات المنافقين والأعراب في غزوة تبوك:

■ حذر السياق المؤمنين من التشاغل عن النفير في سبيل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾.

■ وحذر من تفضيل الدنيا ومتاعها على الجهاد. وعاتب النبي ﷺ على قبول أعذار المنافقين الكاذبة عن القتال.

■ وبين أنهم كرهوا تقديم النفقات لتجهيز الجيش، وكانوا يلزمون المطّوعين من المؤمنين في الصدقات، وتلفظوا بألفاظ في حق النبي ﷺ تنم على عدم إيمانهم.

■ أمر السياق بجهاد الكفار والمنافقين إذا لم يتوبوا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾.

■ وبين أن من الأعراب من يكرهون أيضاً الخروج للقتال، ويؤثرون راحة الدنيا وأنهم أشد كفراً ونفاقاً.

الموضوع الخامس: (الآيات: ١١١-١٢٩)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

- أعادت التذكير بالدعوة إلى اعتماد الجهاد منهجاً للحفاظ على دين الله ونشره: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَدِّمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.
- وأعادت التذكير بالمفاصلة العقدية بين المؤمنين والمشركين.
- وفيها امتنان من الله على الرسول ﷺ وعلى المؤمنين الذين وقع منهم مخالفات في غزوة تبوك: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ...﴾.
- ﴿وَعَلَى الْفَلَسْطِينِ الَّذِينَ خَلَقُوا﴾.

- وكما افتتحت السورة ببيان براءة الله ورسوله ﷺ من المشركين الحائدين عن منهج الله، وأمر المؤمنين بالتزام الجهاد للحفاظ على الدين، ختمت بدعوة المؤمنين إلى موالاة الله ورسوله ﷺ وأن لا يكونوا كالمشركين الصادقين عن دين الله، أو كالمنافقين المتنصلين من نصرة دينه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢٩) ﴿إِن تَوَلَّوْا فَقَدْ حَسِبَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١٣٠).

سورة يونس

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٠٨﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سمّيت هذه السورة الكريمة باسم «يونس» لورود الإشارة إلى قومه عليه السلام، ولا يخفى أن من دلالة هذه الإشارة بيان نجاة قوم يونس عليه السلام من العذاب بسبب إيمانهم قبل فوات الأوان بنزول العذاب بهم، فاسم السورة يدلّ على أن الإيمان بالله في الوقت المناسب يحمي المؤمن من عذاب الله.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

لقد اعتمد عدد من المفسرين والكاتبين على الآية التي ورد فيها ذكر سيّدنا يونس عليه السلام في الربط بين دلالاتها وبين موضوعات السورة، فذكروا أنها مترابطة مع موضوعات السورة من أكثر من ناحية: أولها بيان غاية ما يفيد الإيمان من كشف العذاب، وبيان الضرر الناتج عن تأخير، ومن ناحية أخرى فيها ردّ على اضطراب تصوّر الجاهليين لحقيقة العبودية والألوهية من خلال بيان دور الفطرة عند مواجهة الخطر، ومن ناحية ثالثة تملأ الآية المذكورة النفوس بالتوجّس والتوقّع لبأس الله في كل لحظة، ليخرجوا من الغفلة التي ينشئها الرخاء والنعمة، ومن ناحية رابعة فيها إثبات صدق القرآن، فإن من كَشَفَ العذاب عن قوم يونس لما آمنوا، هو الذي أنزل القرآن المتفرّد بالبرهان المعجز الدالّ على صدقه^(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ١، ص ٣١٩، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٣، ص ٤١١، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٣، ص ١٧٤٥-١٧٥٢، ورضا، تفسير المنار، ج ١١، ص ٤٢٣٣-٤٢٤٧، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١١، ص ٧٨، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ص ١٥٧، ووادي، ومنها، من دلالات أسماء السور في القرآن، ص ١٠٢-١٠٧.

الإيمان بالله المنجي من عذابه في الدنيا والآخرة قبل فوات الوقت، والتحذير من التكذيب والتغافل والتلهي عنه، فإن الوقت إذا فات فقد عرّض مَنْ لم يؤمن نفسه للعذاب الدنيوي والأخروي من الله عزّ وجلّ. ولا أدلّ على هذا المحور من دلالة الآية التي ذكر فيها إيمان قوم يونس عليه السلام قبل فوات الوقت، ولذلك سمّيت السورة باسمه. ولم تسمّ السورة بـ (قوم يونس) لأنه لولا دعوته إياهم لما آمنوا، فهو الأجدر بالتسمية وإن لم تذكر قصته في السورة. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة التحذير من التلهي عن الإيمان بالله تعالى، لأن الإيمان به ينجي المؤمن من عذاب الله في الدنيا والآخرة.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين دلالات اسم السورة «يونس»، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم هذه السورة إلى أربعة موضوعات كبيرة: المقدمة، وفيها دعوة إلى الإيمان قبل فوات الأوان، ثم محاجة للكافرين والمشركين لعلمهم يغتزمون الفرصة فيؤمنوا قبل فوات الأوان، ثم قصتان تثبتان محور السورة؛ أولهما لنوح، وثانيهما لموسى عليهما السلام، وخاتمة تؤكّد ما سبق^(١).

(١) المقدمة شملتها الآيات: ١-١٢، ومحاجة الكافرين والمشركين: ١٣-٧٠، والقصتان: ٧١-٧٣ (قصة نوح عليه السلام)، و ٧٥-٩٣ (قصة موسى عليه السلام)، والخاتمة: ٩٤-١٠٩. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها ما يتعلق ببيان أن الإيمان بالله هو المنجي: أ) فقوله ﴿وَيَسِّرْ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: ٢، ذكر هنا فقط، ب) وكذلك قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾: ٩، ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، ج) وكذلك قوله ﴿ثُمَّ نَبْغِي بُرْهَانَ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾: ١٠٣، د) هي أكثر سورة ذكرت فيها مشتقات الجذر «ضرّ» في سياق بيان أن الله وحده بيده الضّرّ: ١٢ (٣ مرات)، ١٨، ٢١، ٤٩، ١٠٦، ١٠٧، هـ) وهي كذلك أكثر سورة ذكرت فيها مشتقات الجذر «نفع» في سياق بيان أن الله وحده بيده النفع: ١٨، ٤٩، ٩٨، ١٠٦، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بالتحذير من التلهي عن الإيمان: أ) فهي أكثر سورة بعد سورة الأعراف ذكر فيها اسم الفاعل «غافلون أو غافلين»: ٧، ٩، ٢٩، وانظر الأعراف: ١٧٩، ١٣٦، ١٤٦، ١٧٢، ٢٠٥، ب) هي أكثر سورة ذكرت فيها مشتقات «عجل» الدال على التحذير من تعجّل العقوبة قبل الإيمان: ١١ (مرتين)، ٥٠، ٥١، ج) هي أكثر سورة ذكرت فيها عبارة ﴿لَا يَرْجُوا لِقَاءَنَا﴾: ٧، ١١، ١٥، د) وهي من أكثر السور التي تكررت فيها كلمة (الناس) وذلك ثلاث عشرة مرة، كما وأنها مع سورة الحج أكثر سورتين تكررت فيهما عبارة (يا أيها الناس): ٢٣، ٥٧، ١٠٤، ١٠٧، وفي الحج: ١، ٥، ٤٩، ٧٣، هـ) كما وأنها أكثر سورة في القرآن =

أولاً: جاءت المقدمة داعية إلى الإيمان بالله من خلال بعض الأدلة العقلية على وجود الله سبحانه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ إِنَّ فِي آخِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾، وبينت المقدمة أن الله وعد بجزاء الناس حسب أعمالهم يوم يجمعهم ليوم القيامة، وفي ذلك دعوة لهم ليؤمنوا قبل فوات الأوان، ثم بين السياق موقف الغافلين وجزاءهم، وموقف المؤمنين وجزاءهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمُكَ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجَ دَعْوَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾، ولاحظ وصف الكافرين بأنهم لا يرجون لقاء الله، وكيف كان سبب غفلتهم هو الاطمئنان إلى الحياة الدنيا، وكيف وصف المؤمنين بأنهم كانوا يعملون الصالحات، حتى دخلوا دار السلام بسبب إيمانهم واستعدادهم.

فالمقدمة كما ترى تؤكد أهمية وجوب الإيمان وإدراك الوقت قبل فواته بالتغافل عنه بالحياة الدنيا.

== جاء فيها عبارة (الحياة الدنيا) وذلك ست مرات، وأرى أن ذلك يوحي بأن التغافل عن حقيقة الإيمان ولقاء الله بسبب الحياة الدنيا أمر يقع فيه غالب الناس، (و) وهي الوحيدة التي ذكر فيها السؤال الإنكاري (الآن): فقال عن المستعجلين بالعذاب ﴿ءَأَلْفَنَّا وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾: ٥١، وقال عن فرعون ﴿ءَأَلْفَنَّا وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾: ٩١، وهذه السورة أيضاً أكثر سورة في القرآن بعد البقرة تكررت فيها كلمة (الحق)، في البقرة: ١٩ مرة، ويونس: ١٧ مرة، وأرى أن ذلك يوحي بأن الإيمان أمر حق لا مرية فيه ولا ينبغي التغافل عنه، وقد تكرر فيها حرف التنبيه «ألا» ثلاث مرات: ٥٥، ٦٢، ٦٦، وهو مناسب لتنبيه الغافلين. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس. ومن اللطيف أيضاً أنه ذكر في هذه السورة ثلاثة من الأنبياء: نوح، وموسى، ويونس عليهم السلام، وهم جميعاً قد نجاهم الله من الغرق، وانظر قوله تعالى في الآيتين: ٢٢، الدال على قدرته تعالى على الإنجاء من الغرق، وانظر قوله تعالى في الآية ٩٠، الدال على قدرته على الإغراق.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى ذكر عدد من المحاجات مع أهل الكافرين والمشركين، تؤكد على أهمية تدارك الوقت فيؤمنوا قبل أن ينقضي الوقت فيتعرضوا للعذاب، وقد بين السياق إهلاك القرون المكذبة من قبل: ﴿وَإِذَا تَنَالَى عَلَيْهِمْ مَا يَأْتَانَا بِتَنَتٍ قَالِ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾، وانظر قوله تعالى عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغِيبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٥﴾﴾. فلاحظ تكرار عبارة (الذين لا يرجون لقاءنا) الدالة على كمال غفلتهم، ولاحظ التهديد بنزول العذاب إذا فات الوقت في عبارة (فانتظروا إلي معكم من المنتظرين).

ثم عرض السياق إلى أهمية الإيمان الفطري الموجود بداخل نفوس البشر، فهم يتذكرونه وقت الشدة، ثم إذا زالت عنهم غفلوا عنه: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّدُ فِي اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكَ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَتُفَوَّنُونَ فِي الْأَرْضِ يَغْتَرِ الْحَيُّ بِأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيُّوَّةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾، ولاحظ أن السياق قد بين أن سبب تغافلهم عن الإيمان الفطري إنما هو متاع الحياة الدنيا. واعتقد أن عرض هذا المثل متلائم مع اسم السورة، فستان بين موقف يونس عليه السلام الذي ذهب لدعوة قومه إلى الإيمان حين أنجاه الله من الغرق، وبين موقف هؤلاء الذين أعرضوا عن الإيمان حين أنجاهم الله من الغرق.

وانظر إلى هذا المثل الذي يبين قصر الحياة الدنيا وهوانها على الله، فلا ينبغي التغافل بها عن الإيمان: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوَّةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلَتْ مِنْ السَّمَاءِ فَخَاطَلَتْ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهِمْ أَتْلَاهُمْ أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

وقد ذكر السياق أيضاً بعض الأدلة الدالة على وجود الله تعالى والتي يدركها الناس بفطرتهم، لكنهم يغفلون عنها: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾

فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَآذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالَةُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٣﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٤﴾ . وقد بيّن السياق أيضاً أن الله وحده هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو وحده الذي يهدي إلى الحق، ولا يملك الشركاء الذين يعبدهم الناس شيئاً من ذلك، وهذا يؤكد ضرورة المسارعة إلى الإيمان بالله الواحد القادر، وعدم التغافل عن الإيمان به .

ومن الآيات التي تبين أن عذاب الله غير مأمون، فهو قد يقع بالكافرين في أية لحظة، فلا ينبغي التغافل عنه، لأنه لا فائدة من الإيمان إذا فات الوقت: ﴿قُلْ أَتَئْتُمُ إِنَّا أَتَنُكُمُ عَذَابُهُ بَيِّنَاتًا أَوْ نَهَارًا مَآذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَلَكُنَّ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ .

وفي المقابل عرض السياق موقف المؤمنين الذين حفظهم إيمانهم من عذاب الله، وحقّق لهم السلامة في الدارين: ﴿إِنَّا إِنَّا أَوْلِيَآءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١١٨﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ .

فأنت ترى أن هذه المحاجات التي ذكرها السياق إنما يقصد منها الدعوة إلى ضرورة تدارك الوقت والإيمان، وعدم التغافل عنه قبل أن يقع العذاب، وهذا مترابط أشدّ الترابط مع الآية التي ذكرت تدارك قوم يونس للوقت فآمنوا قبل أن يقع عليهم العذاب .

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى عرض قصتين تؤكدان هذه الحقيقة: فقصة نوح عليه السلام تبين تغافل قومه عن الإيمان بالرغم من طول مكثه بينهم، حتى نزل بهم العذاب فأغرقهم الله، هذا من حيث التناسب مع المحور العام، ومن ناحية أخرى تتناسق هذه القصة مع ذكر نجاة موسى عليه السلام وقومه من الغرق، وإغراق فرعون المكذّب، وقد نجّى الله يونس عليه السلام - الذي سمّيت السورة باسمه - من الغرق أيضاً . فاختيار القصص المعروضة في هذه السورة كان لحكمة بالغة .

﴿وَآتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي إِن شَاءَ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴿٦١﴾﴾ ،

لاحظ قوله تعالى (إن كان كُبرٌ عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله) الذي يبين تغافل قومه عن الإيمان بالرغم من مكثه بينهم تسع مئة وخمسين عاماً. ولاحظ كيف تحدّى نوح عليه السلام قومه جميعاً، وذلك لتيقّنه بأن إيمانه سيحميه من بأسهم.

وانظر كيف حفظ الإيمان نوحاً عليه السلام ومن معه من العذاب، وانظر عاقبة المكذّبين الذين فاتهم الوقت ولم يؤمنوا: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ رَجَمَتْنَاهُمْ بِحَبْلٍ وَاعْرِفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَنَنْظُرَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ٧٣﴾.

وقصة موسى عليه السلام تؤكد محور السورة أيضاً، فانظر كيف أنجى الله المؤمنين: ﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُفْسِدِينَ ٨٢﴾ وقال موسى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنُكُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ ٨٣ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٨٤ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ٨٥ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ٨٧﴾، ومن اللطيف أن سياق القصة قد عرض أن الذي منع قوم فرعون من الإيمان هو تلهيهم بالحياة الدنيا: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ٨٨﴾. وانظر كيف كان عاقبة فرعون الذي فاتته الوقت ولم يؤمن: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٩٠ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ٩١ فَالْيَوْمَ تُنْجِيكَ بِذُنُوبِكَ لِيُكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ٩٢﴾. ولم تعرض سورة أخرى حالة فرعون حين الغرق، ولم تعرض سورة أخرى قول الله له «الآن وقد عصيت قبلُ وكنت من المفسدين»، وهذا مؤكد للمحور المذكور، ثم إن هذا القول متسق مع قوله تعالى عن الغافلين: ﴿أَنَّهُ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُكُمْ بِهِ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ٥١﴾.

رابعاً: بقيت الخاتمة وهي تحوي تأكيداً لما سبق من سياق السورة، فلاحظ التعقيب على قصة موسى عليه السلام: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ٩٣ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ٩٤ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنْتْ فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ

لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ، هذا التعقيب يوحى بضرورة تدارك الوقت والإيمان قبل أن يقع العذاب، ولما كان قوم يونس هم المثال الوحيد للذين نفعهم إيمانهم فرفع عنهم عذاب الله، كان موقفهم هذا هو المحور الذي تدور عليه السورة، ولذلك اختير اسم «يونس» لهذه السورة الكريمة.

وقد ذكرت الخاتمة بضرورة إيقاظ الإيمان الفطري في نفوس البشر قبل فوات الوقت حتى يكونوا من أهل النجاة، وإلا نزل بهم العذاب: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ثُمَّ تَنْجِي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

وانظر كيف ختمت السورة بالدعوة إلى الإيمان وتدارك الوقت: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَنْتَصِرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٢﴾ وَأَنِيعَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصِيرَ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ ، وهكذا التقى ختام السورة مع مفتتحها على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة يونس

سورة التحذير من التلهي عن الإيمان بالله تعالى، لأن الإيمان هو الذي ينجي المؤمن من عذاب الله في الدنيا والآخرة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٢)

المقدمة التي تدعو إلى الإيمان بالله قبل فوات الأوان:

- افتتحت السورة ببيان أن بعثة النبي ﷺ ليست أمراً بدعاً، بل هذه سنة الله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾.
- وحذرت من الغفلة عن اليوم الآخر الذي فيه الثواب والعقاب: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَذَابُ اللَّهِ حَقًّا إِنَّكُمْ سَبَدُوا الْخَلَاقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١﴾﴾.
- وعرضت بعض مظاهر عظمة الله تعالى، وهي مظاهر يغفل الإنسان عن دلالتها على الخالق سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِنُعَلِّمُوا عَدَدَ النُّجُومِ وَالْحِسَابِ﴾.
- وبيّنت أن الذين لا يرجون لقاء الله وتغافلوا بالدنيا عن الإيمان بآيات الله ماواهم النار.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٣-٧٠)

محااجة الكافرين والمشركين مع دعوتهم إلى الإيمان قبل فوات الأوان:

- برا السياق النبي ﷺ من أي فرية متعلقة بالقرآن الذي أنزله الله عليه: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتَنِي بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِي تَقِيٍّ﴾.
- وقد دعا السياق إلى إيقاظ الإيمان الفطري وعدم التغافل عنه، فالله هو الذي ينجي المضطرين حينما يدعونه مخلصين خوفاً من الغرق إذا كانوا في الفلك، لكن منهم من يبغي في الأرض بغير الحق بعد أن أنجاه الله.
- وقد حذر السياق من التلهي بالحياة الدنيا عن الإيمان، وبيّن أن الله قادر على جعل الأرض حصيداً بعدما أخذت زخرفها وازينت.
- وبيّن أن الله هو الذي يرزق الناس من السماء والأرض، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، فكيف يغفل الإنسان عن خالقه ورازقه: ﴿فَذَلِكُنَّ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَمَّاذَا بَعَدَ الْحَيِّ إِلَّا الْغُلُّ قَالَتْ تُصَرِّفُونَ﴾.
- وبيّن أن الله وحده يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو وحده الذي يهدي إلى الحق، وأما الشركاء الذين يعبدونهم لا يملكون من ذلك شيئاً.
- وبيّن أن عذاب الله غير مأمون فهو قد يأتي ليلاً أو نهاراً، وحينها سيخسر الذين كانوا يستعجلون عذاب الله.
- وفي المقابل فإن أولياء الله المؤمنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ولهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٧١-٩٣)

قصتان لنوح وموسى عليهما السلام تثبتان أن الإيمان يحقق النجاة من عذاب الله، وأن مَنْ لم يؤمن يعرض نفسه لعذاب الله المهلك:

■ عرضت قصة نوح عليه السلام اعتماده على الإيمان برّبه وعدم خوفه من أي شيء غير الله تعالى: ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُون﴾.

■ وبيّنت نجاة نوح عليه السلام لإيمانه: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ تَعَمَّدَ فِي الْفَلَكِ﴾.

■ وبيّنت هلاك قومه الكافرين: ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

■ وعرضت قصة موسى عليه السلام غفلة قوم فرعون عن الإيمان: ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾.

■ وبيّنت موقف القلة المؤمنة مع موسى الذين اعتمدوا على إيمانهم لينجيهم الله من العذاب: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وَنَحْنُ بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.

■ وبيّنت أن الذي ألهمى فرعون وملاه عن الإيمان إنما هو الحياة الدنيا وزينتها وأموالها.

■ وعرضت لحظة غرق فرعون الذي غفل عن الإيمان حتى قيل له: ﴿مُتَّعْنَا وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٩٤-١٠٩)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت التحذير من التكذيب بآيات الله وبيان أن العذاب الأليم سيقع بالكافرين.

■ وبيّنت أن إيمان قوم يونس عليه السلام هو الذي أنجاهم من عذاب الخزي في الدنيا والآخرة، ومتعمهم الله إلى حين.

■ وقد أعادت الدعوة إلى النظر في آيات الله في السماوات والأرض لاستجاشة الإيمان الفطري في القلوب.

■ وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى الإيمان قبل فوات الأوان، ختمت بالموضوع ذاته: ﴿قُلْ يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ. وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَنَّا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ وَأَنبِئْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ.

سورة هود

﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفِقُمْ أَغْبَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِنَّ
 أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَنْفِقُمْ لَا أَشْكُرُ عَلَيْهِ ۚ أَخْرَجَ إِنَّ جَعْلِي إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي
 فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَنْفِقُمْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ
 عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سميت هذه السورة الكريمة باسم «هود» لورود قصته عليه السلام فيها، التي يدعو فيها قومه إلى أجل حقيقة في الإيمان، ألا وهي توحيد الله عز وجل بالعبودية ونبد الشرك، لكن السياق ميّز هذه القصة عن غيرها من القصص الواردة في السورة ببيان جانب الحزم والجزم في المفاصلة بين رابطة الأخوة ورابطة العقيدة، مما جعلها قمينة باسم السورة دون غيرها كما سيأتي بيانه.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن قصة هود في هذه السورة امتازت بعدة أمور منها: التفصيل في البشارة والندارة بالعاجل والآجل، والعناية الإلهية بكل دابة، وهذا أحد الأمور التي بيّنها هود لقومه، وهو دال على التوحيد والقدرة على البعث، فالسورة تحوي ثلاث قطاعات متميزة: الأول يتضمن حقائق العقيدة في مقدمة السورة، والثاني يتضمن حركة هذه الحقيقة في التاريخ، والثالث يتضمن التعقيب على هذه الحركة، ولا يخفى أن قصة عليه هود عليه السلام فيها الدعوة الخالدة إلى التوحيد، والعلاقة بين القيم الإيمانية وحقيقة الاتصال بطبيعة الكون كما هو مذكور في قصته، وموقف المفاصلة الأخير بينه وبين قومه حين تحدّاهم جميعاً بأن

يكيدوه، متيقناً أن الله سينجيهم من كيدهم^(١).

ومن الممكن أن ينبنى على الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان بالله وبرسالته وبيان موقف ومصير المكذّبين بذلك. وإنما اختير اسم «هود» لهذه السورة دون غيره من الأنبياء المذكورين فيها لأكثر من أمر، فأولاً: لأن قصته عرضت مدى تعمق الشرك في قلوب قومه على نحو لا تجده في باقي قصص السورة، وثانياً: لأن فيها إبراز الموقف الحازم الجازم في فصل هود عليه السلام بين العطف الفطري في قلبه وبين الدعوة إلى التوحيد، إذ برز فيها قوة خطابه مع قومه على نحو لا تجده في باقي قصص السورة، فكانت قصته أوقع أثراً وهولاً في نفوس المكذّبين لسيدنا محمد ﷺ، وثالثاً: لأن قصته في هذه السورة هي الأكثر تناسقاً مع سياق السورة. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة المفاصلة بين العطف الفطري في قلب الداعية وبين القوة في الدعوة إلى التوحيد والثبت عليه.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين الدلالات السياقية لقصة هود عليه السلام الذي سمّيت السورة باسمه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن تقسيم السورة إلى ثلاثة موضوعات رئيسية: مقدّمة تعرض موقف المكذّبين من قريش لدين الله عزّ وجلّ، ولرسوله ﷺ مع تثبيت له على دعوة التوحيد، وقصص يبيّن موقف الأقوام السابقة من دعوة التوحيد، وخاتمة مؤكّدة لما سبق^(٢).

(١) ينظر: المهايمي، تبصير الرحمن، ج ١، ص ٣٣٧، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٣، ص ٤٩٨، وسيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٤، ص ١٨٤٤، و ١٩٠١-١٩٠٦، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١١، ص ٣١١، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٣، ص ٤٤٦، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ١٥٧، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ١٠٨-١١٣.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٢٤، والقصص: قصة نوح ٢٥-٤٨، وقصة هود ٥٠-٦٠، وقصة صالح ٦١-٦٨، وقصة إبراهيم ولوط ٦٩-٨٣، وقصة شعيب ٨٤-٩٥، وإشارة إلى قصة موسى ٩٦-٩٩ عليهم السلام جميعاً، والخاتمة: ١٠٠-١٢٣. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة بقصة هود خاصة في هذه السورة: أ) ف قوله عليه السلام ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا مُنْقَذُونَ﴾: ٥٠، لم يتكرر في القرآن، ب) وكذلك قوله ﴿وَلَا تَنَزَّلُوا مُجْرِمِينَ﴾: ٥٢، ج) وقوله ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ زَانِجٌ بِأَصْنَانٍ﴾: ٥٦ هنا فقط بهذه الصيغة، د) وهذه السورة لم تذكر براءة نبيّ باللفظ =

= الصريح من الشرك والإفساد إلا هوداً عليه السلام ﴿وَأَنَّا بَرِيءٌ مِّمَّا يُشْرِكُونَ﴾: ٣٥، ﴿وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾: ٥٤، هـ) وقول قومه الدال صراحة على شركهم ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا أَعْرَضَ عَنْكُمُ الْغَيْثُ سَيُوتُ﴾: ٥٤، كذلك لم يتكرر في القرآن، ثانياً: ومنها أمور متعلقة ببيان ترابط قصته مع مقدمة السورة وخاتمتها، أ) فانظر في المقدمة قوله تعالى ﴿فَإِذَا أَخَافَ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾: ٣، وانظر في قصة هود ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾: ٥٨، ب) وانظر قوله تعالى في المقدمة ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾: ٤، وقوله تعالى فيها ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾: ٦، وانظر قول هود ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾: ٥٦، ج) وانظر قوله تعالى في الخاتمة ﴿إِن آخِذُهُ أَيْمٌ شَدِيدٌ﴾: ١٠٢، وقوله تعالى فيها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾: ١٠٣، وانظر في قصة هود ﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي هَؤُلَاءِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: ٦٠. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

لقومه أيضاً: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥١﴾﴾.

ومن الأمور المذكورة في مقدمة السورة بيان مصير المكذبين يوم القيامة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾، ولاحظ التناسق بين هذه الآية وبين التعقيب على قصة هود عليه السلام: ﴿وَأَنْبِئُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

فالمقدمة التي تعرض موقف المكذبين مع الرد عليهم، وتدعو النبي ﷺ إلى الدعوة إلى التوحيد دون التفات إلى افتراءاتهم الباطلة، متناسقة تماماً مع الدلالات السياقية لقصة هود عليه السلام الذي سميت السورة باسمه كما سيأتي بيانه.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى عرض عدد من القصص تبين تكذيب الأقوام وما حلّ بهم من العذاب، فكانت أول قصة قصة نوح عليه السلام، لكن التركيز في عرض هذه القصة كان على إبراز مدى تكبر قوم نوح في تكذيبه دون أن يبرز مدى كفرهم وشركهم، فلم يلفت السياق إلى كفرهم إلا بآية واحدة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتٰى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٥﴾ أَن لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِسْمِ ﴿٥٦﴾﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٥٧﴾﴾، واللافت للنظر أن أسلوب نوح عليه السلام في دعوته في هذه القصة كان شديد التلطف، فانظر قوله عليه السلام: (إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) وقوله: ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ نَبْتٍ مِّن رَّبِّي وَآلَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعَمِيتَ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْهُمْ كُفُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهُونَ ﴿٥٨﴾﴾، حتى في تهديده بنزول العذاب، جعل الأمر معلقاً بمشيئة الله: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٩﴾﴾، وقد تكررت منه لفظة (يا قوم) في هذه القصة ثلاث مرات.

أما القسم الثاني من قصته عليه السلام فقد كان حول إبراز أن الرابطة العقدية أقوى من الرابطة النسبية، وبالتالي تجب المفاصلة بين هاتين الرابطتين ولم ينفع ابن نوح نسبُه شيئاً:

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٥٠) قَالَ يَنْتُوهُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتْلِيَنَّ لَهُ مَا تُلَيسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّيْ أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. واعتقد أن مناداة نوح عليه السلام لربه في شأن هذا الابن الكافر قد أضفى على القصة شيئاً من اللطف والعطف الفطري عند نوح عليه السلام، وهذا أمر مشترك مع قصة إبراهيم عليه السلام كما سيأتي، لكن لا تجد مثل هذا التلطف والعطف في قصة هود عليه السلام، مما جعلها أدلّ هذه القصص على المحور المذكور.

فقصة نوح عليه السلام متناسقة مع المحور العام للسورة من حيث إبراز مدى التكبر الذي دفع قومه إلى التكذيب، ومن حيث وجوب تفضيل الرابطة العائلية على الرابطة النسبية. ولم تُسمَّ السورة باسم نوح عليه السلام؛ لأن قصة هود التالية كانت هي الأكثر صراحة في إبراز الحقيقة الأولى في الدين، ألا وهي التوحيد، وإليك بيان ذلك:

ثم انتقل السياق إلى قصة هود عليه السلام، ويلاحظ في هذه القصة مدى القوة في دعوته قومه إلى التوحيد: ﴿وَإِلَّا عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَوْرُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥١﴾ يَنْفَوْرُ لَا أَشْتَكُرُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرْتِ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ، فلاحظ قوله ﴿إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ وقوله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وذلك بلا شك دالّ على مدى عناد قومه وتكبرهم على الحق، ويلاحظ فيها إبراز مدى شرك قومهم حتى اعتقدوا أن آلهتهم لها أثر في الوجود: ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ بِكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٢) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْرَضَكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّ قَالَ إِنَّيْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّيْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ ﴿٥٣﴾، وهذا التفصيل في عرض الشرك لا تجده في باقي قصص السورة على هذا النحو.

ويلاحظ فيها أيضاً الموقف الفاصل الحازم في التبرؤ من الشرك، والتوكل على الله وحده، فانظر قوله عليه السلام: (إني بريء مما تشركون)، وقوله: ﴿مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ (٥٤) إِنْ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّيْ وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّيْ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ فَإِنْ قَوْلُوا فَقَدْ أَفْلَحْنَا وَأَنْزَلْنَا إِلَهُكُمُ الَّذِي تَزْعُمُونَ وَلَا تَضْرِبُوهُ سَبْتًا إِنَّ رَبِّيْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٦﴾، ويلاحظ فيها التعقيب الإلهي المخيف والمهدد للمكذبين على

هذه القصة: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَحْنُتُهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨﴾ وَتِلْكَ ءَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ أَلَا إِنَّ ءَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّءَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۝٦٠﴾ . فلاحظ أن السياق قد ذكر العقوبة الدنيوية والأخروية لعاد، مما يضيف على القصة جوّ الحزم والجزم.

إن الصرامة والحزم في مواجهة هود عليه السلام لقومه المشركين المفترين، مع بيان قوّة توكله وبقينه بالله حتى تحدّى وحده قومه جميعاً، والتعقيب الإلهي المهدّد على هذه القصة، كل ذلك جعل هذه القصة هي الأجدر بتسمية السورة من أيّ قصة أخرى ذكرت فيها، وتسميتها بهذه القصة ذات الدلالات المذكورة أوقع أثراً وهولاً في نفوس المكذّبين لدعوة نبينا ﷺ. ثم أعتقد أن ما جاء في قصة نوح عليه السلام من سؤاله ربّه عز وجل حول موضوع هلاك الابن، والرّدّ الإلهي الجازم لذلك السؤال، قد أضفى على قصة نوح عليه السلام جوّ الملاطفة والعطف الفطري حول موضوع المفاصلة بين العقيدة والنسب، ولذلك كانت قصة هود ذات الدلالات الجازمة حول الفصل بين رابطة الأخوة ورابطة العقيدة هي الأجدر في تسمية السورة.

وانتقل السياق إلى قصة ثمود عليه السلام، ويلاحظ فيها التلطف في الدعوة، إذ لم يبرز السياق شركهم إلا في آية واحدة: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝١١﴾ قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝١٢﴾، ثم انتقل السياق إلى بيان أن الذي أنزل عليهم العذاب هو مخالفتهم أمر نبيهم في عدم التعرّض للناقة بسوء: ﴿وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذُرُّوَهَا تَأكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ۝١٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ۝١٥﴾، ولم يكن التعقيب الإلهي على قصته عليه السلام بذات الحِدّة والصرامة في التعقيب على قصة هود السابقة، بل اقتصر التعقيب على الدنيا دون التعرّض للآخرة: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَقْوَى الْعَزِيزُ ۝١٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٍ ۝١٧﴾ كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا

أَلَا إِنَّ نَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِنَمُودَ ﴿١٨﴾ . فهذه القصة متناسقة مع المحور العام للسورة، لكن ليس بالصراحة والصرامة الواردة في قصة هود عليه السلام.

أما قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام فيظهر فيها التلطف والعطف على القوم المكذبين أيضاً، فانظر قول إبراهيم عليه السلام مراجعاً الملائكة في شأن قوم لوط، بعدما بشروه وامرأته بإسحاق: ﴿قَالُوا أَنْتَجِدِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلَانِ فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَعَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَأْتِيهِمْ أَغْرَضٌ عَنْ هَذَا إِنَّهُمْ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمِنَ مَا نَتَّبِعُ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ ، ثم عرض السياق إهلاك قوم لوط عليه السلام من خلال تعقيب على القصة مهتد للمكذبين، ولكنه مقصور على الدنيا دون التعرض للآخرة: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ مَنُفُودٍ ﴿٧٧﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٧٨﴾﴾ . فالقصة أيضاً متناسقة مع محور السورة، لكن ليس بالصراحة والصرامة الواردة في قصة هود عليه السلام.

وقصة شعيب عليه السلام كذلك ذكرت تصريح قومه بالشرك في آية واحدة فقط: ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْلَوْنَاكَ تَأْمُرُنَا أَنْ نَبْعُدَ آبَاءَنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ ، ثم انتقل السياق إلى عرض تكبرهم الذي دعاهم إلى التكذيب: ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٨٨﴾﴾ ، واقتصر التعقيب الإلهي على القصة على العقوبة الدنيوية دون أن يتعرض للآخرة: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْغَةَ فَاصْبُحُوا فِي دِينِهِمْ بِحَشِيمٍ ﴿٩٠﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ نَمُودُ ﴿٩١﴾﴾ .

ويظهر التلطف في دعوة شعيب عليه السلام لقومه في هذه القصة من خلال عباراته اللطيفة، كقوله ﴿إِنِّي أَرَدْتُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُ﴾ ، وكقوله ﴿وَأَسْتَغْفِرُكُمْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ ، وقد تكررت لفظة (يا قوم) في قصته ست مرات. فسياق هذه القصة أيضاً لم يكن بالحزم والفصل الجازم الذي تراه في قصة هود عليه السلام.

وانتقل السياق إلى إشارة إلى قصة موسى عليه السلام مع فرعون، واللافت أن التعقيب الإلهي على هذه القصة اقتصر على العقوبة الأخروية دون الدنيوية: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَنْسُ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ١٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَنْسُ الرِّقْدُ الْمَرْفُودُ. فهي متسقة مع المحور العام للسورة، دون إبراز النواحي التي امتازت بها قصة هود.

ثالثاً: وجاءت خاتمة السورة وهي تحوي تأكيد محور السورة مع تناسق واضح بينها وبين قصة هود عليه السلام، فقد أعادت الدعوة إلى التوحيد من خلال قوله تعالى الذي ينفي أي أثر في الوجود للآلهة المزعومة: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيرٍ ١٩﴾، وذلك متسق مع زعم قوم هود عليه السلام أن آلهتهم قد اعترته بسوء، وانظر قوله تعالى المبين لشدة العقاب الإلهي: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ ٢٠﴾، وهو أيضاً متسق مع وصف عذاب قوم هود بأنه عذاب غليظ، وانظر قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ۚ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ٢١﴾، المتسق مع قول هود عليه السلام لقومه: ﴿وَيَقُولُوا اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ٢٢﴾، وانظر كيف ختمت السورة بقوله تعالى الداعي إلى الإيمان والتوحيد: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٢٣﴾، المتسق مع قول هود عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٢٤﴾. وهكذا التقت خاتمة السورة ومقدمتها على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة هود

سورة المفصلة بين العطف البشري في قلب الداعية،

وبين القوة في الدعوة إلى التوحيد والثبات عليه

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٢٤)

المقدمة التي تعرض موقف المشركين من قریش المكذبين بدين الله، وبرسوله ﷺ وثبتت النبي ﷺ على دعوة التوحيد:

■ افتتحت السورة ببيان موقف المكذبين من القرآن الحكيم: ﴿الرَّ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذِنتُمْ ثُمَّ قُلْتُمْ لَنْدُنَّ حَكِيمٌ خَيْرٌ ۖ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ إِلَّا اللَّهُ ۖ﴾. ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَفْشُونَ بَيْنَهُمْ يَكْتُمُونَ مَا بَيْنَهُمْ وَمَا يُغْلِبُونَ﴾.

■ وعرضت موقفهم من الآيات الكونية الدالة على التوحيد: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾.

■ وهم مع ذلك يكذبون بقدره الله: ﴿وَلَكِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

■ وقد دعت النبي ﷺ إلى الثبات على دعوة التوحيد دون أن يلتفت لافتراءاتهم الباطلة: ﴿فَلَمَّا لَكَ تَارِكًا بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَصَافِيٍّ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٢٥-٩٩)

قصص يبين موقف الأقوام السابقة من دعوة التوحيد:

■ ثم عرض السياق قصصاً لأنبياء سابقين يبرز موقف الأقوام من دعوة التوحيد، وابتدأ بقصة نوح عليه السلام: ﴿لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّي خَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْبَاسِ﴾.

■ وعرضت القصة موقف قومه: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرْبِكَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا تَزُكُّ إِلَّا تِلْكَ إِلَّا الْيَتِ هُمْ أَرَادُوا لَكُمُ اتِّعَالِكُمْ إِلَّا الْيَتِ هُمْ أَرَادُوا لَكُمُ اتِّعَالِكُمْ﴾.

■ يلاحظ أن القصة لم تذكر شيئاً عن شرك قومه، ويلاحظ أنها عرضت جانباً من العطف الفطري في قلب نوح على ابنه الذي مات كافراً.

■ ثم عرض السياق قصة هود عليه السلام، ويلاحظ فيها القوة في الدعوة إلى التوحيد: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا مُقَرَّبُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَةَ﴾.

■ وقد بينت مدى تعمق الشرك في قلوب قومه على نحو لم يذكر في قصة أخرى في السورة ﴿إِنْ تَتُوبْ إِلَّا أَعْرَضْنَا بَعْضَ إِلَهِينَا يَسُوءُ﴾.

■ وعرضت مدى ثباته على دعوة التوحيد: ﴿قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ ۚ فَكَيْدُوْنِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ﴾. وقد عرضت القصة العقوبة الدنيوية والأخروية لقومه: ﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ هَٰذَا الْأَمْرُ الَّذِي اخْتَصَّتْ بِهَا قِصَّتُهُ تَوْكُّدُ أَنْ اسْمُهُ هُوَ الْجَدِيرُ لِيَكُونَ اسماً لِلسُّورَةِ﴾.

■ ثم عرض السياق قصة صالح عليه السلام، ولم تبين شرك قومه إلا في آية واحدة: ﴿أَتَنْهَاهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوا مَا يَتَّبِعُ آبَاؤُهُمْ﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٠٠-١٢٣)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

- أعادت الدعوة إلى التوحيد من خلال نفي أي أثر في الوجود للآلهة المزعومة: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾.
- وأمرت النبي ﷺ بفصل العطف البشري على قومه عن القوة في الدعوة إلى التوحيد والشباب عليه: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاءَهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾.
- ﴿فَأَسْتَفْتِمُ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ نَابَ مَعَكَ وَلَا تَقْلُوبُوا إِنَّمَا يَكْمَلُ بَصِيرًا﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَنَنَسِكُمُ النَّارُ.
- وكما افتتحت السورة بأمر النبي ﷺ بالشباب على دعوة التوحيد، ختمت بالموضوع ذاته: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

- بيّنت القصة أن الذي أنزل عليهم العذاب هو مخالفة أمر نبيهم في عدم التعرض للناقة بسوء، ولم تذكر القصة سوى العقوبة الدنيوية فقط.
- ثم عرض قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام، وقد ظهر فيها العطف الفطري في قلب إبراهيم على قوم لوط: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ مُجْدِلًا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾.
- وقد عرضت أنه نهي عن ذلك: ﴿يَتْلُوهُمْ أَغْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُمْ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾.
- وقد عرضت القصة إهلاك قوم لوط في الدنيا دون التعرض للآخرة.
- ثم عرض قصة شعيب عليه السلام وقد صرحت بشرك قومه بآية واحدة فقط: ﴿أَصْلَوْتُكَ فَأَمْرُكَ أَنْ تَرْكُ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.
- وبيّنت أن الذي دعاهم إلى التكذيب هو تكبرهم: ﴿وَإِنَّا لَنَرُّكَ إِنَّمَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَحْمَتُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾.
- وعرض السياق إشارة إلى موسى وهارون عليهما السلام، ركز السياق فيهما على العقوبة الأخروية لفرعون وقومه أكثر من العقوبة الدنيوية: ﴿يَقْدُمُ قَوْمُهُ يَوْمَ الْفَيْصَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾، ﴿وَأَنْتُمْ فِي هَذِهِ نَعَتْ يَوْمَ الْبَيْعَةِ﴾.

سورة يوسف

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سمّيت هذه السورة بسورة «يوسف»؛ لأنها حوت أطول قصة في القرآن عن شخصية واحدة ألا وهو يوسف عليه السلام في سورة واحدة، فكان التفصيل الوارد في سياق عرض هذه القصة دليلاً على أن القصص القرآني هو أحسن القصص، وذلك دالٌّ على كمال علم الله بأحداث الغيب. ومن أهمّ الدلالات السياقية لاسم السورة بيان قدرة الله التامة على توجيه أحداث الغيب حسب إرادته العليمة الحكيمة، كما سيأتي بيانه.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أنها سمّيت باسمه؛ لأنها حوت معظم قصته عليه السلام، ولم تتكرّر - كقصة - في مكان آخر من القرآن، وأن من دلالات سياق قصته بيان تمام علم مُنزل هذا القرآن بالغيب والشهادة، وشمول قدرته قولاً وفعلاً، وفيها دلالة على عناية الله بأحبابه وتهئية الظروف لهم بالفرج بعد الشدة، وفيها دلالة التأكيد على توحيد الألوهية والربوبية والحاكمية لله تعالى، وكل ذلك فيه تثبيت لقلب النبي ﷺ مما كان يلاقيه في المرحلة المكيّة من شدة عناد قومه، وتصديق له بأنه لا يمكن له الإتيان بمثل هذه القصة التي تمثل أنموذجاً كاملاً لمنهج الإسلام في الأداء الفني القصصي إلا من طريق الوحي^(١).

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ١، ص ٣٥٦، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٤، ص ٣، وقطب، في ظلال =

ومن الممكن تلخيص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: تثبيت قلب النبي ﷺ والتسرية عنه وتصديقه مما يلاقه من قومه، من خلال عرض قصة يوسف التي أهم دالاتها - فيما أعتقد - بيان علم الله التام بالغيب مع قدرته التامة على توجيه أحداثه حسب إرادته العليمة الحكيمة، فكما هو قادر على تحقيق الفرج ليوسف وأبيه عليهما السلام، فهو قادر على تحقيق النصر والفرج لسيدنا محمد ﷺ، وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان قدرة الله على تحقيق الفرج والنصر من خلال بيان كمال قدرته على توجيه أحداث الغيب حسبما أراد، وإليك بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة موضوعات رئيسية: مقدّمة تبين فضل القرآن وأن القصص الذي حواه هو أحسن القصص، ثم عرض لقصة يوسف عليه السلام بالتفصيل تبرز كمال قدرة الله على توجيه الأحداث الغيبية حسبما أراد، ثم خاتمة تحوي توجيهات خاصة بالنبي ﷺ تبين موقفه من قومه، وموقف قومه منه ﷺ^(١).

أولاً: جاء في مقدّمة السورة ثلاث آيات تبين صدق النبي ﷺ فيما يُبلّغه عن ربه

= القرآن، ج ٤، ص ١٩٤٩ - ١٩٦٨، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٣، ص ٥٠٥، والندوي، دراسات قرآنية، ص ١٣٢ - ١٤٠، والجزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ١٧٧، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور، ص ١١٤، ود. حسن باجودة، الوحدة الموضوعية في سورة يوسف، ص ٥٨ - ٧٢، ود. أحمد نوفل، سورة يوسف: دراسة تحليلية، ص ٢٨، و ٨٥ - ١٢٥.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١ - ٣، وقصة يوسف عليه السلام: ٤ - ١٠١، والخاتمة: ١٠٢ - ١١١. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة بتثبيت النبي ﷺ: (أ) فقله ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾: ٣، ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، وقريب منه في سورة الأعراف: ١٠٢، وهود: ١٢٠، وطه: ٩٩، (ب) قوله ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَذَكِّرِينَ﴾ (٧): ٧، ذكر هنا فقط، (ج) وكذلك قوله ﴿قَدْ هَدَاهُ سَبِيلَ آدَمَ إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾: ١٠٨، (د) وقوله ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا﴾: ١١٠، ثانياً: ومنها أمور متعلقة ببيان علم الله التام بالغيب وتسيير أحداثه كما يشاء: (أ) فسورة يوسف أكثر سورة ذكرت فيها مشتقات لفظ (الغيب)، انظر الآيات: ٥٢، ٨١، ١٠٢، والآيتين: ١٠، ١٥ ﴿عَبَسَ الْجُؤُوسُ﴾ ولا حظ التاء المفتوحة لا المغلقة، مما يزيد التعمق في الغيب، (ب) قوله ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُنَّ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: ١٥، ذكر هنا فقط، (ج) وكذلك قوله ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: ٢١، (د) وقوله ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْعِثُ عَلَيْهِمْ﴾: ٥٠، (هـ) وقوله ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾: ٥٢، (هـ) وقوله ﴿فَاللَّهُ خَبِيرٌ حَفِظًا﴾: ٦٤. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

عزّ وجلّ، فهو قد كان غافلاً عن الأحداث التي ستذكرها السورة بالتفصيل عن قصة يوسف عليه السلام، فثبت إذاً أن إخباره ﷺ عن هذه القصة إنما هو بوحى من ربّ العالمين: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ① إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ② نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ③﴾، وفي ذلك تثبيت لقلب النبي ﷺ، ولاحظ قوله تعالى (لعلكم تعقلون) أي: إن هذا الكتاب «من شأنه أن ينبه عقل من قرأه، ولكن فريقاً من الناس لا ينتبهون ولا يعقلون، لا لأن القرآن لا يستطيع أن يوقظ العقل ويهديه، لا ولكن لأنهم هم عطلوا عقولهم وملكاتهم ومواهبهم»^(١)، وقد كانت قصة يوسف التالية أدلّ مثال على أن القصص القرآني هو أحسن القصص حقاً، فهي أطول قصة في القرآن تدور أحداثها حول شخصية واحدة في سورة واحدة، وتبرز مدى العلم الإلهي بدقائق الغيب، وتحكمه المطلق بها وكمال قدرته على توجيهها حيث أراد، وفيما يلي بيان ذلك:

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض قصة يوسف بالتفصيل، والذي لفت نظري خلال قراءة أحداث هذه القصة، أن سياق القصة جميعه مبنيّ على أحداث متعمّقة في الغيب، أعني أنك خلال قراءتك للقصة يسجد قلبك تعظيماً لمن أحاط بكل شيء علماً وأخبرنا بهذه الأحداث المتعمّقة في الغيب، فإن معظم أحداثها قد غاب حتى عن الشخصيات في القصة، وفيما يلي بيان لبعض ذلك:

تبدأ القصة برؤيا، والرؤيا بحدّ ذاتها من عالم الغيب، وأي رؤيا؟ إنها رؤيا لطفل، مما يزيد الحدث تعمّقا في الغيب، لكن هذه الرؤيا كانت هي منشأ القصة ومحور أحداثها، وقد أخبر بها يوسف أباه فاستبشر له بالمستقبل المتألّق. وهذا الحدث - إخبار يوسف لأبيه بالرؤيا - قد غاب عن إخوته.

وانتقل السياق إلى عرض تغيط إخوة يوسف عليه لكونه أحبّ إلى أبيهم منهم، حتى اتفقوا على إلقائه في الجُبّ، وهذا حدث قد غاب عن يوسف وأبيه.

(١) د. نوفل، تفسير سورة يوسف، ص ٢٣٣، وقد ذكر أن الحروف المقطعة أول السورة (الر) تشكل نصف حروف كلمة (الرؤيا) التي هي قلب موضوعات هذه السورة، ص ٢٢٤.

ثم انتقل السياق إلى عرض إلحاح الإخوة على أبيهم لينفذوا خطتهم، وحينما استطاعوا تنفيذها وألقوه في الجُبِّ قد أصبح يوسف بالنسبة إليهم من عالم الغيب، فلا يدرون ما حصل له، وقد أكد هذا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾. وانظر كيف حفظ الله يوسف عليه السلام في الجُبِّ، إن ذلك يدل على توجيهه تعالى لأحداث الغيب حسب إرادته.

ولاحظ في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضَعَّةٍ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾، كيف وصف السيارة بلفظ النكرة المفيدة للعموم، وهي هنا تدل على زيادة التعمق في الغيب، وهذا حدث آخر من الأحداث الغيبية التي وجهها الله؛ لتحقيق الفرج ليوسف عليه السلام.

واللطيف أن السياق قد أخبر حتى عن الثمن الذي يَبَّع به يوسف، ممَّا يؤكد تمام إحاطة الله بدقائق أحداث القصة الغيبية: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿١٧﴾﴾.

ثم انتقل السياق إلى عرض الحدث الذي حصل بين امرأة العزيز ويوسف عليه السلام، وهو حدث غاب عن كل الشخصيات في القصة ما عداهما، وممَّا يؤكد تعمق هذا الحدث في الغيب: تغليقها الأبواب، وممَّا يؤكد توجيهه الله تعالى للأحداث حسب إرادته: عرض استباقهما الباب، وقدما قميص يوسف، واستدلال الشاهد بهذا القميص على براءة يوسف عليه السلام. فأنت ترى أن عرض الحدث بكل هذه التفاصيل يطلعك على مدى علم الله التام بأحداث الغيب وتوجيهه لها حيث شاء بحكمته وعلمه، حتى يتحقق الفرج ليوسف عليه السلام.

ثم انتقل السياق إلى عرض مقولة النسوة في المدينة، وهو أمر قد غاب عن امرأة العزيز إلى أن انتشر فسمعت به، فهيات لهنَّ مكيدة قد غاب مغزى امرأة العزيز منها عن النسوة وعن يوسف أيضاً. وانظر كيف أطلعنا الله على هذا الكلام في نفس يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿١٨﴾﴾، فسبحان من سمع كلام قلب يوسف فأخبرنا به.

ثم انتقل السياق إلى عرض مشاهد من القصة وقد أصبح يوسف مسؤولاً على خزان الأرض، ولاحظ قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾، فقد جاء بهم الله من عالم الغيب، وقد غاب عنهم أن العزيز هو أخوهم يوسف، ولاحظ أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِصَلْعَتِهِمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِصَلْعَتِنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ (٦٥) فقد غاب

عنهم أن بضاعتهم ردت إليهم، إلى أن اكتشفوا ذلك حينما فتحوا متاعهم . ولما نجحوا في أخذ أخيهم في الرحلة الثانية أصبح أمره بالنسبة ليعقوب عليه السلام من عالم الغيب .

وحينما وصل الإخوة إلى مصر في المرة الثانية، آوى يوسف إليه أخاه وأخبره بحقيقة الأمر، وهذا أمر قد غاب عن الإخوة، ثم غاب عنهم أيضاً أنه جعل السقاية في رحل أخيه حتى يتسنى له أن يأخذه: ﴿فَدَأَىٰ يَؤُوعِيَتَهُمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذًا يُّوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾ . فأنت ترى أن معظم أحداث القصة يجري بتقدير الله وعلى نحو يغيب حتى عن بعض شخصيات القصة، ويحقق مشيئة الله تعالى، فسبحان العليم الحكيم الخبير .

وأخبرنا السياق عن مناجاة بين الإخوة غابت عن يوسف وعن يعقوب عليهما السلام: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۝٨٧﴾ .

ولاحظ كيف أخبرنا السياق تولي يعقوب عليه السلام عن أبنائه حينما أخبروه ما حصل مع ابنه الصغير، وقال قولاً غاب عن أبنائه، وجعل شكواه أمراً بينه وبين ربه تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَإَيُّهَا سَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْصَرْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ۝٨٨﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتَوُوا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ۝٨٩﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٩٠﴾ .

وانتقل السياق إلى الرحلة الثالثة لإخوة يوسف عليه السلام إلى مصر، وقد أخبرنا سياق هذه الرحلة عن معجزتين من عالم الغيب اختص بهما يوسف ويعقوب عليهما السلام: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩١﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ۝٩٢﴾ .

ثم ختمت القصة بعرض المشهد الذي تحققت فيه الرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام من عالم الغيب، وقد أشار فيها يوسف عليه السلام إلى فضل الله؛ إذ جعل جميع الأحداث الغيبية في هذه القصة تتجه نحو تحقيق الخير للجميع: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا

وَقَالَ يَتَابَعُ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٣٣﴾ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٣٤﴾ .

ثالثاً: ثم جاءت الخاتمة وهي تحوي تعقيبات على القصة متناسقة أشد التناسق معها، وفيها تثبيت وتصديق للنبي ﷺ وتسرية عنه مما يلاقيه في دعوته من قومه، ولاحظ أول تعقيب على القصة: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾، إنه يؤكد ما برز في سياق القصة من قدرة الله تعالى على توجيه الأمور الغيبية حسب حكمته، وأتى للنبي ﷺ أن يعلم ذلك بالتفصيل الوارد في القصة إلا عن طريق الوحي؟

ثم أعقب السياق بذكر عدد من التوجيهات المسرية عن النبي ﷺ مما يلاقيه من عناد قومه: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣٥﴾ وَمَا فَتَنَاهُمْ عَلَيْهِ مِنْ آجَرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٣٦﴾ وَكَأَنَّ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٣٨﴾ ، وكأن السياق يقول: بعدما بينا للناس في قصة يوسف من علمنا الكامل بالغيب ولطف تقديرنا له، لم يبق لهم حجة لعدم الإيمان، فلا تلم نفسك على من لم يؤمن بعد ذلك. فإن وعد الله لك بالنصر سيتحقق كما تحقق الفرج ليوسف عليه السلام، ثم انظر كم يتلاءم هذا التعقيب مع ما ورد في القصة من قول يوسف عليه السلام، والذي يبين أن الشرك أمر يقع فيه أكثر الناس: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمُ طَعَامٌ تُزْفَقُونَهُ إِلَّا نَبَأُكُمُ بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ ذَلِكَ مِنْ مَنَّا عَلَّمْنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿١٣٩﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٤٠﴾ بِصَدَحِي السِّجْنِ آذَانًا مُتَفَرِّقَةً خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٤١﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤٢﴾ .

ولاحظ في قول يوسف عليه السلام السابق كيف حذر من الكفر بالآخرة، وهذا متنسق مع قوله تعالى في الخاتمة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

أما قوله تعالى مثبتاً للنبي ﷺ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْشَرَ الرَّسُولُ وَطْنُوًا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٦٠﴾﴾، فلا يخفى ترابطه مع ما جاء في سياق قصة يوسف عليه السلام من تحقق الفرج ليعقوب عليه السلام باجتماعه مع ابنه بعد طول غياب، ومع مصير يوسف إلى حكم مصر بعد أن ألقى في الجُبِّ، وكل ذلك عائد إلى الأحداث الغيبية التي وجهها الله بعلمه وحكمته حسبما شاء وأراد.

وختمت السورة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٦١﴾﴾ وهو متناسق أشدَّ التناسق مع ما فصلته قصة يوسف من علم الله الكامل بأمور الغيب وتوجيهه لها حسبما أراد. وهكذا تلتقي الخاتمة مع المقدمة على المحور المذكور والذي دلَّ عليه اسم السورة أجمل دلالة.



سورة يوسف

سورة بيان قدرة الله على تحقيق الفرج والنصر من خلال
بيان كمال قدرته على توجيه أحداث الغيب حسبما أراد

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٣)

المقدمة التي تبين صدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن
ربه عز وجل، من خلال بيان أن ما يوحى إليه
من القصص. وأبرزها قصة يوسف. هو أحسن
القصص:

■ ﴿الرَّحْمَنُ يَكْتُبُ الْغَيْبَ ۚ إِنَّهُ أَغْنَىٰ عَنْكَ الْفَرَجَ ۚ﴾ ﴿١﴾
﴿وَمَا يَكُونُ لَكَ بِهِ شَأْنٌ ۚ﴾ ﴿٢﴾
﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ سِتْرُ شَيْءٍ ۚ﴾ ﴿٣﴾
أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن
كُنْتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٤﴾، فالله
الذي يوحى إليك هو القادر على تحقيق
الفرج والنصر لك كما حقق الفرج والنصر
ليوسف عليه السلام، كما ستعرضه هذه
القصة.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٤-١٠١)

عرض قصة يوسف عليه السلام بتفصيل يبرز
كمال قدرة الله على توجيه أحداث الغيب حسبما
أراد:

- ابتدأت القصة بقص يوسف على أبيه رؤياه،
والرؤيا من عالم الغيب، وهذا الحدث قد
غاب عن إخوة يوسف.
- تأمر الأخوة على يوسف وأبيه، ولم يعلم
يوسف وأبوه بهذه المؤامرة، وقد أفلح
الإخوة في اصطحاب يوسف معهم، وألقوه
في غيابة الحب، وأصبح بالنسبة إليهم في
عالم الغيب.
- ساق الله له سيارة فأخرجوه وأسروه بضاعة.
- ساق الله له العزيز ليشتريه ويأخذه لامرأته.
- وحين همّت بالفاحشة جعلها الله تقدّم قميص
يوسف من دُبر؛ ليكون هذا دليل براءته.
- هيأ الله له حكماً من أهلها؛ ليثبت براءة
يوسف من تهمة الفاحشة.
- حفظه الله من كيد امرأة العزيز حين دعت
النسوة في المدينة، فاستجاب الله دعاءه
فسُجن حتى حين.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٠٢-١١١)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

- حوت الخاتمة تثبيتاً وتصديقاً للنبي ﷺ وتسرية عنه، ببيان قدرة الله على تحقيق الفرج والنصر له كما حقق الفرج ليوسف من قبل.
- ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.
- ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.
- ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان صدق النبي ﷺ فيما يوحي إليه ربه، ختمت بالتأكيد على الموضوع ذاته: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي قَصَصِهِمْ عَذْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَعُ وَلَكِنْ تَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

- عبّر للفتيين رؤيتهما في السجن، وكان ذلك سبباً لخروجه من السجن بعد حين.
- رأى الملك رؤياه، وتذكر حينها صاحب يوسف في السجن أمر يوسف، فاستفتاه في رؤيا الملك.
- كان تعبير يوسف للرؤيا بعد أن غفل عن تعبيرها الملأ، سبباً لحرص الملك على إخراجه من السجن.
- لم يقبل يوسف الخروج حتى تعترف امرأة العزيز مع النسوة بفعلتهن.
- بعدما تحققت له البراءة على أتم وجه، جعله الملك على خزائن الأرض؛ ليكون هذا سبباً لاجتماعه بإخوته.
- طلب منهم في الرحلة الأولى أن يأتوا بأخٍ منهم من أبيهم ليزدادوا كَيْلَ بعير.
- كاد الله له في رحلتهم الثانية بأن جعل يوسف السقاية في رحل أخيه ليتسنى له أخذه منهم.
- بين لهم في رحلتهم الثالثة أنه أخوهم، وأعطاهم قميصه ليلقوه على وجه أبيهم، فارتد بصيراً.
- جاؤوا جميعاً مع أبيهم في الرحلة الرابعة وقد تحقق الفرج للجميع، ورفع أبويه على العرش، وخرّ الأخوة ليوسف سجداً، وتحققت رؤياه بعد أن وجه الله أحداث الغيب حسبما أراد.

سورة الرعد

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ
 ١٧ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ، وَيُرْسِلُ الرِّسَالَاتِ
 فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ ﴿١٨﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى حديثها عن ظاهرة الرعد الكونية المعروفة، التي تكون مصاحبة للبرق، وينتج عنهما هطول الغيث رحمة للعباد، وسياق السورة أخبر عن الرعد بأنه أحد المخلوقات التي تسبح بحمد الله تعالى، وأنه قد يكون جندياً من جنوده إذ قد يكون صاعقة يصيب الله بها من يشاء، وإخبار السورة عن الرعد تدلّ على أنه ظاهرة كونية دالة على رحمة الله تعالى، كما أنها دالة على قدرته تعالى على العقاب، فاسم السورة يدعو إلى الإيمان بخالق الرعد سبحانه وتعالى والخوف من عقابه.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة تطوف بالقلب البشري في مجالات الكون وآفاقه، وتقرب لمدارك البشر شيئاً من حقيقة القوة الكبرى المحيطة بالكون ظاهره وخافيه، وفي السورة عرض لصور متقابلة من المشاهد الطبيعية من سماء وأرض، وشمس وقمر، وليل ونهار، ثم تطرد هذه التقابلات لتنسجم مع التقابل المعنوي، فيتقابل الاستعلاء على العرش مع تسخير الظواهر الكونية، ويتقابل الخوف مع الطمع بشأن البرق والرعد، وتتقابل دعوة الحق لله، مع دعوة الباطل للشركاء، فتسمية السورة بالرعد ذي الصوت المرعب المصاحب لنزول الغيث، يشبه القرآن الذي هو حق في نفسه، الذي في أتباعه فيه خير الناس^(١).

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ١، ص ٣٧٦، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٤، ص ١١٧، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٠٣٩ - ٢٠٤١، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٣، ص ٧٦، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، =

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان الدلالة الساطعة للآيات الكونية والآيات القرآنية على قدرة الله تعالى، ولما كان الرد هو أكثر الآيات الكونية المذكورة في السورة سطوعاً في الدلالة على رحمة الله تعالى وعقابه، سميت السورة به للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان الدلالة الساطعة للآيات الكونية والآيات القرآنية على قدرة الله تعالى.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام: أولها مقدّمة تعرض بإيجاز الدلالة الواضحة للآيات القرآنية والكونية على قدرة الله تعالى، وثانيها عرض موقف الكافرين ودعوتهم إلى الإيمان والتوحيد من خلال عرض بعض الآيات الكونية الساطعة الدلالة على قدرة الله، وثالثها دعوة الكافرين للإيمان والتوحيد من خلال بيان سطوع دلالة الآيات القرآنية الدالة على قدرة الله تعالى، مع بيان مصير الفريقين يوم القيامة، ورابعها الخاتمة المؤكّدة لما سبق^(١).

= التفسير الموضوعي، م ٣، ص ٥٦٣-٥٦٧، ومحمد قطب، دراسات قرآنية، ص ١٥٢، ومحمد بن سعد الدبل، النظم القرآني في سورة الرعد، ص ١١٧-١٢١. ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ١٨٩، ١٩٠، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ١٢١-١٢٧.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٤، والدعوة إلى الإيمان من خلال الآيات الكونية: ٥-١٧، ومن خلال الآيات القرآنية: ١٨-٣٦، والخاتمة: ٣٧-٤٢، ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك، أولاً: منها ما يتعلق بسطوع دلالة الآيات القرآنية على قدرة الله تعالى، أ) فقله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾: ١، دون ذكر وصف للكتاب لم يتكرر في القرآن على هذا النحو، وكأن دلالتها ساطعة كآية الرعد وليست بحاجة إلى وصف، وانظر قريباً منه في سورة الحجر: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ ثَبِينٍ﴾: ١، وانظر أيضاً في سورة النمل: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ تُبَيِّنُ﴾: ١، وسورة الرعد الوحيدة المختصة بقوله ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾: ١، إذ لم يتكرر بذات الصيغة، وبإمكانك أن تضيف أن سورة الرعد الوحيدة التي اختصت بعبارة: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾: ٣٨، علماً بأنه في القرآن آيات تدل على هذا المعنى بصيغ مختلفة، كما وأن سورة الرعد الوحيدة المختصة بعبارة: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾: ٣٩ بهذه =

أولاً: جاء في مقدمة السورة بيان سطوع دلالة الآيات القرآنية والآيات الكونية على قدرة الله تعالى بشكل موجز: ﴿الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ①﴾ الله الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ② وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ③ وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُّتَجَاوِرٌ وَجَنَّتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ④﴾، فلاحظ الإشارة إلى الآيات القرآنية بـ «تلك» المفيد للتعظيم، وبيان أنها الحق من الله، فهي

= الصيغة، بينما ذكرت عبارة ﴿أَمْ أَلْكَتَابٍ﴾ في سورة آل عمران: ٧، والزخرف: ٤، كما وأن سورة الرعد الوحيدة المختصة بعبارة ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾: ٤٣، وهي عبارات متلازمة تماماً مع علم الله التام بقدر الماء الهاطل من السماء المصحوب بالرعد، وبإمكانك أن تضيف أيضاً أنها وسورة آل عمران أكثر سورتين تكرر فيهما ذكر الحساب المنسوب لله تعالى، انظر في سورة الرعد: ١٨، ٢١، ٤٠، ٤١، وآل عمران: ١٩، ٢٧، ٣٧، ١٩٩، (ب) هي الوحيدة التي اختصت بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ الْمَوْتُ﴾: ٣١، (ج) والوحيدة المختصة بعبارة: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾: ٣٧، ثانياً: ومنها ما هو متعلق بسطوع دلالة الآيات الكونية على الله تعالى، (أ) فهي الوحيدة التي اختصت بذكر أن الرعد يستبح بحمد ربه، وذلك في الآية: ١٣ التي اختير منها اسم السورة، علماً بأن رقم السورة: ١٣، وهي في الجزء: ١٣، ولم يذكر الرعد في موضع آخر إلا في سورة البقرة: ١٩، وهما السورتان الوحيدتان المختصتان بذكر الصواعق، (ب) وهي الوحيدة المختصة بقوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُّتَجَاوِرٌ وَجَنَّتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾: ٤، ولا تخفى علاقتها بالماء الهاطل من السماء المصحوب بالرعد، (ج) وهي واحدة من السور التي تكرر فيها ذكر «الماء» دون إضافة لضمير بأكبر عدد: ٤، ١٤، ١٧، وانظر سورة البقرة: ٢٢، ٧٤، ١٦٤، وهود: ٧، ٤٣، ٤٤، (د) وهي الوحيدة التي اختصت بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْأَغْدَا وَالْأَسْمَالِ ⑤﴾: ١٥، وهي مشابهة لتسبيح الرعد، وانظر قريباً منها في سورة النحل: ٣٩، والحج: ١٨، ثالثاً: ومنها ما هو متعلق ببيان موقف الكافرين، (أ) فهي الوحيدة التي اختصت بقوله تعالى عنهم: ﴿وَلِنْ تَجْعَبَ فَمَجَّ بِقَوْلِهِمْ إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَكُنَّا جَبَدِيَّةٌ﴾: ٥، والتعجب منهم مناسب لموقفهم بعد سطوع دلالة الآيات على الله، (ب) وهي واحدة من السور التي تكرر فيها تشبيه الكافر بالأعمى: ١٦، ١٩، وانظر في سورة البقرة: ١٨، ١٧١، والأنعام: ١٠٤، ٥٠، والمائدة: ٧١ (مرتين)، والحج: ٤٦ (مرتين)، وفصلت: ١٧، ٤٤، (ج) وهي الوحيدة التي تكرر فيها قول الكافرين: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾: ٧، ٢٧، وكأنهم لم يكتفوا بما في هذه السورة من الآيات الساطعة. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

ساطعة الدلالة على عظمة الله، ولاحظ الجمع بين الآيات القرآنية والكونية بقوله ﴿يُذَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾، ولاحظ ذكر الأنهار، وبيان أن الشجر يسقى بماء واحد، وكلها آيات كونية دالة على الله، ومتعلقة بالرعد الذي يصاحب هطول الغيث من السماء.

ثانياً: وبعد هذا البيان الموجز لدلالة الآيات بنوعها على قدرة الله تعالى، انتقل السياق إلى عرض موقف الكافرين العجيب من هذه الآيات بالرغم من سطوع دلالتها، ثم دعوتهم إلى الإيمان من خلال مزيد التفصيل في عرض مظاهر كونية أخرى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبْ قَوْلَهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَمْ إِنَّا لَغَيْرُ خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وحقاً إن موقفهم لعجيب، إذ لم تكفهم آية إخراج الزرع من الأرض للدلالة على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى.

ثم انتقل السياق إلى بيان بعض مظاهر علم الله الحفيظ، وذكرها مناسب لعلم الله الحفيظ بقدر الماء الهائل من السماء المصحوب بالرعد: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٨) عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٍ بِالنُّجِيِّ وَالنَّهَارِ﴾ (١٠)، وقد أكد هذا ذكر آيتي البرق والرعد بعدها: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ (١١) وَيَسْبِغُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُوتُ مِنْ خِفَتِهِ وَيُرْسِلُ الْغَوَاقِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ (١٢)، فكما هو عالم بما في الأرحام، وبالناس مهما اختلفت أحوالهم، فهو عالم أيضاً بقدر الماء الهائل من السحاب الثقيل المصحوبة بالبرق والرعد، وعالم بمجادلة أهل الباطل في الله.

ولاحظ بيان أن الرعد يسبِّح بحمد الله تعالى، كما أنه جندي من جنود الله، فهو يبشِّر بالخير أحياناً، وقد يكون صاعقة يصيب الله بها من يشاء أحياناً أخرى، فذكر الرعد في هذا السياق أشدَّ دلالة على الله وأكثر ترهيباً للكافرين من البرق، ولذلك اختصَّ الرعد باسم السورة دون البرق، يؤكد ذلك ما يصحبه من الصوت الهادر كما لا يخفى.

واللافت للنظر أن السياق يدعو إلى التوحيد بذكر مثلين متعلقين بالماء أيضاً: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْمُنِيِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغٍ وَمَا دَعَاهُ

الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٤﴾ ، فالواجب على العاقل الذي يرى بعينه الماء الذي ينزله الله من السماء، أن يخص الله وحده بالعبادة، لا أن يعبد ما لا يملك نفعاً ولا ضرراً .

وانظر هذا المثل : ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثَلٍ كَذَلِكَ بَضْرِبُ اللَّهِ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿٧﴾﴾ ، ولاحظ ذكر أن الله هو الذي ينزل الماء الذي يشتر به الرعد، ولاحظ ذكر أن الماء يسيل بقدر الأودية، وهذا يدل على علم الله الحفيظ، وأعتقد أن هذا المثل المتعلق بظاهرة الغيث الكونية، مترابط مع الآيات القرآنية، فهي الحق الذي يثبت في الأرض وينفع الناس، ومجادلة أهل الباطل هي الزبد الذي يذهب جفاء .

فسياق السورة كما ترى يدعو إلى التوحيد من خلال عرض الآيات الكونية الدالة على قدرة الله، والمتعلقة باسم السورة تعلقاً ظاهراً .

ثالثاً : ثم انتقل السياق إلى الدعوة إلى التوحيد من خلال النوع الثاني من الآيات، وهو الآيات القرآنية، فابتدأت بذكر موقف الناس ومصيرهم من هذه الآيات : ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَنِشْرَ لِهَٰذَا ﴿٨﴾﴾ ، وعرضت مصير المؤمنين الذين يعملون بما جاء فيها : ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ أَلَسَيِّئَةً أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٩﴾﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿١٠﴾﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿١١﴾﴾ ، وعرضت مصير الكافرين الذين أعرضوا عنها رغم سطوع دلالتها على الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَبْغُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿١٥﴾﴾ .

وانظر هذه الآية : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِصِلِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّو يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَرَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا تَصْيِبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٢١﴾﴾ ، أي : لو كان من شأن القرآن أن يسير الجبال ويقطع الأرض ويكلم الموتى فيتعظوا، لكان

هذا القرآن كفيلاً بذلك، ولكن شأنه أن يدلّ على الله بما فيه من الترغيب والترهيب كما أَرَادَهُ اللهُ، وهو بذلك يشبه آية الرعد في الدلالة على رحمة الله وعقابه، ولاحظ ذكر القارعة، وهي تذكرنا بالرعد الذي قد يكون صاعقة أو قارعة تصيب الكافرين.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت الدعوة إلى التوحيد من خلال الآيات القرآنية، إذ بيّنت موقف أهل الكتاب منها: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُمْ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابُ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَيْتُمْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكُمْ مِنْ أَعْلَامٍ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾، وقد أزال الفريات المثارة حول الرسول ﷺ، فبيّنت أنهم من البشر يتزوجون ويكون لهم ذرية، وبذلك تبقى حجة الآيات القرآنية ساطعة.

وكما افتتحت السورة ببيان أن أكثر الناس لا يؤمنون بالرغم من دلالة الآيات القرآنية والكونية على قدرة الله تعالى، ختمت بدعوة الناس إلى النظر في عاقبة المكذّبين من قبلهم، وبيان أن الله عالم بمكر المكذّبين المصّرّين على اتهام الرسول ﷺ المؤيّد بالآيات القرآنية الساطعة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعِلَّمُ الْكُفْرَ لِمَنْ عَقَبَى الدَّارِ ﴿٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٣﴾﴾، وبذلك التقى البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور، والذي دل عليه اسم السورة أبلغ الدلالة، كون الرعد أبرز الآيات الكونية المذكورة في السورة دلالة على قدرة الله، وأكثرها ترهيباً للكافرين^(١).

(١) قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ له تفسيران، أحدهما لغوي يدلّ على ما يُنْقَصُ اللهُ من أرض المشركين بفتح المسلمين لها، كما قال الزمخشري في الكشاف ج، ٢، ص، ٥١٤، والثاني علمي يدلّ على حقيقة انبعاج الأرض عند الاستواء قليلاً وتطحها عند القطبين نتيجة دورانها حول محورها، الذي ينشأ عنه قوة ضغط مركزية تدفع عند خط الاستواء بقوة أقلّ من قوتها عند محور دوران الأرض، أو أنها تشير إلى انكماش الأرض من جميع أطرافها باستمرار عن طريق ما تفقده من هباءات الغبار والكثير من الغازات الخفيفة المنطلقة من فوهات البراكين عبر ملايين السنين. وهو قول أ. د زغلول النجار على موقع اليوتيوب الالكتروني، وقد ذكر أوجهاً أخرى. وبذلك نستطيع أن نعتبر الآية مشيرة إلى آية كونية أخرى دالة دلالة ساطعة على الله تعالى.

سورة الرعد

سورة بيان الدلالة الساطعة للآيات الكونية والآيات القرآنية على قدرة الله تعالى

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٤)

المقدمة التي تعرض بليجاز الدلالة الواضحة للآيات القرآنية والآيات الكونية على قدرة الله تعالى:

■ افتتحت السورة ببيان دلالة آيات القرآن على قدرة الله تعالى الذي أنزل هذه الآيات: ﴿الْمَرْءُ يَكُ أَتَيْتُ الْكِتَابَ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾.

■ ثم أعقبت المقدمة ذلك ببيان دلالة آيات الكون على الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٥-١٧)

عرض موقف الكافرين ودعوتهم إلى الإيمان من خلال ذكر بعض الآيات الكونية الساطعة الدلالة على قدرة الله تعالى:

■ عرض السياق موقف الكافرين العجيب من الكفر بالله تعالى رغم سطوع دلالة آياته: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبْ قَوْلَهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوَّارًا لِّغَىٰ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٥﴾﴾.

■ ثم عرض السياق بعض مظاهر علم الله الحفيظ في الكون، ليدعو الكافرين إلى الإيمان بالله الخالق العظيم.

■ ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٦﴾ عَلَيْهِ الْقَنَبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٧﴾ سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ. وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿٨﴾﴾.

■ ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْآزِفَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿٩﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُوتُ مِنْ خِيَمَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴿١٠﴾﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٨-٣٦)

دعوة الكافرين إلى الإيمان والتوحيد من خلال بيان سطوع دلالة الآيات القرآنية على قدرة الله تعالى:

■ عرض السياق مصير الكافرين بهذه الآيات: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

■ وعرض مصير المؤمنين بها العاملين بما جاء فيها: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٣٦﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَبِعَمِّ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٣٧﴾﴾.

■ ثم بين السياق دلالة الآيات القرآنية الساطعة على الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنْ قَرَأْنَا سُورَةَ الْجِبَالِ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِيَ بِهِ الْمَوْتُ بَلْ لَئِنَّ الْأَمْرَ جَمِيعًا﴾.

■ إن عرض هذه المظاهر متلائم مع علم الله التام بكميات الماء الهاطل من السماء المصحوب بالبرق والرعد، وكيفية تصريفه في البلاد والعباد.

■ ثم ذكر السياق مثلين يدعوان إلى توحيد الله عز وجل متعلقين بالماء أيضاً: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبُطِّ كَفْتِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيُتَلَقَّ فَأَمَّا هُوَ يَلِيقُ بِهِ وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٣٨﴾﴾.

■ وشبه المثل الثاني آيات الحق التي ينزلها الله بما يمكث في الأرض مما ينفع الناس، وشبهه الباطل بالزبد الذي يذهب جفاء مما يحمله السيل: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴿٣٩﴾﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٣٧-٤٢)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت الدعوة إلى الإيمان والتوحيد من خلال الآيات القرآنية: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا وَعَرِيقًا وَلَكِنْ آتَيْنَتْهُمُ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكَ وَلَا وَاقٍ ﴿٤٠﴾﴾.

■ وكما افتتحت السورة ببيان أن أكثر الناس لا يؤمنون بالرغم من دلالة الآيات القرآنية والآيات الكونية على قدرة الله تعالى، ختمت بدعوة الناس إلى النظر في عاقبة المكذبين وبيان أن الله عالم بمكر المكذبين بالآيات الساطعة التي أيد الله بها رسوله ﷺ: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَعِلَهُ الْكَفَرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤١﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٢﴾﴾.

سورة إبراهيم

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ
 ٢٥ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلَنِي كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ
 رَحِيمٌ ٢٦ رَبَّنَا إِنِّي أَصْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا
 لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ
 لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ٢٧ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي
 الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ٢٨ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ
 وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ٢٩ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا
 وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ٣٠ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ٣١﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سميت هذه السورة الكريمة باسم «إبراهيم» لأنها تعرض جانباً من قصته عليه السلام يبرز فيه توحيده الله عز وجل، ودعائه الله أن يجتبه وبنيته عبادة الأصنام، ودعائه الله أن يجعل ذريته مقيمين للصلاة، ويبرز شكره وحمده الله تعالى على أن وهب له على الكبر إسماعيل وإسحاق، فالدلالة السياقية لهذه القصة تدل على أن دعوة الأنبياء جميعاً تقوم على التوحيد والشكر لله عز وجل، فاسم السورة يدعو إلى الاقتداء بإبراهيم عليه السلام في التوحيد والشكر لله.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة ومقصودها هو التوحيد، وأن قصة إبراهيم أدل ما فيها على ذلك، وذكروا أن ما جاء في سياق قصته عليه السلام في السورة من نبذ الشرك والأصنام، والدعاء بإقامة الصلاة وصلاح الذرية، وإظهار الشكر لله على نعمه، إنما هي معانٍ تناولتها

السورة بشكل واضح. وتسمية السورة بأبي الأنبياء المبارك الشاكر الأوّاه المنيب «إبراهيم» عليه السلام، قد أضفى على السورة ظلالاً من هذه الصفات، وفي السورة حقيقتان متناسقتان مع هذه الظلال: أولهما حقيقة وحدة الرسالة والرسول ووحدة دعوتهم وموقفهم في مواجهة الجاهلية المكذّبة على مدى الأزمان، وثانيهما حقيقة نعمة الله على البشر ومقابلة الناس لها بالبحود والكفران بدل الشكر^(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد والشكر لله عزّ وجلّ، من خلال بيان أن دعوة الأنبياء جميعاً تقوم على التوحيد والشكر، ومن خلال بيان موقف الكافرين ومصيرهم في الدنيا والآخرة، وإنما اختير اسم «إبراهيم» لهذه السورة؛ لأن قصته عليه السلام المذكورة فيها أدلّ ما في السورة على هذا المحور، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تجد في تسمية السورة بـ «إبراهيم» أبلغ ردّ على المشركين في قريش الذين كانوا يزعمون كذباً انتماهم الديني له عليه السلام. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة الدعوة إلى الاقتداء بدعوة الأنبياء جميعاً وهي التوحيد والشكر لله عزّ وجلّ.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين دلالات سياق قصة إبراهيم عليه السلام في هذه السورة التي سمّيت باسمه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى خمسة أقسام، أولها: مقدّمة تدعو إلى توحيد الله عزّ وجلّ وشكره على نعمه، وثانيها: بيان أن دعوة الأنبياء جميعاً تقوم على التوحيد والشكر وعرض موقف الأمم من ذلك ومصيرهم الدنيوي والأخروي، وثالثها: مثّلان يبيّنان حال الموحّدين وحال المشركين مع تعقيب يدعو إلى التوحيد والشكر، ورابعها: قصة إبراهيم

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ١، ص ٣٨٦، والباقعي، نظم الدرر، ج ٤، ص ١٦٥، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٠٧٧-٢٠٨٢، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٣، ص ١٧٧، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٤، ص ١-٥، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ص ١٩٣، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ٢٩٥-٢٩٨، ووادي، ومنها، من دلالات أسماء السور، ص ١٢٨-١٣٣.

الموحد الشاكر، وخامسها: خاتمة تؤكد ما سبق^(١).

أولاً: جاءت المقدمة داعية إلى توحيد الله عز وجل، وبيان وجوب شكره على نعمه التي من أجلها إرسال الرسل ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور: ﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ①﴾ الله الذي لم يَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ② الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ③ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ يُبَيِّنُ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ④ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ⑤﴾، فانظر أولاً كيف بيّن السياق أن معنى النور هو اتباع صراط الله مالك السماوات والأرض، وانظر ثانياً الأمر

(١) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١-٥، وبيان دعوة الأنبياء الواحدة: ٦-٢٣، والمَثَلان مع التعقيب: ٢٤-٣٤، وقصة إبراهيم عليه السلام: ٣٥-٤١، والخاتمة: ٤٢-٥٢. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة بالدعوة إلى التوحيد والشكر: (أ) فهي من أكثر السور التي ذكر فيها مشتقات الجذر (شكر)، انظر الآيات: ٧ (شكروتم)، ٣٧ (يشكرون)، ٥ (شكور)، (ب) قوله تعالى ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُجُومُكَ لَيْنَ شُكْرِهِمْ لَا يَذْكُرُكُمْ﴾: ٧، ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، وقريب منه في سورة الزمر: ٧، (ج) وكذلك قوله ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: ١٠، وكذلك ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلًا﴾: ١٢، يقابله حسرة الكافرين يوم القيامة ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾: ٢١، (هـ) وتشبيه كلمة التوحيد بالشجرة الطيبة ذكر هنا فقط: ٢٤، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بموقف الكافرين وبيان مصيرهم: (أ) فقوله تعالى عنهم ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾: ٩، ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، (ب) وكذلك قول الشيطان يوم القيامة ﴿إِنَّكَ اللَّهُ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدُكُمْ فَآخَلَفْتُمْ﴾: ٢٢، (ج) وكذلك قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا بَعَثَ اللَّهُ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾: ٢٨، ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، وقريب منه في سورة البقرة: ٢١١، (د) وتشبيه كلمة الشرك بالشجرة الخبيثة لم يذكر إلا هنا: ٢٦، (هـ) وقد ذكر فيها أيضاً مشتقات الجذر (كفر) بصيغ مختلفة، انظر الآيات: ٧ (كفرتهم)، ٢٢ (كفرت)، ١٣، ١٨ (كفروا)، ٨ (إن تكفروا)، ٢٨ (كفراً)، ٢ (الكافرين)، ٣٤ (كفار). ثالثاً: ومنها أمور مختصة بإبراهيم عليه السلام: (أ) فقوله ﴿وَأَخْبَتُنِي وَيَقِ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ⑤﴾ رَبِّ إِنِّي أَشَلَّنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ: ٣٥، ٣٦، ذكر هنا فقط، (ب) وكذلك قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْتِعْصَامًا وَإِسْحَاقَ﴾: ٣٩، (ج) وقوله ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَرَبِّ ذُرِّيَّتِي﴾: ٤٠، وأما قوله ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾: ٣٧، فقد ذكر هنا وفي سورة البقرة لكن دون ذكر الشكر ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ وَالْيَوْمُ الْآخِرُ﴾: ١٢٦. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

الموجه إلى موسى عليه السلام بإخراج قومه من الظلمات إلى النور، وهي نفس الغاية التي أنزل من أجلها الكتاب على سيدنا محمد ﷺ، فالغاية من دعوة الأنبياء واحدة. ولاحظ بيان أن الذي يتعظ بآيات الله هم كل صَبَّار شكور، وهذا يؤكد المحور المذكور.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى التأكيد على أن توحيد الله تعالى وشكره هو دعوة الأنبياء جميعاً، فانظر قول موسى عليه السلام لقومه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِثْكُكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَمِيدٌ ٨، وانظر الدعوة الموحدة للأنبياء في التاريخ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَثَرُوا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ١٠﴾.

وانظر كيف كانت عاقبة الكافرين في الدنيا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُولُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ١١﴾ وَلَنَسْكَنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٢ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ١٣ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ١٤ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمُعْتَنٍ ١٥ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ١٦﴾.

فأنت ترى أن التركيز في السياق على وحدة دعوة الأنبياء جميعاً مع بيان موقف الكافرين ومصيرهم، وفي ذلك تهديد لكفار قريش الذين يزعمون الانتماء الديني إلى إبراهيم عليه السلام.

ولقد كان من المناسب ذكر موقف ومصير العدو الأول للبشرية، الذي طالما أشركه الناس في طاعته مع الله تعالى، وطالما صدَّ الناس عن شكر ربهم سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٢﴾.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى ذكر مثل كلمة التوحيد، ومثل كلمة الشرك والكفر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمِثْلَ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾، وفي ذلك دعوة للالتزام منهج التوحيد فإن ثماره لا تأتي إلا بخير، ونبد الشرك والكفر فإنهما لا يأتیان إلا بِشَرٍّ.

ويؤكد ذلك التعقيب على هذين المثلين بقوله تعالى: ﴿يُشِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّانِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾. ولاحظ التهديد في ذكر مصير من كفر بنعمة الله وجحدها: ﴿﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيُنْسِكُ الْفَرَارِ ﴿٢٩﴾﴾. وانظر الأمر الموجّه للفتنة الأخرى من الناس وهم من التزموا بمنهج التوحيد: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣٠﴾﴾. وهو أمر متناسق مع ما سيأتي في قصة إبراهيم عليه السلام من الدعاء بالتزام عبادة الله تعالى وحده وإقامة الصلاة. ومعلوم أن إقامة الصلاة والإنفاق سرّاً وجهراً يعتبران من المظاهر العملية لشكر الله.

وذكر السياق عدداً من نِعَمِ الله تعالى على البشر، وهي نِعَمٌ تستوجب الشكر، فالله هو الذي خلق السماوات والأرض، وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات، وسخر الفلك في البحر، وسخر الأنهار، وسخر الشمس والقمر، وسخر الليل والنهار، وانظر هذه النعمة التي تجد صداها في قلب كل إنسان: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣١﴾﴾. فالواجب على الإنسان أن يكون موحداً لربه شاكراً لنعمائه، لا أن يكون كفوراً أو مشركاً.

رابعاً: ثم انتقل السياق إلى عرض قصة إبراهيم عليه السلام، الموحّد الشاكر، وفي ذلك توجيه إلى وجوب اتخاذه عليه السلام قدوة للبشر، لا أن يكونوا ظلومين كفارين كما جاء الوصف في الآية السابقة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٢﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلَنِي كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ يَتَعَنَّى فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾ ، ولاحظ كيف تبرأ عليه السلام ممن حاد عن درب التوحيد، وكيف بين أن من يتسبون إليه حقيقة هم أهل التوحيد فقط .

وعرضت القصة شكر إبراهيم عليه السلام على نعم الله، ودعائه بإقامة الصلاة، وهي الجانب العملي التطبيقي لعقيدة التوحيد والشكر: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ﴿٣٤﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٣٥﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٣٦﴾ . وهي دعوة متناسقة مع ما سبق من سياق السورة من دعوة المؤمنين إلى التزام مبدأ التوحيد والشكر، لا الجحود والكفر، ولاحظ دعوته بالمغفرة لكل من التزم الإيمان بالتوحيد إلى يوم القيامة، ألا فجزاه الله ونبينا محمداً ﷺ خيراً عن كل فرد منهم .

خامساً: بقيت الخاتمة، وتجد فيها التأكيد على ما سبق من وجوب التزام التوحيد والشكر لله عز وجل، وذلك ببيان مصير الظالمين الذين قابلوا نعمة الله عليهم بالجحود والكفران: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ ﴿٣٧﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٣٨﴾ .

وانظر كيف أكدت الخاتمة حقيقة انتصار الله لأهل التوحيد: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ﴿٣٩﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٠﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤١﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ فَطْرَانٍ وَتَعْشَىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ ﴿٤٢﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤٣﴾ ، وحقيقة انتصار الله لأهل التوحيد مذكورة أول السورة (١) .

وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى التوحيد، ختمت كذلك بالدعوة إلى التوحيد: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُهُ وَبَدَّكَرَ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٤٤﴾ ، وهكذا التقت المقدمة والخاتمة على المحور المذكور والذي دل عليه اسم السورة بأبلغ الدلالة .

(١) ينظر الآيات: ١٣ - ١٧ .

سورة إبراهيم

سورة الدعوة إلى الاقتداء بدعوة الأنبياء جميعاً وهي التوحيد والشكر لله عز وجل

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٥)

المقدمة التي تدعو إلى توحيد الله وشكره على نعمه:

■ افتتحت السورة ببيان أن الغاية من إنزال القرآن هي دعوة الناس إلى التوحيد وشكر الله: ﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝﴾.

■ وحذرت الكافرين الذين يستحبون الحياة الدنيا على الإيمان بالله وشكره.

■ وبيّنت أن دعوة موسى عليه السلام أيضاً كانت تقوم على توحيد الله وشكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٦-٢٣)

بيان أن دعوة الأنبياء جميعاً تقوم على التوحيد والشكر، وعرض موقف الأمم الأخرى من ذلك ومصيرهم الدنيوي والأخروي:

■ ذكر السياق قول موسى عليه السلام داعياً قومه لشكر الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ مَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُوكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْعَاكُمْ أَنْشَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ كَلَامٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رُءُوسُكُمْ وَلَكُمْ لَشَدِيدٌ ۝﴾.

■ ثم بيّن السياق أن دعوة الأنبياء جميعاً تقوم على التوحيد والشكر لله عز وجل: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفَرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ۝﴾.

■ وبيّن السياق عاقبة الكافرين في الدنيا فذكر قول الله لأنبيائه ورسله: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَهَاكُنَّ الظَّالِمِينَ وَنُحِمْكُمْ الْآرَضِ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۝﴾.

■ وبيّن عاقبة الكافرين في الآخرة: ﴿وَأَسْفَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝﴾ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَسُقِيَ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ۝﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٤-٣٤)

مَثَلان يبينان حال الموحدين الشاكرين وحال المشركين مع تعقيب يدعو إلى التوحيد والشكر:

■ بين السياق أن المؤمنين الشاكرين كالشجرة الطيبة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُوَفَّقُ أَكْلُهَا كُلَّ حِينٍ يَأْذِنُ رَبُّهَا﴾.

■ وبين السياق أن المشركين كالشجرة المقطوعة لا خير فيها: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾.

■ ثم عقب السياق على المثليين بتهديد من كفر بنعمة الله وجحدها: ﴿﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَنَاسٌ الْقَرَارِ﴾﴾.

■ ثم دعا المؤمنين للعمل الصالح الذي هو مظهر عملي لشكر الله تعالى: ﴿قُلْ لِمَا دُعِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا زَكَاةً وَسِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ﴾.

■ ثم ذكر السياق بعضاً من الظواهر الكونية التي تستوجب شكر الخالق المنعم، فالله خالق السماوات والأرض وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرج به الثمرات، وهو الذي سخر الفلك في البحر، وسخر الأنهار، وسخر الشمس والقمر، والليل والنهار: ﴿وَمَا تَنْكُمُ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٣٥-٤١)

قصة إبراهيم الموحّد الشاكر الذي ينبغي أن يقتدي به المؤمنون لأنه أبو الأنبياء:

■ بينت القصة أنه كان موحداً: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.

■ وأنه كان شاكراً لنعم الله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

■ وأنه يعمل العمل الصالح الذي هو مظهر شكره لخالقه: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾.

■ وأنه يحب المؤمنين ويدعو لهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.

الموضوع الخامس : (الآيات : ٤٢-٥٢)

الخاتمة التي تؤكد ما سبق :

- أعادت التذكير بمصير الظالمين الذين قابلوا نعمة الله بالجحود والنكران : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾﴾ .
- وأعادت التحذير من عدم الإيمان بدعوة الأنبياء : ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْتَدْعُوكَ وَتَتَجَنَّبَ الرَّسُلُ أَوْلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٣﴾﴾ .
- وأعادت التذكير بانتصار الله لأهل التوحيد : ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلَّفَ وَعْدِهِ رَسُولُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٤﴾﴾ .
- وكما افتتحت بالدعوة إلى التوحيد والشكر، ختمت ببيان أن أولي الألباب هم من يستجيبون لهذه الدعوة : ﴿هَذَا بَلَّغُ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٤٥﴾﴾ .

سورة الحجر

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَايَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس: «الحاء والجيم والراء أصل مطرد، وهو المنع والإحاطة على الشيء»^(١)، وبناءً على ذلك يكون من أهم الدلالات اللغوية لوصف ثمود بأنهم أصحاب الحجر: المبالغة في الحفظ والمنعة والأمان، وكأنهم ظنوا أن بيوتهم التي نحتوها في الجبال ستحفظهم وتمنعهم وتكون أماناً لهم من عذاب الله.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً من الربط بين اسم سورة «الحجر» ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن من مقاصد هذه السورة وصف الكتاب بأنه في الذروة من الجمع للآيات الواضحة الدالة على الله، وقصة الحجر تدلّ على ذلك، فقد أتتهم آيات واضحة فأعرضوا عنها حتى حاق بهم العذاب، وذكروا أن من مقاصد هذه السورة أيضاً إبراز طبيعة المكذّبين بهذا الدين، ودوافعهم الأصلية للتكذيب، وتصوير المصير المخوف الذي ينتظرهم، واستدلوا على ذلك بما تحويه السورة من صور متعدّدة لإهلاك المكذّبين، بالإضافة إلى ما فيها من إنذار ملفّع بظلّ من التهويل يزيد جوّها رهبة وتوقّعاً للمصير، وبما تحويه من آيات كونية تبرز عظمة الله تعالى وقدرته، وبما فيها من عرض بعض مشاهد يوم القيامة، وقصة الحجر تمثل أنموذجاً من المصير المخوف الذي ينتظر الكافرين المكذّبين^(٢).

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٢٩٧.

(٢) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ١، ص ٣٩٤، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٤، ص ١٩٩، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢١٢١-٢١٢٤، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٤، ص ٧، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، =

ويمكن أن ينبني على ما سبق من الأقوال بالقول بأن محور السورة هو: بيان أنه لا حافظ ولا مؤمن للكافرين والمكذّبين من بأس الله تعالى، وإنما الحفظ والأمان في الدنيا والآخرة يكون لأوليائه تعالى الذين التزموا بمنهجه المحفوظ، وإنما سمّيت هذه السورة بـ«الحجر» لأن الدلالات اللفظية والسياقية لهذه القصة مع التعقيب الإلهي عليها أدلّ ما في السورة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان أنه لا حفظ لمن كذب بآيات الله، وأن الحفظ إنما يكون بالتزام منهج الله المحفوظ.

وبتأمل موضوعات السورة تظهر أوجه العلاقة بينها وبين دلالات اسم السورة، وذلك بأنك تجد دلالة موضوع الحفظ بصوره المختلفة من أول السورة إلى آخرها، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن تقسيم السورة إلى ثلاثة أقسام رئيسية: مقدّمة تهدّد المكذّبين ببيان أن لا حافظ لهم من بأس الله، وأن الحفظ والأمان باتّباع منهجه، ثم عرض قصصي متنوّع يبرز حفظ الله لأوليائه الملتزمين بمنهجه، مع بيان وقوع العذاب بالمكذّبين الذين لم يحفظهم منه شيء، وخاتمة مؤكّدة لما سبق^(١).

= التفسير الموضوعي، م ٤، ص ٩٥ و ٩٦. ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ٣٣٣-٣٣٥، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى ومحمود مهنا بالدراسة.

(١) مقدّمة السورة شملت الآيات: ١- ٢٥، والعرض القصصي شمل كلّ ما يلي: قصة آدم مع تعقيب: ٢٦- ٥٠، وقصة إبراهيم ولوط: ٥١- ٧٧ عليهم السلام جميعاً، وإشارة إلى أصحاب الأيكة: ٧٨ و ٧٩، وإشارة إلى أصحاب الحجر: ٨٠- ٨٤، والخاتمة: ٨٥- ٩٩. ومن لطائف هذه السورة: أولاً: أنها وسورة الأنبياء الوحيدتان اللتان تكرر فيهما نسبة الحفظ إلى الله، لكن في الحجر كان التعبير صريحاً في ذلك: ٩ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَافِعُونَ﴾، ١٧ ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾، بينما في الأنبياء: ٣٢ ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾، ٨٢ ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾، وبإمكانك أن تضيف أنها أكثر سورة تكررت فيها كلمة «معلوم» للدلالة على كمال علم الله تعالى: ٤ ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا وَهَذَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾، ٢١ ﴿وَلَيْدَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾، ٣٨ ﴿إِنَّ يَوْمَ الْقِيَامِ الْمَعْلُومِ﴾، وثانياً: ومما يدل على حفظ الله تعالى لمن التزم بمنهجه في هذه السورة (أ): قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾: ٤٢، لم يذكر إلا هنا وفي الإسراء: ٦٥، وقريب منه في سورة النحل: ٩٩، (ب) وكذلك قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا السَّمْعُوتَيْنِ﴾: ٩٥، هنا فقط بهذه الصيغة، وقريب منه في البقرة: ١٣٧، وفي الزمر: ٣٦، وثالثاً: ومما يدل على أنه لا حفظ لمن كذب بآيات الله في هذه السورة (أ): قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا وَهَذَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾: ٤، لم يذكر إلا =

أولاً: جاء في المقدمة بيان مهّد للكافرين يثبت أنه لن يحفظهم من بأس الله شيء، إلا إذا تابوا وآمنوا والتزموا منهج الله تعالى المتمثل في القرآن: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ۝ رَبُّمَا يُؤْذِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝﴾ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَسْمَعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ

== هنا بهذه الصيغة، ب) وقوله ﴿مَا نَزَّلْنَا الذِّكْرَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾: ٨، هنا فقط بهذه الصيغة، وقريب منه في سورة الأنعام: ٨، ج) وقوله تعالى عن أصحاب الحجر: ﴿لَمَّا أَتَيْنَاهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾: ٨٤، وقد ذكرت هذه العبارة في سورة الزمر: ٥٠، وغافر: ٨٢ ولكنها كانت فيهما جزءاً من آية وليس آية كاملة كما في الحجر، ورابعاً: لم تتكرر لفظة (آمنين) إلا في هذه السورة وقد كان ذلك في موضعين، واللافت للنظر أن الموضعين جاءا بصورة تقابلية: فقال عن أصحاب الجنة: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ﴾: ٤٦، وقال عن أصحاب الحجر: ﴿وَكَانُوا يَتَحَوَّنَ مِنْ لَيْلٍ يَبُوءَانِ آمِينَ﴾ (٨٢): ٨٢. ينظر: عبد الباقي: المعجم المفهرس، وكان السورة تقول: إن الذي حفظ السماء وحفظ كتابه هو القادر على أن ينزل على المكذبين عذاباً لا حافظ لهم منه، وأن الأمان إنما يكون باتباع منهجه تعالى، وأن من حاد عن منهجه لا أمان له، وذلك يؤكد المحور المذكور. ويلاحظ أمر آخر: وهو أن محور هذه السورة قريب جداً من محور سورة الكهف، فالمحور في سورة الكهف حول حفظ من لا بالله كأصحاب الكهف، وأما سورة الحجر فمحورها بيان أن لا حفظ لمن نأى عنه تعالى كأصحاب الحجر، فالسورتان تعطيان صورتين متقابلتين، وإليك بعض أوجه التناق بين السورتين على نحو يؤكد المحور الخاص لكل سورة منهما: أولاً: ذكر الكتاب في أول آية منهما، ثانياً: مشتقات الجذر «حكم» جاء مرة في الحجر: ٢٥، ومرة في الكهف: ٢٦، وثالثاً: عبارة «سنة الأولين» ذكرت مرة في الحجر: ١٣، ومرة في الكهف: ٥٥، ورابعاً: كلمة «الرياح» ذكرت مرة في الحجر: ٢٢، ومرة في الكهف: ٤٥، وخامساً: كلمة «الإنسان» ذكرت مرة في الحجر: ٢٦، ومرة في الكهف: ٥٤، وسادساً: كلمة «الجان» مرة في الحجر: ٢٧، و«الجن» مرة في الكهف: ٥٠، وسابعاً: مشتقات الجذر «هلك» ذكرت مرة في الحجر: ٤، ومرتين في الكهف في نفس الآية: ٥٩، وثامناً: كلمة «بشر» ذكرت مرتين في الحجر: ٢٨، ٣٣، ومرة في الكهف: ١١٠، وتاسعاً: كلمة «إبليس» ذكرت مرتين في الحجر: ٣١، ٣٢، ومرة في الكهف: ٥٠، وعاشراً: انظر الآية ٢٢ في الحجر ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِعَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وانظر الآية ٤٥ في الكهف ﴿كَلَّمَ أَرْسَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَقَ بِهِ نَبَاتَ الْأَرْضِ﴾، وأحد عشر: انظر الآية ٨٥ في الحجر ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، وانظر الآية ٢٦ من سورة الكهف ﴿لَهُ عِيبٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والآية ٥١ ﴿مَا أَفْهَمْتُمُ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وثاني عشر: انظر الآية ١٩ في الحجر ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾، وانظر الآية ٤٧ في الكهف ﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ لَيْلِيَّ وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾، وثالث عشر: انظر الآية ٤٩ في الحجر ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩)، وانظر الآية ٥٨ في الكهف ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾، ورابع عشر: انظر الآية ٨٨ في الحجر ﴿لَا تَدْعُ عِبِيدَكَ إِلَىٰ مَا مَنَعْنَا بِهِمْ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾، وانظر الآية ٢٨ في الكهف ﴿وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وخامس عشر: انظر الآية ٩٦ في الحجر الذي يدل على أن لا حفظ للمشركون ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَآخِرُ سَوَافٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٩٦)، وانظر الآية ١٤ الذي يدل على حفظ الموحدين ﴿رَبَّنَا رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾. وإذا تأملت الآيات المذكورة في سياق السورتين سيظهر لك أنها جاءت بصيغ متلازمة مع المحور المذكور لكل سورة منهما. وينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٣﴾ مَا تَسْقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٤﴾ ، ولاحظ تحشّر الكافرين على عدم إسلامهم، إذ لو أسلموا لدخلوا في حفظ الله، ولاحظ أيضاً الآيتين الأخيرتين، اللتين تشيران إلى أنه لا حافظ للكافر من بأس الله، وتشيران إلى علم الله الحفيظ.

ثم انتقل السياق إلى عرض شبهة لكفار قريش تبرز أنهم ظنوا أنفسهم في حفظ من عذاب الله، وذلك يتلاءم مع ظن أصحاب الحجر أنهم ستحفظهم بيوتهم المنيعه من بأس الله: ﴿وَقَالُوا يَتَأْتِيهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ﴿٥﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكِ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٧﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٨﴾ ، فهم طلبوا نزول الملائكة لتعذبهم، فكان الردّ الإلهي بيان أن الملائكة إنما هم ينزلون بأمر ربهم، ولو أمرها بإنزال العذاب عليهم فلن يجد الكافرون من عذابه حافظاً، ولن تكون لهم مهلة، ولاحظ أيضاً بيان أن الله تعالى قد حفظ كتابه، وفي ذلك - فيما أرى - دالتان: أولهما أن الحفظ من بأس الله إنما يكون بالتزام بما جاء في هذا الكتاب المحفوظ، والثانية الإشارة إلى أن القادر على حفظ كتابه، قادر على إنزال العذاب على الكافرين ولن يجدوا من دونه حافظاً.

ثم أشارت المقدمة إلى بعض مظاهر قدرة الله في الكون، وهي أيضاً تدلّ على علم الله الحفيظ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ﴿٩﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَافِدَهَا لِلنَّظِيرِينَ ﴿١١﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٢﴾ إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ، فهذه إشارة إلى حفظ السماء الدنيا من الإنس والشياطين، وانظر الإشارة إلى علم الله الحفيظ في الأرض وفي الرزق وفي المقادير: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٤﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمُ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَمْ بِرَزَقِينَ ﴿١٥﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿١٦﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاثَرْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ بِمُحْسِنِينَ ﴿١٧﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ مُعِيٌّ وَنُيْمٌ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِلِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِلِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِلِينَ مِنْكُمْ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَسْرَتِهِمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٩﴾ ۞

فأنت ترى أن المقدمة بإشاراتها المتعددة إلى علم الله الحفيظ في السماء والأرض والبشر والرزق والقرآن، تعطي دلالة بأن الحفظ إنما يكون بالتزام منهجه تعالى، وأن من حاد عنه فكفر وكذب لا حافظ له من بأس الله، وذلك متنسق تمام الاتساق مع دلالات قصة أصحاب الحجر المكذبين بآيات الله، فلم يكن لهم حافظ يحفظهم من بأسه.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى عرض قصصي يثبت حفظ الله لأوليائه، ويثبت أن لا حافظ لمن كفر وكذب، فكانت أول قصة قصة أبي البشر آدم عليه السلام، وذلك لأن فيها تحذيراً من كيد الشيطان الذي يريد أن يترك الناس منهج الله فيخرجوا من حفظه، واللطف أن ذكر خلقه من صلصال من حمأ مسنون قد تكرر ثلاث مرات، وأعتقد أن ذلك إشارة إلى ضعف التكوين الجسمي للإنسان، وهو مع ذلك إذا التزم بمنهج الله حفظه من أي سوء، فكان ذلك أدل على حفظ الله لهذا المخلوق الضعيف، والله أعلم.

ولاحظ حفظ الله لأوليائه الملتزمين بمنهجه من عدوهم الأول: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾.

ولاحظ التعقيب على القصة الدال على علم الله الحفيظ أيضاً: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَهَنَّمَ وَغُيُونَ ﴿٤٥﴾ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى شُرُرٍ مُتَقَلِّبِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾، وأعتقد أن التفصيل في عدة أبواب جهنم، مع بيان أن لكل منها جزءاً مقسوماً محدداً، لزيادة الدلالة على علم الله، ولاحظ حفظ المؤمنين في الجنات، فهم آمنون سالمون لا يتعبون ولا يخرجون منها. فقصة آدم مع التعقيب عليها مترابطة تماماً مع محور السورة ودلالات اسمها.

ثم انتقل السياق إلى قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام، ولم تخل القصة من دلالات الحفظ أيضاً: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ بَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا

بَشَرَتَكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْفَاطِنِينَ ﴿٥٥﴾ ، فلاحظ قول الملائكة: سلاماً، أي: أنت محفوظ من أن يمسك منك سوء، وقد أكدوا ذلك بقولهم: لا توجل. أما البشارة بالسلام العليم فأعتقد أنها تدلّ على حفظ الله أيضاً، فالله سيحفظ هذا الجنين الذي سيكون في رحم أمه حتى لو كانت عجوزاً وبعلمها شيخ كبير.

ثم انتقل السياق إلى قصة لوط عليه السلام مع قومه، وهي تحوي أحد أوجه الإعجاز الفني في القصص القرآني، وذلك أن السياق قدّم إخبار الملائكة لوطاً عليه السلام بمهمتهم التي جاؤوا من أجلها على مجيء قومه^(١): ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْقَئُوكَ مِنْكَ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٠﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْحِحِينَ ﴿٦١﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ، وقد كان ذلك التقديم متلائماً مع محور السورة الدالّ على أنه لا حافظ للكافرين والمكذّبين من بأس الله، هذا أولاً، وثانياً: إن هذا التقديم متناسب مع ما جاء في مقدّمة السورة من طلب المشركين إنزال الملائكة بالعذاب، فكان تقديم ذكر مهمّة الملائكة في قصة لوط أدلّ على قدرة الله على إنزال الملائكة بالعذاب، وفي ذلك تهويل أشدّ للمشركين، فهذا التقديم يطلعنا على أحد قواعد المنهج القرآني في عرض القصص وهو أنه يقدّم في العرض القصصي الحدث الأنسب للسياق ولمحور السورة.

ثم لاحظ أيضاً قول الملائكة للوط عليه السلام حينما أنكرهم: ﴿بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ، وهو يحوي إشارة إلى حفظه من المخاوف أيضاً، وحتى في إهلاك القوم آية على علم الله الحفيظ: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَابِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٦٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٦٤﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾ ، فأثار قريتهم المهلكة في طريق ثابت يسلكه الناس، وكأنها محفوظة من أن تدرس حتى تبقى آية للمؤمنين.

(١) بينما في سورة هود كان ترتيب الأحداث مغايراً، فقد قدم السياق في سورة هود مجيء قوم لوط على إخبار الملائكة لوطاً عليه السلام بمهمتهم، ينظر الآيات: ٧٧ - ٨١، وذلك لأن التركيز كان في سياق تلك السورة على مدى شناعة موقف قوم لوط من دعوته، بينما الترتيب الذي جاء في سورة الحجر يدلّ على المسارعة في الحفظ.

ثم انتقل السياق إلى إشارة إلى أصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب عليه السلام: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ۝٧٨ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَارٍ مُّبِينٍ ۝٧٩﴾، واعتقد أن السياق ذكر هذه الإشارة ليدلنا على أن أصحاب الأيكة ظنوا أنهم محفوظون في رغد عيشهم وما فيه من شجر كثير مجتمع، لكن ذلك لم يحفظهم من بأس الله، وقد كانت آثارهم وآثار قرية قوم لوط عليه السلام في طريق يؤمها الناس في سفرهم.

وأما الإشارة إلى أصحاب الحجر، فقد كانت أدل ما في السورة على محورها الذي يبين أنه لا حافظ من بأس الله، وذلك أنهم ظنوا أن بيوتهم المنحوتة في الصخر ستحفظهم: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ۝٨٠ وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢ فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ ۝٨٣ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٨٤﴾، ولاحظ قوله تعالى: وآتيناهم آياتنا، فقد كان صالح عليه السلام يدعوهم إلى منهج الله مؤيداً بمعجزة الناقة التي خرجت من الصخر، وهي معجزة متلائمة مع ما حذقوه من نحت الصخور والجبال، لكنهم أعرضوا عنها فلم يكن لهم حافظ من بأس الله.

فأنت تلاحظ أن القصص المذكور في هذه السورة يبرز جانبين اثنين: أولهما حفظ الله لأوليائه الملتزمين بمنهجه، وثانيهما بيان أن لا حافظ للمكذّبين والكافرين من بأس الله، وذلك يتلاءم تماماً مع الدلالات السياقية واللغوية لاسم السورة.

ثالثاً: وأما الخاتمة فهي تحوي تلخيصاً لما سبق، فأعادت التذكير ببعض مظاهر علم الله الحفيظ في السماوات والأرض، وحفظ القرآن: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ۝٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝٨٦ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ التَّنْزِيلِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ۝٨٧﴾، وأعادت التذكير بأن التزام منهج الله يحفظ المؤمنين، وأن من حاد عنه لا حفظ له: ﴿لَا تَتَدَنَّ عَيْدَكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ۝٨٩ كَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى الْمُقْسِمِينَ ۝٩٠ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ۝٩١ فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلِنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩٣ فَاصْصَبْ بِمَا تُؤْمَرُ وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۝٩٤﴾.

وكما افتتحت السورة ببيان حفظ الرسالة المتمثلة بالقرآن، ختمت السورة ببيان حفظ

صاحب الرسالة ﷺ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ۖ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۖ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ۖ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ۖ ﴿٩٩﴾ ۞ . وهكذا التقى الختام والبدء على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة بدلالاته اللغوية والسياقية أبلغ الدلالة.



سورة الحجر

سورة بيان أنه لا حفظ لمن كذب بآيات الله، وأن الحفظ إنما يكون بالتزام منهج الله المحفوظ

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٢٥)

المقدمة التي تهدد المكذبين ببيان أنه لا حافظ لهم من بأس الله، وأن الحفظ يكون لمن اتبع منهج الله:

■ افتتحت السورة ببيان أن الكافرين سيتحسرون على عدم إيمانهم بآيات القرآن المبين: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ۝ رَبِّمَا يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝﴾.

■ وبيّنت أنه لا حافظ لهم من بأس الله: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَمْتَعُوا وَيُلْهِمِ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝﴾.

■ وقالت ردًا على طلبهم نزول ملائكة العذاب عليهم: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ۝﴾.

■ وكما بيّنت أنه لا حفظ لمن كذب بآيات الله، بيّنت أن الله حفظ آياته التي هي منهج الله للبشر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٢٦-٨٤)

عرض قصصي يبرز حفظ الله لأوليائه الملتزمين بمنهجه، مع بيان وقوع العذاب بالمكذبين الذين لم يحفظهم شيء من العذاب:

■ بيّنت قصة آدم عليه السلام أن الله خلقه من صلصال من حمأ مسنون، ومع ضعف تكوينه الجسمي فقد حفظ الله الملتزمين بمنهج الله من أي سوء، وحذّرت القصة من توعد إبليس بالغواية ليخرج بني آدم عن حفظ الله.

■ بيّنت قصة إبراهيم عليه السلام أنه محفوظ من أن يمسّه سوء: ﴿قَالُوا لَا تَوْحَلْ إِنَّا بِبُشْرِكَ بِغُلَامٍ عَلَيْ ۝﴾.

■ وبيّنت أن الله سيحفظ هذا الجنين في رحم أمه رغم أنها كانت عقيماً وبعّلها شيخ كبير.

■ وبيّنت قصة لوط أن الله سيحفظه من كيد قومه: ﴿قَالُوا بَلْ جُنْتَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَمَصِدُونَ ۝﴾.

■ وبيّنت إهلاك قومه في سبيل مقيم، وكأنه محفوظ من أن يندرس لبقى آية للناس: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ۝ وَإِنَّا لَنَسِيلٌ مُّبِينٌ ۝﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٨٥-٩٩)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت التذكير بمظاهر علم الله الحفيظ:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآيَةً فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَبِيلَ﴾ (٨٥).

■ وأعادت بيان أن الله حافظ للقرآن الكريم الذي هو منهج الله للبشر: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (٨٦).

■ وأعادت التذكير بأن التزام منهج الله يحفظ المؤمنين، وأن من حاد عنه لا حفظ له: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ (٨٧) ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ (٨٨) ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (٨٩).

■ وكما افتتحت السورة ببيان حفظ الله للقرآن الذي هو منهج البشر، ختمت ببيان حفظ صاحب الرسالة ﷺ، وأمرته بالتزام منهج الله حتى يأتيه اليقين: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (٩٠) ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٩١) ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (٩٢) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (٩٣) ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (٩٤).

■ ظن أصحاب الأيكة أن رغد عيشهم سيحفظهم من بأس الله، لكن الله انتقم منهم وقد كان موقع إهلاكهم في سبيل مقيم أيضاً مثل موقع إهلاك قوم لوط.

■ وظن أصحاب الحجر أن بيوتهم التي ينتحونها من الجبال ستؤمنهم من بأس الله بعد أن كذبوا بآياته، ولكنها لم تنفعهم شيئاً، وقد أخذتهم الصيحة مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون.

سورة النحل

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾
ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ
مُّخْتَلَفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى حديثها عن النحل، الحشرة المعروفة، فقد أخبرت السورة أن الله تعالى أوحى إلى النحل اتخاذ مكان معيشتها من الجبال أو الشجر أو مما يعرشه البشر من النبات، وأوحى إليها كيفية إنتاج العسل من أكلها من كل الثمرات، وسلوكها في ذلك مختلف السبل، حتى يكون شراباً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس، فإخبار السورة عن هذه الحقيقة يدل على أن النحل من أعجب آيات الله في خلقه الدالة عليه، فهي بالتزامها وحي ربها أنتجت شراباً شافياً، والوحي إليها يشبه وحي الله إلى الأنبياء لتبليغ الهدى للناس، فالعسل شفاء للأبدان، والوحي حياة للأرواح، ولكن من الناس من يعرض عن وحي ربه.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن مقصود هذه السورة الدلالة على أن الله تعالى تام القدرة والعلم، منزّه عن شوائب النقص، وأدل ما فيها على هذا أمر النحل، مما ذكر من شأنها من دقة الفهم في ترتيب بيوتها ورعيها وسائر أمورها واختلاف ألوان أعسالها، وهذا أمر يدل على أهمية الوحي الإلهي الذي إذا التزم البشر به وصلوا إلى طريق الفلاح في الدنيا والآخرة، ففي السورة حملة ضخمة للتوجيه والتأثير واستجاشة العقل والضمير وتوجيههما إلى آيات الله التي تتجلى فيها عظمة الخلق وعظمة النعمة وعظمة العلم والتدبير، وقد كان النحل أدلّ هذه الآيات

المذكورة في السورة على ذلك^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد والشكر من خلال بيان ما سخره الله من الآيات الكونية للإنسان الدالة على المنعم سبحانه وتعالى، ومن خلال ما يؤازرها من آيات الوحي التي يوحىها الله تعالى إلى الأنبياء لهداية الناس. ولما كانت آية النحل التي أوحى إليها ربها مكان معيشتها وسبل تحصيل رزقها وما تنتجه من شراب فيه شفاء للناس، أكثر الآيات الكونية المذكورة في السورة دلالة على المنعم سبحانه، وأكثرها مشابهة لآيات الوحي على الأنبياء، سميت السورة بها للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان ما سخره الله من الآيات الكونية للإنسان الدالة على المنعم سبحانه، وما يؤازرها من آيات الوحي الداعية إلى الهدى، فالآيات الكونية فيها حياة الأبدان، وآيات الوحي فيها حياة الأرواح.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى خمسة موضوعات، أولاً: مقدّمة تبرز دلالة آيات الوحي المنزلة على الأنبياء، ودلالة الآيات الكونية على المنعم سبحانه بشكل موجز، ثانياً: التفصيل في عرض بعض الآيات الكونية المسخرة للإنسان وموقف البشر منها، ثالثاً: التفصيل في عرض موقفهم من آيات الوحي مع بيان مصير الفريقين يوم القيامة، رابعاً: الدعوة إلى التوحيد من خلال الآيات الكونية وآيات الوحي بشكل مشترك، خامساً: الخاتمة المؤكدة لما سبق^(٢).

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ١، ص ٤٠٢، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٤، ص ٢٤٣، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢١٥٨، ٢١٥٩، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٤، ص ٩٤، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٤، ص ١٣٣، ١٣٤، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٢٠٥، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ١٩٩، ٢٠٠، وادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ١٣٤-١٣٨.

(٢) مقدّمة السورة شملت آيات: ١-٩، والآيات الكونية: ١٠-٢٣، وآيات الوحي: ٢٤-٤٧، والدعوة إلى التوحيد من خلالهما معاً: ٤٨-١١١، والخاتمة: ١١٢-١٢٨. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من =

أولاً: جاء في مقدمة السورة بيان أن الآيات التي يوحىها الله لأنبيائه، والآيات الكونية التي سخرها الله للإنسان، تدلّان على الله دلالة تدعو إلى توحيده وشكره، لأنه هو وحده الخالق المنعم: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ يُزِيلُ الْمَلٰٓئِكَةُ بِالرُّوحِ مِمَّنْ أَمَرَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ۝ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ وَالْأَنعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ

= الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك، أولاً: منها أمور متعلقة بتسخير الآيات الكونية للإنسان، (أ) فلم يذكر في القرآن أن الله تعالى أوحى إلى شيء غير البشر والملائكة إلا النحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ۝ وَالسَّمَاءَ: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ فصلت: ١٢، والأرض: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ الزلزلة: ٥، (ب) هي أكثر سورة تكررت فيها عبارة «جعل لكم» العائدة على الله، وذلك ثمان مرات: ٧٢ (مرتين)، ٧٨، ٨٠ (مرتين)، ٨١ (ثلاث مرات)، (ج) هي أكثر سورة تكررت فيها كلمة «نعمة» دون إضافة لضمير، وذلك ست مرات: ١٨، ٥٣، ٧١، ٧٢، ٨٣، ١١٤، وبإمكانك أن تضيف (نعمة عليكم): ٨١، و﴿فَكَفَّرْتَ بِأَنْعَمِ اللَّهِ﴾: ١١٢، ولم تتكرر (بأنعم) في القرآن، و(شاكراً لأنعمه): ١٢١، وكذلك (لأنعمه) لم تتكرر، (د) هي أكثر سورة تكرر فيها الفعل الماضي «خلق» دون إضافة لضمير، وذلك أربع مرات: ٣، ٤، ٤٨، ٨١، كما وأنها الوحيدة التي تكرر فيها الفعل «يخلق» المنسوب لله دون الإضافة لضمير، وذلك مرتان: ٨، ١٧، ولم تتكرر هذه العبارة بهذه الصيغة في موقع آخر: ﴿وَالْأَنعَمَ خَلَقَهَا﴾: ٥، (هـ) هي وسورة إبراهيم أكثر سورتين في القرآن تكرر فيهما مشتقات الفعل «سخر» العائد على الله تعالى وذلك أربع مرات في سورة النحل: ١٢ (مرتين)، ١٤، ٧٩، وأربع في سورة إبراهيم: ٣٢ (مرتين)، ٣٣ (مرتين)، ولا يخفى أن سورة النحل ذكر فيها سيدنا إبراهيم عليه السلام، (و) هي وسورة الحج أكثر سورتين تكررت فيهما كلمة «الأنعام» بعد سورة الأنعام، ففي سورة النحل ثلاث مرات: ٥، ٦٦، ٨٠، وكذلك في سورة الحج: ٢٨، ٣٠، ٣٤، وفي سورة الأنعام ست مرات: ١٣٦، ١٣٨ (ثلاث مرات)، ١٣٩، ١٤٢، ثانياً: ومنها ما يتعلق بآيات الوحي، (أ) فهي وسورة البقرة الوحيدتان اللتان تكررت فيهما كلمة «الروح» العائدة على الوحي بواسطة جبريل عليه السلام، انظر في سورة النحل: ﴿يُزِيلُ الْمَلٰٓئِكَةُ بِالرُّوحِ مِمَّنْ أَمَرَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾: ٢، و﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾: ١٠٢، وانظر في سورة البقرة: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَتِّينَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾: ٨٧، ٢٥٣، ولكن لاحظ اختصاصهما بعيسى عليه السلام، (ب) هي إحدى السور الثلاث التي اشتركت بعبارة «لسان عربي» لوصف القرآن: انظر في سورة النحل: ١٠٣، والشعراء: ١٩٥، والأحقاف: ١٢، ثالثاً: ومنها ما يتعلق بالدعوة إلى الشكر: إذ لم تتكرر هذه العبارة في القرآن: ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾: ١١٤، وكذلك وصف إبراهيم عليه السلام بـ﴿شَاكِراً لِأَنْعَمِهِ﴾: ١٢١، ولم تتكرر عبارة ﴿لَقَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إلا في سورة النحل: ١٤، ٧٨، وفي المائدة: ٦، ٨٩، علماً بأن رقم سورة النحل: ١٦، ورقم المائدة: ٥، والفرق بينهما: ١١، وفي سورة البقرة: ٥٢، ٥٦، ١٨٤، علماً بأن رقم سورة النحل: ١٦، ورقم البقرة: ٢، والفرق بينهما: ١٤. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

تَسْرَحُونَ ﴿٦١﴾ ، فلاحظ أن أمر الله تعالى بإهلاك المكذبين مرتبط بنزول آيات الوحي على الأنبياء، فإذا أصرّ المكذّبون على شركهم وكفرهم فقد استحقّوا العذاب، وكأن إرسال الرسل بالآيات إعدار بعد الإنذار، ولاحظ ذكر نعمة الإيجاد من الله للإنسان وهي أكبر نعمة، وكذلك تسخير الأنعام له لتسهيل أمور حياته، ولكن من البشر من يكون خصيماً مبيناً لله تعالى، فيعرض عن دلالة هذه الآيات الكونية، ويعرض عن هداية الرسل، ويشرك بالله تعالى.

فهذا التقديم الموجز لدلالة الآيات الكونية وآيات الوحي على الله تعالى، يشبه تماماً آية النحل كونها أعجب آيات الله الكونية المذكورة في السورة، وأكثرها شبهاً بآيات الوحي المنزلة على الأنبياء لهداية الناس كما سيأتي بيانه.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى التفصيل في عرض بعض الآيات الكونية التي سخرها الله تعالى للإنسان، والتي من المفترض أن تقوده إلى الإيمان بالله وشكره وإخلاص العبودية له وحده: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿٦٢﴾ يُبْتِغُ لَكُمْ بِهِ الزَّيْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٣﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿٦٥﴾﴾، ولاحظ تكرار الضمير «لكم»، وقد تكرر بشكل لافت بعدد يزيد عن الخمس عشرة مرة، كلها تفيد توجيه النظر إلى نعم المنعم سبحانه على الإنسان، فمقدمة السورة ذكرت نعمة الإيجاد، وهنا ابتدأ التفصيل بنعمة الإمداد.

وقد ذكر السياق من مظاهر نعم الله على الإنسان أيضاً تسخير البحر وما فيه من لحم السمك الطري، وما فيه من الحلية التي يستخرجها الإنسان، وتسخيره للفلّك، هذا في البحر، وأما في الأرض فقد ألقى الله فيها رواسي لثلاث تميم بالإنسان، وفي السماء سخر الله له النجوم ليتهدي بها، وانظر قوله تعالى بعد ذلك: ﴿أَمَنَ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٦﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾.

ثم ذكر السياق موقف الإنسان من هذه الآيات الكونية: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا

يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٠﴾ أَمُوتَ غَيْرَ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿١١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ قَالِذِكْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿١٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿١٣﴾ ، فبعد أن رأى الإنسان بعينه كل هذه النعم من الله تعالى، إذا هو يشرك به ما لا يخلق شيئاً.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى عرض موقف الإنسان من آيات الوحي، بعد أن فصل في عرض موقفه من الآيات الكونية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلْ رَبُّكُمْ قَالُوا اسْطِغِيثِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيدُونَ ﴿١٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَفْكَرَ اللَّهُ بَيِّنَتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٦﴾ ، فكفر الإنسان بآيات الله الكونية والقرآنية إنما هو مكرٌ منه، يستحق بذلك أن يعاقب بمثل مكره فيأتيه العقاب من الله من حيث لا يشعر.

ولكي يكتمل التهيب والترغيب، عرض السياق مصير الكافرين والمؤمنين يوم القيامة، فقال عن الكافرين المشركين: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْشُّوَى عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا أَسْلَمًا مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ فادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَتَاوًى الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿١٩﴾ ، وقال عن المؤمنين بآيات الله: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَبَرٌ لِّذِكِّ آلِكَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٠﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢١﴾ .

وقد ذكر السياق أن الوحي إلى الأنبياء سُنَّةُ الله في خلقه، كما أنه من سُنَّتِهِ إهلاك المكذبين الماكرين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَسْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَفْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٤﴾ ، فالله وحده هو الذي يوحى للأنبياء جميعاً، وهو وحده خالق الكون ومسخره للإنسان، وهو وحده القادر على إهلاك المكذبين.

فسياق السورة كما ترى يدعو إلى الإيمان بالله تعالى وشكره وإخلاص العبادة له وحده، من خلال آياته الكونية التي سخرها للبشر لتحيا بها أبدانهم، وآيات الوحي على الأنبياء التي جعلها هدى فتحيا بها أرواحهم، وهذا أشبه ما يكون بحديث السورة عن النحل كما سيأتي.

رابعاً: ثم أكد السياق على الدعوة إلى الإيمان والتوحيد والشكر لله بأسلوب مزدوج بذكر نوعي الآيات على نحو يصعب الفصل بينهما، فانظر مثلاً قوله تعالى عن الآيات الكونية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيوْا ظِلُّهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ ذَاخِرُونَ ۝١٨﴾ ﴿وَلِلَّهِ سَجْدٌ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝١٩﴾ ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٢٠﴾ ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَازِهِبُونَ ۝٢١﴾ ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ۝٢٢﴾ ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ تَعْلَمُونَ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَأَلَيْهِ تَجْزِعُونَ ۝٢٣﴾ ، ولاحظ بيان أن كل المخلوقات تسجد لله تعالى، وتخافه وتفعل ما يأمرها به، ولا تستكبر كما يستكبر الإنسان، ولا يخفى علاقة ذلك بما سيأتي من أن النحل إحدى هذه المخلوقات المطيعة لوحي ربها.

وانظر موقف الإنسان من آيات الوحي الإلهي على الأنبياء: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرِئَنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٢٥﴾ ، ولاحظ التأكيد بالقسم، وبيان أن إنزال الكتاب على النبي ﷺ ليس إلا بيانا وهدى ورحمة، وهذا يشابه ما ينتج عن الوحي الإلهي للنحل إذ ينتج منه شراب فيه شفاء للناس.

ثم عاد السياق إلى المظاهر الكونية التي سخرها الله للإنسان لتدله على الله، فأعاد التذكير بالأنعام التي يسقي الله الإنسان مما في بطونها لبناً خالصاً سائغاً، وأعاد التذكير بذكر ثمرات النخيل والأعناب، وفصل بعرض آية النحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٢٦﴾ ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢٧﴾ ، ولاحظ التفصيل ببيان أنها تقوم بذلك بوحي من الله، وهذا لم يذكر صراحة لغيرها من الحشرات، وأن الله جعل مما يعرش الإنسان بيوتاً لها، ليكون ذلك أدعى للإيمان، فهم يرون هذه الآية العجيبة

بقربهم، ولاحظ ذكر العسل الذي فيه شفاء للناس، فهذه فائدة للإنسان لا ينكرها عاقل، فكما أن النحل حينما اتبعت هدى وحي خالقها سبحانه أخرجت شراباً فيه شفاء للناس، كذلك الإنسان إذا اتبع وحي خالقه سبحانه تحقق الخير له ولغيره.

إن الحديث عن النحل في هذا السياق جمع بين الآيات التي يوحىها الله لأنبيائه والآيات الكونية التي سخرها للإنسان في دلالتها على الله تعالى، ولذلك اختيرت لتكون اسماً للسورة، وقد أكد ذلك قوله (وأوحى ربك) أي: إن ربك الذي يوحى إليك يا محمد ﷺ بآيات القرآن، هو من يوحى إلى النحل لتكون آية عجيبة دالة على الله^(١).

وكما جاء في سورة الرعد مثلاًن متعلقان بدلالة اسم تلك السورة بشكل واضح، جاء في سورة النحل مثلاًن متعلقان بدلالة اسمها: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، إنهما مثلاًن يصوران حالة من تحرر من قيود الجهل والعمى، وآمن بالخالق المنعم واتباع ما جاءه من هدى آيات الوحي، فتحقق الخير له ولغيره، في مقابل حالة المكذب الذي قيد نفسه بالجهل والضلالة والإصرار على الكفر، فحرم نفسه من كل خير، وهما متعلقان بآية النحل من حيث إنها باتباعها ما أوحى الله إليها، كانت أعظم آية مذكورة في هذه السورة دلالة على الله، وأنتجت شراباً فيه خير وشفاء للناس، فشابهت صورة من آمن واتباع الهدى من الله.

والعجيب أن السورة ذكرت من آيات الله الكونية ما يتعلق بآية النحل أيضاً، فكما أخبرت سابقاً عن أماكن بيوت النحل، وبين كيف سهّل الله لها ظروف معيشتها، فصلت في

(١) ذكر أ. د محمد راتب النابلسي أموراً عديدة تدل على أن النحل آية عظمى من الآيات الدالة على الله، فمن ذلك أن الضمير في قوله تعالى (أن اتخذني، ثم كلي، فاسلكي) يدل على حقيقة علمية تؤكد أن العاملات من النحل وحدهن اللواتي يصنعن العسل، وأما الذكور فدورهن تلقيح الملكات، ودور الملكات أن تبيض البيوض، وأن النحل يصنع أقراص الشمع بشكل سداسي تنعدم فيه الفراغات البيئية، بأسلوب يعجز عن تقليده كبار المهندسين، وقد أثبتت بحوث ودراسات وتجارب عديدة أن للعسل أثراً علاجية في مختلف أجهزة الإنسان. ينظر للتفصيل: أ. د محمد النابلسي، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: آيات الله في الآفاق، ص ٣٨٥-٣٩٥.

عرض ما سخره الله من الظواهر الكونية لتكون بيوتاً للبشر، وما سخره لتسهيل ظروف معيشتهم: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَانِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْقَالًا إِلَى حِينٍ ۖ﴾ (٨٥) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨٦﴾ .

ثم انتقل السياق إلى عرض موقف البشر من الآيات القرآنية مرة أخرى، والردّ عليهم لتبقى دلالة آيات الوحي ظاهرة بلا لبس كدلالة الآيات الكونية على الله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ ءَايَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۖ﴾ (٨٦) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّثَبِّتٌ ۖ فَلِمَ يَدْعُونَكَ مِنْ شَكٍّ فِي أَن مِّنْزِلِ الْقُرْآنِ هُوَ خَالِقُ الْأَكْوَانِ .

خامساً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت الدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده وشكره، وحذرت من الكفر بأنعمه الدالة عليه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۖ﴾ (٨٨) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿٨٩﴾ .

وكما أوحى الله إلى النحل لتأكل من كل الثمرات لنتج العسل، أمر الإنسان بالأكل من الحلال الطيب الذي سخره الله له ليتحقق له الخير، ويبيّن ما حرم عليه من الخبائث: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۖ﴾ (٩٠) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَزِيرِ وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَىٰ غَفْوَرٍ رَّجِيءٍ ﴿٩١﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصَبُ الْإِسْنُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٩٢﴾ .

وقد دعت المشركين إلى الإيمان والتوحيد والشكر، من خلال بيان أن إبراهيم عليه السلام - الذي يزعمون انتسابهم الديني إليه - كان موحداً لله شاكراً له: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ﴾ (٩٣) شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ أَجْتَبَنَّهُ وَهَدَّاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٩٤﴾ .

وكما افتتحت السورة بتوعد المشركين المعرضين عن الآيات القرآنية بعد أن لم تكفهم الآيات الكونية في الدلالة على المنعم سبحانه، ختمت بدعوة النبي ﷺ إلى الصبر على تكذيب قومه ودعوتهم بالتي هي أحسن، مع بيان أن الله سيحفظ المؤمنين المتقين الذين اتبعوا هدى ربهم وأحسنوا لأنفسهم ولغيرهم: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ١٢٦ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلَالٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ١٢٧ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ١٢٨﴾ .

وهكذا التقى البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة، لكون النحل أعجب الآيات الكونية المذكورة فيها، وأقربها شبهاً لآيات الوحي على الأنبياء، فكانت آية عظمى في الدلالة على المنعم سبحانه وتعالى والحث على اتباع هداه.



سورة النحل

سورة بيان ما يسخره الله من الآيات الكونية الدالة على المنعم سبحانه وما يؤازرها من آيات الوحي الداعية إلى الهدى، فالآيات الكونية فيها حياة الأبدان، والآيات القرآنية فيها حياة الأرواح

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٩)

المقدمة التي تبرز بإيجاز دلالة آيات الوحي ودلالة آيات الكون على المنعم سبحانه:

■ افتتحت السورة بتهديد المكذبين بآيات الوحي على الأنبياء والتي هي بمثابة إعدار بالإنذار: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ أَنَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَقَعْلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يَنْزِلُ الْمَلَكُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾.

■ ثم عرضت بعض الآيات الكونية الدالة على المنعم سبحانه: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعْلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾ وهو الذي خلق الإنسان من نطفة، وهو خالق الأنعام ومُسَخَّرُهَا لِلْإِنْسَانِ.

■ فالله هو الخالق المنعم وهو منزل آيات الهدى، فينبغي على الإنسان أن يكون مؤمناً شاكراً لا كافراً معرضاً.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٠-٢٣)

التفصيل في عرض بعض الآيات الكونية المُسَخَّرَةِ لِلْإِنْسَانِ، وموقف البشر منها:

■ ثم عرض السياق عدداً من الآيات الكونية التي تُبَيِّنُ حياة الإنسان، فينبغي أن يشكر خالقه عليها: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكَ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿٤﴾﴾، وأنبت به الزرع والزيتون والنخيل ومن كل الثمرات.

■ والله الذي سَخَّرَ الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، ثم أعقب ذكر هذه النعم بقوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٥﴾﴾ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

■ وعرض السياق موقف الإنسان من هذه النعم، إذ أشرك بالله خالقه والمنعم عليه ما لا يضر ولا ينفع: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٧﴾﴾.

■ إن عرض هذه النعم التي بها حياة الناس تدعو إلى الإيمان بالخالق المنعم سبحانه وتعالى والتوجه إليه وحده بالعبادة.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٤٨-١١١)

والآيات القرآنية بشكل مزدوج:

■ فمن الآيات الكونية قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعُونَا ظِلُّهُمُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَالِ سَجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ ﴿١٨﴾ .

■ ومن آيات الوحي قوله: ﴿تَاللَّهِ لَعَدَّ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرِيقٌ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْلَاهُمْ فَهُوَ وَرِيقُهُمُ الْيَوْمَ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٩﴾ .

■ ومن الآيات الكونية آية النحل، وهي أكثر آيات الكون شبيهاً لآيات الوحي وما تأتي به من الهدى والخير والشفاء: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ اللَّبَالِ يُونَا وَمِنَ النَّجْرِ وَمِمَّا يُعْرِشُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَالْتَمَسِكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ ، فكان آية النحل توحى أن من اتبع هدى الله وحي الخالق تحقق له ولغيره الخير، كالنحل حين اتبعت وحي خالقها أخرجت العسل الذي فيه الشفاء .

■ ثم عرض السياقَ مَثَلَيْنِ يَصَوِّرَانِ حالةَ مَنْ
تحرَّرَ من قيودِ الجهلِ وآمنَ بالخالقِ فتحققت
له ولغيره الخيرُ، وحالة من كذبَ وقَيَّدَ نفسه
بالكفرِ والجهلِ حتى حرمَ نفسه وغيره من
الخيرِ.

■ إن الإيمان بهدى الله الذي يوحيه إلى أنبيائه عليهم السلام فيه حياة الأرواح، كما أن الآيات الكونية فيها حياة الأبدان.

الموضوع الخامس: (الآيات: ١١٢-١٢٨)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ ذكرت مثلاً للمعرضين عن هدى المنعم وآياته: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِسَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

■ في المقابل عرضت موقف إبراهيم عليه السلام الشاكر لنعم ربه المتبع هداه: ﴿إِنَّ إِبرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٣﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١٤﴾﴾.

■ وكما افتتحت السورة بتوعد المشركين المعرضين عن هدى وحي المنعم ونعمه، ختمت بدعوة النبي ﷺ بالصبر على تكذيب قومه، وبيان أن الله سيحفظ المؤمنين المتقين المتبعين هدى ربهم: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلَالٍ مِّمَّا يَتَكَوَّرُونَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

سورة الإسراء

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْإِنشَاءِ إِنَّهُمْ هُمُ السَّاعِيَةُ الْبَصِيرَةُ ۝﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

ذكر الإمام ابن فارس ووافقه الأصفهاني وابن منظور رحمهم الله جميعاً أن السرى هو السير ليلاً^(١)، فاسم السورة يشير إلى رحلة الإسراء ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى التي أكرم الله تعالى بها عبده محمداً ﷺ، وجعلها مِيزة له ولأمته على سائر الأمم. وخاصة أمة بني إسرائيل المذكورون بعد هذه المعجزة مباشرة.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم هذه السورة ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن من مقاصد هذه السورة ترسيخ أصول العقيدة الإسلامية، كالبعث والجزاء، وتأييد النبي ﷺ بالمعجزات الكافية الدالة على صدقه، بالإضافة إلى أنها تضم موضوعات حول قواعد السلوك الفردي والجماعي وآدابه، وقد برزت شخصية الرسول ﷺ كمحور جامع لكل ما ذكر، مع بيان موقف قومه منه وموقفهم من القرآن الكريم، وذكروا أن هذه السورة بموضوعاتها ودلالات اسمها يمكن أن تكون توجيهاً تفصيلياً للمؤمنين لإخراجهم من الظلم الذي وقع عليهم من العُلُو الإسرائيلي في الأرض المباركة، فكما أن فيها طمأنة للنبي ﷺ بأن قومه إذا استفزوه من الأرض فإن هلاكهم قد حلّ، كذلك فيها طمأنة للمؤمنين بأن استفزاز بني إسرائيل للمؤمنين من أرضهم المباركة سيهلكهم^(٢).

(١) ينظر: ابن فارس، المقاييس، ص ٥١٣، والأصفهاني، المفردات، ص ٤٠٨، وابن منظور، لسان العرب، ج ٧، ص ١٧٩.

(٢) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ١، ص ٤٢٣، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٤، ص ٣٢٧، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٢٠٨، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٥، ص ٧، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير =

ولكنني بعد مراجعة السورة أميل إلى ما توصل إليه الدكتور أحمد نوفل الذي يرى أن محور السورة هو: تربية أمة نبيّ الإسراء ﷺ والقرآن على اتباع الدستور الإلهي الذي سيمكنهم من الانتصار على أمة إسرائيل، ولما كانت أمة نبيّ الإسراء ﷺ والقرآن أكثر الأمم إيماناً بآيات الله تعالى، وأكثرها التزاماً بالدستور الإلهي، ولما كانت أمة إسرائيل أكثر الأمم تكديماً لهذه الآيات، وأكثرها خروجاً عن الدستور الإلهي، سمّيت السورة باسم معجزة الإسراء إلى المسجد الأقصى المبارك، كونها أحد الآيات التي يؤمن بها المؤمنون وكونها أكثرها ارتباطاً بنصرهم على أمة إسرائيل^(١). وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان انتصار أمة الإسراء والقرآن على أمة إسرائيل والتوراة، طالما التزمت أمة الإسراء بالدستور القرآني. ويتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور للسورة وبين دلالات اسمها، فيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: أولها: مقدّمة تبين فضل نبيّ الإسراء ﷺ وبيان القضاء الإلهي بنصر أمته ﷺ على أمة إسرائيل، وثانيها: بيان موقف قوم نبيّ الإسراء ﷺ من بعثته، ومن القرآن العظيم، ومن حقائق الدين الإلهي، يتخلّلها الدستور الأخلاقي لأمة نبيّ الإسراء ﷺ، وثالثها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق^(٢).

= الموضوعي، م ٤، ص ٢١٠، والندوي، دراسات قرآنية، ص ١٤١-١٤٧، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٢١٧، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ٩٥-٩٨، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور، ص ١٣٩-١٤٦.

(١) ينظر: د. أحمد نوفل، تفسير سورة الإسراء: دراسة تحليلية موضوعية، ص ١٦٥ و ١٦٦.

(٢) مقدّمة السورة شملت الآيات: ١-٨، وبيان موقف قومه ﷺ: ٩-٢٢، والدستور الأخلاقي للمؤمنين: ٢٣-٣٩، ثم عودة إلى بيان موقف قومه ﷺ من بعثته: ٤٠-٩٨، والخاتمة: ٩٩-١١١. ومن لطائف هذه السورة أنها تشترك مع سورة الأعراف في المحور، فقد ذكرت سابقاً أن محور سورة الأعراف يدل على التحذير من بأس الله في الدنيا والآخرة لمن كذب بها واستكبر عنها. وقد اختير اسم «الأعراف» لهذه السورة لأنه أدل ما في السورة على حقيقة وقوع بأس الله في المكذبين والمستكبرين عن آيات الله التي جاء بها الرسل، وقد كانت هذه السورة أكثر السور القرآنية حديثاً عن المواقف المخزية لبني إسرائيل تجاه آيات الله تعالى وتجاه نبيهم موسى عليه السلام، فهم أكثر الناس خروجاً عن الدستور الإلهي، بينما سورة الإسراء يدور محورها حول التربية على الالتزام بالدستور الإلهي ليتحقق لهم النصر على أمة إسرائيل، وفيما يلي بعض جوانب التناسق بين السورتين: أولاً: سورة الأعراف أكثر سورة ذكرت فيها لفظة «آيات» مضافة إلى الله، وهي أكثر سورة عرضت مواقف بني =

أولاً: افتتحت المقدمة بتسبيح الله تعالى الذي أسرى بعبدہ ﷺ وأكرمه بهذه الرحلة العجيبة: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا

= إسرائيل من هذه الآيات، وأخص بالذكر منها قوله تعالى عنهم في الآية ١٤٦: ﴿سَأَصْرَفُ عَنْ بَآئِنَيْ آلِ بْنِ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كَلًّا مَّآئَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَيْلًا مَّاءٍ يَتَجَدَّوْهُ سَيْلًا وَإِن يَرَوْا سَيْلًا مَّاءٍ يَتَجَدَّوْهُ سَيْلًا﴾، وسورة الإسراء أكثر سورة في القرآن ذكرت فيها لفظة «القرآن» في سياق دعوة أمة الإسراء والقرآن إلى الالتزام به، وثانياً: جاء في الآيتين: ٢ و ٣ من سورة الأعراف قوله تعالى ﴿كِتَابٌ أُزِيلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ... اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وانظر الآية الثانية من سورة الإسراء ﴿وَمَا كُنَّا بِأَعْيُنِنَا إِنْ كُنَّا بِأَعْيُنِنَا إِنْ كُنَّا بِأَعْيُنِنَا إِنْ كُنَّا بِأَعْيُنِنَا﴾، ولكنهم لم يتبعوا هداً، وثالثاً: انظر الآية الأخيرة من سورة الأعراف ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾، وانظر أواخر سورة الإسراء عن تواضع المؤمنين وتذللهم لله ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْإِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسْأَلُ عَلَيْهِمْ يُخْرُونَ لِلْآذَانِ سُجَّدًا﴾، وبالإمكان ربط ذلك أيضاً بالآية ١٦١ من سورة الأعراف التي أمر فيها بنو إسرائيل بالسجود تذللًا لله عند دخول القرية فاستكبروا، ورابعاً: ذكرت قصة نوح عليه السلام في سورة الأعراف وجاء فيها قوله ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾: ٥٩، وانظر الآيتين ٣٠٢ من سورة الإسراء ﴿أَلَّا تَتَذَكَّرُ أَلَّا تَتَذَكَّرُ أَلَّا تَتَذَكَّرُ﴾، و«ذرية» من حملنا مع نوح ﴿عَلِمَا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ «ذرية» منادى منصوب، وخامساً: انظر الآية ١٦١ من سورة الأعراف ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكُوبُهُمْ لَمَّا وَبَّيْنَا إِلَيْهِمُ الْيَوْمَ الْفَيْصَمَ مِنَ السَّمَاءِ﴾، وقد ذكرت سورة الإسراء أن أكثر مظاهر هذا الأذان تجلية سيكون بالنصر الأكبر لأمة نبي الإسراء عليهم، وسادساً: اعتقد - فيما أرى - أن ما جاء في الآية ١٣٤ من سورة الأعراف من طلب موسى عليه السلام رؤية ربه، وبيان أن ذلك لن يكون له في الدنيا، مرتبط مع إكرام الله سيدنا محمداً ﷺ بالإسراء والمعراج، ففي ذلك ميزة لنبي أمة إسرائيل، أضف إلى ذلك بيان أن الله أخذ بني إسرائيل بالرجفة حينما طلبوا رؤية الله جهره كما في الآية ١٥٥ من سورة الأعراف، بينما أمة نبي الإسراء ليسوا بحاجة إلى طلب آية واحدة بعدما آمنوا، وسابعاً: عرضت الآيتان ١٣٨ و ١٤٨ طلب بني إسرائيل آلهة ليعبدوها، ثم عبادتهم العجل، وقد أمرت أمة الإسراء في سورة الإسراء بالالتزام التوحيد أكثر من مرة: ٢٣ و ٢٢ وغيرها، وثامناً: أمر نبي أمة إسرائيل قومه بالصبر والصلاة في سورة الأعراف فكان ردهم ﴿أَوْيَيْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ نَأْتِيَنَّا وَبَيْنَ بَعْدَ مَا جِئْنَاهَا﴾: ١٢٩، بينما أمة الإسراء مأمورة بإقامة الصلوات وخصوصاً صلاة الفجر في الآية ٧٨ من سورة الإسراء ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُولِكَ انْتَبِهْ إِنَّكَ عَنِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾، وتاسعاً: جاء في الآيات ١٣٠-١٣٣ من سورة الأعراف عرض تفصيلي للآيات التسع التي أيد الله بها موسى عليه السلام، وانظر الآية ١٠١ من سورة الإسراء ﴿وَلَقَدْ مَّآئِينَ مِائَةٍ تَسْعَ مِائَةٍ بَيْنَتْ يَدَاكَ﴾، وعاشراً: انظر الآية ١٥٩ من سورة الأعراف ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ أَمَّنَّا بِهَدُوتٍ بِالْحَقِّ بِيَوْمِ يَعْبُودُونَ﴾، وانظر الآية ١٠٧ من سورة الإسراء ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْإِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسْأَلُ عَلَيْهِمْ يُخْرُونَ لِلْآذَانِ سُجَّدًا﴾، وأحد عشر: انظر الآية ١٨٠ من سورة الأعراف ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾، وانظر الآية ١١٠ من سورة الإسراء ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾، وثاني عشر: انظر الآية قبل الأخيرة من سورة الأعراف ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخَجَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾، وانظر الآية قبل الأخيرة من سورة الإسراء ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾. وإذا تأملت هذه المواضع المذكورة في سياق السورتين ستجد أنها جاءت على نحو متلائم مع المحور المذكور لكل منهما. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

حَوْلَهُ لِيُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ ، وافتتاح هذه السورة بذكر هذه الرحلة إلى المسجد الأقصى متلائم تماماً مع المحور المذكور للسورة، فهي تدل على فضله ﷺ ومكانته عند ربه عز وجل حتى خصّه بهذه الرحلة، وأيضاً فيها ذكر الأقصى وهو قلب الأرض المباركة التي سيتم فيها الانتصار لأمته ﷺ على أمة إسرائيل إن شاء الله.

ثم بينت المقدمة القضاء الإلهي بانتصار أمة نبي الإسراء ﷺ على أمة إسرائيل، وذلك لعلمه تعالى بأن الصراع بين الأمتين كائن لا محالة: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ ، ولاحظ ذكر النبي موسى وهو أعظم أنبيائهم، مما يتلاءم مع ذكر نبي الإسلام ﷺ، ولاحظ أيضاً ذكر إتياء موسى عليه السلام الكتاب، والذي كان أهم أحكامه لبني إسرائيل ألا يتخذوا من دون الله وكيلًا، ولكنهم اتخذوا كل شيء وكيلًا من دون الله تعالى. ولم يقيموا لكتابهم اعتباراً فحرفوه، ولاحظ ذكر أن نوحاً عليه السلام كان عبداً شكوراً، مما يفيد تقريباً لأمة إسرائيل المستكبرين عن عبادة الله تعالى كما أمر، وهم أجدد الخلق لنعيم الله تعالى عليهم.

ثم انتقلت المقدمة لبيان أن أمة إسرائيل ستفسد في الأرض مرتين، وفي كل مرة سيسلّط الله عليهم عبداً له أولي بأس شديد يسومونهم سوء العذاب، وهؤلاء العباد من أمة نبي الإسراء ﷺ على الرأي الأرجح والذي ينبغي أن يعتمد: ﴿وَفَضَّلْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَรَّتَيْنِ وَلَنَعْلَنَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٣﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٥﴾ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عُلُوًّا نَبِيرًا ﴿٦﴾﴾ ، فالمرة الأولى كانت في الأرض التي ابتدأت منها رحلة الإسراء، وهي الجزيرة العربية، وإفسادهم فيها كان تجاه نبينا ﷺ وأمته، فقد كانوا أول كافر به، وكانوا يتآمرون مع المشركين ضد النبي ﷺ والمؤمنين، وهل حادثة الأحزاب إلا من تأليبهم المشركين على المدينة؟ ومعلوم ما حصل من تأديب المؤمنين لبني النضير وبني قريظة وخيبر، فقد أمكنهم الله من أراضيهم، وقد أمكنهم من رقاب بني قريظة فقتلوا المحاربين منهم، وسبوا النساء والأطفال، وأجلى الله يهود خيبر عن أرض الجزيرة.

أما الإفساد الثاني فهو ما نراه اليوم، فما من إفساد في العالم إلا واليهود من ورائه، ولا يخفى على أحد أن مبدأ فسادهم في هذا الزمن كان باحتلال الأرض التي أُسري بالنبّي ﷺ إليها، وهي الأرض التي سيدخلها العباد أولو البأس الشديد من أمة نبّي الإسراء ﷺ ويسوءوا فيها وجوه المحتلين، ويحرّروا المسجد الأقصى من دنسهم، ونسأل الله أن يكون هذا اليوم قريباً، وأن نكون من هؤلاء العباد^(١). ثم دعاهم السياق إلى العودة إلى الإيمان والالتزام بالدستور الإلهي، ولكنهم لن يعودوا، وقد جعل الله جهنم للكافرين حصيراً.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى بيان موقف قوم نبّي الإسراء ﷺ من بعثته، ومن القرآن العظيم، ومن حقائق الدين الإلهي، وقد تخلّل ذلك ذكر الدستور الأخلاقي لأمة نبّي الإسراء ﷺ، والذي إذا التزموا به سيحقّق لهم النصر على أمة إسرائيل، وأعتقد - فيما أرى - أن ذكر موقف قوم النبّي ﷺ من هذه القضايا مشابه لموقف بني إسرائيل منها، وفي ذلك تربية لأمة نبّي الإسراء ﷺ بالحدّ من الوقوع بما وقع من أمة بني إسرائيل، ولعلّ سائلاً يسأل: إن السورة تعرض موقف قوم النبّي ﷺ، ولم تذكر موقف بني إسرائيل صراحة، فلم تحمل موقف قومه ﷺ على موقف بني إسرائيل؟ والجواب أن منهج القرآن أعظم من ذلك، فقد أخبرنا في أول السورة بوعده بنصر أمة الإسلام على أمة اليهود، وأعاد ذكر ذلك آخر السورة، وقد عرض فيما بين المقدّمة والخاتمة موقف كفار قريش، وترك لك أن تدرك علاقة بني إسرائيل المذكورين أول السورة وآخرها بموقف قوم النبّي ﷺ، وبذلك يكون المنهج القرآني قد حقّق هدفين بأسلوب واحد.

كانت أول القضايا التي عرض السياق موقف قوم النبّي ﷺ منها هي الآخرة: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُمْ أَقَوْمٌ وَيُنَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمَعْلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾، ولاحظ افتتاح عرض موقفهم ببيان فضل القرآن، الذي جعله الله هدى للمؤمنين، وهذا يتلاءم مع ما جاء في مقدّمة السورة عن كتاب موسى عليه السلام الذي نبذه قومه وحرّفوه، فالالتزام أمة القرآن بما جاء فيه سيحقّق لهم

(١) ينظر للتوسع: د. أحمد، تفسير سورة الإسراء، ص ١٥٣ - ١٩٧. والشعراوي، تفسير الشعراوي ج ١٤،

النصر على أمة التوراة التي لم تلتزم بما جاء فيها، أما كون الآخرة أول القضايا المعروضة فلا يخفى أن أمة إسرائيل لا تقيم للآخرة اعتباراً، وإن آمنوا بها فهم يعتقدون أن لهم عند الله الحسنى. وإن عذبهم في النار فسيكون عذابهم أياماً معدودات، وبِمَ تفسّر تهافتهم على حب الدنيا حتى يودّ أحدهم أن يُعمر ألف سنة؟!

وقد استدللّ السياق على إثبات حقيقة الآخرة بآيتي الليل والنهار، فإن الذي جعلهما آيتين قادر على خلق اليوم الآخر ليحاسب فيه الناس، وتقديم ذكر الليل متلائم مع الإسراء الذي كان قد حصل ليلاً.

وقد استدللّ السياق على إثبات حقيقة اليوم الآخر أيضاً بقدره الله تعالى على إهلاك المفسدين، ثم بعثهم للحساب: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۝ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝﴾، ولا يخفى على أحد أن اليهود اليوم يستخرون المترفين في العالم لغايات الفسق، وذكر تدمير الفاسقين المفسدين متلائم مع التدمير الذي سيحصل لليهود المذكور في المقدمة.

ثم انتقل السياق إلى ذكر أوامر وتوجيهات متعدّدة لأمة نبيّ الإسراء ﷺ تعتبر دستوراً أخلاقياً إلهياً، إذا التزموا به تحقق لهم النصر على أمة إسرائيل، وستجد أن هذه الأخلاق كان بنو إسرائيل قد أمروا بها لكنهم لم يلتزموا بها، بل على العكس التزموا بترك ما فيها من أوامر، وارتكاب ما فيها من نواهٍ، وإليك بيان ذلك:

كان أول أمر للمؤمنين أن لا يجعلوا مع الله إلهاً آخر، وأن لا يعبدوا إلا الله، والإحسان إلى الوالدين، ومعلوم أن أول طلب طلبه بنو إسرائيل بعد أن أنجاهم من فرعون كان أن يجعل لهم موسى آلهة يعبدونها، ولا يخفى أنه لما غاب عنهم عبدوا العجل، ومعلوم كذلك ما صنعه إخوة يوسف بوالدهم يعقوب. فلاحظ التناقض بين أول أمر للمؤمنين وأول جريمة لبني إسرائيل بعد نجاتهم من فرعون، ولاحظ التناقض أيضاً بين أول أمر وبين ما صنعه إخوة يوسف وهم الأصل الأول لبني إسرائيل.

والأمر الثاني كان بإيتاء ذي القربى والمساكين وابن السبيل حقوقهم من الصدقات، وقد خالف أحبار اليهود ورهبان النصارى ذلك - كما أخبرتنا سورة التوبة - وأكلوا أموال الناس

بالباطل وكنزوا الذهب والفضة وما أنفقوها في سبيل الله^(١). وفي سياق ما يتعلق بالأموال حذرت السورة من التبذير والبخل، فقد نُهي المؤمن عن أن يجعل يده مغلولة إلى عنقه، وقد وصف اليهود - لفرط بخلهم - إلههم وخالقهم والذي امتنَّ عليهم بنعم عظيمة جليلة، وصفوه بأن يده مغلولة، غُلَّت أيديهم ولُعِنوا بما قالوا^(٢).

والأمر الثالث كان بتحريم قتل الأولاد خشية الفقر، وقد أخبرتنا سورة البقرة أن الله عهد إلى بني إسرائيل أن لا يسفكوا دماءهم، وأن لا يخرجوا أنفسهم من ديارهم، وقد خالفوا ذلك فقتلوا فريقاً منهم، وأخرجوا فريقاً من ديارهم^(٣).

وحذّر السياق من الزنا، وأكل مال اليتيم، والوزن بالقسطاس المستقيم، وعقب على ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۖ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ۖ﴾ (٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُمْ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿١٨﴾، وما نشاهده اليوم من وقوف اليهود وراء شبكات الدعارة في العالم، وما نشاهده اليوم من تكبرهم في الأرض، وما نشاهده من بخسهم الناس حقوقهم، يطلعنا على مدى مخالفتهم لأوامر الله تعالى.

فأنت تلاحظ أن السياق يرثي أمة نبي الإسراء ﷺ على الالتزام بالدستور الأخلاقي الإلهي الذي كان قد أمر أمة إسرائيل به فلم يلتزموا، فمتى التزمت أمة الإسراء بهذا الدستور وحافظت عليه وتمثلته في حياتها، عاد لها النصر على تلك الأمة.

ثم عاد السياق إلى بيان موقف قوم النبي ﷺ من القرآن العظيم، الذي كان بنو إسرائيل أول كافر به: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۖ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِذَا ذُكِرْتُ بِكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدُمُ وَلَوْ أَنَّ أَذْبَرَهُمْ نُفُورًا ۖ تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۖ﴾ (١٧) وأعاد ذكر موقفهم من حقيقة اليوم الآخر: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنًا أَإِنَّا

(١) انظر الآيتين: ٣٤، ٣٥، من سورة التوبة.

(٢) انظر الآية: ٦٤، من سورة المائدة.

(٣) انظر الآيات: ٨٤ - ٨٦، من سورة البقرة.

لَتَبْعُوَنَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩١﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٩٢﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٩٣﴾ ﴿٩٤﴾

وفي سياق الحديث عن الآخرة ناسب ذكر قصة آدم عليه السلام مع إبليس، وفيها يبرز تكبر إبليس على الأمر الإلهي له بالسجود لآدم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرِّثْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُفُوهُهُمْ فَمَا يَرِيْدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٩١﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَاسَجِدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا ﴿٩٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٩٣﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٩٤﴾ وَاسْتَغْفِرْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَلِيبَ عَلَيْهِمْ يَخْلِيكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٩٦﴾﴾، ولاحظ أن السياق قد ذكر من أساليب الشيطان في إغواء بني آدم استخدام الأموال والأولاد، مما يتلاءم مع قوله تعالى عن أمة إسرائيل أول السورة: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦١﴾﴾، فالشيطان وهذه الأمة مشتركان في منهج الإضلال والخروج عن الدستور الإلهي.

وانظر إلى هذه المواقف من قوم النبي ﷺ تجاهه: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيََا إِلَيْكَ لِتَفَرِّيَ عَلَيْنَا غَيْرًا وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧١﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٢﴾ إِذَا لَا أَذْفَنَّاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٣﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٥﴾﴾، ولاحظ أن محاولة المشركين لفتنة النبي ﷺ عما أوحى إليه، ومحاولتهم إخراجهم من أرضه ﷺ تشابه موقف بني إسرائيل من أنبيائهم، فهم معروفون بتكذيبهم الأنبياء أنا ويقتلهم أنا آخر كما أخبرت بذلك سورة البقرة^(١).

(١) انظر الآيتين: ٦١، ٩١، من سورة البقرة.

فلم يبق من شك في أن السياق حينما أبرز موقف قوم النبي ﷺ منه ومن القرآن الكريم ومن حقائق الدين التي يدعو إليها، أكد بذلك أيضاً موقف أمة إسرائيل من أنبيائهم ومن كتابهم ومن حقائق دينهم، وفي ذلك تربية لأمة نبي الإسراء على الالتزام بالدستور الإلهي، ليتحقق لهم النصر على أمة بني إسرائيل.

ثالثاً: بقيت الخاتمة التي تحوي تأكيداً لكل ما سبق، فقد أعادت التذكير بإثبات حقيقة التوحيد وما يترتب عليها من الإيمان باليوم الآخر، وهذه أهم قاعدة في الدستور الإلهي: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَادِرٌّ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنِ الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ۝١٩﴾ قد لَو أنتم تملكون خزائن رحمة ربّي إذا لأمسكنم خشية الإنفاق وكان الإنسان فتوراً ۝٢٠﴾، ولاحظ أن ذكر قتر الإنسان مناسب لما هو معلوم عن طبيعة البخل التي وُسم بها اليهود.

وأعادت الخاتمة كذلك ذكر بيان القضاء الإلهي بنصر أمة الإسراء على أمة إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْتَلَّ بِئْسَ الْإِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ۝٢١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعُونَ مَنبُورًا ۝٢٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَعْرَفْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ۝٢٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ائْكُلُوا مِنَ الْأَرْضِ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۝٢٤﴾، واعتقد أن ذكر الآيات التسع، ثم التعقيب بسؤال بني إسرائيل عنها متلائم مع محور السورة تماماً، فهو يبرز مدى خروج هؤلاء عن الدستور الإلهي بعدما رأوا من آيات الله ما رأوا، والتي كان أعظمها فضلاً عليهم إنجاءهم من فرعون، ولا يخفى الترابط بين ذكر وعد الآخرة التي فيها النصر لأمة الإسراء عليهم مع ما ذكر في مقدمة السورة.

وأعادت التذكير بالالتزام بمنهج الله المتمثل بالقرآن، وأنه هو سبيل النصر: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٢٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِقِرَآءٍ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكِّكَ وَزَلَّاتِهِ لَنَزِيلًا ۝٢٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝٢٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝٢٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝٢٩﴾، ولاحظ أن ذكر الإيمان بآيات الله، والسجود له تعالى والبكاء والخشوع له تعالى، يحوي

تقريعاً لأمة إسرائيل الذين أخبرت سور القرآن عنهم بتمردهم على أمر الله لهم بالإيمان بآياته، وبتكبرهم عن السجود له والتذلل والخشوع له سبحانه، ولاحظ إعادة ذكر وعد الله بنصر أمة الإسراء على أمة إسرائيل متناسب مع الوعد المذكور أول السورة.

وكما افتتحت السورة بذكر تسبيح الله تعالى وذكر عبودية النبي ﷺ، ختمت بذكر الصلاة التي هي مظهر عبودية الإنسان لربه، وختمت بحمد الله تعالى، وكأن النصر المذكور أول السورة لأمة الإسراء قد تحقق، وها هم يحمدون الله تعالى عليه: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذَ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا ۝﴾، «ألا ما أروع هذه الآية وتاليتها لتكون ختاماً لهذه السورة الجليلة المباركة المليئة الزاخرة الحاشدة، المستشرفة مستقبل الأمة والعالم، وأن تردك آيتنا الختام إلى مقام العبودية في أروع تجلياته: الصلاة... ثم التوسط المنسجم مع ما مر من التوسط في موضوع الإنفاق، فالتوسط روح هذا الدين وروح هذه الأمة... ألا ما أجمل اصطفا هذه الأرقام ١١١ وكأنها جند في جيش فتح بيت المقدس... ألا ما أجمل أن تقر في كل الأرض كلمة التوحيد، وتندحر كلمة الشرك والكفر التي كان يريد نشرها هؤلاء المفسدون... ألا ما أروع التكبير قبل النصر للتعبة، وبعد النصر للعيد الكبير، الذي من شعائره التكبير»^(١). وهكذا التقى البدء والختام على محور نصر أمة الإسراء على أمة إسرائيل، وهو ما دل عليه اسم السورة «الإسراء» أبلغ دلالة وتناسق معه أجمل تناسق، وبشر بالنصر الكبير الذي يملأ قلوب المؤمنين فرحاً بنصر الله قريباً إن شاء الله.



(١) د. أحمد، تفسير سورة الإسراء، ص ٤٧٣ - ٤٧٨. بتصرف.

سورة الإسراء

سورة بيان انتصار أمة الإسراء والقرآن على أمة إسرائيل والتوراة
إذا التزمت أمة الإسراء بالدستور القرآني

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٨)

المقدمة التي تبين فضل نبي الإسراء ﷺ، وفيها بيان القضاء الإلهي بنصر أمة الإسراء على أمة إسرائيل:

■ افتتحت السورة بذكر حادثة الإسراء: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا لَهُ خَلْقَ الْإِنسَانِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝﴾ ، وهي بمشابهة مميزة له ﷺ ولأمته، وفيها تحديد المكان الذي ستتصرف فيه أمته على أمة التوراة.

■ بينت المقدمة أن أمة إسرائيل ستفسد في الأرض مرتين، وأنه في المرة الآخرة سيعتق الله عليهم عبادة أولي بأس شديد من أمة الإسراء يسوؤون وجوههم ويدخلون المسجد كما دخلوه أول مرة.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٩-٩٨)

بيان موقف قوم نبي الإسراء ﷺ من بعثته، ومن القرآن العظيم ومن حقائق الدين الإلهي، يتخلل ذلك الدستور الأخلاقي الذي أمرت أمة الإسراء به:

■ كان موقف المشركين مشابهاً لموقف بني إسرائيل من حقائق الدين الذي أنزل على أنبيائهم وعلى نبينا ﷺ.

■ افتتح السياق الحديث عن موقف المشركين ببيان فضل القرآن: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُمْ أَقْرَبُ وَيُنْذِرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝﴾ .

■ وقد هدد السياق الذين لا يؤمنون بالآخرة، وهي من أجل حقائق الدين: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَغْدَاً لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾ ، وقد كان بنو إسرائيل أول كافر في المدينة بالقرآن، وهم أقل الناس إيماناً بالآخرة.

■ بين السياق عقوبة فسوق المترفين، وأن فسوقهم يؤدي لهلاك الأمم، وبنو إسرائيل الآن هم من يستخرون المترفين لغايات الفسق.

■ ثم عرض السياق دستوراً قرآنياً لأمة الإسراء، إذا التزمت به سيتحقق لها النصر على أمة إسرائيل، وقد كان بنو إسرائيل قد أمروا بهذا الدستور المنزل على أنبيائهم لكنهم نكلوا عنه.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٩٩-١١١)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت التذكير بعقيدة التوحيد وما يترتب عليها من الإيمان باليوم الآخر، وهما أمران نكل عنهما بنو إسرائيل مع أنهما أهم قواعد الدستور الإلهي: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ (١٠١).

■ وأعادت التذكير بالقضاء الإلهي بنصر أمة الإسراء على أمة إسرائيل: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُتُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ (١٠٢).

■ وأعادت التذكير بالالتزام بالقرآن: ﴿وَالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَالْحَقِّ نَزَلٌ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (١٠٣) ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾.

■ وكما افتتحت السورة بتسبيح الله وذكر عبودية النبي ﷺ، وبيان القضاء الإلهي بنصر أمة الإسراء على أمة إسرائيل، ختمت بذكر الصلاة التي هي أبرز مظهر لعبادة الإنسان لربه، وختمت بحمد الله وبالتكبير وكان النصر لأمة الإسراء قد تحقق: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا يَهَيَّا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (١٠٤) ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرًا تَكْبِيرًا﴾ (١٠٥).

■ يتمثل هذا الدستور الإلهي بأمر المؤمنين أن لا يجعلوا مع الله إلهاً آخر، وبوالدين إحساناً، وإيتاء ذي القربى والمساكين وابن السبيل حقوقهم، وحرَم عليهم قتل الأولاد خشية الفقر، وحرَم الزنا وأكل مال اليتيم وأمر بالوزن بالقسطاس المستقيم.

■ ثم عاد السياق إلى بيان موقف المشركين من القرآن العظيم: ﴿وَلِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَنُوتًا﴾ (١٠٦) ﴿وَأَعَادَ ذَكَرَ مَوْقِفَهُمْ مِنْ حَقِيقَةِ الْآخِرَةِ﴾ (١٠٧) ﴿وَقَالُوا أَوَآدَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفَعْنَا أَوْثَانًا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (١٠٨).

■ وقد حذر السياق من إبليس الذي يستخدم خيله وأتباعه ويشارك الناس في تسخير الأموال والأولاد للإفساد، وهذا مشابه لبني إسرائيل الذين يستخدمون أموالهم وبنينهم للغايات ذاتها، كما قال في المقدمة: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ (١٠٩).

■ إن السياق حين يعرض موقف المشركين المشابه لموقف بني إسرائيل من حقائق الدين، إنما يحذر المؤمنين من عدم التزام الدستور القرآني لأن الالتزام به هو الذي يحقق النصر لأمة الإسراء.

سورة الكهف

﴿أَمَرَ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا ۖ﴾^(١)
 إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا
 مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۖ﴾^(٢) فَضَرَبْنَا عَلَىٰ ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا
 ۖ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۖ﴾^(٣)

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس: «الكهف: الغار في الجبل، وجمعه: كهوف»^(١)، وزاد الإمام ابن منظور: «الكهف كالمغارة في الجبل، إلا أنه أوسع منها، فإذا صغر فهو غارٌ . . . ويقال: فلان كهف فلان: أي ملجأ . . . ويقال: فلان كهف أهل الرِّيب: إذا كانوا يلودون به فيكون وَزَرًا وملجأ لهم»^(٢)، فالدلالة اللفظية للكهف تفيد بأنه مكان يجد فيه الإنسان الحماية من المخاوف، وقد أكدت الدلالة السياقية لاسم السورة ذلك، حين لجأ الفتية إلى الله جزعين إليه، فألهمهم اللجوء إلى الكهف فكان ملجأ وأماناً لهم. وكانت قصتهم آية دالة على قدرة الله على تأمين من التجأ إليه من شتى المخاوف.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والباحثين أوجهاً من الربط بين اسم سورة «الكهف» ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن قصة أصحاب الكهف دليل على إحدى فوائد الإيمان وهي الأمن الكلي من المخاوف، وهذا دليل على أن القرآن جدير بأن يوصف بالقيّم؛ لأنه يقصّ قصص أخبار قوم قد فُضِّلوا في زمانهم بحفظ الله إياهم من شتى المخاوف، وتأمين الله وحمایته لأهل الكهف مترابط مع محور السورة الذي يدور حول العواصم من الفتن المختلفة كالدينا

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٩١٢.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج ١٣، ص ١٢٥. بتصرف.

والشيطان، بالإضافة إلى أن موضوع تحقيق الأمان والحماية مبني على موالة الله تعالى والاعتصام بكتابه، وهذا أمر مشترك بين موضوعات السورة، كما وأن السورة فيها تصحيح العقيدة ومنهج النظر والفكر والقيّم بميزان العقيدة، فالسورة تفرق بين قوّة المصّرّف لهذا الكون (وهو الله)، وبين الطبيعة أو الأسباب، وهو أمر يظهر من خلال بيان حقيقة الدنيا، وقصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح وقصة ذي القرنين، فالأولى تدعو إلى العلم، والثانية تدعو إلى الجهاد، وهما أمران لا بُدّ من توافرها في الشخصية الإسلامية^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان أن من لجأ إلى الله واعتمد عليه واتبع منهجه، هداؤه الله وحماه وحفظه من شتى أنواع الفتن والمخاوف، وحقق له الأمن في الدنيا والآخرة، علّم ذلك أم لم يعلم، لأن لطف الله وحسن تدبيره لا يتوقّف على اللطف الظاهر فحسب، بل هناك لطف وتدبير خفيّ أيضاً، وإنما سمّيت هذه السورة باسم «الكهف» لأن هذا الاسم بدلالاته اللغوية والسياقية أدلّ ما في السورة على المحور المذكور^(٢).

وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان أن من لجأ إلى الله حفظه الله من شتى المخاوف والفتن.

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ١، ص ٤٣٩، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٤، ص ٤٤١، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٢٥٧ و ٢٢٥٨، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٤، ٢٨٣-٢٨٨، والندوي، المدخل إلى الدراسات القرآنية وتأمّلات في سورة الكهف، ص ١١٠ وما بعدها، وأ. د. فضل، قصص القرآن الكريم، ص ٧٧، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ١٣٣-١٣٥، وعبد الحميد طهماز، العواصم من الفتن في سورة الكهف، ص ٣٥-٤٠، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور، ص ١٤٧-١٥٣.

(٢) أقول: لعل ذلك يُظهر أحد أوجه التعليل لبيان النبي ﷺ أن هذه السورة تقي المؤمن من فتنة الدجال، بالإضافة إلى نذبه ﷺ لقراءتها في كل جمعة، وكأن المؤمن حين يقرأها كل أسبوع يجدد التجاه إلى الله ليحفظه من شتى أنواع الفتن، ومن لطائف هذه السورة: أولاً: أنها أكثر سورة في القرآن جاء فيها مشتقات الجذر (لذن)، فقد جاءت تلك المشتقات في السورة أربع مرات، ثلاث منها منسوبة إلى الله: ٢، ١٠، ٦٥، والرابعة: ٧٦ ﴿وَمِن لَّدُنِّي عَذَابٌ﴾، وثانياً: هذه السورة وسورة الجنّ أكثر السور في القرآن تكرر فيهما مشتقات الجذر (رشد)، لكن الكهف تميزت بنسبة الرشد إلى الله في ثلاث مواضع من أربعة: ١٠، ١٧، ٢٤، والرابعة: ٦٦ ﴿فَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا﴾، بينما سورة الجنّ تُنسب فيها الرشد إلى الله في موضع واحد من أربعة، وثالثاً: سورتا الكهف والجنّ هما الوحيدتان في القرآن اللتان جاء فيهما لفظة (ملتحدّ)، وذلك في الكهف: ٢٧ ﴿وَكُنْ يَمْدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا﴾، وفي الجنّ: ٢٢ ﴿وَكُنْ أَيْدٍ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا﴾، ورابعاً: سورتا الكهف والأنعام أكثر سورتين - بعد الأعراف -

وبتأمل موضوعات السورة يظهر الترابط بينها وبين دلالات اسم السورة، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة موضوعات رئيسية: مقدّمة داعية إلى التزام منهج الله المتمثل في القرآن مع بيان مصير المؤمن وتهديد الكافر، ثم عرض قصصي يظهر بعض مظاهر اللطف والتدبير الإلهي في الظاهر والباطن لمن التجأ إليه واتبع منهجه، ثم خاتمة مؤكدة لما سبق^(١).

أولاً: جاء في المقدّمة بيان فضل القرآن العظيم ووصفه بالقيّم وغير ذي عوج، وبيّنت مصير المؤمنين وهذّدت الكافرين: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا ۖ قِيمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۚ مَكِينٌ فِيهِ أَبَدًا ۖ﴾، فهذا القرآن يمثل المنهج الرباني، فمن اتّبعه نال الأمن والسعادة الدائمين يوم القيامة، وقد هذّدت المقدّمة الكافرين المشركين، والشرك أعظم مظاهر

= أضيف فيها لفظة (رحمة) إلى الله، وكان ذلك في ستة مواضع في الأنعام، والكهف: ١٠، ١٨، ٥٨، ٦٥، ٨٢، ٩٨، بينما في الأعراف كان ذلك في سبعة مواضع، وخامساً: سورة الكهف أكثر سورة في القرآن جاء فيها مشتقات الجذر (رفق): ١٦، ٢٩، ٣١، وسادساً: هذه السورة الوحيدة في القرآن التي جاء فيها لفظة (الولاية)، وقد كانت منسوبة إلى الله تعالى: ٤٤، وسابعاً: هذه أكثر سورة في القرآن جاء فيها مشتقات الجذر (نسي)، وذلك في ستة مواضع نسب فيها النسيان للبشر على مختلف مستوياتهم: ٢٤، ٥٧، ٦١، ٦٣ (مرتان)، ٧٣، وثامناً: نُسب العلم إلى الله في هذه السورة تصريحاً سبع مرات: ١٢، ١٩، ٢١، ٢٢، ٢٦، ٦٥، ٦٦، أما تلميحاً فقد كان ذلك في أكثر من عشرة مواضع، أذكر منها: ١٣، ٢٤، ٢٦، ٩١، ١٠٩، وقد نُفي العلم عن البشر في هذه السورة تصريحاً في ثلاثة مواضع: ٥، ٢٢، ٢١، وتلميحاً في أكثر من خمسة عشر موضعاً أذكر منها: ٢٢، ٢٣، ٢٨، ٤٨، ٦٨، ٨٢، ١٠٢، ١٠٤. ينظر: عبد الباقي، المعجم المفهرس. وتاسعاً: يلاحظ خلال القصص المذكور في القصة كثرة ضمير العظمة بنون الجمع العائد على الله: (فضربنا، وربطنا، جعلنا لأحدهما، قلنا للملائكة، مكّنا له، وآتيناه...) وذلك يتلاءم مع بيان كمال القدرة الإلهية، وكان السورة تقول: إن من تولى الله واعتمد عليه والتجأ إليه سيجعل الله له من لذه رشداً ورحمة ومرفقاً، لأن الله تعالى علمه تام مطلق وكذلك قدرته، والبشر يجهلون وينسون فهم بحاجة دائمة إلى اللجوء إلى مولاهم ليحميهم من شتى الفتن والمخوف في الدارين. والله أعلم.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٨، والعرض القصصي شمل كلاً مما يلي: قصة أصحاب الكهف مع التعقيب: ٩-٣١، وقصة صاحب الجنتين مع تعقيب مشير إلى قصة آدم عليه السلام مع إبليس: ٣٢-٥٩، وقصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح: ٦٠-٨٢، وقصة ذي القرنين: ٨٣-٩٨، والخاتمة: ٩٩-١١٠.

الخروج عن منهج الله: ﴿رَبِّدِرَ الَّذِيكَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۖ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝﴾ فَلَعَلَّكَ بِنَجْعِ نَفْسِكَ عَلَىٰ عَآثِرِهِمْ إِن لَّزَ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا ۝﴾ ، فمن ادعى أن الله ولدًا فقد أقحم نفسه في الجهل، وارتكب كذباً عظيماً، وأعتقد أن تهديد هؤلاء ببيان أن الله سيجعل ما على الأرض صعيداً جرزاً متلائم مع اسم السورة ومحورها، فهم لن يجدوا أي ملجأ يحميهم من بأس الله يوم القيامة، فقد قرّرت المقدمة أن المؤمن المتبع لمنهج الله مُبَشَّر بالأمن من الله، وأن الكافر لا مأمّن له.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى عرض قصصي متنوع لبيان أوجه من لطف الله في تأمين أوليائه ومن لزم منهجه من كل المخاوف، فكانت أول قصة قصة أصحاب الكهف، وقد سبق العرض التفصيلي للقصة تلخيص شائق^(١): ﴿أَمَر حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا ۝﴾ ، وهذا التلخيص الشائق يؤكد محور السورة، فهم ملتزمون بمنهج الله وقد لجؤوا إليه، فحمّاهم وكفّاهم المخاوف وأمنهم في الكهف، وقصتهم دالة على قدرة الله على البعث للحساب.

ثم ابتدأ العرض التفصيلي للقصة: ﴿وَنَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ۝ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُواكَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝ وَإِذْ أَعْرَضْتَهُمْ وَمَا يَنْبُذُونَ إِلَّا اللَّهُ فَاتُّوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ۝﴾ ، ولاحظ كيف أن التزامهم بمنهج الله زادهم هدى، وقد كان إلهامهم بدخول الكهف لطفاً إلهياً ظاهراً بهم، وأما اللطف الإلهي الذي خفي عنهم خلال مدة نومهم، فيبرز من خلال بيان السياق بأن الشمس تراور

(١) أشار لذلك سيد قطب رحمه الله في: التصوير الفني في القرآن، ص ١٤٨.

عن كهفهم إذا طلعت، وتقرضهم ذات الشمال إذا غربت، وأنت تحسبهم أيقاظاً لو اطلعت عليهم وهم في الحقيقة رقود، فهذه بعض أوجه لطف الله الخفي بهم وهم لا يعلمون به .

ثم انتقل السياق إلى أمر آخر غاية في الأهمية، وهو الدلالة على قدرته تعالى على البعث: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتَّعُوا بَيْنَهُمْ قَالِ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَاسْعَوْا أَحَدَكُمْ يَورِقْكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۖ﴾ ، فهذه الآية إحدى المواضع التي تدلّ على ضالة علم الإنسان، فهم غفلوا عن مدة لبثهم الطويلة، وأعتقد أن أمرهم الرسول بالتلطف متلائم مع ما بيّنته القصة من آثار لطف الله بهم .

ثم انتقل السياق إلى تعقيب إلهي يبرز قلة علم البشر أيضاً، ويبرز كمال علم الله المطلق: ﴿وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ۖ﴾ ، وعرض التعقيب كذلك مدى اختلاف البشر في عدد أصحاب الكهف، وفي مدة لبثهم، وبين للنبي ﷺ بأنه لا يحدث شيء في الكون إلا بمشيئة الله، وأمره بذكر الله حال النسيان، وأن يلجأ إليه دائماً: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۚ﴾ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادَّكَّرَ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتُ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَّبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۖ﴾ (٢٤) ، وبين أن علم الله مطلق: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ لَمْ غِيبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ، وَأَسْمِعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ۖ﴾ (٢٥) ، ولاحظ الدعوة إلى عدم موالاة أحد سوى الله تعالى، لأنه وحده القادر على تأمين من يلوذ به؛ لكمال علمه وقدرته سبحانه وتعالى ولطفه الظاهر والباطن، ولا شريك له .

ثم أمر السياق النبي ﷺ بتلاوة وتبليغ القرآن الذي هو منهج الله للبشر: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۖ﴾ (٢٦) ، وبين السياق مصير موقف الناس من اتباع هذا المنهج أو عدمه، فالكافرون في نار جهنم، والمؤمنون قد حفظ الله لهم أعمالهم وحقّق لهم الأمان والسعادة الدائمين يوم القيامة: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُم مِّمَّنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادُهَا وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ

كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٢٧﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٨﴾ ، واعتقد أن وصف حال الكافرين في النار وقد أحاط بهم سرادقها، متلائم مع الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة، فالكهف الضيق الذي لجأ إليه المؤمنون قد أصبح رحباً برحمة الله، بينما النار الهائلة الحجم تحيط بالكافرين وتضيق عليهم بعذاب الله .

فأنت ترى أن قصة الكهف مع التعقيب الإلهي عليها تدلّ أشدّ الدلالة على أن من لزم منهج الله واعتمد عليه ولجأ إليه، فسيحمله الله من كل مخاوفه دنيا وأخرى، فإن علم الله مطلق ولطفه ظاهر وخفيّ وقدرته مطلقة، بينما الكافر الذي حاد عن منهج الله لا أمان له لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ثم انتقل السياق إلى قصة صاحب الجنتين، وهي تبرز لنا أنه قد فُتِنَ بجنتيه حتى حاد عن منهج الله، فكاد أن ينكر الآخرة، بل لقد وصل به الأمر إلى الشرك بالله كما بين السياق، ولم يجد له ملجأ ينصره من بأس الله الذي أحاط بجنتيه، بينما صاحبه الذي التزم بمنهج الله حفظه الله من أي سوء: ﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْتَهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٢٩﴾ كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ بَائِنَتَيْنِ أَكْثَرًا وَلَمْ تَنْظُرْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٠﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣١﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٢﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٣﴾) ولاحظ كثرة ضمير الجمع بنون العظمة العائد على الله، فهو ذو القدرة المطلقة، لكن صاحب الجنتين افتتن بهما حتى أنساه المنعم، بينما صاحبه المؤمن التزم بمنهج ربه: ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٤﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَكْرِينَ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَلَوْلَا ﴿٣٦﴾ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٣٧﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاءً غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُمْ طَلَبًا ﴿٣٨﴾) .

فهو يدعو صاحبه إلى الرجوع إلى منهج ربه الذي أنعم عليه، وحذّره من تولي المال

والولد بدلاً من الله عز وجلّ، وانظر ماذا كانت نتيجة اعتماده على الدنيا وغفلته عن ربه عز وجلّ: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفْتَهُ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِبَةٌ عَلَى غُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا بَنِيَّ لِمَ أَشْرَكْتُ بِرَبِّي أَحَدًا ۖ وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِتْنَةً يَصُورُنَّ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ۚ﴾ هُنَاكَ الْوَلَبَةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ نَوَابًا وَخَيْرٌ عَقَبًا ﴿٤٤﴾، وقد حفظ الله المؤمن من أي سوء.

ثم عقب السياق ببيان حقيقة الدنيا وهوانها على الله، وحذر من الافتتان بالمال والولد، ف قصة صاحب الجنتين مع التعقيب الإلهي عليها يحذران من اللجوء والاعتماد على أي ولي من دون الله تعالى، لأنه لا يحمي من بأس الله شيء. وبذلك يكتمل التناسق بين قصة أصحاب الكهف التي تعطي أنموذجاً للجوء إلى الله، مع بيان العاقبة الحسنی له، وبين قصة ذي الجنتين التي تعطي أنموذجاً للتوَلَّى عنه، مع بيان العاقبة السوای له.

وانتقل السياق إلى عرض مشهد أخروي يبرز تمام قدرة الله وتام علمه المطلق: ﴿وَيَوْمَ نُسِِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۖ وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ۚ﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا بَنِيَّانَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٥﴾، فالخلق سيعرضون على الله ولن يجد أحد منهم ملجأ من دونه، ولاحظ تمام علم الله حين بين السياق أن الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ويؤكد ذلك تقديم الصغيرة على الكبيرة، كل ذلك يتلاءم مع محور السورة الداعي إلى اللجوء إلى الله ذي القدرة والعلم المطلق والاعتماد عليه.

وعلى عادة السياق في أكثر من موضع، ربط بين ذكر الآخرة وبين قصة آدم عليه السلام، لأن قصته عليه السلام تمثل بداية البشر، واليوم الآخر يمثل النهاية، واللافت للنظر أن السياق حذر من تولي الشيطان وذريته من دون الله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۚ﴾، ولاحظ بيان مدى حمق من اعتمد على شريك جاهل عديم القدرة، من دون الله العليم القدير: ﴿مَا أَشْهَدُكُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَخَذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا ۖ﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمُ

مَوْفِقًا ﴿٥٧﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٨﴾ ، فهم لن يجدوا ملجأ يصرف عنهم عذاب الله .

ثم عاد السياق إلى التذكير بالتزام منهج الله المتمثل في القرآن، مع بيان أن لا ملجأ يحمي من حاد عنه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٩﴾ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٦٠﴾﴾ ، ولاحظ قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ هُمْ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ﴿٦١﴾﴾ وتلك القرى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٦٢﴾﴾ ، فهذا التعقيب متلائم تماماً مع محور السورة ومع الدلالات السياقية واللفظية لاسم السورة.

ثم انتقل السياق إلى قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، ومن وجهة نظري أرى أنها تتلاءم مع محور السورة ومع دلالات اسمها من أكثر من ناحية، فهي أولاً: تبرز قصور علم البشر حتى لو كان نبياً، كما سيظهر من نسيان موسى عليه السلام وعده أكثر من مرة، ومن ردّ الأمور التي قام بها الصالح إلى أمر الله آخر القصة، وهي ثانياً: تبين لبني إسرائيل الذين زعموا جهلاً وكذباً أن الله ولدأ كما جاء في أول السورة، تبين لهم أن أعلم أنبيائهم يتعلم على يدي عبد صالح من عباد الله لم يذكر اسمه، فكيف يخوضون فيما ليس لهم به علم ولا لأبائهم؟ وهي ثالثاً: تمثل أحد أوجه لطف الله الخفي فيمن احتفى به ولزم منهجه، وهي رابعاً: تبرز تمام القدرة والعلم الإلهي .

تبدأ القصة بذكر نسيان موسى عليه السلام وفتاه للحوت، وذلك يشير إلى قصور علم البشر: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ لَا أُنْبِرُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٣﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦٤﴾﴾ ، وتؤكد القصة ذلك ببيان العبد الصالح لموسى عليه السلام أنه لن يصبر على ما لم يحط به خبراً: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ نَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ ، ولاحظ ضمير العظمة العائد على الله، وكذلك نسبة العلم والتعليم والرحمة إليه، ولاحظ أن التزام هذا العبد بمنهج الله قد أوصله إلى مرحلة جعلته سبباً من أسباب لطف الله الخفي .

وأما أحداث القصة، فيبرز من خرق العبد للسفينة لطف الله الخفي بالمساكين، فهم لم يعلموا بذلك، ويبرز من قتله الغلام لطف الله الخفي بالذي الغلام المؤمن، ويبرز من إقامته الجدار لطف الله بالغلامين اليتيمين اللذين كان أبوهما صالحاً، وهذه الأحداث تبرز قصور علم موسى عليه السلام عن الحكمة منها إلى أن أنبأه العبد الصالح بها، واللافت للنظر أن العبد الصالح نسب أفعاله إلى الله: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (بعض الآية: ٨٢)، ولم يفتن بعلمه كما افتن صاحب الجنتين بجنتيه.

فأنت ترى أن هذه القصة بأحداثها تبرز كمال علم الله وقدرته، وتبرز بعض مظاهر لطف الله الخفي وحسن تديره لحماية من التزم بمنهجه من شتى المخاوف والفتن.

بقيت قصة ذي القرنين، وهي أيضاً تتلاءم مع محور السورة ودلالات اسمها من أكثر من جانب، فهي تبرز بعض مظاهر كمال علم الله وقدرته، وتبرز بعض مظاهر لطف الله الظاهر بمن التجأ إليه، وذلك يتمثل بما قام به ذو القرنين من الأعمال، وتبرز قصور علم البشر عن تفاصيل هذه القصة حتى أعلمهم الله بها: ﴿وَسْتَلُونَا عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ فَلْ سَأَلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (٨١) ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ (٨٢) ﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ (٨٣) ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَذَّا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ (٨٤) ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا﴾ (٨٥) ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (٨٦)، ولاحظ أولاً: كثرة ضمير العظمة العائد على الله، ولاحظ ثانياً: نسبة تمكين ذي القرنين في الأرض وإيتائه أسباب الملك إلى الله تعالى، وما ذلك إلا لكونه التزم بمنهج الله وبلغ درجة من الصلاح أهله لذلك، ولاحظ ثالثاً: كيف جعله الله سبباً من أسباب لطفه الظاهر بمن آمن من ذلك القوم، فقد سلطه الله على الظالمين، وجعله فرجاً للمؤمنين.

أما الحدث الثاني المتعلق بمروره على قوم لم يكن لهم من دون الشمس ستر، فأعتقد أنه مسوق لبيان تمام القدرة الإلهية، وذلك يتجلى من ربط هذا الحدث مع ما جاء في قصة أصحاب الكهف، حيث بينت قدرة الله في جعل الشمس تزاور عن كهفهم إذا طلعت، وجعلها تقرضهم ذات الشمال إذا غربت، وذلك طيلة مدة لبثهم، وليكتمل التناسق في عرض بعض مظاهر قدرة الله، يبين هذا الحدث في قصة ذي القرنين قدرة الله في أنه لم يجعل

لهؤلاء القوم من دون الشمس سترًا، فكما هو قادر على حفظ الفتية المؤمنين من الشمس، فهو قادر أيضاً على أن لا يجعل لهؤلاء القوم ما يحفظهم منها، ولاحظ تمام علم المطلق في قوله: ﴿كَذَلِكَ وَفَدَّ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ (١١) .

والحدث الثالث فقد كان أيضاً من مظاهر لطف الله بالبشر، فقد كان الردم الذي بناه ذو القرنين بين يأجوج ومأجوج وبين هؤلاء القوم حماية لهم من شر يأجوج ومأجوج حتى يحين وعد الله، واللافت للنظر أن ذا القرنين لم يكتف ببناء سدّ، بل رأى أن الردم هو الأنسب لزيادة الحماية فالردم أكبر من السدّ، فكان ذلك أظهر للطف الله عزّ وجلّ وحمايته للضعفاء، واللافت للنظر أيضاً أن ذا القرنين نسب ذلك الفعل لربه عزّ وجلّ، ولم يفتن في ملكه وسلطانه كما افتتن صاحب الجنتين: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (١٨) .

فقصة ذي القرنين مترابطة أشدّ الترابط بالدلالات اللغوية والسياقية لاسم السورة ومحورها .

ثالثاً: أما الخاتمة فهي تحوي تلخيصاً لكل ما سبق، فهي تؤكد قدرة الله تعالى التامة على البعث ومجازاة من حاد عن المنهج: ﴿وَرَكْنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ بِمَوْجٍ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَبَعْنَهُمْ جَمْعًا﴾ (٢١) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (٢٣) ، وهي تؤكد حفظ الله وحمايته لأوليائه الملتزمين بمنهجه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ (٢٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ (٢٨) ، وكما افتتحت السورة ببيان فضل القرآن القيم الغير ذي عوج والذي يمثل منهج الله للبشر، ختمت السورة ببيان كمال علم مُنزل هذا القرآن والدعوة إلى التزام منهجه والالتجاء إليه وحده ليتحقّق لهم الأمن والأمان في الدنيا والآخرة: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (٢٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُّثَلُّكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَنَ كَانَ رِجْوَ إِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (٣٠) ، وهكذا التقى مفتتح السورة وختمها على المحور الذي دلّت عليه أبلغ الدلالة قصة الكهف بدلالاتها اللغوية والسياقية والتي سمّيت السورة باسمها .

(١) ذكر سيّد قطب رحمه الله لفظة أخرى، وهي التناسق في العرض القرآني بين الشمس المكشوفة التي لا يسترها عن القوم ساتر، وبين كشف الله لما في ضمير ذي القرنين، ينظر: في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٢٩٢. وهي لفظة ظريفة تؤكد أيضاً كمال علم الله المطلق.

سورة الكهف

سورة بيان أن من التجأ إلى الله حفظه الله من شتى المخاوف والفتن

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٨)

المقدمة التي تدعو إلى التزام منهج الله المتمثل بالقرآن والذي فيه الحفظ، مع بيان مصير المؤمن وتهديد الكافر:

■ افتتحت السورة بحمد الله على إنزال القرآن غير العوج، ودعت إلى التزام ما فيه ليحفظ المؤمنون به أنفسهم من المخاوف والفتن: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَوْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا ۖ فَيَمْنَحْ لِيُذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُنَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾.

■ وحذرت المقدمة من الشرك؛ لأنه أعظم مظاهر الخروج عن منهج الله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

■ وبينت أن الله سيجعل الأرض يوم القيامة صعيداً جُرُزاً، فلن يجد المكذب بآيات الله ملجأ يحميه.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٩-٩٩)

عرض قصصي متنوع لبيان أوجوه من لطف الله في الظاهر والباطن لمن التجأ إليه واتبع منهجه:

■ بينت قصة أصحاب الكهف أنهم فتية ملتزمون بمنهج الله، وقد لجؤوا إلى الله فألهمهم اللجوء إلى الكهف ليحفظهم من فتنة قومهم: ﴿وَإِذْ أَعْرَضْتُمُوهُمْ وَأَمَّا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْفُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ۖ﴾، فهذا لطف ظاهر.

■ وأما اللطف الإلهي الخفي بهم فهو أن الله جعلهم ينامون لمدة ثلاث مئة وتسع سنين، وجعل الشمس طوال هذه الفترة تزاور عن كهفهم إذا طلعت، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال.

■ وبينت قصة صاحب الجنتين كيف افتتن بهما حتى أنساه المنعم سبحانه وأشرك به، وكاد ينكر الآخرة، وبينت القصة كيف أحاط العذاب بجنتيه حتى أصبح يقول: ﴿يَلَيِّنِي لَوْ أَشْرَكُ بِرَبِّيَ أَحَدًا﴾.

■ وقد حفظ الله المؤمن الملتزم بمنهج الله من أي سوء.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٩٩-١١٠)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ بَيَّنَّتْ جزاء مصير من لم يلتزم بمنهج الله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ۝﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۝ ﴿١٠٩﴾

■ وَبَيَّنَّتْ جزاء ومصير المؤمنين الملتزمين بمنهج الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝﴾

■ وكما افتتحت السورة ببيان أن القرآن الذي يمثل منهج الله للبشر غير ذي عوج، ختمت بالدعوة إلى التزام هذا المنهج ليتحقق للمؤمن الأمن والنجاة في الدنيا والآخرة: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُثَلِّمٌ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ ۚ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَمَّا ۝﴾

■ وقد حذّر السياق من اتخاذ الشيطان وذريته أولياء من دون الله، لأنه فسق عن أمر ربه ويريد إغواء بني آدم بصددهم عن سبيل الله.

■ بَيَّنَّتْ قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح ثلاثة مظاهر من لطف الله الخفي لحماية الملتزمين بمنهجه من المخاوف، فقد خرق العبد الصالح السفينة ليكون هذا من اللطف الإلهي الخفي بالمساكين.

■ وقد قتل الغلام ليكون هذا لطفًا إلهيًا بوالديه المؤمنين.

■ وقد أقام الجدار ليكون هذا لطفًا بالغلامين اليتيمين اللذين كان أبوهما صالحًا.

■ وبيّنت قصة ذي القرنين بعض مظاهر لطف الله الظاهر بالمؤمنين، فقد قال ذو القرنين عند بلوغه القوم مغرب الشمس: ﴿قَالَ أَنَا مَن ظَلَمْتُ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا ۝﴾ وَأَمَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُم مِّنْ أَمْرٍ يُسَّرَ ۝ ﴿١٠٨﴾

■ وقد بنى الردم للقوم الضعفاء ليحفظهم الله من شرّ يأجوج ومأجوج: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دُكَّانًا وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۝﴾

سورة مريم

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرِيفًا ﴿١٦﴾ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ يَقِينًا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٌ ۖ وَلَنَجْعَلَ لُكُلِ الْبَشَرِ آيَةً ۚ وَلَنَجْعَلَنَّكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سميت هذه السورة الكريمة باسم «مريم» لذكر قصتها عليها السلام فيها، والتي تعرض كيف اصطفاها الله لمعجزة حملها بعيسى عليه السلام بلا زوج، وبرائها من أي فرية متعلقة بهذا الشأن، ويبرز من سياق هذه القصة كمال رحمة الله بمريم وابنها عليهما السلام، وكمال علم الله تعالى وقدرته المطلقة، فهو الإله الخالق الواهب المتفرد في هذا الوجود، وهو منزّه عن الصاحبة والولد.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور السورة يقوم على التوحيد، وأن من الموضوعات البارزة فيها: الرحمة الظاهرة من إفاضة النعم على البشر، وبيان قدرة الله تعالى على البعث وهي قضية ناتجة عن محور التوحيد، واستدلوا على أن تسمية السورة باسم «مريم» هو الأجدر؛ بسبب ما جاء في قصتها من مظاهر تمام قدرة الله وشمول علمه عز وجل، واسم السورة جعل جوهاً معروضاً للانفعالات النفسية، وقصة مريم خاصة تظهر هذه الانفعالات بشكل لافت، كما وأن ظلال الرحمة والرضا والاتصال بالله مهيمنة على السورة، ومما يدل على ذلك فاصلة الألف في معظم آيها^(١).

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٢، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٤، ص ٥١٤، وقطب، في ظلال =

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد وما يترتب عليه من وجوب الإيمان باليوم الآخر، من خلال عرض بعض مظاهر كمال رحمة الله تعالى وكمال قدرته وشمول علمه في سياق القصص القرآني المذكور في السورة، وهي مظاهر دالة على توحيد الله تعالى فلا ندَّ ولا صاحبة ولا وَلَدَ له تعالى، وهو وحده القادر على بعث الناس للحساب، وإنما اختير اسم «مريم» لهذه السورة؛ لأن قصتها الواردة فيها أدل ما في السورة على المحور المذكور.

وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة تنزيه الله عن الصاحبة والولد والشريك، بل هو وحده الخالق الوهاب القادر.

والمتمّثل في موضوعات السورة يجد فيها كلها دلالات كمال رحمة الله، وشمول علمه وكمال قدرته، مما يوجب توحيده وتنزيهه عن الصاحبة والولد والشريك، ويوجب الإيمان بيوم الحساب الناتج عن هذا التوحيد، وفيما يلي بيان بعض أوجه الربط بين الدلالات السياقية لاسم السورة «مريم» وبين موضوعاتها:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام: أولاً: مقدّمة تعرض قصة زكريا عليه السلام وتثبت رحمة الله وكمال قدرته، فهو الخالق الوهاب القادر، وثانياً: قصص قرآني يشمل كلاً من: مريم مع تعقيب على قصتها، وإبراهيم، وإشارات إلى موسى وهارون وإسماعيل وإدريس عليهم السلام جميعاً، وكلها تؤكّد المحور المذكور، ثالثاً: تعقيب على هذا القصص، ورابعاً: خاتمة تؤكّد ما سبق^(١).

= القرآن، ج ٤، ص ٢٢٩٩-٢٣٠١، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ٥٨، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٤، ص ٤٠٦-٤٠٨. والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٢٤١، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ١٤٥-١٤٨، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-١٥، وقصة مريم: ١٦-٣٣، والتعقيب عليها: ٣٤-٤٠، وقصة إبراهيم: ٤١-٥٠، والإشارات إلى الأنبياء: ٥١-٥٨، والتعقيب على القصص: ٥٩-٨٧، الخاتمة: ٨٨-٩٨. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: اسم «الرحمن» تكرر فيها ست عشرة مرة، وهي أكثر سورة في القرآن تكرر فيها هذا الاسم الجليل، وثانياً: هي أكثر سورة في القرآن جاءت فيها مشتقات الجذر «وَهَب» العائد على الله تعالى، ينظر الآيات: ٥، ١٩، ٤٩، ٥٠، ٥٣. ثالثاً: ومنها أمور تُنزه الله تعالى عن الشريك والولد: أ) فقول عيسى عليه السلام ﴿قَالَ إِنِّي

أولاً: افتتحت السورة بذكر قصة زكريا عليه السلام، ويبرز فيها جلياً مظاهر كمال العلم

= عَبْدَ اللَّهِ ﴿٣٠﴾، لم يتكرر في القرآن، (ب) وقوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ﴾: ٣٥، وقوله ﴿وَمَا يَلْبِغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾: ٩٢، لم يتكررا بالصيغة ذاتها، وقريب منهما في الإسراء: ١١١، والفرقان: ٢، (ج) وكذلك قوله تعالى ﴿وَأَقْبَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا يَتَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾: ٨١، لم يتكرر بالصيغة ذاتها، وقريب منه في الفرقان: ٣، ويس: ٧٤، رابعاً: ومن لطائف هذه السورة أنها مع سورة آل عمران تعطيان صورة متقابلة متكاملة، فقد ذكرت أن محور سورة آل عمران هو اصطفاء أمة التوحيد من خلال بيان أسباب اصطفاء آل عمران، وسورة مريم محورها مذكور أعلاه، وإليكم بعض أوجه التناسق بين السورتين وهو ما يؤكد هذه الحقيقة: أولاً: جاء في الآية الثالثة من سورة آل عمران قوله تعالى ﴿رَزَّكَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾، وفي سورة مريم جاءت عبارة ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ خمس مرات: ١٦، ٤١، ٥١، ٥٤، ٥٦، وثانياً: آخر آية في سورة آل عمران جاء النداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وفي ختام سورة مريم جاءت العبارة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وثالثاً: انظر الآية ٢٠ من سورة آل عمران ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾، والآية ١٠٣ ﴿لَمَلَكُمْ تَهْدِينٌ﴾، وانظر الآية ٧٦ من سورة مريم وكأنها تنعم الآيتين السابقتين ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾، ورابعاً: جاءت عبارة ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مرتين في سورة آل عمران: ١٠٩، ١٢٩، وانظر الآية ٦٥ من سورة مريم ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، وخامساً: انظر الآية ٨٣ في سورة آل عمران ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾، وانظر الآية ٩٣ في سورة مريم ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾، وسادساً: انظر الآيتين ١٠ و ١١٦ في سورة آل عمران اللتين اشتركتا بنفس العبارة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تُنْفَعُ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾، وانظر الآيات ٧٧ - ٨٠ من سورة مريم ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾، وسابعاً: في الآية ٦ من سورة آل عمران جاءت العبارة ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، وفي سورة مريم جاءت أمثلة عملية على هذه الحقيقة كخلق يحيى وعيسى وإسحاق عليهم السلام بالرغم من صعوبة الظروف أو انعدامها، وثامناً: انظر قوله تعالى في الآية ١٣٧ من سورة آل عمران ﴿فَدَخَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَّ قَيْسِرًا فِي الْأَرْضِ...﴾، وانظر الآية ٩٨ من سورة مريم ﴿رَكَمَ أَهْلُكُنَّا بَيْنَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ يُخَشِ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ...﴾، وتاسعاً: انظر قوله تعالى في الآية ١٥١ من سورة آل عمران ﴿وَيَتَّبِعْ مُتَوَلَّى الظَّالِمِينَ﴾، وانظر الآية ٧٢ من سورة مريم ﴿...وَنَذُرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَا﴾، وعاشراً: ذكرت مريم في سورة آل عمران ٧ مرات: ٣٦، ٣٧، ٤٢، ٤٣، ٤٥ (مرتين)، وذكرت مريم في سورة مريم ٣ مرات: ١٦، ٢٧، ٣٤، وأحد عشر: ذكر عيسى عليه السلام في سورة مريم خمس مرات، واحدة منها فقط ذكر مع نسبه لأمه «عيسى ابن مريم» وذلك في الآية: ٤٥، ولم يذكر عيسى عليه السلام في سورة مريم إلا مرة واحدة وينسبته إلى أمه: ٣٤، وثاني عشر: ذكر نوح عليه السلام في سورة آل عمران مرة واحدة: ٣٣، وكذلك الأمر في سورة مريم: ٥٨، وثالث عشر: ذكر موسى عليه السلام في سورة آل عمران مرة واحدة: ٨٤، وكذلك في سورة مريم: ٥١، رابع عشر: ذكر آدم عليه السلام في سورة آل عمران مرتين: ٣٣، ٥٩، وفي سورة مريم مرة واحدة: ٥٨، وخامس عشر: ذكرت كلمة «المتقين» في سورة آل عمران أربع مرات: ٧٦ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، ١١٥، ١٣٣ ﴿وَجَعَلَ عَرْشَهَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ١٣٨، وفي سورة مريم ذكرت هذه الكلمة مرتين: ٨٥ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ﴾، ٩٧ ﴿لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾، وانظر الآية ٦٣ ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾، وسادس عشر: ذكر إبراهيم عليه السلام في سورة آل عمران ٧ مرات: ٣٣، ٦٥، ٦٧، ٦٨، ٨٤، ٩٥، ٩٨، وذكر في سورة مريم ٣ مرات: ٤١، ٤٦، ٥٨، وسابع عشر: =

والرحمة والقدرة الإلهية، فقد سمع الله قول زكريا عليه السلام الخفي: ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكِرِيَّا﴾ ٢١ إذ نادى رَبُّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٢٢﴾، ولاحظ لفظة (رحمت) بالتاء المفتوحة لا المغلقة، وهي تدلّ على اتساع تلك الرحمة وانتشارها، ومما يدل على كمال قدرة الله عزّ وجلّ أن الله استجاب دعاءه ووهبه يحيى عليه السلام بالرغم من كِبَر زكريا في السّنّ وامرأته عاقراً: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ ٢٨ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتَنكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٢٩﴾، ولاحظ قوله تعالى الدالّ على قدرته على البعث: (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً).

فمظاهر الرحمة وكمال القدرة هذه دعت زكريا عليه السلام إلى أن يأمر قومه بتسبيح الله القادر على كل شيء: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ٣١، وقد تكررت الإشارة إلى قدرة الله تعالى على البعث أيضاً في سياق ذكر يحيى عليه السلام: ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ ٣٥.

فأنت ترى أن السياق يركّز في قصة زكريا عليه السلام على كمال رحمة الله تعالى وكمال قدرته على الخلق والبعث، مما يوجب توحيد كونه وحده القادر على ذلك، فهو سبحانه الخالق الوهاب، ويوجب الإيمان باليوم الآخر الذي فيه الحساب. وفيما يلي بيان تناسق ذلك مع دلالات قصة مريم عليها السلام:

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض قصص لعدد من الشخصيات، يظهر فيها كلها كمال الرحمة والقدرة الإلهية، وبيان أنه تعالى الخالق الوهاب، وقد كانت قصة مريم أولى هذه

= أضيفت كلمة «رحمة» إلى الله في سورة آل عمران أربع مرات: ٨، ١٠٧، ١٥٧، ١٥٩، وفي سورة مريم مرتين: ٢، ٢١، وثامن عشر: ذكرت «الجنة» بالإنفراد في سورة آل عمران ٣ مرات: ١٣٣ ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾، ١٤٢، ١٨٥، وفي سورة مريم ذكرت مرتين: ٦١، ٦٣ ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ ١٧، وذكرت «الجنات» بالجمع في سورة آل عمران ٣ مرات: ١٥، ١٣٦، ١٩٥ ﴿وَلَا دُخَانَ فِي جَنَّاتٍ﴾، وفي سورة مريم ذكرت مرة واحدة: ٦١ ﴿جَنَّاتٍ عِدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾، وتاسع عشر: ذكرت «جهنم» في سورة آل عمران ٣ مرات: ١٢ ﴿قُلْ لِلَّهِ كُفْرُوا سَغْلُولٌ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾، ١٦٢، ١٩٧، وفي سورة مريم ذكرت مرتين: ٦٨ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثَاً﴾، ٨٦. ولا يخفى أن سورة آل عمران مدنية وسورة مريم مكية، وإذا تأملت المواضع المذكورة في سياق السورتين، ستجد أن كلاً منها قد جاء بصيغ تناسب المحور المذكور لكلتا السورتين. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

القصص، ويدل على كمال علم الله تعالى وقدرته ورحمته في هذه القصة عدة أمور، أولاً: أن السياق أخبر عن مكان وقوع أحداث القصة، إذ كانت مريم قد انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً، واتخذت من دونهم حجاباً، وقد كان من الممكن أن تبدأ القصة بقول جبريل حين تمثل لها رجلاً سوياً: إنما أنا رسول ربك. . . ، فالإخبار عن موقع مريم المنتبذ عن أهلها مع تحديد جهته بالشرق، يدل على كمال علم الله تعالى.

وثانياً: يدل على كمال قدرته تعالى أن جعل مريم تحمل بعيسى من غير زوج: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۖ﴾ (٢١) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۖ﴾ (٢٢)، ولاحظ العبارة المكررة في قصة مريم وقصة زكريا التي سبقتها: (كذلك قال ربك هو عليّ هين)، وهي دالة على كمال قدرة الله على الخلق والبعث.

وثالثاً ورابعاً: إكرام الله تعالى مريم بكرامتين خاصتين بها تدلان على قدرة الله ورحمته: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۖ﴾ (٢٣) وَهَٰزِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُ عَلَيْكِ رَبُّهَا جَنِيًّا ۖ﴾ (٢٤) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ﴾.

وخامساً: أنطق الله تعالى عيسى ابن مريم وهو في المهد بقولٍ يوجب توحيد الله كونه القادر على كل شيء، ويوجب تنزيهه عن الشريك والزوجة والولد: ﴿فَإِشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۖ﴾ (٢٥) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِوَالِدِيَّ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۖ﴾ (٢٦)، ولاحظ أول كلمة قالها: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾ فما هو إلا عبد الله أكرمه بالرسالة وجعله نبياً، ولاحظ ذكر كونه باراً بوالدته، فكيف يكون إلهاً من كانت له أم؟ ولاحظ تكرار عبارة ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ في قصته وقصة يحيى عليه السلام، الدالة على كمال قدرة الله تعالى على البعث. ومن ناحية أخرى تنفي هذه العبارة الإلهية عن عيسى عليه السلام، لأن الإله لا يموت. فأنت ترى أن أبرز دلالة لهذه القصة نفي الصاحبة والولد والشريك عن الله تعالى، بل هو الخالق الواهب القادر.

ثم جاء تعقيب إلهي على هذه القصة يقرر حقيقة توحيد الله عز وجل القادر على كل شيء، ومن ذلك بعث الناس للحساب، ويقرع هذا التعقيب من اختلاف في هذه الحقيقة فغير وبـذل: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٢٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٦﴾ فَأَخْلَفَ الْآخَرَابَ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الْفَالِغُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ ﴿٣٠﴾. واللافت للنظر أن الفاصلة تبدلت من الألف إلى النون، وذلك للفت الانتباه إلى تبرئة عيسى عليه السلام مما دار حوله وحول أمه من الفريات الباطلة^(١).

فأنت ترى أن قصة مريم بدلالاتها المتعددة على كمال رحمة الله وقدرته وعلمه، الداعية إلى توحيد الله وتنزيهه والإيمان بالبعث، هي الأجدر بتسمية السورة باسمها.

ثم انتقل السياق إلى عرض قصة إبراهيم عليه السلام، وتجد فيها دعوته أباه للتوحيد: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (٦١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٦٢﴾ يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٦٣﴾ يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٦٤﴾ يَتَّبِعْ إِنِّي خَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٦٥﴾، ولاحظ تكرار لفظة (يا أبت) أربع مرات، وتكرار لفظة (الرحمن) مرتين، وذلك منسجم مع جو الرحمة في السورة، وتجد في القصة كذلك بعض مظاهر كمال رحمة الله تعالى وقدرته: ﴿فَلَمَّا آخَرْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٦٨﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٦٩﴾﴾، فالقصة منسجمة تماماً مع محور القصة ودلالات السياقية لاسمها «مريم». من حيث بيان أن الله هو الخالق الوهاب المنزه عن الشريك.

ثم انتقل السياق إلى ذكر إشارات إلى بعض الأنبياء، هم موسى وهارون: ﴿وَأَذْكُرْ فِي

(١) قد أشار سيد قطب رحمه الله لذلك: في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٣٠٠.

الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ ، وذكر موسى عليه السلام وهارون عليهما السلام متلائم - فيما أرى - مع الدعوة إلى التوحيد، بالإضافة إلى إبراز مظاهر رحمة الله تعالى، فموسى وهارون أرسلوا إلى من قال: أنا ربكم الأعلى، أعني فرعون، وذكر هارون أيضاً يذكّرنا بعبادة بني إسرائيل للعجل، حينما استخلفه أخوه موسى عليهم. فالإشارة إليهما منسجمة مع محور السورة.

أما الإشارة إلى إسماعيل عليه السلام: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ٥٥﴾، فهي تبرز بعض مظاهر رحمة الله تعالى، ومن ناحية أخرى هي منسجمة مع محور السورة كذلك، لأن الصلاة والزكاة هي الجانب العملي التطبيقي لتوحيد الله وشكره^(١).

وأما الإشارة إلى إدريس عليه السلام فقد جاءت منسجمة أيضاً مع جو الرحمة في السورة، واللافت للنظر أن الإشارات إلى الأنبياء ختمت بذكر أن الأنبياء الذين أنعم الله عليهم جميعاً ومن اجتنب من ذرياتهم كانوا جميعاً موحدين شاكرين لله عزّ وجلّ على نعمه ورحمته وكمال قدرته: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٥١﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٢ ﴿٥٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَنَبْنَا إِذَا نُلِّقُ عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ٥٨﴾ . وأعتقد أن ذكر السجدة في هذه السورة متلائم مع ذكر الساجدين شكراً لله على نعمه ورحمته، وكأن الساجد حينئذ يكون في معية الساجدين قبله من الأنبياء والصالحين من ذرياتهم^(٢).

(١) من اللات للنظر أن هذه الإشارة لإسماعيل عليه السلام متلائمة تماماً مع قصة أبيه عليه السلام في سورة إبراهيم حينما قال: ﴿وَبَنَّا إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَارَىٰ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَِيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٢٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدَّلِيلُ ﴿١٢٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿١٣٠﴾﴾ فقد استجاب الله دعوته فجعل ابنه إسماعيل مقيماً للصلاة أمراً أهله بها ، واستجاب الله دعوته كذلك حيث كان أمرُ إسماعيل أهله بالزكاة أحد مظاهر شكر الله تعالى على ما رزقهم من الثمرات. فسيحان من يقصص علينا أحسن القصص.

(٢) ومن اللافت للنظر أيضاً أن مريم عليها السلام التي سُميت السورة باسمها، قد أُمِرت هي أيضاً بالسجود شكرًا لله =

ثالثاً: ثم جاء تعقيب إلهي على ذلك القصص مقرر لحقيقة التوحيد وبيان كمال قدرة الله تعالى وشمول علمه رحمته، ومهدد للكافرين والمشركين الذين حادوا عن جادة الأنبياء الموحدين: ﴿خَلَقَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفَ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ۝٨٩ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۝٩٠﴾، ولا يغفل السياق بيان قدرة الله تعالى على البعث والحساب كما أثبتت القصص السابقة قدرته تعالى على الخلق أول مرة، كما في قصة زكريا ومريم وإبراهيم عليهم السلام: ﴿وَقُولُوا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثْلُ لَسَوْفَ أَخْرِجُ حَيًّا ۝٩١ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۝٩٢﴾. وانظر إلى قوله تعالى المهتد للكافرين، والمؤكد قدرة الله على البعث والحساب، والمبين شمول رحمته تعالى للمتقين: ﴿وَلَنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٩٣ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا ۝٩٤﴾.

وقد أكد هذه الحقيقة أيضاً قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ۝٩٥ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ۝٩٦ وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرْدًا ۝٩٧ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۝٩٨﴾. فالسياق يدعو إلى وجوب توحيد الله والإيمان بالبعث في اليوم الذي سيرحم الله فيه عباده المؤمنين، ويهدد المشركين والكافرين ببيان العذاب الذي سيحقيق بهم في ذلك اليوم. وقد دلّ سياق قصة مريم التي سميت السورة باسمها على هذه الحقائق أشدّ الدلالة.

رابعاً: وختمت السورة بذكر أعظم فرية افتراها الإنسان على ربه عزّ وجلّ، وهي ادّعاء أن الله تعالى ولدأ، وقد ردّها السياق من خلال بيان القدرة الكاملة لله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۝٩٩ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝١٠٠ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَذَا ۝١٠١ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝١٠٢ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝١٠٣ إِن كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝١٠٤ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝١٠٥ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ

== تعالى على نعمته ورحمته وكمال قدرته، وذلك في السورة التي سميت بـ «آل عمران» الذين تنتسب مريم إليهم: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ سَوَاءٍ الْمَلَائِكَةِ ۝١٦ يَمْرُؤُا أَفَتُبَيِّنُ لِرَبِّكِ وَأَسْمُوِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ ۝١٧﴾.

فَرَدًّا ﴿١٠٠﴾، وذكر هذه الفرية متسق تماماً مع قصة مريم التي بينت براءتها وابنتها من أيّ فرية تدور حول إشراكهما في الإلهية. ومتسق مع باقي القصص التي تثبت أن الله وحده الخالق الوهاب القادر، فكما بين السياق في تلك القصص كمال قدرة الله وشمول رحمته وعلمه، وهي أمور لا يملك منها عيسى وأمه شيئاً ولا حتى أحد من الخلق، ثبت أنه تعالى هو وحده المستحق للعبادة بلا شراكة من صاحبة أو ولد، وكذلك هنا في ختام السورة جاء الردّ على هذه الفرية بنفس الأسلوب.

وكما افتتحت السورة بذكر رحمة الله وكمال قدرته، ختمت كذلك بذكر رحمة الله وكمال قدرته: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ يُخَشِئُهُمْ مِّن أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾.

وهكذا التقى افتتاح هذه السورة مع ختامها على حقيقة التوحيد، الذي دلّت عليه قصة «مريم» التي سمّيت السورة باسمها أبلغ الدلالة.



سورة مريم

سورة تنزيه الله عن صاحبة والولد والشريك، بل هو وحده الخالق الوهاب القادر

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٥)

المقدمة التي تثبت أن الله وحده الخالق الوهاب القادر:

■ افتتحت السورة ببيان أن الله سمع نداء زكريا عليه السلام الخفي، وأنه قد أجاب دعاءه بأن بشره بغلام اسمه يحيى لم يجعل له من قبل سمياً.

■ وقد كان زكريا عليه السلام حينها قد بلغ من الكبر عتياً، وامراته عاقر: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَٰئِنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۖ﴾.

■ وأثبتت قصته أيضاً قدرة الله على البعث كما هو قادر على الخلق: ﴿وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۖ﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٦-٥٨)

قصص قرآني متعدد يثبت رحمة الله وكمال قدرته، وأنه وحده الخالق الوهاب:

■ بينت قصة مريم عليها السلام أن الله منزه عن صاحبة والولد، وأثبتت أنه وحده الوهاب القادر الخالق، فقد أرسل جبريل إلى مريم ليهب لها غلاماً زكياً دون زوج: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَٰئِنٍ وَلَنَجْعَلَ لَآيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۖ﴾.

■ ومن مظاهر قدرة الله أن الله أكرمها بأن جعل تحتها سرياً، وجعل النخلة تساقط عليها رطباً جنيّاً.

■ وقد أنطق الله عيسى عليه السلام في المهد قائلاً: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ﴾. وكذلك قصة إبراهيم عليه السلام تدعو إلى التوحيد وتنفي الشريك عن الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتِيكُم تَبَدُّلٌ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۖ﴾.

■ ومما يثبت أن الله هو الخالق الوهاب في هذه القصة قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَغْرَقَهُمُ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكَوَلَّا جَعَلْنَا نِسَاءَ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُم لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۖ﴾.

■ وقد أشار السياق إلى بعض الأنبياء مؤكداً أن الله هو الوهاب، فقد جعل موسى عليه السلام مخلصاً وأرسله مؤيداً بأخيه هارون عليه السلام. وقد جعل إسماعيل عليه السلام نبياً، ومدحه بأنه كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وقد جعل الله إدريس صديقاً نبياً ورفع مكاناً علياً.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٥٩-٨٧)

تعقيب على القصص يقرّر حقيقة التوحيد، ويهدّد الكافرين الذين حادوا عن جادة الأنبياء:

■ ثم عقب السياق بالنعي على الكافرين الذين حادوا عن دعوة الأنبياء: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ٥٩﴾.

■ ورد السياق على مَنْ زعم عدم قدرة الله على البعث: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ٦٠ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ٦١﴾.

■ ومما يؤكد كمال قدرته تعالى على البعث والجزاء بيان مصير المتقين ومصير المجرمين يوم القيامة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ رَأَوْا النَّارَ ٨٥ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا ٨٦﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٨٨-٩٨)

الخاتمة التي تؤكد تنزيه الله تعالى عن الصاحبة والولد والشريك:

■ ردت على مَنْ زعم أن الله قد اتخذ ولداً: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ٨٨ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ٨٩ نَكَادُ السَّمَوَاتِ يَنْقَطِعْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ٩١ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢﴾.

■ وكما افتتحت السورة بذكر رحمة الله وكمال قدرته للتأكيد على أنه وحده الإله القادر، ختمت بالموضوع ذاته: ﴿إِنَّ الْذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ٩٣ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ لِبَلَاغِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ٩٤ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرُونٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ٩٥﴾.

سورة طه

﴿طه﴾ ١ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ٢ إِلَّا نَذِيرًا لِمَنْ يَخْشَى ٣ تَزِيلًا ٤ مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْأُولَى ٥ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ٦ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ٧ وَإِنْ يُجَهَرِ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَالْأَخْفَى ٨ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ٩

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سميت هذه السورة من حرفي اللغة العربية المذكورين أولها، وهما حرفا الطاء والهاء، وقد لا نقف على حقيقة معناهما، لكن من الممكن إدراك بعض مدلولاتهما، فقد قيل إنهما حرفان يشيران إلى إعجاز القرآن من حيث إنه مكوّن من مثل هذه الأحرف، ومع ذلك يعجز البشر عن الإتيان بسورة من مثله، وقيل بالإضافة إلى ما سبق: إن السور التي ذكر حرف (الطاء) في أولها، كلها تضمّ قصة موسى عليه السلام بتفصيل، وكأن الطاء في هذه السورة إشارة إلى الطور، والهاء إشارة إلى هارون عليه السلام^(١)، أقول: بعد تتبعي للكلمات التي دُكر في أولها هذان الحرفان في هذه السورة، وجدتُ أنه من الممكن أيضاً اعتبار حرف الطاء إشارة إلى طغيان الإنسان إذا أعرض عن هدى الوحي، واعتبار الهاء إشارة إلى الهدى الذي جاء به الوحي إلى الإنسان، وسأذكر تفصيل ذلك مبيناً تناسبه مع محور السورة.

أقول بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم هذه السورة ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن مقصود هذه السورة الإعلام بامهال المدعوين والحلم عنهم والترفق بهم إلى أن يكونوا أكثر الأمم، وفي هذا زيادة في شرف داعيهم ﷺ، وذكروا أن

(١) ينظر شيء من التفصيل حول حروف فواتح السور: د. أحمد نوفل، تفسير سورة القصص، دراسة تحليلية موضوعية، ص ١١-٢٨.

السورة تبين وظيفة النبي ﷺ وحدود تكاليفه، فليست رسالته شقوة كتبت عليه ولا عناء، إنما هي التذكرة والدعوة والتبشير والإنذار، وقد تضمنت قصة موسى عليه السلام رعاية الله له ولقومه، وكذلك تضمنت قصة آدم عليه السلام رعاية الله له بعد خطيئته، وكما بينت السورة نصر سيدنا موسى على معانديه، فهي بذلك تعرض بنصرة سيدنا محمد ﷺ على معانديه، والسورة يظللها ظلّ علوي جليل يخلعه تجلّي الرحمن على الوادي المقدّس على عبده موسى، وهو الظلّ الذي يخلعه تجلّي القيوم في موقف الحشر العظيم، هذا الظلّ يجعل جوّ الرحمة سائداً في موضوعات السورة كلها^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان أن الرسالة الإلهية للبشر ليست سبباً لشقاء الرسول أو المرسل إليهم، بل هي سبيل الهدى، وأن من يُعرض عن هدى الرسالة الإلهية يعرض نفسه للطغيان والشقاء. ولما كان - من وجهة نظري - حرف الطاء يشير إلى طغيان الإنسان إذا أعرض عن هدى الله، وحرف الهاء يشير إلى هدى الله، ذكرنا في أول السورة وجعل منهما اسماً للسورة للدلالة على المحور المذكور. وكان (طه) تشير إلى طغيان البشر في مقابل هدى الله.

وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان طغيان من أعرض عن هدى الله.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

(١) ينظر: البقاعي، نظم الدرر، ج ٥، ص ٣ و ٤، وقد اعتبر حرف الطاء الذي هو من حروف الاستعلاء مشيراً إلى قوة أمره ﷺ وانتشاره، والهاء الذي مخرجه أقصى الحلق من الجوف مشيراً إلى اشتهاه أمره ﷺ، وذكر وجوهاً أخرى، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٣٢٦ و ٢٣٢٧، وقد اعتبر حرفي الطاء والهاء يدلان على إعجاز القرآن من حيث إنه مكوّن من مثل هذه الأحرف، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ١٨١-١٨٣، ورأيه في (طه) كراي سيد قطب، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٤، ص ٤٨٥-٤٩٥، وقد اعتبروا (طه) نداء للنبي ﷺ، وحنان اللحام، أضواء وتأملات في سورة طه، ص ١١-١٩. وقد اعتبرت (طه) نداء للنبي ﷺ، وعطية زاهدة، فواتح السور والحروف السبعة، ص ٨٠، وقد اعتبر حرف الطاء مشيراً إلى القَسَم بجبل الطور الذي أقسم الله به وجعل له سورة خاصة، والهاء مشيراً إلى القَسَم بالهدى نظراً لتكرار ذكره في السورة. وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهن بالدراسة.

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة موضوعات، أولها: مقدّمة تبين أن القرآن تذكرة ورحمة للنبي ﷺ وللمؤمنين وليس سبباً للشقاء، وثانيها: قصة إرسال موسى عليه السلام بالهدى إلى فرعون الذي طغى، وقصته مع قومه من بني إسرائيل، وثالثها: تعقيب إلهي على القصة يعرض شقاء المكذّبين وسعادة المؤمنين يوم القيامة، ورابعها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق^(١).

أولاً: جاء في مقدّمة السورة بيان أن الرسالة الإلهية ليست سبباً لشقاء الرسول أو

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٨، وقصة موسى عليه السلام مع فرعون: ٩-٧٩، وقصته مع قومه: ٨٠-٩٨، والتعقيب على القصة: ٩٩-١٢٩، والخاتمة: ١٣٠-١٣٥. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة بحرف الطاء، فهذه السورة هي أكثر سورة ذكرت فيها مشتقات الجذر (طغى) بصيغة الفعل، وإليك التفصيل: (أ) لم يتكرر الفعل الماضي (طغى) في القرآن إلا في سورتي طه: ٢٤، ٤٣، والنازعات: ١٧، ٣٧، (ب) لم تذكر عبارة (لا تطغوا) في القرآن إلا في ثلاث سور طه: ٨١، هود: ١١٢، الرحمن: ٨، (ج) لم يذكر الفعل المضارع (يطغى) إلا في سورتي طه: ٤٥، والعلق: ٦، وبإمكانك أن تضيف أيضاً أن هذه السورة مع سورة مريم هما السورتان الوحيدتان اللتان ذكر فيهما عبارة ﴿الطُّورِ الْاَيْتِنِ﴾، طه: ٨٠، ومريم: ٥٢، والتفصيل في تحديد موقع المناجاة يؤكّد كون الوحي الإلهي هدى للناس، ثم إن سورة طه هي أكثر سورة ذكرت فيها مشتقات الجذر (طرق)، وذلك ثلاث مرات، منها مرتان تؤكّدان شقاء من أعرض عن هدى الوحي: ﴿رَبِّذْهَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُتَّحِقِ﴾: ٦٣، و ﴿إِذْ يَقُولُ آمَنَّاكَمْ طَرِيقَةً إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾: ١٠٤، ومرة تؤكّد أن الرسالة الإلهية سبب السعادة وليست للشقاء: ﴿فَأَضْرَبَ لَهم طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا غَثًّا﴾: ٧٧، ومن اللطيف أن عبارة (طلوع الشمس) لم تذكر إلا في سورتي طه: ١٣٠، وق: ٣٩، وكذلك عبارة ﴿وَطَرِيقًا يَخَصِّمَانِ﴾ لم تذكر إلا في سورتي طه: ١٢١، والأعراف: ٢٢، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بحرف الهاء، (أ) فهذه السورة هي أكثر سورة ذكر فيها الفعل الماضي (هدى) وذلك ثلاث مرات، منها مرتان تنسب الهدى لله تعالى: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾: ٥٠، و ﴿ثُمَّ أَجَبْتَهُ رَبُّهُ فَتَبَّ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾: ١٢٢، والثالثة تنفي الهدى عن فرعون: ﴿وَأَسَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾: ٧٩، (ب) هي السورة الوحيدة التي تكرر فيها الفعل الماضي (اهتدى): ٨٢، ١٣٥، (ج) لم تذكر كلمة (هداي) في القرآن إلا في سورتي طه: ١٢٣، والبقرة: ٣٨، وهما في سياق الحديث عن هبوط آدم عليه السلام من الجنة، وبإمكانك أن تضيف أن هذه السورة هي أكثر سورة ذكر فيها (هارون) عليه السلام: ٣٠، ٧٠، ٩٠، ٩٢، وذلك يؤكّد أن الرسالة الإلهية هدى من الله، وأن من يعرض عنها يتعرض للطغيان، وهي السورة الوحيدة التي وصف فيها المعرض عن الله بالفعل (هوى)، طه: ٨١، ولم يذكر هذا الفعل مرة أخرى إلا في سورة النجم: ١، وهي السورة الوحيدة التي ذكرت فيها عبارة ﴿لَاؤُلَى الَّذِينَ﴾ لوصف المهتدين: ٥٤، ١٢٨، ومن اللطيف أنها السورة الوحيدة التي ذكرت فيها كلمة ﴿وَأَهْلُ﴾: ١٨، و ﴿مَسَا﴾: ١٠٨، و ﴿مَضْمَا﴾: ١١٢. وهي متناسقة مع حرف الهاء في اسم السورة، ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

المرسل إليهم، بل هي سبيل الهداية والسعادة: ﴿طه ١﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۝ إِلَّا نَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى ۝ ٢ تَزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ ۖ أَلَعَلَّ ٣ الرَّحْمَنَ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى ۝ ٤ لَمْ يَأْكُلْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِمَّا يَنْهَنُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ۝ ٥﴾ ، فالقرآن لم ينزل ليكون سبباً لشقاء النبي ﷺ، بل إنه نزل بالهدى ليكون تذكرة لمن يخشى، ولاحظ ذكر بعض صفات الله تعالى للتأكيد على أن وحيه هو الهدى، فإذا كان هدى الله هو الرحمة والتذكرة، فقد ثبت أن من يعرض عن هدى الله يعرض نفسه للطغيان والشقاء، وهذا ما يشير إليه الحرفان الطاء والهاء، والله أعلم، فحرف الطاء يشير إلى طغيان البشر إذا أعرضوا عن هدى خالق البشر، وهو ما يشير إليه حرف الهاء.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى قصة موسى عليه السلام الذي أرسل بالهدى إلى فرعون الذي طغى، وهي تبتدئ من مشهد المناجاة في الوادي المقدس طوى: ﴿وهل أتنك حديث موسى ١﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ٢ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ بِمُوسَى ٣ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ٤ وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ٥ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ٦﴾ ، ولاحظ بدء عرض قصته عليه السلام من مشهد المناجاة، للتأكيد على أن إرسال الأنبياء هو سبيل الهدى والسعادة، وكأن السياق يقول: إن من أنزل القرآن عليك يا محمد (ﷺ) وجعله هدى للناس وسبيل سعادتهم، هو من أرسل موسى ليحقق الهدى والسعادة ويرفع الشقاء عن بني إسرائيل، ولو آمن فرعون لكان ممن تحقق له ذلك، ويلاحظ أيضاً أن هذا المشهد هو الأطول في القرآن فيما يتعلق بالمناجاة، وذلك يضيف جو الرحمة على السورة، ويزيد من التأكيد على المحور المذكور.

ثم انتقل السياق إلى مشهد مقابلة موسى وهارون لفرعون: ﴿أذهباً إلى فرعون إنه طغى ١﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ٢ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَنْ يَقْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ٣ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ٤ فَأَنبَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَغَدِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٥﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ٦﴾ ، ولاحظ وصف فرعون بالطغيان، ليتناسب

ذلك مع ما سيأتي من إصراره على طغيانه حتى نزل به الشقاء، ولاحظ قول موسى ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَقَوْلُكَ ۖ﴾، وهو قول يعبر عن محور السورة بوضوح تام، وقد بين السياق إصرار فرعون على طغيانه، حتى ادعى أن ما جاء به موسى هو مجرد سحر، وقد هدد بقتل السحرة لما آمنوا بصورة شنيعة.

ومن اللطيف أن السياق في هذه السورة قد فصل في كلام السحرة المؤمنين بعد تهديد فرعون لهم ما لم يذكر في سورة أخرى، وقد كان قولهم يؤكد حقيقة أن السعادة الأبدية لمن اتبع الهدى من الله، وأن الطغيان والشقاء لمن أصر على إعراضه عن الهدى: ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَلَيْنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَبَقِي ۖ﴾ (٧٣) ﴿إِنَّكُمْ مِنْ يَأْتِ رَبُّكُمْ مُجْرِمًا فَإِنْ لَمْ يَجْهَنَّمْ لَأَ يَمُوتْ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۖ﴾ (٧٤) ﴿وَمَنْ يَأْتِيهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ۖ﴾ (٧٥) ﴿جَنَّتْ عَدْنٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ۖ﴾ (٧٦)، ثم بين السياق كيف كان إرسال موسى عليه السلام رحمة لبني إسرائيل، فقد رفع الله عنهم الشقاء، وأهلك عدوهم الطاغية.

ثم انتقل السياق إلى عرض أحداث حصلت مع موسى بعد النجاة من فرعون وقومه: ﴿يَبْقَىٰ إِسْرَءِيلَ قَدْ أَجْمَعْتُمْ مِّنْ عُدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَكُمْ جَانِبَ الْفُورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوىٰ ۖ﴾ (٨٠) ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ۖ﴾ (٨١) ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ۖ﴾ (٨٢)، ولاحظ أن السياق اعتبر الإعراض عن هدى الوحي طغياناً يستحق الغضب من الله، وأن من يحلل عليه غضب الله فقد هوى، وأن اتباع الوحي والتوبة والعمل الصالح سبيل الاهتداء.

وأما الحدث الأهم الذي عرضه السياق والذي يؤكد حقيقة أن الإعراض عن هدى الوحي يعرض الإنسان للطغيان، فقد كان عبادة بني إسرائيل للعجل، وقد فصلت هذه السورة في عرض هذا الحدث ما لم يفصل في سورة أخرى، وبين السياق أن هارون قد دعاهم إلى اتباع هدى موسى^(١)، لكنهم أعرضوا عنه حتى استحقوا الغضب من الله، وقد

(١) من اللطيف أن عبارة ﴿يَتَنَوَّمُ﴾ جاءت في هذه السورة متصلة مع ذكر حرف النداء، بينما في سورة الأعراف جاءت منفصلة ﴿قَالَ إِنَّ أُمَّ﴾، والاستعطاف بذكر حرف النداء مع الرسم المتصل في سورة طه متلائم مع جو الرحمة السائد فيها. والجمع بين العبارتين يكون بالقول بأن هارون عليه السلام قد قال هذه العبارة مرتين بهاتين الصورتين، وقد أثبت القرآن في كل سورة الصورة الملائمة لها.

بيّن السياق كيف أن السامريّ المعرض عن الهدى الذي جاء به موسى قد أضلّ قومه وعرضهم للطغيان فعبدوا العجل: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِرُ﴾ ٩٥ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ ٩٦ ﴿قَالَ فَأَذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ ٩٧ ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ٩٨ ، ولاحظ أن إعراضه وطغيانه قد ألحق به الشقاء في الدنيا والآخرة. إن التفصيل في عرض هذا الحدث ليؤكد المحور المذكور للسورة ودلالة اسمها عليه.

ثالثاً: ثم ذكر السياق تعقيباً إلهياً على هذه القصة يؤكد محور السورة، وذلك ببيان شقاء من يعرض عن هدى الوحي وبيّن سعادة من اتبع الهدى في يوم القيامة: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ ٩٩ ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ ١٠٠ ﴿خَلِيدٍ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِجْلًا﴾ ١٠١ ﴿يَوْمَ يُفْعُ فِي الصُّورِ وَتَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرًّا﴾ ١٠٢ ، وأما مصير المؤمنين: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلُمًا وَلَا هَضْمًا﴾ ١٠٣ .

وقد جاء في هذا التعقيب بيان لما حصل مع آدم عليه السلام حين كان في الجنة، وبيّن أن نزوله من الجنة كان بسبب أكله من الشجرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى فَقُلْنَا يَنْتَادِمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ ١٢٧ ﴿إِنَّ لَكَ أَلًا تَجُوعُ فِيهَا وَلَا تَعْرِى﴾ ١٢٨ ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ ١٢٩ ﴿فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَنْتَادِمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى﴾ ١٣٠ ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ١٣١ ، وقد بيّن السياق بعد ذلك أن الله تعالى سينزل الوحي على الأنبياء ليحقق السعادة لمن آمن، ويحقق الشقاء لمن أعرض: ﴿ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَأَبَى عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ ١٣٢ ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ ١٣٣ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ ١٣٤ .

فموضوعات السورة كما ترى تدور حول محور واحد، وهو بيان أن من يتبع هدى الوحي فله السعادة، وأن من يعرض عن هدى الوحي يعرض نفسه للطغيان والشقاء، وهو ما يشير إليه الحرفان: طه. والله أعلم.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التذكير بأن الوحي الإلهي ليس سبباً لشقاء النبي ﷺ وَمَنْ آمَنَ مِنْ أُمَّتِهِ: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ (٢٣٦) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (٢٣٧) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (٢٣٨).

وكما افتتحت السورة ببيان أن هدى الرسالة الإلهية للناس هو سبيل السعادة، وأن من أعرض عنه فقد عرّض نفسه للطغيان، ختمت بتهديد ضمني بوقوع الهلاك على من أعرض عن الهدى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ (٢٣٩) قُلْ كُلُّ مُرَيْضٍ فَتْرِيضُوهُ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ (٢٤٠)، ولاحظ ذكر كلمة (الصراط) و (اهتدى) اللتين تشيران إلى أن من اتبع الهدى فهو على صراط سوي، فهما منسجمتان مع حرفي الطاء والهاء أول السورة. وهكذا التقى البدء والختام على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة طه

سورة بيان طغيان من أعرض عن هدى الله عز وجل

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٨)

المقدمة التي تبين أن القرآن تذكرة ورحمة للنبي ﷺ وللمؤمنين، وليس سبباً للشقاء:

■ أشار الحرفان (طه) اللذان جعل منهما اسماً للسورة إلى طغيان البشر إذا هم أعرضوا عن هدى خالق البشر سبحانه وتعالى.

■ وبينت المقدمة أن القرآن الذي هو وحي الله والذي فيه الهدى ليس سبباً للشقاء، بل هو تذكرة ورحمة: ﴿طه ١﴾ مَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۖ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن يَخْشَى ۚ ﴿٢﴾ تَزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْأُولَى ۚ ﴿٣﴾

■ فإذا ثبت أن هدى الله هو الرحمة والتذكرة فقد ثبت أيضاً أن من أعرض عنه عرض نفسه للطغيان والشقاء.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٩-٩٨)

قصة إرسال موسى عليه السلام بالهدى إلى فرعون الذي طغى، ثم قصته عليه السلام مع قومه من بني إسرائيل:

■ عرض السياق مشهد مناجاة الله تعالى لموسى عليه السلام في الوادي المقدس طوى، وهذا أطول مشهد متعلق بالمناجاة في القرآن، مما يؤكد أن الوحي من الله للأنبياء هو الهدى وسبيل الرحمة: ﴿وَأَنَا اخْرَجْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿٩﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٠﴾﴾

■ ثم عرض السياق مقابلة موسى وهارون عليهما السلام لفرعون الذي طغى، وقد أصر على إعراضه عن الهدى: ﴿وَأَنَا اخْرَجْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٢﴾﴾

■ بين السياق موقف السحرة الذين آمنوا واتبعوا الهدى، ونالوا بذلك السعادة الأبدية: ﴿إِنَّهُمْ مِّن يَّاتٍ رَبِّهِمْ تُجْرِمًا ﴿١٣﴾ فَإِنَّ لَّهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مَوْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْأُولَىٰ ﴿١٥﴾﴾

■ ثم عرض السياق قصة موسى عليه السلام مع قومه بعد الخروج من مصر، وقد بين السياق تحذير الله إياهم من الطغيان بإعراضهم عن الهدى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿١٦﴾﴾

■ وعرض السياق طغيان بني إسرائيل حينما أطاعوا السامري المعرض عن الهدى، فعبدوا العجل الذي أخرجه لهم، ولم يلتفتوا إلى تحذير هارون عليه السلام المتكرر طالباً منهم التزام الهدى الذي جاء به موسى عليه السلام.

الموضوع الثالث (الآيات: ٩٩-١٢٩)

تعقيب إلهي على القصة بعرض شقاء المكذبين وسعادة المؤمنين يوم القيامة:

■ عرض السياق مصير المكذبين بالهدى يوم القيامة: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۖ خَلِيدٍ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ۝﴾.

■ وعرض مصير المؤمنين المتبعين للهدى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ۝﴾.

■ وبين السياق أن سبب هبوط آدم وزوجه من الجنة أنهما خالفا أمر الله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ۝﴾.

■ وقد عقب السياق على القصة ببيان أن الشقاء لمن أعرض عن هدى الله، والسعادة لمن التزم به: ﴿قَالَ أَطِيعُوا اللَّهَ أَطِيعُوا مِنِّي جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِنَّمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّخَذُوا هُدًى مِّنْ رَبِّهِمْ وَأَتَّخِذُوا لِيَاسًا ۝﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ١٣٠-١٣٥)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت التذكير بأن الوحي الإلهي ليس سبباً لشقاء النبي ﷺ، ولا لمن آمن من أمته: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۝﴾.

■ وكما افتتحت السورة ببيان أن هدى الوحي إلى الناس هو سبيل السعادة، وأن من أعرض عنه فقد عرّض نفسه للطغيان، ختمت بتهديد ضمني بوقوع الهلاك على من أعرض عن الهدى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ ۝﴾ قُلْ كُلُّ مُرْتَضًى فَرَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ۝﴾.

سورة الأنبياء

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى حديثها عن عدد من الأنبياء تعرض فيه مدى كفاحهم في دعوة أقوامهم بالحجج العقلية، وإنذارهم بالدار الآخرة، ومدى صبرهم على الأذى، ومدى حكمتهم في الحكم بين الناس بهدى الله، فاسم السورة - وإن لم يذكر صراحة فيها - يشير إلى مهمة الأنبياء ويرغب في اتباعهم واتخاذهم قدوة للوصول إلى الفلاح.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة استعراض لطبيعة الدعوة والمدعوين، فهي تدل على أن اتباع طريق الأنبياء يخرج الناس من غفلتهم عن الآخرة، ويوصلهم إلى الرفعة في الدارين، كما وتعرض السورة النواميس الكبرى في الكون، وتربط العقيدة بهذا الحق الذي قامت عليه السماوات والأرض، فهي بذلك توجه أنظار الناس إلى وحدة الخالق المدبر للكون والمالك الذي لا شريك له، وهي معانٍ تتجلى في صورة وقائع في حياة الرسل والدعوات^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال إقامة الأدلة والحجج العقلية على صفات الإلهية من خلقٍ وبعثٍ ومُلكٍ وكمالٍ قدرةٍ وشمولٍ علمٍ لله تعالى وحده، ولما كان الأنبياء هم الذين يندرون الأقوام

(١) ينظر: الفيروزآبادي، البيان بمقاصد سور القرآن، ص ٦٨، والمهايمي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٢٨، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٥، ص ٦٣، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٣٦٤-٢٣٦٦، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٧، ص ٦، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٥، ص ٢، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ص ٢٥٣-٢٥٨، ووادي، ومنها، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ١٥٤-١٥٩.

بالآخرة، وهم الذين يدعون إلى التوحيد بمختلف الأدلة، وهم أكثر الناس صبراً وحكمة، سميت السورة بهم للدلالة على المحور المذكور وللتغريب بالاقتداء بهم. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان جهد الأنبياء في الدعوة إلى التوحيد والإنذار بالآخرة بالحكمة والصبر وإقامة الأدلة والحجج، وما يؤازر دعوتهم من دلائل عظمة الله في خلقه.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام: أولها: مقدّمة تعرض موقف الرسل بإنذار الناس بالآخرة، وموقف الأقوام بالكذب مع بيان مصيرهم، وثانيها: مؤازرة دور الأنبياء بإثبات أن الله وحده هو الإله المعبود بحق بالأدلة العقلية، من خلال عرض لبعض مظاهر عظمته في الكون، مع بيان موقف المكذبين من ذلك ومصيرهم، وثالثها: عرض قصصي يدعو إلى التوحيد بالأدلة العقلية، ورابعها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق^(١).

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-١٥، وعرض الأدلة العقلية: ١٦-٤٧، والعرض القصصي: ٤٨-٩٤، والخاتمة: ٩٥-١١٢. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، فقد كثرت فيها الأدلة العقلية الداعية إلى التوحيد، من ذلك: أ) قوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾: ٤، وقوله ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا نَكْتُمُونَ﴾: ١١٠، لم يتكررا في القرآن بالصيغة ذاتها، وانظر قريباً منهما في سورة الرعد: ١٠، ٣٣، وطه: ٧، ب) وكذلك قوله ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ﴾: ١٦، لم يذكر في موضع آخر إلا في سورة الدخان: ٣٨ (السموات) بدلاً من (السماء)، علماً بأنهما تشتركان في قوله في سورة الأنبياء: ﴿إِلَّا أَسْتَعِزُّهُمُ وَيَوْمَ يَلْعَبُونَ﴾: ١، وفي سورة الدخان ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾: ٩، ج) قوله ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَكُمُ لَآخِذَةً مِنْ لَدُنَّا لَإِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾: ١٧، لم يتكرر، والسورة كذلك اختصت بوصف المكذّبين بوصفهم بأنهم: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾: ٣، فلم يتكرر بهذه الصيغة، د) وكذلك قوله ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾: ١٨، وقريب منه في سورة سبأ: ٤٨، والإسراء: ٨١، هـ) هي أكثر سورة تكررت فيها كلمة «آلهة» لدحض الشرك، واليك التفصيل: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنْ الْأَرْضِ هُمْ يُبْشِرُونَ﴾: ٢١، لم يتكرر، وكذلك قوله ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾: ٢٢، وقوله ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَهُمْ﴾: ٢٤، وقريب منه في سور الكهف: ١٥، وقوله ﴿أَمْ هُمْ إِلَهٌ تَمَتَّعُ مِنْ دُونِنَا﴾: ٤٣، لم يتكرر، وكذلك قوله ﴿لَوْ كَانَتْ هُنَّ آلِهَةٌ مَا وَدَّعَاهَا﴾: ٩٩، و) قوله ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْ رِقَاعًا فَتَفْتَقَتُمَا﴾: ٣٠، لم يتكرر، وكذلك قوله ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾: ٣٠، وقريب منه في سورة النور: ٤٥، ز) قوله ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِالْأَيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾: ٤٢، لم يتكرر، ح) وكذلك قوله ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾: ١٠٤، وقريب منه في سورة الزمر: ٦٧، ط) قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام ﴿قُلْنَا يَنْتَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾: ٦٩، لم يتكرر كذلك. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

أولاً: جاء في مقدمة السورة عرض لإنذار الأنبياء أقوامهم بالآخرة، وهي من أدلّ الدلائل على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته، ولكن الأقوام لاهون عنها، ومكذبون بأنبيائهم: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ① ما يأتيهم من ذكرٍ من ربهم تُخَدِّثُ إِلَّا أَسْمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ② لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ③ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ④ بَلْ قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَمٍ بَلْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِزْنَا بِشَايَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْآلُوكُونَ ⑤، فالأنبياء ينذرون أقوامهم بالآخرة، ولكن المكذّبين منشغلون عنها باللعب واللهو، ولاحظ بيان النبي أن الله يعلم القول في السماء والأرض، وفي ذلك دليل على تفرده بالإلهية، ولاحظ تردّد الأقوام في شبهاتهم بتكرار «بل» ثلاث مرات في قولهم.

ثم بيّنت المقدمة طبيعة الأنبياء للردّ على الشبهات السابقة، فما هم إلا رجال يوحى الله إليهم بالهدى، ومن ضمن الهدى الذي أوحى إليهم أن الله سيهلك المكذّبين وينجي المؤمنين، فمقدمة السورة تعرض بشكل موجز مهمة الأنبياء الذين يدعون أقوامهم بالأدلة والحجج، ولكن المكذّبين يصرون على اللهو واللعب حتى استحقوا العذاب.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض الأدلة العقلية والحجج الباهرة لإثبات تفرّد الله تعالى بصفات الإلهية، وهو بذلك يوازر دور الأنبياء الذين يدعون إلى التوحيد بمختلف الأدلة والحجج: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ﴾ ⑥ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًَا لَأَتَّخِذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ⑦ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ⑧ وَلَكُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ⑨ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ⑩ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُبْشِرُونَ ⑪ لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبِّحْنَا اللَّهَ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ⑫، فالله وحده هو الخالق، وهو الحقّ وكل ما عُبِدَ من دونه باطل، والملائكة عباد له مسبحون له، فليسوا آلهة كما يزعم المشركون، ولاحظ بيان أنه لا أحد له القدرة على النشور سوى الذي خلقهم أول مرة، فهو وحده إله الكون.

ومن الأدلة العقلية التي أيد الله بها سيّدنا محمداً ﷺ قوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾،

فهو ﷺ يدعو قومه بالحق الذي أرسله الله به والأنبياء من قبله، ولكن أكثر الأقوام معرضون عن الحق.

وانظر هذين الدليلين: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾، فمن يستطيع أن ينكر الخالق العظيم الحكيم بعد هذا البيان، إلا من عاند واستكبر عن الحق، وقد عرض السياق من الأدلة أيضاً أن الله هو الذي جعل السماء سقفاً محفوظاً، وهو الذي خلق الليل والنهار، وهو الذي يكلاً الخلق بالليل والنهار، وهو المحيي المميت، ولكن المكذّبين يُعرضون عن هذه الآيات وينكرون الآخرة، ولذلك عرض السياق مصيرهم يوم القيامة ليكون ذلك أبلغ ردّ عليهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٢٤﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى عرض قصصي يؤكد ما تقدّم من إقامة الأدلة والحجج على تفرّد الله بالإلهية، وقد ابتدأ السياق بقصة إبراهيم عليه السلام، الذي يزعم المشركون كذباً انتماءهم الديني إليه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عِيدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَشْءَ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾، إن محاورته مع قومه تؤكد ما سبق من بيان أن الآلهة التي يعبدها المشركون لا تملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ولا تمنعهم من بأس الله، وبذلك يثبت أن الله وحده فاطر السماوات والأرض هو المستحق للعبادة.

ولكي يؤكد السياق ذلك، عرض كيف حطّم إبراهيم أصنامهم التي لم تدفع عن نفسها شيئاً، في مقابل أن ربّ إبراهيم أنقذه من النار وجعلها برداً وسلاماً عليه، وفوق ذلك أكرمه بذرية صالحة وجعلهم أئمة يهدون بأمره ووحيه، وهذا أبلغ دليل عقلي على تفرّده تعالى بصفات الإلهية، ومما يؤكد ذلك أيضاً بيان أن الله تعالى أنجى لوطاً من القرية التي كانت تعمل الخبائث، وكذلك أنجى نوحاً من الطوفان الذي أغرق الكافرين.

ومما يؤكد كمال قدرته سبحانه أنه سخر لداود الجبال والطير يسبحن معه لله، وسخر

لسليمان الريح والشياطين، وقد كشف الضرّ عن أيوب، وآتاه أهله ومثلهم معهم رحمة من عنده، وأدخل إسماعيل وإدريس وذا الكفل في رحمته أيضاً وجعلهم من الصالحين، وأنجى يونس من بطن الحوت حينما ناداه في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانه إني كنت من الظالمين، ووهب لزكريا يحيى وأصلح له زوجه، وخلق عيسى في رحم مريم بلا أب، كل ذلك يؤكّد تفرد الله تعالى بصفات الإلهية كما لا يخفى، ولذلك اختير من عرض قصصهم عليهم السلام جميعاً ليكون اسماً للسورة ليدل على المحور المذكور.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التحذير من الآخرة التي يُنذَرُ بها الأنبياء بذكر بعض علاماتها: ﴿وَحَرَّمْ عَلَى قَرَبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٩٥) حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ .

وأعادت التأكيد على بطلان الشرك بالأدلة العقلية: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ (٩٨) لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ إِلَهًا مَا رَدُّوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ .

وأعادت التأكيد على تفرد الله تعالى بصفات الإلهية من خلال الأدلة العقلية أيضاً، مع التأكيد على فلاح المؤمنين بدعوة الأنبياء: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (١٠٤) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ .

وكما افتتحت السورة ببيان غفلة الناس عن الآخرة التي ينذر بها الأنبياء أقوامهم، وبيانها تفرد الله بصفات الإلهية، ختمت بالتحذير من الآخرة التي يحذر بها سيدنا محمد ﷺ قومه، مع التأكيد على تفرد الله بصفات الإلهية: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرَى أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةً لَّكُمْ وَمَتَّعَ إِلَى حِينٍ ﴿١١١﴾ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ .

وبذلك التقى البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة الأنبياء

سورة بيان جهد الأنبياء في الدعوة إلى التوحيد والإنذار بالآخرة بالحكمة والصبر وإقامة الأدلة والحجج، وما يوازر دعوة الأنبياء من دلائل عظمة الله في خلقه

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٥)

المقدمة التي تعرض موقف الرسل بإنذار الناس بالآخرة، وتعرض موقف الأقوام بالكذب مع بيان مصيرهم:

■ افتتحت السورة بالتحذير من الآخرة وبيان غفلة الناس عنها: ﴿اقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُخَذِّلُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْمِزُونَ ۝﴾

■ وبيّنت المقدمة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إلى السلام قومه بالأدلة العقلية بالإضافة إلى الترهيب بالآخرة: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝﴾

■ وبيّنت المقدمة الموقف المتشابه للأقوام، إذ هم يهتمون النبي ﷺ بالسحر، وأن ما ينذر به قومه إنما هي أضغاث أحلام أو كلام مفترى أو شعر.

■ وقد بيّنت أيضاً طبيعة الأنبياء عليهم السلام، فهم رجال يوحى الله إليهم، ومن ضمن هذا الوحي أن الله سيهلك المكذبين: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَاسِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ۝﴾

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٦-٤٧)

إثبات أن الله هو المعبود بحق بالأدلة العقلية في مظاهر عظمته تعالى في الكون، مع بيان موقف المكذبين ومصيرهم:

■ إن ذكر هذه الأدلة يوازر دعوة الأنبياء إلى الله بمختلف الأدلة.

■ ومن هذه الأدلة قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَمَعِينَ ۝ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَنْزِلَهُمْ لَأَخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ۝﴾

■ ومنها بيان تفرده تعالى بالقدره على البعث والنشور: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنْ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ۝ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝﴾

■ ومنها بيان عظمة الله تعالى في خلقه: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾

■ ومنها أنه هو الذي جعل السماء سقفاً ومحفوظاً، وهو الذي خلق الليل والنهار، وهو الذي يكلاً الخلق، وهو المحيي والمميت.

■ ومما يوازر دعوة الأنبياء وإنذارهم بالآخرة أن السياق عرض مصير المكذبين بذلك اليوم: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِِهِمْ أَلْتَارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ۝﴾

الموضوع الثالث: (الآيات: ٤٨-٩٤)

عرض قصصي يدعو إلى التوحيد بالأدلة العقلية:

■ كانت أولى هذه القصص قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام، الذي حاور قومه المشركين بالأدلة العقلية: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٦﴾ ۖ ثُمَّ قَالَ: ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ ۖ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

■ ثم برزت قدرة الله في إنجاء إبراهيم عليه السلام من النار، وقد أكرمه الله بذرية صالحة أئمة يهدون بأمر الله ووحيه.

■ وقد برزت قدرة الله في إنجاء لوط عليه السلام ومن آمن معه من القرية التي كانت تعمل الخبائث.

■ وكذلك في إنجاء نوح وأهله من الكرب العظيم، وفي تسخير الجبال والطير لداود يسبحن معه، وفي تسخير الرياح والشياطين لسليمان وفي كشف الضر عن أيوب، وفي إدخال إسماعيل وإدريس وذو الكفل في رحمة الله، وفي إنجاء يونس من بطن الحوت، وقد وهب الله لزكريا يحيى وأصلح له زوجه، وقد خلق الله عيسى في رحم مريم بلا زوج، عليهم السلام جميعاً.

■ إن عرض هذه القصص ليؤكد تفرّد الله تعالى بصفات الإلهية، ولذلك اختير اسم السورة من قصصهم.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٩٥-١١٢)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت التحذير من الآخرة التي ينذر بها الأنبياء أقوامهم، فقالت عن فتح يأجوج ومأجوج المؤذن بقرب الآخرة: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا تَوَلَّوْنَا قَدًّا كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

■ وأعادت التأكيد على بطلان الشرك بالأدلة العقلية، فبيّنت أن الأصنام لا تحمي من نار جهنم يوم القيامة: ﴿لَوْ كَانَتْ هَٰؤُلَاءِ إِلَٰهَةً مَا رَدَدُوهُمْ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

■ وأعادت التأكيد على فلاح المؤمنين بدعوة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٥٠﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاءً لِّقَوْمٍ عَلِيمِينَ ﴿١٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥٢﴾﴾.

■ وكما افتتحت السورة ببيان غفلة الناس عن الآخرة التي ينذر بها الأنبياء أقوامهم، ختمت بالتحذير من الآخرة التي ينذر بها سيدنا محمد ﷺ قومه: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَذَنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَذْرَيْتُمْ أَقْرَبَ أَمْ يُعِيدُ مَا تُوْعِدُونَ ﴿١٥٣﴾ إِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْجَهَنَّمَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُونَ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١٥٤﴾ وَإِنْ أَذْرَيْتُمْ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥٥﴾ وَلَكُمْ مِّنْ رَّبِّكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ إِلَٰهَةٌ مِّن دُونِهِ ۚ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ۚ﴾.

سورة الحج

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكْفُ فِيهِ وَالْبَاءُ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَمِ يُظْلَمِ نُدَّةً مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ١٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ١٦ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ١٧ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا أَصْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكْلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ١٨ ثُمَّ لِنَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِنُؤْفِقُوا نَذْوَهُمْ وَلِنُطَوِّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ١٩﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى أمر الله تعالى نبيه إبراهيم عليه السلام بأن يؤذن في الناس بالحج، ليكون الحج مظهراً من مظاهر العبادة الدالة على التوحيد، وإلى بيان منافع الحج وبعض أحكامه، وفي ذلك ردّ على المشركين الذين جعلوا المسجد الحرام مكاناً للشرك بدلاً من أن يكون مكاناً لعبادة الله وحده.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن موضوعات هذه السورة كلها هي موضوعات التوحيد الأساسية، كإثبات البعث، وإنكار الشرك وعرض مشاهد من يوم القيامة، وعرض بعض الآيات الكونية الماثلة في الكون، وفي ذلك بيان لقدرة الله تعالى وحكمته في تشريعه، فشرع الحج يحوي عدّة معاني منها: الإخلاص في القصد، والتعظيم والاستسلام لله، والمجاهدة لأداء المناسك، وهي

معانٍ بارزة في موضوعات السورة، أكد ذلك ظلّ السورة وهو ظلال القوة والشدة والرهبة والعبر، لاستجاشة مشاعر الإيمان والتقوى والإخبات والاستسلام^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان قدرته تعالى على البعث والخلق بالبراهين العقلية، وبيان مصير المؤمنين ومصير المجادلين في الله يوم القيامة، ولما كان الحج أبرز مظهر من مظاهر التوحيد في الأرض، وأكثرها مشابهة للبعث يوم القيامة، سمّيت السورة به، للدلالة على المحور المذكور، ولعلّ ذلك يطلعنا على سِرّ اختصاصها بسجديتين.

وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة إثبات قدرة الله على الخلق والبعث بالبراهين العقلية، مما يثبت التوحيد له سبحانه، والحج أبرز مظهر للتوحيد وأشبهها بالبعث. ويتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى خمسة أقسام: أولها: مقدّمة تعرض بعض أهوال يوم القيامة للدلالة على قدرته تعالى على البعث، وثانيها: بيان مصير المجادلين في الله والمشرّكين به ومصير المؤمنين يوم القيامة مع عرض الأدلة على الوجدانية، وثالثها: بيان اعتداء المشرّكين في المسجد الحرام إذ جعلوه مكاناً للشرك بدلاً من أن يكون مكاناً للتوحيد، ورابعها: الإذن للمؤمنين المقيمين دين الله بالقتال إزاء جرائم المشرّكين مع عرض أدلة كمال القدرة الإلهية، وخامسها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق^(٢).

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ٤٠، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٥، ص ١٢٩، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٤، ٢٤٠٦، ٢٤٠٧، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٧، ١٧٩-١٨٥، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٥، ص ٧٦، ٧٧، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ٢٥٩، ٢٦٠، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور، ص ١٦١-١٦٥.

(٢) مقدّمة السورة شملت الآيات: ١-٧، وبيان مصير المجادلين والمؤمنين: ٨-٢٤، وبيان اعتداءات المشرّكين: ٢٥-٣٧، والإذن بقتالهم: ٣٨-٧٢، والخاتمة: ٧٣-٧٨. وقد تميّزت هذه السورة بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة بالله تعالى ثبتت كمال قدرته على الخلق والبعث والأدلة العقلية على ذلك، أ) فقوله تعالى ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾: ١، ذكر هنا فقط، وكذلك قوله ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾: ٧، وقريب منه في سورة النحل: ٣٨، وقوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنْ

أولاً: جاء في مقدّمة السورة عرض لبعض مشاهد يوم القيامة لإثبات قدرته تعالى على البعث، وفي ذلك تهديد لمن يجادل في الله بغير علم: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ①﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ② وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ③ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ④، واعتقد أن ذكر المرضعة والحامل فيه إشارة إلى قدرته على الخلق أيضاً، واعتقد أيضاً أن ذكر الشيطان مناسب لاسم السورة، لما هو معروف من رجم الشيطان في الجمرات وهو اقتداء بإبراهيم عليه السلام الذي سيأتي ذكره، كأن في ذلك إشارة إلى أنه ينبغي على الإنسان أن يرمي الشيطان لا أن يتولاه.

ثم بينت المقدّمة قدرة الله تعالى على الخلق بالبراهين العقلية، إذ هو الذي خلق الناس من

= أَلَمْ يَخْلُقْنَا فَلَنَّا خَلَقْتُمْ مِنْ تَرَابٍ ⑤: ٥، وقريب منه في سورة طه: ٥٥، (ب) وكذلك وصف المضغة بـ ﴿تُخَلِّقُهُ وَغَيْرَ مُخَلَّقَةٍ ⑥: ٥، هنا فقط، (ج) وكذلك قوله عن آلهتهم ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ⑦: ٧٣﴾ (د) قوله تعالى ﴿ذَلِكَ يَأْتِكُمُ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَكَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ⑧﴾ ذكر هنا: ٦٢، وفي سورة لقمان: ٣٠ ﴿وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَكَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ⑨﴾، ولكن سورة الحج تميّزت بقوله ﴿ذَلِكَ يَأْتِيكَ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ يُحْيِ الْأَمْوَاتَ ⑩: ٦﴾ (هـ) قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ⑪﴾ ذكر هنا فقط بهذه الصيغة: ١، وقريب منه في سورة الرعد: ١٥، والنحل: ٤٩، علماً بأن عبارة (ألم تر) ذكرت في ثلاث سور بأكبر عدد، الحج: ١٨، ٦٣، ٦٥، والبقرة، وإبراهيم، ثلاث مرات في كل منها، بينما في النساء ذكرت خمس مرات ولكنها كلها عن الحديث عن أهل الكتاب والكافرين، (و) قوله ﴿وَإِنَّكَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ⑫: ٤٧﴾، لم يتكرر، (ز) هي مع سورة يونس أكثر سورتين تكرر فيهما النداء (يا أيها الناس): ١، ٥، ٤٩، ٧٣، وفي سورة يونس: ٢٣، ٥٧، ١٠٤، ١٠٧، (ح) بإمكانك أن تضيف أنها الوحيدة التي تكررت فيها كلمة «شعائر»: ٣٢، ٢٦، وهي أكثر سورة تكررت فيها مشتقات «نسك»: ٦٧ (مرتين)، ٣٤، والنسك والشعائر متعلقان باسم السورة كما لا يخفى، ثانياً: ومنها أمور متعلقة ببيان موقف المشركين المجادلين في الله تعالى: (أ) فقلوه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ ⑬﴾ ذكر هنا: ٨، وفي سورة لقمان: ٢٠، بالصيغة ذاتها، ولكن سورة الحج تميّزت بقوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ⑭: ٣﴾، علماً بأن عبارة «بغير علم» ذكرت في سورة الحج في الآيتين السابقتين، وفي سورة الأنعام: ١٠٠، ١١٩، ١٤٠، ١٤٤، وفي سورة لقمان: ٦، ٢٠، ولم تتكرر في سورة أخرى، (ب) قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ⑮: ١١﴾، ذكر هنا فقط، (ج) وكذلك قوله ﴿وَمَنْ يُدْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَلَّفَهُ الطُّيُورُ أَوْ تَهَوَّى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِينٍ ⑯: ٣١﴾. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

تراب، ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة، فهو تعالى المبدئ كما أنه هو المعيد، ومن دلائل قدرته أنه أنزل من السماء ماءً فتنبت به الأرض من كل زوج بهيج.

فمقدمة السورة كما ترى تثبت قدرة الله على الخلق والبعث بالأدلة العقلية، وهذا متعلق بالحج كونه أبرز مظهر دال على التوحيد، وأبرز مظهر مشابهة لبعث الخلق يوم القيامة.

ثانياً: وبعد عرض تلك الأدلة، انتقل السياق إلى عرض موقف الإنسان، فهو يجادل في الله خالقه، ويشرك معه غيره: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّثِيرٍ ۝ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَمَّا فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْعُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ۝﴾، ولاحظ أن السياق ركز على العقوبة الأخروية، وفي ذلك زيادة تأكيد على القدرة على البعث والجزاء.

وبسبب وضوح دلائل قدرة الله تعالى على الخلق والبعث والجزاء في القرآن، وأبرزها ما جاء في هذه السورة، بيّنت هذه السورة لطوائف البشر جميعها قدرة الله تعالى على حسابهم جميعاً يوم القيامة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰدِقِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝﴾.

وانظر قوله تعالى الداعي إلى التوحيد: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمٰوٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرَمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝﴾.

ثم فصل السياق في عرض مصير الكافرين برّهم يوم القيامة بصورة مفرغة، إذ سيُصب فوق رؤوسهم الحميم، فيصهر به ما في بطونهم وجلودهم، ولهم مقامع من حديد، وفوق ذلك كله يزجرون بقول الملائكة لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

وأما المؤمنون ففي الجنات يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير، فهذه أنعم صورة للمؤمنين في مقابل أبأس صورة للكافرين. ولا يخفى أن التفصيل في عرض مصير الفريقين دال على قدرته تعالى على البعث والجزاء.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى عرض اعتداءات المشركين في المسجد الحرام، فهم جعلوه أبرز مكان للشرك في الأرض، والله يريد بحكمته أن يجعله أبرز مكان للتوحيد في الأرض بفرض الحج كما أراد الله له حينما أمر إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَرَبِ فِيهِ وَالْبَدِّ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَمِ يُظْلَمِ نَفْسُهُ مِنْ عَذَابِ إِلِيمٍ ٥٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ٥٦ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٥٧، ثم فصل السياق في عرض منافع الحج، وبيان بعض أحكامه، وأمر بتعظيم شعائر الله ونبد الشرك: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْفُسُ إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ٥٨﴾.

وأعتقد أن بيان مجيء الناس من كل فج عميق يؤكد مشابهة الحج للبعث يوم القيامة، ولذلك اختصت السورة بهذا الاسم، ثم إن في تسميتها بالحج فيه أبلغ زجر للمشركين الذين جعلوا المسجد الحرام مكاناً للشرك، والله يريد أن يجعله أبرز مكان للتوحيد بفريضة الحج كما تقدم، فاسم السورة جمع الدلالة على الأمرين: التوحيد والبعث.

رابعاً: وبمناسبة الحديث عن اعتداء المشركين في المسجد الحرام، انتقل السياق إلى الإذن للمؤمنين المقيمين دين الله بقتال مَنْ كان يعتدي عليهم في ذلك المسجد: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ٥٩﴾ أُوذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٦٠ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ هَلْ دَمَّتْ صَوْمِعُ وَبِعَ وَصَلَوْتُ وَمَسَجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٦١، وقد بيّن السياق أن سبب الإذن لهم لأنهم أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، وهذا مرتبط بما تقدم، إذ لم يكتفِ المشركون بجعل البيت الحرام مكاناً للشرك، بل منعوا أهل التوحيد من إقامة دين الله فيه، ولا حظ وعد المؤمنين بالنصر، لأنهم إذا مُكِّن لهم في الأرض سيقومون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وهذا هو دين التوحيد.

وكما حذّرت المقدّمة من اتباع الشيطان بغير هدى ولا كتاب منير، أعاد السياق هنا التحذير منه مرة أخرى، فما من نبيّ إلا ويتمنى هداية قومه، ويحاول الشيطان أن يلقي في عقول المدعوّين وساوسه، فيُحَكِّم الله آياته في عقول المؤمنين، ويبطل الله منها وساوس الشيطان فيزدادوا إيماناً، ويجعل الله وساوس الشيطان فتنة في عقول الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم فيزدادوا كفراً^(١). والتحذير من الشيطان مناسب لاسم السورة من حيث إن الشيطان يرمي الحج كما تقدّم.

ولكي يؤكّد السياق قدرة الله تعالى على نصرة المؤمنين المستضعفين، عرض بعض مظاهر كمال قدرته تعالى في كونه: ﴿ذَلِكَ يَأْتِكَ اللَّهُ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝﴾ ذَلِكَ يَأْتِكَ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ۝﴾.

خامساً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد بيّنت قدرة الله وحده على الخلق كما بيّنت المقدّمة قدرته وحده على البعث، وفي ذلك دعوة إلى التوحيد: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۝﴾.

وأعادت تهديد المشركين، وأمرت المؤمنين بعبادة الله وحده وإقامة شعائر دينه: ﴿مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ فَكْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝﴾.

وكما افتتحت السورة بذكر الأدلة على قدرته تعالى على الخلق والبعث لإثبات التوحيد لله، وهما أمران أكثر ما يكونان مشابهة لفريضة الحج، ختمت بدعوة المؤمنين إلى الجهاد دفاعاً عن دين الله مع بيان أن دينهم - دين التوحيد - هو دين أبيهم إبراهيم عليه السلام من

(١) هذا خلاصة تفسير د. أحمد نوفل لهذه الآية، وقد أشار إلى علاقتها بذكر الشيطان في مقدمة السورة، ينظر للزيادة: د. أحمد، قراءة في آية: ﴿إِلَّا إِذَا نَكَحَ الرَّقْءَ الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، ص ١٥٠ - ١٦٢.

قَبْلَ ، الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِأَنْ يُؤَدِّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ : ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ، وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور والذي دلَّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة ، كون الحج أبرز مظاهر التوحيد وأشبهها بالبعث .



سورة الحج

سورة إثبات قدرة الله تعالى على الخلق والبعث بالبراهين العقلية مما يثبت التوحيد له سبحانه،
والحج أبرز مظهر للتوحيد في الأرض وأشبهها بالبعث

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٧)

المقدمة التي تعرض بعض أهوال يوم القيامة
للدلالة على قدرة الله تعالى على البعث:

■ افتتحت السورة بعرض بعض أهوال يوم
القيامة، مثبتة بذلك قدرة الله على البعث،
ومهددة المجادلين بآيات الله: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ
أَنْقَافًا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ
عَظِيمٌ﴾.

■ وأكدت المقدمة قدرة الله على البعث
بالبراهين العقلية، فهو الذي خلق الناس من
تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة
مُخلَّقة وغير مخلقة فهو المبدئ المعيد
سبحانه.

■ ومن الأدلة على قدرته تعالى على البعث أنه
أنزل من السماء ماء فتنبث به الأرض من كل
زوج بهيج، فهو كذلك قادر على بعض
الموتى.

■ فالمقدمة تثبت التوحيد لله عز وجل؛ لأنه
وحده القادر على الخلق والبعث.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٨-٢٤)

بيان مصير المجادلين في الله والمشركين به،
وبيان مصير المؤمنين يوم القيامة، مع عرض
الأدلة على الوحدانية:

■ بعد بيان قدرة الله على البعث والخلق، عرض
السياق موقف الإنسان الذي يجادل في الله
خالقه ويشرك معه غيره: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ
يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ
﴿٨﴾، ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا
لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿٩﴾﴾.

■ ومما يدعو إلى التوحيد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ
أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ
وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ
يُؤْمِنِ بِاللَّهِ فَقَدْ هَمَّ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا
يَشَاءُ﴾.

■ وقد فصل السياق في عرض مصير الكافرين
بربهم يوم القيامة، إذ سيصب فوق رؤوسهم
الحميم، فيصهر به ما في بطونهم وجلودهم،
ولهم مقامع من حديد، وتزجرهم الملائكة.

■ بينما المؤمنون في الجنات يُحَلَّون فيها من
أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٥-٣٧)

بيان اعتداء المشركين في المسجد الحرام إذ جعلوه مكاناً للشرك بدلاً من أن يكون مكاناً للتوحيد:

■ عرض السياق اعتداءات المشركين في المسجد الحرام إذ جعلوه أبرز مكان للشرك في الأرض: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَتَكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يَرِدْ فِيهِ بِالْهَكَادِ يُظْلَمِ نُذُوقُهُ مِن عَذَابِ أَلِيمٍ ۝٢٥﴾.

■ وقد أراد الله بحكمته أن يجعل المسجد الحرام أبرز مكان للتوحيد، وذلك حين أمر إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالحج: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٦﴾. وأمر أمة الإسلام بتعظيم شعائر الله التي فرضها في ذلك المسجد: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ حَقِيرٌ لَّمْ يَكُنْ عِندَ رَبِّي ۝٢٧﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٣٨-٧٢)

الإذن للمؤمنين المقيمين دين الله بالقتال إزاء جرائم المشركين، مع عرض أدلة كمال القدرة الإلهية:

■ بعد عرض اعتداءات المشركين في المسجد الحرام، انتقل السياق إلى الإذن للمؤمنين بقتال من كان يعتدي عليهم في ذلك المسجد: ﴿أُذِّنَ لِلَّذِينَ بَقِلَتْ يَدُهُمْ ظِلْمُوا وَلَئِنْ أَذِنَ اللَّهُ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدْ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۝٣٨﴾.

■ وعرض السياق قدرة الله على نصر عباده: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٣٩﴾.

■ وأكد ذلك بعرض بعض مظاهر كمال قدرته تعالى، فهو الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير.

الموضوع الخامس: (الآيات: ٧٣-٧٨)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت التأكيد على قدرة الله تعالى على الخلق والبعث وإثبات الوجدانية له: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾.

■ وأعادت تهديد المشركين وذكرتهم بقدرة الله تعالى: ﴿مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

■ وأمرت المؤمنين بعبادة الواحد الأحد وفعل الخير ليفلحوا يوم بعثهم: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا آرَكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعِبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

■ وكما افتتحت السورة بإثبات التوحيد لله ببيان قدرته على الخلق والبعث، وهما متعلقان بالحج كونه من أبرز مظهر للتوحيد وأشبهاها بالبعث، ختمت بدعوة المؤمنين لنصرة دينهم الذي هو دين إبراهيم عليه السلام الذي أمره

الله أن يؤذن في الناس بالحج: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَعُكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

سورة المؤمنون

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ
 اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوحِهِمْ
 خَفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾
 فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ
 وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ
 الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى بيان بعض صفات المؤمنين في مقدمتها، وبيان أنهم - لا غيرهم - هم المفلحون، ووصف المؤمنين بصيغة اسم الفاعل وجمع المذكر السالم، يدل على تمكن صفة الإيمان فيهم، وعلى أثر هذا الإيمان الظاهر في سلوكياتهم الذاتية والاجتماعية التي تُرضي الله تعالى فاستحقوا الفلاح، ولا يخفى أن تسمية السورة باسمهم فيه من الترغيب بالاعتداء بهم ما فيه.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة هي سورة الإيمان بكل قضاياء ودلائله وصفاته، فالسورة تعرض دلائل الإيمان في النفس البشرية وفي الآفاق، وتعرض حقيقة الإيمان كما عرضها الرسل الكرام عليهم السلام، وتبين موقف المشركين من الرسول ﷺ للتحذير منه، وهي بذلك تقرّر اختصاص المؤمنين بالفلاح، ولأجل ذلك سميت باسمهم^(١).

(١) ينظر: الفيروزآبادي، البيان بمقاصد سور القرآن، ص ٧١، والمهايمي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٥٣، والباقعي، نظم الدرر، ج ٥، ١٨٢، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٤، ٢٤٥٢، ٢٤٥٣، وابن عاشور، التحرير =

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان بعض مظاهر عظمة الله تعالى خالق الأكوان ومرسل الأنبياء بآيات الوحي، ولما كان بيان صفات المؤمنين بهذا الخالق العظيم فيه من الترغيب بالإيمان بالله ما فيه، جاء اسم السورة مشيراً إليهم مدحاً لهم وإشادة بهم، ومعبراً عن المحور المذكور.

وقد تميزت هذه السورة بأنها سورة بيان فلاح المؤمنين بالله العظيم في الدنيا والآخرة، وبيان خسارة الكافرين بالله العظيم في الدنيا والآخرة.

ويتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى خمسة أقسام: أولها: مقدمة تبين فلاح المؤمنين بالله العظيم وصفاتهم وجزاءهم، وثانيها: عرض بعض مظاهر عظمة الله - الذي آمن به المؤمنون - في خلق الإنسان والكون، وثالثها: عرض قصصي يدعو إلى التوحيد ويبين فلاح المؤمنين بدعوة الأنبياء وخسارة الكافرين، ورابعها: تعقيب ببيان موقف المؤمنين بالله وبيان فلاحهم، وبيان موقف الكافرين وبيان خسارتهم، وخامسها: الخاتمة المؤكدة لما سبق^(١).

= والتنوير، ج ١٨، ص ٦، وأ. د. مسلم، التفسير الموضوعي، م ٥، ص ١٢٢، والندوي، دراسات قرآنية، ص ٢٢٥-٢٢٧، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ص ٢٦٧، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ١٦٦-١٧٠.

(١) مقدمة السورة شملت الآيات: ١-١١، وعرض مظاهر عظمة الله في خلقه: ١٢-٢٢، والعرض القصصي: ٢٣-٥٦، والتعقيب عليه: ٥٧-٩٢، والخاتمة: ٩٣-١١٨. ومن لطائف هذه السورة أنها تميزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه ومن ذلك، أولاً: منها أمور متعلقة تبين عظمة خلق الله تعالى الذي آمن به المؤمنون: (أ) فهي أكثر السور تفصيلاً في عرض مراحل خلق الجنين في رحم أمه: ١٢-١٤، وقريب منها جداً في سورة الحج: ٥، وقريب منها في سورة غافر: ٦٧، (ب) انظر قوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَلَيْكَ لَكُرٌّ فِي الْآعْتِمِ لَعِبَةٌ شَتَّىٰ لَكَ فِي مَطْوِيَّتَا لَكَ فِيهَا مَنَافِعٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾: ٢١، وقارن بما في سورة النحل: ﴿وَلَيْكَ لَكُرٌّ فِي الْآفَتِ لَعِبَةٌ شَتَّىٰ لَكَ فِي بَطْنِيهِ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمِيرٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِبًا لِلشَّارِبِينَ﴾: ٦٦، (ج) هي الوحيدة التي وصفت السماوات بقوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾: ١٧، والوحيدة التي فيها قوله ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾: ١٧، والوحيدة التي فيها قوله ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَ هُم لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾: ٧١، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بالمؤمنين المفلحين: (أ) فهي الوحيدة التي فيها قوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾: ١، وقوله ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾: ٢، (ب) والوحيدة التي وصفتهم بأنهم ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾: ٣، وقريب منها في =

أولاً: جاء في مقدمة السورة عرضٌ لصفات المؤمنين بالله العظيم، مع بيان شرف جزائهم، ليكون ذلك تأكيداً لفلاحهم وترغيباً بالاقتداء بهم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ١١﴾، ولاحظ تقديم صفة الخشوع في الصلاة، الذي يطلعك على مدى أثر الإيمان في قلوبهم، ولاحظ وصف مصيرهم بصيغة اسم الفاعل «الوارثون» لزيادة التأكيد على حصول الثواب لهم، وتخصيص ذكر الفردوس، وهي المنزلة العليا من الجنة، ولم تذكر إلا هنا وفي سورة الكهف.

ثانياً: وبعد عرض صفات المؤمنين الداعية للإيمان، انتقل السياق إلى عرض بعض مظاهر عظمة هذا الإله العظيم الذي آمن به المؤمنون، وهي مظاهر في خلق الإنسان وفي

= سورة الفرقان: ٧٢، والقصص: ٥٥، ج) هي الوحيدة التي اختصت بقوله ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ ١١، فلم تذكر «الوارثون» في موقع آخر، ولم تذكر «الفردوس» إلا هنا وسورة الكهف: ١٠٧، د) هي وسورة المعارج الوجدتان اللتان اختصتا بقوله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ٥﴾: المؤمنون: ٥، والمعارج: ٢٩، والوجدتان اللتان اختصتا بقوله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ٨﴾: ٨، والمعارج: ٣٢، هـ) اشتركت مع سورتي آل عمران والأنبياء بقوله ﴿وَيُسِرُّونَ فِي الْأَخْيَارِ ٦١﴾: المؤمنون: ٦١، وآل عمران: ١١٤، والأنبياء: ٩٠، ولكنها اختصت وحدها بقوله ﴿وَهُمْ لَهَا سَاقُونَ ٦١﴾: (و) والوحيدة التي امتازت بقوله ﴿إِنَّ أَلْيَنَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُتَّقُونَ ٥٧﴾، وقريب منها في سورة الأنبياء: ٢٨ ولكن عن الملائكة، والوحيدة التي امتازت بقوله ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاعِلُونَ ١١١﴾ بهذه الصيغة: ١١١، وقريب منها التوبة: ٢٠، والنور: ٥٢، والحشر: ٢٠، ثالثاً: ومنها أمور متعلقة بالكافرين الخاسرين: أ) فهي وسورة القصص الوجدتان اللتان اختصتا بقوله ﴿لَا يُضْلِعُ الْكَيْدُونَ ٣٧﴾: المؤمنون: ١١٧، والقصص: ٣٧ ولكنها على لسان البشر وليست إخباراً من الله، ب) هي الوحيدة التي تكررت فيها كلمة «غمرة» لوصفهم: ﴿فَذَرْنَاهُمْ فِي غَمَرَةٍ حَتَّىٰ يَنْبَسِ عَيْنُ رَبِّهِمْ ٥٤﴾: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَةٍ مِنْ هَٰذَا ٦٣﴾: ج) والوحيدة التي تكررت فيها مشتقات «جار» لوصفهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ٦٤﴾ لا يَجْتَرُونَ الْيَوْمَ ٦٤، ٦٥، ولم تذكر مشتقات هذا الجذر في موقع آخر إلا في النحل: ٥٣، د) والوحيدة التي اختصت بقوله ﴿وَلَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الْآخِرَةِ لَنَسْكُنَنَّكَ ٧٤﴾: ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

الآفاق: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (٧٦) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٧٧﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿٧٨﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمِتُونَ ﴿٧٩﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿٨٠﴾، ولاحظ التفصيل في عرض مراحل نمو الجنين في رحم أمه، إن في ذلك زيادة في بيان عظمة الخالق العظيم، ولاحظ بيان قدرته تعالى على البعث، فكما هو قادر على خلق الإنسان ولم يك شيئا، قادر على بعثه للحساب.

ومن مظاهر عظمة الله تعالى في الآفاق: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ (٧) وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ مِنْ نَحِيلٍ وَأَعْتَبْنَا لَكُمْ فِيهَا فَوْكَةً كَثِيرَةً وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٩﴾، وقد فصل السياق في تعداد نعم الله على الإنسان، فذكر نعمة إنبات الزيتون ذي المنافع الكثيرة، ونعمة الأنعام، والتفصيل يدل على عظمة الخالق كما لا يخفى.

ثالثاً: وبعد عرض مظاهر عظمة الله تعالى في الكون الداعية إلى التوحيد، انتقل السياق إلى عرض قصصي يدعو إلى التوحيد من خلال آيات الوحي التي أنزلها على الأنبياء، وبذلك تجتمع الآيات الكونية وآيات الوحي التي أرسل بها الأنبياء على الدعوة إلى الإيمان بالله العظيم، وقد بين هذا العرض القصصي فلاح المؤمنين بنجاتهم من عذاب الله، وخسارة الكافرين الذين حاق بهم العذاب: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٢١) فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٢﴾، ولاحظ قوله (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)، وهو ملخص دعوة الأنبياء جميعاً، ولاحظ عرض موقف قومه المكذبين الذي يقابل عرض صفات المؤمنين في المقدمة، وقد بين السياق كيف أهلك قوم نوح، وكيف نجى الله نوحاً عليه السلام ومن آمن معه في الفلك، وبذلك يجتمع الترغيب بذكر صفات المؤمنين، والترهيب بعرض مصير المكذبين.

ثم انتقل السياق إلى عرض موقف قوم آخرين، وهم على الأرجح عاد؛ لأنهم عادة يُذكرون في القرآن بعد قوم نوح: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (٢٣) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ

أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنقُونَ ﴿٣٣﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتَرَفْتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٤﴾، ولاحظ وحدة الدعوة بين نوح وهود عليهما السلام، والتفصيل في عرض تكذيبهم، وقد بين السياق أيضاً نتيجة تكذيبهم، إذ أهلكهم الله بالصيحة فجعلهم غناء.

ثم أعقب السياق بذكر قصة موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون وملئه، وقد بين السياق أنهم كانوا مستكبرين عالين، ونتيجة تكذيبهم أنهم كانوا من المهلكين، وعرض موقف فرعون الذي ادعى الإلهية في الأرض، وبيان إهلاكه وملئه يدعو إلى توحيد الله بلا شك، وفيه بيان أنه تعالى ذو القدرة المطلقة، ثم ذكر السياق مريم وأمه: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥١﴾﴾ بِأَيِّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥٢﴾، وبيان أن الله آواهما إلى الربوة التي فيها القرار والماء المعين، دلالة على أنهما من البشر، وليس لأحدهما حق الإلهية، وقد أكد ذلك أمر الرسل جميعاً بالأكل من الطيبات، فهم جميعاً من البشر، يحتاجون ما يحتاج البشر من المأكل والمشرب والمأوى، وبذلك يتأكد تفرّد الله تعالى بالإلهية.

فسياق السورة كما ترى يدعو إلى توحيد الله عزّ وجلّ من خلال بيان عظمة الله تعالى الذي آمن به المؤمنون، وذلك من خلال آياته الكونية، ومن خلال آيات الوحي التي أنزلها على الأنبياء عليهم السلام، وبيان فلاح المؤمنين وخسارة الكافرين.

رابعاً: ثم عاد سياق السورة إلى الترغيب مرة أخرى، وأعاد ذكر بعض صفات المؤمنين بالله العظيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ تُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِإِثَابِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَيَاتِ لَهُمْ لَهَا سَيْفُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا تَكُلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَبْلُغُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾، ولاحظ ذكر الخشية التي تدعوهم إلى الخشوع في الصلاة كما ذكر في المقدمة، ولاحظ بيان مسارعتهم إلى الخيرات حتى استحقوا الفردوس المذكورة في المقدمة، فالمؤمنون بالله العظيم هم المفلحون.

وأعاد السياق عرض موقف المكذّبين ليجتمع الترهيب مع الترغيب: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَةٍ

مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ ﴿١٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿١٧﴾ لَا تَجْتَرُوا يَوْمَ الْيَوْمِ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ ﴿١٨﴾ فَذَكَوَتْ عَلَيْكُمُ الْفِتْنَةُ عَلَىٰ أَغْيَابِكُمُ نَكْصُونَ ﴿١٩﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٢٠﴾ ، ولاحظ أن سبب إهلاكهم هو استكبارهم عن آيات الله تعالى ونكوصهم عنها .

ومن أجل زيادة التوبيخ عليهم ، ذكر السياق عدّة استفهامات لبيان أنه لم يكن لهم صارف عن الإيمان سوى عنادهم واستكبارهم : ﴿ أَفَلَمْ يَذَرُّوا الْفُؤَالَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿٢١﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٢٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَذَّبُوهُ لِيُحَقِّقَ كَرِهُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَجَ رَيْكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَوِّتُ ﴿٢٧﴾ ، ولاحظ تكرار السؤال بـ (أم) التي تفيد التقرير ، والتأكيد على صدقه ﷺ ، وتأکید ضلالهم بـ (إنّ) المؤكدة .

وبعد ذكر موقفهم من الآيات القرآنية ، انتقل السياق إلى ذكر موقفهم من الآيات الكونية : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٢٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٠﴾ ، ولاحظ تكرار الضمير (هو) ثلاث مرات ، التي يقابلها الأسئلة الثلاثة التالية : ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٣١﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِقُ ﴿٣٤﴾ قُلْ مَنْ مِنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُشْحَرُونَ ﴿٣٦﴾ ، وبذلك يثبت قطعاً أن الله تعالى وحده المستحق للعبادة ، وثبت أن الكافرين بالله العظيم هم الخاسرون .

خامساً : جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق ، فقد أعادت تثبيت النبي ﷺ والمؤمنين معه ببيان قدرته تعالى على إهلاك المكذبين مما يؤكد خسارتهم : ﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴾ ﴿٣٧﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٣٨﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿٣٩﴾ .

وقد أعادت ذكر موقف المكذبين من الآيات القرآنية وبيان مصيرهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مِّنَ الَّذِينَ تَنَالَىٰ عَلَيْهِمْ فُكْرُكُمْ فَكُنْتُمْ بِهِ بَاطِلِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٥١﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٥٣﴾﴾ .

وأعادت التأكيد على عظمة الله تعالى الذي يؤمن به المؤمنون وقدرته المطلقة: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١٥٤﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿١٥٥﴾﴾ .

وكما افتتحت السورة بذكر صفات المؤمنين وبيان فلاحهم للترغيب بالاعتداء بهم، ختمت ببيان خسارة المشركين والكافرين للتحذير من الاعتداء بهم: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١٥٦﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ .

وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دلَّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة المؤمنون

سورة بيان فلاح المؤمنين بالله العظيم في الدنيا والآخرة،
وبيان خسارة الكافرين بالله العظيم في الدنيا والآخرة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١١)

المقدمة التي تبين فلاح المؤمنين وصفاتهم
وجزاءهم:

■ افتتحت السورة بإقرار حقيقة فلاح
المؤمنين بالله العظيم وعرض صفاتهم:
﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ
خَشِعُونَ ﴿٢﴾﴾.

■ وقد أكدت فلاحهم ببيان مصيرهم في
الآخرة: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الزَّائِرُونَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ
يَرْثُونَ الزَّوْجَاتِ هُنَّ فِيهَا فَخْلٌ ﴿٤﴾﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٢-٢٢)

عرض بعض مظاهر عظمة الله تعالى - الذي آمن به
المؤمنون - في خلق الإنسان والكون:

■ بين السياق مظاهر عظمة الله في خلق الإنسان:
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ
جَعَلْنَاهُ نُطْقَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾﴾، وهي أكثر السور
تفصيلاً في مراحل نشوء الجنين لزيادة الدلالة على
عظمة الله تعالى.

■ وعرض السياق مظاهر عظمة الله في آفاق الكون:
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ
غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾.

■ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأنشأ به الجنات من
النخيل والأعناب وهو الذي أنبت شجرة الزيتون
ذات المنافع الكثيرة، وهو خالق الأنعام.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٣-٥٦)

عرض قصصي يدعو إلى التوحيد ويبين فلاح المؤمنين بدعوة الأنبياء وخسارة الكافرين:

■ عرض السياق قصة نوح عليه السلام مع قومه، وقد برزت عظمة الله في إهلاك المكذبين الخاسرين،
وقد برز فلاح المؤمنين في إنجائهم من الغرق.

■ ثم عرض قصة عاد وقد بين السياق كيف أهلك الله عاداً بالصيحة فجعلهم غثاء.

■ ثم عرض قصة موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون وملئه المستكبرين العالين، وبين نتيجة
استكبارهم عن الحق إذ كانوا من المهلكين، وبذلك بطل ادعاء فرعون الإلهية في الأرض.

■ وقد برزت عظمة الله تعالى في جعل عيسى ابن مريم عليهما السلام آية للعالمين، إذ آواهما الله إلى ربوة
ذات قرار ومعين، فثبت بذلك أن الله وحده المتفرد بصفات الإلهية، وأن المفلحين من آمنوا به واتبعوا
هده، وأن الخاسرين من كفروا وأعرضوا.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٥٧-٩٢)

تعقيب ببيان موقف المؤمنين بالله وبيان فلاحهم، وبيان موقف الكافرين وخسرانهم:

■ أعاد السياق التأكيد على بيان فلاح المؤمنين بالله العظيم وذكر صفاتهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

■ وقد بين السياق فلاحهم: ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْمَغَازِي وَهُمْ لَمْ يَرْجُوهَا سَيَقُومُوا ﴿٥٩﴾﴾.

■ ثم عرض السياق موقف الكافرين: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

■ ثم بين خسارتهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخْتَصِرُونَ ﴿٦١﴾ لَا يَخْتَرُوا الْيَوْمَ إِلَّا كُرًّا مِّنَّا لَا تَصُرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

■ وبين السياق أن سبب خسارتهم إعراضهم عن آيات الله القرآنية: ﴿أَفَلَمْ يَذَّبَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَا يَأْتِ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

■ وإعراضهم عن آيات الله الكونية: ﴿قُلْ مَنْ يَدْبِرُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

الموضوع الخامس: (الآيات: ٩٣-١١٨)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت التأكيد على قدرة الله على إهلاك المكذبين الخاسرين: ﴿وَلَئِنَّا عَلَيْنَا أَنْ نُزِيلَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدْ يَدْرُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

■ وأكدت خسارتهم بإعراضهم عن آيات القرآن: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مِّنْ أَوَّلِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاكْتُبُ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

■ وأعادت التأكيد على عظمة الله تعالى الذي آمن به المؤمنون: ﴿فَتَعَالَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَوْبَرِ ﴿٩٥﴾﴾.

■ وكما افتتحت السورة ببيان فلاح المؤمنين بالله العظيم، ختمت ببيان خسارة الكافرين بالله العظيم: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

سورة النور

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَوْفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ فِي يُتَوَبُّ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ ﴿٢٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٢٧﴾﴾ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٨﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام الأصفهاني رحمه الله: «النور: الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار، وذلك ضربان: دنيوي وآخروي، فالدنيوي ضربان: ضرب معقول بعين البصيرة، وهو ما انتشر من الأمور الإلهية كنور العقل ونور القرآن، وضرب محسوس بعين البصر، وهو ما انتشر من الأجسام النيرة كالقمرين.. فمن النور الإلهي قوله تعالى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، وسمى الله نفسه نوراً من حيث إنه هو المنور، قال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾»^(١)، فالدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة تفيد أن الله تعالى هو منور السماوات والأرض، بمعنى أنه تعالى «مدبر أمر من فيهما وما فيهما على أحكم نسق وأبدع نظام، ومن أعظم التنوير: تنويره لنا - معشر المكلفين - وتدبيره لكثير من أمور محيانا ومماتنا بشريعته الغراء»^(٢)، وكأن المقصود من هذه الآية أن يستمد المجتمع المسلم نور حياته من المنهج الذي أبدعه مبدع السماوات والأرض.

(١) الأصفهاني، المفردات، ص ٨٢٧، ٨٢٨. بتصرف.

(٢) أ.د إبراهيم عبد الرحمن خليفة، اسم السورة يمثل روحها العام، بحث مستل من حولية كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، ص ٣٦.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن المحور الذي تدور حوله هو التربية التي تشتد في وسائلها إلى درجة الحدود، وترقُّ إلى درجة اللمسات الوجدانية الرفيقة، التي تصل القلب بنور الله، ففي السورة من الآداب والأخلاق النفسية والاجتماعية للفرد وللجماعة ما ينير القلب، وينير الحياة، ويربطها بذلك النور الكوني الكبير الشامل، ومعظم هذه الآداب والأخلاق مرتبط بال علاقات الاجتماعية بين الذكر والأنثى، لأنها أمور تتدخل فيها الأهواء والمصالح، كما وأن السورة تبرز أن من أعرض عن نور الهدى الرباني هم في سراب وظلام دامس^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: تربية المجتمع الإيماني المسلم على اتباع التشريع الإلهي المنير، حتى يكون مجتمعاً نورانياً منسجماً مع الكون الذي أبدعه الله على أحسن صورة، وبذلك يكون المؤمنون يستمدون نور حياتهم من نور خالق السماوات والأرض. ولما كان وصف الله تعالى بأنه ﴿نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وبأنه ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾، اشتقَّ من ذلك اسمٌ للسورة ليبدل على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة تربية المجتمع المسلم على أن يستمدَّ نور حياته من نور منوّر السماوات والأرض.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام: أولاً: مقدّمة تذكر حدوداً متعلّقة بجريمة الزنا، لتربية المؤمنين على شناعة هذه الجريمة، ثانياً: تعقيب ببيان براءة السيدة عائشة من الإفك، مع توجيهات وتحذيرات تربوية للتنفير من الفاحشة، ثالثاً: بيان مثل نور خالق

(١) ينظر: البقاعي، نظم الدرر، ج ٥، ص ٢٢٩، ٢٦٣، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٤٨٥، ٢٤٨٦، ٢٥١٩، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٨، ص ٢٣٣، ٢٣٠-٢٣٤، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٥، ص ١٦٨، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ص ٢٧٣-٢٨٨، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ١٧١-١٧٧، وأ. د. خليفة، اسم السورة يمثل روحها العام، ص ٣٦-٤٠.

السموات والأرض والدعوة إلى التزام شرعه المنير، وأن من يعرض عنه هو في ظلام، رابعاً: الخاتمة المؤكدة لما سبق^(١).

أولاً: جاء في مقدمة السورة ذكرٌ لبعض الحدود المتعلقة بجريمة الزنا، وذلك من أجل زيادة التشنيع على مرتكب هذه الجريمة، فيكون ذلك أدعى لتربية المؤمنين على النفور منها، ومن المعلوم أن جريمة الزنا غالباً ما تحصل في الظلام، وكأن السياق يحذر منها لأنها

(١) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١- ١٠، والتعقيب مع التحذير من الفاحشة: ١١- ٣٤، وبيان نور خالق السموات والأرض: ٣٥- ٥٧، والخاتمة: ٥٨- ٦٤. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه ومن ذلك، أولاً: منها أمور متعلقة بالله تعالى وبآياته: (أ) هي السورة الوحيدة في القرآن التي تكرر فيها وصف آيات الله بـ «مبينات»، وهو وصف يجعلها كالمنيرة للناس: ١٦، ٣٤، (ب) كذلك هي بعد سورة البقرة أكثر سورتين في القرآن ذكرت فيهما عبارة «بين الله لكم الآيات»، بتعابير متقاربة تدل على المعنى ذاته، انظر في سورة النور: ١٨، ٥٨، ٥٩، ٦١، وفي سورة البقرة: ١٨٧، ٢١٩، ٢٢١، ٢٤٢، ٢٦٦، (ج) هي أكثر سورة ذكرت فيها كلمة «نور»، وذلك سبع مرات كلها متعلقة بالله تعالى: ٣٥ (خمس مرات)، ٤٠ (مرتين)، وتبعها في تكرار هذه الكلمة سورة المائدة، وذلك أربع مرات لكن عن الكتب السماوية: ١٥، ١٦، ٤٤، ٤٦، (د) هي أكثر سورة في القرآن ذكر فيها حرف الامتناع «لولا» في سياق التربية، وذلك سبع مرات، منها أربع متعلقة بالله تعالى بعبارة: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾: ١٠، ١٤ مع إضافة قوله ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، ٢٠، ٢١، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بالمجتمع الإيماني المسلم: (أ) ذكر فيها حرف الامتناع «لولا» ثلاث مرات في سياق تربية المجتمع: ١٢ ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، ١٣ ﴿وَلَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾، ١٦ ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ﴾، (ب) هي أكثر سورة ذكرت فيها كلمة «بيوت» المتعلقة بالمؤمنين، وذلك ثلاث عشرة مرة: ٢٧ (مرتين)، ٢٩، ٦١ (عشر مرات)، ومن اللطيف أنها وصفت المساجد بالبيوت أيضاً ﴿فِي بُيُوتٍ إِذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾: ٣٦، وكان السورة تشير إلى ضرورة جعل بيوت المؤمنين منيرة بذكر الله مثل المساجد، (ج) هي السورة الوحيدة التي تكررت فيها مشتقات الجذر «عف» مرة عن الرجال: ﴿وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَحْذَرُونَ نِكَاحًا﴾: ٣٣، ومرة عن النساء: ﴿وَأَنْ يَسْتَغْفِرَ خَيْرٌ لَّهُمْ﴾: ٦٠، (د) هي السورة الوحيدة التي ذكرت فيها كلمتي «الزانية والزاني» وذلك مرة لكل منهما في الآية: ٢، ومرتين لكل منهما في الآية: ٣، واختصاص سورة النور بهذا التحذير من هذه الجريمة التي تُخرج عن نور الشرع الإلهي، (هـ) بإمكانك أن تضيف كذلك أنها السورة الوحيدة التي ذكر فيها المصدر «البغاء»: ٣٣، للتحذير منه، (و) هي بعد سورة النساء أكثر سورتين ذكرت فيهما مشتقات الجذر «حصن» لوصف النساء المؤمنات: انظر كلمة (المحصنات) في سورة النور: ٤، ٢٣، وانظر المصدر «تحصناً»: ٣٣، وانظر (المحصنات) في سورة النساء: ٢٤، ٢٥ (ثلاث مرات)، وانظر الفعل «أحصن»: ٢٥، (ز) هي السورة الوحيدة التي ذكرت فيها مشتقات الجذر «استأذن» في سياق التربية للدخول على البيوت: ﴿لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ يَمْلِكُ آبَتُكُمْ﴾: ٥٨، ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: ٥٩. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

تخرج مرتكبها من نور التشريع الإلهي: ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَنْتَظِرُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَأْتُهُ جَلْدٌ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَدَاهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٢﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ٣﴾، ولاحظ بيان أن الله تعالى هو الذي أنزل هذه السورة وفرضها على المؤمنين، ليدل على أنه ينير حياة المؤمنين، كما أنه ينير السماوات والأرض، ولاحظ قوله ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾، ليكون ذلك أدعى إلى النفور من هذه الجريمة، وقد أكد هذا المعنى قوله ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم ذكرت المقدمة حدّ القاذف للمحصنات المؤمنات الغافلات دون أربعة شهود، كما وذكرت قضاء الله في موضوع الملاعة بين الأزواج إذا اتهم أحدهما الآخر بهذه الجريمة، وختم الحديث عن الحدود بقوله: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ١١﴾، وحذف جواب الشرط ليتفكر العقل في كل جواب منسجم مع السياق.

إن افتتاح هذه السورة ببيان حكم الله في تلك الجريمة التي تحدث في الظلام أو الخفاء، يطلعنا على أن الله تعالى يريد من المجتمع المؤمن أن يكون نورانياً ملتزماً بأحكام منور السماوات والأرض وخالفهما. وهو المحور الذي دل عليه اسم السورة.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى تعقيب متعلق بموضوع اتهام السيدة عائشة رضي الله عنها بجريمة الزنا، وبيان أن هذا إفك وأنها بريئة من ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَكْثَبَ مِنَ الْإِنِّمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبَرَهُ مِنْهُمْ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ١٢﴾، فيما أن المقدمة حذرت من الزنا واعتبرته أمراً موجباً للحدّ، كان لا بد من تبرئة أم المؤمنين من هذه الفرية، ليبقى المجتمع الإيماني نورانياً، ولاحظ التربية في وجوب إحسان الظن قبل نقل الفرية بدون تحقق.

وقد أعاد السياق التحذير من الخوض في الأعراض بدون بيّنة، لا سيما إذا كان العرض المتهم هو عرض الرسول القائد صلّى الله عليه وآله: ﴿يَعْطُكُمُ اللَّهُ إِنْ تَعُدُّوْا لِمَنِيَّهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١٣﴾ وَيَسِّرُ اللَّهُ لَكُمْ آلَاتِنَا وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٤﴾.

ثم انتقل السياق إلى تحذيرات وتوجيهات تربوية للمؤمنين تنفرهم من الفاحشة، وهي غالباً ما ترتكب في الظلام، وتخرج مرتكبها عن نور الشرع الإلهي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَعُوفٌ رَجِيمٌ ١٠﴾، وقد حذر السياق أيضاً من اتباع خطوات الشيطان لأنه يأمر بالفحشاء والمنكر.

وبعد التحذير جاءت التوجيهات التي تمنع حدوث الفاحشة من الأصل، فقد حذر السياق أن يدخل المؤمن بيت غيره إلا بعد الاستئناس والسلام على أهل البيت، ومنع من دخول البيوت إذا لم يؤذن له، وحتى لو كان البيت خالياً من أهله فلا يدخله حتى يؤذن له بإذن مسبق، وأباح دخول البيوت غير المسكونة. ولا يخفى أن تربية المؤمنين على آداب الاستئذان هذه تحفظ المجتمع من وقوع الفاحشة سيما عند ضعفاء النفوس.

وأمر السياق المؤمنين بغض البصر وحفظ الفروج، وأعاد الأمر للمؤمنات، وبيّن بعض أحكام لباسهن وأمرهن بالحشمة، وحدد للمرأة من يجوز لها أن تبدي زينتها أمامه، وختم تلك التوجيهات بقوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (بعض الآية: ٣١)، فإذا التزم المجتمع بتلك التوجيهات، وأعقب ذلك بالتوبة عما مضى، أصبح مجتمعاً نظيفاً يستمدّ نور حياته من خالق السماوات والأرض.

ثم بيّن السياق الطريق الشرعي للشهوة الجنسية، فأمر المجتمع بتسهيل أمور الزواج الشرعي، وعدم اعتبار الفقر مانعاً منه: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ٣٢﴾، وأمر السياق الرجال الذين لا يتمكنون من الزواج لقلّة ذات اليد بالاستعفاف حتى يغنيهم الله من فضله، ونهى عن إكراه الفتيات على البغاء كما كانوا يفعلون في الجاهلية، وختمت تلك التوجيهات بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ٣٣﴾، ولاحظ تكرار وصف الآيات بالمبينات، وكأنها تشير إلى أن منزل هذه السورة هو خالق السماوات والأرض ومنورهما، ويريد من المؤمنين أن يستمدّوا نور حياتهم منه.

ثالثاً: جاء في وسط السورة بيان مثل نور الله عزّ وجلّ، وكأن المقصود من موقع هذا

المثل أن يضيء أركان السورة من أولها إلى آخرها: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْقَا ذَرَّةٍ فِي تِلْكَ الْأَجْزَالِ كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾، فهو سبحانه خالق السماوات والأرض ومبدعهما على أحسن نظام وأتقن صورة، ولاحظ قوله ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ الدال على أنه يريد بشرعه المنير أن يكون المؤمنون من المستمدين لهذا النور.

وأعقب السياق هذا المثل بذكر الذين يهديهم الله إلى نوره، وذكر من المواقع أطهرها وهي بيوت الله التي فيها رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ويخافون اليوم الآخر، ويبين أن أولئك سيجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله.

ولكي تكتمل المقارنة، ذكر السياق مثل المعرضين عن نور الشرع الإلهي: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَمَرِيبٍ يَبْقِعَةٍ يُبْصَرُهُ الظُّلُمَاتُ مَاءً حَيًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُمْ حِسَابًا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٦﴾﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكَدُ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٣٧﴾﴾، ولاحظ وصف أعمالهم بالسراب، لأنهم ليسوا على الحق في شيء، فليس لهم أي أجر، ولاحظ وصفهم بأنهم في الظلمات في مقابل المؤمنين الذين يعيشون بنور الله تعالى.

ومن أجل التأكيد على أن المجتمع الإيماني إذا التزم بالتشريع المنير كان منسجماً مع الكون الذي أبدعه الله في أحسن صورة، ذكر السياق أن كل من في السموات والأرض والطير يستبح ويصلي لله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخَرُ لَهُم مِّن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَقَتْ كُلُّ قَدٍّ عِلْمَ صَلَاتِهِمْ وَسَخَّرَهُمُ اللَّهُ لِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾، وبيان أنهم يستبحون ويصلون منسجم مع وصف الرجال بأنهم لا تلهيهم مشاغل الحياة عن الذكر والصلاة، وذكر السياق من صفات الله تعالى أيضاً أنه هو الذي يزجي السحاب حتى ينزل منه الغيث، وهو الذي يقلب الليل والنهار، وهو الذي خلق كل دابة من ماء، وختم هذه الصفات بقوله: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾، ليدل على أنه يريد أن يهدي لنوره من يلتزم بشرعه المنير.

وبيّن السياق صنفاً ثانياً من الناس المعرضين عن نور الله تعالى، وهم المنافقون: ﴿وَقِيلُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ١٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ١٨ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ ١٩، ولاحظ بيان أنهم حرموا أنفسهم من النور؛ لأنهم يعرضون عن حكم الله ورسوله ﷺ.

وقبل الخاتمة أعاد السياق بيان أن المؤمنين الملتزمين بشرع الله المنير هم الذين ارتضاهم خالق السماوات والأرض للخلافة في الأرض: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٥٦، ولاحظ إعادة الأمر بالصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول ﷺ، حتى يبقوا في النور الإلهي ولا يخرجوا عنه.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت ذكر توجيهات تحمي المجتمع من وقوع الفاحشة، فأمرت بتربية الأطفال وما ملكت اليمين على الاستئذان: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ٥٨﴾ (بعض الآية: ٥٨)، وأمرت القواعد من النساء بعدم التبرج، وحددت البيوت التي يجوز الأكل مع أهلها، وأمرت بإلقاء تحية السلام عند الدخول ليبقى المجتمع طاهراً سالماً من مظاهر الفاحشة ودواعيها.

وأعادت أمر المؤمنين بطاعة الله ورسوله ﷺ، وعدم الانصراف عنه إلا بعد استئذانه، وأمرت بتوقير النبي ﷺ وعدم دعائه كما يدعون بعضهم بعضاً، وذلك للحفاظ على مكانة النبي ﷺ في قلوب المؤمنين، كما حافظ عليها حين بين براءة زوجه عائشة أم المؤمنين ﷺ.

وكما افتتحت السورة ببيان أن الذي أنزل هذه السورة وفرضها هو منور السماوات والأرض، وأراد من المؤمنين أن يلتزموا بما جاء فيها من الشرع المنير؛ لأنه من العليم الخبير، ختمت ببيان أنه تعالى يعلم من يلتزم بشرع الله فيبقى في النور، ومن يعرض عنه فيحرم نفسه من النور، وأنه سيجازي الجميع بأعمالهم يوم القيامة: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنْشِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٥٩﴾. وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دل عليه اسم السورة لطف الدلالة.

سورة النور

سورة تربية المجتمع المسلم على أن يستمد نور حياته من نور
منور السموات والأرض سبحانه وتعالى

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٠)

المقدمة التي تحذر من جريمة الزنا
وتبين حدودها كونها تخرج من نور
الشرع الإلهي:

■ افتتحت السورة ببيان أن الذي أنزل
هذه السورة وفرضها هو الخالق
الحكيم سبحانه: ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا
وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَنْتَظِرُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

■ ثم حددت حكم الزانية والزاني
بالجلد مئة جلدة.

■ وبينت حكم القاذف للمحصنات
الغافلات بلا شهود، وبينت حكم
الله في موضوع الملاعة بين الأزواج
إذا اتهم أحدهما الآخر بهذه
الجريمة.

■ إن افتتاح السورة بالتحذير من هذه
الجريمة المخرجة عن نور الشرع
الإلهي يؤكد محور السورة الدال
على استمداد المجتمع المسلم نور
حياته من نور خالق السماوات
والأرض.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١١-٣٤)

تعقيب ببيان براءة السيدة عائشة من حادثة الإفك، مع
تحذيرات تربوية تحذر من الفاحشة:

■ بين السياق أن ما اختلق حول السيدة عائشة من الكذب
إنما هو إفك هي بريئة منه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ
مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

■ وأعاد التحذير من الخوض في الأعراض دون بيّنة:
﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

■ وبذلك تزول الفريات عن بيت النبوة الذي يستمد نوره من
نور خالق السماوات والأرض.

■ ثم حذر السياق من الفاحشة بتحذيرات تربوية: ﴿إِنَّ
الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

■ وقد حذر السياق من أن يدخل المؤمن بيت غيره إلا بعد
الاستئناس والسلام على أهل البيت، ومنع من أن يدخل
البيت إذا لم يؤذن له، حتى لو كان البيت خالياً إلا بإذن
مسبق، فأداب الاستئذان هذه تحفظ المجتمع من وقوع
الفاحشة سيما عند ضعفاء النفوس.

■ وأمر السياق الرجال والنساء بغض البصر وحفظ الفروج،
وبين أحكام اللباس للنساء، وأمرهن بالحشمة، وأمر
بتسهيل أمور الزواج الشرعي وعدم اعتبار الفقر مانعاً له،
وأمر الرجال الفقراء بالاستعفاف، ونهى عن إكراه
الفتيات المؤمنات على البغاء كما كان يحصل في
الجاهلية، ثم ختم هذه التوجيهات بقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ
أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا لِمَنِ الدِّينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ
وَمَوْعِظَةً لِّلَتَّائِبِينَ﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات ٣٥-٥٧)

بيان مثل نور خالق السماوات والأرض والدعوة إلى التزام شرعه المنير، وبيان أن مَنْ يعرض عنه هو في ظلام:

■ جاء في وسط السورة بيان مثل نور خالق السماوات والأرض سبحانه ليضيء بذلك السورة كلها: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

■ ثم ذكر السياق الذين يهديهم الله لنوره، وبيّن أنهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

■ ثم عرض السياق مثل المعرضين عن نور الشرع الإلهي: ﴿أَوْ كَظُلُمْتَ فِي يَمْحَرٍ لَّيْلٍ يَفْشُهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ﴾.

■ وبيّن السياق أن كل مَنْ في السماوات والأرض والطير يسبح ويصلي لله تعالى، وذلك منسجم مع ذكر المؤمنين المسيحين والمصلين لله تعالى، وبذلك ينسجم نور المجتمع المؤمن مع نور الكون.

■ وذكر السياق المنافقين المعرضين عن نور الشرع الإلهي فوجب التحذير منهم.

■ وبيّن كذلك أن المؤمنين الملتزمين بالشرع الإلهي المنير هم الذين ارتضاهم خالق السماوات والأرض لخلافة الأرض.

الموضوع الرابع: (الآيات ٥٨-٦٤)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت ذكر توجيهات تحمي المجتمع من وقوع الفاحشة، فأمرت بتربية الأطفال وما ملكت اليمين على الاستئذان، وأمرت القواعد من النساء بعدم التبجّج، وحددت البيوت التي يجوز للمؤمن أن يأكل مع أهلها، وأمرت بإلقاء تحية السلام عند الدخول، ليبقى المجتمع طاهراً سليماً من مظاهر الفاحشة.

■ وأعادت أمر المؤمنين بطاعة الله ورسوله ﷺ وتوقيره للحفاظ على مكانته في قلوب المؤمنين.

■ وكما افتتحت السورة ببيان أن الذي أنزل هذه السورة وفرضها هو مُنَوِّر السماوات والأرض، ختمت ببيان أنه يعلم من التزم بشرعه المنير فيبقى في النور، ومَنْ أعرض عنه فحرم نفسه من النور: ﴿أَلَا إِنَّكَ لَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْشَأَ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنْتَهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

سورة الفرقان

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرُهُ مَقْدِيرًا﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس رحمه الله: «الفاء والراء والقاف: أُصِيلَ صحيح يدلّ على تمييز وتزييل بين شيئين»^(١)، وزاد الإمام الأصفهاني رحمه الله: «... وفرقتُ بين شيئين: فصلت بينهما، سواء كان ذلك بفصل يدرّكه البصر، أو بفصل تدرّكه البصيرة»^(٢)، فقد سمي القرآن فرقاناً «لأنه الفارق بين كل ملتبس، فلا يدعُ خفاءً إلا بيّنه، ولا باطلاً إلا نفاه ومحقه، فيه انتظام الحياة الأولى والأخرى، فكان دالاً على علم مُنْزَلِهِ»^(٣). فاسم السورة يدلّ على أن القرآن فرقان بين الحقّ والباطل.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور السورة هو إزالة كل لبس متعلّق بعناصر عملية اتصال السماء بأهل الأرض، وهي المرسل سبحانه، والرسول ﷺ، والرسالة، فتقوم بذلك الحجّة على البشر جميعاً، وتبيّن السورة موقف العنصر الرابع وهم المرسل إليهم من العناصر الثلاثة، فالسورة تحوي إنذاراً عاماً للمكثّفين بما له سبحانه من القدرة الشاملة والعلم التامّ الذي دلّ هذا الفرقان على بعضه، والسورة أيضاً تحوي إنباساً للرسول ﷺ وتسرية عنه وعن المؤمنين، وتصف المعركة العنيفة بين الحقّ والباطل^(٤).

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٨٤٣.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ٦٣٣. بتصرف.

(٣) البقاعي، نظم الدرر، ج ٥، ص ٢٩٢.

(٤) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٧٧، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٥، ص ٢٩١، وقطب، في ظلال =

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال الردّ على شبهات المكذّبين المتعلقة بالمرسل سبحانه، أو الرسول ﷺ، أو الرسالة - القرآن - وبذلك يثبت أن القرآن فرقان بين الحقّ والباطل، ولما كان وصف القرآن بالفرقان معبراً عن المحور المذكور أبلغ تعبير، جعل اسماً للسورة.

وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان أن القرآن فرقان بين الحقّ والباطل.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام، الأول: مقدّمة تبيّن عظمة مُنزل الفرقان، وتعرض وتدحض بعض فريات المشركين، والثاني: الردّ على فريات المكذّبين حول الرسول ﷺ والقرآن مع بيان مصيرهم يوم القيامة، والثالث: تعقيب بذكر مظاهر أخرى لعظمة مُنزل الفرقان سبحانه، والرابع: الخاتمة المؤكّدة لما سبق^(١).

= القرآن، ج ٥، ص ٢٥٤٤، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٨، ص ٣١٤، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٥، ص ٢٦٤، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ٢٧٩-٢٨٢، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ١٧٨-١٨٥.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٦، والردّ على شبهات المشركين: ٧-٤٤، والتعقيب عليها: ٤٥-٦٢، والخاتمة: ٦٣-٧٧. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلّقة بالله تعالى: (أ) فهي السورة الوحيدة التي تكررت فيها كلمة «تبارك» العائدة على الله تعالى: ١، ١٠، ٦١، (ب) هي الوحيدة في القرآن التي جاءت فيها هذه العبارة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدَرًا نَّقِيرًا﴾: ٢، بذكر الخلق والتقدير مع العموم، وقريب منها: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾: ٢، ٣، وباقي المرات التي ذكر فيها الفعل «قدّر» في القرآن كان مخصوصاً بمفعول به معين، (ج) هي وسورة طه الوحيدتان اللتان ذكرتا أن الله يعلم السرّ بدون تخصيص: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ إِلَٰهِي يَعْلَمُ الظُّلُمَاتِ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ﴾: الفرقان: ٦، و﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْغُيُوبَ﴾ طه: ٧، (د) هي أكثر سورة بعد سورتي مريم والزخرف تكراراً للاسم الجليل «الرحمن»: ٢٦، ٥٩، ٦٠ (مرتين)، ٦٣، بينما ذكر في مريم ست عشرة مرة، وفي الزخرف سبع مرات، (هـ) هي وسورة الحج الوحيدتان اللتان ذكر فيهما اسم الفاعل «هادي» العائد على الله: ﴿وَكُنَّ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ الفرقان: ٣١، و﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُمَا لَذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الحج: ٥٤، (و) هي الوحيدة التي ذكرت فيها هذه العبارة ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِسَلٍ إِلَّا جُنُودُكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَقْيِيلًا﴾: ٣٣، ولم تذكر مشتقات «فسر» - المتلازمة مع اسم السورة - مرة أخرى، (ز) والوحيدة التي جاءت فيها هذه العبارة ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ إِلَٰهِي الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾: ٥٨، إذ لم تُكرر «الحي الذي لا يموت» بذات الصيغة، ثانياً: منها أمور متعلّقة بالمشركين =

أولاً: جاء في مقدمة السورة ذكرٌ لعدد من مظاهر عظمة منزل الفرقان سبحانه وتعالى:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ يَتَّخِذُ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ رُفِعَ نَقِيرًا﴾ (٢)، ولاحظ بيان كون الفرقان نذيراً للعالمين، فمن شأنه أن يفرق بين الحق والباطل إلى يوم القيامة، ولاحظ الإشارة إلى أن ملك السماوات والأرض لله تعالى، للتأكيد على أن الذي أنزل الفرقان هو خالق الأكوان سبحانه، فهو وحده المستحق للعبادة.

وبعد عرض بعض مظاهر قدرة خالق الأكوان ومنزل الفرقان، انتقل السياق إلى دحض شبهات المشركين المتعلقة بالله تعالى، وبالرسول ﷺ، وبالقرآن: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا﴾ (٣) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّكُمْ كَانَتْ عَنْكُمْ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٦)، فقد بين السياق أن العبادة لله وحده، لأنه القادر على الخلق والبعث، ولاحظ الردّ على إدعاء الكافرين بأن الرسول ﷺ اكتتب القرآن

= (المكذّبين: أ) فهي الوحيدة التي تكررت فيها كلمة «زور»: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾: ٤، ومرة للنهي عنه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِالْقَوْمِ مَرًُّا كِرَامًا﴾: ٧٢، (ب) هي سورة الإسراء الوحيدتان اللتان ذكرتا اتهام المشركين الباطل للنبي ﷺ بأنه «مسحور»: الفرقان: ٨، والإسراء: ٤٧، (ج) هي سورة الأعراف الوحيدتان اللتان تكررت فيهما وصف الكافرين بالعتوّ: الفرقان: ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾: ٢١، والأعراف: عن ثمود ﴿فَقَعُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾: ٧٧، وعن بني إسرائيل ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾: ١٦٦، علماً بأن ثمود قد ذكروا في سورة الفرقان: ٣٨، وقد ذكر فيها أن موسى أوتي الكتاب وجعل الله معه أخاه هارون وزيراً: ٣٥، (د) هي سورة الجاثية الوحيدتان اللتان اختصتا بقوله: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾: الفرقان: ٤٣، والجاثية: ٢٣ ﴿أَفَرَأَيْتَ...﴾، علماً بأن رقم سورة الفرقان: ٢٥، ورقم سورة الجاثية: ٤٥، (هـ) هي الوحيدة التي وصفت الكافر بقوله تعالى ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾: ٥٥، (و) والوحيدة التي تكررت فيها الشور لوصف عذاب الكافرين: ﴿دَعُوا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ (٦) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾: ١٣، ١٤، (ز) والوحيدة التي وصف فيها مصير الكافرين في جهنم بقوله ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾: ٦٦، وذلك ملائم لإقامتهم على الباطل، كما وأنها الوحيدة التي وصفت مصير المؤمنين في الجنة بقوله ﴿حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾: ٧٦، وهو ملائم لإقامتهم على الحق، وانظر أيضاً ﴿أَسَحَبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾: ٢٤. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

من غيره بأن الذي أنزل هذا القرآن هو عالم السرّ في السماوات والأرض، ولو اكتتب النبي ﷺ القرآن سرّاً - وحاشاه أن يفعل - لعلم الله هذا السرّ، فإذا لم يبق شك في أن منزل الفرقان إنما هو الله تعالى العليم الخبير.

ثانياً: ثم انتقل السياق بعد أن أثبتت المقدمة أن القرآن من عند الله، إلى الرّد على شبهات المكذّبين المتعلقة بالرسول ﷺ وبالقرآن الكريم، مع بيان مصير المكذّبين يوم القيامة، وبذلك يتحقّق أن الفرقان نذير للعالمين: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٦٧ أَوْ يُنْفَخُ إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ تَكُونُ لَمْ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝٦٨ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٦٩ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ۝٧٠﴾، ولاحظ الرّد عليهم من خلال بيان أن الذي أرسل النبي ﷺ هو القادر على فعل ما يشاء، وفي هذا أبلغ ردّ على كذبهم، وأثبت دليل على صدق الرسول ﷺ.

وقد ذكر السياق مصير هؤلاء المكذّبين يوم القيامة، ليكون هذا الفرقان نذيراً للعالمين: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝٧١ إِذَا رَأَوْهُم مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَعُوا لَهَا فُتُطًا وَزَفِيرًا ۝٧٢ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝٧٣ لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۝٧٤﴾، فهم يكذبون بالساعة ليفعلوا ما يشاؤون دون أن يقيموا وزناً لحساب، وبيان مصيرهم في ذلك اليوم الذي كذبوه أبلغ ردّ عليهم، وقد بين السياق أيضاً مصير المؤمنين، فهم في جنة الخلد لهم فيها ما يشاؤون خالدين، وعرض مصير الفريقين يؤكّد دلالة اسم السورة، في التفريق بين أهل الحق وأهل الباطل.

ومن أساليب الرّد على شبهات المكذّبين وتثبيت النبي ﷺ بيان حسرة الكافر يوم القيامة: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ بَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٧٧ يَوْمَئِذٍ لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا ۝٧٨ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُلًا ۝٧٩ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۝٨٠ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝٨١﴾، ولاحظ أنه يتحسّر؛ لأنه لم يتخذ مع الرسول

سبيلاً، ولم يؤمن بما جاء في الفرقان الذي أوحى إلى الرسول ﷺ، ولاحظ تثبيت النبي ﷺ بعد شكواه من موقف قومه المعرضين، ببيان أن التكذيب سنة الأقوام قبله، وقوله تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ الذي فيه من التحنن والتلطف بالنبي ﷺ ما فيه. ولزيادة تثبيته ﷺ، بين السياق موقف بعض الأقوام التي سبقت كقوم نوح وعاد وثمود وفرعون وأصحاب الرس، وكلاً ضرب الله له الأمثال، وكلاً تبرهم تنبيراً؛ نتيجة تكذيبهم.

فسياق السورة كما ترى يقوم على ردّ شبهات المكذّبين وبيان مصيرهم في الدنيا والآخرة، وتثبيت النبي ﷺ ومن معه، وهذا ما دلّ عليه وصف القرآن بالفرقان الذي يفرق بين الحقّ والباطل، وبذلك يتحقّق كونه نذيراً للعالمين.

ثالثاً: ثم أعاد السياق عرض مظاهر أخرى لزيادة الدلالة على عظمة منزل هذا الفرقان سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝٥٦ ثُمَّ قَبَضْتَهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۝٥٧ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْإِنلَ لِأَسَا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ شُورًا ۝٥٨ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَدَىٰ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۝٥٩ لِنُخْشِيَ بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا وَشُفَيْفُهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأَنَاسِي كَثِيرًا ۝٦٠ وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا فَآيَ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٦١ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ۝٦٢ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَهَنَّهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٦٣﴾، ولاحظ ربط الآيات الكونية بآيات الوحي المنزلة على الأنبياء، للتأكيد على أن خالق الأكوان هو من يرسل الأنبياء ويؤيدهم بآيات الوحي للدعوة إلى توحيده.

وبعد بيان مظاهر عظمة الله تعالى، أعاد السياق التحذير من الشرك كونه أعظم مظاهر الباطل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَفْعَلُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ۝٦٤ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝٦٥ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ۝٦٦﴾، ولاحظ كيف ثبت الله رسوله ﷺ على الحقّ ببيان أنه لا يسأل الناس أجراً على دعوته، بل اعتبر أجره في الدنيا هو أن يتخذ الناس إلى ربهم سبيلاً، ولاحظ دعوته إلى التوكل على الحيّ الذي لا يموت، الخبير بذنوب عباده، للدلالة على أنه المستحقّ للعبادة وحده.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فكما فصل السياق سابقاً في موقف أهل الباطل وبين مصيرهم في الدنيا والآخرة، بينت الخاتمة موقف أهل الحق وبينت مصيرهم: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ۝ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۝﴾، فهم اتعظوا بما جاء في هذا الفرقان من النذارة فاستعاذوا بالله من جهنم، وقد بينت الخاتمة من صفاتهم أيضاً أنهم لا يدعون مع الله إلهاً آخر، ولا يقتلون النفس إلا بالحق، ولا يزنون، وأنهم يسارعون إلى التوبة من ذنوبهم، ولا يشهدون الزور.

وكما بين سياق السورة سابقاً موقف أهل الباطل من الرسول ﷺ ورسالته، بينت الخاتمة موقف أهل الحق: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةً أَعْيُنَ وَاجْعَلْ لَنَا لِمُنْفِقِينَ إِمَامًا ۝ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مَنَاجِبَ وَسَلَامًا ۝ خَلِيلِينَ فِيهَا حُسْنَتٌ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝﴾، فهم لإيمانهم بالقدرة المطلقة لمنزل هذا الفرقان، يسألونه أن يهب لهم ذرية تقرُّ بها أعينهم، وأن يجعلهم للمتقين إماماً، وبذلك يجتمع إيمانهم بمنزل الآيات القرآنية وخالق الآيات الكونية، ولا حظ بيان مصيرهم في مقابل بيان مصير أهل الباطل فيما سبق، وبذلك تكتمل التفرقة بين أهل الحق والباطل.

وكما افتتحت السورة ببيان بعض مظاهر عظمة منزل الفرقان الذي جعله نذيراً للعالمين، وكان منها أن له ملك السماوات والأرض، فهو غني عن العالمين، ختمت ببيان أنه لا يعبأ بالبشر إلا لدعاء أهل الحق له، وأنه قادر على تعذيب أهل الباطل: ﴿قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ۝﴾، وبذلك التقى البدء والختام على بيان أن القرآن فرقان بين الحق والباطل، وأن منزل القرآن هو خالق الأكوان، وهذا هو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة الفرقان

سورة بيان أن القرآن فرقان بين الحق والباطل

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٦)

المقدمة التي تبين عظمة منزل الفرقان سبحانه وتعالى، وتعرض وتدحض بعض شبهات المشركين:

■ افتتحت السورة بذكر بعض مظاهر عظمة الله تعالى منزل الفرقان: ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ الَّذِي لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ رُءِّيَ نَفِيرًا ۝﴾.

■ وقد ردت على بعض فريات المشركين وباطلهم، فمنها ما هو متعلق بالله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ مَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝﴾.

■ ومنها ما هو متعلق بالرسول ﷺ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ مَآخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝﴾.

■ ومنها ما هو متعلق بالرسالة: ﴿وَقَالُوا أَتَطِيلُ الْأُولَىٰ لِكُنْتُمْ فِيهَا تَمَلُّ عَلَىٰ بُكْرَةٍ وَأَصِيلًا ۝﴾.

■ إن عرض هذه الفريات وردّها تمهيد لما سيأتي من التفصيل في الردّة على هذه الشبهات، ليتأكد بذلك أن القرآن فرقان بين الحق والباطل.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٧-٤٤)

الردّة على فريات المشركين حول الرسول ﷺ والقرآن مع بيان مصيرهم يوم القيامة:

■ ذكر السياق عدداً من فريات المشركين حول الرسول ﷺ مع الردّة: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْشِئُ فِي الْأَسْوَاقِ ۝ وَطَلَبُوا أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ يَنْذِرُ مَعَهُ، أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ، أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ، وَاتَّهَمُوهُ بِأَنَّهُ مَسْحُورٌ، وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿بَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا ۝﴾.

■ وقد بين السياق مصير المكذّبين يوم القيامة، فقال عنهم حين سيدخلون النار يوم القيامة: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۝﴾.

■ ومن باطلهم أنهم أعرضوا عن القرآن وهجروه: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۝﴾، وقد جاء الردّ عليهم مخففاً عنه ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكُنِيَ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات ٤٥-٦٢)

تعقيب على الفريات بذكر مظاهر أخرى لعظمة منزل القرآن سبحانه:

■ من ذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾.

■ ومن ذلك: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَاسَا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ (٥٧) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (٥٨) ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْآئِي كَثِيرًا﴾ (٥٩).

■ إن عرض مظاهر عظمة منزل الفرقان سبحانه وتعالى فيه أبلغ رد على فريات المكذبين حول القرآن أو الرسول ﷺ كما جاء في المقدمة.

الموضوع الرابع: (الآيات ٦٣-٧٧)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ بعد عرض فريات المكذبين المشركين والرذ عليها، بيّنت الخاتمة صفات المؤمنين المتقين، ليتّم بذلك بيان أن القرآن فرقان بين الحق والباطل.

■ فعباد الرحمن هم الذين يمشون على الأرض هوناً، ويعرضون عن الجاهلين، ويبيتون لربهم سجداً وقياماً، ويستعيذون به من عذاب جهنم، ولا يسهفون ولا يقترون في إنفاقهم.

■ وبيّنت الخاتمة موقف المؤمنين من الرسول ﷺ ورسالته بعد بيان موقف المكذبين من ذلك: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (٦٣).

■ وكما افتتحت السورة ببيان عظمة منزل هذا القرآن الذي جعله نذيراً للعالمين، وأنه له ملك السماوات والأرض فهو غني عن العالمين، ختمت ببيان أنه لا يعبأ بالبشر إلا لدعاء أهل الحق له سبحانه، وأنه قادر على تعذيب أهل الباطل: ﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُنَا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَانًا﴾.

سورة الشعراء

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٩﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْنَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴿٣١﴾ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية إلى وصف حال الشعراء، الذين هم أفصح الناس، فالكافرون منهم مع ما أوثوه من الفصاحة يهيمون في الحياة بلا هدف، وهم كاذبون مدعون، يخالف قولهم فعلهم، وهم فوق ذلك يغوون ضعفاء النفوس إذ يُسَحَرُونَ بفصاحتهم، وقد كان من المفترض أن يكون هؤلاء الشعراء أول من يؤمن ببلاغة القرآن المعجزة، ولكن الذين آمنوا منهم بالقرآن وبالإسلام، سَخَرُوا فصاحتهم لخدمة الدين فانتصروا بعدما غلبوا، ففي تسمية السورة بـ «الشعراء» تعريض بمن كفر ببلاغة القرآن منهم واتبع هواه ولم تنفعه فصاحته، ومدح لمن آمن منهم وسَخَّر فصاحته للدين.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة تبين أن منهج النبي ﷺ ومنهج القرآن غير منهج الشعراء، وغير منهج الشعر أصلاً، فالقرآن يستقيم على نهج واضح ويدعو لغاية محدّدة، والرسول ﷺ لا يقول قولاً ينقضه غداً، بينما الشعراء أسرى الانفعالات والعواطف المتقلّبة، تتحكّم فيهم مشاعرهم وتقودهم إلى التعبير كيفما كانت، فالسورة تؤكد أن القرآن بيّن بياناً معجزاً دالاً على أنه من عند الله، وفي ذلك أبلغ ردّ على من اتّهم النبي ﷺ بأنه شاعر، في حين أن الشعراء هم من يوظّفون الكلمة للتأثير على الآخرين بغير وجه حقّ غالباً^(١).

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٨٦، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٥، ص ٣٤٤، وقطب، في ظلال =

ومن الممكن أن تلخص الأقوال المذكورة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال آيات الله القرآنية، وآيات الوحي التي أيد بها الأنبياء والمرسلين، الواضحة الحجة البينة الدلالة عليه سبحانه، مع بيان موقف الأقوام المكذّبين السابقين ومصيرهم، ولما كان عرض موقف الشعراء الذين كان من المفترض أن تقودهم فصاحتهم إلى أن يكونوا أول المؤمنين ببلاغة القرآن المعجزة، فيستخروا فصاحتهم لخدمة الدين بدلاً من تسخيرها للتأثير على الناس بغير وجه حق، لما كان عرض موقفهم يدل على التشابه بينهم وبين موقف الأقوام المكذّبين بآيات الرسل البينات، لجعل اسماً للسورة للدلالة على المحور المذكور.

وقد تميزت هذه السورة بأنها سورة بيان الحجة الواضحة البينة للآيات التي أيد الله بها أنبياءه ورسله، وللآيات القرآنية المنزلة على سيدنا محمد ﷺ، التي يفترض أن يؤمن الناس - وعلى رأسهم الشعراء - بها لبلاغتها وحجتها المعجزة.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: مقدّمة تبيّن موقف المكذّبين من آيات الله تعالى بالرغم من حجّتها البينة المعجزة، وعرض قصصي يبرز موقف الأقوام من آيات الوحي البينة الحجّة التي أيد الله بها أنبياءه ورسله، والخاتمة المؤكّدة لما سبق^(١).

= القرآن، ج ٥، ٢٥٨٣، ٢٦٢١، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٩، ص ٩٠، وأ. د. مسلم، التفسير الموضوعي، م ٥، ص ٣٢٨، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ٢٨٥، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ١٨٥ - ١٩١.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١ - ٩، والعرض القصصي: ١٠ - ١٩١، والخاتمة: ١٩٢ - ٢٢٧، ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه ومن ذلك، أولاً: هي أكثر سورة في القرآن جاء فيها الوصف «مبين» لآيات الله تعالى: فقال عن القرآن ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾: ٢، وعن موسى عليه السلام ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾: ٣٠، و ﴿فَإِذَا هِيَ ثَمَنٌ مُّبِينٌ﴾: ٣٢، وعن نوح عليه السلام ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: ١١٥، وعن القرآن مرة أخرى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبٍ مُّبِينٍ﴾: ١٩٥، ثانياً: هي أكثر سورة في القرآن ذكرت في عبارة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ بعد إهلاك المكذّبين بآيات الله البينات، وذلك ثمانين مرات: ٨، ٦٧، ١٠٣، ١٢١، ١٣٩، ١٥٨، ١٧٤، ١٩٠، ثالثاً: هي الوحيدة التي فيها قوله ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَآيَةٌ أَن يَلْعَنَهُ عُلَاقَتُهُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾: ١٩٧، والوحيدة التي فيها قوله ﴿تَنَزَّلُ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾: ١٩٣، وقوله ﴿وَإِنَّهُ لَنَبِيٍّ رَّبِّ الْأَوَّلِينَ﴾: ١٩٦، =

أولاً: جاء في مقدمة السورة بيان أن آيات الله تعالى واضحة الحجة بيّنة الدلالة، ومع ذلك يكذب بها المكذبون حتى استحقوا العذاب: ﴿طَسَّرَ ①﴾ تَلَكَّ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ② تَلَكَّ بَصِغَ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ③ إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ءَايَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ④ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْتَهُ مُعْرِضِينَ ⑤ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ⑥ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَثْبَنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ⑦ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ⑧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑨، فلاحظ وصف الكتاب بالمبين، وبيان إعراضهم عن كل آية مُحَدَّثَةٍ من الرحمن دالة عليه سبحانه، وتهديدهم بنزول العذاب إذا أصرّوا على تكذيبهم، ولاحظ بيان أنه تعالى هو الذي أنبت في الأرض من كل زوج كريم، وبذلك تجتمع الآيات الكونية مع الآيات القرآنية على الدلالة عليه سبحانه.

فالمقدمة كما ترى تثبت أن آيات القرآن واضحة الحجة، بيّنة الدلالة، يفترض من الشعراء الذين هم أفصح الناس أن يكونوا أول من يؤمن لبلاغة القرآن المعجزة، فيدافعوا عن الدين، بدلاً من تسخير فصاحتهم في الباطل.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض قصصي يؤكد أن آيات الوحي التي أيد الله بها رسله وأنبياءه السابقين، كانت أيضاً واضحة الحجة بيّنة الدلالة، فبذلك يثبت أن مرسل الرسل

= وقوله ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ⑩ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ⑪﴾: ١٩٨، ١٩٩، وقوله ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ ⑫﴾ وقوله ﴿وَمَا يَلْبَسُونَ ⑬﴾: ٢١٠، ٢١١، رابعاً: انظر قوله تعالى ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْتَهُ مُعْرِضِينَ ⑭﴾: ٥، وانظر قريباً منه في سورة الأنبياء: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَتَمَمُّهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ⑮﴾: ٢، خامساً: وانظر قوله ﴿وَلَقَدْ لَنَزَّلْنَا نَارَهُ مِنَ السَّمَاءِ ⑯﴾: ١٩٢، وانظر قريباً منه في سورة السجدة: ٢، والواقعة: ٨٠، والحاقة: ٤٣، سادساً: هي وسورة القمر السورتان الوحيدتان اللتان تكررت فيهما كلمة «كذبت» عن الأقوام: فانظر في سورة الشعراء ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ⑰﴾: ١٠٥، وانظر عن عاد ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ⑱﴾: ١٦٠، وانظر في سورة القمر عن قوم نوح ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ⑲﴾: ٩، وعن عاد ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايُ ⑳﴾: ١٨، وعن ثمود ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّذِيرِ ㉑﴾: ٢٣، وعن قوم لوط ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي ㉒﴾: ٣٣، سابغاً: هي السورة الوحيدة التي تكرر فيها ذكر الاسمين الجليلين «العزیز الرحيم»، وذلك بتكرار العبارة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ㉓﴾ تسع مرات: ٩، ٦٨، ١٠٤، ١٢٢، ١٤٠، ١٥٩، ١٧٥، ١٩١، ٢١٧، واسم «العزیز» ملائم لبيان إهلاك المكذبين بآيات الله البينات، و«الرحيم» ملائم لإرسال الرسل بالآيات البينات لهداية الناس. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

جميعاً هو إله واحد سبحانه، وفي عرض موقف الأقوام المكذّبين بهذه الآيات البينات حتى أهلّكهم الله، يثبت أن الشعراء المكذّبين ببلاغة القرآن المعجزة مستحقّون للعذاب أيضاً، وقد كانت أول قصة معروضة هي قصة موسى عليه السلام، وذلك لعدّة أمور منها: أنه أيد بمعجزات محسوسة بالإضافة إلى تأييده بآيات الوحي، ثم إن عرض قصته أبرز شرك فرعون وقومه، ولم يذكر شرك الأقوام في القصص الأخرى بشكل صريح، إلا في قصة إبراهيم عليه السلام، ولذلك عُرِضت بعد قصة موسى مباشرة: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ أَتَنِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ١١ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ١٣ وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ١٤ قَالَ كَلَّا فَادْخُلَا يَتَابِعِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ١٥ فَارْعَوْا فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ١٧﴾، ولاحظ أن التركيز كان على أن الله تعالى سيطلق لسان موسى عليه السلام بالحجة البيّنة، وسيؤيده بأخيه هارون، ليتفق ذلك مع وصف آيات القرآن في المقدمة بأنها بيّنة، ولم يذكر شيئاً عن العصا واليد، إذ المقصود بالمقام الأول إثبات أن حجة الأنبياء والرسل بيّنة واضحة.

﴿قَالَ أَلَمْ نَرْبِكُ فِيمَا وُلِدْنَا وَلَيْسَتْ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سِنِينَ ١٨ وَفَعَلْتَ فَعَلْنَاكَ الْآتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ١٩ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ٢٠ فَفَرَّرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَرَّهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ٢١ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبْدَتَنِي بَنِي إِسْرَءِيلَ ٢٢ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ٢٣ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ٢٤ قَالَ لِمَنْ حَوَالَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ٢٥ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ٢٧ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ٢٨ قَالَ لَنْ أَخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ٢٩﴾، لاحظ طول هذه المحاجة التي لم تتكرر في القرآن على هذا النحو، وأن موسى عليه السلام دحض بما أيّده الله من الحجة الواضحة فريات فرعون حتى ألجأه إلى الاستبداد بقوّته، بعد أن أفحم موسى عليه السلام فرياته.

ثم عرض السياق موقف فرعون وملئه من آيتي العصا واليد، حتى أشاروا عليه بإرجائه وأخيه إلى موعد محدّد لمواجهتهما، ثم عرض السياق موقف السحرة الذين آمنوا لهاتين الآيتين البيّنتين: ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ٣٠ فَلَمَّا أَلْقَوْا جَآلَتْهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا

لَنَحْنُ الْعَلِيُّونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنَاتِهِ ﴿٤٦﴾ فَأَلْقَى رَبُّكَ الْمَلَائِكَةَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ ، فموقف هؤلاء المؤمنين السحرة الحاذقين في السحر مشابه لموقف من آمن ببلاغة القرآن المعجزة من الشعراء الحاذقين في الفصاحة ، فكلما الفريقين سَخَّرَ موهبته من خدمة الدين بعدما آمن .

ثم عرض السياق مصير فرعون وملئه المكذبين ، إذ أصرّوا على التكذيب وعلى ملاحقة موسى عليه السلام ومن آمن معه ، ومن اللطيف أن هذه السورة هي الوحيدة التي عرضت هذا التصرف من فرعون : ﴿ فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَلَأَيْنِ خَاشِعِينَ ﴾ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنَّهُمْ لَنَافِعُونَ ﴿٥١﴾ وَلَئِنَّا لَجَمِيعٌ خَالِدُونَ ﴿٥٢﴾ ، وفيه مزيد تأكيد على تكذيبه بالرغم من الآيات البينات التي أُيدَ بها موسى ، ثم كان مصير تكذيبهم أن الله أغرق فرعون وقومه ، وأنجى موسى ومن آمن معه أجمعين . فهذه أول قصة تعرض موقف المكذبين بالآيات البينات التي أُيدَ الله بها رسله وتبين مصيرهم .

ثم انتقل السياق إلى عرض قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ﴿٥٣﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عِذْقِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٥٦﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٥٨﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٥٩﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ ﴿٦٠﴾ فَإِنَّهُمْ عَادُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ، ولاحظ طول المحاجة أيضاً ، ولاحظ أن إبراهيم عليه السلام دحض شبهات قومه بما أُيده الله من الحجة والبرهان ، ثم عرض السياق مصير المشركين يوم القيامة ، وفي ذلك تعريض بمن أصرّ على الشرك من قوم إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَبَرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَنْزِلُوا مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٦٤﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٦٥﴾ فَكَبَّكُوا فِيهَا لَهُمْ وَالْفَاوُونَ ﴿٦٦﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٨﴾ تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٩﴾ إِذْ تُسَوِّكَمُ رَبُّ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ . فقصة إبراهيم عليه السلام كما ترى أيضاً تعرض موقف المكذبين والمشركين ومصيرهم بعدما أصرّوا على التكذيب بالحجة والبرهان الذي أُيده الله به .

ثم عرض السياق قصة نوح عليه السلام : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿٧١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٧٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٧٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٧٤﴾

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٤٩ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ١٥٠ ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ ١٥١ ﴿قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ١٥٢ ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ ١٥٣ ، ولاحظ إصرارهم على التكبر بالرغم من حجة نوح وبرهانه الساطع ، وقد عرض السياق أيضاً أنهم هددوه بالرجم إن لم ينته عن دعوته ، حتى اضطر إلى دعاء الله بالنصر ، فأنجاه الله ومن آمن معه في الفلك المشحون ، وأغرق بعد الباقيين .

ثم عرض قصة هود عليه السلام مع عاد : ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ١٥٤ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفِقُ﴾ ١٥٥ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ١٥٦ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ١٥٧ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٥٨ ﴿أَتَنْتُونِي بِكُلِّ رِيحٍ مَاءِةٍ تَعْبَثُونَ﴾ ١٥٩ ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ ١٦٠ ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَارِينَ﴾ ١٦١ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ١٦٢ ﴿وَاتَّقُوا الَّذِيَ أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ١٦٣ ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنعَمٍ وَبَيْنَ﴾ ١٦٤ ﴿وَحَنَّتِ وَعُيُونٍ﴾ ١٦٥ ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ١٦٦ ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ ١٦٧ ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ ١٦٨ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ ١٦٩ ، ويلاحظ فيها أيضاً إصرار القوم على التكذيب بالرغم من سطوع الحجة والبرهان .

ثم عرض قصة صالح عليه السلام مع ثمود : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ١٧٠ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ١٧١ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ١٧٢ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ١٧٣ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٧٤ ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هُمْ هَاهُنَا آمِنِينَ﴾ ١٧٥ ﴿فِي جَنَّتِ وَعُيُونٍ﴾ ١٧٦ ﴿وَرُزُوعٍ وَتَحْلِ طَلْمَهَا هَاضِمٌ﴾ ١٧٧ ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ ١٧٨ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ١٧٩ ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ١٨٠ ﴿الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ١٨١ ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ١٨٢ ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ١٨٣ ، وقد عرض السياق إصرارهم على التكذيب حتى بعدما رأوا آية الناقة ، فعقروها فأصبحوا نادمين ، فأخذهم العذاب .

ثم عرض قصة لوط عليه السلام مع قومه : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ ١٨٤ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ١٨٥ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ١٨٦ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ١٨٧ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٨٨ ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ١٨٩ ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ ١٩٠ ﴿قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ ١٩١ ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ ١٩٢ ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ١٩٣ ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ١٩٤ ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ ١٩٥ ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ﴾ ١٩٦ ،

وبيّن السياق أن عاقبة تكذيبهم بالحجة والبرهان الذي أُيد به لوط عليه السلام كانت أن أرسل الله عليهم الحجارة كالمطر .

ثم عرض في الختام قصة شعيب مع أصحاب الأيكة : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ۖ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمَرْسِلِينَ ۖ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۖ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۖ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ۖ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ۖ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۖ (١٨٢) وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۖ (١٨٣) وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْحِجَلَ الْأُولَىٰ ۖ (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۖ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ۖ (١٨٦) ﴾ ، ثم عرض السياق نتيجة تكذيبهم بأن أخذهم عذاب يوم الظلة .

فهذا العرض القصصي كما ترى يعرض موقف الأقوام المصرّين على التكذيب بالرغم مما أيد الله به أنبياءه ورسله من الحجة والبرهان، وبيّن عاقبة تكذيبهم، وفي ذلك أبلغ دعوة لقوم النبي ﷺ وعلى رأسهم الشعراء الذين هم أفصح الناس، ليؤمنوا لبلاغة القرآن المعجزة .

ثالثاً : جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت تهديد المكذّبين الكافرين بالقرآن بالرغم من حجته وبرهانه وبلاغته المعجزة : ﴿ وَلَهُمْ لَنَزِيلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ (١٨٧) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۖ (١٨٨) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۖ (١٨٩) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ۖ (١٩٠) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأُولَىٰ ۖ (١٩١) أَوْ لَوْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَأْمُرَهُمْ عَلَيْهِمْ بِتَبَتٍ إِسْرَءِيلَ ۖ (١٩٢) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ۖ (١٩٣) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ۖ (١٩٤) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۖ (١٩٥) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ (١٩٦) حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۖ (١٩٧) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۖ (١٩٨) ﴾ .

وأكدت على أنه ليس لأحد سبيل على هذا القرآن، حتى لو كان من الشياطين، بل هو محفوظ بحفظ منزله سبحانه، فينبغي أن تكون العبادة له وحده : ﴿ وَمَا نَنْزَلُكَ بِهِ الشَّيْطَانُ ۖ (١٩٩) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۖ (٢٠٠) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَرُوُونَ ۖ (٢٠١) فَلَا تَنْفَعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمَعْدِيَنَ ۖ (٢٠٢) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۖ (٢٠٣) ﴾ .

وكما افتتحت السورة ببيان حجة القرآن وبرهانه الساطع وبلاغته المعجزة مع تهديد المصرّين على التكذيب بالعذاب، ختمت ببيان موقف الشعراء الذين ينبغي أن تقودهم

فصاحتهم إلى أن يكونوا أول من يؤمن ببلاغة القرآن المعجزة، فيسخرّوا فصاحتهم للدين، بدلاً من أن يكذبوا به ويسخرّوا فصاحتهم للباطل، وأن من يكذب منهم مع ما أوتي من فصاحة بالقرآن العظيم، فهو من الظالمين المستحقين للعذاب: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۚ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۚ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۚ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ۚ وَسِعَعُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ۚ﴾.

وهكذا التقى البدء والختام في هذه السورة على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ

الدلالة.



سورة الشعراء

سورة بيان الحجة الواضحة البينة للآيات التي أيد الله بها أنبياءه ورسله، وللآيات القرآنية المنزلة على سيدنا محمد ﷺ، التي يُفترض أن يؤمن الناس - وعلى رأسهم الشعراء - بها لبلاغتها وحجتها المعجزة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٩)

المقدمة التي تبين موقف المكذبين بآيات الله بالرغم من حجتها البينة المعجزة:

■ افتتحت السورة ببيان أن آيات الله بينة الحجة:

﴿طَسَّرَ ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ .

■ وهذت المكذبين بآيات الله سبحانه وتعالى:

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْتَهُ

مُعْرِضِينَ ۝﴾ .

■ وأيدت حجة الآيات القرآنية بذكر عظمة

الآيات الكونية الدالة على الخالق: ﴿أَوَلَمْ

يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝﴾

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝﴾ .

■ فوضوح حجة وبلاغة آيات القرآن يفترض أن

تقود الناس - وعلى رأسهم الشعراء لأنهم

أبلغ الناس - للإيمان بهذه الآيات .

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٠-١٩١)

عرض قصصي يبرز موقف الأقوام من آيات الوحي البينة الحجة التي أيد الله بها أنبياءه ورسله:

■ ابتدأ السياق بعرض قصة موسى عليه السلام لأنه أيد بمعجزات محسوسة بالإضافة إلى تأييده بآيات الوحي، وقد برز شرك قومه بوضوح، ولم يذكر شرك الأقوام في القصص التالية سوى قصة إبراهيم عليه السلام، ولذلك ذكرت بعد قصة موسى مباشرة.

■ ابتدأ عرض القصة من مشهد المناجاة الذي برز فيه أن الله سيؤيد رسوله بالحجة البينة وبأخيه هارون عليه السلام.

■ ثم عرض السياق محاكاة طويلة بين موسى عليه السلام وفرعون، أفجم فيها فرعون حتى استبد بقوته.

■ وعرض السياق إيمان السحرة الحاذقين بالسحر، ليتلاءم موقفهم مع من آمن من الشعراء الحاذقين بالشعر، والذين سخروا فصاحتهم للدين كما سيأتي آخر السورة.

الموضوع الثالث: الآيات: (١٩٢-٢٢٧)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

- أعادت التأكيد على بلاغة القرآن وحجته المعجزة، كما أيد الله رسله السابقين بالحجة والبرهان: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ لِبَشَرٍ عَرِيفٍ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾.
- وأكدت حفظ الله تعالى لهذا القرآن ذي الحجة والبرهان الساطع: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٠٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢٠١﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان حجة القرآن المعجزة مع تهديد المصيرين على التكذيب بالعذاب، ختمت ببيان موقف الشعراء الذين ينبغي أن تقودهم فصاحتهم إلى أن يكونوا أول المؤمنين ببلاغة القرآن، مع تهديد المكذبين منهم بالعذاب: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٠٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٠٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْبَصَرُوا ﴿٢٠٥﴾ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾.

- ثم عرض السياق قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه، وبرز فيها محاجة طويلة بينه وبينهم، أفحّم فيها إبراهيم عليه السلام قومه بما أيده الله من الحجة والبرهان.
- ثم عرض قصة نوح عليه السلام مع قومه، وبرز فيها إصرارهم على الكفر رغم حجة نوح عليه السلام وبرهانه، وقد كان مصيرهم أن أغرقوا إلا من آمن منهم.
- ثم عرض قصة هود عليه السلام مع عاد، ويلاحظ فيها إصرارهم على التكذيب بالرغم من سطوح الحجة والبرهان.
- ثم عرض قصة صالح عليه السلام مع ثمود، وبرز فيها إصرارهم على التكذيب حتى بعدما رأوا آية الناقة.
- ثم عرض قصة لوط عليه السلام مع قومه، الذين أصرّوا على تكذيب لوط عليه السلام وما أيّد به من الحجة والبرهان.
- ثم عرض قصة شعيب عليه السلام مع أصحاب الأيكة، وهم كذلك كذبوا شعيباً عليه السلام رغم حجته وبرهانه.

سورة النمل

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٧﴾ حَتَّىٰ
 إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا
 يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٨﴾ فَنَبَسَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا
 وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ
 أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سميت هذه السورة الكريمة بسورة «النمل» لذكر قصة سليمان عليه السلام حينما سار
 بجنوده ومرت على وادي النمل، فخافت نملة أن يحطم سليمان عليه السلام وجنوده النمل
 وهم لا يشعرون، فحذرت النمل وأمرتهم بدخول مساكنهم، فسمع سليمان عليه السلام
 كلامها وشكر الله على أن أشهده إعجازه في أحد آيات خلقه. فالقصة تدل على إعجاز الله
 في آية من آيات الخلق، وتعرض أنموذج شكر الله واعتراف بنعمته مقابل هذه الآية. فاسم
 السورة يدل على أنه ينبغي أن يكون الإنسان شاكرًا لله على أن جعله مؤمناً بآياته المعجزة.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً في الربط بين اسم السورة ومحورها
 وموضوعاتها، فذكروا أن من مقاصد هذه السورة إظهار العلم والحكمة التي ألهمها الله
 لمخلوقاته فكانت آيات تبرز وحدانيته في الخلق، وذكروا أن من مقاصدها أيضاً الاهتمام
 بنواحي العقيدة من توحيد العبادة لله، والإيمان بالآخرة، وأن الغيب لله لا يعلمه سواه،
 والدعوة إلى شكر أنعم الله على البشر، وذكروا أن قصة النمل تحوي دلالات تؤكد هذه
 المقاصد، فهي تبرز هداية الله التي أودعها في مخلوقاته، التي تجلت في قول النملة من
 حسن التدبير وصحة السياسة وحسن التعبير وبلاغة التأدية عن ذلك القصد، وتعرض موقف

سليمان عليه السلام الشاكر لله على نعمه^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان بآيات الله القرآنية والكونية، من خلال عرض نماذج إيمان وشكر، ونماذج جحود وكفر لهذه الآيات، مع ذكر مصير نماذج الكافرين، وإنما اختير اسم «النمل» لهذه السورة لأن دلالات قصة النمل السياقية فيها أدل ما في السورة على إعجاز الله حتى في أحد أضعف مخلوقاته، فكانت آية دالة عليه، ولأن من دلالاتها عرض موقف الإيمان والشكر إزاء هذه الآية.

وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة الدعوة إلى أن يكون موقف الإنسان من آيات القرآن ومن الآيات التي تبرز وحدانية الله في الخلق موقف الإيمان والشكر، لا الجحود والكفر. وبتأمل موضوعات السورة يظهر الترابط الوثيق بينها وبين الدلالات السياقية لاسم السورة، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن تقسيم السورة إلى أربعة موضوعات رئيسية: مقدّمة داعية إلى الإيمان بآيات الله القرآنية وما تحويه من أصول الإيمان، ثم عرض قصصي لنماذج إيمان وشكر، ونماذج جحود وكفر إزاء آيات الله، ثم تعقيب إلهي على هذه القصص يدعو إلى الإيمان من خلال ذكر بعض الآيات الكونية، ثم خاتمة مؤكّدة لما سبق^(٢).

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٩٩، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٥، ص ٤٠٥، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٦٢٤-٢٦٣٣، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٩، ص ٢١٥، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٥، ص ٤١٧ و ٤١٨، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٢٩١، ووادي، ومنها، من دلالات أسماء السور، ١٩٢-١٩٦.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ٦-١، والعرض القصصي شمل كلاً من الأنبياء التاليين: موسى: ٧-١٤، سليمان بن داود: ١٥-٤٤، صالح: ٤٥-٥٣، لوط: ٥٤-٥٨ عليهم السلام جميعاً، والتعقيب الإلهي على هذه القصص: ٥٩-٨١، والخاتمة: ٨٢-٩٣. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور تعرض نماذج الإيمان والشكر: (أ) فقول داود وسليمان عليهما السلام ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: ١٥، لم يتكرر في القرآن، (ب) وأما هذا الدعاء: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ لم يذكر في القرآن إلا هنا: ١٩، وفي سورة الأحقاف: ١٥، (ج) عرض إسلام ملكة سبأ لله رب العالمين جاء هنا فقط: ٤٤، وكذلك قول سليمان ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِي رَبِّي لِيَبْلُوَنِي مَا أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾: ٤٠، (هـ) سورة النمل وسورة الزمر أكثر =

أولاً: جاءت المقدمة مبينة فضل القرآن العظيم، وما تدعو إليه آياته من أصول الإيمان: ﴿طَسَّٰ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ ۝ وَإِنَّكَ لَتَلْقَىٰ الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝﴾، فآيات الله القرآنية تحوي هدى وتبشيراً للمؤمنين، وتدعوهم إلى الإيمان بالآخرة والقيام بما ينبنى على الإيمان من صلاة وزكاة. ولاحظ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَىٰ الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝﴾، الذي يدل على أن مصدر الآيات المنزلة على سيدنا محمد ﷺ هو الله تعالى، وهو ذاته من أرسل موسى عليه السلام بآيات بينات إلى فرعون كما سيأتي، وهو ذاته من ألهم النملة الهدى والحكمة حينما أنقذت قومها، فكما أن الآيات القرآنية تدعو إلى الإيمان به، كذلك تدعو آيات الله في خلقه والتي أكثرها دلالة على إعجازه في هذه السورة آية النمل التي سميت السورة باسمها. فالمقدمة تدعو إلى الإيمان بالآيات القرآنية الدالة على وحدانية الله.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض قصصي متنوع يعرض نماذج مختلفة لمواقف البشر إزاء آيات الله تعالى، فكان أولها فرعون وقومه الذين رأوا تسع آيات باهرات لكنهم جحدوا

= سورتين تكررت فيهما عبارة ﴿تَلْعَدُوا يَوْمَ﴾: ١٥، ٥٩، ٩٣، والزمر: ٢٩، ٧٤، ٧٥، ثانياً: ومنها أمور تعرض نماذج الجحود والكفر: أ) فقوله تعالى عن فرعون وقومه ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَ يَدَيْهِمْ ظُلُمًا غُلَامًا﴾: ١٤، لم يتكرر بهذه الصيغة، علماً بأن وصف آيات موسى بـ ﴿مُبِيرَةً﴾ لم يذكر إلا هنا كذلك: ١٣، ب) وقوله تعالى عن المفسدين من ثمود ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾: ٤٩، لم يتكرر، ج) وأما قول قوم لوط ﴿أَخْرِجُوا مَا لَكُمْ لُوطُ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّظَاهُرُونَ﴾: ٥٦، فلم يذكر في موضع آخر إلا في سورة الأعراف: ٨٢، ثالثاً: ومنها أمور متعلقة بآيات الله الداعية إلى الإيمان والشكر: أ) فلم يذكر كلام النملة إلا هنا: ١٨، ب) وكذلك كلام الهدد: ٢٢-٢٦، ج) وكذلك قوله ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾: ٨٢، د) وانظر تكرار الاستفهام التقريري ﴿أَتَنْتَظِرُ﴾: ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٤٦، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٣، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٠٢، ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦٠٧، ٦٠٨، ٦٠٩، ٦١٠، ٦١١، ٦١٢، ٦١٣، ٦١٤، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٧، ٦١٨، ٦١٩، ٦٢٠، ٦٢١، ٦٢٢، ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٦، ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٢٩، ٦٣٠، ٦٣١، ٦٣٢، ٦٣٣، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٣٦، ٦٣٧، ٦٣٨، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٤١، ٦٤٢، ٦٤٣، ٦٤٤، ٦٤٥، ٦٤٦، ٦٤٧، ٦٤٨، ٦٤٩، ٦٥٠، ٦٥١، ٦٥٢، ٦٥٣، ٦٥٤، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٧، ٦٥٨، ٦٥٩، ٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٢، ٦٦٣، ٦٦٤، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٦٧، ٦٦٨، ٦٦٩، ٦٧٠، ٦٧١، ٦٧٢، ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٧٥، ٦٧٦، ٦٧٧، ٦٧٨، ٦٧٩، ٦٨٠، ٦٨١، ٦٨٢، ٦٨٣، ٦٨٤، ٦٨٥، ٦٨٦، ٦٨٧، ٦٨٨، ٦٨٩، ٦٩٠، ٦٩١، ٦٩٢، ٦٩٣، ٦٩٤، ٦٩٥، ٦٩٦، ٦٩٧، ٦٩٨، ٦٩٩، ٧٠٠، ٧٠١، ٧٠٢، ٧٠٣، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧٠٦، ٧٠٧، ٧٠٨، ٧٠٩، ٧١٠، ٧١١، ٧١٢، ٧١٣، ٧١٤، ٧١٥، ٧١٦، ٧١٧، ٧١٨، ٧١٩، ٧٢٠، ٧٢١، ٧٢٢، ٧٢٣، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٦، ٧٢٧، ٧٢٨، ٧٢٩، ٧٣٠، ٧٣١، ٧٣٢، ٧٣٣، ٧٣٤، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٣٧، ٧٣٨، ٧٣٩، ٧٤٠، ٧٤١، ٧٤٢، ٧٤٣، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٤٦، ٧٤٧، ٧٤٨، ٧٤٩، ٧٥٠، ٧٥١، ٧٥٢، ٧٥٣، ٧٥٤، ٧٥٥، ٧٥٦، ٧٥٧، ٧٥٨، ٧٥٩، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٢، ٧٦٣، ٧٦٤، ٧٦٥، ٧٦٦، ٧٦٧، ٧٦٨، ٧٦٩، ٧٧٠، ٧٧١، ٧٧٢، ٧٧٣، ٧٧٤، ٧٧٥، ٧٧٦، ٧٧٧، ٧٧٨، ٧٧٩، ٧٨٠، ٧٨١، ٧٨٢، ٧٨٣، ٧٨٤، ٧٨٥، ٧٨٦، ٧٨٧، ٧٨٨، ٧٨٩، ٧٩٠، ٧٩١، ٧٩٢، ٧٩٣، ٧٩٤، ٧٩٥، ٧٩٦، ٧٩٧، ٧٩٨، ٧٩٩، ٨٠٠، ٨٠١، ٨٠٢، ٨٠٣، ٨٠٤، ٨٠٥، ٨٠٦، ٨٠٧، ٨٠٨، ٨٠٩، ٨١٠، ٨١١، ٨١٢، ٨١٣، ٨١٤، ٨١٥، ٨١٦، ٨١٧، ٨١٨، ٨١٩، ٨٢٠، ٨٢١، ٨٢٢، ٨٢٣، ٨٢٤، ٨٢٥، ٨٢٦، ٨٢٧، ٨٢٨، ٨٢٩، ٨٣٠، ٨٣١، ٨٣٢، ٨٣٣، ٨٣٤، ٨٣٥، ٨٣٦، ٨٣٧، ٨٣٨، ٨٣٩، ٨٤٠، ٨٤١، ٨٤٢، ٨٤٣، ٨٤٤، ٨٤٥، ٨٤٦، ٨٤٧، ٨٤٨، ٨٤٩، ٨٥٠، ٨٥١، ٨٥٢، ٨٥٣، ٨٥٤، ٨٥٥، ٨٥٦، ٨٥٧، ٨٥٨، ٨٥٩، ٨٦٠، ٨٦١، ٨٦٢، ٨٦٣، ٨٦٤، ٨٦٥، ٨٦٦، ٨٦٧، ٨٦٨، ٨٦٩، ٨٧٠، ٨٧١، ٨٧٢، ٨٧٣، ٨٧٤، ٨٧٥، ٨٧٦، ٨٧٧، ٨٧٨، ٨٧٩، ٨٨٠، ٨٨١، ٨٨٢، ٨٨٣، ٨٨٤، ٨٨٥، ٨٨٦، ٨٨٧، ٨٨٨، ٨٨٩، ٨٩٠، ٨٩١، ٨٩٢، ٨٩٣، ٨٩٤، ٨٩٥، ٨٩٦، ٨٩٧، ٨٩٨، ٨٩٩، ٩٠٠، ٩٠١، ٩٠٢، ٩٠٣، ٩٠٤، ٩٠٥، ٩٠٦، ٩٠٧، ٩٠٨، ٩٠٩، ٩١٠، ٩١١، ٩١٢، ٩١٣، ٩١٤، ٩١٥، ٩١٦، ٩١٧، ٩١٨، ٩١٩، ٩٢٠، ٩٢١، ٩٢٢، ٩٢٣، ٩٢٤، ٩٢٥، ٩٢٦، ٩٢٧، ٩٢٨، ٩٢٩، ٩٣٠، ٩٣١، ٩٣٢، ٩٣٣، ٩٣٤، ٩٣٥، ٩٣٦، ٩٣٧، ٩٣٨، ٩٣٩، ٩٤٠، ٩٤١، ٩٤٢، ٩٤٣، ٩٤٤، ٩٤٥، ٩٤٦، ٩٤٧، ٩٤٨، ٩٤٩، ٩٥٠، ٩٥١، ٩٥٢، ٩٥٣، ٩٥٤، ٩٥٥، ٩٥٦، ٩٥٧، ٩٥٨، ٩٥٩، ٩٦٠، ٩٦١، ٩٦٢، ٩٦٣، ٩٦٤، ٩٦٥، ٩٦٦، ٩٦٧، ٩٦٨، ٩٦٩، ٩٧٠، ٩٧١، ٩٧٢، ٩٧٣، ٩٧٤، ٩٧٥، ٩٧٦، ٩٧٧، ٩٧٨، ٩٧٩، ٩٨٠، ٩٨١، ٩٨٢، ٩٨٣، ٩٨٤، ٩٨٥، ٩٨٦، ٩٨٧، ٩٨٨، ٩٨٩، ٩٩٠، ٩٩١، ٩٩٢، ٩٩٣، ٩٩٤، ٩٩٥، ٩٩٦، ٩٩٧، ٩٩٨، ٩٩٩، ١٠٠٠، ١٠٠١، ١٠٠٢، ١٠٠٣، ١٠٠٤، ١٠٠٥، ١٠٠٦، ١٠٠٧، ١٠٠٨، ١٠٠٩، ١٠١٠، ١٠١١، ١٠١٢، ١٠١٣، ١٠١٤، ١٠١٥، ١٠١٦، ١٠١٧، ١٠١٨، ١٠١٩، ١٠٢٠، ١٠٢١، ١٠٢٢، ١٠٢٣، ١٠٢٤، ١٠٢٥، ١٠٢٦، ١٠٢٧، ١٠٢٨، ١٠٢٩، ١٠٣٠، ١٠٣١، ١٠٣٢، ١٠٣٣، ١٠٣٤، ١٠٣٥، ١٠٣٦، ١٠٣٧، ١٠٣٨، ١٠٣٩، ١٠٤٠، ١٠٤١، ١٠٤٢، ١٠٤٣، ١٠٤٤، ١٠٤٥، ١٠٤٦، ١٠٤٧، ١٠٤٨، ١٠٤٩، ١٠٥٠، ١٠٥١، ١٠٥٢، ١٠٥٣، ١٠٥٤، ١٠٥٥، ١٠٥٦، ١٠٥٧، ١٠٥٨، ١٠٥٩، ١٠٦٠، ١٠٦١، ١٠٦٢، ١٠٦٣، ١٠٦٤، ١٠٦٥، ١٠٦٦، ١٠٦٧، ١٠٦٨، ١٠٦٩، ١٠٧٠، ١٠٧١، ١٠٧٢، ١٠٧٣، ١٠٧٤، ١٠٧٥، ١٠٧٦، ١٠٧٧، ١٠٧٨، ١٠٧٩، ١٠٨٠، ١٠٨١، ١٠٨٢، ١٠٨٣، ١٠٨٤، ١٠٨٥، ١٠٨٦، ١٠٨٧، ١٠٨٨، ١٠٨٩، ١٠٩٠، ١٠٩١، ١٠٩٢، ١٠٩٣، ١٠٩٤، ١٠٩٥، ١٠٩٦، ١٠٩٧، ١٠٩٨، ١٠٩٩، ١١٠٠، ١١٠١، ١١٠٢، ١١٠٣، ١١٠٤، ١١٠٥، ١١٠٦، ١١٠٧، ١١٠٨، ١١٠٩، ١١١٠، ١١١١، ١١١٢، ١١١٣، ١١١٤، ١١١٥، ١١١٦، ١١١٧، ١١١٨، ١١١٩، ١١٢٠، ١١٢١، ١١٢٢، ١١٢٣، ١١٢٤، ١١٢٥، ١١٢٦، ١١٢٧، ١١٢٨، ١١٢٩، ١١٣٠، ١١٣١، ١١٣٢، ١١٣٣، ١١٣٤، ١١٣٥، ١١٣٦، ١١٣٧، ١١٣٨، ١١٣٩، ١١٤٠، ١١٤١، ١١٤٢، ١١٤٣، ١١٤٤، ١١٤٥، ١١٤٦، ١١٤٧، ١١٤٨، ١١٤٩، ١١٥٠، ١١٥١، ١١٥٢، ١١٥٣، ١١٥٤، ١١٥٥، ١١٥٦، ١١٥٧، ١١٥٨، ١١٥٩، ١١٦٠، ١١٦١، ١١٦٢، ١١٦٣، ١١٦٤، ١١٦٥، ١١٦٦، ١١٦٧، ١١٦٨، ١١٦٩، ١١٧٠، ١١٧١، ١١٧٢، ١١٧٣، ١١٧٤، ١١٧٥، ١١٧٦، ١١٧٧، ١١٧٨، ١١٧٩، ١١٨٠، ١١٨١، ١١٨٢، ١١٨٣، ١١٨٤، ١١٨٥، ١١٨٦، ١١٨٧، ١١٨٨، ١١٨٩، ١١٩٠، ١١٩١، ١١٩٢، ١١٩٣، ١١٩٤، ١١٩٥، ١١٩٦، ١١٩٧، ١١٩٨، ١١٩٩، ١٢٠٠، ١٢٠١، ١٢٠٢، ١٢٠٣، ١٢٠٤، ١٢٠٥، ١٢٠٦، ١٢٠٧، ١٢٠٨، ١٢٠٩، ١٢١٠، ١٢١١، ١٢١٢، ١٢١٣، ١٢١٤، ١٢١٥، ١٢١٦، ١٢١٧، ١٢١٨، ١٢١٩، ١٢٢٠، ١٢٢١، ١٢٢٢، ١٢٢٣، ١٢٢٤، ١٢٢٥، ١٢٢٦، ١٢٢٧، ١٢٢٨، ١٢٢٩، ١٢٣٠، ١٢٣١، ١٢٣٢، ١٢٣٣، ١٢٣٤، ١٢٣٥، ١٢٣٦، ١٢٣٧، ١٢٣٨، ١٢٣٩، ١٢٤٠، ١٢٤١، ١٢٤٢، ١٢٤٣، ١٢٤٤، ١٢٤٥، ١٢٤٦، ١٢٤٧، ١٢٤٨، ١٢٤٩، ١٢٥٠، ١٢٥١، ١٢٥٢، ١٢٥٣، ١٢٥٤، ١٢٥٥، ١٢٥٦، ١٢٥٧، ١٢٥٨، ١٢٥٩، ١٢٦٠، ١٢٦١، ١٢٦٢، ١٢٦٣، ١٢٦٤، ١٢٦٥، ١٢٦٦، ١٢٦٧، ١٢٦٨، ١٢٦٩، ١٢٧٠، ١٢٧١، ١٢٧٢، ١٢٧٣، ١٢٧٤، ١٢٧٥، ١٢٧٦، ١٢٧٧، ١٢٧٨، ١٢٧٩، ١٢٨٠، ١٢٨١، ١٢٨٢، ١٢٨٣، ١٢٨٤، ١٢٨٥، ١٢٨٦، ١٢٨٧، ١٢٨٨، ١٢٨٩، ١٢٩٠، ١٢٩١، ١٢٩٢، ١٢٩٣، ١٢٩٤، ١٢٩٥، ١٢٩٦، ١٢٩٧، ١٢٩٨، ١٢٩٩، ١٣٠٠، ١٣٠١، ١٣٠٢، ١٣٠٣، ١٣٠٤، ١٣٠٥، ١٣٠٦، ١٣٠٧، ١٣٠٨، ١٣٠٩، ١٣١٠، ١٣١١، ١٣١٢، ١٣١٣، ١٣١٤، ١٣١٥، ١٣١٦، ١٣١٧، ١٣١٨، ١٣١٩، ١٣٢٠، ١٣٢١، ١٣٢٢، ١٣٢٣، ١٣٢٤، ١٣٢٥، ١٣٢٦، ١٣٢٧، ١٣٢٨، ١٣٢٩، ١٣٣٠، ١٣٣١، ١٣٣٢، ١٣٣٣، ١٣٣٤، ١٣٣٥، ١٣٣٦، ١٣٣٧، ١٣٣٨، ١٣٣٩، ١٣٤٠، ١٣٤١، ١٣٤٢، ١٣٤٣، ١٣٤٤، ١٣٤٥، ١٣٤٦، ١٣٤٧، ١٣٤٨، ١٣٤٩، ١٣٥٠، ١٣٥١، ١٣٥٢، ١٣٥٣، ١٣٥٤، ١٣٥٥، ١٣٥٦، ١٣٥٧، ١٣٥٨، ١٣٥٩، ١٣٦٠، ١٣٦١، ١٣٦٢، ١٣٦٣، ١٣٦٤، ١٣٦٥، ١٣٦٦، ١٣٦٧، ١٣٦٨، ١٣٦٩، ١٣٧٠، ١٣٧١، ١٣٧٢، ١٣٧٣، ١٣٧٤، ١٣٧٥، ١٣٧٦، ١٣٧٧، ١٣٧٨، ١٣٧٩، ١٣٨٠، ١٣٨١، ١٣٨٢، ١٣٨٣، ١٣٨٤، ١٣٨٥، ١٣٨٦، ١٣٨٧، ١٣٨٨، ١٣٨٩، ١٣٩٠، ١٣٩١، ١٣٩٢، ١٣٩٣، ١٣٩٤، ١٣٩٥، ١٣٩٦، ١٣٩٧، ١٣٩٨، ١٣٩٩، ١٤٠٠، ١٤٠١، ١٤٠٢، ١٤٠٣،

بها وقد استيقنتها أنفسهم: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَتَابِئُكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَأْتِكُمْ بِسَحَابٍ مِّمَّنْ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسَّىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدِرًّا وَلَهُ يَعْصَبُ يَمْوَسَّىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَةً مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي ثِيَابٍ مِّنْ لَّدُنَّ الْفِرْعَوْنَ وَفُورَةٍ ﴿١٢﴾﴾، فهذا المشهد القصصي فصل في عرض آيتي العصا واليد اللتين أيد الله بهما رسوله، لأنهما أول آيتين سيراهما فرعون، ويفهم منه أن فرعون لن يكتفي بآيتين، فبيّن السياق أن مجموع الآيات سيكون تسع آيات خلال الفترة التي سيمكث فيها موسى عليه السلام يدعو قومه إلى الإيمان في مصر.

وانظر ماذا كان موقف فرعون وقومه من هذه الآيات: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَحَمَدُوا بِهَا وَأَسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾، ولاحظ أولاً وصف الآيات بأنها مبصرة، أي: لا مجال للشك في دلالتها على الله تعالى الذي أيد رسوله بها، وثانياً كيف كان موقفهم الجحود والكفر بدلاً من الإيمان والشكر، مع أن نفوسهم مستيقنة من دلالة تلك الآيات على الله، وثالثاً الدعوة إلى النظر في عاقبتهم، وفي ذلك رسالة تهديد لكفار قريش الذين لم يؤمنوا بآيات الله.

ثم انتقل السياق إلى عرض أنموذج ذي موقف مختلف تماماً إزاء آيات الله في خلقه، وهو يتمثل في موقف داود وسليمان الشاكرين لله على نعمه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلِمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَاءَتِيهَا النَّاسُ عِلْمًا مِّنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾، ثم انتقل السياق إلى عرض موقف سليمان عليه السلام حينما رأى آية من إعجاز الله في خلق النمل: ﴿وَحِشْرَ لِّسُلَيْمَانَ جُودُهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادٍ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَاءَتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَنَسَخَ صَاحِبَاكَ مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾، ولاحظ أولاً: التناسق في وصف حشر الجن والإنس والطير

لسليمان عليه السلام بقوله: فهم يوزعون، الدال على كمال الانضباط والترتيب بالرغم من الكثرة، ولا يخفى تناسب ذلك مع ما في مملكة النمل من الانضباط والترتيب، ولاحظ قوله تعالى أواخر السورة: ﴿وَيَوْمَ تَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، فهم سيوقفون منضبطين مرتبين.

وثانياً: قول النملة الدال على أن خالقها قد ألهمها الهدى والحكمة وحسن السياسة، فهي قد أنقذت قومها حين حذرتهم من الخطر بأبلغ تعبير^(١)، فكانت بتصرفها الملهم هذا آية دالة على إعجاز الله في خلقه، وثالثاً: موقف سليمان عليه السلام المبادر لشكر ربه عز وجل حينما أطلعه على هذه الآية العجيبة، وأما العبارة ﴿رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ رَحْمَتِكَ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ فلم ترد إلا في هذه السورة وفي سورة الأحقاف، وذلك في سياق عرض موقف الشاكرين من البشر. إذاً فقد كان هذا موقف الشكر الأول من سليمان عليه السلام، وهو مقابل لموقف الجحود والكفر بآيات الله الذي

(١) ذكر الأستاذ الدكتور فاضل السامرائي بعض أوجه البلاغة في قول النملة هذه، فهي أحسّت بوجود سليمان عليه السلام، وبادرت بالإخبار فنادت «يا»، ونهت «أيها»، وخصّصت النداء «أنت»، وأمرت «أدخلوا»، وخصصت «مناجيتكم»، ونهت «لا يحيطنكم»، وأكدت (نون التوكيد)، ونصحت وبالغت «لا يحيطنكم»، وبيّنت بالتخصيص «سئلتن»، وبالتعميم «وخلودن»، وأعدرت سليمان وجنوده حين نفت «وغير لا يشعرون»، وقد ذكر الأستاذ الدكتور صبري الدمرداش أوجهاً متعددة من أوجه الإعجاز العلمي المستنبطة من هذه الآية، ولعل أقرب شيء من كلامه إلى موضوع دراستي هو أن هذه السورة سميت بـ «النمل» بصيغة الجمع لا الأفراد، مع أن السياق القرآني ذكر كلاماً عن نملة واحدة، وذلك لأن النمل مجتمع متكامل لا يمكنه العيش بشكل منفرد، بينما سميت سورة «البقرة» بالأفراد لأن البقرة من الممكن أن تعيش منفردة، ولا يشترط أن تكون في مجتمع خاص بجنسها كما في النمل. ينظر كلام أ. د. فاضل وكلام أ. د. صبري على موقع: youtube الإلكتروني.

أقول: وكذلك قول سليمان عليه السلام تبرز فيه البلاغة القرآنية معاني الشكر لله في كل لفظة، فهو تيسم فرحاً بأن أطلعه الله هذه الآية حتى شرع في الضحك، ثم نادى «رب» ونداؤه دليل إيمانه بخالق هذه الآية، ودعا قائلاً: ﴿أَوْزَعْنِي﴾ أي: «اجمع جوارحي ومشاعري ولساني وجناني وخواطري وخلجاتي وكلماتي وعباراتي وأعمالتي وتوجهاتي، اجمعني كلي» على «أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ» فنسب النعمة لصاحبها، ولم يكف بذلك بل أكد حينما قال: ﴿الَّتِي أَنْعَمْتَ﴾، ولم ينس ذكر والدته الذين كانا سبب وجوده، وشكر الوالدين من شكر الله، وبين أن نعمة الله شملته والديه «عَلَىٰ رَحْمَتِكَ وَكَأَنَّكَ تَهْدِي»، ثم طلب طلباً يعتبر جانباً عملياً تطبيقياً للشكر والعرفان بالجميل «وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا» وجعل العمل الصالح مشروطاً برضا الله «تَرْضَاهُ»، وتواضع لله راجياً رحمته، مع كونه نبياً وملكاً «وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الْمُسْلِمِينَ» فكل كلامه شكر في شكر. والكلام المقتبس بين الإشارتين حول معنى «أوزعني» لسيد قطب رحمه الله، في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٦٣٧.

المتمثل في فرعون في القصة السابقة. فهذا المشهد القصصي يدعو إلى الإيمان بأحد آيات الله الدالة على إعجازه في الخلق، وأن يكون موقف الإنسان منها موقف الإيمان والشكر، كما كان موقف سليمان عليه السلام، لا الجحود والكفر كما كان موقف فرعون وملئه.

ثم انتقل السياق إلى عرض موقف شكر آخر لسليمان عليه السلام إزاء آية أخرى من آيات الله في خلقه، وذلك حينما أنبأه الهدد بنبأ ملكة سبأ: ﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَخِئْتِكَ مِنْ سَبِيلِ ابْنٍ يَقِينٍ ٢١﴾ إني وجدتُ امرأةً تملكُهم وأوتيت من كلِّ شئٍ ولها عرشٌ عظيمٌ ٢٢ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ٢٣ ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ٢٤ الله لا إله إلا هو ربُّ العرش العظيم ٢٥، فهذه آية أخرى من آيات الله في خلقه، فقد أنكر هذا الهدد فعل قوم سبأ المشركين بفطرته المؤمنة التي فطره الله عليها، وأدرك أيضاً أن سبب إغوائهم هو الشيطان، وأدرك أيضاً أن الله يخرج الخبء في السماوات والأرض، ويعلم ما يخفي الناس وما يعلنون، فانظر ماذا كان موقف سليمان من هذه الآية: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ٢٦﴾ أَهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ٢٧، ولا يخفى أن موقفه هذا دالٌّ على شكر الله أيضاً، فقد بادر بدعوتهم إلى الإيمان والتوحيد. فهذا موقف شكر ثانٍ لسليمان عليه السلام في هذه السورة إزاء آيات الله في خلقه.

وقد يسأل سائل: لم لم تسمَّ السورة باسم «الهدد» مع أن قول الهدد دالٌّ على التوحيد بالألفاظ الصريحة، بينما قول النملة كان فقط تحذيراً لقومها؟ أعتقد أن النمل آية دالة على إعجاز الله في خلقه أكثر من آية الهدد، ويظهر ذلك من عدّة أمور أولها: أن النملة التي حذرت قومها غير معرّفة بـ (أل) التعريف، فهذا دليل صريح على أن كل فرد في مملكة النمل قد ألهم في فطرته الحكمة والهدى من الله للحفاظ على حياته، بينما لا تجد دلالة ذلك في سياق حديث السورة عن الهدد، لأن قول سليمان عليه السلام: ما لي لا أرى الهدد؟ أفاد أن هذا الهدد معروف تحديداً لديه بدليل (أل) التعريف. ولا أقصد أن

الهداهد غير ملهمة الحكمة والهدى من الله في فطرتها، لكن السياق لم يذكر ذلك صراحة كما ذكره في آية النمل.

وثانياً: النمل أضعف وأصغر حجماً من الهدهد، فدلالة إعجاز الله في خلق النمل أغرب وأعجب، وثالثاً: تجد في موقف سليمان عليه السلام المبادرة إلى الشكر لله في إطلاعه على هذه الآية، بدليل فاء التعقيب في قوله: ﴿فَلْيَسَّرْ صَاحِبًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾، وهذا أدعى إلى الاقتداء به في الإيمان والشكر، بينما قال بعدما سمع كلام الهدهد: ﴿سَتَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، فموقفه من قول النملة أكثر دلالة على الشكر، ورابعاً: لقد أخبرنا السياق في بداية الحديث عن قصة سليمان أنه قد عُلِّم منطق الطير ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عُلْمَنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾، بينما لم يخبرنا عن أنه قد عُلِّم منطق النمل أيضاً، فكانت آية النمل لدى القارئ أكثر عجباً، هذا ما ظهر لي، والله أعلم.

أما فيما يتعلق بموقف سليمان عليه السلام من آية الهدهد، فقد برز موقفه الشاكر من خلال المسارعة إلى دعوة سبأ إلى الإيمان، وبرز أيضاً في افتتاح كتابه بـ ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، وبرز أيضاً برده لهدية ملكة سبأ مع بيانه أن ما آتاه الله خير من هديتهم، وانظر قوله حينما آتاه الذي عنده علم من الكتاب بالعرش: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَنِّي كَرْيَمٌ ۝٤١﴾، فسياق القصة يعرض شكر سليمان على آيات الله في خلقه التي أراه إياها من أول القصة لآخرها، ويبرز شكره عليه السلام أيضاً في آخر القصة من خلال قول الملكة بعد أن آمنت بآيات الله التي رأتها بأعينها: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مَُّرَدٌّ مِّن قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٢﴾. وهكذا كانت قصة سليمان عليه السلام في هذه السورة تعرض أنموذج الإيمان بآيات الله والشكر له في مقابل أنموذج فرعون وقومه المكذِّبين قبلها، وفي مقابل أنموذج قوم ثمود وقوم لوط المكذِّبين بعدها. وقد كان أدل ما في قصته على موقف الشكر آية النمل التي سميت السورة باسمها.

ثم انتقل السياق إلى بيان موقف ثمود، الذين آثروا الغدر والمكر على الإيمان والشكر،

فانظر ماذا كان موقفهم من نبيهم صالح عليه السلام الذي أيده الله بآية الناقة: ﴿قَالُوا أَطِيرَنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ (٤٧) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَبَلَكَ يُؤْتُهُمْ حَاقِيَةً يَمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَاجْتَنِبْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا بَيْنَهُمْ مُسْتَفْتُونَ ﴿٥٣﴾ .

وعرض السياق موقف قوم لوط أيضاً الذين آثروا شهوة الرجال المخالفة لفطرتهم على شهوة النساء التي أباحها الله وجعلها نعمة منسجمة مع فطرة البشر: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (٥٤) أَيْنُكُمْ لَأَتَاكَ الرَّجَالُ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُولٍ ﴿٥٥﴾ ، فانظر ماذا كان موقفهم من هذه النعمة، وماذا كان مصيرهم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوْهُ أَلْ لَّوْطُ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّطْهَرُونَ﴾ (٥٦) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٥٨﴾ . فهاتان القصتان تعرضان أنموذجين من الجحود والكفر إزاء آيات الله في خلقه، في مقابل أنموذج الإيمان والشكر في المواقف المتعددة في قصة سليمان عليه السلام.

ثالثاً: ثم عقب السياق على القصص المذكورة بذكر بعض الآيات الكونية الدالة على الله، والداعية إلى الإيمان بها وشكر الله عليها: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ﴾ (٥٩) أَمَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۚ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۚ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَنْ يُحْيِي الْمُتَّطِرَ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۚ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ تَعْلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ ، ولاحظ افتتاح هذا التعقيب بأمر الرسول ﷺ بحمد الله تعالى، وثانياً:

تكرار الاستفهام التقريري ﴿أَمَّنَ...﴾ خمس مرات، وثالثاً: تكرار السؤال التقريري ﴿أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ﴾ خمس مرات أيضاً.

فلا شك في أن السياق يدعو إلى الإيمان بهذه الآيات واتخاذ موقف الشكر لله منها، وانظر قوله تعالى المؤكد لذلك: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾. ولاحظ التناسق في المقابلة بين موقف أكثر الناس، وبين موقف سليمان عليه الشاكر لله على أن أطلعه على عدد من آياته في خلقه، كان أكثرها دلالة آية النمل التي سميت السورة باسمها.

رابعاً: بقيت الخاتمة وهي تحوي تأكيداً لكل ما سبق من سياق السورة، وقد ابتدأت هذه الخاتمة بذكر آية من آيات الله تدعو إلى اليقين بآياته تعالى، وهي متناسقة مع ما ذكر في قصة سليمان عليه السلام من سماع كلام النملة والهدد: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٧﴾﴾، ولم تخل الخاتمة كذلك من التذكير ببعض آيات الله في خلقه الداعية إلى الإيمان والشكر: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لَيْلِكَ لِنُشْكَرُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَخْرُجُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوٍّ ذَّاخِرِينَ ﴿٨٩﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِداً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَّا تَفْقَهُ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾، وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى الإيمان بآيات الله القرآنية، ودعت في سياقها إلى اتخاذ موقف الإيمان والشكر من آيات الله الكونية، ختمت كذلك بنفس الدعوة: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَٰذَا الْبَلَدَ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَرْبِّيهِمْ فَنَعْرِفُوهُمْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وهكذا التأم شمل مفتتح السورة وختامها على محور الدعوة إلى الإيمان بآيات الله القرآنية والكونية والشكر عليها، وهو المحور الذي دلّت عليه آية النمل التي سميت السورة باسمها أبلغ الدلالة.

سورة النمل

سورة الدعوة إلى أن يكون موقف الإنسان من آيات القرآن والآيات التي تُبرز وحدانية الله في خلقه موقف الإيمان والشكر، لا الجحود والكفر

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٦)

المقدمة التي تدعو إلى الإيمان بآيات القرآن التي فيها أصول الإيمان:

■ افتتحت السورة ببيان فضل آيات القرآن الكريم: ﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْفُرْقَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَى الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾.

■ ثم ذكرت أصول الإيمان التي ينبغي أن يؤمن بها الإنسان: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝﴾.

■ وحذرت من الكفر بهذه الآيات، وما فيها من أصول الإيمان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّاتٌ هُمْ أَصْحَابُ قُلُوبٍ يَغْمَهُونَ ۝﴾.

■ وبينت أن الذي أنزل القرآن على سيدنا محمد ﷺ هو من أرسل سيدنا موسى عليه السلام بتسع آيات إلى فرعون.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٧-٥٨)

■ عرض قصص لنماذج إيمان وشكر ونماذج جحود وكفر إزاء آيات الله: عرضت قصة موسى عليه السلام موقف قومه من الآيات التسع المبصرة التي أرسل بها موسى عليه السلام إليهم، فكان موقفهم موقف جحود وكفر: ﴿وَجَعَدُوا بِهَا أَسَافَتَهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ۝﴾.

■ ثم عرض السياق موقف داود وسليمان عليهما السلام من نعم الله عليهما: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾، وفي عرض موقفهما دعوة إلى الاقتداء بهما فيكون موقف الإنسان موقف الإيمان والشكر.

■ وعرض السياق مبادرة سليمان عليه السلام إلى إعلان إيمانه وشكره حين أظلمه الله على إحدى آياته تعالى في خلقه وهي آية النمل.

■ وقد كان موقفه كذلك من آية الهدهد، إذ تمثل شكر سليمان عليه السلام لله عملياً بأن بادر بإرسال الهدهد بكتاب لسبأ يدعوهم فيه للإيمان.

■ وكذلك كان موقفه موقف الشاكر حين رأى عرش الملكة مستقراً عنده.

■ كان في النهاية موقف ملكة سبأ موقف الإيمان والشكر بعدما رأت من الآيات التي أيد الله بها سليمان ما رأت: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾.

■ ثم عرض السياق موقف ثمود الذين آثروا الغدر والمكر على الإيمان والشكر، فقد عرض السياق مؤامرتهم على قتل نبيهم صالح عليه السلام: ﴿قَالُوا نَقَاسُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِي هُوَ أَهْلُكَ أَهْلِيهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۝﴾، وقد كانت عاقبة مكرهم أن دمرهم الله أجمعين.

■ وكذلك كان موقف قوم لوط عليه السلام، الذين آثروا شهوة الرجال المخالفة للفطرة على شهوة النساء التي أباحها الله وجعلها منسجمة مع الفطرة، ولكنهم مكروا أيضاً وأرادوا إخراج آل لوط من قريتهم لأنهم أناس يتطهرون، فأنجاه الله وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٥٩-٨١)

تعقيب على القصص بذكر بعض الآيات الكونية التي تبرز وحدانية الله في الخلق، وتدعو إلى الإيمان والشكر:

■ عرض السياق هذه الآيات عن طريق أسئلة تقرر الإنسان بوجوب الإيمان والشكر لله الخالق العظيم.

■ ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَابًا ذَاكَ بِهَجَرٍ مَا كُنَّا لَكُمْ أَنْ تُشْفُوا شَجَرًا أَوَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ بَلَّ هُمْ قَوْمٌ يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾

■ ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ بَلَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

■ ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَوَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَلِيلًا مَا نَذْكُرُونَ ﴿٦١﴾

■ ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ بَشِيرًا يَبْتَئِنَ بَدَنُ رَجُلٍ أَوَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٢﴾

■ ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْفَعُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قُلْ هَاسِتُوا بِرُفْعَتِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٣﴾

■ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٤﴾

الموضوع الرابع: (الآيات: ٨٢-٩٣)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ ذكرت آية تدعو إلى اليقين بآيات الله قبل فوات الأوان: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾

■ وأعاد التذكير ببعض الآيات التي تبرز وحدانية الله في خلقه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسَانِكُمْ فِيهِ وَالتَّهَارُ مُبِينًا إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٣﴾

■ ﴿وَرَأَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

■ وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى الإيمان بآيات الله القرآنية، ختمت بالموضوع ذاته: ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْدَىٰ لِمَنْ هَدَىٰ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ مَا يَبْتَغُونَ فَنَعْرِفُوتَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٦﴾

سورة القصص

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي إِلَّا نَسْقَى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّكَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿١٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿١٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ أَبِى يَدْعُوكَ لِجِزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿١٥﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام، وبين والد المرأتين اللتين سقى لهما أغنامهما، إذ قصّ موسى عليه القصص التي حدثت معه حين مكّن الله له العيش والترعرع في بيت فرعون مع أنه أحد الإسرائيليين، وحين قتل من الأقباط نفساً، فنصحه أحد الناس بالخروج من مصر، وحين قابل المرأتين وسقى لهما، وحين جمعه الله بأبيهما، إلى أن طمأن والد المرأتين موسى عليه السلام وزوجه إحدى ابنتيه. فاسم السورة يدلّ على مدى اللطف الذي أحاط الله به عبده موسى عليه السلام في أحداث هذه القصص، وهو لطف يدلّ على أن الله بيده الملك والتدبير.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة تضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم، فقرّرت أن هناك قوة واحدة في هذا الوجود، هي قوة الله الحقّ، وأن هناك قيمة واحدة في هذا الكون هي قيمة الإيمان، فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له، فهي تبرز الصراع بين قوة الحقّ وقوة الباطل المتوهّمة، وتبين أن العاقبة لأهل الحقّ والخير، لأن قوة الله معهم، والقصص هو أفضل وسيلة لإبراز هذا الصراع، كما وأن السورة بالإضافة إلى

القصص تلفت الأنظار إلى آيات الله في كونه، وفي مصارع الغابرين، وفي مشاهد القيامة، لتؤكد سنة الله التي لا تتخلف ولا تبدل، وهي أن قوة الله هي الغالبة^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان أن الله هو الخالق، وله الحكم والتدبير في الدنيا والآخرة، وأن إرادته وحده هي النافذة، ولما كانت المشاهد القصصية المعروضة من قصة موسى عليه السلام في هذه السورة هي أدل ما فيها على المحور المذكور، جعل منها اسماً للسورة للدلالة عليه. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان أن الله وحده بيده الحكم والتدبير في الدنيا والآخرة، وأن إرادته وحده هي النافذة.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام، أولاً: مقدمة تعرض موجزاً لقصة موسى ببيان الظروف التي كانت سائدة في مصر قبل ولادته، ثانياً: عرض قصصي تفصيلي لقصته يبين تدبير الله لتحقيق حكمه بجعل المستضعفين أئمة، وإلحاق الهلاك بفرعون وهامان وجنودهما، ثالثاً: تعقيب بدعوة المكذّبين إلى الإيمان من خلال بيان أن مصدر رسالة موسى ومحمد عليهما السلام واحد، هو الله الخالق المدبّر، مع بيان مصير المكذّبين يوم القيامة، وعرض قصة قارون التي تؤكد ذلك، رابعاً: خاتمة مؤكدة لما سبق^(٢).

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ١١١، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٥، ص ٤٦٠، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٦٧٣-٢٦٧٥، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٠، ص ٦٢، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٥، ص ٥٠٨، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٢٩٧، ود. نوفل، تفسير سورة القصص: دراسة تحليلية موضوعية، ص ٤٠-٥١، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ٢٥٧ - ٢٥٩، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ١٩٧-٢٠٥.

(٢) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١-٦، وعرض قصة موسى بالتفصيل: ٧-٤٣، والتعقيب: ٤٤-٨٢، والخاتمة: ٨٣-٨٨، ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وهي كلها تؤكد أن الله هو الخالق المدبّر، وله الحكم في الدنيا والآخرة، ومن ذلك: (أ) فقد امتازت بعرض مشاهد من قصة موسى عليه السلام لم تذكر في موضع آخر، وتأمل سياقها يدل على المحور المذكور، فقد فصلت في الواقع المرير الذي كانت عليه مصر قبل ولادة موسى: ٤-٦، وقد فصلت في كيفية وصول موسى إلى بيت فرعون وتحريم المراضع عليه: ٩-١٢، وفصلت في موضوع قتله القبطي: ١٥-٢١، =

أولاً: جاء في مقدمة السورة موجز مشوق لبداية القصة، إذ بيّنت الواقع المرير الذي فرضه فرعون على مصر: ﴿طَسَّرَ ① تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ② تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مَوْسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ③ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِعُ أَبنَاءَهُمْ وَيسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ④ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ⑤ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَمَجْنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ⑥﴾، ولاحظ التأكيد على أن منزل هذه القصص في القرآن هو الله الذي أرسل موسى عليه السلام، فمصدر رسالتهما واحد، ولاحظ بيان إرادة الله أن يجعل المستضعفين أئمة، ويرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون من الهلاك، إن الإفصاح عن نتيجة القصة منذ بدايتها يدل أعظم الدلالة على أن الله هو الخالق المالك المدبّر، فبيده مقاليد الأمور، وإرادته هي النافذة، وهو المحور الذي تدور عليه أحداث هذه القصص كما سيأتي.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض تفصيلي لتحقيق إرادة الله، وهو عرض يثبت أن الله يخلق ما يشاء ويختار، ولا يعجل لعجلة أحد، فابتدأ عرض الأحداث منذ ولادة موسى:

= وهروبه من مَدْيَنَ انتهاء إلى لقاء والد المرأتين: ٢٣-٢٨، ب) هي الوحيدة التي تكرر فيها الفعل «نُكِّنَ» العائد على الله: ٦، ٥٧، ولم يذكر هذا الفعل بهذه الصيغة في موضع آخر إلا في سورة الأنعام: ٦، ج) قوله تعالى ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾: لم يذكر إلا هنا بهذه الصيغة: ٦٨، وقريب منه في سورة الأحزاب: ٣٦، د) قوله تعالى ﴿لَهُ الْخَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ هنا فقط: ٧، وقريب منه في سورة سبأ: ﴿وَلَهُ الْخَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾: ١، هـ) هي إحدى السور الثلاث اللاتي تكررت فيهن نسبة الحكم لله وحده، انظر في القصص: ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: ٧٠، ٨٨ ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وانظر في الأنعام: ٥٧ ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾، و ٦٢ ﴿إِلَّا لَهُ الْحُكْمُ﴾، وفي يوسف: ٤٠، ٦٧ ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾، و) والوحيدة التي فيها قوله ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ٧١، ٧٢ عن النهار بذات الصيغة، ز) قوله ﴿تِلْكَ الْأَنزَارُ الْآخِرَةُ الَّتِي لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا﴾: ٨٣، لم يتكرر، ح) وكذلك ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾: ٨٨، وقريب منه في سورة الرحمن: ٢٦، ٢٧، ط) وكذلك قوله عن المستضعفين الدال على حكمه تعالى في الدنيا ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً وَجَعَلْنَاهُمُ الْوَارِثِينَ﴾: ٥، وكذلك قوله عن المتكبرين الدال على حكمه في الآخرة: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً كَذَبُواكَ إِلَى الْكَافِرِ﴾: ٤١، وقوله ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ شَرُّ الْمَقْبُوحِينَ﴾: ٤٢، ي) وبإمكانك أن تضيف أنها الوحيدة التي فصلت في عرض قصة قارون: ٧٦-٨٢، ولا تخفى دلالتها على المحور المذكور. وينظر للزيادة حول المفردات التي تفردت بها هذه السورة: د. نوفل، تفسير سورة القصص، ص ٨٠-٩٦. وينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ قَالَتْ فِيهِ الْيَسَّرَ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ ، ولاحظ التأكيد على أن الله سيرده إليها ، فالسياق يعطي النتيجة مرة أخرى قبل التفصيل ، ثم فصل في كيفية وصول موسى إلى بيت فرعون ، إذ هيأ الله امرأة فرعون لتطلب أن يكون قرّة عين لها وله ، وهيأ أخت موسى التي قصّت أثره حتى أقنعت أهل بيت فرعون بأهل بيت يكفلونه لهم بعد أن حرم الله عليه المراضع .

ثم انتقل السياق إلى عرض حدث آخر ، وهو قتل موسى رجلاً قبطياً دون عمد : ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَنَّاخُ اللَّيْلَىٰ مِنْ شِيعَتِهِ عَلَىٰ الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿٨﴾﴾ ، وفصل السياق أيضاً في كيفية خروجه هارباً إلى مدين ، فقد هيأ الله له رجلاً ينصحه بالخروج بعد أن علم أن الملاء من قوم فرعون يأتُمرون به ليقتلوه .

وفي مدين فصل السياق بأحداث أخرى تؤكد مدى اللطف والرعاية التي أحاط الله بها عبده موسى ، وذلك يؤكد أنه الخالق المدبّر وبيده الحكم ، فقد سقى للمراأتين أغنامهما ، وكان هذا سبباً في دعوة أبيهما إياه ليجزيه أجره ، وكان هذا سبباً في زواجه من إحداهما ، على أن يأجره ثمانى حجج : ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجَ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْكَ سَنَجِدُكَ إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾﴾ قَالَ ذَلِكَ بَنِي وَيَسَّكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿١٠﴾﴾ .

ثم انتقل السياق إلى مرحلة النبوة ، فلما آنس من جانب الطور ناراً ، نودي منها بوحى الله إليه بالذهاب إلى فرعون ، وهو ذو الخطر الأكبر عليه ، ولكن الله بحكمته سيهيئ له من أسباب الحفظ واللطف ما يحقق على يديه إرادته كما ذكر في المقدمة : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَىٰ وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿١١﴾﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا جَاءَ بِالْهَدْيِ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْعَظِيمُونَ ﴿١٢﴾﴾ ، ثم بين السياق أن فرعون استكبر هو وجنوده في الأرض ، حتى أخذهم الله فنبذهم في اليم ، فقد كان اليم مرة سبباً لتحقيق إرادة الله بنجاة موسى ، وكان مرة أخرى سبباً لتحقيق إرادته في إهلاك فرعون ، وهذا كله يؤكد المحور المذكور .

ومن اللافت للنظر أن السياق ركّز في عرض هلاك فرعون وجنوده على المصير الآخروي: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُثُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ٤٥﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكُونُ إِلَى الْكَارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُبْصَرُونَ ٤٦﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ٤٧﴾، فإذا كانت الأحداث التفصيلية في القصص السابقة تؤكد أن الله له الحكم والتدبير في الدنيا، فهذه الخاتمة تؤكد أن له الحكم والتدبير في الآخرة.

ثالثاً: وبعد هذا العرض القصصي التفصيلي، انتقل السياق إلى دعوة المكذّبين إلى الإيمان من خلال بيان أن الذي أرسل موسى الذي قصّت عليهم قصصه، هو الذي أرسل محمداً ﷺ بالحق، وهو الله الخالق المدبّر: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَذِبٍ لَكُنَّا عَنْدَ اللَّهِ هَادُونَ ٤٨﴾ قُلْ فَأَنظُرُوا بِكُتُبِ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٤٩﴾.

ومن الشبهات التي أثاروها ادّعاؤهم أنهم إذا آمنوا سيُتخطفون من أرضهم، وكأن الأحداث القصصية السابقة الدالة على أن الله بيده الأمر والحكم لم تكفهم، فردّ الله عليهم بأنه قد مكّن لهم حرماً آمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء، رزقاً من لدنه تعالى، وفي ذلك أبلغ دعوة لهم للإيمان بالخالق الرازق، ولكي يكتمل الترهيب مع الترغيب، عرض السياق مصير المكذّبين يوم القيامة، وهو عرض يؤكد أن الله بيده الحكم والأمر في الدارين: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ٥٠﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا أَغْوَيْنَاهُمْ إِنَّ إِلَهَنَا إِلَهُكَ مَا كَانُوا إِلَّا نَجِسٌ فِئَاجِ يُعْبَدُونَ ٥١﴾ وَقِيلَ أَذْعَوْا شُرَكَاءَكُمْ فَذَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ٥٢﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ٥٣﴾ فَعِمَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ٥٤﴾. فلن تنفعهم ألّهتهم شيئاً يوم القيامة، إذا أصرّوا على الشرك والتكذيب، كما لن ينفع فرعون قومه شيئاً في ذلك اليوم، إذا أصرّوا على الشرك والتكذيب.

ثم انتقل السياق إلى عرض بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى، ليدعوهم إلى الإيمان والتوحيد، فذكّرهم بأنه لا إله سواهم بضياء إن جعل الله عليهم الليل سرمداً إلى يوم القيامة، كما أنه لا إله سواهم بليل إن جعل الله عليهم النهار سرمداً إلى يوم القيامة، فالله

وحده إذا هو المستحق للعبادة، فهو الخالق المدبّر الحكيم .

ثم انتقل السياق إلى عرض قصة قارون، وهي قصة متعلقة بالطغيان الاقتصادي في مقابل الطغيان السياسي لقصة فرعون، فكما استكبر فرعون عن الإيمان بالله الخالق المدبّر معتمداً على ملكه وجنوده، كذلك استكبر قارون معتمداً على ماله وكنوزه: ﴿وَإِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآيَيْنَاهُ مِنَ الْكُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٧٧﴾﴾، ولكن جوابه كان أنه أوتي هذا المال بعلمه وذكائه، وغفل عن الخالق الرازق، حتى استحق أن يخسف الله به وبيداه الأرض. فسياق السورة كما ترى يبرز محوراً واحداً جامعاً لكل موضوعاتها، ألا وهو بيان أن الله وحده هو الخالق المدبّر الحكيم في الدنيا والآخرة.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التذكير بأن الله هو الخالق المدبّر الحكيم في الدنيا والآخرة: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٧﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ۖ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ .

وقد أعادت أمر النبي ﷺ بالصبر على دعوته، مع بيان أن الله سيرده إلى بلده التي أخرج منها، كما رد موسى لأمه من قبل: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾ .

وكما افتتحت ببيان أن الله بيده الخلق والأمر والحكم من خلال التفصيل في عرض قصص موسى مع فرعون، ختمت بالتأكيد على أنه بيده الخلق والأمر والحكم في الآخرة أيضاً، فلا إله غيره مستحق للعبادة: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ . وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة القصص

سورة بيان أن الله وحده بيده الحكم والتدبير في الدنيا والآخرة، وأن إرادته وحده هي النافذة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٦)

المقدمة التي تعرض الظروف التي كانت سائدة في مصر قبل ولادة موسى عليه السلام:

■ افتتحت السورة ببيان أن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم.

■ ثم بينت أن الله الذي بيده الحكم والتدبير قد أراد أن يغيّر هذا الواقع المرير: ﴿وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۚ وَتُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ يَجْزِيَانِ مِمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۚ﴾

الموضوع الثاني: (الآيات: ٧-٤٣)

عرض قصصي تفصيلي لقصة موسى عليه السلام بين تدبير الله لتحقيق إرادته الحكيمة بجعل المستضعفين أئمة:

■ حفظ الله موسى عليه السلام - الذي سيكون سبباً لتحقيق إرادة الله - من فرعون الذي كان يقتل بني إسرائيل.

■ فقد أوحى الله لأم موسى بأن ترضعه وتلقه في اليم، فوصل إلى بيت فرعون الذي هو صاحب الخطر الأكبر عليه، لكن الله حفظه بأن ألقى في قلب امرأة فرعون حُبَّ موسى عليه السلام، فأمرت الجنود بعدم قتله.

■ وحرّم الله عليه المراضع حتى جاءت أخته لتدلّهم على أهل بيت يكفلونه لهم، فردّه الله إلى أمّه بعد أن أصبح فؤادها فارغاً.

■ قتل موسى عليه السلام رجلاً قبطياً بغير قصد، فهاى الله له رجلاً ينصحه بالخروج من مصر، لأن ملاً فرعون يأتمرون به ليقتلوه.

■ بقيت إرادة الله تحميه وتحفظه حتى بعد وصوله إلى مدين، فجعله الله يسقي للمرأتين أغنامهما عند الماء.

■ كانت سقايته للأغنام سبباً لجعل أبيهما يرسل إحداهما ليجزيه أجر سقايته.

■ ولما رجع موسى عليه السلام مع والد المرأتين وقصّ عليه القصص قال: لا تخف نجوت من القوم الظالمين، وزوجه إحدى ابنتيه على أن يأجره ثمانين حججاً أو عشرين.

■ ولما سار موسى عليه السلام بأهله بعد قضاء الأجل نودي من جانب الطور، وأوحى الله إليه بالذهاب إلى فرعون، وهو ذو التهديد الأكبر عليه، لكن الله سيحفظ رسوله كما حفظه وهو رضيع.

■ فلما جاء موسى عليه السلام فرعون بالبينات قالوا: ما هذا إلا سحر مفترى، فأخذ الله وجنوده فنبذهم في اليم، وأتبعهم في الدنيا لعنة، ويوم القيامة هم من المقبوحين.

■ وبذلك تتحقق إرادة الله بإهلاك المفسدين، وإنقاذ بني إسرائيل ليكونوا أئمة في الأرض بعد إهلاك فرعون وجنوده.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٤٤-٨٢)

نعميق على تلك القصص يدعو المكذبين إلى الإيمان ببيان أن الله الخالق الحكيم المدبّر هو من أرسل موسى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام:

■ عرض السياق تكذيب قوم النبي ﷺ: ﴿قُلْنَا جَاءَهُمُ الْهَاقُ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

■ وقد ادّعى المشركون أنهم إذا آمنوا سيُتخطفون من أرضهم، وقد ردّ السياق عليهم بأن الله مكن لهم حرماً آمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنه تعالى.

■ فالذي دبّر لموسى عليه السلام أسباب حفظه من الهلاك، هو الذي سيحفظ عباده المؤمنين من الهلاك.

■ عرض السياق مصير المكذبين في الآخرة، ليؤكد أن الله بيده الحكم والتدبير في الآخرة كما في الدنيا.

■ وعرض بعض مظاهر كمال قدرته تعالى ليدعوهم إلى الإيمان والتوحيد، فهو سبحانه خالق الليل والنهار، ولو جعل أحدهما سرمداً إلى يوم القيامة فلا إله سواه يأتي بليل أو ضياء.

■ وقد عرض السياق قصة إهلاك قارون الذي تغافل بماله وكنوزه عن الله الخالق المدبّر الرازق، حتى خسف الله به وبداره الأرض ولم تنفعه نصيحة قومه.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٨٣-٨٨)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت التذكير بأن الله هو الخالق المدبّر الحكيم في الدنيا والآخرة: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْآخِرَةِ تَجْمَعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

■ وقد بينت للنبي ﷺ أن الله تعالى سيردّه إلى بلده التي أخرج منها كما ردّ موسى عليه السلام إلى أمه، وكما حقق على يديه الفرج لبني إسرائيل.

■ وكما افتتحت السورة ببيان أن الله بيده الحكم والأمر والتدبير في عرض قصص موسى عليه السلام، ختمت ببيان أنه وحده بيده الحكم والأمر يوم القيامة: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْفَتْحُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

سورة العنكبوت

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ
بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ إِنَّ
اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾
وَذَلِكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ
اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى تمثيلها الذين اتخذوا من دون الله أولياء بيت العنكبوت اتخذت بيتاً، فكما أن بيت العنكبوت لا يقي من الحر أو البرد شيئاً، ولا يصمد أمام أي أذى من ريح أو إنسان، فهو أوهن البيوت، فكذلك لا يغني الأولياء من دون الله شيئاً من بأسه، لأنهم لا يملكون ضرراً ولا نفعاً، فاسم السورة يشير إلى هوان الباطل وأهله عند الله تعالى.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محورها يدور حول الإيمان وتثبيتته وقت الابتلاء والشدائد والمحن، فالإنسان معرض لأنواع كثيرة منها، فليس الإيمان كلمة تقال باللسان فقط، إنما هو الصبر على المكاره والتكاليف، ولذلك تعرض السورة ما يصور ألواناً من العقبات والفتن في طريق الدعوة إلى الإيمان، ثم تربط بين الحق في دعوات الرسل والحق الذي خلق السماوات والأرض، وتعقب عليها بالكشف عن القوى المرصودة في وجه الحق، مع التهوين من شأنها، لأن مثل العنكبوت يشير إلى ضعف العلاقات في المجتمعات القائمة على غير

الدين، لأن الرابط فيها مصلحي غالباً، فهي سورة ضعف الكافرين وقوة المؤمنين^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان والثبات على الحق، من خلال بيان قدرة الله على الخلق والبعث وإهلاك أهل الباطل، وبيان هوان الباطل وأهله عند الله مهما علا أهل الباطل وتجبّروا، ولما كان تشبيه اتخاذ أهل الباطل أولياء من دون الله بيت العنكبوت مشيراً إلى هوان الباطل وأهله مهما علا وكبر، سُمّيت السورة بالعنكبوت للدلالة على المحور المذكور.

وقد تميزت هذه السورة بأنها سورة بيان هوان الباطل وأهله مهما علوا وتجبّروا، عند الله الحقّ المقتدر.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام: أولاً: مقدّمة تدعو إلى الصبر على الإيمان بالرغم من فتنة الباطل، ثانياً: بيان محاولة أهل الباطل دائبين على فتنة أهل الإيمان مع عرض قصصي يؤكّد ذلك، ثالثاً: تعقيب يبيّن هوان الباطل وأهله عند الله، مع بيان أن الله هو الحقّ، رابعاً: الخاتمة المؤكّدة لما سبق^(٢).

(١) ينظر: المهاييمي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ١٢٥، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٥، ص ٥٣٣-٥٣٥، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٧١٨، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٠، ص ٢٠٠، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٥، ص ٥٨٠، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ص ٣٠٥، ٣٠٦، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٢٠٦-٢٠٩.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٧، وبيان فتنة أهل الباطل: ٨-٤٠، والتعقيب: ٤١-٥٥، والخاتمة: ٥٦-٦٩. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور تحذر من الافتتان بالباطل وأهله: فقد ذكرت فيها مشتقات الجذر «فتن» ثلاث مرات، والتفصيل: قوله ﴿أَحِبَّ أَتَّاشَ أَنْ يُزَكَّوْا أَنْ يَقُولُوا ءَمَسْنَا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾: ٢، لم يتكرر في القرآن، وكذلك قوله ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾: ٣، لم يتكرر بهذه الصيغة، وقريب منه في سورة الأنعام: ٥٣، وكذلك قوله ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا بَلَاءٌ لَكُمْ بِهِمْ﴾: ٦، لم يتكرر، وكذلك ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾: ٦٩، وأما قوله ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾: ٨، فقد ذكر هنا، وفي سورة لقمان: ١٥ ﴿عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي﴾، (ج) لم يتكرر المصدر «الباطل» في سور القرآن إلا في ثلاث سور، هنا: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: ٥٢، لم يتكرر بذات السياق، و=

أولاً: جاء في مقدمة السورة بيان أن الابتلاء من سنن الله تعالى لتمييز أهل الحق من أهل الباطل: ﴿الْم ۝ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝﴾ ، وافتتاح السورة بذكر هذه السنة يدعو المؤمنين إلى الثبات في مقابل فتنة أهل الباطل ، أكد هذا البيان المقدمة أن الله سيجزي المؤمنين الثابتين على الحق أحسن الذي كانوا يعملون ، وفي ذلك تهوين لا يخفى من شأن الباطل وأهله عند الله كما سيأتى في آية العنكبوت .

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى تأكيد السنة المذكورة، فعرض المحاولة الدائبة لأهل الباطل أن يفتنوا أهل الحق عن الإيمان: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ٩ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كُذَابٍ لِلَّهِ وَلِإِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ١٠ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ١١﴾، فلا يجوز الرضوخ لأهل الباطل حتى مع الوالدين، ولا حظ بيان أن الذين يرضخون لإيذاء أهل الباطل ويتركون الإيمان هم منافقون، في حين أن المؤمنين هم الثابتون مهما لاقوا من الفتن.

ثم انتقل السياق إلى عرض قصصي يؤكد إصرار أهل الباطل على باطلهم، حتى استحقوا العذاب من الله، مع بيان أن الله أنجى الذين آمنوا، فقد عرض مصير قوم نوح عليه

= ﴿أَفَبِلَا يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمَ اللَّهُ بِكَفَرُونَ﴾: ٦٧، ذكر هنا وفي سورة النحل: ٧٢ ﴿هَمْ بِكَفَرُونَ﴾، وانظر سورة البقرة: ٤٢، ١٨٨، والإسراء: ٨١ (مرتين)، د) هي الوحيدة التي تكرر فيها ذكر «الأوثان» في سياق بيان بطلان الشرك: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾: ١٧، و: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: ٢٥، ولم تذكر الأوثان في سورة أخرى إلا في سورة الحج: ٣٠، فقط، ثانياً: ومنها أمور ثبت أن الله هو الحق لكمال قدرته: أ) فقد تكررت فيها مشتقات «حق» مرتين: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾: ٦٨، وقد تكرر ذلك في سور أخرى، و﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾: ٦٨، ولم تتكرر ﴿كَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾، وقريب منها: الأنعام: ٥، ٦٦، و﴿ق﴾: ٥، ب) قوله ﴿وَأَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾: ١٩، لم يتكرر بذات الصيغة، وكذلك قوله ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾: ٢٠، وكذلك ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْفِثُ النَّفْثَةَ الْآخِرَةَ﴾: ٢٠، وقريب منه في سورة النجم: ٤٧، ج) قوله ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾: ٤٠، هنا فقط، وقوله ﴿وَالَّذِينَ تَقُولُونَ﴾: ٢١، هنا فقط بهذه الصيغة، وكذلك قوله ﴿وَإِنَّ آثَارَ الْآخِرَةِ لَمُنِي الْحَيَوَانِ﴾: ٦٤، وقوله ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْخُسِيِّينَ﴾: ٦٩. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

السلام بعد أن لم تكفهم ألف سنة إلا خمسين عاماً من الدعوة، ثم أنجاه الله وأصحاب السفينة، ثم عرض قصة إبراهيم مع قومه: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّكَ مِنَ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِنَّ إِلَهَهُ تَرْجَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾، ولاحظ بيانه أن عبادة الله وحده هي الحق، وأن عبادة الأوثان هي الباطل، وقد بين هوان شأن آلهتهم كونها لا تملك الرزق، بينما الرزق عند الله.

ومن اللافت للنظر أن السياق فَصَّلَ قصة إبراهيم بقول من الله يحذر المشركين من الإصرار على باطلهم وزعمهم أنهم ينتمون دينياً لإبراهيم عليه السلام، وفَصَّلَ القصة أمرٌ نادر جداً في القرآن، ولكن من منهج القرآن في عرض قصصه أنه يفصل - في مواضع معدودة - بكلام يؤكد حقيقة محورية في السورة: ﴿وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَعُ أَلْمِيتِ ﴿٦٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٦٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾، فهذا الفصل يلفت نظر المشركين ببيان أنهم على الباطل، وأن الله هو الحق لكمال قدرته على الخلق والبعث.

ثم عاد السياق لقصة إبراهيم، وعرض أن جواب قومه لم يكن سوى أن قالوا: اقتلوه أو حرِّقوه، فأنجاه الله من النار، وفي ذلك بيان بطلان شركهم، وإثبات أن الله هو الحق، ثم انتقل السياق إلى قصة لوط مع قومه، إذ أصرّوا على باطلهم في إتيان الرجال وقطع السبيل وإتيانهم في ناديم المنكر، وطلبوا من لوط عليه السلام أن يأتيهم بعذاب الله، فأنجاه الله وأهلك قومه ومعهم امرأته.

ثم عرض السياق قصة شعيب مع مَذَيْن، الذين أخذتهم الرجفة لما أصرّوا على التكذيب، وكذلك ذكر عاداً وثمود وقارون وفرعون وهامان، وفَصَّلَ السياق في عرض نوع العقوبة النازلة على كل واحد منهم. إن هذا العرض يؤكد بلا شك حقيقة أن الله هو الحق، وأن اتباع أهل الباطل باطلهم أوردتهم مورد الهلاك.

ثالثاً: ثم عقب السياق على تلك القصص بضرب مثل الباطل والحق: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ

اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَرَ الْعَبُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٥١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥٢﴾، فأهل الباطل الذين اتخذوا من دون الله أولياء، سواء كانوا آلهة كالمشركين، أو سلطاناً أو جاهاً يتكبرون به على الناس، أو أي صورة من صور الاعتماد على غير الله، إنما هم كالعنكبوت التي اتخذت بيتاً من الخيوط، لا يقيها من برد أو حرّ، ولا يحميها من العابثين، وهذا مترابط تماماً مع العرض القصصي السابق، إذ لم تغن عنهم آلهتهم ولا سلطانهم ولا جاههم ولا أموالهم شيئاً حينما جاءهم العذاب.

ولاحظ في المقابل بيان أن الله هو الحقّ، هو العزيز الحكيم، العليم بكل شيء، القادر على كل شيء، ومن ذلك قدرته على إهلاك أهل الباطل، من هنا ندرك شيئاً من حكمة اختيار اسم هذه السورة، لأنه أدلّ ما فيها على المحور الذي تدور حوله موضوعاتها.

وقبل الانتقال إلى الخاتمة، أعاد السياق بيان بعض مظاهر كمال قدرته تعالى، مع أمر النبي ﷺ بإنذار الناس بما يوحى إليه ربه، وفي ذلك تأكيد على أن مرسل النبي ﷺ والأنبياء من قبله هو الله الحقّ: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ أَتُلُوا مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٥٤﴾، ورّد السياق على فريات المكذّبين الجاحدين في آيات الله تعالى، من خلال بيان خسران المؤمنين بالباطل والكافرين بالله الحقّ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٦﴾.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت تحذير المؤمنين من الافتتان بالباطل وأهله: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٧﴾ كُلِّ نَفْسٍ ذَاقَةُ مَوْتٍ ثُمَّ إِنَّا رُجِعُوهُمْ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٩﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٦٠﴾. فإن خافوا على أنفسهم من سلطان أهل الباطل، فليرتحلوا في أرض الله الواسعة إلى مكان آمن يقيمون في عبادتهم لله الحقّ.

وقد أعادت التأكيد على أن الله هو الإله الحق بذكر بعض مظاهر إلهيته في الكون وفي العباد: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ٦١﴾
 اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلَيْهِ ٦٢ وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ٦٣﴾.

وكما افتتحت بدعوة المؤمنين المستضعفين الذين كانوا يُفْتَنُونَ عن دينهم في مكة إلى المجاهدة في الصبر على الحق، ختمت بدعوة أهل الباطل المتكبرين في مكة إلى الإيمان بالإله الحق الذي مكن لهم حرماً آمناً، مع التأكيد على دعوة المؤمنين على الثبات إن أصر أهل الباطل على باطلهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفِّطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ٦٤﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ٦٥ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ٦٦﴾.

وبذلك يلتقي البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور والذي دل عليه اسم السورة أبلغ الدلالة، وأكثرها تهويناً من شأن الباطل وأهله.



سورة العنكبوت

سورة بيان هوان الباطل وأهله - مهما علو وتجبروا - عند الله الحق المقتدر

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٧)

المقدمة التي تدعو إلى الصبر على الإيمان رغم فتنه الباطل:

■ افتتحت السورة ببيان أن الابتلاء بالفتن من سنن الله لتمييز أهل الحق من أهل الباطل: ﴿الْمَرْءُ أَحْسِبُ النَّاسَ أَنْ يَمُرُّوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾.

■ ودعت المقدمة أهل الحق إلى الثبات مقابل فتنه أهل الباطل، وعرضت مصير المؤمنين الصابرين: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

■ إن بيان جزاء المؤمنين الصابرين فيه تهوين لا يخفى من شأن أهل الباطل مهما علوا وتجبروا.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٨-٤٠)

بيان محاولة أهل الباطل دائبين على فتنه أهل الإيمان مع عرض قصصي يؤكد ذلك:

■ عرض السياق تجبر أهل الباطل ومحاولتهم فتنه أهل الإيمان عن الحق، فحذر من الرضوخ للفتنة حتى لو كانت من الوالدَيْن: ﴿وَأَنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾.

■ واعتبر الذين يرضخون لفتنة أهل الباطل منافقين: ﴿وَيَنْ أَلْسِنَ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا يَا اللَّهُ فَلَا أُذِي فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَهَذَابِ اللَّهِ﴾.

■ ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾.

■ ثم عرض السياق إصرار أهل الباطل على باطلهم، فبينت قصة نوح عليه السلام أن قومه لم تكفهم ألف سنة إلا خمسين عاماً من الدعوة، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون مما يؤكد هوان أهل الباطل عند الله، وقد أنجى الله نوحاً عليه السلام والمؤمنين في السفينة.

■ وعرضت قصة إبراهيم عليه السلام إصرار قومه على الباطل حين قال: ﴿إِنَّمَا تَقْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّكَ لَإِلَهِ الْقَدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُ لَكُمْ رَيْفًا فَابْهَتُوا عِنْدَ اللَّهِ الزُّرْفَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَهِهُ تُرْجَعُونَ﴾.

■ وقد فصل السياق القصة بما يؤكد أن الله هو الحق المقتدر: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

■ ثم عاد السياق إلى القصة وبين بطلان باطلهم حين أنجى الله نبيه من النار.

■ وعرض السياق قصة لوط عليه السلام التي تبرز إصرار قومه على باطلهم حين طلبوا منه أن يأتيهم بعذاب الله، فكانت النتيجة أن الله أنجى لوطاً عليه السلام وأهلك قومه.

■ وعرض قصة شعيب عليه السلام مع قومه المصريين على التكذيب حتى أخذتهم الرجفة، وذكر السياق أنواع العقوبات التي لحقت بعباد وثمود وفرعون وهامان.

■ إن هذه القصص تؤكد هوان المصريين على الباطل عند الله الحق المقتدر سبحانه وتعالى.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٤١-٥٥)

تعقيب على القصص يؤكد هوان الباطل وأهله عند الله:

■ عقب السياق بضرب مثل الباطل وأهله عند الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَرَ الْعَبِيدِ لَيَبْتَئُ مِنَ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾، فأهل الباطل مهما علوا وتجبروا، فهم عند الله كبيت العنكبوت لا بقي من حرّ ولا برد.

■ في المقابل بين السياق أن الله هو الحق المقتدر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

■ وقد أعاد السياق ذكر بعض مظاهر كمال قدرته تعالى ببيان أنه خالق السماوات والأرض بالحق.

■ وأكد حقيقة هوان أهل الباطل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٥٦-٦٩)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت التحذير من الافتتان بالباطل وأهله: ﴿يَمَّاءِىَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَرِيعَةً فَاغْبُثُوا ﴿٥٦﴾﴾.

■ وأعادت التأكيد على أن الله هو الإله الحق المقتدر: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

■ وكما افتتحت السورة بدعوة المؤمنين المستضعفين إلى المجاهدة في الصبر على الحق، ختمت السورة بالأمر ذاته: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

سورة الروم

﴿الْم ١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ٢﴾ فِي آذَنِي الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ
 سَيَغْلِبُونَ ٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ٤﴾ اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ
 يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ٥﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ
 ٦﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٧﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى حديثها في مقدمتها عن حادثة هزيمة الروم أمام الفرس قبل هجرة المسلمين إلى المدينة، وهي حادثة أفرحت المشركين في قريش؛ لأن الفرس مشركون والروم أهل كتاب، فتفاءل مشركو قريش أنهم سيغلبون المسلمين كما غلبت الفرسُ الروم، ولكن الله أخبر أن الروم سيعودون للغلبة على الفرس في بضْع سنين، وحينها سيفرح المؤمنون بنصر الله الذي ينصر من يشاء، وقد تحقّق وعده سبحانه، فاسم السورة يدلّ على صدق وعد الله؛ لأن بيده مقاليد الأمور.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة هو الكشف عن الارتباطات الوثيقة بين أحوال الناس وأحداث الحياة، وماضي البشرية وحاضرها ومستقبلها، وبين سنن الكون ونواميس الوجود، فكل ذلك مرتبط برباط وثيق خلاصته قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ فهو القادر على كل شيء، والقادر على نصر أوليائه، وخذلان أعدائه، فالسورة تتحدّث عن العوامل التي تحقّق الانتصار للمسلمين على كل الأمم وعلى رأسها الروم، كاليقين بقدرة الله تعالى وبالأخرة، وبجعل الدين منهاج الحياة، والصبر والصدقة، وقد تحدّثت أيضاً عن الأمراض المجتمعية التي تُبعد هذا النصر، كاتّباع الهوى، وشيوع الربا، والاعتداد بالرأي الخاص،

فالسورة تنطلق من وعد الله بنصر الروم إلى وعده بنصر أمة الإسلام^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان أن الله وحده بيده مقاليد الأمور ووعدته لا يُخلف، ولما كان صدق وعده في نصر الروم بعد حادثة هزيمتهم دالاً على المحور المذكور، اشتق من هذه الحادثة اسم للسورة للدلالة على المحور المذكور، وعلى صدق وعده بالتكفل بأمور الخلق ووعدته ببعثهم يوم القيامة، فكأنما هو تدرج من الوعد الأصغر إلى الوعد الأكبر. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان صدق وعد الله؛ لأنه وحده بيده مقاليد الأمور، فوعده لا يُخلف.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة موضوعات: أولها: مقدّمة فيها بيان أن وعد الله لا يُخلف؛ لأن بيده مقاليد الأمور، وثانيها: الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان بعض مظاهر عظمته تعالى في الدنيا والآخرة تثبت أن بيده مقاليد الأمور، وثالثها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق^(٢).

(١) ينظر: المهاييمي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ١٣٥، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٥، ٥٨٢، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ٢٧٥٤-٢٧٥٦، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢١، ص ٤٠، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٦، ص ٣، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ٣١١، ٣١٢، ووادي، ومنها، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٢١١-٢١٦.

(٢) مقدمة السورة شملت الآيات: ١-٧، وبيان مظاهر عظمته تعالى في الدنيا والآخرة: ٨-٥٣، والخاتمة: ٥٤-٦٠. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه ومن ذلك، أولاً: هي السورة الوحيدة التي امتازت بقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَثَرُ مِنْ قَتْلٍ وَمِنْ بَعْدٍ﴾ على هذا النحو: ٤، ثانياً: هي وسورة البقرة الوحيدتان اللتان تكرر فيهما المصدر «نصر» بدون إضافة إلى ضمير، انظر في سورة الروم الآية ٥: ﴿يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾، والآية: ٤٧: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهي جملة لم تتكرر في القرآن بالصيغة ذاتها، وانظر في سورة البقرة الآية ٢١٤: ﴿حَقًّا يَقُولُ الرُّسُلُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَنَ نَصْرُ اللَّهِ الْآلَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾، ولكن لاحظ أن المصدر «نصر» الأول فيها جاء على لسان البشر، ثالثاً: هي إحدى السور الأربع اللواتي تكررت فيها عبارة «وعد الله»: انظر في سورة الروم الآية ٦: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾، والآية ٦٠: ﴿فَأَنْصُرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، ولاحظ أنهما متعلقتان بالدنيا لا بالآخرة، وانظر في سورة يونس: ٤، ٥٥، وهما عن الآخرة، وفي سورة لقمان: ٩، ٣٣، وهما عن الآخرة أيضاً، وفي سورة غافر: ٥٥، ٧٧، وهما =

أولاً: جاء في المقدمة ذكر حادثة هزيمة الروم أمام الفرس، مع وعد من الله تعالى بأنهم سيعودون إلى النصر على الفرس في بضع سنين: ﴿الْمَ ۖ غَلَبَ الرُّومَ ۖ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۖ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۖ بَنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۖ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۖ يَعْلَمُونَ ظَهيراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ۖ﴾، ولاحظ أن إخبار الله تعالى بالنصر للروم دليل على أنه بيده مقاليد الأمور، وقد أثبت التاريخ صدق وعده سبحانه، ولاحظ التأكيد بقوله ﴿لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَهُ﴾، وقلة علم الناس، فهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، ويغفلون عن الآخرة لأنها غيب، بينما الله تعالى هو عالم الغيب والشهادة، وإخباره بنصر الروم دليل على ذلك، وذكر الآخرة دليل على وعده الأكبر بيعث الناس فيها لحسابهم، وهو وعد أعظم بكثير من الوعد بنصر الروم.

= متعلقان بالدنيا، رابعاً: هي سورة يونس الوحيدتان اللتان تكرر فيهما وصف الله بأنه: ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، انظر الآية: ١١ في سورة الروم: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، والآية ٢٧: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَفْوَتْ عَلَيْهِ﴾، وانظر الآية ٤ في سورة يونس: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، والآية ٣٤: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، ولكن لاحظ أن المرة الأولى كانت سؤالاً موجهاً للبشر وليست إخباراً من الله، خامساً: هي السورة الوحيدة التي تكررت فيها عبارة ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾: ١٢، ١٤، ٥٥، وهي تدل على صدق وعده بالآخرة، وقد ذكرت هذه العبارة مرة واحدة في سورة غافر: ٤٦، وفي سورة الجاثية: ٢٧، ثم انظر قوله تعالى الموجود فقط في سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾: ٢٥، الدال على وعده بالتكفل في شؤون الخلق، سادساً: هي الوحيدة التي امتازت بقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: ٢٧، وانظر قريباً منها في سورة النحل: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: ٦٠، سابعاً: هي أكثر سورة في القرآن تكررت فيها عبارة «ومن آياته» وذلك ست مرات متتالية وواحدة منفردة: ٢٠-٢٥، ٤٦، ثامناً: هي الوحيدة التي ذكر فيها التسبيح متبوعاً مباشرة بالتحميد: ﴿فَسُبِّحَنَّ اللَّهُ جِئْنِ تُسَبِّحُنَّ وَحِينَ تَصْبِحُونَ ۖ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾: ١٧، ١٨، وحصل ذلك قريباً منها في سورة القصص إذ ذكر التسبيح في الآية: ٦٨، والتحמיד في الآية: ٧٠، وأيضاً في سورة الصافات: ١٨٠، ١٨٢، تاسعاً: هي السورة الوحيدة التي تكررت فيها عبارة ﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾، انظر الآيات: ٣٠، ٤٣، ولم تذكر هذه العبارة مرة أخرى إلا في سورة يونس: ١٠٥، عاشراً: انظر قوله تعالى في سورة الروم: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ دَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾: ٤٠، وانظر قريباً منه في سورة يونس: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾: ٣٤، وقوله ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾: ٣٥، ولم يذكر السؤال عن الشركاء بمثل هذه الصيغة في موضع آخر في القرآن. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

فالمقدمة إذاً تثبت أن الله تعالى بيده مقاليد الأمور، ووعده بنصر الروم دليل على ذلك، وتحقق وعده يدل على صدق وعده بالآخرة أيضاً.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى التأكيد على أنه سبحانه بيده مقاليد الأمور، من خلال ذكر بعض مظاهر عظمته تعالى في الدنيا والآخرة: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾، ولاحظ التركيز على ذكر القيامة، وذلك لأنها هي الوعد الأكبر من الله، ووعده لن يخلف، لكن الناس يكفرون بهذا الوعد لأنه غيب، ويغفلون عما في هذا الكون من دلائل صدق وعده سبحانه.

فانظر مثلاً قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٩﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِثُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٠﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِثُ يَفْرُقُونَ ﴿١٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٣﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَائِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٤﴾﴾، ولاحظ بيان أن القادر على الخلق قادر على البعث، ولاحظ إبطال الشرك من خلال بيان عدم نفع الشركاء يوم القيامة، فالسياق كما ترى يدعو إلى التوحيد من خلال بيان أن الله بيده مقاليد الأمور، ووعده لا يخلف، ولذلك هو المستحق للتسبيح والتحميد في الصباح والمساء، وفي العشي وفي الظهر، وفي كل زمان، وفي السماوات وفي الأرض، وفي كل مكان.

ثم فصل السياق في تعداد عدد من مظاهر عظمته تعالى متعلقة بالإنسان وبالكون: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَن خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بِبَشَرٍ مِّنْهُ تَنْفِرُونَ ﴿١٥﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَن خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةَ وَرَحْمَةٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٦﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقَ السِّنِّينَ وَالْوُكُوفِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾﴾، وفي عرض هذه الآيات تأكيد على قوله سابقاً: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (بعض الآية: ٨)، وما من شك أن خالق الإنسان والأكوان هو الذي بيده مقاليد الأمور، وقد ذكر السياق من آياته سبحانه أيضاً الليل والنهار، والبرق والغيث، وانظر هذه الآية: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرٍ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُم دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُم

تَخْرُجُونَ ﴿١٥﴾ وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْءٌ لَّهُ قَلْبٌ ﴿١٦﴾ ، وقارن بينها وبين وعده تعالى بنصر الروم، وستجد أنها تحوي وعداً أعظم وأكبر بكثير من الوعد بنصرهم.

وفي ثنايا عرض مظاهر عظمة الله تعالى، كان السياق يدعو إلى توحيد الله بعد أن يعرض من الآيات ما يثبت أن بيده سبحانه مقاليد الأمور: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَوِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿مُتَّبِعِينَ لِمِثْلِهِ وَاقْتُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٨﴾ ، وذكر أيضاً عدة توجيهات متعلقة بالرزق الذي هو بيد الله وحده: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٩﴾ فَاتِ ذَا الْقُرْنَيْنِ حَقَّهُ وَالْيَسْكِينَ وَإِنَّ السَّبِيلَ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّتَبُوءُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيوُا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٢١﴾ ، وما من شك أن الرزق وعد من الله لا يخلف، وهو أعظم بكثير من الوعد بنصر الروم، ولاحظ أن السياق يدعو إلى الزكاة والصدقة بدلاً من الربا، ليربي نفوس المؤمنين على تحري المال الحلال بدلاً من المال الحرام؛ لأن الله وحده بيده الرزق.

فسياق السورة كما ترى يدل على صدق وعد الله تعالى بيوم القيامة، وصدق وعده برزق الخلق، وهما يدلان على أنه بيده مقاليد الخلق والأمر، وقد دل على ذلك أيضاً وعده الغيبي بنصر الروم.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التذكير بوعد الغيبي الأكبر بيوم القيامة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ ﴿٢٢﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُشَأْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٢٣﴾ .

وكما افتتحت السورة بالإخبار عن وعد الله الغيبي بنصر الروم ليدل على أنه تعالى بيده مقاليد الأمور، ختمت بالدعوة إلى التوحيد من خلال وعده الغيبي بنصر أهل الإيمان: ﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَكِنْ جِثَّتْهُمْ ثِيَابُهُمْ لِيَقُولُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّهُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٢٦﴾ ، وبذلك يلتقي البدء والختام في هذه السورة على المحور الذي دل عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة الروم

سورة بيان صدق وعد الله لأنه وحده بيده مقاليد الأمور فوعده لا يخلف

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٧)

المقدمة التي تبين أن وعد الله لا يخلف، لأن
 هذه مقاليد الأمور:

- افتتحت السورة بذكر حادثة هزيمة الروم أمام
الفرس ، ويذكر وعد الله أنه سينصرهم على
الفرس في بضع سنين : ﴿الْعَمَّ ۝ غَلَبَتِ الرُّومُ
۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ
سَيَقْبَلُونَ ۝﴾ في بضع سنين .
■ وقد بينت صدق تحقق وعد الله لأنه بيده
مقالب الحكم : ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ
وَيَوْمَئِذٍ يُفْرِجُ الْمُسْمُؤُونَ ۝﴾
■ ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ ۝﴾
■ وعرضت في المقابل قصور علم البشر
وجهلهم الذي قادهم إلى تكذيب وعد الله
بمحاسبتهم في الآخرة : ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ۝﴾

الموضوع الثاني: (الآيات: ٨-٥٣)

بيان بعض مظاهر عظمة الله تعالى في الدنيا
والآخرة تثبت أنه يده مقاليد الأمور:

- ذكر السياق أن الله بيده مقاليد الأمور في الدنيا والآخرة: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾.
- وبين إعراض الناس عن وعد الله بالحساب في اليوم الآخر: ﴿وَلِإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾.
- ومن مظاهر كونه تعالى مالك مقاليد الأمور أنه يبدأ الخلق ثم يعيده، وأنه الذي خلق الناس من تراب ثم إذا هم بشر ينتشرون، وجعل من أنفسهم أزواجاً وأنه خالق السماوات والأرض، وأنه جعل في الناس اختلافاً بالألسنة والألوان، ومن آياته تعالى الليل والنهار والبرق والغيث.
- ومما يؤكد أنه بيده مقاليد الأمور أنه وعد بتحقيق اليوم الآخر: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُم دَعْوَةَ مِنِ الْآرْضِ إِذَا أَنتُم تَخْرُجُونَ ۝٦٥﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٥٤-٦٠)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

- أعادت التذكير بصدق الوعي الغيبي الأكبر ببعث الناس ليوم القيامة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيَشُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾.
- وكما افتتحت السورة بالإخبار عن صدق وعد الله بنصر الروم على الفرس لأنه تعالى بيده مقاليد الأمور، ختمت ببيان صدق وعده بنصر أهل الإيمان: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ اللَّهُ إِنَّا لَا يُوَفُّونَ﴾.

- ومما يؤكد أنه بيده مقاليد الأمور بيان أنه هو الذي فطر الناس، وأنه وعد بالتكفل في رزقهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.
- إن بيان صدق وعد الله بالتكفل بالخلق وشؤون حياتهم وبيان صدق وعده بمحاسبتهم في الآخرة لَهُوَ وعد أكبر بكثير من وعده بنصر الروم على الفرس، فكأنما هو تدرج من الوعد الأصغر إلى الوعد الأكبر.

سورة لقمان

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ
لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٧﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ
يُعِظُهُ يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سميت هذه السورة الكريمة باسم «لقمان» لذكر قصته فيها، والتي ذكرت فيها وصاياه
الحكيمة لابنه، إذ يأمر ابنه بعدم الإشراف بالله تعالى، ويبيّن له فيها كمال علم الله في
السموات والأرض، وأمره بإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر
وعدم التكبر، فاسم السورة يشير إلى ضرورة الاقتداء به وتنفيذ وصاياه.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها،
فذكروا أن قصته تضمنت فضيلة الحكمة، وذم الشرك، والأمر بالأخلاق الحميدة، والنهي
عن الأخلاق الذميمة، فدلالة هذه القصة على حكمة القرآن وحكمة منزله سبحانه ظاهرة،
فالسورة بمجملها تهدف إلى تعريف المسلم بما يوصله للحكمة كالنوحيد والاستقامة والتفكر
في الخلق، وتعرفه أيضاً بموانع الاستقامة كاتّباع الشيطان والاعتزاز بالدنيا والاعوجاج
الأخلاقي. فمقصود هذه السورة مخاطبة الفطرة البشرية وإيقاظها من الغفلة، من خلال
التفكر في الكون الكبير بسماؤه وأرضه وليله ونهاره. . . وما فيه من آيات دالة على الله، وقد
كانت شخصية لقمان أحد أساليب السورة لإيقاظ الفطرة^(١).

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ١٤٣، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٦، ص ٣، وقطب، في ظلال
القرآن، ج ٥، ٢٧٨٠-٢٧٨٣، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٦، ص ٢١، ومحمد قطب،
دراسات قرآنية، ص ١٩٦، ود. علي حسن العريض، فتح الرحمن في تفسير سورتي الفاتحة ولقمان، ص ٦١،
ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور، ص ٢١٧ - ٢٢٣.

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى اتخاذ القرار الحكيم بالإيمان والشكر لله عز وجل، من خلال بيان بعض آثار حكمته تعالى في كونه، وأن من كفر حرم نفسه من الحكمة، وإنما اختير اسم «لقمان» لهذه السورة؛ لأن الدلالات السياقية لقصته في هذه السورة أدل ما فيها على هذا المحور. فاسم السورة يشير إلى المحور.

وقد تميّزت بأنها سورة الدعوة إلى اتخاذ القرار الحكيم بالإيمان، وأن من كفر حرم نفسه من الحكمة.

وبتأمل موضوعات السورة يظهر الترابط الوثيق بينها وبين دلالات قصة لقمان، فالحكمة بارزة في سياق السورة من أولها إلى آخرها، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم هذه السورة إلى مقدمة تبيّن موقف المؤمنين والمستكبرين من بعض مظاهر حكمة الله في كونه، ثم قصة لقمان التي يوصي فيها ابنه بوصايا حكيمة أهمّها التوحيد والشكر لله تعالى، ثم تعقيب على القصة ببيان موقف الناس من آثار حكمة الله في الكون، ثم خاتمة مؤكدة لما سبق^(١).

(١) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١- ١١، وقصة لقمان: ١٢- ١٩، والتعقيب عليها: ٢٠- ٣٢، الخاتمة: ٣٣ و ٣٤. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور تدعو إلى الإيمان والشكر من خلال بيان مظاهر حكمة الله: (أ) فقد تكرر فيها مشتقات الجذر «شكر» خمس مرات: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ وَمَنْ يَنْشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾: ١٢، ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَلِيِّكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾: ١٤، ﴿إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾: ٣١، علماً بأن فعل الأمر «اشكر» ذكر هنا فقط، وأن سورة لقمان هي الوحيدة التي تكرر فيها ذكر الفعل «يشكر» ولم يذكر في موضع آخر إلا في سورة النمل: ٤٠، (ب) قوله ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾: ١١، ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، وقريب منه في سورة فاطر: ٤٠، والأحقاف: ٤، (ج) قوله ﴿إِنَّمَا إِنْ تَكُ يَشْقَىٰ حَبَقٌ مِّنْ خَرَدٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ﴾: ١٦، ذكر هنا وقريب منه في سورة الأنبياء: ٤٧، علماً بأن رقم سورة لقمان: ٣١، (د) قوله ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرٍ أَكَلَهُ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾: ٢٧، ذكر هنا وفي سورة الكهف بصيغة قريبة: ١٠٩، (هـ) قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾: ٣٤، ذكر هنا وفي سورة الأنعام بصيغة قريبة: ٥٩، ثانياً: ومنها أمور تحذر من حرمان النفس من اتخاذ قرار الإيمان: (أ) فقوله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: ٦، ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، (ب) وكذلك قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ﴾: ٢٠، وفي سورة الحج: ٨ فقط، (ج) وصف الشرك بالظلم العظيم ذكر هنا فقط: ١٣، (د) كذلك قوله ﴿وَمَا يَجْعَلُ يَفَادِينَا إِلَّا كُلُّ

أولاً: جاء في المقدمة وصف القرآن بأنه الكتاب الحكيم، وبيّنت موقف الناس من هذا القرآن، فمنهم من اتخذ قراره الحكيم فآمن: ﴿الْعَمَّ ۝ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝﴾. ومنهم من حرم نفسه من هذا القرار الحكيم فاستكبر، واستغنى عن القرآن الحكيم بلهو الحديث: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ وَإِذَا نُنَادَىٰ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرٌ فَنَسَخْنَاهُ بِعَذَابٍ آٰلِيَةٍ ۝﴾. وقبل الانتقال إلى ذكر بعض آثار حكمة الله في كونه، قرر السياق مفازة المؤمنين من لدن الله العزيز الحكيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ النَّعِيمِ ۝ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾.

ثم انتقل السياق إلى عرض بعض آثار حكمة الله في كونه، مع دعوة إلى الإيمان ببيان أن من أعرض فهو ظالم لنفسه؛ لأنه حرّمها من اتخاذ قرار الإيمان الحكيم: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝﴾. فأنّت ترى أن المقدمة تدعو إلى وجوب الإيمان من خلال بيان بعض آثار حكمة الله في خلق الكون، وتحذّر من الاستكبار عن الإيمان، وهذا متنسق مع قصة لقمان التالية.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض قصة لقمان التي يوصي فيها ابنه، فانظر ماذا كانت أول هذه الوصايا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝﴾، لقد أمره بالشكر والتوحيد لله عزّ وجلّ، وهذا لبّ الحكمة وأساسها، وهي وصية متناسقة مع آثار حكمة الله في المقدمة، وقد حذّره من أن يحرم نفسه من الحكمة ويظلمها حينما بيّن له أن الشرك لظلم عظيم، وعلى عادة القرآن ربط لقمان عبادة الله مع طاعة الوالدين، ولم تخلُ الوصية من اتخاذ الحكمة في معاملتهما حتى لو كانا مشركين:

= خَتَارِ كَثُورٍ: ٣٢، هـ) وقد وُصف عذاب من حرم نفسه من اتخاذ قرار الإيمان الحكيم بأربعة أوصاف: «مهيّن: ٦، «آليم: ٧، «السعير: ٢١، «غليظ: ٢٤. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي شَامِئٍ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ٧٨﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٩﴾.

ثم بين لقمان لابنه علم الله التام بتفاصيل ودقائق هذا الكون، والعلم والحكمة متصلان: ﴿يَبْنِيٰ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ٧٩﴾، وبعد أن عرف لقمان ابنه بالجانب النظري لقرار الإيمان الحكيم، أمره بالجانب العملي التطبيقي له: ﴿يَبْنِيٰ أَقْبِرِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ٨٠﴾ وَلَا تَصْعَقْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسَّ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ ﴿٨١﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿٨٢﴾، فعبادة الله، ومكارم الأخلاق التي أمره بها، والنهي عن سيئها من تمام الحكمة. ولاحظ أنه حذره من التكبر، وهذا متناسق مع ما ذكرته المقدمة من موقف المستكبرين. فقصة لقمان بدلالاتها المتسقة مع محور السورة هي الأجدر بالتسمية؛ لأنها تحوي أنموذجاً واقعياً على اتخاذ قرار الإيمان الحكيم، والتحذير من حرمان النفس منه^(١).

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى تعقيب على قصة لقمان يعيد فيها ذكر بعض آثار حكمة الله تعالى في الخلق، مع بيان موقف الناس من ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ٨٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلَوْ كَانِ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٨٤﴾، فهؤلاء فريق ولّوا الشيطان زمام عقولهم، فجادلوا في الإيمان بالله بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير، وحرّموا أنفسهم من اتخاذ قرار الإيمان الحكيم. وانظر الفريق الثاني الذين كان موقفهم غاية في الحكمة: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ٨٥﴾.

(١) يقول الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا: «ولم تسم السورة بالحكمة، ولكن سميت بـ «لقمان» وهو رمز الحكمة، وذلك للدلالة على أهمية الحكمة المتمثلة بالإنسان أكثر من الحكمة المجردة الموجودة في بطون الكتب». من دلالات أسماء السور، ص ٢١٧. وهو كلام لطيف.

وانظر قوله تعالى المعبر عن بعض حكمة الله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣٧).

وقبل الختام أعاد السياق ذكر موقف آخر للناس من مظاهر حكمة الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣٨) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَفَّارٍ كَفُورٍ﴾ (٣٩)، فقد نجى الله هؤلاء إلى البرِّ لحكمة بالغة، وهي إظهار موقف الناس من تلك النعمة، فمنهم من التزم الحكمة وكان مقتصدًا ثابتًا على إيمانه في البرِّ كما كان في البحر، ومنهم غدار كفور حرم نفسه من الحكمة وعاد إلى كفره وشركه بعد أن كان مخلصاً لله وحده في دعائه في البحر.

رابعاً: بقيت الخاتمة وهي تدعو إلى رأس الحكمة: تقوى الله، والاستعداد ليوم الحساب، والتحذير من الاغترار بالدنيا ومن الشيطان: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّكُمْ وََعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (٤٠)، وكما افتتحت السورة بذكر بعض مظاهر علم الله وحكمته، ختمت كذلك بذكر بعض مظاهر علم الله وحكمته، والعلم والحكمة متصلان: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٤١)، واعتقد أن قوله تعالى ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ داعٍ إلى اتخاذ قرار الإيمان الحكيم قبل فوات الأوان، أكد ذلك تكرار عبارة ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ﴾ فالإنسان لا يدري ما سيحصل معه في غده، ولا يدري بأي أرض سيموت، وهذا داعٍ إلى اتخاذ قرار الإيمان الحكيم قبل فوات الأوان، وهكذا التقى بدء السورة مع ختمها حول بيان أن الحكيم من آمن وشكر، والمحروم من أشرك وكفر، وهو المحور الذي دلَّ عليه اسم السورة أحكم الدلالة.



سورة لقمان

سورة الدعوة إلى اتخاذ القرار الحكيم بالإيمان، وأن مَنْ كفر حرم نفسه من الحكمة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١١)

المقدمة التي تبين موقف المؤمنين والمستكبرين من بعض مظاهر حكمة الله في كونه:

■ افتتحت السورة ببيان أن القرآن الحكيم من لَدُنْ الْحَكِيمِ سبحانه: ﴿الْعَمَّ ۝ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾.

■ ثم عرضت موقف المؤمنين الذين اتخذوا قرار الإيمان الحكيم: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝﴾.

■ ثم عرضت موقف المستكبرين الذين حرموا أنفسهم من الحكمة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عَمَلٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ وَإِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بَعْدَآءِ أَلْسِنَةٍ ۝﴾.

■ وعرضت المقدمة بعض مظاهر حكمة الله تعالى في خلق كونه: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۚ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٢-١٩)

قصة لقمان التي يوصي فيها ابنه بوصايا حكيمة أهمها الإيمان والتوحيد والشكر لله:

■ ثم عرض السياق قصة لقمان مع ابنه يدعوه فيها إلى الإيمان والتوحيد: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۝﴾.

■ ﴿يَبْتَغِي لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝﴾.

■ ومن وصايا الحكيم أنه دعا ابنه إلى الإحسان للوالدين، وقد بين له تمام علم الله وكمال رحمته، فهو عليم بكل الخفايا في السماوات والأرض.

■ وأمر ابنه بإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونهاه عن التكبر: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٠-٣٢)

بيان موقف الناس من آثار حكمة الله في الكون:

■ عرض السياق بعض آثار حكمة الله في خلق الكون: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا﴾.

■ ثم عرض موقف المستكبرين المحرومين من الحكمة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

■ ثم عرض موقف المؤمنين الذين اتخذوا قرار الإيمان الحكيم: ﴿وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

■ ومن أبرز الآيات الداعية إلى الإيمان والمبينة كمال علم الله تعالى وتعالى علمه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرٍ أَكَلَتْهُ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

■ وقد عرض السياق موقف الإنسان حين يتعرض للشدائد مثل الغرق، فمنهم من يلتزم بقرار الإيمان الحكيم إذا أنجاه الله إلى البر فيبقى مؤمناً، ومنهم من يغدر عهده فيعود للكفر ويحرم نفسه من الحكمة.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٣٣-٣٤)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ دعت الخاتمة إلى التزام رأس الحكمة، وهو تقوى الله والاستعداد لليوم الآخر.

■ وحذرت من أن يغتر الإنسان بالحياة الدنيا وبوساوس الشيطان فيحرم نفسه من الإيمان.

■ وكما افتتحت السورة ببيان بعض مظاهر علم الله وحكمته، ختمت بالموضوع ذاته: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

سورة السجدة

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ١٥ ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ١٦ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ١٧ ﴿

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى بيانها موقف المؤمنين بآيات الله، فهم إذا ذكروا بها خروا سجداً، وسبحوا بحمد ربهم، وهم لا يستكبرون عن الإيمان، وهم أيضاً تتجافى جنوبهم عن المضاجع داعين ربهم خوفاً من عقابه، وطمعاً في رحمته، فاسم السورة يشير إلى أن سجودهم علامة إيمانهم بربهم وخوفهم من يوم القيامة.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن السورة تخاطب القلب البشري لتقرير عقيدة الدينونة لله الأحد الصمد، خالق الكون والناس ومدبر السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما، والتصديق برسالة النبي ﷺ والاعتقاد بالبعث والجزاء، فهي تقدم براهين على هذه العقيدة من مشاهد الكون، ومن نشأة الإنسان، ومشاهد يوم القيامة، وبيان جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين، فاسم السورة الذي هو دليل الإيمان بعظمة الله والخضوع له، والطمع في ثوابه وحسن جزائه، يدل على تكريم المؤمنين بتلك العقيدة التي تقررها السورة^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ١٤٩، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٦، ص ٤٢، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٨٠٢، ٢٨٠٣، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢١، ص ٢٠٤، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٦، ص ٤٩، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٣١٩، ووادي، ومنها، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٢٢٤ - ٢٢٩.

التوحيد من خلال بيان بعض مظاهر كمال قدرة الله، وأهمّها البعث والحساب والجزاء، ولما كان سجود المؤمنين بآيات ربهم الله دليلاً على إيمانهم به وخوفهم من عذابه يوم القيامة وطمعهم في رحمته، سمّيت السورة بالسجدة للدلالة على المحور المذكور وللتغريب فيه. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان عظمة خالق الكون ومدبّر أمر السماوات والأرض وما فيهما ومَن فيهما، الذي يسجد لعظمته المؤمنون خوفاً وطمعاً.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن تقسيم السورة إلى ثلاثة موضوعات: مقدّمة تؤكّد على أن الله الخالق المدبّر العلیم هو الذي أنزل الكتاب على نبيّه ﷺ، ثم عرض لموقف الكافرين بكمال قدرة الله تعالى، وموقف المؤمنين بذلك، وبيان مصير الفريقين يوم القيامة، ثم خاتمة مؤكّدة لما سبق^(١).

أولاً: جاء في مقدّمة السورة بيان أن الله هو الخالق العلیم المدبّر لشؤون السماوات

(١) مقدّمة السورة شملت آيات: ١-٩، وعرض موقف الكافرين والمؤمنين: ١٠-٢٥، والخاتمة: ٢٦-٣٠. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وكلها أمور تؤكّد كمال قدرته على الخلق والبعث والحساب بعد الإنذار: أ) فقلوه ﴿تَنَزَّلُ الْمَكْتَبِ لَا رَبِّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْفَلَكِينَ﴾: ٢، لم يذكر بهذه الصيغة إلا هنا، وقريب منه في سورة الشعراء: ١٩٢، والواقعة: ٨٠، والحاقة: ٤٣، ب) هي إحدى السور الخمس اللواتي اشتركن في بيان أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام بعبارات متقاربة: السجدة: ٤، والأعراف: ٥٤، ويونس: ٣، والفرقان: ٥٩، وفصلت: ٩-١٢، ج) قوله ﴿يَذَرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾: ٥، هنا فقط بهذا التفصيل، د) وقوله ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾: ٧، هنا فقط، وكذلك ﴿قُلْ يَتُوقُنْكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَ بِكُمْ﴾: ١١، وكذلك وصف يوم القيامة بـ «يوم الفتح» المشير إلى زوال الحواجز فيه عن رؤية الحقائق التي تستوجب السجود لله: ٢٨، ٢٩ وقد أشار لهذه النقطة الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا ص: ٢٢٧، هـ) قوله تعالى عن المؤمنين ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾: ١٩، هنا فقط بالجمع، وانظر بالإنفراد في سورة النجم: ١٥، والنازعات: ٤١، و) وقد ذكر فيها «العذاب» مضافاً أربع مرات: ﴿عَذَابُ الْغُلْغُلَى﴾: ١٤، ولم يذكر في موضع آخر إلا في سورة يونس: ٥٢، و﴿عَذَابُ النَّارِ﴾: ٢٠، وقد ذكر في مواضع أخرى متعدّدة، و﴿عَذَابُ الْأَذَى﴾: ٢١، لم يذكر إلا هنا، و﴿عَذَابُ الْأَكْكَرِ﴾: ٢١، ولم يذكر إلا هنا بهذه الصيغة، وقريب منه في سورة الزمر: ٢٦، والقلم: ٣٣. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

والأرض، وهو الذي أنزل الكتاب على نبيه ﷺ ليدعو إلى الإيمان: ﴿الْمَ ١﴾ تَزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾، فبعد هذا التعريف بالخالق، ينبغي على الإنسان الإيمان به واتباع الحق الذي أنزل على رسوله ﷺ، والسجود لعظمته تعالى خوفاً وطمعاً.

وقد فصلت المقدمة أيضاً في بيان مظاهر أخرى لعظمة الله تعالى، فهو عالم الغيب والشهادة، وقد أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، وكما هو قادر على خلقه أول مرة، فهو قادر على بعثه بعد أن يتوفاه ملك الموت الموكل به.

ثانياً: وبعد هذا التعريف بالخالق القادر، انتقل السياق إلى عرض موقف الكافرين بقدرة الله تعالى، والتي أبرزها القدرة على البعث: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١١﴾ قُلْ يَتَوَفَّنَا مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٢﴾﴾، فهؤلاء الكافرون لعدم إيمانهم بكمال قدرة الخالق العظيم، يمتنعون عن الإيمان به والسجود لعظمته، وقد عرض السياق مصيرهم يوم القيامة ليؤكد كمال قدرته تعالى على البعث والجزاء: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

ولكي يجتمع الترغيب مع التهيب، عرض السياق موقف المؤمنين بالله تعالى وبآياته، وبين مصيرهم يوم القيامة: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾. فسجودهم لخالقهم دليل إيمانهم بكمال قدرته، ولذلك هم يدعون خَوْفًا من عقابه، وطمعاً في رحمته يوم القيامة، ولا يستكبرون عن السجود والإيمان له تعالى كما يستكبر المكذبون، ولعل هذا يطلعنا على شيء من حكمة اختيار اسم السورة، وقد سميت بالسجدة بدلاً من السجود،

وكأنها تدل على أن سجدة واحدة بقلب مخلص الإيمان بالخالق كافية لأن تكون علامة على الإيمان بكمال قدرة الخالق العظيم، والله أعلم.

وكما عرض السياق موقف المؤمنين من أمة سيدنا محمد ﷺ وجزاءهم، عرضت موقف المؤمنين من أمة موسى عليه السلام وبيّنت جزاءهم أيضاً: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۝١٩﴾، فيقينهم بآيات الله أهلهم لأن يكونوا أئمة يهدون بأمر الله لما صبروا، وذلك علامة إيمانهم، وبذلك يتأكد أن الخالق القادر هو مرسل الرسل جميعاً.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التذكير بعرض مظاهر دالة على كمال قدرة الله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً أَفَلَا يَسْمَعُونَ ۝٢٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ۝٢١﴾.

وكما افتتحت السورة ببيان أن منزل القرآن على النبي ﷺ هو الله الخالق القادر، وأكدت ذلك بعرض مظاهر قدرته على الخلق والبعث، ختمت ببيان قدرة الله على البعث بعرض حسرة الكافرين في ذلك اليوم بسبب عدم إيمانهم، مع أمر النبي ﷺ بالصبر على الدعوة لأنه على الحق: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ۝٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرِ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ۝٣٠﴾، وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة، كون السجدة علامة إيمان العبد بكمال قدرة خالقه، والخوف من عقابه والطمع في رحمته.



سورة السجدة

سورة بيان عظمة الله خالق الكون ومدبر أمر السماوات والأرض وما فيهما ومن فيهما، الذي يسجد لعظمته المؤمنون خوفاً وطمعاً

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٩)

المقدمة التي تؤكد أن الله الخالق المدبر لشؤون السماوات والأرض، هو الذي أنزل الكتاب على نبيه ﷺ ليدعو إلى الإيمان:

■ افتتحت السورة ببيان أن الله الذي أنزل هذا القرآن، هو خالق الأكوان سبحانه: ﴿الْعَلَمَ ۝ تَزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۝﴾.

■ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يفرج إليه في يومٍ كان مقداره ألف سنةٍ مما تعدون ۝﴾.

■ وبينت المقدمة من مظاهر عظمته تعالى أنه عالم الغيب والشهادة، الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٠-٢٥)

عرض موقف الكافرين بكمال قدرة الله تعالى وموقف المؤمنين بذلك، وبيان مصير الفريقين يوم القيامة:

■ بعد بيان عظمة الله الخالق، انتقل السياق إلى بيان موقف الكافرين بكمال قدرة خالقهم سبحانه: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَفُورُونَ ۝﴾.

■ وبين مصيرهم يوم القيامة: ﴿وَلَوْ تَرَوُا إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝﴾.

■ ثم بينت موقف المؤمنين بكمال قدرة خالقهم ليجتمع الترغيب والترهيب: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝﴾.

■ وبين مصيرهم يوم القيامة: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾.

■ وعرض موقف المؤمنين من أمة سيدنا موسى عليه السلام كما عرض موقف المؤمنين من أمة سيدنا محمد ﷺ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَدْعُونَ يَأْمُرًا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۝﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٦-٣٠)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت التذكير بعض مظاهر عظمة الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ
الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

■ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا أَلَمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ
فَنَخْرِجُ مِنْهُ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا
يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

■ وكما افتتحت السورة ببيان أن الله مُنْزِلُ الْقُرْآنِ

هو خالق الأكوان، ختمت ببيان حسرة

الكافرين على عدم إيمانهم بدعوة النبي ﷺ:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ
وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرِ
إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

سورة الأحزاب

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ
كَثِيرًا ۖ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۚ ۝ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ
مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ۚ ۝ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ
وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝﴾

الدلالة اللغوية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الحاء والزاي والباء أصل واحد وهو تجمع الشيء، فمن ذلك الحزب: الجماعة من الناس»^(١)، وقد أكد كلامه الإمام الأصفهاني رحمه الله حينما قال: «الحزب: جماعة في غِلْظ - كثرة -، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾ (بعض الآية ٢٢): عبارة عن المجتمعين لمحاربة النبي ﷺ»^(٢)، وزاد الإمام ابن منظور رحمه الله «حزب الرجل: أصحابه وجنده الذين على رأيه . . . وكل قوم تشاكلت قلوبهم وأعمالهم فهم أحزاب»^(٣)، فوصف جيش العدو بالأحزاب يدل على كثرة عدده واتحاد هدفه، أما الدلالات السياقية لاسم السورة فلا يخفى أنها تدل على تجمع جنود قريش وغطفان من جهة، ويهود بني قريظة من جهة أخرى، على المدينة المنورة لاستتصال شأفة المسلمين، وقد كانت هذه الغزوة أشد غزوة وأخطرها على المؤمنين.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً للربط بين محور هذه السورة وموضوعاتها

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٢٦١.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ٢٦١.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ج ٤، ص ١٠٢. بتصرف.

ودلالات اسمها، فذكروا أن من مقاصد هذه السورة الحثّ على الصدق والإخلاص في التوجّه إلى الخالق عزّ وجلّ، دون التفات للخلائق، ومن مقاصدها كذلك ربط ما ذكر فيها من أحداث بالأصل الكبير ألا وهو العقيدة في الله والاستسلام لقدره، وفي السورة إعادة لتنظيم المجتمع المسلم حسب المنهج الإلهي، وفيها ترسيخ لمكانة النبي ﷺ كمصدر تشريع وكأسوة للمؤمنين، وفيها تنبيه على خطر المنافقين والمتخاذلين، وأدل ما في السورة على هذه الموضوعات الرئيسية غزوة الأحزاب مع التعقيب الإلهي عليها، ولذلك سمّيت السورة باسم هذه الغزوة^(١).

ولكنني لاحظت أن موضوع التوجيهات الخاصة بالنبي ﷺ، والتوجيهات الربانية للمؤمنين تجاه النبي ﷺ قد استحوذ على معظم حجم السورة، فمن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: تربية المؤمنين على الطاعة التامة والثقة المطلقة بالنبي القائد ﷺ، من خلال بيان فضله وبعض حقوقه ﷺ على المؤمنين، إن كان في الرخاء أو الشدة، وإن كان بين المجتمع المسلم عموماً أو فيما يخص أهل بيته ﷺ. وإنما اختير اسم الأحزاب لهذه السورة؛ لأنها مع التعقيب الإلهي عليها تعبّر عن أهمّ حقوق النبي ﷺ على المؤمنين، وهو الطاعة والثقة في أشدّ الظروف وأحلكها، فكانت هذه التسمية تعبيراً عن الامتحان العسير الذي أبرز صدق الصادقين من المؤمنين، وتخاذل المنافقين المتنصلين. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان فضل المصطفى ﷺ وحقوقه في الظروف العسيرة والظروف الاعتيادية.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين دلالات اسم السورة، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم هذه السورة إلى أربعة موضوعات رئيسية، أولها: مقدّمة تحوي توجيهات للنبي ﷺ وللمؤمنين من ورائه، وتبرز فضله ﷺ وبعض حقوقه، وثانيها: تربية

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ١٥٢، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٦، ٦٧، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٨١٧-٢٨٢٤، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢١، ص ٢٤٧، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٦، ص ٦٤-٦٦، وعبد الحميد طهماز، النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب، ص ٦-١٠، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ٥٣٧-٥٤٠، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور، ص ٢٣٠-٢٣٧.

للمجتمع المسلم على الطاعة والثقة بالنبي القائد ﷺ في الظروف القتالية الصعبة، مع بيان تخاذل المنافقين وذلك في الحديث عن غزوة الأحزاب، وثالثها: توجيهات لأهل بيت النبي ﷺ وللمجتمع المسلم للقيام بواجباتهم تجاه النبي ﷺ في الظروف العادية، ورابعها: خاتمة مؤكدة لما سبق^(١).

أولاً: جاءت المقدمة تحوي توجيهات للنبي ﷺ وللمؤمنين من خلفه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝﴾، ولا يخفى أن تقوى الله والمفاصلة بين المؤمنين وبين الكافرين والمنافقين، واتباع التوجيه الرباني، والتوكل على الله، هي أسباب النصر مهما تعسرت الظروف، فهذه المقدمة بتوجيهاتها السامية تدعو المؤمنين وعلى رأسهم رسول الله ﷺ إلى الالتزام بها حتى يتحقق لهم النصر، كما تحقق يوم الأحزاب.

وقد بيّن السياق السبب في ضرورة المفاصلة بين المؤمنين وبين الكافرين والمنافقين حينما بيّن أن الله ما جعل لرجل من قلوبين في جوفه، ف «الإنسان لا يملك أن يتجه إلى أكثر

(١) مقدمة السورة شملتها الآيات: ٨-١، وتربية المؤمنين في الظروف القتالية الصعبة: ٩-٢٧، والتوجيهات لأهل بيته ﷺ وللمجتمع المسلم في الظروف العادية: ٢٨-٥٩، والخاتمة: ٦٠-٧٣. ومن لطائف هذه السورة: أولاً: أنها أكثر سورة في القرآن ذكرت فيها لفظة «النبي» العائدة على سيدنا محمد ﷺ، وقد كان ذلك خمس عشرة مرة، منها خمس نداءات للنبي ﷺ بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾: ١، ٢٨، ٤٥، ٥٠، ٥٩، وهي أكثر سورة في القرآن تكرر فيها هذا النداء، وفيها أيضاً سبع نداءات للمؤمنين بـ «يا أيها الذين آمنوا»: ٩، ٤١، ٤٩، ٥٣، ٥٦، ٦٩، ٧٠، وثانياً: هي أكثر سورة عاد فيها مشتقات الجذر «صدق» على المؤمنين، وقد كان ذلك سبع مرات أيضاً: ٨ ﴿لَيْسَتِ الْصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾، ٢٣ ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾، ٢٤ ﴿لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾، ٣٥ ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾، وانظر الآية ٢٢ ﴿وَصَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ﴾، وثالثاً: وهي أكثر سورة في القرآن ذكرت فيها مشتقات الجذر «أذى» المحذرة من إيذاء النبي ﷺ أو أهل بيته، وقد تكرر ذلك سبع مرات أيضاً: ٤٨ ﴿وَرَعَ أَذْنَهُمْ﴾، ٥٣ ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾، ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾، ٥٧ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾، ٥٨ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، ٥٩ ﴿فَلَا يُؤْذِنُ﴾، ٦٩ ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ مَادُّوا مُوسَى﴾، رابعاً: هي الوحيدة التي امتازت ببيان أن النبي ﷺ أسوة حسنة للمؤمنين ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةً﴾، ٢١، وقد ذكرت سورة الممتحنة أن إبراهيم عليه السلام ومن آمن معه أسوة حسنة أيضاً: ٤، ٦، خامساً: هي الوحيدة التي امتازت بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ وَلِلْكَافِرِينَ يُصْلَوْنَ عَلَى النَّبِيِّ بِمَا كَانُوا عَلَى اللَّهِ أَشَدَّ حَسْرَةً﴾، ٥٦. ينظر: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

من أفق واحد، ولا أن يتبع أكثر من منهج واحد^(١)، وأعتقد أن هذا البيان متعلق أيضاً بما لحقه من بيان أن الزوجة المظاهر منها غير الأم، وأن الأدعياء غير الأبناء، فالمعتقد والزوجة، والأم، والأدعياء، والأبناء، كلها أمور فردية لا مثنوية بينها، فلا يمكن أن يكون الرجل مؤمناً ومنافقاً أو كافراً في ذات الوقت، ولا يمكن أن تكون الزوجة والأم شيئاً واحداً، وكذلك الأدعياء والأبناء.

ولذلك ينسب الأدعياء إلى آبائهم الحقيقيين، فإن لم يُعلم آباؤهم فهم إخواننا في الدين ومواليها، وذكر هذه التوجيهات في مقدمة السورة متلائم مع ما سيأتي من الحقوق الأسرية الخاصة بالنبي ﷺ.

ثم انتقل السياق إلى بيان فضل النبي ﷺ على المؤمنين، وما نتج عن ذلك من تفضيل أزواجه عليهم أيضاً: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ مِنْ بَعْضِهِمْ أُولَىٰ مِنْ بَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْهُمْ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا ٧ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ سَأَلْتَهُنَّ خِيَارًا وَلَهُنَّ فَيَاقُوتٌ ذَاكُمُ الْحَقُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ خِيَارُ اللَّهِ يَوْمَ تَكُونُ الْأُمَمُ أَسْمَاءُ لِلَّذِينَ هُمْ يُعَذِّبُونَ عَذَابًا أَلِيمًا ٨

إن ذكر هذا الفضل للنبي ﷺ، والدعوة إلى الإيمان الصادق به، يبرز لنا بعض حقوقه ﷺ على المجتمع المؤمن، وفي ذلك تهيئة لذكر أهم هذه الحقوق، وهو الثبات على صدق الإيمان والثقة به في أعسر الظروف كما سيأتي في غزوة الأحزاب، ولاحظ أن التقرير في هذه المقدمة قد جاء على نحو حازم جازم وكأنه بيان عسكري، فانظر الأوامر التالية: (اتَّقِ اللَّهَ، اتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ، تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ)، ولاحظ أسلوب التقرير مع التوكيد: (إن الله كان عليماً حكيماً، إن الله كان بما تعملون خبيراً، النبي أولى بالمؤمنين . . .) وأعتقد أن هذا الحزم والجزم متلائم مع شدة ظروف غزوة الأحزاب وحالك أحوالها. فدلالة اسم السورة منسجمة مع أسلوب التعبير أيضاً.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى الموضوع الأهم في السورة، وهو تربية المؤمنين على الثبات

(١) قطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ٢٨١٩.

في صدق الإيمان والثقة بالنبي القائد ﷺ، فقد كانت غزوة الأحزاب التي سميت هذه السورة باسمها أصعب ابتلاء تعرض له المؤمنون، فظهر فيه صدق الصادقين، وتخاذل المنافقين، وقد ابتدأ السياق عرض أحداث هذه الغزوة من نتائجها النهائية، فكان في ذلك مزيد امتنان من الله على المؤمنين: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ٩١﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنَّ ٩٢﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ٩٣﴾، ولاحظ وصف حال المؤمنين في تلك الموقعة، فقد بلغت القلوب الحناجر، ودخل الظن إلى القلوب، وابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً، كل ذلك يطلعننا على هول هذه الموقعة وشدة ظروفها.

وقد عرض السياق موقف المنافقين: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ٩٤﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ٩٥﴾، فهم يكذبون الله ورسوله ﷺ، ويتنصلون من القتال معذرين بالأعذار الكاذبة، وقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولّون الأدبار، وكان عهد الله مسؤولاً، وهم جنباء إذا جاء الخوف، وإذا ذهب الخوف أعملوا في المؤمنين ألسنتهم السليطة، وهم يتمنون في تلك الموقعة لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عما حصل للمؤمنين.

وانظر ماذا كانت نتيجة أعمالهم القبيحة ونياتهم السيئة: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُولُوا حَسَنَةً اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (بعض الآية ١٩)، إن عرض موقف المنافقين هذا يبرز لنا من ناحية مدى شدة تلك الغزوة، ومن ناحية أخرى يربّي المؤمنين على الثقة والصدق في الإيمان، وأن لا يكونوا مثل هؤلاء.

ثم عرض السياق موقف المؤمنين: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ٩٦﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ٩٧﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا ٩٨﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ

الْمُنْفِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾ ، ولاحظ ابتداء الكلام عنهم ببيان فضل النبي القائد ﷺ ، ولاحظ أن الظنون لم تتمكن من قلوب المؤمنين ، فسرعان ما أبطل اليقين في قلوبهم هذا الظن ، وقالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، وما زادتهم شدة الغزوة إلا إيماناً وتسليماً ، وما بدّلوا تبديلاً . فأنت ترى أن السياق يركّز على تربية المؤمنين على أداء أهم حق من حقوق النبي ﷺ ألا وهو الثبات على الثقة والإيمان الصادق به ﷺ حتى في أحلك الظروف ، وهذا أعظم مقصد في السورة ، ولذلك سمّيت السورة باسم هذه الغزوة المعبرة عنه .

ثم عرض السياق نتيجة الموقعة ، فقد ردّ الله الكافرين ولم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، أما فيما يتعلق بيهود بني قريظة الناقضين للعهد ، فقد بيّن السياق مصير غدرتهم ، فقد مكّن الله المؤمنين منهم ، فقتلوا فريقاً منهم وأسروا فريقاً ، وقد أورث الله المؤمنين ديار يهود بني قريظة وأموالهم ، وهذا متعلّق بما سيجيء من تربية نساء النبي ﷺ على عدم الإنفال عليه من طلب زيادة النفقة من الأموال التي غنمها المسلمون بعد القضاء على بني قريظة .

ثالثاً : وبعد أن انتهى الكلام عن حقوق النبي القائد ﷺ في الظروف العسيرة ، انتقل إلى بيان حقوقه ﷺ في الظروف العادية ، وكان أولها توجيه لأمهات المؤمنين : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتُمْ أَسْرَحَكُمْ سَرَكَاً جَمِلاً ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمُ أَجْراً عَظِيماً ﴿٢٩﴾﴾ ، فنساء النبي ﷺ مأمورات بعدم تفضيل شيء من متاع الدنيا على الله ورسوله ﷺ ، ثم بيّن السياق أن نساء النبي ﷺ بزواجهن من أشرف الخلق قد جعل الله لهنّ ميزة على باقي النساء ، وذلك يستلزم منهنّ مزيد الطاعة لله ورسوله ﷺ ، فقد بيّن السياق أن من يأت منهنّ بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ، وفي المقابل من يقنت منهنّ لله وتعمل صالحاً يؤتها الله أجرها مرتين ، وانظر إلى هذه الأوامر الإلهية لهنّ فيما يتعلّق بحقوق النبي ﷺ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمُ بِفَحْشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسيراً ﴿٣٠﴾ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمُ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَتَعَمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً ﴿٣١﴾﴾ . يَنْسَاءُ النَّبِيُّ لَسْتُ

كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٣﴾
 وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٤﴾ وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَى
 فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ، ولاحظ أن المقصود من
 هذه الأوامر حفظ عرض النبي ﷺ من أن يمس بأدنى سوء، فهنّ مأمورات بعدم الخضوع
 بالقول، وأُمِرْنَ بالقول المعروف، والقرار في البيوت وعدم التبرّج، وإقامة الصلاة وإيتاء
 الزكاة، وطاعة الله ورسوله، كل ذلك يؤهلهن لأن يذهب الله عنهنّ الرجس ويطهرهنّ تطهيراً.

وقد بين السياق أن كل فرد في المجتمع الإسلامي ذكرأ كان أو أنثى، مأمور بفضائل
 الأخلاق، وقد أعدّ الله لمن التزم بذلك مغفرة وأجرأ عظيماً، ومن الأخلاق الفاضلة الطاعة
 التامة لله ولرسوله ﷺ، ولذلك جاء هذا الأمر فيما يتعلق ببعض حقوق النبي ﷺ على
 المؤمنين: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ
 يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ ﴿٣٦﴾ ، وهذا الأمر ممهد لعدم المجادلة فيما يتعلق بأمر
 الله رسوله ﷺ بالزواج من مُطلّقة زيد بن حارثة، الذي كان قد تبتأه النبي ﷺ، فقد أراد الله
 إبطال حكم التبتّي، وقد اختصّ رسوله ﷺ بالقيام بهذه المهمة، فأمره بالزواج من مُطلّقة
 زيد، وحينئذ لن يكون على المؤمنين حرج في أزواج أديعائهم إذا قضوا منهنّ وطراً
 وطلقوهن.

فأنت ترى أن السياق يركّز على تعريف المؤمنين بحقوق نبيهم ﷺ وتربيتهم على القيام
 بها، ولذلك بيّن السياق بعض مزايا هذا النبيّ الكريم ﷺ وعظيم فضله عند الله تعالى:
 ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَيَشِيرُ
 الْمُؤْمِنِينَ يَاقُوتَ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا نَطْعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
 وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ ، ولاحظ تكرار الأمر بعدم طاعة الكافرين والمنافقين، والتوكل
 على الله، وهو أمر قد ذكر أول السورة، وتكرار هذا الأمر للنبي ﷺ وللمؤمنين من خلفه فيه
 مزيد حثّ لهم على القيام به.

وبمناسبة الحديث عن العلاقات الأسرية الخاصة بالنبي ﷺ، بيّن السياق أن لا عدّة

للنساء المطلقات قبل الدخول، وأتبع ذلك بيان ما يحل للنبي ﷺ من النساء، وهن اللاتي آتاهن أجورهن - أزواجه التسع - وما ملكت يمينه، وبنات أعمامه وعماته، وبنات أخواله وخالاته، وآية امرأة وهبت نفسها للنبي ﷺ إن أراد أن يستنكحها بلا ولي، وهذا أمر خاص به ﷺ فقط من دون المؤمنين، وقد جعل الله له مطلق الحرية في اللواتي يعرضن أنفسهن له ﷺ، فإن شاء ضم إليه، وإن شاء أبى، وإن أراد أن يضم إليه امرأة قد أبأها سابقاً فله ذلك، ثم حرم الله عليه استبدال أحد أزواجه بأخرى ولو أعجبه حسنهما، وذلك لأن أزواجه ﷺ قد استحققن أن ينلن شرف الزواج منه ﷺ، وأن يكن أمهات المؤمنين، فلا يزول عنهن هذا الشرف أبداً.

ثم انتقل السياق إلى أمر توجيهي آخر للمؤمنين يتعلق بحقوق النبي ﷺ، فقد نهى القرآن المؤمنين عن دخول بيوت النبي ﷺ بلا إذن، وإذا أذن لهم فلا يثقلوا عليه ﷺ بانتظار نضج الطعام، أو الاستئناس بالحديث بعد الطعام، ولكن إذا طعموا فلينتشروا، وقد حرم القرآن على المؤمنين أن يسألوا إحدى نساء النبي شيئاً من متاع الدنيا إلا من وراء حجاب، واستثنى السياق من ذلك المحارم من الرجال، وانظر إلى هذا التوجيه: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُذْذَرُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ (بعض الآية: ٥٣). ولاحظ المنهجية في القرآن في عرض الأوامر، إذ قد أقر السياق الأمر الذي كان قد حدث في أحد بيوت النبي ﷺ، بعد أن بين بعض الأحكام الخاصة بأهل بيته ﷺ، وقد أمر السياق أيضاً نساء النبي ﷺ ونساء المؤمنين بأمر مشترك، وهو أن يدين عليهن من جلايبهن فلا يؤذين من ذي قلب مريض.

وانظر إلى هذا الأمر الذي ختمت به هذه التوجيهات، والمبين لفضل النبي المصطفى وعظم منزلته عند الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾. فأنت تلاحظ إذاً أن سياق السورة متعلق ببيان حقوق النبي المصطفى ﷺ على المؤمنين، في الرخاء والشدة، والتي كان أهمها الثبات على الثقة وصدق الإيمان به في أشد الأحوال، وهو ما عبر عنه اسم السورة أبلغ الدلالة.

رابعاً: بقيت الخاتمة وهي تحوي تأكيداً لكل ما سبق ذكره، فقد أعادت التحذير من تخاذل المنافقين المؤذنين لرسول الله ﷺ: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦٠) ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا قَتِيلًا﴾ (٦١) ، وأعادت التحذير من الكافرين المكذبين بالساعة، مع بيان تحسّرهم على عدم طاعة الله ورسوله في يوم القيامة: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ (٦٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكُفْرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ (٦٣) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٦٤) ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ (٦٥) ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا الْسَّبِيلَ﴾ (٦٦) ، وفي ذلك تربية للمؤمنين بلزوم طاعة الله ورسوله .

وأعادت تنبيه المؤمنين وتحذيرهم من إيذاء النبي ﷺ ، والأمر بطاعته طاعة تامة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِبَآءٌ﴾ (٦٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٦٨) ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٦٩) ، واعتقد أن ذكر بني إسرائيل الذين آذوا موسى عليه السلام، متلائم مع ما ذكرته السورة عن غزوة الأحزاب التي ألّب فيها يهود بني قريظة قريشاً وغطفان على إيذاء النبي ﷺ والمؤمنين معه .

وقبل الختام بينت السورة تكريم الإنسان بأمانة العقل التي أشفق منها السماوات والأرض، وهي أمانة تقتضي منه أن يكون موالياً ومطيعاً كل الطاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ، لا أن يظلم نفسه ويكون مع الذين يحادّون ويتآمرون على الله ورسوله ﷺ، وكما افتتحت السورة بأخذ الحيطة والحذر وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، وأمر المؤمنين بطاعة الله ورسوله ﷺ، ختمت ببيان مصير كلا الفريقين: ﴿لِئَعَذَّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٧٠) .

وهكذا التقى البدء والختام كما هي العادة في هذا القرآن العظيم، على محور تربية المؤمنين على طاعة الله ورسوله ﷺ حتى في أحلك الظروف وأعسرهما، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ دلالة .

سورة الأحزاب

سورة بيان فضل المصطفى ﷺ وحقوقه في الظروف العسيرة والظروف الاعتيادية

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٨)

المقدمة التي تحوي توجيهات للنبي ﷺ وتبين فضله وبعض حقوقه:

■ افتتحت السورة بدعوة النبي ﷺ إلى المفاصلة بين أهل الإيمان والنبي على رأسهم، وبين أهل الكفر، حتى يتحقق النصر للمؤمنين مهما تعمست الظروف: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ أَنْتَ اللَّهُ لَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَتْ عَلَيْكَ حَكِيمًا ۝ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝﴾.

■ ومما يؤكد ضرورة المفاصلة بين المؤمنين والكافرين بيان المقدمة أن ليس للإنسان في قلبه مكان إلا لمعتقد واحد: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفٍ ۝﴾، فالإنسان إما مؤمن أو كافر.

■ وكذلك تجب المفاصلة بين الأبناء والأدعياء، فهما أمران مختلفان، وفي هذا تمهيد لما سيأتي من موضوع زيد ﷺ مع النبي ﷺ.

■ ومما يبين فضل النبي ﷺ وبعض حقوقه قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَرْسَلَهُمْ فِيهِمْ ۝﴾.

■ وقد بينت المقدمة أن الله أخذ من النبيين ميثاقهم ومن النبي ﷺ، وأمرت المؤمنين بالصدق في أداء هذا الميثاق: ﴿لَسْتَ عَلَى الْأَعْدَاءِ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٩-٢٧)

تربية المؤمنين على الطاعة والثقة بالنبي ﷺ في الظروف العسيرة، وبيان تخاذل المنافقين، وذلك في الحديث عن غزوة الأحزاب:

■ عرضت السورة مدى عُسر هذه الموقعة على المجتمع في المدينة، إذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، ووصل الظن إلى القلوب، وابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً.

■ ثم عرضت موقف المنافقين، فهم يكذبون الله ورسوله ﷺ، ويتنصلون من القتال معترضين بالأعذار الكاذبة مع كونهم قد عاهدوا الله بأن لا يولّوا الأدبار، وهم جبنة إذا جاء الخوف، وألستهم سليطة على المؤمنين إذا ذهب الخوف، ونتيجة تخاذلهم هذا: ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَوَفُّوا فَعَبَسَ وَجْهَهُمْ أَتَوْا اللَّهَ وَعَمَلُكُمْ كَافِرٌ ۝ إِنَّ عَرَضَ مَوَاقِفِ الْمُنَافِقِينَ هَذِهِ يَرْبِّي الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْحَذَرِ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مِثْلَهُمْ ۝﴾.

■ وأما موقف المؤمنين، فقد ابتدأ الحديث عنهم ببيان فضل النبي ﷺ، إذ هو أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وقد صدق المؤمنون الله ورسوله حينما رأوا الأحزاب، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً، وثبتوا مع النبي ﷺ في ذلك الموقف العسير، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً.

■ ثم عرض السياق نتيجة الموقعة، فقد ردّ الله الكافرين لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال، ثم مكّن الله المؤمنين من بني قريظة ففريقاً يقتلون ويأسرون فريقاً، وقد أورث الله المؤمنين ديار بني قريظة وأموالهم.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٨-٥٩)

بيان فضل النبي ﷺ وحقوقه في الظروف الاعتيادية:

- أمرت السورة نساء النبي ﷺ بأن لا يفضلن شيئاً من متاع الدنيا على الله ورسوله ﷺ.
- وبما أنهن أزواج أشرف الخلق ﷺ، فقد بينت السورة أن من يأت منهن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين، ومن يقتل منهن الله ورسوله ﷺ وتعمل صالحاً يوتها الله أجرها مرتين.
- وأمرت السورة نساء النبي ﷺ بعدم الخضوع بالقول، وأن يقرن في بيوتهن ولا يتبرجن، وأن يقمن الصلاة ويؤتين الزكاة ويطعن الله ورسوله، وأن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة.
- كل هذه الأوامر تحفظ عرض النبي ﷺ من أي سوء.
- وأمرت السورة المؤمنين والمؤمنات بطاعة الله ورسوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ رِسَالَتَهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْحِجْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾.
- ومما يبين فضله ﷺ أن الله أرسله شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.
- وقد نهت السورة المؤمنين عن دخول بيوت النبي ﷺ بدون إذن، وأن لا يثقلوا عليه بانتظار نضج الطعام أو الاستئناس بالحديث، وإذا سألوا نساء النبي ﷺ متاعاً أن يسألوهن من وراء حجاب.
- وختمت هذه التوجيهات بأمر المؤمنين بالصلاة عليه ﷺ وبيان فضله عند ربه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَمَتْكُمْ يَصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٦٠-٧٣)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

- أعادت التحذير من المنافقين المتخاذلين والذين يؤذون رسول الله ﷺ: ﴿لَنْ يَنْفَعَكَ الْمُتَنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَتُغْرِيَنكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا فُلِيلًا﴾.
- وأعادت التحذير من الكافرين المكذبين بالساعة وبينت حسرتهم يوم القيامة على عدم طاعتهم الله والرسول ﷺ: ﴿يَوْمَ تَقُفُّ أَوْجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾.
- وأعادت تحذير المؤمنين من إيذاء النبي ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا﴾.
- وبينت مكانة العقل الذي جعله الله مناط التكليف، وأهم مقتضيات التكليف طاعة الله ورسوله ﷺ مهما كانت الظروف.
- وكما افتتحت السورة بالأمر بأخذ الحيطة وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، وأمر المؤمنين بطاعة الله ورسوله ﷺ، ختمت ببيان مصير الفريقين يوم القيامة: ﴿لَيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

سورة سبأ

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ
وَأَشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدًا طَيِّبَةً وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ
وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ خَمْطٍ وَأَنْثَىٰ وَشَقِوْا مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾
ذَلِكَ جَزَاءُهم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَىٰ إِلَّا الْكُفُورُ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى
الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَىٰ ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا
ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ
وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سميت هذه السورة الكريمة باسم «سبأ» لذكر قصة سبأ فيها، والتي من أهم دلالاتها أنهم أعرضوا عن شكر المنعم عز وجل حين جعل لهم جنتين عن يمين وشمال، فكان نتيجة إعراضهم أن أبدلهم الله جنتين ذواتي أكل خَمْطٍ، وكذلك أعرضوا عن شكر المنعم عز وجل حينما قرب مسافات سفرهم وجعلها آمنة، وطلبوا أن يباعدهم الله بين أسفارهم، فكان نتيجة إعراضهم أن مزقهم الله في الأرض كل ممزق. فاسم السورة يدل على أن جحود نعم المنعم والكفر بها أمر يؤدي إلى زوالها.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر بعض المفسرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم هذه السورة ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن من مقاصد هذه السورة إثبات حقيقة البعث والجزاء، وذلك بذكر آيات عدة من أوجه قدرة الله وإحاطة وشمول علمه، وقد كانت قصة سبأ المذكورة في السورة مع التعقيب عليها دليلاً واضحاً على قدرة الله تعالى من قلب المنحة إلى محنة،

وذلك لعدم شكرهم ولكفرهم، وبيان أن من أسباب زوال النعمة عنهم أيضاً أن اتّباعهم للشيطان قد أوصلهم إلى الشك بالآخرة، ففي عرض قصتهم تصحيح لبعض القيم المتعلقة بهذا الموضوع والتي أهمّها: بيان أن الإيمان والعمل الصالح هما قوام الحكم والجزاء عند الله، وليس الأموال والأولاد، وقد كانت قصتهم أنموذج جحود وكفر في مقابل قصة آل داود التي تمثل الإيمان والشكر^(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان أنّ الإعراض عن المنعم عزّ وجلّ وجحود نعمته أمر مؤدّ لزوال تلك النعم، وذلك لأن الله بيده مقاليد السماوات والأرض والرزق، فينبغي أن يكون موقف الناس من المنعم سبحانه موقف الإيمان والتوحيد والحمد والشكر، لا موقف الإعراض والجحود والشرك والكفر، وليكتمل هذا المحور حدّرت السورة من الأمور المؤدّية إلى الإعراض عن المنعم وهي: الترف، الاستكبار، اتّباع الشيطان، وكل ذلك يؤدّي في النهاية إلى إنكار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب. وإنما سمّيت هذه السورة باسم «سبأ» لأن الدلالات السياقية لقصتهم مع التعقيب عليها أدلّ ما في السورة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة التحذير من كفر نعم المنعم سبحانه، وبيان الأسباب الداعية إلى كفر النعم وعواقبها.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز التناسق بينها وبين دلالات اسم السورة، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام: أولها: مقدّمة تبين أن مقاليد السماوات والأرض والرزق بيد الله، مع تهديد للكافرين بذلك وللمنكرين للآخرة، وثانيها: عرض قصصي يعرض أنموذجين متقابلين إزاء نعم الله، فكانت قصة آل داود تمثل أنموذج الإيمان والشكر، وقصة سبأ تمثل أنموذج الجحود والكفر، وثالثها: تعقيب إلهي على القصتين يؤكّد

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ١٦٥، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٦، ص ١٤٤، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٨٨٨ - ٢٩٠٢، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٦، ص ١٦٧ و ١٦٨، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ٣٣٠، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ٢٦٩ - ٢٧٢، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور، ص ٢٣٨ - ٢٤١.

ما جاء في المقدمة، ورابعها: خاتمة مؤكدة لما سبق^(١).

أولاً: جاءت المقدمة مبينة أن الله عز وجل مالك مقاليد السماوات والأرض والرزق، فينبغي أن يكون موقف الإنسان من ذلك موقف الحمد والشكر له عز وجل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ

(١) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١-٩، والعرض القصصي لأنموذج الإيمان والشكر: ١٠-١٤، ولأنموذج الجحود والكفر: ١٥-٢١، والتعقيب: ٢٢-٤٥، والخاتمة: ٤٦-٥٤. ومن لطائف هذه السورة أنها تعطي صورة مقابلة لسورة النمل، فالحديث الذي جاء عن مملكة سبأ في سورة النمل يمثل بداية هدايتهم إلى شكر المنعم عز وجل على يد سليمان عليه السلام، وما جاء في سورة سبأ يمثل نهاية انحرافهم عن الإيمان والشكر إلى الجحود والكفر، وقد ذكرت أن سورة سبأ اختير اسمها من موقف الجحود والكفر لينعم الله عز وجل، بينما سورة النمل اختير اسمها من موقف الإيمان والشكر على نعم الله عز وجل، فهما صورتان متقابلتان متكاملتان، ومن العجيب أن هاتين السورتين قد اشتركتا في أمور عدة تؤكد ذلك، فأولاً: لقد ذكر فيهما مشتقات الجذر (شكر) أربع مرات لكل منهما، انظر الآيات في سورة سبأ: ١٥، ١٣ مرتين ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ ﴿وَقِيلَ مَنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾، ١٩، وانظر الآيات في سورة النمل: ١٩، ٤٠ مرتين، ٧٣ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، وثانياً: هما مشتركتان في عدد مرات ذكر مشتقات الجذر (حمد)، فانظر الآيات في سورة سبأ: ١ (مرتين) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾، و ٦ ﴿الْحَمِيدُ﴾، والآيات في سورة النمل: ١٥، ٥٩، ٩٣ جاءت عبارة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ في كل موضع، وثالثاً: هما السورتان الوحيدتان في القرآن اللتان تكررت فيهما مشتقات الجذر (فرح)، إذ جاءت هذه المشتقات مرتين في كل منهما، ففي سورة سبأ: ٢٣ ﴿فَرِحَ عَنْ ثَلَاثِينَ﴾، ٥١ ﴿إِذْ فَرِحُوا فَلَا قَوْلَ﴾، وفي سورة النمل: ٨٧ ﴿فَفَرِحَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾، ٨٩ ﴿وَهُمْ مِنْ فَرَحٍ يَوْمَئِذٍ بَاطِلُونَ﴾، ورابعاً: قد اشتركت السورتان في الاستفهام التقريري ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ﴾، ففي سورة سبأ جاء هذا الاستفهام في الآية: ٢٤، وفي سورة النمل: ٦٤، وبإمكانك أن تضيف أن سورة سبأ تحدثت عن نهاية سبأ حينما أعرضوا عن الشكر، مما يتناسق مع حديثها عن نهاية مملكة سليمان عليه السلام حين قضى الله عليه الموت، وهذا متقابل مع سورة النمل التي تحدثت عن بداية هداية سبأ للشكر بعد إسلامهم مع سليمان عليه السلام، وعن حديثها عن بداية مملكة داود وسليمان حين قالوا: ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: النمل: ١٥، ومن العجيب أيضاً: أن سورة سبأ وسورة النمل أكثر سورتين في القرآن ذكر فيهما لفظة المصدر (رزق) وذلك في أربع مواضع لكل منهما، ومعلوم أن سورة النمل هي سورة النعم، وسورة سبأ تحذر من بطل النعمة، انظر الآيات في سورة سبأ: ٤، ١٥، ٣٦، ٣٩، وفي سورة النمل: ٦٧، ٧١، ٧٣، ٧٥، وانظر قوله تعالى في سورة النمل الذي يحاكي ما حصل لسبأ: ، ومن العجيب أيضاً أن سورة سبأ قد انفردت من بين كل سور القرآن بذكر مشتقات الجذر الرباعي ﴿وَصَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا فَرِيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِذْقًا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِسَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿١٠٧﴾، ومن العجيب أيضاً أن سورة سبأ قد انفردت من بين كل سور القرآن بذكر مشتقات الجذر الرباعي (مَرَّقَ) وهو يدل على زوال النعمة، انظر الآيات: ٧ (مرتين)، و ١٩ (مرتين). ينظر: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا يَنْجُرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢١﴾ ، وقد بين السياق أن لكمال قدرة الله عز وجل ولكمال علمه، قد جعل يوم القيامة ليحاسب فيه المحسن والمسيء، وهو يوم ينكره الكافرون ليتبطروا بنعم الله في الدنيا بلا رقيب ولا حسيب: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَلَىٰ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّثِينٍ ﴿٢٢﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ مَغْفِرُونَ وَرَزَقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ . وانظر كيف يجزي الله المؤمنين بالمغفرة والرزق الكريم الدائم، وما ذلك إلا لدوامهم على شكر نعم الله تعالى والعمل الصالح .

ولاحظ هذه الفرية الساخرة من الكافرين التي تحاكي ما حصل مع سبأ حينما بطروا نعمة ربهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يَتَّبِعُكُمُ إِذَا مَرَقْتُمْ كُلُّ مِرْقٍ إِنَّكُم لَبِئْسَ خَلْقٌ كَذِبٍ ﴿٧﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ ، وقد كان الجواب على شبهتهم بالدعوة إلى النظر إلى مظاهر كمال قدرة الله وعلمه، مما يوجب أن يكون موقفهم موقف الحمد والشكر، لا الجحود والكفر: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا يَبِئْنَ أَيْدِيَهُمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن شَاءَ نَحْشِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿١١﴾ . فأنت تلاحظ أن المقدمة تدعو إلى أن يكون موقف الإنسان من ربه المنعم ذي القدرة التامة والعلم المطلق موقف الحمد والشكر، لا أن يكون جاحداً منكرأ. وبذلك تظهر العلاقة بين المقدمة وبين دلالات قصة سبأ التي دلت على مصير الجاحدين المنكرين .

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى عرض قصصي لأنموذجين متقابلين إزاء نعم الله تعالى، وكان أولهما أنموذج آل داود الذي يمثل موقف الشكر: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أُوتِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٢﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَفَذَرَ فِي السَّرْدِ وَعَمَلُوا صَالِحًا إِنَّي مِمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٣﴾ . والعمل الصالح الذي كان يقوم به داود عليه السلام يمثل الجانب التطبيقي للشكر، وكذلك موقف ابنه سليمان عليه السلام: ﴿وَلَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوهاَ شَهْرٌ وَرَوَّاحُهاَ شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُأْذِنُ رِبهٖ وَمَن يَرْغَبُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا

نَذِقَهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٧﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَنَمِيلٍ وَحِفَافٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا فَضَّيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ فَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَ الْجُنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ أَلْمُهِنِ ﴿١٩﴾ ، لاحظ كيف سخر سليمان عليه السلام جنوده للأعمال الصالحة التي تعتبر جانباً تطبيقياً لشكر المنعم عز وجلّ، ولاحظ قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾، الممهّد لقصة سبأ الذين يعتبرون أنموذجاً على الكثيرين الذين جحدوا النعم.

وأعتقد أن ذكر الهيئة التي مات عليه سليمان عليه السلام يعطي أربع دلالات منسجمة مع محور السورة ودلالات اسمها، فأولاً: جانب غفلة الجنّ يمثل قصور علمهم، وهو أمر مقابل لكثير من آيات السورة التي تمثل كمال علم الله المطلق، فهو وحده قادر على منح النعم لمن يشاء، وثانياً: قصور علم الجنّ مع تسخيرهم التامّ لسليمان عليه السلام حتى آخر لحظة متناسب تماماً مع قول الملائكة أواخر السورة الذي ينعي على مَنْ عبد الجنّ من البشر: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾﴾ وثالثاً: يدل موت سليمان عليه السلام على أن مقاليد الأمور بيد الله وحده^(١). رابعاً: يتناسق الحديث عن نهاية مملكة سليمان عليه السلام بعد موته مع الحديث عن نهاية مملكة سبأ حينما أعرضوا عن الشكر.

وأما الأنموذج الثاني الذي يمثل موقف الجحود والكفر، فهم سبأ الذين سمّيت السورة باسمهم، ليكون في ذلك عبرة للمؤمنين تحذّرهم من عدم الشكر: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَمْ بَلَدَةٍ طَيِّبَةٍ وَرَبِّ غَفُورٍ ﴿٢٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿٢٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ ﴿٢٧﴾﴾، ولاحظ أن قصة آل داود السابقة عرضت موقفين، الأول لداود والثاني لسليمان عليهما السلام، وهنا عرضت السورة

(١) يلاحظ في الحديث عن قصة آل داود عليه السلام في سورة سبأ أن التركيز كان على عرض أعمال الإنس والجن، وذلك يتناسب مع اسم السورة لأن سبأ من البشر، بينما كان التركيز في سورة النمل على العجاوات، أعني النمل والهدد، وذلك يتناسب مع اسم السورة لأن النمل من العجاوات.

موقفين سباً، كان هذا أولهما، إذ بطروا نعمة الجنتين اللتين أنعم الله بهما عليهما، وأعرضوا عن شكر المنعم وعن الاستغفار، فكانت العاقبة أن أبدلت جنتاهما بجنتين ذواتي أكل خَمِط، ولا ريب أن تسمية الجنتين ذواتي الأكل الخَمِط بـ «الجنتين» إنما هو للسخرية، ولاحظ أن السياق قد ذكر أن السبب في ذلك هو كفر المنعم سبحانه، سواء كان المقصود بالكفر المعنى اللغوي أو الاصطلاحي.

وأما الموقف الثاني لهم فهو يدل على الجحود أيضاً: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قَرْيَ ظَهْرَةٍ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيًّ وَأَيَّامًا مَّامِنِينَ ٨١﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، فهم قد بطروا نعمة الأمن التي أنعمها الله عليهم حينما قرّب مسافات سفرهم، وطلبوا تطويل المسافات في السفر حتى كانت النتيجة أنهم قد مزّقوا كل ممزّق، ولاحظ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، الدال - فيما أرى - على أن موقف الإنسان ينبغي أن يكون صباراً حال الضراء، وشكوراً حال السراء.

وجاء في التعقيب ذكر بقية الأسباب التي دعتهم إلى بطر النعمة وجحودها: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ٨٢﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ ٨٣﴾، فقد زين لهم إبليس بطر النعمة فأطاعوه، حتى وصل الأمر بهم إلى الشك بحقيقة الآخرة، وإنكار الآخرة أمر مشترك بين المتبظرين كما لا يخفى، وذلك لأنهم يريدون التبظر في النعم، وكأنه لا رقيب ولا حسيب عليهم. ولاحظ ذكر فريق من المؤمنين، مما يدل على أن الباقي كانوا كافرين.

إذاً فالأسباب التي تدعو إلى بطر وجحود النعمة المستنبطة من هذه القصة مع التعقيب هي: الإعراض والاستكبار عن المنعم سبحانه، والترف واطر النعمة، وتزيين إبليس، ثم بالنهاية إنكار الآخرة والكفر، ولذلك اختيرت هذه القصة لتكون اسماً للسورة، لأنها أدل ما في السورة على محورها الدال على أن الجحود للمنعم الذي بيده مقاليد كل شيء أمر مؤدّ إلى زوال النعم.

ثالثاً: ثم ذكرت السورة تعقيباً إلهياً على هذا العرض القصصي، يعيد التذكير بأن الله

تعالى وحده بيده مقاليد كل شيء في الدنيا كما في الآخرة، فينبغي أن يكون موقف الإنسان تجاه ذلك موقف الإيمان والتوحيد والحمد والشكر: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْقَالَ ذَرُّوْا السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ۚ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ۚ﴾ ﴿٣٣﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٤﴾ .

وانظر قوله تعالى الدال على كمال القدرة الإلهية في يوم القيامة الذي ينكره المستكبرون المتبظرون: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُؤْمِنُوا بِهِذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۚ﴾ ﴿٣٥﴾ قَالِ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُخْرَجِينَ ۚ﴾ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْيَلِّ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا الثَّمَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَظَ فِي أَغْصَانِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُعْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ﴾ ﴿٣٧﴾ ، ولاحظ أن التلاوم بين المستكبرين والمستضعفين يذكرنا بدور إبليس في إغواء سبا، ولاحظ أنهم تكبروا عن أعظم نعمة من نعم المنعم عز وجل عليهم، ألا وهي نعمة الهدى المتمثلة بالقرآن والكتب السماوية، ولاحظ أن تكبرهم قادهم إلى المكر بالليل والنهار ليكفروا بالمنعم عز وجل ويشركوا به.

رابعاً: بقيت الخاتمة وهي تحوي تأكيداً لكل ما سبق، فقد دعت إلى أن يكون موقف الإنسان من المنعم سبحانه موقف الإيمان والشكر: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَىٰ وَفَرَدَىٰ ثُمَّ تَنَفَّكُرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ حِجَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۚ﴾ ، وبيّنت كمال القدرة الإلهية في الآخرة التي ينكرها المتبظرون: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ فُزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۚ﴾ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاسُوتُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۚ﴾ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۚ﴾ ﴿٥٣﴾ ، فقد انتبهوا بعد فوات الأوان إلى الموقف الذي كان يجب أن يتخذه من المنعم عز وجل.

وكما افتتحت السورة ببيان أن موقف الإنسان ينبغي أن يكون موقف الإيمان والتوحيد

والحمد والشكر للمنعِم عزّ وجلّ كونه بيده مقاليد كل شيء، ختمت السورة ببيان مصير من اتخذ بدلاً من ذلك موقف الجحود والكفر: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّزِيٍّ﴾ (٥٤)، وهو ختام يذكّرنا بما حصل مع سبأ الذين سميت السورة باسمهم، والذين دلّت قصتهم على محور السورة أبلغ الدلالة، وتناسقت مع موضوعاتها أبلغ التناسق.



سورة سبأ

سورة التحذير من كفر نِعَمِ الْمُنْعَمِ سبحانه، وبيان الأسباب الداعية إلى كفر النعم وعواقبها

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٩)

المقدمة التي تبين أن مقابلد السماوات والأرض والرزق بيد الله، وتهتد الكافرين بذلك والمنكرين للآخرة:

■ افتتحت السورة ببيان استحقاق الله تعالى للحمد لأنه بيده مقابلد الدنيا والآخرة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمُوتْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

■ وهذت المقدمة الكافرين المنكرين للآخرة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾.

■ وبيّنت جزاء المؤمنين في ذلك اليوم: ﴿لَيَجْزِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

■ كما وبيّنت مصير الكافرين في ذلك اليوم: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٠-٢٠)

عرض قصصي يعرض أنموذجين لشكر نِعَمِ الله تعالى، ويعرض أنموذجاً لكفر نِعَمِ الله تعالى:

■ عرض السياق موقف داود عليه السلام من تسخير الله له نعمة الحديد: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَنجِيَالُ أَوْبَى مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾، وقد تمثل شكره عملياً إذ سخر هذه النعمة في سبيل الله: ﴿أَن آتَمَلَ سَبْعِينَ وَفْدًا فِي السَّرِّ وَعَمَلُوا صَليحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

■ وعرض السياق موقف سليمان عليه السلام من تسخير الله له الرياح والجنّ وعين القطر، فاستخدم هذه النعم في العمل الصالح أيضاً: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْدِيبٍ وَمَنْشِيلٍ وَجَنَّاتٍ جَلْجَلٍ وَأَنْدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا مَا لَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

■ في المقابل عرض السياق قصة سبأ الذين كان لهم موقفين دالّين على كفرهم بنِعَمِ الْمُنْعَمِ سبحانه، حتى زالت عنهم هذه النعم، فقد أعرضوا عن شكر الله إذ أنعم عليهم بجنتين عن يمين وشمال، فأرسل الله عليهم سيل العرم وأبدلهم بجنتين ذواتي أكل خمط.

■ وموقفهم الثاني أنهم طلبوا من الله أن يباعد بين أسفارهم بعد أن قرب الله بينهم المسافات وجعلها آمنة، فظلموا أنفسهم، وجعلهم الله أحاديث ومرّهم كل مرّ، هذه عاقبة المعرضين عن شكر الله تعالى.

■ وقد بيّنت القصة الأسباب التي جعلتهم يبطرون نِعَمِ الله تعالى وهي: الإعراض والاستكبار عن المنعم سبحانه، والترفع المؤذي إلى البطر، واتباع تزيين إبليس، ثم في النهاية إنكار الآخرة والكفر.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٢-٤٥)

تعقيب على القصص يؤكد أن الله تعالى وحده بيده مقاليد كل شيء، فينبغي أن يكون موقف الإنسان الإيمان والتوحيد والشكر لا الجحود والكفر:

■ فقال تعالى سائلاً المشركين: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (٢٢).

■ وقال تعالى داعياً إلى الإيمان والتوحيد: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٢٣).

■ وقد بين التعقيب حسرة الكافرين المستكبرين عن آيات الله يوم القيامة، وأن الذي جعلهم يتحسرون هو مكرهم بالليل والنهار وأمرهم المستضعفين بالكفر بآيات الله، بدلاً من الإيمان والشكر له سبحانه.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٤٦-٥٤)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت التذكير ببيان وجوب أن يكون موقف الإنسان موقف الإيمان والشكر: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ قُلُوبِ الَّذِينَ نَفَعْتُمْ مِمَّا صَاحِبَكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (٤٦).

■ وبينت حسرة الكافرين يوم القيامة بعد أن فاتهم الوقت ولم يتخذوا موقف الإيمان وشكر المنعم، فقالوا متحسرين يوم القيامة: ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٤٧) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِرُونَ يَالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٨).

■ وكما افتتحت السورة ببيان ما يجب أن يكون عليه موقف الإنسان من الإيمان والشكر والتوحيد لله تعالى، ختمت بذكر من اتخذ بدلاً من ذلك موقف الجحود والكفر، وخسروا كل الخسارة: ﴿وَجِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُذِيبٍ﴾ (٥٤).

سورة فاطر

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَئِكَ أَجْنَحَهُ مَنَقَ
وَتِلْكَ وَرُبِعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحِ
اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَتْلَاهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ
اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس رحمه الله: «الفاء والطاء والراء، أصل صحيح يدل على فتح شيء وإبرازه»^(١)، ويقول الإمام الأصفهاني رحمه الله: «... وفَطَرُ الله الخلق: هو إيجاد الشيء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال»^(٢)، فوصف الله تعالى بـ «فاطر السماوات والأرض» يدل على أنه سبحانه هو الذي أوجد هذا الكون وأبدعه، وصيغة اسم الفاعل تؤكد ذلك؛ لأنها تفيد التمكّن.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة مقصودها إيقاظ القلب البشري من غفلته، بإيقاعات موحية تهزّه هزّاً، ليتأمل عظمة هذا الكون وآيات الله الماثلة في تضاعيفه، هذه الإيقاعات تجمعها الإشارة إلى يد القدرة المبدعة، فالسورة تثبت القدرة الكاملة لله تعالى، والتي يلزم منها قدرته على البعث، فالإيجاد من العدم أدلّ دليل على ذلك، وفي تسميتها بـ «فاطر» دلالة على ذلك^(٣).

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٨٤٩.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ٦٤٠.

(٣) ينظر: البقاعي، نظم الدرر، ج ٦، ص ١٩٩، ٢٠٠، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٩١٨، وابن =

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان بعض صفات الله تعالى والتي أهمها أنه هو المبدئ والمعيد، فهو الذي فطر الخلق أول مرة، وهو القادر على أن يعيده يوم القيامة. ولما كان اسم السورة «فاطر» يدل على أنه تعالى هو الذي فطر الخلق أول مرة، سميت به؛ للدلالة على المحور المذكور. وقد تميزت هذه السورة بأنها سورة بيان أن الله هو المبدئ الذي فطر الخلق أول مرة، وهو المعيد الذي سيعيده يوم القيامة.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة موضوعات، أولاً: مقدمة تدعو إلى التوحيد من خلال بعض الآيات الكونية والآيات القرآنية، وثانياً: بيان بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى في الكون للدلالة على قدرته على البعث، وثالثاً: الدعوة إلى الإيمان من خلال آيات الوحي (القرآن) مع بيان مصير من يؤمن ومن يكفر بها يوم القيامة، رابعاً: الخاتمة المؤكدة لما سبق^(١).

= عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢، ص ٢٤٧-٢٤٩، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٦، ٢٣٥، ٢٣٦. ومحمد قطب، دراسات قرآنية، ص ٢٢١، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ٣٣٥-٣٣٩، د. عبد الفتاح محمود المثنى، نظرية السياق القرآني، ص ٣٤٩ وما بعدها. وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(١) مقدمة السورة شملت الآيات: ١-٨، وبيان بعض مظاهر كمال قدرة الله: ٩-٢٤، والدعوة إلى الإيمان بآيات القرآن: ٢٥-٣٧، والخاتمة: ٣٨-٤٥. ومن لطائف هذه السورة أنها تميزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك، أولاً: منها أمور متعلقة بالله تعالى، (أ) هذه السورة من السور التي تكررت فيها عبارة «الحمد لله»، وذلك يدل على أنه تعالى مستحق الحمد لأنه موجد الخلق وباعثهم يوم القيامة: فاطر: ١، ٣٤ (على لسان المؤمنين في الجنة)، والأنعام: ١، ٤٥، والنمل: ١٥، ٥٩، ٩٣، والزمر: ٢٩، ٧٤، ٧٥، (ب) هي أكثر سورة أضيفت فيها مشتقات الجذر «مَسَّكَ» إلى الله تعالى، وكلها في سياق بيان كمال القدرة، وذلك أربع مرات: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ لَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾: ٢، و﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾: ٤١، وقد تلتها في ذلك سورة الملك فحصل فيها ذلك مرتين: ١٩، ٢١، ولم يتكرر ذلك في سورة أخرى، (ج) هي من السور التي تكررت فيها عبارة «سنة الله» الدالة على أنه تعالى هو مدبر أمور الخلق: فاطر: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ =

أولاً: جاء في مقدمة السورة دعوة إلى التوحيد من خلال عرض بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى في الكون، ومن خلال الدعوة بالآيات القرآنية: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّىٰ وَتِلْكَ وَرَبُّكَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝﴾، فالله وحده المستحق للحمد؛ لأنه هو الذي فطر الكون، كما أن له الحمد في الآخرة حين يبعث الخلق، ولاحظ الإشارة إلى التكوين الخلقي للملائكة، وذكرهم مناسب لبيان عظمة الله، فهم خلق عظيم من خلق الله، ولاحظ بيان أن الله تعالى بيده خزائن الرحمة والرزق، يفتح متى يشاء، ويمسك متى يشاء، إن افتتاح السورة بهذه

== تَبْدِيلًا وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۝ ٤٣، بالتاء المفتوحة لزيادة الدلالة، الأحزاب: ٣٨، عن سنة الله في الأنبياء، ٦٢ (مرتين)، عن سنته في المنافقين، وكلها بالتاء المغلقة، الفتح: ٢٣ (مرتين)، عن سنته في الكافرين بالتاء المغلقة، وقد ذكرت عبارة «نعمت الله» في سورة فاطر أيضاً بالتاء المفتوحة: ٣، (د) هي وسورة النساء الوحيدتان اللتان تكررت فيهما كلمة «العزة» لنسبتها لله تعالى: فاطر: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۝ ١٠، والنساء: ﴿أَيُّبْنُفُوتَ عِنْدَهُمْ الْإِزَّةَ فَإِنَّ الْإِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۝ ١٣٩، هـ) هي السورة الوحيدة التي تكررت فيها ذكر الاسمين الجليلين «غفور شكور»: ٣٠، ٣٤، وذلك للدلالة على أنه تعالى بالإضافة إلى عظمته التي بينت هذه السورة بعض مظاهرها، فهو (غفور) لعباده (شكور) لمن أحسن منهم، ولم يُذكر هذان الاسمان مجتمعين بتقديم الغفور في موضع آخر إلا في سورة الشورى ومرة واحدة: ٢٣، وكذلك الاسمان الجليلان «خبير بصير» ذكرا هنا: ٣١، وفي سورة الشورى: ٢٧، وفي سورة الإسراء: ١٧، ٣٠، ٩٦، ولم يُذكرا بتقديم الخبير في سورة أخرى، وكذلك الاسمان الجليلان «حليماً غفوراً»، ذكرا بتقديم الحليم هنا: ٤١، وفي الإسراء: ٤٤، فقط، ولم يجتمع الاسمان الجليلان «عليم قدير» بتقديم العليم إلا هنا: ٤٤، وفي سورة النحل: ٧٠، والروم: ٥٤، والشورى: ٥٠، (و) هي من السور التي تكررت فيها النداء «يا أيها الناس» وكان المنادي هو الله تعالى وليس على لسان الرسول ﷺ، فاطر: ٣، ٥، ١٥، والنساء: ١، ١٣٣، ١٧٠، ١٧٣، ويونس: ٢٣، ٥٧، (ومرتان أمر النبي ﷺ بالنداء: ١٠٤، ١٠٨)، والحدج: ١، ٥، ٧٣، (ومرة أمر النبي ﷺ بالنداء: ٤٩)، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بالخلق، (أ) لم يذكر شيء في القرآن عن التكوين الخلقي للملائكة إلا هنا: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّىٰ وَتِلْكَ وَرَبُّكَ يَزِيدُ ۝ ١، وقد أشار لهذه النقطة سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٩٢١، (ب) كذلك لم يذكر شيء عن التكوين الداخلي للجبال إلا هنا: ﴿وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝ ٢٧، ومعلوم ما في هاتين الإشارتين من عظيم الدلالة على الخالق سبحانه، (ج) لم تتكرر هذه العبارة في موقع آخر ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ۝ ١٣، وهي تدل على عدم حيلة الشركاء في مقابل كمال قدرته تعالى. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

الصفات الجليلة تدعو إلى التوحيد، لأن من له هذه الصفات - والتي أعظمها فطر السماوات والأرض - هو وحده المستحق للعبادة.

وبعد ذكر بعض الآيات الكونية، انتقل السياق إلى التحذير من الكفر بالآيات القرآنية: ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝١﴾ بَيَّأُهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۝٢﴾، ولاحظ عبارة ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، التي تؤكد أن الله تعالى هو الفاطر المبدئ لهذا الكون، وهو المعيد لخلق هذا الكون في الآخرة، ولاحظ التحذير من الكفر، والاعتزاز بالحياة الدنيا أو بخطوات الشيطان، ومن ثم الوقوع بالتكذيب بآيات هذا الخالق العظيم.

فالمقدمة تدعو إلى عبادة الله وحده؛ لأنه هو فاطر الكون، وهو الذي يرسل الرسل ليؤمن الناس ويعبدوه.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى تأكيد القدرة الإلهية على البعث من خلال ذكر بعض مظاهر كمال قدرته تعالى في الكون، فالمقدمة أثبتت أن الله هو المبدئ، وهنا سيثبت السياق أن الله هو المعيد: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُفِيرُ سَحَابًا فُسْقَنُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ۝٩﴾، فكما أنه قادر على إحياء الأرض بالماء بعد موتها، فهو سبحانه قادر على إحياء الموتى، وانظر هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝١١﴾، ولاحظ بيان أن هذا كله على الله يسير، وهذا مرتبط باسم السورة، فإن الذي فطر السماوات والأرض وبه خزان الرحمة والرزق، لن يكون من العسير عليه خلق البشر من تراب، وبعثهم بعد موتهم.

وقد ذكر السياق من آيات الله للدلالة على قدرته على البعث أنه تعالى فصل بين البحرين العذب الفرات والبحر الملح الأجاج، ومن كلٍّ يستخرج الإنسان لحماً طرياً، وأنه تعالى هو الذي يولج الليل في النهار، وهو الذي سخر الشمس والقمر، وأعاد التذكير بأن الذي له هذه الصفات هو المستحق للعبادة، ولا شريك له: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا

لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿٤٤﴾ ، ولا تخفى العلاقة بين اسم السورة وبين ذكر هذه الصفات الجليلة لله تعالى .

ثالثاً : وبعد الدعوة إلى التوحيد من خلال الآيات الكونية ، انتقل السياق إلى الدعوة إلى الإيمان والتوحيد من خلال الآيات القرآنية : ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَتْ نَكِيرِ ﴿٤٦﴾ ، وبيان عاقبة المكذبين متلائم مع بيان الصفات الجليلة لله تعالى ، فهو قادر على إهلاك المكذبين كما هو قادر على خلق السماوات والأرض ، وانظر هذه الآيات : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٤٧﴾ لِيُوفِّيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُمْ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٤٩﴾ ، فالسياق كما ترى يدعو إلى توحيد الله عز وجل والإيمان بآياته ، من خلال بيان مصير المؤمنين .

ولكي يؤكد السياق على حقيقة أن الله تعالى هو المبدئ المعيد ، عرض مصير المؤمنين والكافرين يوم القيامة : ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٥٠﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٥١﴾ ، فهذا مصير المؤمنين ، وانظر مصير الكافرين : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٥٢﴾ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٥٣﴾ ، ولا حظ بيان أن الكافرين في النار مخلدون بلا موت ، وذلك يتلاءم مع اسم السورة من حيث إن الذي فطر الخلق وبدأه ، هو الذي يعيد الخلق في يوم القيامة بعد موتهم ، وهو القادر على أن يحرم هؤلاء من الموت فلا يرتاحون أبداً .

رابعاً : جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق ، فقد أعادت التأكيد على أنه سبحانه هو المبدئ المعيد : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ

الْكَافِرِينَ كُفِّرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ ، فكما هو قادر على جعل البشر يخلف بعضهم بعضاً ، قادر على بعثهم يوم القيامة .

وقد أعادت الدعوة إلى التوحيد من خلال الآيات الكونية والآيات القرآنية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكُنُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ .

وكما افتتحت السورة ببيان أن تعالى هو الذي فطر السماوات والأرض فهو المبدئ ، ختمت ببيان أن الله تعالى هو المعيد أيضاً : ﴿ وَلَوْ يُوَاقِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِا مِنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ ﴿٤٥﴾ ، وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دل عليه اسم السورة أبلغ الدلالة .



سورة فاطر

سورة بيان أن الله هو المبدئ الذي فطر الخلق أول مرة،

وهو المعيد الذي سيعيد الخلق يوم القيامة

الموضوع الثاني: (الآيات: ٩-٢٤)

بيان بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى في الكون للدلالة على قدرته على البعث:

■ بعد أن أثبتت المقدمة أنه تعالى هو المبدئ، انتقل السياق إلى بيان أنه هو المعيد، فهو يحيي الموتى، وقد بين السياق أن الله هو الذي خلق الناس من تراب ثم من نطفة ثم جعلهم أزواجاً فهو كذلك قادر على بعثهم وحسابهم.

■ وذكر السياق من مظاهر قدرته تعالى أنه فصل بين البحرين العذب الفرات والملح الأجاج، وأنه يولج الليل في النهار، وهو الذي سخر الشمس والقمر، ثم قال: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾، فالقادر على كل ذلك قادر على إعادة الخلق للحساب يوم القيامة.

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٨)

المقدمة التي تدعو إلى التوحيد من خلال بعض آيات الله الكونية والقرآنية:

■ افتتحت السورة بذكر بعض الآيات الكونية الدالة على أن الله هو الذي فطر الكون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَئِكَ أَجْنَحُ مَنَافٍ وَتِلْكَ رُجُوعٌ بِيَدِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ■ وبيّنت أنه وحده سبحانه بيده الرزق فهو وحده الخالق.

■ ودعت إلى الإيمان بالآيات القرآنية: ﴿وَإِنْ يَكْذِبُونَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ وَلِلَّهِ اللَّهُ رُجُوعُ الْأُمُورِ﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٥-٣٧)

الدعوة إلى الإيمان بآيات القرآن مع بيان مصير من يؤمن ومصير من يكفر بها يوم القيامة، ليثبت بذلك أن الله تعالى هو المعيد كما أنه المبدئ:

■ بين السياق أن الله تعالى قادر على إهلاك المكذبين بالقرآن، كما أنه قادر على خلق السماوات والأرض، وهو كذلك قادر على مجازاة من آمن بالقرآن وتلا آياته وأقام الصلاة وأنفق في سبيل الله.

■ ثم عرض السياق مصير من آمن يوم القيامة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٢٥) ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (٢٦).

■ وعرض مصير من كذب: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾، وبذلك يثبت أن الله هو المعيد للخلق يوم القيامة، كما أنه هو المبدئ الذي خلقهم أول مرة.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٣٨-٤٥)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت التأكيد على أن الله هو المبدئ المعيد: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَظِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٣٨).

■ وبينت أنه قادر على بعث الناس ليوم القيامة كما أنه جعلهم خلائف في الأرض يخلف بعضهم بعضاً.

■ وأعادت ذكر بعض مظاهر كمال قدرته تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَا إِنَّ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَجَلٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُمْ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤١).

■ وكما افتتحت السورة ببيان أن الله هو الذي فطر الخلق فهو المبدئ، ختمت ببيان أنه هو المعيد سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَِا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ (٤٥).

سورة يس

﴿يَس ١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾
تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سميت هذه السورة من حرفي اللغة العربية المذكورين أولها، وهما حرفا الياء والسين، وقد اختلف المفسرون في دلالتهما، فمنهم من اعتبرهما نداءً للنبي ﷺ، ومنهم من اعتبرهما يشيران إلى إعجاز القرآن من حيث إنه مكوّن من مثل هذه الأحرف، أقول: بالإضافة إلى اعتبارهما مشيرين إلى إعجاز القرآن وبعد تتبعي للكلمات التي ذكر في أولها هذان الحرفان في هذه السورة وجدت أنه من الممكن اعتبار حرف الياء مشيراً إلى يد القدرة الإلهية القادرة على كل شيء، وحرف السين مشيراً إلى تسييح الله تعالى وكمال قدرته وتنزيهه عن مشابهة الحوادث، وذلك أخذاً من قوله تعالى آخر السورة: ﴿فَسُبْحَنَّ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٧﴾﴾، وسأذكر بيان ذلك إن شاء الله.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن الهدف الأول من هذه السورة بناء أسس العقيدة، فهي تتعرض لطبيعة الوحي وإثبات صدق الرسالة، ولقضية الإلهية والوحدانية، والقضية التي يشتدّ عليها التركيز في السورة هي قضية البعث والنشور، والتأكيد عليها من خلال ذكر بعض المشاهد الكونية المتعددة، كإحياء الأرض بنزول الماء، وسلخ الليل من النهار، وحركة الشمس والقمر . .

فإن كان الحرفان ﴿يَس﴾ يشيران إلى إعجاز القرآن فالترابط بين ما ذكر وبينهما واضح من حيث إن القادر على كل شيء هو من أرسل الرسول ﷺ وجعل القرآن معجزاً، وإن كان

الحرفان نداءً للنبي ﷺ فهما يؤكّدان أنه مرسل من الله تعالى^(١).

ويمكن أن ينبنى على الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: عرضُ بعض مظاهر كمال قدرته تعالى، وأهمّها قدرته على البعث والإحياء، مما يثبت أنه تعالى بيده ملكوت كل شيء وأنه سبحانه منزّه عن النقائص، وكأن ﴿يَسْ﴾ نداءً تعني أن الله بيده كل شيء وأنه سبحانه وتعالى منزّه عن النقص. وقد تميّزت هذه السورة سورة إثبات أن الله بيده كل شيء وأنه سبحانه منزّه عن النقائص، وأدّل شيء على ذلك قدرته على البعث والإحياء.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام، أولها: مقدّمة تبيّن أن من بيده ملكوت كل شيء وهو سبحانه منزّه عن النقص هو مَنْ أرسل النبي ﷺ، وثانيها: قصة أصحاب القرية التي تثبت أن الرسل هداية للناس، وثبت القدرة الإلهية على البعث، وثالثها: تعقيب إلهي يؤكّد قدرة الله تعالى على البعث، مع عرض لمصير المؤمنين والمكذّبين في ذلك اليوم، ورابعها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق^(٢).

(١) ينظر: البقاعي، نظم الدرر، ج ٦، ص ٢٣٩-٢٤٤، وذكر أن حرف الياء الذي هو من حروف النداء ومن حروف الجهر يدل على قوة النفخ في الصور لبعث الخلق، وحرف السين الذي هو من حروف الصفير يدل على صفير النفخ في الصور المشابه للصفير، واعتبر ﴿يَسْ﴾ نداءً للنبي ﷺ، وذكر وجوهاً أخرى، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٩٥٦، ٢٩٥٧، وذكر أن الحرفين يدلان على إعجاز القرآن، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٢، ص ٣٤٢-٣٤٤، ورأيه كراي سيّد، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٦، ص ٢٩٣-٢٩٥، ورأيهم في هذه السورة كراي سيّد، ود. حسن باجودة، تأملات في سورة يس، ص ٧-١٥. وقد رجح أن ﴿يَسْ﴾ من أسمائه ﷺ، وعطية زاهدة، فواتح السور والحروف السبعة، ص ٤٦-٤٩، واعتبر ﴿يَسْ﴾ يشير إلى القسم باليقين والساعة، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود منها بالدراسة.

(٢) مقدمة السورة شملت الآيات ١-١٢، وقصة أصحاب القرية: ١٣-٢٧، والتعقيب عليها: ٢٨-٧٦، والخاتمة: ٧٧-٨٣. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه ومن ذلك، أولاً: منها ما يتعلق بحرف الياء، إذ لم تتكرر إضافة اليد إلى الله تعالى في القرآن إلا في سورتين هما: يس، وآل عمران، وحصل ذلك مرة واحدة في كل من سورة المؤمنون والحديد والملك، ومن اللافت أن إضافة اليد إلى الله تعالى في سورة يس قد جاءت لإثبات كمال القدرة الإلهية على نحو يفوق ما جاء في السور الأخرى، وإليك التفصيل: انظر قوله تعالى ﴿وَأَوَّلَ رِزْوَانًا خَلَقْنَا لَهُمْ مِن مَّاءٍ عَمِلَتْ أَيْدِيَانَا أَنْعَمْنَا﴾: ٧١، إذ لم =

تذكر ﴿أَيَّدِيْنَا﴾ بالجمع بالضميم العائد إلى الله إلا هنا، وانظر قوله ﴿فَسُبِّحْنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: ٨٣، مع التسييح وإضافة الواو والتاء للملك، بينما انظر في سورة آل عمران قوله ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: ٢٦، وقوله ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾: ٧٣، إذ اقتصر السياق نسبة الخير والفضل فقط إلى اليد ودون ذكر التسييح، وانظر قوله في سورة المؤمنون ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: ٨٨، دون ذكر التسييح، وانظر قوله في سورة الحديد ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾: ٢٩، إذ اقتصر على نسبة الفضل لليد ودون ذكر التسييح، وانظر قوله في سورة الملك ﴿بَنَزَّلَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: ١، دون زيادة الواو والتاء إلى الملك، ومن هنا أرى أن الباء في أول سورة يس تشير إلى أن الله بيده القدرة المطلقة، ومن اللطيف أنه جاءت فيها كلمة اليد في حق البشر لإثبات عجزهم في مقابل بيان كمال القدرة الإلهية: ﴿لِيَأْكُونُوا مِن قُرْبِهِ وَمَا عَلَيْهُ أَيْدِيهِمْ﴾: ٣٥، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾: ٣٦، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾: ٤٥، ﴿الَّذِينَ نَحْنُ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ وَكُلَّمَا أَيْدِيهِمْ﴾: ٦٥، وثانياً: منها أمور متعلقة بحرف السين، (أ) لم تتكرر إضافة كلمة ﴿سُبِّحْنَ﴾ إلى الله وكانت الإضافة من الله - وليس على لسان البشر - إلا في ثماني سور: يس، يونس، النحل، الإسراء، الأنبياء، الروم، الصافات، الزمر، وقد امتازت آيتا سورة يس بأنهما جاءتا في سياق إثبات كمال القدرة الإلهية: ﴿سُبِّحْنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾: ٨٣، ﴿فَسُبِّحْنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾: ٨٣، بينما آيات باقي السور جاء معظمها في سياق نفي الشرك فقط: يونس: ١٨، ٦٨ (لنفي الشرك)، النحل: ١، ٥٧ (لنفي الشرك)، الإسراء: ١ (للتنزيه والتعظيم)، ٤٣ (لنفي الشرك)، الأنبياء: ٢٢، ٢٦ (لنفي الشرك)، الروم: ١٧ (لبیان القدرة الإلهية)، ٤٠ (لنفي الشرك)، الصافات: ١٥٩ (لنفي الشرك)، ١٨٠ (للتنزيه والتعظيم)، الزمر: ٤، ٦٧ (لنفي الشرك). ومن هنا أرى أن حرف السين في سورة يس يشير إلى أنه سبحانه مطلق القدرة ومنزه عن النقص، (ب) ومن اللطيف أن هذه السورة امتازت بعدد من الكلمات متعلقة بحرف السين: ﴿فَأَسْتَبِقُوا أَفْعَزَطُ﴾: ٦٦، هنا فقط بهذه الصيغة، ﴿وَوَاصِبٌ لَهُمْ أَلِيلٌ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارُ﴾: ٣٧، لم تذكر ﴿سَلَخَ﴾ إلا هنا، ولاحظ فيها بيان القدرة الإلهية، وكذلك (سابق) مع الليل والنهار: ﴿وَلَا أَلِيلٌ سَابِقُ النَّهَارِ﴾: ٤٠، و ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾: ٩، بينما ذكر السد مرة واحدة فقط في سورة الكهف: ٩٤، و ﴿إِنَّمَا أَنتَ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ﴾: ٢٥، ولم تذكر ﴿فَاسْمَعُونَ﴾ مرة أخرى في القرآن. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

وفي المقابل بينت المقدمة أن إرسال النبي ﷺ رحمة لمن آمن وعمل ليوم البعث، وأكدت ذلك بذكر كونه تعالى مقتدراً على بعث الموتى وحفظ أعمالهم جميعها: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ (١١) ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (١٢) .

فالمقدمة تبين أن الله تعالى مقتدر على كل شيء، ومن أبرز مظاهر كمال قدرته أنه سيعث الموتى وسيجازيهم، وحرفا الباء والسين يشيران إلى القدرة كما تقدم.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى قصة أصحاب القرية، وهي تثبت أنه تعالى بحكمته يرسل الرسل ليحذر الناس من يوم البعث، كما وأن القصة تؤكد أن الله تعالى قادر على البعث، فانظر قول الرجل الذي جاء يدعو قومه إلى الإيمان بما جاء به الرسل الثلاثة: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَفْقَرُوا أَنْبِئُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣) ﴿أَتَبْعُونَهُمْ مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (١٤) ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١٥) ، ولاحظ قوله ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ الدال على أن الله الذي فطره أول مرة قادر على بعثه، وانظر قوله تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ (١٦) ﴿يَا عَفْرَى لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ﴾ (١٧) ، فقد نقل إلينا القرآن كلام هذا المؤمن ليؤكد تحقق النعيم له في يوم البعث جزاء إيمانه .

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى تعقيب على تلك القصة يؤكد قدرته تعالى على البعث: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (١٨) ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (١٩) ﴿وَأَيُّهُمْ هُمُ الْأَرْضُ أَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٢٠) ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ (٢١) ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (٢٢) ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٣) ، لاحظ أن السياق يستدل على قدرة الله على البعث بعرض بعض مظاهر كمال قدرته، فهو الذي يحيي الأرض بالغيث بعد موتها، ويخرج منها الحب ويجعل فيها الجنات، إن القادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى، وانظر كيف نفت الآية قبل الأخيرة القدرة عن البشر، ثم أثبتت الآية الأخيرة القدرة التامة لله وحده، وقد ذكر السياق من مظاهر كمال قدرة الله تعالى آية الليل والنهار، وآية الشمس والقمر، وحمل ذرية آدم في الفلك المشحون، وكلها تؤكد قدرته تعالى على البعث وتنزيهه عن النقائص كما لا يخفى .

ولكي يكتمل التأكيد على إثبات أن الله قادر على البعث، عرض السياق مصير المؤمنين والمكذّبين في ذلك اليوم: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونَ ﴿٥٦﴾ هُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَنِيَّ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

فأنت تلاحظ إذا أن سياق السورة يؤكد قدرة الله تعالى على البعث بمختلف الأساليب وشتى البراهين، فثبت بذلك أنه بيده ملكوت كل شيء، وأنه سبحانه منزّه عن النقائص. وهذا هو المحور الذي دلّ عليه الحرفان ﴿يس﴾ كما تقدّم.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت ذكر بعض مظاهر كمال قدرة الله للاستدلال بها على قدرته تعالى على البعث: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلَكَوْنَ ﴿٦٥﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾، ولاحظ كلمة ﴿أَيْدِينَا﴾ المتفقة مع حرف الياء أول السورة، وكثرة التعبير عن الله عزّ وجلّ بضمير العظمة، لزيادة التأكيد على المحور المذكور.

وأكدت الخاتمة قدرة الله على البعث بدليل ماديّ محسوس لا يمكن للإنسان إنكاره: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٦٨﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسَى خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٦٩﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾.

وكما افتتحت السورة بحرفي الياء والسين المشيرين إلى أن الله بيده القدرة المطلقة وهو سبحانه منزّه عن النقص، ختمت بذكر بعض مظاهر قدرته للتأكيد على أنه قادر على بعث الخلق للحساب: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾، ولاحظ عبارة ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ المتفقة مع حرفي الياء والسين أول السورة، وهكذا التقى البدء والختام على المحور المذكور والذي دلّ عليه الحرفان اللذان سمّيت السورة بهما أبلغ الدلالة.

سورة يس

سورة إثبات أن الله بيده ملكوت كل شيء، وأنه سبحانه منزّه عن النقائص،
وأدل ما في السورة على ذلك بيان قدرته على البعث والإحياء

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٢)

المقدمة التي تبين أن من بيده ملكوت كل شيء وهو سبحانه منزّه عن النقائص، هو من أرسل النبي ﷺ:

■ افتتحت السورة بقوله تعالى: ﴿يَسْ﴾ والقرآن الحكيم ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، وكأنه قال: وحق من بيده كل شيء وهو سبحانه منزّه عن النقص، وحق القرآن الحكيم، إنك يا محمد لمن المرسلين.

■ وقد أكدت المقدمة كمال قدرة الله تعالى وتنزيهه عن النقص من خلال بيان قدرته على بعث الأموات لمجازاتهم بأعمالهم التي حفظها لهم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٣-٢٧)

قصة أصحاب القرية التي ثبت أن الرسل هداية للناس وثبت القدرة الإلهية على البعث:

■ أكد قول الرجل الذي جاء من أقصى المدينة ما جاء به الرسل الثلاثة في بيان قدرة الله على البعث: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

■ وكذلك بين السياق مصير هذا المؤمن المؤكّد لقدرة الله على البعث والمجازاة: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قُوَّتِي يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿١٤﴾﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٨-٧٦)

تعقيب على القصة يؤكد أن الله بيده كل شيء، وهو قادر على البعث بدليل عرض مصير المؤمنين ومصير الكافرين في يوم القيامة:

■ بين التعقيب قدرة الله على إهلاك القرون المكذبة السابقة، وقدرتهم على بعثهم للحساب: ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

■ وبين أن الله الذي أحيا الأرض الميتة وأخرج منها الحب، وجعل فيها جنات من نخيل وأعناب وفجر فيها من العيون، كذلك هو قادر على إحياء الموتى.

■ وذكر السياق من مظاهر كمال قدرته تعالى آية الليل والنهار، والشمس والقمر، وحمل ذرية آدم في الفلك المشحون، كل ذلك يثبت أن الله بيده كل شيء وأنه سبحانه منزّه عن النقائص.

■ ومما يؤكد قدرته تعالى على البعث عرض مصير المؤمنين يوم القيامة: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَابِكِ مُتَكُونُونَ ﴿٥٦﴾ هُمْ فِيهَا نَكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾.

■ وكذلك عرض مصير المكذبين: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٢﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٧٧-٨٣)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت ذكر بعض مظاهر كمال قدرة الله للاستدلال بها على قدرته على البعث: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا صِلًا يَدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلَكَوْنَ ﴿٧٦﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

■ وأكدت قدرة الله على البعث بدليل مادي محسوس، لا يمكن للإنسان إنكاره: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

■ وكما افتتحت السورة بحرفي الياء والسين المشيرين إلى أن الله بيده القدرة المطلقة وأنه سبحانه منزّه عن النقائص، ختمت بذكر المقصد ذاته: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسَبِّحْنَا الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

سورة الصافات

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالْقَائِلَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَهُمْ ۝٤ لَوَّحْدٌ ۝٥ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝٦﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «صَفَّ: الصاد والفاء يدلّ على أصل واحد، وهو استواء في الشيء وتساوي بين شيئين في المقر»^(١)، وزاد الإمام ابن منظور رحمه الله: «قيل في ﴿الصافات﴾ و﴿وَيَا لَحْنُ الصَّافُونَ﴾. . . أنهم مصطفون في السماء يستبحون الله تعالى، وذلك لأن لهم مراتب يقومون عليها صفوفاً كما يصطف المصلّون»^(٢)، وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى وصف حالة الملائكة الكرام، إذ هم يصطفون بانتظام وطاعة ترقباً لأمر الله إليهم، أو أن تكون الإشارة إلى حالتهم في الاصطفاف للصلاة والتسبيح، وصيغة اسم الفاعل ﴿الصافات﴾ وتأكيد هذه الحالة بالمصدر ﴿صفاً﴾، دليل على توحد القصد وكمال الطاعة والانضباط، فكل منهم قد علم مقامه الذي يصف فيه.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة الكريمة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أنها نزلت تستهدف بناء العقيدة في النفوس، وتخليصها من شوائب الشرك في كل صوره وأشكاله، وبخاصة ما كان يتصوره المشركون من ادعاء نسب بين الله تعالى وبين الجنّ، وزعمهم أن هذا النسب أنتج الملائكة وهم إناث، ومن ثمّ اتخذوهم آلهة، ففي تسمية هذه السورة بالصافات نفى لإلهية الملائكة، ونفى لادعاء المشركين أنهم بنات الله، بل هم عباد مطيعون له سبحانه^(٣).

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٥٦٢.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج ٨، ص ٢٥٢. بتصرف.

(٣) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ١٩١، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٦، ص ٢٨٩، وقطب، في ظلال =

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان بعض الصفات الحقيقية للملائكة والجنّ التي تنفي الإلهية عنهم، وبيان بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى التي تثبت توحيد الإلهية له وحده سبحانه، ولما كان وصف الملائكة بالصفات أدلّ ما في السورة على توحيد الإلهية لله تعالى وكمال قدرته ونفي الإلهية عن الملائكة كونهم عباداً مطيعين لله، سمّيت السورة بهذا الوصف ليدل على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة نفي الإلهية عن الملائكة والجنّ وإثباتها لله الواحد من خلال بيان بعض مظاهر كمال قدرته تعالى.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم هذه السورة إلى أربعة موضوعات: الأول: مقدّمة داعية إلى التوحيد من خلال ذكر بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى، والثاني: بيان موقف الناس من موضوع يوم القيامة ومصيرهم فيه، فيوم القيامة هو الحقيقة الثانية في الإيمان بعد التوحيد والثالث: عرض قصصي يبرز بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى، والرابع: الخاتمة المؤكّدة لما سبق^(١).

= القرآن، ج ٥، ص ٢٩٨٠-٢٩٨٢، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٣، ص ٨١، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٦، ص ٣٤١ و ٣٤٢. والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٣٤٥، ود. محمد البهي، تفسير سورة الصافات، ص ٥-٩. وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(١) مقدّمة السورة شملت الآيات: ١-١٠، وبيان موقف الناس من يوم القيامة: ١١-٧٤، والعرض القصصي: ٧٥-١٤٨، والخاتمة: ١٤٩-١٨٢. ومن لطائف هذه السورة: أنها امتازت بعدّة أمور تثبت المحور المذكور ودلالة اسمها عليه، وتفصيل ذلك: أولاً: هي أكثر سورة في القرآن ذكرت فيها مشتقات الجذر «صَفَ»، فقد ذكرت ثلاث مرات وهي جميعها متعلقة بالملائكة: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ سَاجِدُونَ﴾: ١، و﴿وَلَا تَحْنُ الْكَافِرُونَ﴾: ١٦٥، ثانياً: هي أكثر سورة ذكرت فيها مشتقات الجذر «زَجَرَ» فقد ذكرت ثلاث مرات، وهي متعلقة بالملائكة أيضاً: ﴿فَالْزَّيْغَرِ زَجْرًا﴾: ٢، و﴿كَأَنَّمَا مَيَّ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾: ١٩، وذلك حين ينفخ الملك في الصور، ثالثاً: هي أكثر سورة ذكرت فيها لفظة «المُخْلِصِينَ» الدالة على التوحيد الخالص: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾: ٤٠، ٧٤، ١٢٨، ١٦٠، و﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾: ١٦٩، رابعاً: لم يتكرر جمع التسيب مع عبارة ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ إلا في هذه السورة: ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾: ١٥٩، و﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾: ١٨٠، بينما ذكر التسيب =

أولاً: جاء في المقدمة وصف بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى، وهذه المظاهر تنفي الإلهية المزعومة للملائكة أو الجن: ﴿وَالصَّغْدَتِ صَفًا ۝١﴾ فَالْتَجَرَّتْ زَحْرًا ۝٢﴾ فَالْتَلَيَتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝٥﴾ إِنَّا رَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِرَبِّنَا ۝٦﴾ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾، ولاحظ ذكر بعض مهام وصفات الملائكة، فاصطفاهم دليل على أنهم عباد مطيعون لله تعالى يترقبون أمره، ووحدة صقهم دليل وحدة هدفهم، وهم يزجرون الخارجين عن طاعة الله تعالى إما وقت الموت، أو يوم القيامة، وهم ذاكرون لله لا يغفلون عن ذكره، إن بيان صفات الملائكة هذه تطلعنا على كمال قدرة الله تعالى الذي جعل لملائكته هذه الصفات، وقد أكد ذلك أن جواب القَسَم هو حقيقة أن الله هو الإله الواحد.

ولاحظ بيان أن الله تعالى رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق، ولاحظ بيان حفظ الله تعالى السماء من أن يصلها الجن وأن يستمعوا لأخبارها. فالمقدمة إذاً كما ترى تنفي الإلهية المزعومة للملائكة أو الجن، وتثبتها لله تعالى القادر. وقد دلّ على هذا المحور وصف الملائكة بالصفات.

ثانياً: وبعد إثبات قضية التوحيد وهي القضية الأكبر في الإيمان، انتقل السياق إلى ما

= مع هذه العبارة مرة واحدة في كل من السور التالية: الأنعام: ١٠٠، الأنبياء: ٢٢، المؤمنون: ٩١، الزخرف: ٨٢، خامساً: لم يذكر اسم الفاعل مع التشديد «مُسَبِّح» إلا في هذه السورة، وقد ذكر مرتين، أحدهما متعلقة بيونس عليه السلام: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣﴾، والثانية متعلقة بالملائكة: ﴿وَأَنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦﴾، سادساً: لم يوصف قلب إبراهيم عليه السلام بـ «قلب سليم» الدال على كمال إخلاصه في توحيده إلا هنا: ٨٤، سابعاً: هي من أكثر السور التي ذكرت فيها لفظة «مُحَضَّر» بصيغة اسم المفعول، فقد ذكرت فيها ثلاث مرات لكنها متعلقة بالإنس: ﴿مَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٢٧﴾، و ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۝٥٧﴾، والجن: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْإِنْسَ إِتْمَمَ لَمُحْضَرُونَ ۝١٥٨﴾، ومعلوم أن نائب الفاعل لكلمة «مُحَضَّر» في هذه المواقع الثلاث عائد على الملائكة، وثامناً: لم يوصف من يحاول استراق السمع من الجن بـ «الشیطان المارد» إلا هنا: ٧، ولم توصف شجرة الزقوم بـ «طَلْفَهَا كَأَنَّه رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ۝٦٥﴾، وإلهنا: ٦٥، وتاسعاً: ذكرت فيها كلمة «شجرة» ثلاث مرات لكنها متعلقة بشجرتين مختلفتين: ﴿شَجَرَةُ الزَّوْقُمِ ۝٦٢﴾، ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝٦٤﴾، و ﴿وَأَبْنَيْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً يَبْقِيانِ ۝١٤٦﴾، وسياق ذكر الشجرات الثلاث يدل على كمال قدرة الله في الدنيا والآخرة، بينما ذكرت لفظة «شجرة» في سورة الأعراف أربع مرات، وكلها متعلقة بذات الشجرة التي أكل منها آدم عليه السلام. وينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

يتعلق بالقضية الثانية وهي الإيمان باليوم الآخر، فقد عرض السياق موقف الكافرين والمؤمنين بهذا اليوم، وبيّن مصير الفريقين يوم القيامة، وقد ابتدأ السياق بموقف الكافرين لأن ذكرهم أنسب إلى ما سبق من إشراكهم الجنّ والملائكة مع الله تعالى في العبادة: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (١٨) وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الَّذِينَ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِنَّ صِرَاطَ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقَفُّهُمْ لَهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾، ولاحظ وصف النفخة في الصور بالزجرة، ليتلاءم ذلك مع وصف الملائكة بالزاجرات، ويتلاءم ذلك أيضاً مع أمر الملائكة بحشر الذين ظلموا وأزواجهم، وأن يهدوهم إلى صراط الجحيم، وأن يوقفوه لهم إنهم مسؤولون. وذلك كله فيه بيان طاعة الملائكة لأوامر الله عز وجل، ونفي الإلهية عنهم، وفيه بيان لكمال قدرة الله في الدنيا والآخرة كما لا يخفى.

وذكر السياق بيان أن الذي قادهم إلى مصيرهم هذا إنما هو الشرك بالله عز وجل: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٥) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَئِنَّا لَشَاعِرٍ فَتَحْنُونَ ﴿٢٧﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٩﴾.

وانتقل السياق إلى بيان مصير الفريق الثاني، فريق المؤمنين: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٣١﴾ فَوَكَّاهُمْ مَكْرُومًا ﴿٣٢﴾ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٣٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٣٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٣٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٣٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٣٧﴾، ولاحظ أن التفصيل في عرض ما أكرمهم الله به في الجنات أدل على بيان كمال قدرة الله عز وجل، وقبل الانتقال إلى العرض القصصي، أعاد السياق التأكيد على بيان مصير دعاة الشرك وأتباعهم في النار: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ﴾ (٣٨) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٤٠﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ ﴿٤١﴾ فَإِنَّهُمْ لَكَاؤُنَ مِنْهَا فَمَالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٤٢﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حِمِيرٍ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٤٥﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٤٦﴾، وأعتقد أن وصف طلع شجرة الزقوم برؤوس الشياطين مناسب للرد على ما ادّعاه المشركون من النسب بين الجنة وبين الله تعالى، ولا يخفى أن التفصيل في بيان مصيرهم أدل على قدرة الله عز وجل.

فيلاحظ إذاً أن التركيز في السياق على نفي ادعاء إلهية أي من الملائكة أو الجِنَّة، بل المستحق للعبودية هو الله الإله الواحد ذو القدرة المطلقة، وهذا هو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة، حينما زعم المشركون أن الملائكة تستحقّ العبادة لنسب بينها وبين الله تعالى .

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى تأكيد هذا المحور من خلال عرض قصصي يبرز بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى، وتمام حكمته في اصطفاء من يشاء من الرسل، فاصطفاه للرسول لا يجعلهم آلهة يستحقّون العبادة، وكذلك الحال مع الملائكة التي اصطفاها لعبادته، وقد كانت أول قصة قصة نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْيَعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجِّنْهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرّاً أَبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمْ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ كَذَلِكَ تَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾﴾،

ولاحظ بيان قدرة الله تعالى في إنجاء نوح وأهله من الطوفان، وفي إغراق الآخرين، ولاحظ بيان اصطفاء نوح عليه السلام، أعتقد أن السياق ذكر ذلك ليثبت أن الاصطفاء من الله لا يعطي حقّ العبادة، فكما أن نوحاً عليه السلام هو مجرد عبد اصطفاه الله لأداء الرسالة، فكذلك الملائكة الكرام اصطفاهم الله لمهام خاصة بهم، قد ذكرت المقدمة بعضها، وسيأتي ذكر بعضها أيضاً في الخاتمة .

وأما القصة الثانية فهي قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ مِنْ شَيْعِهِ لِإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفَبِكُلِّ إِلَهَةٍ دُونِ اللَّهِ تَرْيَدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾، ولاحظ وصفه عليه السلام بصاحب القلب السليم، ليدلّ ذلك على أنه قلب خالٍ من الشرك، ثم فصل السياق في بيان إبطال إبراهيم إلهية أصنام قومه المزعومة، فقد كسر آلهتهم وأراد قومه إلقاءه في الجحيم، وهنا برزت قدرة الله مرة أخرى فأنجاه الله وجعلهم الأسفلين .

ومن مظاهر كمال قدرة الله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام بيان أن الله تعالى وهب له إسماعيل وإسحاق وجعلهما من الأنبياء، ومن مظاهر كمال طاعة إبراهيم لربه أنه شرع في الاستجابة للرؤيا، فبادر هو وابنه إسماعيل إلى تنفيذها، وفداه الله بذبح عظيم، وأعتقد أن ذكر هذا الجانب من قصتهما عليهما السلام يتلاءم مع ما بيّنته مقدمة السورة من طاعة الملائكة المطلقة .

ومن اللطيف أن القصة الثالثة كانت قصة موسى وهارون عليهما السلام، فما من شك في أن ذكرهما يبرز كمال قدرة الله تعالى في إنجائهما وقومهما من الغرق، وإغراق فرعون وقومه، ثم إنها قصة مترابطة مع قصة نوح عليه السلام الذي نجاه الله من الغرق أيضاً، وقد بين السياق أن الله اصطفاهما لأنهما من المحسنين.

وقصة إلياس عليه السلام تبرز أن عبادة قومه لبعل المزعوم إنما هي عبادة باطلة، لكن القوم كذبوا إلياس عليه السلام فهم محضرون للعذاب كما سيحضر الداعون للشرك وأتباعهم. وقد بين السياق أن الله اصطفاه؛ لأنه من المحسنين أيضاً.

وتبرز قدرة الله تعالى أيضاً في قصة لوط عليه السلام مع قومه، فقد أنجاه الله وأهله إلا امرأته، فقد هلكت مع قومها، ومن اللطيف أيضاً ذكر قصة يونس التي تبرز قدرة الله في حفظه في بطن الحوت، وإنجائه من الغرق ونبذه إلى البر، وهذا مترابط مع قصة نوح وموسى عليهما السلام، وقد أنبت الله عليه شجرة من يقطين حتى استعاد عافيته، وقد ذكر السياق قومه الذين آمنوا حين رجوعه إليهم وقد زاد عددهم عن المئة ألف، فمتّعهم الله إلى حين.

فالملاحظ إذاً أن عرض هذه القصص في هذه السورة يعطي دالتين رئيسيتين: أحدهما بيان أن الله تعالى وحده المستحق للعبادة لأنه ذو القدرة المطلقة، والثانية أن اصطفاء الله لهؤلاء الرسل الكرام لا يعني استحقاقهم للعبودية، وكذلك الملائكة الذين اصطفاهم الله لا يعني ذلك استحقاقهم للعبودية. وبذلك يبرز ترابط هذه القصص مع دلالات اسم السورة.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لكل ما سبق، فقد أعاد السياق دحض شبهة إشراك الملائكة في العبادة: ﴿فَأَسْتَفْنِهِمْ أَرَأَيْتَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ (١٤١) ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ (١٤٢) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهمْ لَيَقُولُونَ﴾ (١٤٣) ﴿وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٤٤) ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ (١٤٥) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (١٤٦)، فبعد أن بينت المقدمة بعض مهام الملائكة الكرام وبعض صفاتهم، ناسب أن يذكر في الخاتمة بإبطال إلهيتهم أو الزعم بأن بينهم وبين الله تعالى نسباً، وقد أعاد السياق في الخاتمة أيضاً دحض شبهة إشراك الجن في الإلهية أو النسب مع الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ (١٤٨) ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾.

وقد أعاد السياق ذكر بعض صفات الملائكة، وبذلك ينتفي أي ادعاء لإلهيتهم: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ (١٦٤) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ (١٦٥) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ (١٦٦)، ولاحظ التناسق بين المقدمة والخاتمة في اشتراكهما في الصفات المذكورة للملائكة الكرام.

وكما افتتحت السورة بذكر بعض صفات الملائكة الكرام التي ينتفي معها كونهم آلهة أو أن بينهم وبين الله تعالى نسباً، وكان من هذه الصفات زجرهم للعاصيين، فتحقق بذلك التوحيد الخالص لله عز وجل، ختمت السورة بذكر مهمة الملائكة بإنزال العذاب على المشركين المكذّبين، وبيان التوحيد الخالص لله عز وجل: ﴿أَفَعِدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (١٧١) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٢) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٣) وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يُصِفُّونَ (١٧٤) سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُّونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿، وهكذا التقى البدء والختام على محور الدعوة إلى التوحيد الخالص لله عز وجل، من خلال بيان بعض الصفات الحقيقية للملائكة والجن، وبيان بعض مظاهر كمال قدرة الله عز وجل، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الصافات

سورة نفي الإلهية عن الملائكة والجن وإثباتها لله الواحد من خلال

بيان بعض مظاهر كمال قدرته تعالى

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٠)

المقدمة التي تدعو إلى التوحيد من خلال ذكر بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى، وتذكر بعض الصفات الحقيقية للملائكة والجن:

■ افتتحت السورة بالقسم بالملائكة الصافات صفاءً، والزاجرات زجراً، والتاليات ذكراً، إن إله الخلق لواحد وهو رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق.

■ ووصف الملائكة بالصافات يدل على كمال انتظامهم وطاعتهم وترقبهم لأمر الله تعالى، وفي ذلك نفي لإلهيتهم.

■ وبينت المقدمة أن الله هو الذي زين السماء الدنيا بزيينة الكواكب، وحفظها من كل شيطان مارد، وبذلك تنفي إلهية الجن لقصور قدرتهم.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١١-٧٤)

بيان موقف الناس من موضوع يوم القيامة ومصيرهم فيه، فيوم القيامة هو الحقيقة الثانية في الإيمان بعد التوحيد:

■ ظهرت مظاهر قدرة الله تعالى في اليوم الآخر من خلال الرد على منكري الآخرة، إذ سيبعثهم الله بجزرة واحدة: ﴿فَأَنَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿١١﴾ وَقَالُوا يَوَدُّ هَٰذَا يَوْمُ الَّذِينَ ﴿١٢﴾.

■ وبين السياق مصير المشركين مع الله آلهة أخرى: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ عَلِمُوا بِوَعْدِهِمْ فَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿١٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَمَّا دُعَاؤُكَ إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَنِيمِ ﴿١٤﴾.

■ وبين السياق مصير المؤمنين الموحدين الْمُخْلِصِينَ: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦﴾ فَوَكَّهَ وَهُمْ نُكْرَمُونَ ﴿١٧﴾.

■ وأعاد السياق عرض مصير المشركين مرة أخرى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَىٰ الْحَنِيمِ﴾ ﴿١٨﴾ إِنَّمْ أَلْقُوا مَاءً ثَقَلًا ﴿١٩﴾ هَٰذَا لَيْتَ قَوْمٌ عَالِمِينَ ﴿٢٠﴾ قَوْمٌ عَلَىٰ مَا تَعْرِفُ يَهْرَعُونَ ﴿٢١﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٧٥-١٤٨)

عرض قصصي يبرز بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى:

- ظهرت قدرة الله في إنجاء نوح عليه السلام وأهله من الكرب العظيم، وإغراق الآخرين.
- وظهرت قدرته تعالى في جغل النار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام، وفي وهب الله له إسماعيل وإسحاق وجعلهما من الأنبياء عليهم السلام.
- وبرزت قدرته تعالى في جعل قوم إلياس عليه السلام المكذبين من المُحَضَّرِينَ للعذاب يوم القيامة.
- وبرزت في إنجاء يونس عليه السلام من بطن الحوت، وإنبات شجرة اليقطين عليه.
- هذه القصص تبرز مظاهر كمال قدرة وتثبيت الإلهية لله وحده، وتدل على أن اصطفاء الله لهؤلاء الرسل لا يعني استحقاقهم للعبودية، وكذلك اصطفاء الله للملائكة لا يعني استحقاقهم للعبودية.

الموضوع الرابع: (الآيات: ١٤٩-١٨٢)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

- أعادت دحض فرية إشراك الملائكة مع الله تعالى في العبادة: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٧١﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾.
- وأعادت دحض فرية إشراك الجنة مع الله في العبادة: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٧٣﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.
- وأعادت ذكر بعض الصفات الحقيقية للملائكة، والتي تنفي عنهم الإلهية: ﴿وَمَا يَنبَغُ إِلَّا لَهُمْ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٧٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٧٦﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُنِشِّرُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة بذكر بعض الصفات الحقيقية للملائكة والتي تنفي عنهم الإلهية، وكان منهم أنهم يزجرون العاصين، ختمت بذكر مهمة للملائكة وهي إنزال العذاب بالمكذبين، وبإثبات الإلهية لله عز وجل وحده: ﴿أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَفْجِلُونَ ﴿١٧٨﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِكَرْهِهِمْ قَسَاءَ صَبَاحٍ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٧٩﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّى جَاءَ ﴿١٨٠﴾ وَأَنْصَرَفَ فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ ﴿١٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٢﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٣﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٤﴾﴾.

سورة ص

﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِي ۝٢ كَرَّ أَهْلُكُم مِّن قَبْلِهِمْ مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَجِئْ مِنَّا بِهَذَا كَذَبٍ ۝٣ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٤ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٥ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِ الْآخِرَةِ إِن هَذَا إِلَّا أُنْخِلَقُ ۝٦ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابَ ۝٧﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى أحد حروف اللغة العربية المذكور أولها وهو حرف الصاد، وقد اختلف المفسرون في المعنى المقصود من هذا الحرف، فمنهم من اعتبره إشارة إلى صدق وعد الله، أو إشارة إلى صدق النبي ﷺ، ومنهم من اعتبر أنه يشير إلى إعجاز القرآن من حيث إنه مكوّن من مثل هذه الحروف، أقول: بالإضافة إلى اعتبار هذا الحرف مشيراً إلى إعجاز القرآن وبعد تأملي لموضوعات السورة، وجدت أن حرف الصاد يشير إلى موضوع الصبر، وهو محور مشترك بين هذه الموضوعات، وسأذكر بيان ذلك إن شاء الله .

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة تعالج قضية التوحيد، وقضية الوحي إلى النبي ﷺ، وقضية الحساب في الآخرة، وفيها مواساة للرسول ﷺ وللمؤمنين ودعوتهم إلى الصبر، فقد ذكر فيها من الأنبياء من ابتلوا وصبروا حتى سلّمهم الله، كما وإن فيها تهديداً وتوبيخاً للمشركين، وفيها بيان أن أولياء الله هم الغالبون وإن رُئي أنهم ضعفاء، فإن كان حرف الصاد يشير إلى القسم

بصدق وعد الله أو صدق النبي ﷺ، فالعلاقة بينه وبين ما ذكر واضحة، وإن كان مشيراً إلى إعجاز القرآن فهو يدلّ على أن من جعل القرآن معجزاً، قادر على نصرته نبيّه ﷺ^(١).

ولكنني أرى أن الصبر هو المحور الذي يجمع موضوعات السورة، فيمكن أن ينبنى على ما سبق بالقول بأن محور السورة هو: تربية النبي ﷺ على الصبر والتذكير بالقرآن؛ لأنه على الحق، وذلك من خلال عرض نماذج لصبر الأنبياء على الابتلاء مع بيان حسن عاقبة صبرهم، ومن خلال بيان سوء عاقبة من يصبر على الباطل. ولما كان حرف الصاد يشير إلى الصبر، جعل اسماً للسورة للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة تربية النبي ﷺ على الصبر وعلى التذكير بالقرآن؛ لأنه على الحق، كما يصبر قومه على الباطل.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفي ما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة موضوعات، أولاً: مقدّمة تحوي تربية للنبي ﷺ على الصبر والتذكير بالقرآن في مقابل صبر المشركين على ضلالهم، ثانياً: عرض قصصي يبرز تربية الله تعالى للأنبياء على الصبر على الابتلاء مع بيان جزاء صبرهم، ثالثاً: تعقيب

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٢٠١، وقد اعتبر حرف الصاد مشيراً إلى صدق النبي ﷺ، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٦، ص ٣٥٦، وقد اعتبره مشيراً إلى صدق وعد الله أو صدق النبي ﷺ، واستشهد على ذلك بما لحرف الصاد من صفات الهمس والصفير والاستعلاء، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٣٠٠٤-٣٠٠٧، واعتبره مشيراً إلى إعجاز القرآن، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٣، ص ٢٠٢، ورأيه كراي سيّد، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٦، ص ٤٣٧، ورأيهم كرايها. وقد ذكر د. أحمد نوفل في كتابه تفسير سورة يوسف، ص ٢٢٤، أن السور التي يكون حرف الصاد من حروف فواتحها يكثر فيها القصص والصبر والخصومة. وانظر أيضاً كتابه تفسير سورة القصص، ص ٢٢، ٢٣. وعطية زاهدة، فواتح السور والحروف السبعة، ص ٦٠-٦٢، وقد اعتبر (ص) مشيراً إما إلى الصحف الأولى، لذكر القرآن بعد هذا الحرف، ولقوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا لَنَى الْأَصْحَفِ الْأُولَى﴾ ﴿صُفِّ إِنْزِيلِهِمْ وَمُوسَى﴾، وإما مشيراً إلى الصاخة لحديث هذه السورة عن بعض مشاهد ذلك اليوم. ود. أحمد سليمان الرقب، سورة (ص)، ص ٣٠٤-٣٢٧، وقد رجّح أن (ص) من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

يبين جزاء الصابرين على الحق والصابرين على الباطل يوم القيامة، رابعاً: الخاتمة المؤكدة لما سبق^(١).

أولاً: جاء في مقدمة السورة أمر للنبي ﷺ بالصبر على التذكير بالقرآن، وذلك لأنه على الحق، بينما المشركون يصبرون على باطلهم: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ۝ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقٍ ۝ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَوْلَا حِينُ مَنَاصٍ ۝ وَجِئُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ۝ اجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ

(١) مقدمة السورة شملت الآيات: ١-١٧، والعرض القصصي: ١٧-٤٨، والتعقيب: ٤٩-٦٤، والخاتمة: ٦٥-٨٨. ومن لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: ذكرت فيها مشتقات الجذر «صبر» ثلاث مرات: مرة في حق النبي ﷺ: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾: ١٧، ومنها في حق المشركين: ﴿أَمْشُوا وَأْمُرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾: ٦، ولم يستخدم الفعل ﴿أَصْبِرُوا﴾ على الباطل في القرآن إلا هنا، ومرة في حق أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾: ٤٤، ولم تذكر كلمة ﴿صَابِرًا﴾ بالنصب في القرآن إلا هنا وفي سورة الكهف: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾: ٦٩. ثانياً: هي أكثر سورة في القرآن ذكرت فيها مشتقات الجذر «خضم»، وذلك أربع مرات: اثنتان في سياق تربية داود عليه السلام على الصبر: ﴿وَقُلْ أَنْتَ نَبِيُّ الْخَصْمِ﴾، ﴿خَصَمَانِ بَعِي بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: ٢١، ٢٢، وذكرت مرة حين لا ينفع الصبر: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾: ٦٤، ومرة في سياق تربية النبي ﷺ على الصبر على فريات المكذبين: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّيْلِ إِذْ يُخَيَّمُونَ﴾: ٦٩، ثالثاً: هي أكثر سورة في القرآن ذكرت فيها كلمة «أواب» ولا تخفى علاقتها بالصبر على دوام الإياب إلى الله، وذلك أربع مرات: مرتين في حق داود عليه السلام؛ أولهما لمدحه والثانية لبيان جزاء صبره: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾: ١٧، ﴿وَأَلْقَيْنَا حَشْوَةَ كُلِّ لُؤْلُؤٍ أَوَّابٍ﴾: ١٩، ومرة في حق سليمان عليه السلام: ﴿يَعْمُ الْكَيْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾: ٣٠، ومرة في حق أيوب عليه السلام وبالعبرة ذاتها: ٤٤، رابعاً: هي أكثر سورة ذكرت فيها كلمة «مأب» لبيان جزاء الصبر على الحق أو الباطل، مرتان في حق داود: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّآبٍ﴾: ٢٥، ومرة في حق ابنه سليمان وبالعبرة ذاتها: ٤٠، ومرة لبيان جزاء الصابرين على الحق: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّآبٍ﴾: ٣٠، ومرة لبيان جزاء الصابرين على الباطل: ﴿وَأَنَّ لِلظَّالِمِينَ لَشَرَّ مَّآبٍ﴾: ٤٤، خامساً: هي أكثر سورة ذكرت فيها كلمة «أناب» الدالة على الصبر على التوبة، وذلك مرتان، مرة في حق داود: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾: ٢٤، ومرة في حق ابنه سليمان: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾: ٣٤، سادساً: هي أكثر سورة بعد سورة مريم ذكر فيها فعل الأمر «اذكر» وذلك أربع مرات: ١٧، ٤١، ٤٥، ٤٨ وذلك يؤكد الصبر على التذكير بالقرآن، وفي سورة مريم ذكر هذا الفعل خمس مرات، كما وإنها أكثر سورة بعد سورة الأنبياء ذكر فيها المصدر «ذُكِرَ» وذلك ست مرات: ١، ٨ (مرتان)، ٣٢، ٤٩، ٨٧، وبإمكاننا أن نضيف كلمة «ذُكِرَى» المذكورة مرتين: ٤٣، ٤٦، وكلها تؤكد أن القرآن ذكر للبشر والتذكير بالقرآن يقوم على الصبر، بينما سورة الأنبياء ذكر فيها المصدر «ذكر» ثماني مرات، وذكرت كلمة «ذكرى» فيها مرة واحدة. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

وقد نقضت المقدمة باطلهم ببيان أن الله تعالى بيده خزائن الرحمة، كما وأنه الذي أهلك من كذب قبلهم من الأقسام، وفي ذلك تأكيد على أن القرآن ذكر للناس، وقد أعادت المقدمة أمر النبي ﷺ بالصبر في دعوته لقومه: ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدًا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (١٧) .

وكما بيّنت هذه القصة أن الحكمة تقتضي أن لا يستوي الحق والباطل، ذكر السياق بعدها أن حكمة الله تقتضي أن لا يستوي المؤمن والفاجر: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۖ﴾ (٢٧) ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ۖ﴾ (٢٨) ﴿كُتِبَ إِلَيْكَ مِزْكُ لِيَذَبُوا ءَايَتِهِ وَلِيَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ۖ﴾ (٢٩)، ولاحظ وصف المؤمنين بأنهم يعملون الصالحات حتى وصفوا بالتقوى، وما ذلك إلا لصبرهم على الحق، ووصف المفسدين في الأرض بالفجار، وما ذلك إلا لصبرهم

على الباطل، ولاحظ التأكيد على أن القرآن ذكرى من أجل أن يصبر أولو الألباب على الحق كما يصبر الفجار على الباطل.

ثم انتقل السياق إلى القصة الثانية وهي قصة سليمان عليه السلام، وقد عرض السياق أنه تعرض لفتنتين من الله من أجل أن يريته على الصبر: ﴿وَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَنَ نَعَمْ أَلْعَبُدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٢٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّفِيفَتُ الْإِجَادُ ﴿٢١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَقَّ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٢٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَنَ وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٢٤﴾، فأول فتنة أن حُبَّ الخير شغله عن ذكر الله، والفتنة الثانية أن الله ألقى على كرسيه جسدًا ليبتليه، وهاتان الفتنتان من أجل تربيته على الصبر على ذكر الله كما هو ظاهر، وقد بين السياق عاقبة صبره إذ مكّن الله له في الأرض وسخر له الريح والشياطين، وإن له عند الله لزلفى وحسن مآب.

ثم انتقل السياق إلى قصة أيوب عليه السلام، إذ ابتلي بمسّ الشيطان له بضرب وعذاب، فصبر حتى عافاه الله ووهب له أهله ومثلهم معهم رحمة منه تعالى، وذلك جزاء صبره عليه السلام، وأعقب السياق قصة أيوب بذكر بعض الأنبياء ووصفهم بأولي الأيدي والأبصار: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَرِ﴾ (٢٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذُكِّرَ الدَّارِ ﴿٢٦﴾ وَإِنَّمَا عِنْدَنَا لِمَنْ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٢٧﴾ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٢٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٩﴾، إن وصفهم بأولي الأيدي والأبصار، وبيان كونهم من المصطفين الأخيار يطلعنا على مدى الصبر الذي كانوا عليه حتى استحقوا هذه الأوصاف الحميدة.

فهذا العرض القصصي كما ترى يعرض تربية الله تعالى لأنبيائه على الصبر حتى تتحقق لهم العاقبة الحسنة، وفي ذلك تربية للنبي ﷺ على الصبر على الحق والتذكير بالقرآن، وبشارة له بحسن العاقبة. وهذا منسجم مع اسم السورة (ص) الدال على الصبر.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى بيان مصير الصابرين على الحق والصابرين على الباطل يوم القيامة: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (٣٠) جَنَّاتٍ عَدْنٍ مِّنْهُنَّ هُمْ الْأَبْرَارُ ﴿٣١﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَّابٍ ﴿٣٢﴾، ووصفهم بالمتقين يؤكد صبرهم على الحق وعلى العمل

الصالح حتى استحقوا هذا الوصف السامي. وانظر مصير الصابرين على الباطل: ﴿هَذَا وَارِكٌ لِلطَّالِبِينَ لَشَرِّ مَنَاقِبٍ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَنُشِرَ الْهَادُ ۝ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ ۝ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ۝﴾، فوصفهم بالطاغين يؤكد أنهم صبروا على الباطل حتى استحقوا مثل هذا الوصف، أضف إلى ذلك أن السياق قد بين أنهم كانوا متكبرين أيضاً، إذ هم لا يرون معهم في النار الرجال المؤمنين الذين كانوا يسخرون منهم في الدنيا: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ۝ أَخَذْتَهُمْ سَخِرَاءً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْبَصَرُ ۝ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ۝﴾، وما فائدة التخاصم حينها، فهم سيبقون في النار، سواء أصبروا أم لم يصبروا، وبيان تكبرهم متلائم مع ما سيأتي في الخاتمة التي تبرز تكبر إبليس عن أمر ربه.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت دعوة النبي ﷺ إلى الصبر على تذكير قومه بالقرآن: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۝ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝﴾.

وقد بينت الخاتمة أن الذي دفع إبليس إلى عدم الاستجابة لأمر الله إنما هو تكبره، وحين حُكم عليه باللعنة إلى يوم الدين، أصرَّ على الصبر على إغواء بني آدم: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۝ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا تُغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ۝﴾، ولاحظ وصف المؤمنين بالمخلصين، وهو وصف يطلعك على مدى صبرهم على كيد إبليس. وذكر صبر إبليس على الإغواء بالباطل متلائم مع ما بينته المقدمة من صبر المشركين على باطلهم، ومع ما بينت السورة من مصير الصابرين على الباطل.

وكما افتتحت السورة بأمر النبي ﷺ بالصبر على الحق والتذكير بالقرآن، ختمت بدعوة النبي ﷺ بالأمر ذاته: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ۝ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝ وَلَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝﴾، فما عليه ﷺ إلا أن يصبر على تذكير قومه بهذا القرآن، وإن يصبر المكذبون - وليس لهم إلا الصبر - فسيعلمون مصير من صبر على الحق ومصير من صبر على الباطل. وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دلَّ عليه اسم السورة أبلغ دلالة.

سورة ص

سورة تربية النبي ﷺ على الصبر على التذكير بالقرآن لأنه على الحق،
كما يصبر قومه على الباطل

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٧)

المقدمة التي تربي النبي ﷺ على الصبر والتذكير بالقرآن، في مقابل صبر المشركين على ضلالهم:

■ افتتحت السورة بقوله تعالى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١﴾، وكأنها تقول: اصبر يا محمد وذكّر بالقرآن الذي أقيم أنه ذو ذِكر.

■ وبينت صبر المشركين على ضلالهم: ﴿وَأَنطَلَقَ الْكَلَامُ مِنْهُمْ أَنِ اشْكُوا وَأَصِرُوا عَلَى الْهَيْكَةِ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٢﴾.

■ وأعادت أمر النبي ﷺ بالصبر، مع المواساة بما سيأتي من القصص الدالة على صبر الأنبياء: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْخُلْ عِبَدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝٣﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٧-٤٨)

عرض قصصي يبرز تربية الله للأنبياء على الصبر على الابتلاء، ويبين جزاء صبرهم ليكون في ذلك تربية للنبي ﷺ على الصبر:

■ عرض السياق قصة داود عليه السلام مع الرجلين اللذين تسوّرا عليه المحراب، فحكم لأحدهما قبل سماع حجة الثاني، حينها أدرك أن هذه فتنة من الله تعالى ليرتيبه على الصبر: ﴿وَلَمَّا دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۝١٧﴾، وقد كانت عاقبة صبره أن جعله الله خليفة في الأرض يحكم بين الناس بالحق.

■ وعرض السياق قصة سليمان عليه السلام حين شغله حُب الخير عن ذكر الله تعالى، وحين ألقي الله على كرسيه جسداً، وقد كانت عاقبة صبره أن سخر الله له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، والشياطين كل بناء وغواص.

■ وعرض قصة صبر أيوب عليه السلام على مسّ الشيطان له بنُضْب وعذاب، فعافاه الله ووهب له أهله ومثلهم معهم رحمة من الله تعالى.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٤٩-٦٤)

تعقيب على القصص بيّن جزاء الصابرين على الحقّ وجزاء الصابرين على الباطل يوم القيامة:

■ فقد عرض السياق مصير المتقين الصابرين على العمل الصالح: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَنَاجٍ ۖ جَنَّاتٍ عِدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُنْفَخَتُ لَهُمُ الْأُكُوتُ ۝٤٩﴾ .

■ وعرض مصير الطاغين الصابرين على الباطل: ﴿هَذَا وَاتَّكَ لِلظَّالِمِينَ لَشَرٌّ مَنَاجٍ ۝٥٠ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَسَّرُ اللَّهُ لَهُمُ الْوُجُوهَ ۝٥١﴾ .

الموضوع الرابع: (الآيات: ٦٥-٨٨)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت دعوة النبي ﷺ إلى الصبر على تذكير قومه بالقرآن: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٦٥ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٦٦﴾ .

■ وحذرت من توعد إبليس بالصبر على إغواء بني آدم: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٦٧ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٦٨﴾ .

■ وكما افتتحت السورة بأمر النبي ﷺ بالصبر على الحقّ والتذكير بالقرآن، ختمت بذات الأمر مع تهديد الكافرين الذين سيعلمون مصير صبرهم على الباطل: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ ۝٨٦ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَلَنَعْلَمَنَّ نَأْوُ بَعْدَ حِينٍ ۝٨٧﴾ .

سورة الزمر

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٩﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس: «الزاي والميم والراء أصلان: أحدهما يدل على قلة الشيء، والآخر جنس من الأصوات، فالأول: الزَمَرُ: قلة الشعر، والزَيْر: قليل الشعر، والأصل الآخر: الزمر والزمار، صوت النعامة، وأما الزُمرة: فالجماعة، وهي مشتقة من هذا، لأنها إذا اجتمعت كانت لها جَلْبَةٌ وزمارٌ»^(١)، وقد أكد الإمام الأصفهاني ذلك فقال: «﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ جمع: زُمرة، وهي الجماعة القليلة»^(٢). وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى وصف سوق المؤمنين إلى الجنة والكافرين إلى النار يوم القيامة، فمعنى «زمرًا» في حق الكافرين كما يقول الإمام الألوسي: «جماعات أفواجاً متفرقة بعضها في إثر بعض مترتبة حسب ترتب طبقاتهم في الضلالة والشرارة»، وفي حق المؤمنين المتقين: «جماعات مرتبة حسب ترتب طبقاتهم في الفضل»^(٣)، فاسم السورة يؤكد قدرة الله على البعث والحساب والجزاء يوم القيامة.

(١) ابن فارس، المقاييس، ٤٦٠.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ٣٨٣.

(٣) الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج ١٢، ص ٢٨٦، ٢٨٧.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن تسميتها بـ «الزمر» يشير إلى تفصيل الجزاء وإلزام الحجة وبطلان المعذرة، وأن مقصودها الدلالة على أنه سبحانه صادق الوعد، وغالب على كل شيء، وعلى ذلك دلّت تسميتها بالزمر؛ لأنها إشارة إلى أنه أنزل كُلاً من المحشورين داره المُعدّة له بعد الإعذار في الإنذار، بعد أن بيّنت أحوالاً شتى لأفواج متباينة من الخلق في الدنيا، قوبلت كل زمرة بأخرى، وبذلك تكون السورة تعالج قضية التوحيد وتطبعه في النفوس^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة: الدعوة إلى التوحيد من خلال عرض مقابلات بين بعض أحوال المؤمنين الموحدين في الدنيا، وبين بعض أحوال الكافرين المكذّبين فيها، وبيان جزاء الفريقين في الآخرة. ولما كان مشهد الزمر الذي يبيّن الإهانة والتحقير للكافرين المتكبرين، في مقابل الترحيب والتكريم للمتقين العاملين أدلّ ما في السورة على مصير كلا الفريقين، سُميت السورة به ليدلّ على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة عرض المقابلات بين أحوال المؤمنين الموحدين، وبين المشركين المكذّبين في الدنيا، ومن ثمّ الجزاء المهيّن للمشركين في مقابل الجزاء الأكرم للمؤمنين يوم القيامة.

والمتمّثل في سياق السورة يجد الترابط الوثيق بين اسم السورة «الزمر» ودلالاته، وبين مقدّمة السورة وخاتمته، وما بين المقدّمة والخاتمة من المقابلات الثمان لأحوال المؤمنين والكافرين، وفيما يلي بيان ذلك^(٢):

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٢١٠، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٦، ص ٤١٢، قطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٣٠٣٣، ٣٠٣٤، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٣، ص ٣١١، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٦، ص ٤٧٣، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، ص ٣٥٦، وذكر أن في السورة ثلاث عشرة مقابلة، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(٢) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١ - ٧، والخاتمة في مشهد الزمر: ٦٧ - ٧٥. وفيما بين المقدّمة والخاتمة ثمان مقابلات بين أحوال المؤمنين والكافرين ومصير الفريقين في الآخرة. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد =

أولاً: في مقدمة السورة تجد مقابلة بين النبي ﷺ والمأمور بالتوحيد الخالص لله، وبين حال المشركين الذين اتخذوا من دون الله أولياء يعبدونهم من دون الله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾. وقد ذكرت المقدمة من الأدلة الداعية إلى توحيد الله عز وجل أنه هو الذي خلق السماوات والأرض بالحق، وأنه يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل، وسخر الشمس والقمر. وذكر هذه الأدلة في المقدمة فيه تشنيع على المشركين، وفيه زيادة تثبيت للمؤمنين الموحدين.

وفي المقدمة مقابلة ثانية بين حال المؤمنين المأمورين بالشكر لله، وبين حال الكافرين الجاحدين: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّكُمْ عِندَ اللَّهِ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾. وهاتان المقابلتان تبينان بعض أحوال زمر المؤمنين وبعض أحوال زمر الكافرين في الدنيا، الذين عرض مشهد «الزمر» مصيرهما يوم القيامة.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عدد من المقابلات بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين، وغالباً ما كان يعقب على تلك المقابلات بذكر مصير الفريقين يوم القيامة، وذلك متناسق مع مشهد «الزمر» الذي يعرض حقيقة مصير الفريقين في ذلك اليوم ويؤكد لها أشد التأكيد:

== من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: أنها تميّزت بذكر مقابلات بين حال الفريقين على نحو لم يتكرر في القرآن: (أ) انظر قوله تعالى ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾: ٧، وقوله ﴿وَإِذَا مَنَّ الْإِسْلَامُ فَزَرَ دَعَا رَبِّهِ مُبِينًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوْلَهُ نُجْمَةٌ مِنْهُ نَبِيٌّ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾: ٨، وقريب منه في سورة الروم: ٣٣، (ج) وقوله ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: ٩، (د) وقوله ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾: ١٤، ١٥، (هـ) وقوله ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾: ٢٩، ثانياً: وردت في هذه السورة عبارة ﴿مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾: ﴿دِينِي﴾ في حق النبي ﷺ ثلاث مرات: ٢، ١١، ١٤، وانظر الآية: ٣ ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ ولم ترد هاتان اللفظتان ﴿مُخْلِصًا﴾ و﴿الْخَالِصُ﴾ في سورة أخرى من القرآن، وهذا يؤكد المحور المذكور. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

فالمقابلة الأولى بين الكافر الجاحد لنعمة ربه، وبين المؤمن العابد الراجي لرحمة ربه:

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِسْكَانَ دُعَا رَبِّهِ مُنِيْبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نِسَىٰ مَا كَانَ يُدْعَوُا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّیُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۝٨﴾ ﴿أَمَنْ هُوَ فَنِيْتُ ءَانَاءِ أَلِيلٍ سَاجِدًا وَقَآئِمًا یَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَیَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ یَسْتَوِی الَّذِینَ یَعْلَمُونَ وَالَّذِینَ لَا یَعْلَمُونَ إِنَّمَا یَتَذَكَّرُ أُولَآئِکَ ۝٩﴾ ﴿قُلْ یَعْبَادِ الَّذِینَ ءَامَنُوا ائْتُوا رَبَّکُمْ لِلَّذِینَ أَحْسَنُوا فِی هَذِهِ الدُّنْیَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا یُؤْتِی الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَیْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾. ولاحظ قوله تعالى عن الكافر: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾، وعن المؤمن: ﴿إِنَّمَا یُؤْتِی الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَیْرِ حِسَابٍ﴾. فقد ذكرت هذه المقابلة مصير الفريقين يوم القيامة، وهي حقيقة أكدها مشهد «الزمر» الذي سميت السورة به.

والمقابلة الثانية بين النبي ﷺ المأمور بالتوحيد الخالص وأتباعه الموحدين المبشرين، وبين المشركين الخاسرين أنفسهم وأهلبيهم يوم القيامة: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۝١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ یَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣﴾ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لِّمِ دِینِی ۝١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِبِهِمْ یَوْمَ الْقِیَمَةِ ءَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِینُ ۝١٥﴾ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ یَعْبَادُ فَاتَّقُونِ ۝١٦﴾ وَالَّذِینَ اجْتَنَبُوا الطَّلْعُوتَ أَنْ یَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادَ ۝١٧﴾. وكما فی المقابلة الأولى نجد التعقيب على المقابلة بذكر مصير الفريقين يوم القيامة: ﴿الَّذِینَ یَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِکَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَٰئِکَ هُمُ أُولَآئِکَ ۝١٨﴾ ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مِنْ فِی النَّارِ ۝١٩﴾.

والمقابلة الثالثة بين حال المؤمنين الذين شرح الله صدورهم للإسلام وللقرآن، وبين الكافرين القاسية قلوبهم: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِکَ فِی ضَلَالٍ مُبِینٍ ۝٢٠﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابِی تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِینَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ یَهْدِی بِهِ مَنْ یَشَاءُ وَمَنْ یُضِلِلِ اللَّهُ فَآلَهُمْ مِنْ هَادٍ ۝٢١﴾. ولاحظ التعقيب بذكر المصير الأخروي للكافرين: ﴿أَفَمَنْ یَبْقِی بَوَجهِهِ سُوًى الْعَذَابِ یَوْمَ الْقِیَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِینَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٢٢﴾.

والمقابلة الرابعة فی المثل الذي یوضح حال الموحدين وحال المشركين: ﴿صَرَبَ اللَّهُ

مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

والمقابلة الخامسة بين حال الكافرين المكذبين، وبين المؤمنين الصادقين المصدقين: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٩﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٤١﴾﴾. ولاحظ التعبير في قوله تعالى عن مصير الكافرين: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾، المتسق مع التعبير عن مصير الكافرين في مشهد الزمر آخر السورة: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾، ولاحظ أيضاً التعبير في قوله تعالى عن المؤمنين المصدقين: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٤١﴾﴾، المتسق مع التعبير عنهم في مشهد الزمر آخر السورة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدُهُ وَأَوْزَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾. فأنت ترى أن مشهد الزمر يؤكد كل ما في هذه المقابلات من خلال عرض مصير الفريقين يوم القيامة، فهو الاسم الأجدر للسورة.

والمقابلة السادسة بين المشركين المتخذين من دون الله شفعاء، وبين النبي ﷺ الموحد: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَٰئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَقُولُونَ ﴿٤٢﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَّهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٤﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٥﴾﴾، ولاحظ أيضاً التعقيب بذكر مصير المشركين الظالمين يوم القيامة: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

والمقابلة السابعة بين المؤمنين الراجين لرحمة ربهم والمتبعين ما أنزله إليهم قبل فوات الأوان: ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُمْ هُمُ الْغَافُرُونَ الرَّحِيمُ ﴿٤٧﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا

تُصْرَفُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ، وبين الكافرين المستكبرين الذين فاتهم الأوان: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا قَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَى قَدْ جَاءَ تِلْكَ عَائِيَتِي فَاذْكُوبَتْ يَهَا وَاسْتَكْبَرَتْ وَكُنْتُ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ .

ولاحظ التعقيب بذكر مصير الفريقين يوم القيامة: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِثَاقَاتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ فِي السُّوءِ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ . ولاحظ تكرار السؤال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ، وقد بينت تناسقه مع مشهد الزمر في المقابلة الخامسة، ولاحظ أيضاً قوله تعالى عن مصير المؤمنين: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِي السُّوءِ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ، ولا يخفى تناسقه مع التعبير عن مصير المؤمنين في مشهد الزمر آخر السورة .

وأما المقابلة الثامنة فهي بين المشركين الجاهلين، وبين النبي ﷺ المأمور بالتوحيد، وبذلك يلتقي آخر السورة بأولها: ﴿قُلْ أَغْوَى اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٢﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٣﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ .

ثالثاً: الخاتمة، وهي تحوي المقابلة التاسعة في مشهد سوق الكافرين إلى جهنم زمراً، وسوق المتقين إلى الجنة زمراً: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦٥﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ .

يقابله قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٦٧﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ . وهو يحوي تأكيداً لكل تلك المقابلات التي ذكرها السياق بين بعض أحوال المؤمنين الموحدون

العاملين الراجين رحمة ربهم، وبين بعض أحوال الكافرين المكذّبين المشركين المتكبرين في الدنيا، وما أعقب تلك المقابلات من ذكر مصير الفريقين يوم القيامة. فكونُ مشهد الزمر هو الأطول والأكثر تأكيداً لتلك الحقائق التي عبّرت عنها المقابلات المذكورة في السورة بين أحوال الفريقين، فقد استحقّ بذلك أن تُسمّى السورة باسمه ليدلّ على المحور المذكور أبلغ الدلالة.



سورة الزمر

سورة عرض المقابلات بين أحوال المؤمنين الموحدين، وأحوال المشركين المكذّبين في الدنيا،
والمقابلة بين مصير الفريقين في الآخرة

الموضوع الأول (الآيات: ١-٧)	الموضوع الثاني: (الآيات: ٨-٦٦)
المقدمة التي فيها مقابلتان بين أحوال الفريقين في الدنيا:	عرضٌ لثماني مقابلات بين أحوال الفريقين مع بيان الجزاء الأخروي لكليهما في أغلب هذه المقابلات:
■ افتتحت السورة بعرض مقابلة بين النبي ﷺ والمأمور بالتوحيد الخالص لله عز وجل، وبين المشركين الذين اتخذوا من دون الله أرباباً يعبدونهم من دونه.	■ المقابلة الأولى: بين الكافر والجاحد لنعمة ربّه، وبين المؤمن الراجي لرحمة ربّه.
■ وعرضت المقدمة مقابلة ثانية بين حال المؤمنين المأمورين بشكر الله، وبين حال الكافرين الجاحدين.	■ والمقابلة الثانية: بين النبي ﷺ وأتباعه المأمورين بالتوحيد الخالص والمبشرين، وبين المشركين الخاسرين أنفسهم وأهلهم يوم القيامة.
	■ المقابلة الثالثة: بين المؤمنين الذين شرح الله صدورهم للإسلام وبين الكافرين القاسية قلوبهم.
	■ المقابلة الرابعة: مَثَلٌ يشبه المشركين برجل فيه شركاء متشاكسون، ويُسَبَّه المؤمنين برجل سلماً لرجل.
	■ المقابلة الخامسة: بين حال الكافرين المكذّبين وبين حال المؤمنين الصادقين المصدّقين.
	■ المقابلة السادسة: بين المشركين المتخذين من دون الله شفعاء، وبين النبي ﷺ الموحّد.

- المقابلة السابعة: بين المؤمنين الراجين رحمة ربهم قبل فوات الأوان، وبين الكافرين المستكبرين الذين فاتهم الأوان.
- المقابلة الثامنة: بين المشركين الجاهلين، وبين النبي ﷺ المأمور بالتوحيد.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٦٧-٧٥)
الخاتمة التي فيها مشهد الزمر الذي يعرض مصير الفريقين يوم القيامة:

- إذ يُسَاق الكافرون إلى جهنم زمراً في مشهد مهين، حتى إذا وصلوها يلومهم الخزنة على عدم اتباعهم الأنبياء والمرسلين.
- ويساق المؤمنون إلى الجنة زمراً في مشهد مكرم مشرف، إذ سيستقبلهم خزنة الجنة بالتسليم والترحاب، وبذلك تلتقي مقدمة السورة مع خاتمتها.

سورة غافر

﴿حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ
التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ۝ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ۝ مَا يُجَدِّلُ
فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ۝ كَذَّبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ
وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس رحمه الله: «الغين والفاء والراء: عَظُمَ بابَه السَّتر . . . فالغفر: السَّتر»^(١)، ويقول الإمام الأصفهاني رحمه الله: «الغفران والمغفرة من الله: هو أن يصون العبد من أن يمسَّه العذاب»^(٢)، فوصف الله تعالى بـ «غافر الذنب» يدل على أنه سبحانه دائم الغفران للمستغفرين، وأنه لا يؤاخذهم بذنوبهم، يؤكد هذا صيغة اسم الفاعل.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن مقصود هذه السورة الدلالة على عِزَّةِ الله الكاملة وعلمه الشامل، من خلال بيان تصنيف الناس في الآخرة إلى صنفين، ثم إن السورة تعالج قضية الحق والباطل، قضية الإيمان والكفر، وقضية العلو في الأرض والتجبر بغير الحق، وفي ثانياً ذلك تعرض موقف المؤمنين ونصر الله لهم، فجاء السورة جَوَّ المعركة بين الحق والباطل. وتسميتها بـ «غافر» تدل على ذلك، فإنه لا يقدر على غفران ما يشاء ولمن يشاء، ونصر المؤمنين وإهلاك

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٨٠١. بتصرف.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ٦٠٩.

الكافرين، إلا كامل العزة، ولا يعلم جميع الذنوب ليسمى غافراً إلا كامل العلم^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان أن الله تعالى غافر الذنب وقابل التوب لمن صدق وآمن في الدنيا والآخرة، وهو كذلك شديد العقاب ذو الطول في الدنيا والآخرة لمن كفر وكذب، ولما كان وصف الله تعالى بـ «غافر» أدعى للإيمان ويرغب به، اختير هذا الوصف ليكون اسماً للسورة وليعبر عن المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان أن الله غافر الذنب وقابل التوب لمن آمن، وشديد العقاب وذو الطول لمن كفر في الدنيا والآخرة.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام: أولها مقدمة تؤكد أن الله تعالى غافر الذنب وقابل التوب لمن آمن، وشديد العقاب ذو الطول لمن كفر، وثانيها: الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان أنه تعالى شديد العقاب وذو الطول لمن كفر يوم القيامة، مع عرض قصصي يؤكد ذلك، وثالثها: تعقيب يدعو إلى التوحيد من خلال الآيات الكونية والقرآنية مع التحذير من عاقبة التكذيب، ورابعها: الخاتمة المؤكدة لما سبق^(٢).

(١) ينظر: الفيروزآبادي، البيان بمقاصد القرآن، ص ٩٢، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٦، ص ٤٨٢، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٣٠٦٥، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٤، ص ٧٧-٨٠، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٦، ص ٥٢٧، ٥٢٨، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٣٦٣. وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(٢) مقدمة السورة شملت الآيات: ١-٩، وبيان أنه تعالى شديد العقاب لمن كفر في الآخرة: ١٠-٢٢، وقصة موسى مع فرعون: ٢٣-٥٤، والتعقيب: ٥٥-٧٦، والخاتمة: ٧٧-٨٥. ومن لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة بالله تعالى (أ) هي من السور التي ذكر فيها الاسمان الجليلان ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ بتقديم العزيز: غافر: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾: ٢٠، وذكر هذين الاسمين هنا مناسب لبيان أن الله تعالى عزيز بالنسبة لمن كفر فينتقم منه، وعليه بالنسبة لمن آمن فيغفر له، وباقي السور هي: الأنعام: ٩٦، والنمل: ٧٨، ويس: ٣٨، وفصلت: ١٢، والزخرف: ٩، (ب) لم يوصف الله تعالى بأنه ﴿غَافِرٌ﴾ بصيغة اسم الفاعل إلا هنا: ٢، وأما ﴿الْعَزِيزُ الْقَهَّارُ﴾ فقد ذكرا فقط في غافر: ٤٢، وفي السورتين اللتين قبلها، (ص): ٦٦، الزمر: ٥، (ج) وصف الله تعالى بـ ﴿وَقَابِلٌ الْتَوْبِ﴾ هنا فقط: ٣، (د) هي من السور التي تكررت فيها عبارة «شديد العقاب»: ٣، ٢٢، وباقي السور =

أولاً: جاء في مقدمة السورة بيان أن الله تعالى غافر الذنب وقابل التوب لمن آمن، وشديد العقاب ذو الطول لمن كفر: ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٣﴾﴾، ولاحظ تقديم غافر الذنب وقابل التوب، ليكون ذلك أدعى للإيمان وللتغيب به، فهو سبحانه يغفر ذنوب من آمن به وعمل صالحاً ويقبل توبته، وفي المقابل هو سبحانه شديد العقاب ذو الطول، أي: ذو القدرة على إنزال الانتقام بمن كفر^(١)، ولاحظ بيان أن الله تعالى إليه المصير، لأنه في يوم القيامة يتجلى غفرانه ورحمته للمؤمنين، ويتجلى انتقامه وعقابه للكافرين.

= البقرة: ١٩٦، ٢١١، والمائدة: ٢، ٩٨، والأنفال: ١٣، ٢٥، ٤٨، ٥٢، هـ) وصفه تعالى بـ ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ هنا فقط: ٣، وهو يدل على قدرته من الانتقام من الكافرين، (و هي من السور التي ذكر فيها الاسمان الجليلان ﴿الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾: ١٢، وباقي السور: النساء: ٣٤، والحج: ٦٢، ولقمان: ٣٠، وسبأ: ٢٣، ز) هي من السور التي ذكر فيها الاسمان الجليلان ﴿الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ﴾ غافر: ١٦، وباقي السور: السورتان اللتان قبلها: (ص): ٦٥، والزمر: ٤، ويوسف: ٣٩، والرعد: ١٦، وإبراهيم: ٤٨، ح) هي من السور التي تكرر فيها الاسمان ﴿الَسْمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ بتقديم السميع: ٢٠، ٥٦، وباقي السور: النساء: ٥٨، ١٣٤، والحج: ٦١، ٧٥، ط) هي السورة الوحيدة التي تكررت فيها عبارة ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ الدالة على انتقامه من الكافرين: ٢١، ٢٢، وهي الوحيدة التي تكرر فيها نسبة «المقت» إلى الله تعالى تجاه الكافرين ليدل على غضبه عليهم: ١٠، ٣٥، ثانياً: ومنها أمور متعلقة باليوم الآخر، وهو اليوم الذي يتجلى فيه غفرانه تعالى لأهل الإيمان، وانتقامه من أهل الكفران، (أ) فوصف يوم القيامة بـ ﴿يَوْمَ الْآفَاقِ﴾ هنا فقط: ١٥، وكذلك وصفه بـ ﴿يَوْمَ النَّادِ﴾: ٣٢، ووصفه بـ ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾: ٥١، (ب) وصفه بـ ﴿يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ذكر فقط هنا: ٢٧، وفي سورة (ص): ١٦، ٢٦، ٥٣، ثالثاً: منها أمور متعلقة بالكافرين الذين يُعَرَّضُونَ أنفسهم للانتقام من الله تعالى، (أ) لم يوصف الكافر بـ «مسرف» بصيغة المفرد إلا هنا: ﴿مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾: ٢٨، و ﴿مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾: ٣٤، وقد وُصف أهل النار فيها بـ «المسرفين» ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَمَحْجَبُ النَّارِ﴾: ٤٣، وبذلك تكررت مشتقات «سرف» فيها ثلاث مرات، وهي مع سورة الأعراف أكثر سورتين حصل فيهما ذلك: ٣١ (مرتين)، ٨١، (ب) هي السورة الوحيدة التي وصف فيها الكافر بـ ﴿مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾: ٣٥، وهو وصف يؤكد استحقاقه للعقاب من الله، (ج) هي السورة الوحيدة التي ذكرت فيها هذه العبارة ﴿وَحَسْبُ هَٰؤُلَاءِ الْغَاطِلُونَ﴾: ٧٨، وقريب منها ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يَوْمَ يَخْرُ الْغَاطِلُونَ﴾ الجاثية: ٢٧، وهي الوحيدة التي ذكرت فيها هذه العبارة ﴿وَحَسْبُ هَٰؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ﴾: ٨٥، رابعاً: بإمكانك أن تضيف أن هذه السورة مع سورة الزمر التي قبلها وسورة هود، هن أكثر السور اللواتي ذكرت فيها كلمة ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ بالجمع، ولا تخفى علاقة السيئات باسم سورة غافر، وذلك ثلاث مرات في كل واحدة منهن: غافر: ﴿وَفَهُمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ﴾: ٩، و ﴿فَوَقَدَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا تَعْكُرُونَ﴾: ٤٥، وانظر في الزمر: ٤٥، ٥١ (مرتين)، وفي هود: ١٠، ٧٨، ١١٤. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

(١) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٤، ص ٨٠، وأعتقد أن هذا التفسير لقوله تعالى ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ متلائم مع قوله تعالى قبله ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾، فهو أنسب من تفسيره بأنه ذو الإنعام.

وقد أكدت المقدمة بيان أن الله تعالى شديد العقاب وأنه ذو الطول لمن كفر، فأشارت إلى مصير المكذّبين السابقين: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝﴾ وكذلك حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾، ولاحظ أن السياق بين مصيرهم في الدنيا والآخرة، ليؤكد على المحور المذكور، وقد قدّم السياق تهديد الكافرين لمناسبة الواقع الذي نزلت فيه السورة، إذ كان الكفر هو السائد.

ومن أجل التأكيد على أنه تعالى غافر الذنب وقابل التوب لمن آمن، عرضت المقدمة قول ملائكة العرش المستغفرين للمؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝﴾، ولاحظ قولهم ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ فقدّموا الاستغفار على ذكر التوبة، ليتلاءم ذلك مع وصفه تعالى بغافر الذنب وقابل التوب.

فالمقدمة كما ترى تدعو إلى التوحيد من خلال بيان أنه تعالى غافر الذنب وقابل التوب للمؤمنين، كما وأنه شديد العقاب وذو الطول للكافرين.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان أنه تعالى شديد العقاب وذو الطول لمن كفر يوم القيامة، وأكد ذلك من خلال عرض قصة موسى عليه السلام مع فرعون: ﴿إِنَّ الَّذِي كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ۝﴾ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتَيْنَاكَ أَتَيْنَا وَأَحْيَيْتَنَا أَتَيْنَا فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَزْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾، ولاحظ بيان أن سبب مقت الله لهم وعذابهم في جهنم إنما هو شركهم بالله عز وجل.

ولكي يؤكد السياق الدعوة إلى التوحيد، حذر من يوم القيامة وبين أن الملك فيه لله الواحد القهار، وليس لأحد غيره فيه تصرف: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ۝﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٣﴾ الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ

الْحِسَابِ ﴿٧﴾ ، ولاحظ بيان أنه في ذلك اليوم تجزى كل نفس بما كسبت، وأنه لا ظلم فيه، وذلك يتلاءم مع اسم السورة كما لا يخفى .

ثم انتقل السياق إلى عرض قصة موسى عليه السلام مع فرعون، واللافت للنظر أنها تؤكد حقيقة أن الله تعالى شديد العقاب وأنه ذو الطول لمن كفر يوم القيامة على نحو لا تجده في سور أخرى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٧٧﴾ ، ولاحظ أن فرعون طلب قتل موسى، ليتلاءم ذلك مع قوله تعالى أول السورة: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ ، ثم إن هذا الموقف من فرعون هو الأقبح، وسيأتي بيان أنه سيعذب أشد العذاب يوم القيامة جزاء لموقفه هذا، ولاحظ أن موسى استعاذ بالله من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب .

وقد عرض السياق موقف الرجل المؤمن من آل فرعون، ولم يذكر موقفه في سورة أخرى، وقد كان موقفه محذراً من عقاب الله في اليوم الآخر أيضاً: ﴿وَيَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ﴾ ﴿٦٧﴾ يَوْمَ تُولَدُونَ مُدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٦٨﴾ ، وانظر قوله أيضاً: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُولُ أَتَيْتُكُمْ بِسَبِيلٍ الرَّشَادِ﴾ ﴿٦٩﴾ يَقُولُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٧٠﴾ ، إن أقواله هذه تؤكد المحور المذكور بأبلغ صورة .

وأشد ما يلفت الانتباه في عرض هذه القصة أن السياق لم يذكر شيئاً عن العذاب الدنيوي لفرعون وقومه، بل كان التركيز على العذاب الأخروي: ﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِإِثْمِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ ﴿٦٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٦٦﴾ ، ثم بين السياق كيف أن فرعون ومن معه يحتاجون مع أهل النار، ويطلبون من خزنتها أن يخفف عنهم ربهم يوماً من العذاب . إن عرض مصير فرعون وقومه، ومصير الكافرين في جهنم، يؤكد بأبلغ صورة حقيقة أن الله تعالى شديد العقاب وأنه ذو الطول لمن كفر .

ثالثاً: وبعد عرض المصير المرعب للكافرين، أعقب السياق تلك القصة بالدعوة إلى

التوحيد من خلال الآيات القرآنية وبعض الآيات الكونية، وحذر من عاقبة التكذيب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَقِرُّوا بِهَا لِيُقَدَّرُوا﴾ (٥٦) لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾، فقد قطع السياق الحجة على المجادلين في آيات الله، لأن الذي خلق السماوات والأرض هو من أنزل هذا القرآن، ففيم المجادلة إذا؟!

وانظر هذه الدعوة الكريمة إلى التوحيد: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (٦٠) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لِكُمَّ آيَاتٍ لِيَسْكُنُوا فِيهَا وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾، فكما أنه تعالى هو منزل القرآن، وهو الذي سخر الليل والنهار للإنسان، وهو ذو فضل على الناس، فهو وحده إذا المستحق للدعاء والعبادة، والعلاقة بين ذلك وبين اسم السورة واضحة.

وقد حذر السياق قبل الخاتمة من التكذيب بآيات الله تعالى الكونية والقرآنية ببيان مصير المكذبين يوم القيامة: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٦٢) ثُمَّ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يُصِرُّونَ ﴿٦٣﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ إِذِ الْأَغْطُلُ فِي أَغْصَانِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٦٥﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَتَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾. فالسياق كما ترى يدعو إلى توحيد الله عز وجل ببيان أنه غافر الذنب وقابل التوب لمن آمن، كما وأنه شديد العقاب وذو الطول لمن كفر. وهذا هو المحور الذي دل عليه اسم السورة.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التحذير من التكذيب بآيات الله القرآنية: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْفَ نُؤَيِّدُكَ بِبَعْضِ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَفِّيْنَا كَيْفَ يَرْجِعُونَ﴾، ولاحظ قوله ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ الذي يؤكد أن عقابه سيطول الكافرين.

وحذرت من التكذيب بآيات الله الكونية: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفَلَاحِ تَحْمِلُونَ ﴿٦٩﴾ وَرَبِّكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى التوحيد من خلال بيان أن منزل هذا القرآن هو غافر الذنب وقابل التوب لمن آمن، وأنه شديد العقاب ذو الطول لمن كفر، ختمت بالتحذير من التكذيب بآيات الله من خلال بيان مصير المكذبين، وأنهم لو آمنوا قبل العذاب لغفر الله لهم ولرحمهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٨٣) ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) ﴿فَلَمَّا يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٥). وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دل عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة غافر

سورة بيان أن الله تعالى غافر الذنب وقابل التوب لمن آمن، وشديد العقاب وذو الطول لمن كفر، في الدنيا والآخرة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٩)

المقدمة التي تؤكد بليجاز أن الله غافر الذنب وقابل التوبة لمن آمن، وشديد العقاب وذو الطول لمن كفر:

■ افتتحت السورة ببيان أن الله العزيز العليم هو الذي أنزل هذا الكتاب، وأنه سبحانه: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ۝﴾.

■ وقد أكدت أنه تعالى شديد العقاب وذو الطول لمن كفر في الدنيا والآخرة: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۝﴾.

■ وأكدت على أن الله تعالى غافر الذنب وقابل التوب لمن آمن، فسجلت قول الملائكة حملة العرش: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٠-٢٢)

الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان أن الله تعالى شديد العقاب وأنه ذو الطول لمن كفر، مع عرض قصصي يؤكد هذا:

■ عرض السياق مشاهد أخروية تؤكد حقيقة وقوع عقاب الله بمن كفر، فسجل السياق قول أهل النار: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا أَشْهَادَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَاعْتَرِفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ۝﴾.

■ وحذر السياق من وقوع عقاب الله بمن كفر في يوم القيامة، الذي يكون الملك فيه لله الواحد القهار: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُؤُهُ لَا يَخُنُّ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝﴾.

■ أكدت قصة موسى عليه السلام مع فرعون حقيقة أن الله شديد العقاب وأنه ذو الطول لمن كفر، فقد سجلت قول الرجل المؤمن الذي حذر قومه من عقاب الله في اليوم الآخر: ﴿وَيَقُولُ إِنْ آخِافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ۝ يَوْمَ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝﴾.

■ وقد ختمت القصة ببيان المصير الأخروي لآل فرعون دون ذكر شيء عن عقوبتهم الدنيوية: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۝﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٣-٧٦)

تعقيب على قصة موسى عليه السلام مع فرعون يدعو إلى التوحيد من خلال آيات الله الكونية والقرآنية، مع تحذير من عاقبة التكذيب:

- ذكر السياق بعض مظاهر كمال قدرة الله في الكون ليثبت المحور المذكور: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٧﴾.
- ومن ذلك أيضاً: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّكَ اللَّهُ لَدُو فَضَّلِ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٦١﴾.

- ثم حذر السياق من عقاب الله الشديد الذي سيطول المكذبين يوم القيامة: ﴿إِذِ الْأَعْتَلُ فِي أَغْنَفِهِمُ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٧٧-٨٥)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

- أعادت التحذير من التكذيب بآيات الله القرآنية: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا نُزِيتَكَ بِعَظْمِ الَّذِي يَعْلَمُونَ أَوْ تَوَفَّيْنَاكَ فَإِنَّا نُرجِعُونَ﴾.
- وأعادت التحذير من التكذيب بآيات الله الكونية، فقال معقباً على ذكر نعمة الأنعام والفلك التي سخرها الله: ﴿وَنُزِيتَكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَنَّى ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ ﴿٨١﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان أن الله غافر الذنب وقابل التوب لمن آمن، وأنه شديد العقاب، ذو الطول لمن كفر، ختمت بالتحذير من مصير الكافرين الذين سيطولهم عقاب الله تعالى، وبيان أنهم لو آمنوا وتابوا قبل العذاب لغفر الله لهم وَلَرَجَمَهُمْ: ﴿فَلَمَّا يَكُنْ يَتَقَعَّمُهُمْ إِيْمَتُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سَأَلَ اللَّهُ إِلَهِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٨٥﴾.

سورة فصلت

﴿حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الفاء والصاد واللام: كلمة صحيحة تدلّ على تمييز الشيء من الشيء وإبانتته عنه»^(١)، فالمراد من وصف القرآن بأنه ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾: «أن آيات القرآن واضحة الأغراض لا تلتبس إلا على مكابر في دلالة كل آية على المقصود منها، وفي مواقعها وتمييز بعضها عن بعض في المعنى، باختلاف فنون المعاني التي تشمل عليها، . . . ومن كمال تفصيله أنه كان بلغة كثيرة المعاني، واسعة الأفنان، فصيحة الألفاظ»^(٢). فاسم السورة يدلّ على أن القرآن قد فصلت فيه الحجج والبراهين ولم يدع مجالاً للشك أو الظن.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة تبين أثر القرآن الكريم في حياة البشر بجميع تصوّراتها ومدركاتها، فهي تشير إلى أن القرآن هو دستور الحياة الإنسانية الكريمة، وهذا يدلّ على كمال علم مُنزل هذا القرآن، ويدلّ أيضاً على أن العلماء هم مَنْ حملهم إيمانهم بهذا القرآن على الاستقامة على طاعة الله، كما وأن السورة تبين قضية العقيدة بحقائقها الأساسية: الإلهية الواحدة، والحياة الآخرة، والوحي بالرسالة، والدعوة إلى الله وخلق الداعية، وعلى ذلك كلّ دلّ اسمها «فصلت» الذي وصف به آيات هذا القرآن^(٣).

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٨٤٧.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٤، ص ٢٣١. بتصرف.

(٣) ينظر: البقاعي، نظم الدرر، ج ٦، ص ٥٤٧، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٣١٠٥، ٣١٠٦، وابن =

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال بيان عظمة الله تعالى مُنزل الآيات القرآنية، وخالق الآيات الكونية، وبذلك يتحقق أن القرآن كتاب فصلت فيه آيات الترغيب والترهيب، وأنه بشير ونذير للناس، ولما كان وصف آيات القرآن بأنها «فصلت» من لدن مُنزلها معبراً عن المحور المذكور، جعل اسماً للسورة. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة التفصيل في بيان عظمة الله تعالى مُنزل الآيات القرآنية، وخالق الآيات الكونية.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام، أولها: مقدمة تبيّن عظمة مُنزل الآيات القرآنية وخالق الآيات الكونية، وثانيها: بيان مصير المكذّبين ومصير المؤمنين في الدنيا والآخرة، وثالثها: إعادة التأكيد على عظمة منزل الآيات القرآنية وخالق الآيات الكونية، ورابعها: الخاتمة المؤكدة لما سبق^(١).

= عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٤، ص ٢٢٨ - ٢٣١، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ٣٦٩ - ٣٧٣، وأ. د. مسلم، التفسير الموضوعي، م ٧، ص ٣، ٤. وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(١) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١ - ١٢، وبيان مصير المكذّبين والمؤمنين: ١٣ - ٣٦، والتأكيد على عظمة الله: ٣٧ - ٤٤، والخاتمة: ٤٥ - ٥٤. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك، أولاً: منها أمور متعلقة بالله تعالى وبالقرآن العظيم: أ) فهي الوحيدة في القرآن التي تكرر فيها وصف القرآن بالمصدر «تنزيل»، والوحيدة التي اختصّ فيها هذا المصدر مع «الرحمن الرحيم»، ومع «حكيم حميد»: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: ٢، و﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾: ٤٢، والتكرار مناسب للتفصيل الذي دلّ عليه اسم السورة، بينما ذكر المصدر «تنزيل» مع «رب العالمين» أربع مرات في القرآن: الشعراء: ١٩٢، السجدة: ٢، الواقعة: ٨٠، الحاقة: ٤٣، ومع «العزيز الحكيم» ثلاث مرات: الزمر: ١، العجاثية: ٢، والأحقاف: ٢، ب) هي السورة الوحيدة التي تكررت فيها كلمة «عربي» لإثبات عروبة القرآن والنبي ﷺ: ﴿كَتَبْنَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ فَرَأَانَا عَرَبِيًّا﴾: ٣، ﴿لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ءَلَنَجِئُكَ وَعَرَبِيٌّ﴾: ٤٤، ج) والوحيدة التي تكررت فيها عبارة «فصلت آياته»: ٣، ٤٤، وقد ذكرت هذه العبارة مرة أخرى فقط في سورة هود: ﴿كَتَبْنَا أُخْرَىٰ ءَايَاتِهِ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾: ١، د) والوحيدة التي وصف فيها القرآن بكونه «بشيراً ونذيراً»: ٤، والوحيدة التي وصف فيها القرآن بـ «رأيه لَكِنَّكَ عَزِيزٌ﴾: ٤١، وأنه «لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِن خَلْفِهِ﴾: ٤٢، هـ) والوحيدة التي فصلت في الأيام الستة لخلق السماوات والأرض: ٩ - ١٢، و) والوحيدة التي ذكر فيها قوله تعالى عن =

أولاً: جاء في مقدمة السورة ذكر لبعض مظاهر عظمة الله تعالى من خلال آياته القرآنية: ﴿حَمْدٌ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝﴾، ولاحظ اختصاص الاسمين الجليلين «الرحمن الرحيم»، وهما متلازمان مع ما جاء من التفصيل في بيان عظمة الخالق في هذه السورة، وذلك رحمة من الله بالعالمين، ودعوة لهم لكي يؤمنوا بالله الواحد.

وقد عرضت المقدمة عناد المكذبين مع إثبات الحجة عليهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّنَا عَمِلُونَ ۝ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَوْكِبُ إِلَٰهُ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۚ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝﴾، ولاحظ التفصيل في قولهم، فقد وصفوا قلوبهم وآذانهم وحالهم، وهو تفصيل ملائم لاسم السورة، فهي تعرض موقف المكذبين بالتفصيل أيضاً.

ثم انتقل السياق إلى عرض بعض مظاهر عظمة الله من خلال الآيات الكونية: ﴿قُلْ أَيْتُكُمْ لَنَكْفُرَنَّ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُمُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسِيَٰ مِن فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لَيَالٍ ۝ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ

= الآيات الكونية ﴿سُبْحَتُهُمْ ءَايَاتُنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ ۝﴾: ٥٣، وقريب منها ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ ۚ عَنِّي ذَرْوًا ۚ فَعَرِفُونَهَا ۝﴾: النمل: ٩٣، (و) وهي من السور التي وُصف الله تعالى فيها بأنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝﴾: ٥٣، وباقي السور: المائدة: ١١٧، والحج: ١٧، والأحزاب: ٥٥، وسبأ: ٤٧، والمجادلة: ٦، والبروج: ٩، وهي وسورة النساء الوحيدتان اللتان وُصف الله تعالى بهما بأنه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ خَبِيرٌ ۝﴾: ٥٤، والنساء: ١٢٦، وثانياً: منها أمور متعلقة باليوم الآخر: (أ) فهي أكثر السور تفصيلاً في شهادة الجوارح والجلود على المكذبين يوم القيامة: ٢٠ - ٢٢، وقد ذكر ذلك بشكل موجز في سورتي النور: ٢٤، ويس: ٦٥، (ب) هي الوحيدة التي وُصف فيها جهنم بأنها ﴿دَارُ الْخُلْدِ ۝﴾: ٢٨، وهو وصف ملائم للدار التي يكون فيها من يصِرُّ على الكفر بعد التفصيل الذي جاء في هذه السورة، وقريب منها: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ۝﴾: يونس: ٥٢، والسجدة: ١٤، ثالثاً: ومنها ما يتعلق بالكافرين، فهي وسورة العنكبوت الوحيدتان اللتان تكررت فيهما مشتقات الجذر «جحد»: فصلت: ١٥، ٢٨، والعنكبوت: ٤٧، ٤٩، رابعاً: ومنها ما يتعلق بالمؤمنين: فهي وسورة الأحقاف الوحيدتان اللتان ذكرت فيها عبارة ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا ۝﴾، لكن سورة فصلت امتازت بزيادة التفصيل في بيان جزائهم: ٣٠ - ٣٥، وانظر سورة الأحقاف: ١٣، ١٤. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَنْتِ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ ، وقد فصلت السورة في عرض أحداث هذه الأيام الستة، ليكون ذلك أدعى للإيمان، والتفصيل متلائم مع دلالة اسم السورة كما لا يخفى، وبعد عرض مظاهر عظمة الله في الآيات الكونية والآيات القرآنية، يثبت بذلك أن خالق الأكوان هو مُنزل القرآن، وهو الذي فصل فيه الآيات لدعوة الناس إلى التوحيد.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض مصير المكذّبين والمؤمنين في الدنيا والآخرة، وبذلك يتحقق وصف القرآن بأنه فصلت آياته ليكون بشيراً ونذيراً: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَعِقَةً مِثْلَ صَعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٢﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٣﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ ﴿١٤﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَبْلُوهُمْ أَعَذَابُ الْحَزَنِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ ، ولاحظ التفصيل في بيان أن الرسل قد جاءتهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وهذا متلائم مع ما جاء من التفصيل في هذه السورة من أساليب الدعوة إلى التوحيد، ولاحظ بيان عظمة الخالق الذي خلق عاداً بهذه القوة، وذكر عذاب الآخرة مع عذاب الدنيا، وكل هذا التفصيل متلائم مع اسم السورة.

وقد ذكر السياق أيضاً مصير ثمود، إذ أخذتهم صاعقة العذاب الهون في الدنيا، ونجى الله الذي آمنوا وكانوا يتقون، ثم أعقب السياق بعرض مصير المكذّبين في الآخرة: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ وَقَالُوا لِمَ لَجُّوهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِيهِ تَرْجَعُونَ ﴿١٨﴾﴾ ، ولاحظ التفصيل في شهادة الجوارح والجلود، وانظر ماذا كان مصيرهم: ﴿فَإِنْ يَصْبرُوا فَالْنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿١٩﴾﴾ .

ولكي يكتمل التفصيل، عرض السياق مصير المؤمنين في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٠﴾ نَحْنُ أَوْلَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٢١﴾ نَزَّلَا مِنْ عَفْوَِرٍ رَّحِيمٍ ﴿٢٢﴾ ، وقد فصل السياق في بيان صفاتهم، إذ كانوا يدعون إلى الله بالقول الحسن، ويعملون الصالحات، ويدفعون السيئة بالتي هي أحسن، ويصبرون على الدعوة، حتى استحقوا هذا الثواب العظيم.

فالسورة كما ترى تفصل في عرض عظمة الله منزل القرآن وخالق الأكوان، وتفصل في عرض موقف المكذبين وموقف المؤمنين، ومصير الفريقين في الدنيا والآخرة، وبذلك يتحقق وصف القرآن بأنه «فصلت آياته» وهو الوصف الذي اختير ليكون اسماً للسورة.

ثالثاً: ثم أعاد السياق عرض بعض مظاهر عظمة الله تعالى في آياته الكونية: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَجْدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ، وعرض بعض مظاهر عظمته تعالى في آياته القرآنية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاِبْتٌ عَرِيزٌ ﴿٢٥﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٢٦﴾ مَا يَقُولُكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٧﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَاِنٍ بَعِيدٍ ﴿٢٨﴾﴾ ، وبذلك يتأكد أن منزل القرآن هو خالق الأكوان، فهو وحده المستحق للعبادة.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التأكيد على رحمة الله في إنزال آيات الوحي على الأنبياء لدعوة الناس للتوحيد: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاتَّخِذْ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٢٩﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٣٠﴾﴾ .

وقد أعادت عرض بعض مظاهر عظمته تعالى في خلقه الداعية إلى التوحيد: ﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آتَيْنَا شُرَكَاءَ قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّْا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٣١﴾ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنَّوْا مَا لَهُمْ مِنْ نَجْصٍ ﴿٣٢﴾﴾ ، وفصلت في عرض موقف الإنسان من النعماء والضراء.

وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى التوحيد من خلال آيات الله القرآنية للتأكيد على أنه منزل القرآن، ختمت بالدعوة إلى التوحيد من خلال آيات الله الكونية للتأكيد على أنه خالق الأكوان: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَتُريَهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيقٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾، وبذلك التقى البدء والختام على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ دلالة.



سورة فصلت

سورة التفصيل في بيان عظمة الله تعالى مُنْزِلَ الآيات القرآنية وخالق الآيات الكونية

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٢)

المقدمة التي تبين عظمة منزل الآيات القرآنية وخالق الآيات الكونية:

■ افتتحت السورة بذكر بعض مظاهر عظمة الله تعالى من خلال آياته القرآنية: ﴿حَمْدٌ تَنَزَّلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كَتَبَ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝﴾.

■ ثم عرضت بعض مظاهر عظمته تعالى في آياته الكونية: ﴿قُلْ أَنتَ كُمْ لَتَكْفُرُونَ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رِزْقًا مِنْ فَوْقِهَا وَتَرْتَبُّ فِيهَا وَنَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ يَلِينٌ ۝﴾.

■ وعرضت بالتفصيل كيف خلق الله السماوات السبع وأوحى في كل سماء أمرها.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٣-٣٦)

بيان مصير المكذّبين ومصير المؤمنين في الدنيا والآخرة:

■ ثم عرض السياق مصير الفريقين في الدنيا والآخرة، ليتحقق بذلك وصف القرآن بأنه فضلت آياته، فعرض مصير عاد وثمود الذين كذبوا بالرسول التي جاءتهم من بين أيديهم ومن خلفهم. هذا في الدنيا.

■ وأما في الآخرة: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝﴾، ثم فصل السياق في شهادة سمعهم وأبصارهم عليهم بما كانوا يعملون.

■ وأما مصير المؤمنين في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ تَحْنُ أُولِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ۝﴾.

■ إن التفصيل في عرض مصير الفريقين يتلاءم مع عرض مظاهر عظمة منزل القرآن وخالق الأكوان، وبذلك يتحقق أن القرآن كتاب فضلت آياته.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٣٧-٤٤)

إعادة التأكيد على عظمة منزل الآيات القرآنية وخالق الآيات الكونية:

■ فمن آياته الكونية: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ .

■ ومن آياته القرآنية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاثِبٌ عَزِيزٌ ﴿٣٨﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٣٩﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ .

الموضوع الرابع: (الآيات: ٤٥-٥٤)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت التأكيد على رحمة الله في إنزال آيات الوحي للدعوة إلى التوحيد: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِنَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾ .

■ وأعادت عرض بعض مظاهر عظمته تعالى في خلقه الدالة على كمال علمه: ﴿إِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ تَحْتِهَا مِنْ أَكَامٍهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا مَا ذُنُوبُكَ مَا مِنَّا مِنْ شَيْءٍ ﴿٤٦﴾﴾ .

■ وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى التوحيد من خلال آيات الله القرآنية فثبت بذلك أنه منزل القرآن، ختمت بالدعوة إلى التوحيد من خلال آياته الكونية فثبت بذلك أنه خالق الأكوان: ﴿سَرُّبِهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخِيطٌ ﴿٤٨﴾﴾ .

سورة الشورى

﴿مَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَخُذُوهُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ كَثِيرًا إِلَّائِمْ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى بيانها ما يجب أن يكون عليه أمر المؤمنين، إذ تصفهم بأن أمرهم شورى بينهم، فليس لأحدهم استبداد في الرأي، بل هم يتشاورون فيما يعترضهم من الظروف، ثم يختارون من الآراء ما فيه الخير والصالح، فاسم السورة يدل على حكمة المشرع سبحانه الذي أمر المؤمنين بأن يكون أمرهم شورى بينهم.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن المحور الرئيس لها هو إثبات الوحي والرسالة، وباقي موضوعاتها مسوقة لتقوية هذا المحور، فوحدانية الخالق، ووحدانية الرازق، ووحدانية المتصرف، تؤكد وحدة الوحي، ووحدة المنهج، ووحدة قيادة البشرية في ظل تلك العقيدة، ولذلك فهي تأمر المؤمنين بالاجتماع على هذا الدين، الذي روح أمره الألفة بالمشاورة المقتضية لمساواة العباد في الأحكام وفي عبوديتهم للشارع سبحانه^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى

(١) ينظر: البقاعي، نظم الدرر، ج ٦، ص ٥٩٣، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٣١٣٧-٣١٣٩، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٥، ص ٢٤، ٢٥، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٧، ص ٦٢. والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ص ٣٧٤، ود. الجابري، أسماء السور لقرآنية، ص ٥٤٩-٥٥٣، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

الإيمان والاستجابة لشرع الله تعالى، من خلال بيان بعض مظاهر حكمته تعالى في شرعه وفي خلقه، ولما كانت الشورى هي أدل ما في السورة على حكمة الله في شرعه، وهي أكثر موضوعاتها تعلقاً بحياة المؤمنين، سُميت السورة بها للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان بعض مظاهر حكمته تعالى في شرعه وفي خلقه.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام: أولها: عرض لبعض مظاهر حكمة الله تعالى في شرعه وفي خلقه بإيجاز، وثانيها: التفصيل في عرض لبعض مظاهر حكمته تعالى في شرعه، وثالثها: التفصيل في عرض لبعض مظاهر حكمته في خلقه، مع الدعوة إلى الالتزام بشرعه الحكيم، ورابعها: الخاتمة المؤكدة لما سبق^(١).

(١) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١-١٢، وعرض مظاهر حكمته تعالى في شرعه: ١٣-٢٦، وفي خلقه: ٢٧-٤٦، والخاتمة: ٤٧-٥٣. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور تبين حكمة الله تعالى في شرعه والدعوة إلى التزامه، (أ) فهي السورة الوحيدة التي تكررت فيها مشتقات الجذر «شرع»: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾: ١٣، و ﴿أَمْ لَمْ تُشْرِكُوا شَرْعًا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذُنْ بِهِ اللَّهُ﴾: ٢١، (ب) كثرت فيها مشتقات الجذر «وحي» وإليك التفصيل: قوله ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الدِّينِ مِنَ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: ١، لم يتكرر، وكذلك ﴿وَمَا كَانَ لِنَبٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾: ٥١، وهي مع سورة النساء أكثر سورتين تكرر فيهما الفعل الماضي «أوحينا» بصيغة الجمع: ٧، ١٣، ٥٢، وفي سورة النساء: ١٦٣ (٣ مرات)، (ج) هي إحدى السور التي وصفت القرآن بأنه عربي، ولكنها تميّزت بذكر الفعل «أوحينا» مع ذلك: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾: ٧، (د) هي مع سورة النساء أكثر سورتين تكررت فيهما كلمة «ولي»: ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: ٨، ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾: ٩، ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَكِيمُ﴾: ٢٨، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: ٣١، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾: ٤٤، وفي سورة النساء ست مرات: ٤٥، ٧٥، ٨٩، ١١٩، ١٢٣، ١٧٣، (هـ) قوله ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ هنا فقط بهذه الصيغة: ٤٧، وقريب منه في سورة الأنفال: ٢٤، وكذلك قوله ﴿مَنْ بَعْدَ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ﴾: ١٦، وكذلك قوله ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾: هنا فقط بهذه الصيغة: ١٠، وقوله ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾: ٢٥، وقريب منها في سورة هود: ١١٢، والنحل: ١٢٥، والحج: ٦٧، والقصص: ٨٧، وكذلك قوله ﴿وَأُيْتِزَ لِاعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾: ١٥، هنا فقط بهذه الصيغة، وقوله ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾: ١٧، وقوله ﴿وَمَنْعَ اللَّهُ الْبَطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾: ٢٤، وقوله ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ نَصِيرُ الْأُمُورِ﴾: ٥٣. (و) وصف الظالمين بقوله ﴿مُجْنَمٌ دَاحِضٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: ١٦، كذلك لم يتكرر، ز) تكرر الفعل المضارع «يشاء» الدال على دوام تفرد الله تعالى بالمشيئة في ثلاث سور من القرآن بأكثر عدد وهن: =

أولاً: جاء في مقدمة السورة عرض موجز لبعض مظاهر حكمة الله تعالى في شرعه:

﴿حَمْدٌ ۝ عَسَىٰ ۝ كَذَٰلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾ لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْعَفَّورُ الرَّحِيمُ ۝ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝، فخالق السماوات والأرض ومدبر أمرها وحافظها من التفطر، وهو الذي أوحى إليك وإلى الرسل من قبلك بالحكمة، وبذلك تجتمع آيات الوحي والآيات الكونية على الدلالة على حكمة الخالق سبحانه، فلا يجوز اتخاذ غيره ولياً.

وقد بينت المقدمة أن الخالق الحكيم هو الذي أوحى إلى النبي ﷺ بالقرآن العربي لينذر يوم الجمع، وليكون حكماً بين الناس: ﴿وَمَا أَخْلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ﴾ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝، وقد أكد ذلك ببيان أنه فاطر السماوات والأرض ويده مقاليدهما، وهو بحكمته ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر. فمقدمة السورة كما ترى تدعو إلى الاستجابة لشرع الخالق العظيم سبحانه، وأدل ما في السورة على حكمة شرعه الشورى كما سيأتي.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى التفصيل في عرض بعض مظاهر حكمته تعالى في شرعه الحكيم: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ۝﴾، فمَنْزِل الوحي على الأنبياء والرسل واحد سبحانه، وينبغي أن يجمع شرعه الناس ولا يتفرقوا عنه، وأمر السياق النبي ﷺ والمؤمنين من بعده

= البقرة: ١٢ مرة، والشورى: ١١ مرة (٨، ١٢، ١٣، ١٩، ٢٧، ٢٩، ٤٩ ثلاث مرات، ٥٠، ٥١)، وآل عمران: ١٠ مرات، ولكن سورة الشورى تميّزت على البقرة وآل عمران بتكرار الفعل المجزوم «يشأ» العائد على الله تعالى مرتين: ٢٤، ٣٣، وهو فعل لم يذكر في السورتين الأخريين، ثانياً: ومنها أمور متعلقة ببيان مظاهر حكمته تعالى في خلقه: أ) فقد تكرر مشتقات الجذر «فطر» العائدة على الله فيها وسورتى الأنعام والروم فقط، الشورى: ٥، ١١، والأنعام: ١٤، ٧٩، والروم: ٣٠ (مرتين)، ب) وقوله ﴿لَهُ مَقَالِدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: ذكر هنا: ١٢، وفي سورة الزمر: ٦٣، فقط، ومن اللطيف أن وصف يوم القيامة بـ «يوم الجمع» ذكر هنا: ٧، وفي سورة التغابن: ٩، فقط، وكذلك وصف مكة بـ «أم القرى» هنا: ٧، وفي سورة الأنعام: ٩٢، وهما عبارتان متفقتان مع اسم السورة من حيث دلالة الجمع، فالشورى تجمع الناس. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

بالتزامه شرع الله: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَبْغِ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِإِعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾، ولاحظ بيان أن التزام شرع الله الحكيم يؤدي إلى العدل بين الناس.

وقد قرع السياق المشركين الذين يتبعون أهواءهم، ويُعرضون عن شرع الله الحكيم: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾، ولاحظ أنه تعالى بحكمته لم يُعجل إليهم عذابهم، بل أجلهم ليوم القيامة، ولكي لا يتطرق الشك لأحد في آيات الله، بين السياق أن النبي ﷺ ليس له دور إلا التلقي عن الله ما يوحى إليه من الحكمة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَنَمَحُ اللَّهُ الْمِثْلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُمْ عَلَيْهَا يَصُدُّونَ ﴿٧١﴾﴾.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى عرض بعض مظاهر حكمة الله تعالى في خلقه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ بِعَادِئِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣٧﴾﴾ وهو الذي يُنزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد ﴿٣٨﴾ ومن آياته خلق السموات والأرض وما بينهما من دابة وهو على جميعهم إذا يشاء قدير ﴿٣٩﴾، فتوزيع أرزاق العباد من أعجب دلائل حكمة الله تعالى، فهو ينزل الرزق بقدر ما يشاء ليحفظهم من البغي، وهو بحكمته ينزل الغيث متى شاء وأين شاء، ولاحظ بيان قدرته على جمع الخلق بعد بثهم في الأرض ليوم القيامة.

ومن الآيات التي ذكرها السياق أن الله تعالى بحكمته سخر البحر لتجري فيه الفلك، ثم بين أنه قادر على حفظ سلامتهم فيصلوا بأمان، وقادر على إغراقهم جزاء ذنوبهم، وكله يعود لمقتضى حكمته، ثم بين السياق أن رأس الحكمة اتباع شرع الله الحكيم وإيثار الآخرة على متاع الدنيا: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمُنْعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤١﴾﴾ والذين يجنبون كثير الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يَغْفِرُونَ ﴿٤٧﴾ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلوة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴿٤٨﴾ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴿٤٩﴾ وحزوا سِتْرَ سِتْرٍ مَثَلًا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾، فهذه بعض مظاهر

حكمة الله في شرعه، وأهمها الشورى؛ لأنها تجمع المؤمنين على الحق والخير والصلاح، وهي غالباً ما تكون في القرارات المتعلقة بمصير الأمة، ولذلك سميت السورة بها؛ لأنها متعلقة بالمؤمنين جميعاً، فينبغي تطبيقها للحفاظ على وحدة كلمتهم.

ولكي يكتمل عرض مظاهر حكمة الله، يبين السياق مصير الظالمين المعرضين عن حكم الله يوم القيامة، وبين استهزاء المؤمنين بهم لأن الظالمين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، وأعتقد أن ذكر خسارة الأهل متعلق باسم السورة، فكما كانت الشورى تجمع المؤمنين وأهلهم في الدنيا على الحق، حتى سلموا يوم القيامة من العذاب، كذلك كان الظالمون وأهلهم يُعرضون عن تطبيق شرع الله وأهمه الشورى وتفرقوا عنه، فاستحقوا جميعاً العذاب يوم القيامة.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التذكير بأن الحكمة هي التزام شرع الله: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ٥٧﴾.

وأعادت عرض بعض مظاهر حكمة الله في خلقه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ٥٨ أَوْ يَرْوِجُهُمْ ذُكْرَانًا وَانْثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُمْ عَلَيْهِ قَدِيرٌ ٥٩﴾. فهو بحكمته يهب الذرية لمن يشاء حسبما يشاء، وهذا متلائم مع ما بيته السياق سابقاً من حكمته تعالى في توزيع الرزق وتوزيع الغيث حسب حكمته تعالى.

وكما افتتحت السورة ببيان أن الله العزيز الحكيم هو من يوحى إلى النبي ﷺ وإلى الذين من قبله بالشرع الحكيم، ختمت ببيان أن الله بحكمته يختار من الرسل من يشاء، وبيان أن ما أوحى إلى النبي ﷺ هو الحكمة، وكل الحكمة باتباعه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ عَلَىٰ حَكِيمٍ ٥١﴾ وكذلك أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٢ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ آلَا إِلَى اللَّهِ نَصِيرُ الْأُمُورُ ٥٣﴾. وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور الذي دل عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة الشورى

سورة بيان بعض مظاهر حكمة الله تعالى في شرعه وفي خلقه

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٢)

المقدمة التي تعرض بعض مظاهر حكمة الله في شرعه وفي خلقه بإيجاز:

■ افتتحت السورة ببيان حكمة الله الذي يوحى بالحكمة للنبي ﷺ وللأنبياء من قبله: ﴿حَمْدٌ ۝ عَسَىٰ ۝ كَذٰلِكَ يُوحَىٰ ۝ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾.

■ ثم بينت حكمته تعالى في خلقه: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِرْنَ مِنْ قَوْقُهُنَّ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِنَّ وَهُمْ لَا يَسْغُرُونَ ۚ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۖ إِلَّا إِنْ أَرَادَ اللَّهُ شَيْئًا فَهُوَ الْفَعُولُ الرَّحِيمُ ۝﴾.

■ وبيّنت أن الخالق العظيم هو من يوحى بالقرآن العربي للنبي ﷺ، ودعت إلى التزام شرعه الحكيم: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ ۚ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٣-٢٦)

التفصيل في عرض بعض مظاهر حكمته تعالى في شرعه الحكيم:

■ ثم بين السياق أن ما يوحى به الله إلى نبيه ﷺ هو الحكمة التي وصى بها الأنبياء قبله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۝﴾، فشرع الله يجمع الناس على الخير والصلاح.

■ وقد أمر السياق النبي ﷺ: ﴿فَلِذٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ ۖ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۝﴾.

■ وقد قرع السياق المشركين الذين يتبعون أهواءهم ويُعرضون عن شرع الله الحكيم: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُتِنَ بِهِمْ ۚ وَإِنْ أَطَّاعُوا لَكُمْ لَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾.

■ وبيّن أن النبي ﷺ ليس له إلا التلقي عن خالقه تعالى، فليس من مجال للشك في آيات الله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۚ وَبِمَشْئِئِ اللَّهِ الْبَطْلُ ۚ وَيُخَوِّضُ الْغَافِقَ ۚ كَلِمَتِهِ ۚ إِنَّهُمْ عَلَيْكُمْ يَدَّانِ الصُّدُورِ ۝﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٧-٤٦)

التفصيل في عرض مظاهر حكمته تعالى في خلقه، مع الدعوة إلى التزام شرعه الحكيم:

■ بعد بيان حكمته تعالى في شرعه، انتقل السياق إلى بيان حكمته في خلقه، فهو الذي يقسم أرزاق العباد حسب حكمته، وينزل الغيث أين يشاء ومتى شاء وبالقدر الذي يشاء.

■ ومن آياته أنه الذي خلق السماوات والأرض وما بثّ فيهما من دابة، وهو الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره، وهو بحكمته قادر على حفظهم في البحر، كما أنه قادر على إغراقهم بذنوبهم.

■ ثم أمر السياق بالتزام شرع الله الحكيم: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

■ ثم بين السياق مصير الظالمين المعرضين عن شرع الله، فبين أنهم سيخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة جزاء تفرقهم عن شرع الله.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٤٧-٥٣)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت التذكير بأن الحكمة هي التزام شرع الله تعالى: ﴿اسْتَجِبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾.

■ وأعادت عرض مظاهر حكمته تعالى في خلقه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الْذَّكْرَ﴾.

■ وكما افتتحت السورة ببيان أن الله الخالق الحكيم هو من يوحى إلى نبيه ﷺ بالشرع الحكيم، ختمت ببيان أن ما يوحى الله إلى نبيه ﷺ هو الحكمة وكل الحكمة باتباعه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. ﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾.

(٢) ينظر: المهامى، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٢٥١، والبقاعى، نظم الدرر، ج ٧، ص ٣، وقطب، فى ظلال =

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان والتوحيد من خلال بيان وضوح دلالة الآيات القرآنية والآيات الكونية المسخرة للإنسان الدالة على رحمة الله به، ولما كان ما هيأه الله من مقومات وأسباب الزخرف في الدنيا يفترض أن يكون دالاً على الرحمن سبحانه، لا أن يكون سبباً للكفر أو الإشراك به، سميت السورة به ليكون آية داعية إلى الإيمان والتوحيد لا الكفر والشرك، ولبيان أنه ليس معيار التفاضل عند الله، بل إن الإيمان والتقوى هو ذلك المعيار. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة التحذير من الافتتان بزخرف الدنيا عن الرحمن سبحانه أو الإشراك به.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام، أولها: مقدّمة تبيّن دلالة الآيات القرآنية والكونية المسخرة للإنسان على رحمة الله، وثانيها: نقض الشرك والدعوة إلى التوحيد من خلال بيان موقف الأقسام الذين أنساهم الزخرف الرحمن سبحانه، مع عرض قصصي يؤكّد هذا، وثالثها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق^(١).

= القرآن، ج ٥، ص ٣١٧٤-٣١٧٥، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٥، ص ١٥٨، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٧، ص ٩٩، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ص ٣٧٩، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٢٤٢-٢٤٧.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-١٤، والدعوة إلى التوحيد مع العرض القصصي: ١٥-٧٨، والخاتمة: ٧٩-٨٩. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه ومن ذلك، أولاً: منها ما يتعلق بدلالة الآيات القرآنية على الرحمن سبحانه: أ) فقوله تعالى ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ لم يذكر بهذه الصيغة إلا هنا: ٢، وفي سورة الدخان: ٢، ب) هي إحدى السور التي وُصف فيها القرآن بأنه عربي: ٣، وانظر باقي السور: يوسف: ٢، طه: ١١٣، والزمر: ٢٨، وفصلت: ٣، والشورى: ٧، ج) هي الوحيدة التي اختصت بقوله تعالى لوصف القرآن: ﴿وَلَقَدْ فِيْ أُوْلِئِكَ لَآيَاتٍ لِّعَلِّكُمْ حِكْمًا﴾: ٤، ولك أن تضيف أن هذه السورة هي أكثر سورة في القرآن تكرر فيها الاسم الجليل «الرحمن» بعد سورة مريم، وذلك سبع مرات، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بدلالة الآيات الكونية على الله تعالى الذي سخرها للإنسان: أ) فهي الوحيدة التي فيها قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيْهَا سُبُلًا﴾: ١٠، وقد جاء نفس هذه الآية في سورة طه: ٥٣، لكن الفعل فيها «سلك» بدلاً من «جعل»، علماً بأن رقم سورة الزخرف: ٤٣، ب) اشتركت هي وسورة «يس» بوصف الله تعالى بأنه ﴿الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾: ١٢، وانظر في سورة «يس»: ٣٦، علماً بأن بين =

أولاً: جاء في مقدمة السورة بيان أن الآيات القرآنية والآيات الكونية المسخرة للإنسان، تدلان على رحمة الله عز وجل، فينبغي أن تكون داعية إلى الإيمان والتوحيد: ﴿حَمْدٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَنْبَاءِ لَعَلَى حَكِيمٍ ۝ أَنْفَضَرُبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ۝ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۝﴾، فالقرآن أنزل بلغة العرب، فهو بين الدلالة على منزله سبحانه، ولاحظ رحمة الله إذ أرسل إليهم الرسول ﷺ ومعه آيات الوحي بالرغم من كونهم قوماً مسرفين، وهو وصف يدل على أن زخرف الدنيا أنساهم ربهم حتى كفروا بآياته و أشركوا به.

وأما الآيات الكونية: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ۝ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا

= السورتين ثلاثة أجزاء، ج) هي الوحيدة التي اختصت بقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾: ٨٢، ويقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾: ٨٤، ويقول: ﴿وَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: ٨٥، ثالثاً: ومنها أمور متعلقة بموقف الكافرين والرد عليهم: أ) هي الوحيدة التي ذكر فيها قوله عن المشركين: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾: ٥، للدلالة على أن زخرف الدنيا أنساهم الرحمن سبحانه، ب) وهي الوحيدة التي فيها قوله: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَقًّا بَلَاءً ثُمَّ لَمْ يُنْقِضُوا فِيهِمْ مِثْرًا﴾: ٢٩، إذ لم تتكرر «متع» الدالة على أن زخرف الدنيا أنساهم الرحمن، ج) هي الوحيدة التي تكررت فيها عبارة «رحمة ربك»: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾: ٣٢، و﴿رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾: ٣٢، وهما تدلان على أن رحمة الله وما عنده من الخير خير من الدنيا وزخرفها، د) والوحيدة التي فيها قوله: ﴿أَوْ مَن يُنْقِضُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ عِزَّ مِثْرٍ﴾: ٣١، إذ لم تتكرر «ينقض» في الحلية المتعلقة باسم السورة للدلالة على تنزه الله عن الشريك، هـ) والوحيدة التي فيها قولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْغَرَبِ﴾: ٣١، لظنهم أن الرسول لا بد أن يكون من أهل الزخرف، ولك أن تضيف أن سورة الزخرف وآل عمران الوحيدتان اللتان تكررت فيهما ذكر «الذهب»، فقال عن أهل الجنة: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ﴾: ٧١، وهو وصف لم يتكرر في القرآن، وقال فرعون لموسى: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْكَ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ﴾: وهو لم يتكرر أيضاً، وانظر في سورة آل عمران: ١٤، ٩١، كما وأن سورة الزخرف الوحيدة التي اختصت بقوله تعالى عن الكافرين: ﴿لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوقِعَهُمْ سُقُوطًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾: ٣٣، ولم تذكر المعارج مرة أخرى إلا في سورة المعارج منسوبة لله تعالى: ٣. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِّسْتَمُوتُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لِمُفْرِدِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ، فهم مع إيمانهم بوجود الله تعالى ويقرون برحمته المتجلية في آياته، إلا أنهم يشركون معه آلهة أخرى، وهذا من أعجب العجب، ولاحظ دعوتهم إلى ذكر المنعم الذي أنعم عليهم بالأنعام، مما يدل على أن موقفهم يجب أن يكون موقف الإيمان والشكر، لا الشرك والكفر.

فمقدمة السورة تدعو إلى التوحيد من خلال بيان رحمة الله تعالى المتجلية في آياته القرآنية، وما سخره للإنسان من الآيات الكونية، فما هيأه الله من أسباب الزخرف في الدنيا ينبغي أن يكون دالاً على رحمة الخالق سبحانه، وليس داعياً إلى الكفر أو الشرك.

ثانياً: وبعد أن بينت المقدمة ذلك، انتقل السياق إلى بيان موقف الكافرين العجيب، إذ بعدما عاينوا آيات الله إذا هم يشركون به، وينسبون له البنات سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ ، وزعموا أيضاً أن الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناث، وعبدوهم من دون الله، وزعموا أن هذا هو هدى آبائهم ولن يغيروه.

وانظر ماذا كان الرد الإلهي عليهم: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿١٨﴾﴾ ، ولاحظ تخصيص المترفين بالذكر، لأنهم أنساهم زخرف الدنيا الرحمن سبحانه، حتى ضلّوا عن السبيل، ولكي تكتمل إقامة الحجة عليهم، ذكر السياق الموقف الحقيقي لإبراهيم عليه السلام، الذي يزعم العرب أنهم ينتسبون إليه في دينهم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿١٩﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٠﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ، فهو كان موثقاً مخلصاً لله تعالى، وهو ما أوصى عليه ذريته، ولاحظ أن متاع الدنيا وزخرفها هو الذي قاد الكفار إلى التكذيب بالرسول ﷺ مع أنه يدعوهم إلى الحق الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام.

ومما يؤكد ذلك أنهم طلبوا أن ينزل القرآن على رجل عظيم من إحدى القريتين: مكة والطائف، «ولم يعلموا أنها - أي: الرسالة - رتبة روحانية تستدعي عظم النفس بالتحلي بالفضائل والكمالات القدسية، لا التزخرف بالزخارف الدنيوية»^(١).

ثم انتقل السياق إلى بيان مظهر آخر من مظاهر رحمة الله تعالى بالإنسان: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾، فلو شاء سبحانه أن يفتح على الكافرين أبواب الدنيا وزخرفها إلى درجة أن تكون سقف بيوتهم وأبوابها وسررهم من فضة، وأن تكون لهم معارج فخمة يظهرون عليها على الناس لفعل، ولكنه رحمة بالضعفاء الذين سيفتنون بهذا الزخرف إلى الكفر لم يفعل ذلك، وقسم معيشة الناس حسب حكمته، ليكون بعضهم لبعض سخرى. فما هيأه الله في هذه الدنيا من أسباب الزخرف، ينبغي أن يكون آية دالة على رحمة الله تعالى داعياً إلى الإيمان به وشكره، لا أن يكون سبباً للكبر ثم الكفر بالرحمن أو الشرك به، وليس زخرف الدنيا هو معيار القرب من الله، بل هو التقوى، ولذلك خص المتقين بالدار الآخرة وما فيها من الزخرف الدائم، وهذا يطلعنا على حكمة اختيار اسم السورة، والله أعلم.

ثم حذر السياق من استغلال الشيطان زخرف الدنيا ليشغل الإنسان به عن ذكر ربه تعالى، وينسيهم الرحمن ويصدّهم عن السبيل، ولن ينفع الإنسان يوم القيامة التبرؤ من الشيطان إذا مات على كفره وشركه.

ثم انتقل السياق إلى قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه الذين أنساهم زخرف الدنيا الرحمن سبحانه، وكذبوا رسوله موسى حتى أغرقهم الله، ومما يؤكد ذلك قول فرعون في هذه السورة الذي لم يتكرر في القرآن: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوْمِ آلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَٰؤُلَاءِ الْآلَتُهُنَّ يَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا بُصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُفْتَرِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ

(١) البضاوي، أنوار التنزيل، ج ٢، ص ٣٧٢.

فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أُنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَعْرَفْتَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ، فموقف فرعون مشابه تماماً لموقف المشركين حينما طلبوا أن ينزل القرآن على رجل من القريتين عظيم، فهم يظنون أن معيار القرب لدى الله مرتبط بما يملكه العبد من الدنيا وزخرفها، ولذلك ادّعى فرعون أن موسى كاذب؛ لأنه لا يملك شيئاً من زخرفها، ولاحظ أن قومه أطاعوه لخفة عقولهم وتفضيلهم حب الدنيا وزخرفها على الهدى الذي جاء به موسى، إلى أن استحقوا أن يغرق الله هؤلاء الجنود.

وبعد أن بينت قصة موسى عليه السلام مع فرعون أثر زخرف الدنيا على الكافرين حتى كذبوا برسل المنعم سبحانه، انتقل السياق إلى بيان انحراف آخر لدى البشر وهو الشرك، فالله تعالى هو المنعم، وبالتالي هو وحده المستحق للعبادة، وقد عرض السياق لإبطال الشرك حقيقة عيسى عليه السلام، كونه أكثر شخصية دارت حولها فريات الشرك: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْآرِضِ يَخْلُقُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُمْ لَوَلَاءُ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُكُ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ ، فقد ظنَّ المشركون - بجهلهم - أن عبادة الملائكة أقرب إلى الله من عبادة عيسى عليه السلام، لا اعتقادهم أن بين الله تعالى وبين الملائكة نسباً، وبما أن السورة قد فنّدت فريتهم في بدايتها، أكّدت تنفيذها هنا مرة أخرى ببيان بطلان إلهية عيسى عليه السلام فليست الملائكة آلهة، ولا عيسى كذلك.

وقد أعاد السياق التحذير من اتباع الشيطان مرة أخرى، فهو كما يستغل زخرف الدنيا لقيادة الإنسان إلى الكفر، فهو يستغل الشبهات والجهل لقيادته إلى الشرك، وكلاهما انحراف عظيم.

ولأجل أن يكتمل الترغيب والترهيب، عرض السياق مصير المؤمنين والكافرين يوم القيامة، فالمؤمنون في الجنة يطاف عليهم بصحاف وأكواب من ذهب، وقد تحقّق لهم الزخرف الأخروي الأبدي، بينما المكذّبون المجرمون في عذاب جهنم خالدون، وما

حصل لهم ذلك إلا لأنهم ظلموا أنفسهم حينما تلهّوا بالدنيا وزخرفها عن الإيمان بالله وأشركوا معه آلهة أخرى.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت الدعوة إلى التوحيد وبيان بطلان الشرك، والتحذير من أن تقودهم الدنيا وزخرفها إلى كفر المنعم أو الإشراك به: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ ۝ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ۝ وَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾.

وكما افتتحت السورة بذكر الآيات القرآنية وما سخره الله للإنسان من الآيات الكونية للإنسان لبيان دلالتها على الله، ختمت بالتحذير من التكذيب بهذه الآيات مع أنهم يقرّون بفضل الله عليهم، ولكنهم يكذبون رسله ويشركون معه آلهة أخرى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ۝ وَقِيلَ لَهُمْ بَرِّبِّ إِنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝﴾، وبذلك يلتقي البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الزخرف

سورة التحذير من الافتتان بزخرف الدنيا عن الرحمن سبحانه، أو أن يكون سبباً للشرك به سبحانه

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٤)

المقدمة التي تبين دلالة الآيات القرآنية والكونية المُسَخَّرَة للإنسان على رحمة الله:

■ افتتحت السورة ببيان دلالة الآيات القرآنية على مُنزلها سبحانه: ﴿حَمْدَ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّ فِي آيَاتِنَا لَلْكِتَابِ لَدَبْنًا لَعَلَّ حَكِيمٌ ۝٤﴾.

■ ثم بينت دلالة الآيات الكونية المُسَخَّرَة للإنسان على رحمة الله: ﴿وَلَقَدْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٥﴾، وبينت أنه هو الذي جعل الأرض مهداً للإنسان، وأنزل من السماء ماءً فأنشَر به بلدة ميتة، وخلق الأزواج كلها، وسَخَّر الفُلك والأنعام.

■ فالمقدمة تدل على أن مُنزل القرآن وخالق الأكوان واحد هو الرحمن الرحيم، فلا ينبغي التغافل بزخرف الدنيا عن الإيمان به أو الشرك به سبحانه.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٥-٧٨)

نقض الشرك والدعوة إلى التوحيد، من خلال بيان موقف الأقسام الذين أنساهم الزخرفُ الرحمنَ سبحانه مع عرض قصصي يؤكد هذا:

■ بعد بيان نِعَم الله التي سَخَّرها للإنسان، عرض السياق موقف الإنسان الذي أشرك بربه المُنعم عليه: ﴿وَجَعَلُوا لَهُمْ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ۝١٥﴾، وزعموا أن الملائكة إناث، وعبدوهم من دون الله.

■ وقد ردَّ السياق عليهم ببيان موقف المترفين الذين أنساهم زخرف الدنيا خالقهم سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَقُهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ۝١٦﴾.

■ ثم عرض السياق قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه المشركين: ﴿وَإِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَأةٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۝١٧﴾، وعقب بتحذير قوم النبي ﷺ من أن يقودهم زخرف الدنيا إلى الشرك: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَقًّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ۝١٨﴾.

■ وبين السياق أنه من رحمة الله بالإنسان أن جعلهم متفاوتين في المعيشة، وأنه لو شاء لجعل للكافرين زخرفاً دنيوياً يُفْتَنون به هم وغيرهم عن الرحمن سبحانه: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُضِلَّهُمْ سُفْهًا مِّنْ فَضْضٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝١٩﴾ وَلِيُضِلَّهُمْ قُبُورًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ۝٢٠﴾

الموضوع الثالث: (الآيات: ٧٩-٨٩)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

- أعادت التحذير من الافتتان بالدنيا، وزخرفها والكفر بالرحمن المنعم أو الإشراك به: ﴿فَذَرَهُمْ خُحُوصًا وَّيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ (٨٧) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٨﴾ .
- وكما افتتحت السورة ببيان دلالة الآيات القرآنية وما سخره الله من الآيات الكونية على الله المنعم، ختمت بإبطال الشرك وبالتحذير من التكذيب بهذه الآيات: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٨٧) وَقِيلَ لَهُ وَكَرِبَ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَأَصْحَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ .

وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٧٩﴾ ، وَبَيَّنَّتْ أَنْ ذَلِكَ متاع الدنيا والآخرة عند الله للمتقين فقط .

- وحذّر السياق من الشيطان الذي يُشغِلُ الناس بزخرف الدنيا عن ذكر ربهم .

- ثم عرضت قصة موسى عليه السلام مع فرعون الذي افتتن بزخرف الدنيا عن الإيمان بخالقه، وكذّب رسوله فقال: ﴿أَمْرٌ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (٥٦) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقَرَّرِينَ ﴿٥٧﴾ .

- وبعد بيان أن الله الرحمن هو الخالق المنعم سبحانه، فلا ينبغي التغافل بزخرف الدنيا عنه أو الإشراك به، بيّن السياق أن عيسى ابن مريم عليه السلام الذي هو أكثر شخصية أثيرت حولها فريات الشرك، إنما هو عبد من عباد الله لا يجوز إشراكه مع الله في العبادة ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٥٩) ، فهو ليس إلهاً وليست الملائكة التي عبدها المشركون آلهة كذلك .

سورة الدخان

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿١﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ أَفَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿٦﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿٧﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴿٨﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى حديثها عن تهديد المشركين بآية الدخان، وهي إما أن تكون آية ناتجة عن دعاء النبي ﷺ على قريش بسنين عجاف، حتى أصبح أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجهد، وإما أن تكون لونا من ألوان عذاب الكافرين يوم القيامة، وعلى كلا المعنيين تكون آية الدخان دالة على قدرة الله تعالى على إهلاك المكذبين والبعث والجزاء^(١).

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور السورة يدور حول تقرير حقيقة الإيمان والتوحيد والبعث والجزاء، فهي تنذر بالهلاك لمن لم يقبل ما في القرآن من الخير والبركة والرحمة، وذلك بما فيها من

(١) من المفسرين الذين رجحوا أن الدخان آية ناتجة عن دعاء النبي ﷺ على قريش: الطبري، جامع البيان، ج ٩، ص ٧٣٤٠، والآلوسي، روح المعاني، ج ١٣، ص ١١٦، ١١٧، ومن المفسرين الذين ذكروا الوجهين دون ترجيح: الزمخشري، الكشاف، ج ٤، ٢٦٥، ٢٦٦، والرازي، محمد بن عمر (ت: ٦٠٦ هـ)، مفاتيح الغيب، ط ٣، ١٦ م، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٥. ج ٢٧، ص ٢٤٣-٢٤٥، ومن المفسرين الذين رجحوا القول الثاني: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ١٨٠، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ٣٢١٢. وقد اعتمد القائلون بالقول الأول على رواية في صحيح البخاري، كتاب التفسير، برقم: ١٢٤٨، وصحيح مسلم، باب صفات المنافقين، برقم: ٢٧٩٨.

وسائل لإيقاظ القلب البشري واستجاشته لاستقبال الإيمان، كالقصة ومشاهد القيامة ومصارع الغابرين ومشاهد الكون، وآية الدخان دالة على ذلك على كلا المعنيين^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان بما يدعو إليه النبي ﷺ وما أنزل عليه من القرآن من كمال قدرة الله تعالى على إهلاك المكذّبين - بعد الإنذار بالآيات - والبعث ثم الحساب، ولما كانت آية الدخان (على المعنيين المذكورين) دالة على المحور المذكور كونها تدلّ على إهلاك المكذّبين، سميت السورة بها للتحذير من التكذيب. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة الإنذار بالآيات الدالة على قدرته تعالى على إهلاك المكذّبين والبعث ليوم الحساب.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: مقدمة تنذر المكذّبين بآية الدخان كونها دالة على قدرته تعالى على العذاب يوم القيامة، ثم عرض قصصي يؤكّد قدرة الله على إهلاك المكذّبين، مع تعقيب يؤكّد قدرته على البعث، ثم خاتمة مؤكّدة لما سبق^(٢).

(١) ينظر: البقاعي، نظم الدرر، ج ٧، ص ٦٢، وقد ذكر المعنيين دون ترجيح، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ٣٢٠٦-٣٢١٢، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٥، ص ٢٧٦-٢٩٤، وقد رجح المعنى الأول، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٧، ص ١٤٣، وقد رجحوا المعنى الأول. ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ١٦١، ١٦٢، وقد رجح المعنى الأول، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود منها بالدراسة.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-١٦، والعرض القصصي مع التعقيب: ١٧-٣٩، والخاتمة: ٤٠-٥٩. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، أولاً: منها أمور تؤكد ما يدعو إليه القرآن من كمال قدرة الله على إهلاك المكذّبين والبعث: (أ) ف قوله تعالى ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾: ٣، لم يذكر إلا هنا، (ب) وقوله ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينًا﴾: ٣٨، هنا فقط بهذه الصيغة، وفي سورة الأنبياء: ١٦ ﴿السَّمَاءَ﴾ بدلاً من ﴿السَّمَوَاتِ﴾، (ج) وفي المقابل قوله ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعُبُونَ﴾: ٩، ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، (د) وقوله ﴿أَنَّ لَهُمُ الدِّكَرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾: ١٣، هنا فقط بهذه الصيغة، (هـ) وقد تكررت فيها كلمة «مبين» خمس مرات: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ هنا: ٢، وفي سورة الزخرف: ٢، فقط، ﴿رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾: ١٣، وفي سورة الزخرف: ٢٩، فقط، ﴿يَدْعَانِ مُبِينٌ﴾: ١٠، هنا فقط، ﴿إِنِّي أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾: ١٩، هنا فقط على لسان موسى وليس بوصف الله له، ﴿وَمَا يَنْتَهُمُ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَتْؤٌ مُّبِينٌ﴾: ٣٣، وقريب منها في =

أولاً: جاء في مقدمة السورة دعوة إلى الإيمان بهذا القرآن وما فيه من الإخبار عن كمال قدرة الله تعالى: ﴿حَمْدٌ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ۝٣ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٤﴾
 ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٥ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۝٦ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٧ رَّحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ۝٨ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٩ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۝١٠ إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۝١١ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝١٢﴾، فالذي أنزل القرآن هو رب السماوات والأرض وما بينهما وهو الله القادر على البعث. ولاحظ قوله «إنا كنا منذرين» المؤكد للمحور المذكور، وهو الإنذار بآية الدخان الدالة على إهلاك المكذبين.

وقد بينت المقدمة في المقابل موقف المكذبين: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝١٣ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٤ يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٥ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٦﴾، وفي هذا إثبات لقدرة تعالى على إهلاك المكذبين أيضاً كما هو قادر على البعث، وبالإمكان إثبات ذلك سواء على المعنى الأول للدخان، فتكون استجابة الله لدعوة الرسول ﷺ عليهم حتى أصبحوا يرون ما بينهم وبين السماء كهيئة الدخان من أثر الجهد والجوع، دليلاً على قدرته على الإهلاك بالبطشة الكبرى سواء في يوم بدر أو في يوم القيامة، بعد أن رفع عنهم آية الدخان هذه لعلهم يرجعون، أو أن يكون الدخان من علامات يوم القيامة، فهو دالٌّ على قدرته تعالى على الإهلاك والبعث، وهو عذاب مكشوف عنهم إلى ذلك اليوم، لعلهم يرجعون.

فالسباق الذي ذكر فيه اسم السورة يدعو إلى الإيمان بعد التهديد بذكر الآية الدالة على قدرته تعالى على إهلاك المكذبين، وهذا أمر مشترك مع قصة موسى عليه السلام كما سيأتي.

== سورة الصافات: ١٠٦، (و) قوله ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۝١٠٦ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾: ١٥، هنا فقط عن المكذبين من أمة محمد ﷺ، وقريب منه في سورة الأعراف: ١٣٥، والزخرف: ٥٠، لكن عن قوم فرعون، (ز) هي الوحيدة التي تكرر فيها نسبة «البطش» إلى الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْطِشُ الْبَطْشَةُ الْكَبِيرَىٰ ۝١٠٦ إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾: ١٦، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بالمكذبين بالبعث: (أ) فقولهم ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ ۝١٠٦﴾: ٣٥، هنا فقط بهذه الصيغة، وقريب منه في سورة الصافات: ٥٩، وقد تميّزت سورة الدخان بقوله عن أهل الجنة ﴿لَا يَدْخُلُوهَا ۝١٠٦ إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾: ٣٦، ذكر هنا ٥٦، (ب) وقولهم ﴿وَمَا تَحْنُ يُمْشِرِينَ﴾: ٣٥، هنا فقط، (ج) وقولهم ﴿فَأَنؤُا يَبَايِنَا ۝١٠٦ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: ٣٦، ذكر هنا وفي سورة الجاثية: ٢٥ ﴿أَنؤُا﴾ بدلاً من ﴿فَنَأْوُوا﴾. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض قصصي يؤكد قدرة الله تعالى على إهلاك المكذبين:

﴿وَلَقَدْ قَتَلْنَا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ إِنَّ لَكَ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنَّ عَاتِيَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿١٠﴾ وَإِنْ لَأَنْتُمْ لِيَ فَاغْرِلُونَ ﴿١١﴾ فِدَا رَبِّي أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ تُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ فَأَنْشَرِ بَعَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿١٣﴾﴾،

لاحظ قول موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عَاتِيكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ المشابه لوصف آية الدخان، فالآيات التي أُنذر بها موسى عليه السلام قومه ودعاهم بها إلى الإيمان، مشابهة لآية الدخان التي أُنذر بها قوم النبي ﷺ ودُعوا بها إلى الإيمان، ولاحظ ذكر دعاء موسى عليهم، وهو مشابه لدعاء النبي ﷺ على قريش - على المعنى الأول للدخان - وقد استجاب الله لموسى وبشره بالفرج وإهلاك المجرمين^(١).

واعتقد أن اختيار قصة موسى عليه السلام للعرض في هذه السورة مشابه أيضاً لسبب النزول المذكور من ناحية ثانية، وهي أن القرآن قد أخبرنا في سورتي الأعراف والزخرف أن الله ابتلى فرعون وقومه بسبع آيات، إلى أن قال الله تعالى عنهم في سورة الأعراف: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجَازَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلَّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٣٥﴾ فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿٣٦﴾﴾. والله أعلم.

ثم انتقل السياق إلى تعقيب يبين قدرة الله تعالى على البعث، بعد بيان قدرته على إهلاك المكذبين: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُكَ الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٣٧﴾ فَأَتُوا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِيعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينِكَ ﴿٤٠﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾،

ولاحظ الردّ عليهم ببيان مصارع المكذبين، وكما أن الله هو خالق السماوات والأرض

(١) قد أشار أ.د فضل عباس إلى التشابه بين سبب النزول المذكور ومشاهد قصة موسى هذه، واعتبر أن انتقام الله من المشركين بالبطشة الكبرى يوم بدر، مشابه لبطشه بإغراق فرعون وجنوده. ينظر: قصص القرآن الكريم، ص ٥٥٠.

بالحق، فهو القادر على بعث الجميع يوم القيامة. فسياق السورة كما ترى يؤكد دلالة اسم السورة على قدرة الله على إهلاك المكذبين والبعث ليوم الحساب.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التأكيد على قدرة الله تعالى على البعث والجزاء، ببيان مصير المكذبين في ذلك اليوم: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٦﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٧﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٨﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٩﴾ خَذُوهُ فَأَعْيَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٠﴾. وبيان مصير المؤمنين المتقين: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَفَلِّلِينَ ﴿٥٢﴾. ولاحظ وصف مصيرهم بالمقام الأمين، لأنهم لما آمنوا بالآيات الدالة على قدرة الله على إهلاك المكذبين - كآية الدخان - استعدوا للقاء الله بالعمل الصالح فأمنوا أنفسهم من العذاب، وجوزوا بالمقام الأمين يوم القيامة.

وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى الإيمان بما جاء في القرآن من بيان قدرة الله تعالى على إهلاك المكذبين والبعث ليوم القيامة، ختمت بأمر النبي ﷺ بالصبر على دعوة الناس بهذا القرآن، وأمرته بارتقاب إهلاك المكذبين إن أصرّوا على تكذيبهم على المعنى الأول لآية الدخان، أو بارتقاب ما سيصيرون إليه يوم القيامة على المعنى الثاني: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزَنُهُ بِسَإِذِكُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾. وبذلك التقى البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الدخان

سورة الإنذار بالآيات الدالة على قدرته تعالى على إهلاك المكذبين والبعث يوم الحساب

الموضوع الأول (الآيات: ١-١٦)

المقدمة الدالة على أن الله مُنزل القرآن، هو الذي يُنذر الناس بآية الدخان الدالة على قدرته على إهلاك المكذبين:

■ افتتحت السورة ببيان فضل هذا القرآن، وأن الذي أنزله هو خالق السماوات والأرض:

﴿حَمْدٌ ۝١ وَلَكُنَّ مِنَ الْمُنِيبِينَ ۝٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَرَّكََةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴿٣﴾ .

■ ثم حذرت من قدرة الله خالق الأكوان ومنزل القرآن على إهلاك الكافرين: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٤﴾ فَأَرْقُبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُبِينٍ ﴿٥﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦﴾ .

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٧-٣٩)

عرض قصصي يؤكد قدرة الله على إهلاك المكذبين، مع تعقيب يؤكد قدرته تعالى على البعث:

■ عرض السياق قصة موسى عليه السلام الذي أنذر قومه بسلطان مبين: ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ۝٧﴾ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٨﴾ ، وهو وصف مشابه لآية الدخان.

■ ثم عرضت قوله عليه السلام حينما كذب قومه الآيات التي أيده الله بها: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ تُجْرِمُونَ ۝٩﴾ ، وأجابه الله: ﴿فَأَنشَأَ يَعبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ۝١٠﴾ وَأَتْرَكُ الْأَجْرَ رَهْوًا ۝١١﴾ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿١٢﴾ ، فَعَرَضَ مصيرهم بعد التكذيب بالآيات البينات مشابه لسبب النزول المذكور للمعنى الأول لآية الدخان.

■ ثم عقب السياق على القصة بما يدل على قدرته تعالى على البعث، كما هو قادر على إهلاك المكذبين: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ۝١٣﴾ إِنَّا إِلَٰهٌ مُّوتِنَا الْأَوَّلَ ۝١٤﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿١٥﴾ ، وقد ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ۝١٦﴾ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ .

الموضوع الثالث: (الآيات: ٤٠-٥٩)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

- أعادت التأكيد على قدرة الله تعالى على إهلاك المكذبين والبعث يوم الحساب: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤١) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٢﴾.
- وأعادت التأكيد على ذلك ببيان مصير المكذبين: ﴿إِنَّ سَجَرَتَ الرَّقُومِ﴾ (٤٣) طَعَامُ الْآثِمِينَ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾.
- وبينت مصير المؤمنين المتقين: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ (٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٧﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان قدرته تعالى على إهلاك المكذبين، ختمت بأمر النبي ﷺ بارتقاب إهلاك المكذبين - على المعنى الأول لآية الدخان - أو بارتقاب ما سيصبرون إليه يوم القيامة - على المعنى الثاني: ﴿قُلْنَا يَسَّرْنَا لَكَ إِلَيْنَا لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴿٤٩﴾.

سورة الجاثية

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٧﴾
وَرَأَى كُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

الدلالة اللغوية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن منظور: «جثا يجثو ويَجْثِي جُثْوًا وَجُثْيًا، على فعول فيهما: جلس على ركبتيه للخصومة ونحوها، والجاثي: القاعد، وفي التنزيل: ﴿وَرَأَى كُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ (الجاثية: بعض الآيات: ٢٨) قال مجاهد: مستوفزين على الرُكْب، قال أبو معاذ: المستوفز: الذي رفع أَلْيَتَيْهِ ووضع ركبتيه»^(١). وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى بيان حال الأمم يوم القيامة، إذ إنها ستجثو كل أمة بين يدي ربّها الجبار بكل خضوع واستسلام وخوف، وستحاسب كل أمة بعملها، وذلك يدلّ على قدرة الله على البعث والجزاء.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن مقصود هذه السورة الدلالة على أن الله الذي أنزل هذا الكتاب وشرع هذا الشرع الذي هو غاية الاستقامة، هو العزيز والمختصّ بالكبرياء، فهي تدعم البناء العقلي للإيمان من خلال النظر في ملكوت السماوات والأرض، فمن المكلفين من حَكَمَ عقله فسمع وأطاع، ومنهم من تبع هواه فضلّ، وقد اقتضت حكمة الله أن يجمع الخلق ليوم الفصل ويدين عباده، فالسورة تصوّر جانباً من استقبال المشركين للدعوة الإسلامية، وطريقتهم في مواجهتها، وكذلك تبين موقف أهل الكتاب، وفريق آخر لا يعرف حُكْماً يرجع إليه إلا هواه، وفريق ينكر الآخرة والبعث والحساب، ثم بيّنت حال أولئك كلهم يوم القيامة من خلال مشهد الجُثُو بين يدي الله^(٢).

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج ٣، ص ٧٧.

(٢) ينظر: الفيروزآبادي، البيان بمقاصد سور القرآن، ص ٩٧، والمهايمي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٢٦٥، =

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان عظمة الله تعالى وحكمته المتجلية في الدنيا بآياته الكونية والقرآنية، وبيان موقف الأمم من تلك الحقيقة في الدنيا، وبيان عظمة الله وحكمته في الآخرة من خلال مشهد جُثُو تلك الأمم بين يدي ربها ذي الكبرياء والعظمة، لتنال كل أمة جزاءها العادل، وإنما اختير من مشهد جُثُو الأمم يوم القيامة اسماً للسورة «الجاثية» لأن دلالة السياق فيها أبلغ تعبير عن ذلك المحور. وقد تميزت هذه السورة بأنها سورة بيان الحساب الجماعي للأمم يوم القيامة بين يدي الله العظيم.

وفيما يلي بيان مدى الترابط بين اسم السورة «الجاثية» ودلالاته، مع موضوعات السورة:

تحتوي السورة مقدمة فيها أدلة عقلية على تعظيم الله - الذي ستجثو الأمم بين يديه يوم القيامة - وقدرته على البعث، ثم حديثاً عن خمسة أفرقة من الناس تجاه الإيمان بآيات الله، وهم: كل أفاك أثيم، وأهل الكتاب، والأمة الإسلامية متمثلة بالقيادة المحمدية، ثم كل من اتخذ إلهه هواه، والدهريون، ثم خاتمة عُرِض فيها مشهد جُثُو الأمم بين يدي ربها^(١).

= والباقعي، نظم الدرر، ج ٧، ص ٨٨، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٣٢١٩ و ٣٢٢٠، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٥، ص ٣٢٣، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٧، ص ١٦٠، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ص ٣٨٧. وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(١) المقدمة شملت آيات: ١ - ٦، والفريق الأول: ٧ - ١١، والفريق الثاني: ١٥، ١٦، والفريق الثالث: ١٧ - ١٩، والفريق الرابع: ٢٣، والفريق الخامس: ٢٤ - ٢٦، والخاتمة: ٢٧ - ٣٧. ومن لطائف هذه السورة أنها تميزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة ببيان عظمته تعالى في الدنيا والآخرة: أ) فقد ذكر الاسمين الجليلين «العزیز الحكيم» في مقدمتها وخاتمتها، وكأنهما يشيران إلى عزته وحكمته تعالى دنيا وأخرى، ب) قوله تعالى ﴿وَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَأَنِّي يُؤْمِنُونَ﴾ ٦، لم يذكر إلا هنا، وانظر أيضاً قوله ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ ٢٣، ج) قوله تعالى ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ أَلْسِنَتٍ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ السَّمَاوَاتِ﴾ ٣٦، لم يتكرر في القرآن ذكر «رب» ثلاث مرات في نفس الآية، د) لم تنسب «الكبرياء» لله تعالى إلا هنا: ٣٧، ثانياً: ومنها ما يتعلق ببيان موقف الأمم المكذبة: أ) فقوله ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ ٧، لم يذكر في موضع آخر إلا في سورة الشعراء: ٢٢٢، بصيغة قريبة، ب) قوله ﴿يَسْمَعُ أَيْتِ اللَّهِ تَنَلُّ عَلَيْهِ ثُمَّ يُعْرِئُ مُسْتَظْفِرًا﴾ ٨، لم يذكر في موقع آخر إلا في سورة لقمان: ٨، بصيغة قريبة، ج) قوله ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَلَفَ إِلَهُهُ هُوَنًا﴾ ٢٣، لم يذكر في موقع آخر إلا في سورة لقمان: ٤٣، بصيغة قريبة جداً، علماً بأن رقم سورة الجاثية: ٤٥، ولقمان: ٢٥، د) قوله ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ ٢٤، لم يذكر في موقع آخر إلا في سورة المؤمنون: ٣٧، وبصيغة قريبة، ولكن سورة الجاثية تميزت بقوله تعالى عنهم: ﴿وَمَا يُلْكَا إِلَّا الْآفُكُ﴾ ٢٤، =

أولاً: تحوي مقدمة السورة بعض الآيات الكونية والقرآنية الدالة على عظمته وحكمته في الدنيا: فذكرت أن منزل الكتاب هو الله العزيز الحكيم: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ①﴾، وانظر قوله تعالى الذي فيه تعظيم الله من خلال الآيات القرآنية: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ②﴾. أما الآيات الكونية التي تبين عظمة الله: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ③﴾ وفي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ④ وَأَخْلَفَ أَتْلِيلَ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلَا بِهِنَّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ⑤﴾، فانظر كيف افتتحت السورة ببيان حكمة وعظمة الله تعالى وحكمته الذي ستجثو الأمم بين يديه يوم القيامة لتنال منه جزاءها العادل.

ثانياً: ثم انتقل السياق لبيان حال الفريق الأول من الناس تجاه الإيمان بعظمة الله وحكمته، وهم كل أفاك أثيم مستكبر عن آيات الله، وابتدأ السياق بهم لأنهم أكثر الأمم إثماً، وأعظمهم جرماً: ﴿وَبِئْسَ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ⑦﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ⑧ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ⑨ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑩ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ⑪﴾. ولاحظ أن السياق قد ذكر المصير الأخروي لهذا الفريق، ولا يخفى ترابط ذلك مع مشهد جُثُو الأمم يوم القيامة الذي سُميت السورة به، فهذا الفريق هو أحد الأمم الجاثية في ذلك الموقف.

وقبل الانتقال للفريق الثاني أعاد السياق ذكر آيات كونية تدلّ على عظمته تعالى، ثم أمرت المؤمنين المستضعفين بالغفران والصبر على المكذّبين: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⑫﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ⑬﴾، والتناسق بين تلك الأدلة وأمر المؤمنين واسم السورة واضح، فهو سبحانه مع عظمته يمهّل لكن لا يهمل، ويصبر المؤمنين بأن هؤلاء المكذّبين سينالون جزاءهم في اليوم الذي سيجثون فيه بين يدي الله.

= فلم يتكرر، هـ) وقوله عنهم ﴿مَا تَذَرِي مَا السَّاعَةُ ③٢﴾، لم يتكرر كذلك. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

وانتقل السياق إلى الفريق الثاني وهم أهل الكتاب: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَأَتَيْنَاهُم بَيْنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِثْنَا بِهِمْ إِنْ رَبُّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾، ولاحظ كيف ذكر سبحانه أنه سيقضي بينهم يوم القيامة، ولا يخفى ترابط ذلك مع اسم السورة ودلالاته، فأهل الكتاب أحد الأمم التي ستجثو بين يدي ربها يوم القيامة، لتنال جزاءها العادل.

أما الفريق الثالث فهم الأمة الإسلامية متمثلة بقيادة سيدنا محمد ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾، ولاحظ أن السورة أمرت النبي ﷺ باتباع شرع الله تعالى، وبيّنت أن الله ولي المؤمنين المتقين، وذلك متناسق مع مشهد جثو الأمم يوم القيامة، فالأمة الإسلامية إحدى الأمم الجاثية في ذلك الموقف، ثم يدخل الله من آمن وعمل صالحاً منهم في رحمته، ذلك هو الفوز المبين.

ولاحظ التعقيب على ذكر تلك الأفرقة الثلاثة بما يؤكد حقيقة مشهد جثو الأمم يوم القيامة مع بيان عظمة الخالق سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْنُهُمْ وَمَا نَحْكُمُونَ ﴿٢٠﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَيِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

ثم انتقل السياق إلى الفريق الرابع: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غَشَاةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٢﴾﴾، فكل من أنكر خالقه واتخذ هواه إلهاً داخل تحت قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾، وترابط هذا الفريق مع اسم السورة يعود إلى كون هذا الفريق أحد الأمم الجاثية بين يدي ربها يوم القيامة لتنال منه جزاءها العادل.

بقي الفريق الخامس، وهم الدهريون المنكرون للحياة الآخرة: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا نُنَادِيَنَا عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِتَنَزُّلٍ مَا كَانُوا يَحْجِبُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَأْتَانَا أَنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾، ولاحظ تعظيم الله تعالى في الآيات

القرآنية المتلوة على هؤلاء، وانظر كيف كان الرّد عليهم متناسقاً مع اسم السورة ودلالاته: ﴿قُلِ اللَّهُ يُخَيِّبُكُمْ ثُمَّ يُثَبِّتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦).

ثالثاً: الخاتمة المؤكدة لما سبق، وفيها بيان حال تلك الأفرقة جميعاً يوم القيامة في مشهد الجُتُو بين يدي الله «ثم تنقسم الحشود الحاشدة والأمم المختلفة، على مدى الأجيال واختلاف الأجناس فريقين اثنين، فريقين اثنين، يجمعان كل هذه الحشود: الذين آمنوا، والذين كفروا، فهاتان هما الرايتان الوحيدتان عند الله، وهذان هما الحزبان: حزب الله وحزب الشيطان، وما عدا ذلك من المَلَل والنَحْل والأجناس والأمم فإليهما يعود»^(١)، ﴿وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِخُ بِخَسِرِ الْمُطْبُوتِ﴾ (٧) وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٨)، ثم يكون مصير فريق المؤمنين: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ (٢٠)، وأما مصير فريق الكافرين: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنْذِرُكَ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمُونَ﴾ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ﴾ (٣٢) وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنَسِكُ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوِكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَصْرِيفٍ﴾ (٣٤) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَخَذْتُمْ ءَايَةَ اللَّهِ هُزُوعًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٣٥).

فأنت ترى أن هذا المشهد الذي سُميت السورة باسمه، هو أدل ما في السورة على المصير العادل لتلك الأمم، من الله العزيز الحكيم ذي الكبرياء. فلا ريب أنه كان الاسم الأجدر لها.

ولاحظ ختام السورة الذي يصف الله تعالى بصفات عظيمة متناسقة مع دلالات اسم السورة: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٦) وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٧). ولاحظ كيف وصف ربنا ذاته بلفظة «رب» ثلاث مرات في آية ولم يتكرر ذلك في آية أخرى من القرآن، فهذا ختام يبين عظمة الله تعالى وحكمته، وهكذا يلتقي ختام السورة مع مفتتحها الذي يبين عظمة الله وحكمته، وفي ذلك أشد التناسق مع اسم السورة «الجاثية» ودلالاته، الدالّ أبلغ دلالة على المحور المذكور.

(١) قطب، في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٣٢٢٣.

سورة الجاثية

سورة بيان الحساب الجماعي للأمم يوم القيامة بين يدي الله العظيم

الموضوع الأول (الآيات: ١-٦)

المقدمة التي تبيّن بعض مظاهر عظمة الله تعالى - الذي ستجثو الأمم بين يديه - من خلال آياته القرآنية والكونية:

■ افتتحت السورة ببيان عظمة الله تعالى مُنْزَل القرآن: ﴿حَمْدٌ تَزِيدُ الْكِتَابَ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ①﴾.

■ وعرضت بعض مظاهر عظمتة تعالى في آياته الكونية: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ②﴾.

■ ثم هدّدت الذين لا يؤمنون بالله العظيم بعد أن دلّت الآيات عليه سبحانه: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْلَوْهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فِإِنَّي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتُهُ يُؤْمِنُونَ ③﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٧-٢٦)

بيان موقف فِرَق الناس تجاه الإيمان بآيات الله:

■ بعد بيان مظاهر عظمة الله تعالى في القرآن وفي الأكوان، عرض السياق موقف الناس تجاه هذه الآيات:

■ أولاً: كل أَفَّاك أُنِيم: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ④﴾ يَسْمَعُ ءَايَاتُ اللَّهِ تُنَادِي عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْ فَتِيرَهُ يَعَذَابُ أَلِيمٌ ⑤﴾.

■ ثانياً: أهل الكتاب: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَلَكُمُ الزُّبُورُ وَالتَّوْرَةُ وَرَفَعْنَاهُمْ مِنَ الطُّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ⑥﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ ⑦﴾.

■ ثالثاً: الأمة الإسلامية: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ⑧﴾.

■ رابعاً: من اتخذ إلهه هواه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَمْرٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَلَّبَ وَجَعَلْ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ⑨﴾.

■ خامساً: الدهريون المنكرون للآخرة: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٧-٣٧)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ عرضت الخاتمة مشهد جُثِثُوا الأمم بين يدي الله العظيم يوم القيامة: ﴿وَرَأَى كُلُّ أَنتَرٍ حَاجَةً كُلِّ أَنتَرٍ تُدْعَى إِلَى كِنْهِيَ الْيَوْمِ يُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

■ ثم بينت مصير المؤمنين منهم: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾.

■ وبينت مصير الكافرين منهم: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَاتِي تَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا فَتَسْتَكْبِرُونَ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾، ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَنُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾.

■ وكما افتتحت السورة ببيان عظمة الله تعالى الذي ستجثو الأمم بين يديه، ختمت بالمقصد ذاته: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَّاتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

سورة الأحقاف

﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ۖ
 أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّكَ عَنْ
 ءَالِهَتِنَا فَإِنَّمَا تَعِدُّنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا
 أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَىٰكُمْ قَوْمًا بَٰجِلُونَ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا
 هَذَا عَارِضٌ مُّطْرُنًا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ
 بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٥﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس: «الحاء والقاف والفاء: أصل واحد يدل على ميل الشيء وعوجه، . . ولهذا قيل للرمل المنحني: حِقف، والجمع: أحقاف»^(١)، وقال الإمام ابن منظور: «الحِقف من الرمل: المعوجُّ، . . والأحقاف: ديار عاد، واحدها: حِقف، وهو المستطيل المشرف، وهي رمال بظاهر بلاد اليمن كانت عادٌ تنزل بها»^(٢). وقد ذكر سياق هذه السورة الكريمة أن هوداً عليه السلام دعا قومه الذين كانوا يقطنون في الجزيرة العربية قرب اليمن إلى الإيمان والتوحيد، ولكنهم آثروا الكفر والشرك حتى أهلكتهم الرياح ودمرت مساكنهم، فالملاحظ من الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة أن في ذكر موقع مساكنهم التي يعرفها العرب جيداً، مزيداً من التهديد والترهيب لهم؛ لأنهم مشركون أيضاً، فهم معرضون للعقوبة مثلهم إن أصروا على شركهم.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً للربط بين محور هذه السورة وموضوعاتها وبين

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٢٧٧، بتصرف.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج ٤، ص ١٧٥، بتصرف.

اسمها، فذكروا أن من مقاصد هذه السورة معالجة قضية الإيمان بوحداية الله وربوبيته المطلقة لهذا الوجود بكل ما فيه، والدعوة إلى الإيمان بالوحي وبالرسالة، وأن سيدنا محمداً ﷺ رسول سبقته الرسل، أوحى إليه القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتب، وفي عرض قصة عاد الذين سكنوا بالأحقاف إشعار بأن إنذارات القرآن متحققة، وذلك يفيد التهديد لكفار قريش، كما أن في قصتهم دلالة على صدق قيام الساعة أيضاً، فإن القادر على إهلاكهم، قادر على بعثهم للحساب، وفي قصتهم دلالة على أن سيدنا هوداً عليه السلام نبيٌ مُبَلَّغ عن الله كما أن سيدنا محمداً عليه السلام مُبَلَّغ عن الله أيضاً^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد وتصديق الرسول ﷺ كونه أحد الرسل الذين أرسلهم الله للعالمين مبشرين ومنذرين، فليس بدعاً من الرسل، وإنما سميت هذه السورة بـ «الأحقاف» لأن قصتهم المذكورة فيها مع التعقيب عليها، أدل ما في السورة على المحور المذكور، فهي تبين أن هوداً عليه السلام أحد الأنبياء الذين أرسلهم الله، وفيها أبلغ إنذار للكفار المعاصرين للنبي ﷺ الذين يعلمون جيداً ما حصل مع أهل الأحقاف القريبين منهم. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان أن النبي ﷺ ليس بدعاً من الرسل، وأن ما يدعو إليه من التوحيد وما يحذّر به من الإهلاك ليس بدعاً من الأمر.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين الدلالات اللفظية والسياقية لاسم السورة، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام رئيسية: مقدّمة تبرز بعض مظاهر حكمة الله تعالى وكمال قدرته المتفردة في الكون، مع النعي على المشركين، وثانياً: تصديق

(١) ينظر: الفيروزآبادي، البيان بمقاصد القرآن، ص ٩٨، والمهايمي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٢٧٠، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٧، ص ١١٤، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٢٥٢ و ٣٢٦٦، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٦، ص ٦، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٧، ص ١٧٨، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٣٩٠، ود. شحاتة، أهداف كل سورة، ج ٢، ص ٢٠-٣٢، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ٣٤٥-٣٤٨، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

للنبي ﷺ وتصديق لرسالته، وثالثاً: عرض موقفين متقابلين من قضية الإيمان بالله ورسالاته، أولهما: موقف أهل الأحقاف الذين كذبوا نبيهم عليه السلام وأصروا على الشرك، وثانيهما: موقف النفر من الجن الذين آمنوا وولّوا إلى قومهم منذرين، ورابعاً: الخاتمة المؤكدة لما سبق^(١).

(١) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١-٦، وتصديق النبي ﷺ: ٧-٢٠، وقصة الأحقاف: ٢١-٢٨، والنفر من الجن: ٢٩-٣٢، والخاتمة: ٣٣-٣٥. ومن لطائف هذه السورة أنها تعطي مع سورة هود صورتين متقابلتين متكاملتين، فسورة هود التي سميت باسم النبي تفيد الحزم والجزم والصرامة في الدعوة إلى التوحيد كما سبق، وسورة الأحقاف التي سميت باسم مكان معيشة القوم تفيد مزيد التهديد لكفار قريش ببيان ما حصل مع من كذب بدعوة التوحيد قريباً منهم، واللافت للنظر أن السورتين قد اشتركتا في عدد من الأمور متلائمة مع المحور الخاص لكل سورة تؤكد هذه الحقيقة، فأولاً: جاء في مقدمة السورتين بيان حكمة منزل الكتاب سبحانه وتعالى، مع ذكر بعض مظاهر القدرة الإلهية في السماوات والأرض، مع تثبيت للنبي ﷺ في دعوته، وقد اشتركت خاتمة السورتين أيضاً بذكر تثبيت النبي ﷺ، وبعض مظاهر القدرة الإلهية في السماوات والأرض، وقد جاء في آخر آية من سورة الأحقاف ذكر أولي العزم من الرسل، وهم جميعاً مذكورون في سورة هود ما عدا عيسى عليه السلام، وثانياً: جاءت مشتقات الجذر «فري» في سورة هود سبع مرات، وقد تكررت فيها السؤال التوبيخي ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغْتُمُ الْأَرْضَ كَيْفَ مَا نَأْمُرُ بِهَا﴾، بينما جاءت مشتقات هذا الجذر في سورة الأحقاف ثلاث مرات، وقد ذكر فيها هذا السؤال مرة واحدة: ٨، وثالثاً: ذكر موسى عليه السلام في سورة هود ثلاث مرات: ١٧ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كُنتُمْ تُوسِّى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾، ٩٦، ١١٠، وفي سورة الأحقاف مرتين: ١٢ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كُنتُمْ تُوسِّى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾، ٣٠ ﴿كَتَبْنَا أُزْلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾، ورابعاً: ذكرت النار في سورة هود خمس مرات: ١٦، ١٧ ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلْهَارُ مَوْعِدُهُ﴾، ٩٨ ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْدَحَهُمُ الشَّارِقُ﴾، ١٠٦، ١١٣، بينما في سورة الأحقاف مرتين: ٢٠، ٣٤ ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾، وخامساً: ذكرت مشتقات الجذر «جرم» في سورة هود مرتين: ٥٢ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْبَغْيَ﴾، ١١٦، وفي سورة الأحقاف مرة واحدة: ٢٥ ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾، وسادساً: ذكرت خسارة المكذبين باليوم الآخر في سورة هود مرتين: ٢١، ٢٢، وفي سورة الأحقاف مرة واحدة: ١٨، وسابعاً: ذكر اسم الفاعل «معجز» في سورة هود مرتين: ٢٠، ٣٣، وفي سورة الأحقاف مرة واحدة: ٣٢، وثامناً: جاء الفعل الماضي «حاق» مرة واحدة في كلتا السورتين، ففي سورة هود: ٨ ﴿وَسَافَكُ بِهِم مَّا كَانُوا بِهٖ يَسْتَكْبِرُونَ﴾، وفي سورة الأحقاف: ٢٦ وبالجملة نفسها، وتاسعاً: جاءت لفظة «القرون» مرة واحدة في كلتا السورتين، ففي سورة هود: ١١٦، وفي سورة الأحقاف: ١٧، وأما عاشرًا: فقد جاءت مشتقات الجذر «هلك» في سورة الأحقاف مرتين: ٢٧ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَولَكُم مِّنَ الْقُرَى﴾، ٣٥ ﴿بَلَّغْ فَمَلَّ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وقد كان ذلك مناسباً لسياق تهديد كفار قريش في سورة الأحقاف، بينما في سورة هود مرة واحدة: ١١٧ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِیَهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾، وذلك مناسب لسياق الدعوة إلى التوحيد. ينظر: عبد الباقي، المعجم المفهرس. وإذا تأملت المواضع المذكورة سابقاً في سياق السورتين سيظهر لك أنها جاءت بصيغ تناسب المحور المذكور لكلتا السورتين.

أولاً: جاء في المقدمة ذكر حكمة مُنزل الكتاب سبحانه، وذكر بعض مظاهر الآيات الكونية الدالة على عظمته سبحانه، مع بيان باطل المشركين: ﴿حَمْدٌ ۝ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذُنُوا مُعْرِضُونَ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ۚ أَتُنَادِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ۝﴾، فمن عبد إلهاً فليخبرنا ماذا خلق من هذا الكون العظيم؟ فافتتاح السورة بإثبات التوحيد لله عز وجل ودحض الشرك، أمرٌ متلائم مع دلالات قصة الأحقاف الذين شابها مشركي قريش في الشرك، حتى نزل بهم العذاب.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى تصديق النبي ﷺ وتصديق رسالته المتمثلة بالقرآن الحكيم: ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا يَنبَغِ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكُرُّ إِنْ أُنِيعَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝﴾، ولاحظ قول الله تعالى عن النبي ﷺ: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾، فهو ﷺ أحد الأنبياء الذين أرسلهم الله، كما أن هوداً عليه السلام الذي أرسل إلى الأحقاف أحد هؤلاء الأنبياء كذلك، وفي سياق تصديق النبي ﷺ الداعي إلى التوحيد وما يترتب عليه من الإيمان بالآخرة، عرض السياق موقفين متقابلين للبشر من هاتين القضيتين، فكان أولهما موقف المؤمن الشاكر: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنِيتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝﴾، وانظر ماذا كان مصيره: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ۝﴾، ولاحظ قوله ﴿وَعَدَ الصِّدْقِ﴾ فنعيم المؤمنين محقق، كما أن عقاب المنكرين محقق كذلك.

والموقف الآخر هو موقف الكافر بالله تعالى وبالآخرة: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلَدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا

أَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَبِكَ ءَامِنُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧﴾ ، وانظر ماذا كان مصيره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتِ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٨﴾ ، ولاحظ قوله تعالى ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ المتلائم مع قوله سابقاً ﴿وَعَدَ الصَّادِقُ﴾ ، وانظر قوله تعالى ﴿فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتِ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ ، وهو من ناحية فيه ردّ على من زعم أن الأمم الخالية لا بعث لها ولا حساب ، وهو من ناحية أخرى منسجم مع محور السورة الذي يدعو المشركين إلى النظر فيمن أهلك من الكافرين قريباً منهم ، وقد كان أهل الأحقاف أحد هؤلاء ، ومن ناحية ثالثة يتلاءم ذكر الجنّ هنا مع ما سيأتي من ذكر موقف النفر المؤمنين من الجنّ آخر السورة .

فأنت ترى أن السياق يدعو الكفار والمشركين إلى النظر في عواقب الأمم المكذّبة السابقة قبلهم ، وهم يعلمون عدداً من هذه الأمم ، وذلك منسجم مع ما سيأتي من عرض قصة الأحقاف مع التعقيب عليها .

ثالثاً : ثم انتقل السياق إلى عرض قصة الأحقاف ، وهي تمثل أنموذجاً تحذيرياً للمشركين ، لأنها تبرز ماذا كان عاقبة كفرهم وشركهم: ﴿وَأَذْكُرُ أَنَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ ءَالِهَتِنَا فَإِنَّا بِمَا نَعْبُدُ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَىكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿١٣﴾ ، وأول ما يفاجئك أن اسم النبي (هود) عليه السلام لم يذكر ، واعتقد أن سبب ذلك هو أن المقصود من عرض هذه القصة تحذير كفار قريش من أن يوصلهم كفرهم وشركهم إلى ما وصلت إليه الأمم السابقة وهم يعلمون أمثلة متعددة على ذلك ، فلذلك سميت السورة باسم مكان معيشة إحدى هذه الأمم التي يعرفونها ، بينما في سورة هود التي سميت باسمه عليه السلام ، ذكر اسمه ؛ لأن دلالات أقواله المذكورة في تلك القصة هي الأدلّ على حقيقة التوحيد صراحة وحزماً وجزماً .

ومما يزيد ذلك تأكيداً قوله تعالى في سورة الأحقاف ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ فهو أيضاً ليس بدّعاً من الرسل ، فقد كانت الأقوام تعلم أن سنة الله هي إرسال الأنبياء قبل وقوع العقاب .

وانظر ماذا كان مصير أهل الأحقاف المكذبين: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطِيرٌ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٤﴾ تُدِيرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ٢٥﴾ ، وأعتقد أن إهلاكهم بالريح متلائم مع الدلالة اللفظية لاسم السورة، فكما أن الله جعل في الرياح قدرة على تحريك الكثبان الرملية من أماكنها، فقد جعل لها القدرة على إهلاك من كان يعيش بين هذه الكثبان، ولاحظ الإشارة إلى مساكنهم التي بقيت آية لغيرهم، وفي ذلك تحذير لكفار قريش الذين يعلمون حقيقة ما حصل في الأحقاف.

وقد كان التعقيب الإلهي على القصة أيضاً محذراً للكفار من أن يؤول أمرهم إلى ما آلت إليه الأمم المكذبة: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَتْكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلَٰهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ٢٨﴾ ، ولاحظ قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ﴾ الذي يؤكد المحور المذكور للسورة، فإذا قصة الأحقاف المذكورة في هذه السورة هي أدل ما فيها على أخذ العبرة والاعتاظ بما حلّ بالأمم المكذبة السابقة، ولذلك سميت السورة باسم مكان معيشتهم وليس باسم نبيهم هود عليه السلام، ولا حتى بالاسم الذي اشتهروا به (عاد).

ثم انتقل السياق إلى ذكر موقف النفر من الجنّ، الذين آمنوا حين سماعهم قراءة القرآن، فكان ذكرهم بمثابة أنموذج الإيمان المقابل لأنموذج الكفر المتمثل بأهل الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ٢٩﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ٣٠﴾ يَنْقُومَنَا أَجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ مِنَ عَذَابِ الْبَرِّ ٣١﴾ وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٣٢﴾ ، ولاحظ أنهم استشهدوا على صدق القرآن بصدق كتاب موسى عليه السلام، وهذا يؤكد محور السورة الدال على أن النبي ﷺ ليس بدعاً من

الرسول، ولاحظ أيضاً أنهم لم يكتفوا بمجرد الإيمان، بل ولّوا إلى قومهم داعين إياهم إلى الإيمان بالنبى ﷺ وبالقرآن. فذكر هذه الحادثة متلائم مع قصة الأحقاف التي سُميت السورة بها، كونها تعطي صورة مقابلة لها.

فإذا كان نفر الجن قد آمنوا حينما أدركوا أن النبى ﷺ ليس بدّعا من الرسل، فما بال الكفار من قريش وهم بشر لا يؤمنون بعد ببيان السورة أن النبى ﷺ ليس بدّعا من الرسل؟

رابعاً: بقيت الخاتمة وهي تحوي تأكيداً لكل ما سبق، فهي قد أعادت التذكير ببعض مظاهر قدرة الله في الخلق، الدالة على قدرته على البعث: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّمْ لِيُخْلِفْهُنَّ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾، وأعادت التحذير للكفار ببيان المصير الأخروي لهم إن هم أصروا على كفرهم: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝﴾.

وكما افتتحت السورة بدحض باطل المشركين وحذرتهم من الإصرار عليه، ختمت كذلك بالتحذير ذاته وبيان أن النبى ﷺ ليس بدّعا من الرسل، وهو مأمور بالصبر مثلهم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ فُهِلَ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ۝﴾، وهكذا يلتقي البدء والختام كما هي العادة في هذا القرآن المعجز على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الأحقاف

سورة بيان أن النبي ﷺ ليس بدعاً من الرسل، وأن ما يدعو إليه من التوحيد وما يحذر به من الإهلاك ليس بدعاً من الأمر

الموضوع الثاني: (الآيات: ٧-٢٠)

تصديق النبي ﷺ وتصديق رسالته مما يؤكد أنه ليس بدعاً من الرسل:

■ فقد نفى السياق عنه ﷺ فرية اتهامه بالسحر ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَالِيَهُمْ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَذَابًا فَأَنبَأَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٧) ﴿وَلَقَدْ كَفَرْنَا بِهِ قَدْرًا ثُمَّ نَبَا أَنَّهُ نَذِيقُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٨) ﴿لَقَدْ جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرًا مُّبِينًا﴾ (٩) ﴿وَمَا كُنَّا بِتِلْكَ أَعْيُنًا تُبْصِرُونَ﴾ (١٠) ﴿وَمَا كُنَّا بِهِيَ قُلُوبًا تَفْقَهُونَ﴾ (١١) ﴿وَمَا كُنَّا بِهِيَ قُلُوبًا تَفْقَهُونَ﴾ (١٢) ﴿وَمَا كُنَّا بِهِيَ قُلُوبًا تَفْقَهُونَ﴾ (١٣) ﴿وَمَا كُنَّا بِهِيَ قُلُوبًا تَفْقَهُونَ﴾ (١٤) ﴿وَمَا كُنَّا بِهِيَ قُلُوبًا تَفْقَهُونَ﴾ (١٥) ﴿وَمَا كُنَّا بِهِيَ قُلُوبًا تَفْقَهُونَ﴾ (١٦) ﴿وَمَا كُنَّا بِهِيَ قُلُوبًا تَفْقَهُونَ﴾ (١٧) ﴿وَمَا كُنَّا بِهِيَ قُلُوبًا تَفْقَهُونَ﴾ (١٨) ﴿وَمَا كُنَّا بِهِيَ قُلُوبًا تَفْقَهُونَ﴾ (١٩) ﴿وَمَا كُنَّا بِهِيَ قُلُوبًا تَفْقَهُونَ﴾ (٢٠).

■ ونفى عنه ﷺ فرية افتراء القرآن ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنْ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعَلُونَ فِيهِ كُنِيَ بِهِ سَهْبًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْعَفْوَ الرَّحِيمُ﴾ (٨) ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ فِي وَلَا يَكْفُرُ﴾.

■ ثم عرض السياق موقفين متقابلين من قضية تصديق النبي ﷺ وتصديق رسالته، أولهما موقف المؤمن الشاكر: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنِيتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ، وقد بين السياق مصيره: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (١٣).

■ وثانيهما موقف الكافر بالله تعالى وبالآخرة: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِي فِي لَكُمْ أُعِدَّتْ لَكُمْ أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمْ لَا يَسْتَشِيرُونَ اللَّهَ وَرَبَّهُمْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٧) ، وقد بين السياق مصيره: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْآلِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ (١٨).

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٦)

المقدمة التي تبرز بعض مظاهر حكمة الله تعالى وكمال قدرته وتنعي على المشركين بعد بيان هذه المظاهر:

■ افتتحت السورة ببيان أن الكتاب المنزل على النبي ﷺ من خالق الأكوان سبحانه: ﴿حَمْدُ اللَّهِ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١).

■ فهو سبحانه خالق الأكوان: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ (٢).

■ ثم نعت المقدمة على المشركين بعد بيان هذه المظاهر: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ (٣).

■ فالمقدمة تبرز أن القرآن الذي ينذر به النبي ﷺ قومه ليس بدعاً من الأمر، بل إن إرسال الرسل سنة الله في الأرض.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٣٣-٣٥)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت التذكير ببعض مظاهر قدرة الله مما
يوجب الإيمان به وبرسالاته: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ
اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ لِحَافِهِ
مِقْدِرٌ عَلَيْهِ أَنْ يُضَيِّقَ الْمَوْتَ بِإِذْنِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ﴾ ﴿١٠٠﴾

■ وَأَعَادَتْ تَحْذِيرَ الْكَافِرِينَ إِنَّهُمْ أَصْرَوْا عَلَى كُفْرِهِمْ: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿٢٠﴾.

■ وكما افتتحت السورة بتحذير الكافرين من الإصرار على الكفر بالرسول ﷺ، ختمت بتحذيرهم أيضاً مع بيان أنه ﷺ ليس بدعاً من الرسل: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرِ الْأَوَّلُونَ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ .

سورة محمد

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى نبي الإسلام سيدنا محمد ﷺ، المرسل بالحق من الله تعالى، وما نتج عن بعثته من انقسام الناس لفريقين: منهم كافرون أضل الله أعمالهم في الدنيا وحرهم الأجر في الآخرة، ومنهم مؤمنون هداهم الله فأصلح بالهم في الدنيا والآخرة. فاسم السورة يحث على الإيمان به ﷺ واتباع دينه.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور السورة هو الصراع بين المؤمنين والكافرين، سواء كان مادياً يسعّره الكافرون، أو خفياً يديره المنافقون، ولذلك تعرض السورة لملامح شخصيات أعداء الدين، وملامح شخصية المؤمنين المتبعين لمنهج النبي ﷺ، وذلك في صيغة هجوم أدبي على الكافرين، وتمجيد للمؤمنين، وبعثة سيدنا محمد ﷺ بالرسالة من الله الذي نتج عنه هذا الصراع، وكان هو ﷺ قائد المؤمنين فيه وفق سياسة ربانية^(١).

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٢٧٦، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٧، ص ١٤٨، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٢٧٨-٣٢٨٠، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٧، ص ٢٢٥-٢٢٩، ود. حسن محمد باجودة، تأملات في سورة محمد ﷺ، ص ١٧-٢٧، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٣٩٥، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ٣٠٧-٣١١، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٢٤٨-٢٥٢.

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان ما يجب أن يكون عليه المؤمنون بسيدنا محمد ﷺ لينالوا الأجر في الدنيا والآخرة، وعرض موقف الكافرين والمنافقين ومصيرهم في الدنيا والآخرة، ولما كان نشوء الفريقين ناتجاً عن بعثة سيدنا محمد ﷺ، جعل اسمه الشريف ﷺ اسماً للسورة؛ للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان ما يجب أن يكون عليه المؤمنون بسيدنا محمد ﷺ. ويتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام، أولاً: المقدمة التي فيها عرض موقف الكافرين والمؤمنين وبيان جزائهم، ثانياً: عرض لما يجب أن يكون عليه المؤمنون بسيدنا محمد ﷺ، وعرض لموقف الكافرين والمنافقين وجزاء الجميع يوم القيامة، ثالثاً: خاتمة مؤكدة لما سبق^(١).

(١) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١-٣، وعرض ما يجب أن يكون عليه المؤمنون، وعرض موقف الكافرين والمنافقين: ٤-٣٢، والخاتمة: ٣٣-٣٨. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة بالمؤمنين، (أ) فهي أكثر سورة تكررت فيها كلمة «أعمال» التي هي أساس التصنيف والجزاء، وقد اختص منها فيما يتعلق بالمؤمنين قوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْطُلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾: ٣٣، و﴿وَلَنْ يَزُكَرَ أَعْمَلُكُمْ﴾: ٣٥، و﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ﴾: ٣٠، و﴿لَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَكُمْ﴾: ٤، وكلها لم تنكرر في القرآن بالصيغ ذاتها، (ب) هي السورة الوحيدة التي ذكر فيها «البال» منسوباً للمؤمنين: ﴿وَأَصْلَحَ بِأَعْمَالِهِمْ﴾: ٢، و﴿سَيُجِيبُهُمْ وَيُضِلُّهُمُ بِالْمَلِكِ﴾: ٥، (ج) هي الوحيدة التي اختصت بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾: ١١، فلم يتكرر بالصيغة ذاتها، وكذلك قوله ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾: ٣، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بالكافرين، (أ) فقد ذكرت فيها كلمة «أعمال» المنسوبة لهم خمس مرات: ﴿أَصْلَحَ أَعْمَالَهُمْ﴾: ١، ٨، و﴿فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾: ٩، ٢٨، و﴿وَسَيُخْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾: ٣٢، (ب) وهي أكثر سورة ذكرت فيها مشتقات الجذر «حبط» المضاف لأعمالهم: ٩، ٢٨، ٣٢، (ج) هي الوحيدة التي اختصت بقوله تعالى عنهم: ﴿فَقَتَحْنَا لَهُمْ﴾: ٨، وقوله ﴿وَأَنَّ الْكٰفِرِينَ لَا مَوْلٰى لَهُمْ﴾: ١١، ووصفهم بأنهم ﴿اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾: ٣، وبأنهم ﴿اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ﴾: ٢٨، ثالثاً: ومنها أمور متعلقة بالمنافقين، (أ) فقولته تعالى عنهم ﴿أَمْرٌ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾: ٢٤، ذكر هنا فقط، وكذلك قوله: ﴿فَأَسْمَعُ وَأَنْتُمْ أَبْصَرْتُمْ﴾: ٢٣، إذ لم يتكرر بالصيغة ذاتها، ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس. وقد ذكر سيد قطب لطيفة أخرى، وهي أن فواصل آي هذه السورة المنتهية بالميم جاءت وكأنها قذائف ثقيلة لإضفاء جو المعركة المستمرة بين المؤمنين والكافرين، في ظلال القرآن، ج ٦، ٣٢٨٠، وقد ذكر الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا أن بيان هذه السورة أن أنهار الجنة خالية من الكدر والشوائب متناسب مع إخلاص المؤمنين في نصرته دينهم، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٢٥٢.

أولاً: جاء في مقدمة السورة عرض موجز لموقف الكافرين والمؤمنين بسيّدنا محمد ﷺ مع بيان جزاء الفريقين: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ ①﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ② ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَتَّبِعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَّبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ③﴾ ، فلاحظ بيان ضلال أعمال الكافرين وضياح الأجر عليهم، في مقابل قبول أعمال المؤمنين، وغفران ذنوبهم، وإصلاح بالهم، وذلك ناشئ عن العدل الإلهي، فالكافرون اتبعوا الباطل، والذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم المنزل على النبي ﷺ. فمقدمة السورة تعطي موجزاً عن محور السورة.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى بيان ما يجب أن يكون عليه المؤمنون بالنبي ﷺ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَخْتَضَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ④﴾ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ⑤ سَيَجْعَلُ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا لِيُخْرِجَهُمْ مِنَ الْظُلُمِ ⑥ وَيُدْخِلَهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ⑦ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَضَرُوا اللَّهَ يَضُرَّكُمْ وَيَبْتَئْتِ أَقْدَامُكُمْ ⑧﴾ ، فأهم واجبات المؤمنين نصرة الحق الذي جاء به نبيهم ﷺ ومحاربة أعدائه، وقد بين السياق موقف الكافرين ومصيرهم لنهوين شأنهم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ ⑨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ اللَّهُ فَاحْطَبُوا أَعْمَالَهُمْ ⑩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ⑪﴾ ذَلِكَ يَأْنِ اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ⑫﴾ .

ولكي يكتمل ترغيب المؤمنين بالقيام بواجبهم، وترهيب الكافرين لعلهم يغيرون موقفهم، عرض السياق مصير الفريقين يوم القيامة: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ ⑬﴾ .

ثم انتقل السياق إلى الحديث عن فريق آخر من الكافرين، وهم المنافقون، إذ عرضت السورة موقفهم وبيّنت مصيرهم لتحذير المؤمنين منهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا ⑭﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ⑮﴾ وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ⑯﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ⑰﴾ .

وقد بين السياق أنهم يرتعشون فرقا إذا أنزلت سورة من القرآن تتحدث عن القتال في سبيل الله، فهم يكرهون القتال خشية الموت حتى استحقوا لعنة الله، وأن يعمي أبصارهم فلا يتدبرون القرآن ولا يلتزمون بما جاء فيه من الأحكام، ولاحظ أن عرض موقفهم هذا يقابل أمر المؤمنين بقتال الكافرين في بداية السورة.

وقد بينت السورة مصيرهم أيضاً: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ (٣١) فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبرتهم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْطَبُوا أَعْمَلَهُمْ﴾ (٣٢).

وقد بين السياق أن من سنة الله تمحيص الناس ليمتاز المؤمنون بالنبى ﷺ من الكافرين والمنافقين: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّالِّينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنَ يُصْرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ﴾، فسياق السورة كما ترى يعرض ما يجب أن يكون عليه المؤمنون بسيدنا محمد ﷺ من المواقف والأحكام، ويبين موقف المنافقين المتهربين من ذلك، ويبين أنهم بتهربهم وكرهم للحق الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ أصبحوا هم والكافرون المكذبون سواء.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت توجيه المؤمنين لما يجب أن يكونوا عليه لينالوا الأجر من الله، مع بيان موقف الكافرين ومصيرهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٤) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٥) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتَرَكَ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٦).

وكما افتتحت السورة بذكر موقف الكافرين بما جاء به النبى ﷺ وجزائهم للتحذير منهم، ختمت بتحذير المؤمنين به ﷺ من البخل في الدفاع عن سبيل الله، مع التحذير من التولي عنه ﷺ ببيان أن هذا أمر مستحق للعقوبة من الله: ﴿هَٰذَا نَتَرُ هَٰؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنُفِيقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ (٣٧). وبذلك التقى البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسمها أشرف الدلالة.

سورة محمد

سورة بيان ما يجب أن يكون عليه المؤمنون بسيدنا محمد ﷺ

الموضوع الأول (الآيات : ١-٣)

مقدمة تعرض بإيجاز موقف الكافرين والمؤمنين بسيدنا محمد ﷺ وتبين جزاء الفريقين :

■ افتتحت السورة ببيان موقف الكافرين بسيدنا محمد ﷺ للتحذير منه : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ۖ﴾ .

■ ثم عرضت موقف المؤمنين به ﷺ للترغيب فيه : ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۖ﴾ .

■ وبيّنت أن معيار الإيمان هو الاتباع، فالكافرون اتبعوا الباطل والذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم .

الموضوع الثاني (الآيات : ٤-٣٢)

عرض مفصل لما يجب أن يكون عليه المؤمنون بسيدنا محمد ﷺ، ثم عرض مفصل لموقف الكافرين والمنافقين، مع بيان جزاء الجميع يوم القيامة :

■ بين السياق أن أهم ما يجب على المؤمنين نصرة الحق الذي جاءهم من الله ومحاربة أعدائه : ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَرْبَّ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَرُّوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاكُ فَإِمَّا مَأْ بُعْدُ وَإِمَّا قِدَاءُ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوَّارَهَا ۚ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَنتَصَرَّ مِنْهُمْ وَلَٰكِنْ لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُبْدِلَ أَعْمَالَهُمْ ۖ﴾ .

■ ثم بين السياق موقف الكافرين مهوناً من شأنهم : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَا لَهُمْ وَأَصْلَحْ أَعْمَالَهُمْ ۖ﴾ . ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ ۖ﴾ .

■ وبين السياق موقف المنافقين ومصيرهم ليحذر المؤمنون منهم : ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ﴾ .

الموضوع الثالث (الآيات: ٣٣-٣٨)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

- أعادت بيان ما يجب أن يكون عليه المؤمنون بسيدنا محمد ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٣).
- وأعادت بيان مصير الكافرين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (٣٤).
- وكما افتتحت السورة ببيان موقف الكافرين وجزائهم ليحذر المؤمنون منه، ختمت بتحذيرهم من البخل في الدفاع عن سبيل الله ومحاربة الكافرين، حتى لا يتعرضوا للعقوبة من الله: ﴿مَّا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ (٣٥).

سورة الفتح

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾

الدلالات اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الفاء والتاء والحاء: أصل صحيح يدل على خلاف الإغلاق، . . . والفتح: النصر والإظفار»^(١). فخلاصة المعنى اللغوي لاسم السورة يدور حول النصر والظفر، أما فيما يتعلق بالدلالة السياقية لاسم السورة، فالذي ترجح لي أن «الفتح» كناية عن صلح الحديبية، ولذلك لعدة اعتبارات أولها: ما ذكره الأستاذ الدكتور عودة أبو عودة من أن دلالة «الفتح» في القرآن هي انتشار الإسلام ودخول الناس أفواجا في دين الله، فهو بذلك يكون ملازماً للنصر، أما دلالة «النصر» في القرآن فهي الغلبة على الأعداء بعد القتال الفعلي، وقد دخل كثير من الناس في الدين بعد صلح الحديبية، ولذلك سُمِّيَ فتحاً^(٢)، وثانيها: ما رواه البخاري عن سؤال عمر بن الخطاب للنبي ﷺ حينما نزلت هذه السورة إثر الصلح، وقد كان راجعه أكثر من مرة في بنوده، فقال: يا رسول الله، أَوْفَتْحُ هو؟ قال: «نعم»^(٣)، وثالثها: إن القول بأن «الفتح» هو فتح مكة يُبعده قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿١١﴾﴾ لأنه يحوي بشارة في هذه

(١) ينظر: ابن فارس، المقاييس، ص ٨٣٤، بتصرف.

(٢) ينظر: أ. د. أبو عودة، شواهد في الإعجاز القرآني، ص ٢٨٧.

(٣) البخاري، صحيح البخاري، باب إثم من عاهد ثم غدر، رقم ٢٩٤٥.

السورة لذلك الفتح، فدلالة اسم السورة لا تدلّ عليه بل تبشّر به، ورابعها: المتأمل في سياق السورة يجد معظمه حول أحداث ذلك الصلح.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين محور السورة وموضوعاتها واسمها، فذكروا أن محور السورة يدور حول التعريف بصلح الحديبية من حيث بيان صفات المؤمنين فيه، والتي أهمّها استواء الحالة النفسية والإيمانية لديهم على المنهج الرباني، مع إدراك ونضج عميقين، والإيحاء بتكريم المبايعين تحت الشجرة، وتعظيم شأن تلك البيعة التي كانت أحد أحداث ذلك الصلح، ومن حيث تصوير نتائجه التي أهمّها بيان حال المؤمنين وما حولهم إبان هذا الصلح، فقد كان فتحاً في الدعوة، وفتحاً في الأرض، إذ تمّ التخلّص من يهود خيبر بعده بقليل، وفتحاً لموقف المسلمين الذي ازداد قوّة في جزيرة العرب^(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان أن الثبات على صدق الإيمان والثقة بالله وبرسوله ﷺ يورث رضى الله وتهيئة النصر، ولما كان صلح الحديبية هو أدلّ ما في السورة على ثبات المؤمنين وصدق إيمانهم وثقتهم بالله وبرسوله ﷺ، سمّيت السورة باسم «الفتح» الذي يدل على هذا الصلح. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان خيرات الإيمان والثقة بالله وبرسوله ﷺ.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين الدلالات اللفظية والسياقية لاسم السورة، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام، أولاً: مقدّمة تحوي امتناناً من الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين، إذ ثبتهم على الإيمان في حادثة الصلح، وثانياً: بيان موقف المخلفين عن الصلح وحرمانهم من خيراته، وثالثاً: بيان بعض خيرات هذا الصلح

(١) ينظر: الفيروزابادي، البيان بمقاصد القرآن، ص ١٠٠، والمهايمي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٢٨١، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٧، ص ١٨٣، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٣٠٦ - ٣٣١٧، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٧، ص ٢٨٢ - ٢٨٤، ووادي، د. د. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ٣٨٣ - ٣٨٥، ومها، من دلالات أسماء السور، ص ٢٥٣ - ٢٥٧.

على المؤمنين، ورابعاً: خاتمة مؤكدة لما سبق^(١).

أولاً: جاء في مقدمة السورة امتنان من الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين الذين ثبتوا معه في ذلك الصلح، فأنزل الله السكينة عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا

(١) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١-١٠، وبيان موقف المختلفين: ١١-١٧، وبيان خيرات الصلح على المؤمنين: ١٨-٢٦، والخاتمة: ٢٧-٢٩. ومن لطائف هذه السورة: أولاً: أنها امتازت بالعبارة التالية ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية: ١٨، وهي السورة الوحيدة التي أكد فيها الرضا بحرف التحقيق: «قد»، وهي السورة الوحيدة مع سورة الحشر جاء فيهما العبارة التالية ﴿يَتَغَفَّلُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ الفتح: ٢٩، والحشر: ٨، بينما في سورة المائدة ﴿يَتَغَفَّلُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ الآية: ٢، ولا شك أن إظهار الاسم الجليل أكثر تأكيداً، وثانياً: هي السورة الوحيدة في القرآن جاء فيها الفعل المضارع المضاف للنبي ﷺ «ينصرك» الآية: ٣، وثالثاً: هذه العبارة ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ لم ترد إلا في ثلاث سور: التوبة، الفتح، الصف، أما التوبة فقد ختمت الآية بقوله ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ التوبة: ٣٣، الصف: ٩، لكن في الفتح كان الختام بقوله ﴿وَكُنْ لِلَّهِ شَهِيدًا﴾ الآية: ٢٨، ورابعاً: هي أكثر سورة في القرآن نسبت فيها السكينة إلى الله تعالى: ٤، ١٨، ٢٦، تلتها سورة التوبة لكن بمرتين فقط: ٢٦، ٤٠، وخامساً: لم يتكرر نسبة الجنود إلى الله تعالى إلا في سورتي الفتح والتوبة: الفتح: ٤، ٧، والتوبة: ٢٦، ٤٠، وهذا يؤكد المحور المذكور لسورة الفتح، وسادساً: أنها مع سورة الأحزاب تعطيان صورة متكاملة، فمحور سورة الأحزاب: تربية المؤمنين على الثقة والإيمان بالله وبرسوله حتى في أحلك الظروف، ومحور سورة الفتح: بيان نتائج الثبات على الإيمان الصادق والثقة بالله تعالى وبرسوله ﷺ، وإليك بعض أوجه التناسب بين السورتين: (أ) انظر في سورة الأحزاب قوله تعالى في الآية ١٧ ﴿وَلَا يَجِدُونَ لِمَنْ دُوبِ اللَّهُ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، وانظر فيها الآية ٦٥ ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، وانظر الآية: ٢٢ من سورة الفتح ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، (ب) ذكرت كلمة «مغفرة» مرة واحدة في كل منهما، الأحزاب: ٣٥، والفتح: ٢٩، وقد تكررت العبارة ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ في سورة الأحزاب خمس مرات: ٥، ٢٤، ٥٠، ٥٩، ٧٣، وذكرت نفس العبارة في سورة الفتح مرة واحدة: ١٤، (ج) عبارة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ذكرت مرتين في كل سورة: الأحزاب: ٢٩، ٣٥، والفتح: ١٠، ٢٩، (د) ذكرت كلمة «جنود» مرتين في كل منهما، الأحزاب: ٩ ﴿إِذْ جَاءَ نَكْمٌ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا﴾، وفي الفتح: ٤، ٧ ﴿وَاللَّهُ جُنُودٌ أَلْسَنُونَ وَالْأَرْضُ﴾، (هـ) ذكر اسم سيدنا «محمد» ﷺ مرة واحدة في كل منهما، الأحزاب: ٤٠، والفتح: ٢٩، (و) لم تذكر هذه العبارة ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ إلا في هاتين السورتين: الأحزاب: ٤٥، والفتح: ٨، وقريب منها في سورة المزمل: ١٥، (ز) انظر في سورة الأحزاب الآية ١ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ عَلَيْهِ حَكِيمًا﴾، والآية ٤٠ ﴿وَكَانَ اللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَظِيمًا﴾، والآية: ٥٤ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ كَانَتْ يَكُلُّ شَيْءٍ عَظِيمًا﴾، وانظر في سورة الفتح الآية ٤ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَظِيمًا حَكِيمًا﴾، والآية: ٢٦ ﴿وَكَانَ اللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَظِيمًا﴾، (ح) ذكر اسم الله «العزیز» في سورة الأحزاب مرة واحدة: ٢٥ ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾، بينما في سورة الفتح ذكر مرتين: ٧، ١٩ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، (ط) ولا يخفى اشتراك السورتين بكون الفاصلة في الآيات بالألف. ينظر: عبد الباقي، المعجم المفهرس، وإذا تأملت المواقع السابقة في سياق السورتين سيظهر لك أنها جاءت على نحو يناسب المحور المذكور ودلالات اسم كل سورة منهما.

تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَبَيْنَهُ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَبِهِدْيِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ، ولاحظ وصف الصلح بأنه فتح مبين، فقد كان أحد أسباب النصر على المشركين في مكة، وأن ثبات المؤمنين الصادق مع نبيهم حينها قد أورثهم إنزال السكينة من الله تعالى وزيادة الإيمان في القلوب، ولاحظ ذكر جنود السماوات والأرض التي تملأ قلب المؤمن استبشاراً بالنصر القريب. فهذه الآية تعبر عن المحور المذكور للسورة بأبلغ صورة.

ولم يقتصر الامتنان الإلهي على المؤمنين في حال الدنيا فقط، بل امتدَّ الامتنان إلى الآخرة أيضاً: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾ .

وبيّنت المقدمة أيضاً الصورة المقابلة للمؤمنين الصادقين من الناس، وهم المنافقون والكافرون: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَلَمَ أَلْسُوهُ عَلَيْهِمْ دَآيِرَةُ أَلْسُوهُ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾ ، ولاحظ إعادة ذكر جنود السماوات والأرض، ولاحظ ذكر الاسم الجليل «عليماً» عند الحديث عن المؤمنين، لأن الله علم صدق قلوبهم فأنزل السكينة عليهم، أما الكافرون والمنافقون الذين يحادون الله ورسوله ﷺ فيناسبهم الاسم الجليل «عزيراً».

وقد امتدحت المقدمة رسول الله ﷺ وبيّنت الموقف السليم الذي يجب أن يكون عليه المؤمنون تجاهه ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَزَّوْهُ وَتُقِرُّوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٨﴾﴾ ، وقد كان من تعزيز المؤمنين لنبيهم وتوقيرهم له ﷺ أنهم ثبتوا معه حين عقد الصلح ولم يستمروا في جداله فيه بسبب بعض البنود المجحفة للمؤمنين فيه.

ثم عاد السياق ليؤكد أن صدق الثبات مع النبي ﷺ والثقة به يورث الأجر العظيم

من الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسْئُورٌ بِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ١٠١.

فأنت ترى أن التركيز في هذه المقدمة حول الأثر الإيجابي لصدق إيمان المؤمنين وثقتهم بالله وبرسوله ﷺ في صلح الحديبية، الذي سمّاه الله فتحاً وجعله اسماً للسورة.

ثانياً: وبعد بيان موقف المؤمنين الصادقين في إيمانهم وثقتهم بالله وبرسوله ﷺ، انتقل السياق إلى بيان موقف المخلفين من الأعراب، الذين منعهم عدم ثقتهم وإيمانهم بالله وبرسوله ﷺ من الخروج معه ﷺ إلى أداء العمرة، ومن تحصيل ما ترتب على صلح الحديبية من رضا الله وتهيئة نصره: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ١٠٢. بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبدًا وزيّنت ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ١٠٣. ومن لئلا يؤمن بالله ورسوله، فإننا اعتدنا للكافرين سعيّاً ١٠٤، وبين السياق أنهم جنّاء إذا علموا قتالاً، ومبادرون إذا علموا وجود غنائم، يريدون أن يبدّلوا كلام الله الذي حكم بأن لا يخرج لقتال يهود خيبر وأخذ غنائمهم إلا من خرج مع النبي ﷺ وكان معه في الصلح.

ولكن السياق أعطاهم فرصة أخرى ليشوبوا إلى رشدهم وإيمانهم: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرٌ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَنَوَّلُوا كَمَا تُولِيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ١٠٥، ولاحظ أن السياق رتب على الطاعة - الدالة على صدق الإيمان والثقة - الأجر الحسن من الله، والعذاب الأليم لمن تولى منهم، وبين السياق أيضاً أن الحكم على المخلفين لا ينسحب على أصحاب الأعذار كالأعمى والأعرج والمريض.

إذاً فالحديث عن موقف المخلفين أكمل الصورة في بيان فضائل الثبات على صدق الإيمان والثقة بالله وبرسوله ﷺ، فمن كان صادق الإيمان فله الرضى والنصر من الله، ومن تولى وجبن بلا عذر فله الحرمان من النصر والغنائم، وفوق ذلك العذاب في الآخرة.

ثالثاً: ثم عاد السياق لبيان خيرات هذا الصلح الذي أبرز صدق المؤمنين في إيمانهم وثقتهم بالله وبرسوله ﷺ: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨﴾ وَمَغَانِدَ كَثِيرَةٍ يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِدَ كَثِيرَةٍ تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَنَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢٠ وَأُخْرَى لَمْ نَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝٢١﴾، ولاحظ أن أول فضيلة للصلح كانت نيل الرضى من الله تعالى، ثم إنزال السكينة عليهم، ثم تهيئة أسباب النصر، وأعتقد أن كلمة «الفتح» التي تكررت في هذه السورة ثلاث مرات، كلها تعود إلى صلح الحديبية، ومن أسباب النصر التي هيأها الله فتح خيبر الذي غنم منه المسلمون غنائم عظيمة، أما الأخرى التي لم يقدر عليها المسلمون وقد أحاط الله بها فهي فتح مكة، وفي ذلك بشارة عظيمة أخرى للمؤمنين الصادقين في إيمانهم وثقتهم بالله وبرسوله ﷺ.

وقد بين السياق هوان الكفار وجبنهم، فهم لو قاتلوا المؤمنين لولوا الأدبار، ومن خيرات هذا الصلح أيضاً أن الله قد كفى المؤمنين القتال بعد أن أظفرهم بطليعة من أربعين رجلاً من الكفار^(١)، ومن خيرات هذا الصلح أيضاً أنه لما منع المؤمنون من الهجوم على مكة، كان في ذلك حماية لمن كان قد آمن فيها ولم يُمَيِّز من الكافرين، فقد كان احتمال قتل أناس بالخطأ من هؤلاء المؤمنين وارداً. فهذه هي الخيرات العظيمة التي أكرم الله بها المؤمنين الصادقين يوم صلح الحديبية، بالإضافة إلى نيل رضاه.

رابعاً: وجاء في الخاتمة تأكيد لكل ما سبق، فأعادت ذكر فضائل هذا الصلح: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَعَجَلْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحًا قَرِيبًا ۝٢٢﴾، وكما افتتحت السورة ببيان فضل الله تعالى على النبي ﷺ وعلى المؤمنين الصادقين في إيمانهم وثقتهم، وكيفية تهيئة أسباب النصر لهم، اختتمت السورة بالمقصد ذاته: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ

(١) ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ص ٥٥٠.

بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْإِسْلَامِ يُظْهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٨﴾ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٩﴾

وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي يبين أن صدق الإيمان والثقة بالله تعالى وبرسوله ﷺ يورث الرضى من الله وتهيئة أسباب النصر، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة بدلالاته اللفظية والسياقية أجمل دلالة وأبلغها بشارة للمؤمنين.



سورة الفتح

سورة بيان خيرات صدق الإيمان والثقة بالله وبرسوله ﷺ

الموضوع الثاني: (الآيات: ١١-١٧)

بيان موقف المخلفين عن الصلح وحرمانهم من خيراته:

■ ثم عرض السياق موقف المخلفين الذين حرموا أنفسهم من خيرات الإيمان: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

■ وقد بين السياق أنهم جناء إذا علموا قتالاً، ومبادرون إذا علموا وجود غنائم، يريدون أن يبدلوا كلام الله الذي حكم أن لا يخرج لقتال خبير إلا من شهد الصلح، وبذلك يكونون قد حرموا أنفسهم من غنائم خبير.

■ وقد أعطاهم السياق فرصة ليعودوا إلى الإيمان، وبين أنهم إذا أطاعوا الله سيؤتيهم أجراً حسناً، وإن تولوا كما تولوا من قبل سيُعَذِّبهم عذاباً أليماً.

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٠)

المقدمة التي تحوي امتناناً من الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين، إذ ثبتهم على الإيمان:

■ افتتحت السورة بتسمية صلح الحديبية فتحاً: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾.

■ وبينت امتنان الله على المؤمنين إذ ثبت قلوبهم على الإيمان في ذلك الظرف العصيب: ﴿مُوَ الَّذِي أَرْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُثُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

■ وقد امتد الامتنان الإلهي على المؤمنين إلى الآخرة أيضاً: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

■ وبينت غضب الله على المنافقين والمشركين الذين حرموا أنفسهم من خيرات الإيمان: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

■ وامتدحت المقدمة رسول الله ﷺ وأكدت أن صدق الثبات معه يورث الأجر العظيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَنْ أَوْفَى سَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٨-٢٦)

عودة إلى بيان بعض خيرات هذا الصلح على المؤمنين:

■ بين السياق رضا الله عن المؤمنين الذين بايعوا النبي ﷺ وصدقوا وثبتوا معه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝﴾.

■ وبينت بعض خيرات ثباتهم وصدقهم: ﴿وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَعَانِدَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝﴾ ، وهي غنائم فتح خيبر.

■ وبشرهم بفتح مكة قريباً: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝﴾.

■ وقد بين السياق أن الله كفى المؤمنين القتال، بعد أن أظفرهم الله بطليعة من الكفار.

■ ومن خيرات هذا الصلح أن الله حمى المؤمنين في مكة من أن يصيبهم إخوانهم المسلمون بسوء خطأ لعدم إمكانية تمييزهم عن الكافرين: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ الْمُؤْمِنِينَ وَالسَّاءَةُ الْمُؤْمِنَةُ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطْفُوهُمْ فَتُضَيِّبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَرَى الَّذِينَ لَعَنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٢٧-٢٩)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت ذكر فضائل لصلح الحديبية: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْأَحْرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ ت مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝﴾.

■ وكما افتتحت السورة ببيان فضل الله على النبي ﷺ وعلى المؤمنين الصادقين، ختمت بالمقصود ذاته: ﴿ثُمَّ حَمَّدَ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَكَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝﴾.

سورة الحجرات

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَانْقُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾
يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ
بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ
أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ
أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

يدل اسم السورة على حادثة قدوم وفد بني تميم في العام التاسع من الهجرة، الذي سُمي عام الوفود، فقام جماعة منهم بمناداة الرسول ﷺ من وراء حجراته بصوت عالٍ وباسمه الصريح، فاسم السورة «الحجرات» يحذر من هذا الفعل الذي فيه إساءة أدب مع النبي ﷺ^(١).

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً من الربط بين اسم السورة ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن مقصود هذه السورة الإرشاد إلى مكارم الأخلاق إن كان في حق النبي ﷺ أو في حق أمته، فهي تشمل مناهج التكوين والتنظيم وقواعد التربية والتهديب، ومبادئ التشريع والتوجيه لهذا المجتمع الإيماني، فالسورة تكاد تستقل برسم معالم هذا المجتمع الرفيع الكريم النظيف السليم، وكل ذلك مبني على الأدب، ولذلك حوت هذه السورة آداباً عدة متعلقة بشخص النبي ﷺ، وبالمجتمع المؤمن، وقد كان اسمها

(١) ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ص ٦٨٦، والطبراني، المعجم الكبير، حديث رقم: ٤٩٨٠، والبيهقي، شعب الإيمان، حديث رقم: ١٤٨٨.

«الحجرات» بما دلّ عليه واضح الدلالة على تلك التربية الأخلاقية في السلوك الظاهر، والرقابة الداخلية في الباطن^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: تربية المؤمنين على الرقابة الداخلية في نفوسهم من الله عزّ وجلّ، لينعكس ذلك في السلوك الظاهر من خلال تحليّهم بمكارم الأخلاق مع الله ومع رسوله ﷺ ومع أنفسهم، وتخليّهم عن سيئها، مع بيان أن الالتزام بذلك أحد علامات الإيمان الصادق، ولما كانت مناداة بني تميم النبيّ ﷺ من وراء حجراته أدلّ ما في السورة على إساءة الأدب معه ﷺ، سُميت السورة بالحجرات للتحذير من ذاك السلوك الخاطئ الدال على انعدام الرقابة الداخلية الداعية إلى حسن الخلق. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة تربية المؤمنين على الأخلاق الخاصة والعامة.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور للسورة وبين دلالة اسمها، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: أولها: مقدّمة مبيّنة لبعض الأخلاق الخاصة الواجبة على المؤمنين تجاه رسول الله ﷺ، وثانيها: توجيهات تربوية أخلاقية عامة للمجتمع الإسلامي، وثالثها: خاتمة مؤكّدة لما سبق^(٢).

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٢٨٧، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٧، ص ٢٢٠، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٣٣٤-٣٣٣٧، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٦، ص ٣١٤، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٧، ص ٣٣٣-٣٣٦، ومحمد محمود الصواف، نظرات في سورة الحجرات، ص ٨-١٨، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور، ص ٢٥٨-٢٦٢.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٥، والتوجيهات التربوية الأخلاقية للمجتمع الإسلامي: ٦-١٣، والخاتمة: ١٤-١٨. ومن لطائف هذه السورة: أولاً: تكررت فيها لفظة «الرسول» العائدة على سيدنا محمد ﷺ خمس مرات: ١، ٣، ٧، ١٤، ١٥، وثانياً: تكرر النداء المحبب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فيها خمس مرات، وقد كان اثنان منها يختصان بحقوق سيدنا رسول الله ﷺ: ١، ٢، وثلاثة تختص بالمجتمع الإسلامي: ٦، ١١، ١٢، وثالثاً: ذكرت فيها مشتقات التقوى خمس مرات أيضاً: ١، ١٠، ١٢، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾، ٣، ﴿لِلتَّقَى﴾، ١٣، ﴿أَفَنَنْكُرُكُمْ﴾، ورابعاً: ذكرت فيها مشتقات الجذر «علم» العائدة على الله تعالى ست مرات: ١، ٨، ١٣، ١٦، (عليهم)، ١٦، ١٨ (يعلم)، وخامساً: ذكر فيها الاسم الجليل «رحيم» ثلاث مرات: ٥، ١٢، ١٤، وذكرت فيها =

أولاً: افتتحت السورة بذكر بعض الأخلاق الخاصة المتعلقة بحقه ﷺ، والتي يجب على المؤمنين امتثالها، وإلا حبطت أعمالهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَانفَعُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾، فقد نهت السورة المؤمنين عن إبرام أمر من الأمور قبل نزول وحي الله على رسوله ﷺ، وقد قدمت السورة ذكر هذا الأمر كونه أكثر التصرفات الخاطئة جرأة على رسول الله ﷺ، ولاحظ أن المقدمة بينت أن التحلي بالأخلاق الحميدة في التعامل مع النبي ﷺ هو من مظاهر تقوى الله عز وجل، وفي ذلك تربية على الرقابة الداخلية خوفاً من الله عز وجل.

ثم انتقلت المقدمة إلى ذكر حادثة بني تميم، وفيها مخالفة للأخلاق المذكورة آنفاً، فقد نادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته بصوت جَهْوَريٍّ، وباسمه الصريح: ﴿إِنَّ إِلَيْنَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝١﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٢﴾، ولما كانت هذه الحادثة أدل ما في السورة على إساءة الأدب معه ﷺ، وعلى انعدام مراقبة الله تعالى داخل النفوس، سُميت السورة باسم الحجرات ليكون في ذلك تحذير للمؤمنين من الوقوع بمثل هذا الفعل.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى ذكر عدد من الأخلاق التربوية العامة في حق المجتمع

== «القلوب» ثلاث مرات أيضاً: ٧، ٣ (عن المؤمنين)، ١٤ (عن الأعراب). وسادساً: ذكرت فيها مشتقات الجذر «صدق» مرتين بصورة تقابلية، فقال عن المؤمنين ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ﴾: ١٥، وقال عن الأعراب ﴿إِنْ كُنتُمْ صٰدِقِينَ﴾: ١٧، وسابعاً: امتازت هذه السورة بذكر عدد من الأخلاق لم تذكر في مواضع أخرى في القرآن: ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِيْنَ ءٰمَنُوْا لَا تَقِيْدُوْا بِيْنَ يَدَيِّ اللّٰهِ وَرُسُلِهٖۤ﴾، ﴿لَا تَرْفَعُوْا اَصْوٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوْا لَهٗ بِالْقَوْلِ﴾، ﴿يُعْضِرُوْنَ اَصْوٰتَهُمْ﴾، ﴿لَا يَسْخَرُوْنَ فَرِحَ مِنْ قَوْمٍ﴾، ﴿وَلَا لَّيْمِزُوْا اَنْفُسَكُمْ﴾، ﴿وَلَا تَنَابَرُوْا بِالْاَلْقَبِ﴾، ﴿اجْتَنِبُوا كِبٰرَ مِّنْ ظُلُمٍۭ﴾، علماء بأن فعل الأمر «اجتنبوا» ذكر في مواضع أخرى في القرآن متعلقاً بأمور أخرى غير الظن، ﴿وَلَا تَجَسَّسُوْا وَلَا يَغْبِ بَغْۢبُكُمْ بَعْضُۙ﴾، ولم يذكر التنايز والتجسس والغيبة إلا في هذه السورة، ﴿لِتَعَارَفُوْا﴾، «ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا». أما فعل الأمر بصيغة الجمع «أصليحو» فلم يذكر في القرآن إلا في سورتي الأنفال: الآية ١ مرة واحدة، والحجرات في الآية ٩ مرتين ﴿فَاصْلِحُوْا بَيْنَهُمَا﴾، والآية ١٠ مرة واحدة ﴿فَاصْلِحُوْا بَيْنَ اٰمَوِيْكُمُ﴾. والفرق بين الرقيمين ٩ و ١٠: ١. وبإمكانك أن تضيف هذا الخلق السيئ من الأعراب لم يتكرر في القرآن ﴿يَسْتَوْنَ عَلَيْكَ اَنْ اَسْلَمُوْا قُلْ لَا تَمْنُوْا عَلٰى اِسْمٰلِكُمْ﴾. وينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

المسلم، وقد كان أولها ذكراً ما يتعلق بموضوع القتال لخطورته، فقد حذرت من أن تكون الإشاعة سبباً في قتال أناس أبرياء بلا بينة، وأعادت ذكر فضل النبي ﷺ ليكون ذلك أدعى إلى الالتزام بالأخلاق المذكورة في السورة: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَنَنِيمَ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾﴾، ولاحظ تربية الرقابة الداخلية حين بيّن السياق أن الله حَبَّبَ للمؤمنين الإيمان وزَيَّنَهُ في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان.

ثم وضعت السورة منهجاً للإصلاح بين المتخاصمين، فأمرت أولاً بمحاولة الإصلاح بين الفئتين المتخاصمتين، فإن أَبَت إحداهما أو بغت فُوتلت من قِبَل المجتمع المسلم حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت عادت محاولة الإصلاح بينهما على أساس من العدل والقسط، وانظر هذا الأمر: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾، ولاحظ إعادة ذكر الأمر بتقوى الله، فتقوى الله مطلوبة في التعامل معه ﷺ، ومطلوبة فيما يخص المجتمع المسلم أيضاً، وهي دليل الرقابة الداخلية خوفاً من الله تعالى.

وبعد الانتهاء من موضوع القتال، انتقلت السورة إلى التحذير من أخلاق سيئة ينبغي على المجتمع المسلم أن يكون خالياً منها، فقد نهت السورة المؤمنين السخرية من بعضهم بعضاً، وعن اللمز والتنازع بالألقاب، وأمرت باجتناب الظن، ونهت عن التجسس والغيبة، ولم يقتصر التوجيه الإلهي على الرجال فقط، بل النساء مأمورات بذلك كالرجال تماماً.

وانظر هذا الأمر الذي يربي المجتمع المسلم على الرقابة الداخلية أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾، وذكر الاسمين الجليلين: العليم الخبير، وهما متناسبان مع علمه تعالى بما يكون في داخل النفوس.

فأنت تلاحظ أن السورة تربي المؤمنين على الرقابة الداخلية في نفوسهم خوفاً من الله تعالى، فيلتزموا بما أمرهم به من مكارم الأخلاق خاصتها وعامتها، وترك سيئتها، وأعظم هذه الأخلاق شأناً وأكثرها خطورة ما كان متعلقاً بالنبي ﷺ، ومن ثَمَّ سُمِّيت السورة باسم الحجرات للدلالة على ذلك.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى الخاتمة التي تحوي تأكيداً لكل ما سبق، فقد أعادت التحذير من سيئ الأخلاق مع الله ومع رسوله ﷺ، وذكرت مثلاً على ذلك ما قام به الأعراب من أخلاق سيئة تنم عن انعدام الرقابة الداخلية في نفوسهم من الله عز وجل: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلَيْهِ ﴿١٦﴾ يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾، فالأعراب يكذبون ويظهرون الإيمان، والحقيقة أنه لم يدخل في قلوبهم، ولا يكتفون بذلك بل يمتنون على النبي ﷺ إسلامهم، والحقيقة أن إسلامهم إنما هو مينة من الله تعالى عليهم، وذكر علم الله تعالى بعدم دخول الإيمان متلائم مع التربية على الرقابة الداخلية، ومع علمه بما في النفوس كما مرّ قبل قليل.

ولاحظ إعادة ذكر ما ينبغي أن يكون عليه المجتمع المؤمن من مكارم الأخلاق، وأن ذلك دليل صدقهم مع الله ورسوله ﷺ، وأن السياق بين عدم صدق الأعراب في ادعائهم أن لهم المنة على رسول الله ﷺ في إسلامهم.

وكما افتتحت السورة بتربية المؤمنين على الرقابة الداخلية في نفوسهم من الله عز وجل، وذكرت بعض مظاهر تمام علمه تعالى بما في النفوس، ختمت السورة بالمقصد ذاته: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾، وهكذا التقى البدء والختام على محور التربية على الرقابة الداخلية في النفوس من الله عز وجل، لينعكس ذلك على السلوك في الظاهر مع الله ورسوله ﷺ والمؤمنين، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ دلالة.



سورة الحجرات

سورة تربية المؤمنين على الأخلاق الخاصة بينهم وبين الرسول ﷺ،
وعلى الأخلاق العامة فيما بينهم وبين المجتمع المؤمن

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٤-١٨)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

- أعادت التذكير بما يجب أن يكون عليه المؤمنون من الصدق: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾.
- وأعادت التحذير من سوء الأخلاق مع الله ورسوله ﷺ كما كان يصنع الأعراب: ﴿يَسْتَوُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِنَّمَا كَانَ اللَّهُ بِكُمْ عَلِيمًا إِنَّ هَذَا يَوْمُ الْفَتْحِ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِمَا وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَاللَّيْمِينَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة بتربية الرقابة الداخلية في قلوب المؤمنين ليلتزموا بالأخلاق الخاصة والعامة، ختمت بتربيتهم على المقصد ذاته: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

الموضوع الثاني (الآيات: ٦-١٣)
توجيهات تربوية أخلاقية عامة للمجتمع الإسلامي:

- ثم انتقل السياق إلى الأحكام العامة فيما بين المؤمنين، فحذر من أن تكون الإشاعة سبباً في قتل أناس أبرياء بدون بيّنة.
- وأعاد السياق بيان فضل النبي ﷺ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَنَ وَزَيَّنَّ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾﴾.
- وقد وضع السياق منهجاً ربانياً للإصلاح بين الفئات المتخاصمة بين المؤمنين.
- ونهى السياق عن السخرية، واللمز والتنايز بالألقاب، وأمر باجتنب كثيراً من الظن، ونهى عن التجسس والغيبة، وهي أوامر موجهة للرجال والنساء على حد سواء.

الموضوع الأول (الآيات: ١-٥)

المقدمة التي تبين بعض الأخلاق الخاصة تجاه رسول الله ﷺ:

- افتتحت السورة بتوجيه المؤمنين لعدم إبرام أمر قبل نزول الوحي على رسول الله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾.
- وأمرتهم بعدم رفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ، وعدم الجهر له بالقول، مبيّنة أن هذا معبط للأعمال.
- وبَيَّنت أن الذين نادوا النبي ﷺ من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون، وكان الأولى بهم أن يصبروا حتى يخرج إليهم ﷺ.

سورة ق

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ إِنْ هَذَا إِلَّا مِثْنَا وَكَأَنَّا زُرَّاءُ ۝ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِیْظٌ ۝ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِیْجٍ ۝﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى أحد حروف اللغة العربية المذكور أولها وهو حرف القاف، وقد اختلف المفسرون في المعنى المقصود من هذا الحرف، فمنهم من قال إنه يشير إلى أحد أسماء الله كالقادر أو القابض أو القدوس، أو أنه يشير إلى أحد صفاته كصدق وعده أو قيوميته أو قهره لخلقه، أو أنه يشير إلى تحدي القرآن وإعجازه من حيث إنه مكون من الحروف العربية، أقول: وبالإضافة إلى كون حرف القاف يشير إلى إعجاز القرآن، وبعد تأمل موضوعات السورة، وجدت أنه يشير أيضاً إلى يوم القيامة، إذ سياق السورة كله حول هذا الموضوع، وسأذكر بيان ذلك إن شاء الله.

أقوال بعض المفسرين والكاينين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاينين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة هو إثبات براهين قدرة الله تعالى على البعث، وهي العلم والقدرة والحكمة، فالسورة تبين رقابة الله للنفس البشرية من المولد إلى الممات إلى البعث إلى الحشر ثم الحساب، كما وإن السورة تهدف إلى تصديق النبي ﷺ في رسالته التي معظمها الإنذار باليوم الآخر، وثبت لها الشرف والرفعة. فإن كان حرف القاف يشير إلى أحد أسماء الله أو أحد صفاته فالعلاقة بينه وبين ما ذكر واضحة، وإن كان يشير إلى إعجاز القرآن فهو يدل على أن من جعل القرآن معجزاً قادر على تحقيق ما جاء فيه من البعث^(١).

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٢٩١، وذكر أن حرف القاف يشير إلى بعض أسماء الله، =

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: إثبات حقيقة البعث ليوم القيامة من خلال ذكر بعض البراهين العقلية على القدرة الإلهية المطلقة، وذكر بعض مظاهر علم الله الحفيظ فيما يتعلق بالإنسان في الدنيا والآخرة، ولما كان حرف القاف يشير إلى القَسَم بالقيامة، جُعل اسماً للسورة للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة عرض البراهين العقلية وبعض مظاهر علم الله الحفيظ التي تثبت قدرته تعالى على البعث ليوم القيامة.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين محور السورة ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة موضوعات، أولها: مقدّمة تثبت حقيقة البعث ليوم القيامة بالبراهين العقلية، وثانيها: إثبات حقيقة يوم القيامة من خلال بيان بعض مظاهر علم الله الحفيظ فيما يختص بالإنسان في الدنيا والآخرة، وثالثها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق^(١).

= والباقعي، نظم الدرر، ج ٧، ص ٢٤٣، ٢٤٤، وذكر أن حرف القاف يشير إلى بعض صفات الله، وأنه بما له من صفات الجهر والاستعلاء يشير إلى رفعة الرسالة وشرفها، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٣٥٦، ٣٣٥٧، وذكر أن حرف القاف مقصود منه الإعجاز، وهو أول حرف في كلمة «قرآن»، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٦، ص ٢٧٥، وذكر أن حرف القاف مقصود منه الإعجاز، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٧، ص ٣٩١-٣٩٣، ورأيهم ك رأي ابن عاشور. وقد ذكر د. أحمد نوفل أن السور التي يكون حرف القاف من حروف فواتحها تفضل في موضوع يوم القيامة. ينظر: تفسير سورة يوسف، ص ٢٢٤، وتفسير سورة القصص، ص ١٥. والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٤٠٧، ولم يذكر شيئاً عن حرف القاف، وعطية زاهدة، فواتح السور والحروف السبعة، ص ٤٩-٥١، واعتبر ﴿ق﴾ مشيراً إلى القيامة أو القارة، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(١) مقدّمة السورة شملت الآيات: ١-١١، وإثبات يوم القيامة ببيان بعض مظاهر علم الله الحفيظ: ١٢-٣٥، والخاتمة: ٣٦-٤٥. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك، أولاً: منها ما يتعلق بمظاهر قدرة الله تعالى: (أ) فقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ لم يذكر إلا هنا: ٤٤، وقريب منه قوله في سورة الفرقان ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ الْفَتَقِمْ﴾: ٢٥، ولم يذكر هذا الفعل «تشقق» في موضع آخر، (ب) وكذلك قوله ﴿فَقَدْ وَعَدَ﴾: ١٤، وقريب منه في سورة ص ﴿فَتَحَقَّقَ عِقَابُ﴾: ١٤، وكذلك قوله تعالى ﴿أَنعَيْنَا بِالْمُتَّقِينَ الْأَوَّلَ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: ١٥، ولم تذكر عبارة (الخلق الأول) في موضع آخر، بينما عبارة (خلق جديد) ذكرت في ست سور أخرى: الإسراء: ٤٩، ٩٨، والرعد: ٥، =

أولاً: جاء في مقدمة السورة إثبات لحقيقة يوم القيامة بالبراهين العقلية التي يراها الناس يومياً: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ٢ أَوَدَا مِتْنَا وَكُنَّا لِرَبِّكَ ذَلِكِ رَجْعٌ بَعِيدٌ ٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ ٤ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ٥ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ٦﴾، ولاحظ حرف القاف المشير إلى القَسَمِ بيوم القيامة، وكأن افتتاح السورة يقول: أقسم بالقيامة والقرآن المجيد لتبعثن ولتحاسبن، ولاحظ ذكر بعض مظاهر كمال علم الله تعالى ومطلق قدرته، فهو يعلم ما يُدفن في الأرض من أموات البشر، وهو الذي خلق السماء وزينها بالنجوم وما لها من فُرُوج، وقد ذكرت المقدمة أيضاً من البراهين أن الله هو الذي مَدَّ الأرض وألقى فيها رواسي، وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأنبث به الجنات والنخل والحب، وجعل ذلك رزقاً للعباد. فالقادر على ذلك كله قادر على بعث الناس ليوم القيامة الذي أشار اسم السورة إلى القَسَمِ به.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى إثبات حقيقة يوم القيامة بذكر بعض مظاهر علم الله الحفيظ فيما يختص بالإنسان: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَحَنَّا أَوْلَىٰ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ١٦ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ١٧ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ١٨﴾، فإن الله الذي وُكِّلَ بالإنسان ملكين يسجلان كل أعماله، قادر على بعثه ليجازيه بما سُجِّلَ عليه، هذا فيما يتعلق بالدنيا.

وأما مظاهر علم الله الحفيظ فيما يتعلق بالإنسان في الآخرة: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ١٩ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ٢٠ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ٢١﴾

= وإبراهيم: ١٩، والسجدة: ١٠، وسبأ: ٧، وفاطر: ١٦، د) وصف النخل بـ ﴿بَاسِقَتٍ﴾ لم يذكر إلا هنا: ١٠، وهذا الوصف يزيد التأكيد على قدرة الله، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بمظاهر علم الله الحفيظ فيما يتعلق بالإنسان، (أ) فهي السورة الوحيدة التي تكررت فيها كلمة (قلب) بالافراد ودون إضافة إلى ضمير: ﴿وَجَاءَ يَتْلِي تَتِيلٌ ٣٣﴾، و ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ٣٧﴾، (ب) هي السورة الوحيدة التي اختصت بهذه العبارة ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ٤﴾، (ج) هي السورة الوحيدة التي اختصت بهذه العبارة لوصف الملكين الموكلين بالإنسان ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ١٧﴾، وكذلك وصفهما بـ ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ ١٨﴾. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي ﴿٢٣﴾ أَفَلَا فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كِفَّارٍ عِندَ ﴿٢٤﴾ مَتَاعٍ لِلْحَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ، فكل نفس لها ملكان موكلان بها، أحدهما يسوقها والآخر يشهد عليها، فلا مجال للإنكار، والتفصيل في عرض هذه المشاهد الأخروية يؤكد حقيقة يوم القيامة وعلم الله الحفيظ فيها كما لا يخفى .

ولكي يكتمل إثبات حقيقة يوم القيامة، يبين السياق في كيفية استقبال النار لكل كفار عنيد، وكيف تزلف الجنة للمتقين غير بعيد .

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت ذكر بعض مظاهر كمال علم الله تعالى ومطلق قدرته: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّخِصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ، وبذلك يتأكد أن القادر على إهلاك المكذبين، وأن الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما قادر على بعث الناس ليوم القيامة .

وكما افتتحت السورة بالقسم بحرف القاف المشير إلى القيامة وبالقسم بالقرآن المجيد للدلالة على أنه سبحانه قادر على بعث الخلق لذلك اليوم، ختمت بالتأكيد على قدرة الله تعالى على الموضوع ذاته: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ، وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دل عليه اسم السورة أبلغ الدلالة .



سورة ق

سورة عرض البراهين العقلية وبعض مظاهر علم الله الحفيظ التي تثبت قدرته تعالى على البعث ليوم القيامة

الموضوع الثالث:
(الآيات: ٣٦-٤٥)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت ذكر بعض مظاهر كمال علم الله ومطلق قدرته: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۖ﴾.

■ وكما افتتحت السورة بحرف القاف المشير إلى القسم بيوم القيامة الذي سيبعث الله فيه الخلق، ختمت بالتأكيد على قدرة الله تعالى على الموضوع نفسه: ﴿يَوْمَ تَشْهَقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرًّا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۖ﴾. نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بحائر فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴿٣٦﴾.

الموضوع الثاني (الآيات: ١٢-٣٥)

إثبات حقيقة البعث ليوم القيامة من خلال بيان بعض مظاهر علم الله الحفيظ فيما يتعلق بالإنسان في الدنيا والآخرة:

■ فمن مظاهر ذلك في الدنيا أن الله هو الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وجعل عليه ملكين عن اليمين وعن الشمال يسجلان أقواله وأعماله.

■ ومن مظاهر ذلك في الآخرة أن الله جعل لكل إنسان ملكين موكلين به، أحدهما يسوقه والآخر يشهد عليه، وقد بين السياق كيف تستقبل النار كل كفار عنيد، وكيف تُزلف الجنة للمتقين غير بعيد.

الموضوع الأول (الآيات: ١-١١)
المقدمة التي تثبت حقيقة البعث ليوم القيامة بالبراهين العقلية:

■ افتتحت السورة بالقسم بحرف القاف الدالة على يوم القيامة، وبالقسم بالقرآن المجيد، وكأنها تقول: أقسم بالقيامة وبالقرآن المجيد، لتُبْعَثَ ولتُحَاسِبَ.

■ وردت على الكافرين المنكرين قدرة الله على البعث بعد أن يكونوا تراباً، ببيان علم الله الحفيظ الذي يعلم ما يُدْفَن في الأرض من الأجساد: ﴿فَدَعَلْنَا مَا نَنْقُصُ الْأَرْضَ مِنْهُمْ وَعِدْنَا كَلْبٌ حَفِظٌ ۖ﴾.

■ وذكرت المقدمة من البراهين العقلية الدالة على قدرته تعالى على البعث أنه هو الذي رفع السماء وزينها وما لها من فروج، ومدّ الأرض وألقى فيها رواسي وأخرج منها الجنات والنخل والحب، وجعله رزقاً للعباد.

سورة الذاريات

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ۖ فَلَحَمَلَتِ ۖ وَقَرَأَ ۖ فَلَجَرِيَّتِ يُسْرًا ۖ﴾
 ﴿فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا ۖ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۖ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَفْعٌ ۖ﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس رحمه الله: «الذال والراء والحرف المعتل أصلان؛ أحدهما: الشيء يشرف على الشيء ويظله (ومنه الذروة)، والآخر: الشيء يتساقط متفرقاً، ومن الباب: ذرت الريح الشيء تذروه»^(١)، وزاد الإمام ابن منظور رحمه الله: «ذرت الريح التراب وغيره تذروه وتذريه ذرواً وذرياً وأذرته وذرتة: أطارته وسقته وأذهبته، وقيل: حملته فأثارتته وأذرته»^(٢)، وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى وصف الرياح التي تذرو أسباب الرزق من السحب المحملة بالغيث أو تذرو حبوب اللقاح وغيرها، ووصفها بصيغة اسم الفاعل يدل على كمال طاعتها لآمرها سبحانه وتعالى.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة الكريمة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة هو ربط القلب البشري بالسماء، وتعليقه بالغيب المكنون، وتخليصه من عوائق الأرض التي تحول بينه وبين التجرد لعبادة الله تعالى والفرار إليه، ولما كان الانشغال بالرزق وما يخبئه القدر عنه هو أكثف تلك العوائق وأشدّها، فقد عنيت السورة بإطلاق الجسّ البشري من إساره، وبتعليق القلب بالسماء بشأنه، وبما أن الرياح الذاريات عنوان للغيث والخير والرزق، فقد سُميت السورة بها للدلالة على الرزق والخير المنتشر، وفي ذلك توجيه للتدبر بما وراءها من

(١) ينظر: ابن فارس، المقاييس، ص ٣٨٦، بتصرف.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج ٦، ص ٢٩.

دلالات القدرة الإلهية^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان قدرة الله على البعث من خلال بيان بعض مظاهر قدرة الله تعالى وخصوصاً فيما يتعلق بموضوع رزق العباد، فكما هو يُهيئ رزق العباد من السماء والأرض، فهو قادر على بعثهم ومجازاتهم، ولما كان موضوع الرزق أكثر ما يعني الإنسان، وهو من أدلّ مظاهر قدرة الله تعالى، جعلت الرياح الذاريات اسماً للسورة كونها من أهم أسباب الرزق، ليدلّ على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان أن الله هو الباعث كما أنه هو الرازق.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة موضوعات، أولاً: مقدّمة تحوي قسماً بأسباب الرزق على أن يوم القيامة واقع لا محالة، ثانياً: تأكيد قدرة الله على البعث ببيان لمصير المكذّبين الغافلين، ومصير المتقين العاملين في ذلك اليوم، ثالثاً: عرض قصصي يبرز بعض مظاهر قدرة الله تعالى وبخاصة موضوع الرزق، ورابعاً: الخاتمة المؤكّدة لما سبق^(٢).

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ٢٩٥، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٧، ص ٢٦٩، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٣٧٣، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٦، ٣٣٥، وأ.د. مسلم وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٧، ص ٤٣٨-٤٤٠، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ص ٤١٠، ووادي، ومنها، من دلالات أسماء السور، ص ٢٦٢-٢٦٥.

(٢) مقدّمة السورة شملت الآيات: ١-٦، وبيان مصير المكذّبين والمتقين يوم القيامة: ٧-٢٣، والعرض القصصي: ٢٤-٤٦، والخاتمة: ٤٧-٦٠. ومن لطائف هذه السورة: أنها امتازت بألفاظ وعبارات متسقة تماماً مع محور السورة وموضوع الرزق الذي دلّ عليه اسم السورة، ومن ذلك: أولاً: هذه العبارات المتعلقة بالرزق ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾: ٢٢، و ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ﴾ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْكَلِيمِ﴾: ٥٧، ٥٨، لم تتكرر في القرآن، بما في ذلك «الرازق» و«ذو القوة المتين»، ثانياً: قوله تعالى ﴿وَالْأَرْضُ فَرْشَتُهَا رِزْقٌ مِمَّنْ أَلْهَدُونَهَا﴾: ٤٨، لم يتكرر، وقريب منه وصف الأرض بـ ﴿فَرَشًا﴾، البقرة: ٢٢، و ﴿مَهْدًا﴾، الزخرف: ١٠، و ﴿مَهْدًا﴾ النبأ: ٦، ثالثاً: وكذلك هذه العبارة ﴿وَالسَّمَاءُ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾: ٤٧، وكذلك «السَّمَاءُ ذَاتِ الْقُبُكِ﴾: ٧، رابعاً: وكذلك هذه العبارة المتحدثة عن الرزق: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾: ٥، فصدق وعده تعالى بالرزق دليل صدق وعده بالبعث، وخامساً: كذلك وصف يوم القيامة بـ ﴿وَأَنَّ الْآخِرَ أَكْرَمُ﴾: ٦، وسادساً: وصف العجل الذي قدمه إبراهيم عليه السلام بـ (السمين): ٢٦، وهذا دليل عمق توكله على الله في رزقه إذ قدّم أفضل =

أولاً: جاء في مقدمة السورة قَسَم من الله تعالى بأسباب الرزق على أن وعده برزق العباد لصادق، وأن وعده ببعثهم للحساب لواقع: ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا ﴿١﴾ فَالْحَمَلَتِ وَفَرَا ﴿٢﴾ فَالْجَنِينَ يُنْزِلُ ﴿٣﴾ فَالْمَقَسَمِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْعُ ﴿٦﴾﴾، فقد أقسم سبحانه بالرياح التي تذر السحاب أو حبوب اللقاح حسبما أراد الله تعالى، والتأكيد بالمصدر «ذروا» يجعل كل ما له علاقة بالرياح من أسباب الرزق مقبولاً لتفسير هذه الآية، ثم أقسم سبحانه بالسحب المحملة بالأمطار، وهي تسوقها الرياح أيضاً وفق إرادة الله تعالى، وأقسم بالسفن التي تحمل أرزاق العباد، وهي تسير في البحر بتيسير الله تعالى لها أسباب الجري في الماء، وأقسم بالسحاب التي تقسم السحب حسبما أمرت به في بقاع الأرض، وكل ذلك من أسباب رزق الإنسان كما لا يخفى.

ولاحظ جواب القَسَم الذي يصف الوعد برزق العباد بالصادق، وهو أنسب وصف لدفع ما يختلج في نفوس البشر تجاه الرزق المجهول، فقد كُتبت أرزاقهم قبل خلقهم، وقد وعد الله بتنفيذ ما كتبه في لوحه المحفوظ، فلا داعي للقلق بشأن الرزق، بل عليكم بالسعي والأخذ بالأسباب، ولاحظ أنه بعدما ذكر بعض مظاهر كمال قدرته تعالى جاء جواب القَسَم الثاني بوصف يوم الدين بالواقع، فالقادر على رزق العباد والتكفل بأمور معيشتهم، قادر على بعثهم وجزائهم.

== ما وجد، أشار لهذه النقطة مؤلفا كتاب من دلالات أسماء السور، ص ٢٦٣، بينما في سورة هود وصف العجل بـ (الحنيد): ٦٩، وسابغاً: كذلك وصف الحجارة التي أرسلت على قوم لوط بأنها ﴿وَيَنْ طِينٌ﴾: ٣٣، ومعلوم ما للطين من دور في رزق الإنسان، بينما وصفت هذه الحجارة بأنها ﴿وَيَنْ سِجِيلٌ﴾ في سورتي هود: ٨٢، والحجر: ٧٤، وكذلك الحجارة التي أرسلت على أصحاب الفيل في سورة الفيل: ٤، وثامناً: لم يذكر (الذنوب) وهو: الدلو، للكناية عن تعمق الظالمين في المعاصي إلا هنا: ٥٩ مرتين، وللذنوب دور في استخراج الماء الذي يحتاجه الناس للرزق، وتاسعاً: لم توصف الريح المرسل على عاد بـ ﴿الْعَقِيمِ﴾ إلا هنا كناية عن إهلاكهم: ٤١، وذلك متسق مع قول امرأة إبراهيم عليه السلام: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾: ٢٩، ومع ذلك رزقها الله بالولد، وبإمكانك أن تذكر هنا لطيفة وهي أن الله تعالى يقول في سورة الحج: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ﴾: ٥٥، ورقم السورة الذاريات: ٥١، ورقم سورة الحج: ٢٢، والفرق بينهما: ٢٩، ولك أن تضيف لطيفة ثانية وهي أن قوله تعالى في سورة الذاريات: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾: ٤١، متفق مع قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَيَجْمَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾: ٥٠، والفرق بين أعداد الآيتين: ٩، وهو نفس الفرق بين أرقام السورتين: الذاريات: ٥١، والشورى: ٤٢، فانظر كيف يستخدم القرآن لفظة (العقم) للدلالة على قدرة الله تعالى من نواح متعددة ومتناسقة. فسبحان من هذا كلامه.

فالمقدمة إذاً تبرز بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى المتعلقة برزق العباد، لتدعو من خلالها إلى الإيمان بقدرته تعالى على البعث، ومن أهم هذه المظاهر الرياح الذاريات التي سُميت السورة بها.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى بيان مصير المكذّبين والمؤمنين في يوم القيامة، ولم يخلُ السياق من بيان مظاهر كمال قدرة الله تعالى أيضاً: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْحُبُكِ ۖ إِنَّكَ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفِكُ عَنْهُ مِنَ الْفَلَكَ ۝٩ قُلِ الْخَرَصُونَ ۝١٠ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمَرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارٍ يُقْتَلُونَ ۝١٣ ذُرُّوا فَنَنْتَكِرْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾، وقد قدّم السياق ذكر مصير الكافرين؛ لأنه أنسب للسياق، ولاحظ أولاً: التأكيد بالقسم على قدرة الله تعالى بالسماء ذات الحبك، وهو إما أن يكون وصفاً لمدارات الكواكب والنجوم فيها، وكأنها محبوبة حبكاً، أو وصفاً للسحب حين تجمّعها وكأنها محبوبة أيضاً - ولعل هذا القول أقرب للسياق - وثانياً: وصف قولهم بالمختلف، وهو وصف مقابل لوصف السماء بالحبك الدال على الانتظام، ولاحظ وصفهم أيضاً بالإفك والخرص، وهي أوصاف تقابل وُصف وعد الله تعالى برزقهم بالصادق، وثالثاً: أنهم تمتّعوا وترفّعوا في هذه الدنيا حتى غفلوا وسهوا عن الذي يرزقهم سبحانه وتعالى، وأنكروا يوم الدين، فكان مصيرهم فيه أن يعذبوا بالنار جزاء لهم.

وذكر السياق مصير المتقين العاملين لهذا اليوم: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُّحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝١٩ وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصَرُونَ ۝٢١ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾، ولاحظ أن السياق يركّز على موضوع الرزق حتى فيما يتعلق بنعيم أهل الجنة، فهم آخذون ما آتاهم الله فيها من رزقه، والسياق يبيّن أنهم كانوا يعملون ويستعدّون لذلك اليوم؛ لأنهم يؤمنون به، ولم يغفلوا عن أن يرزقهم سبحانه، بل أظهروا موقف الشكر له بقيام الليل، والاستغفار، ومعلوم أن الاستغفار من أسباب الرزق، ولاحظ أنهم كانوا يؤدّون حقوق السائل والمحروم من أموالهم التي رزقهم الله إياها، فهم لم يغفلوا ويتمتعوا بأموالهم حتى نسوا الرزاق وأنكروا الآخرة كما فعل من ذكر قبلهم.

وقد أعاد السياق ذكر مظاهر قدرة الله تعالى فيما يتعلق برزق العباد، فقد هيأ الأرض لتناسب حال البشر في السعي لكسب أقواتهم، وجعل فيهم القدرة الكاملة على العمل والكّد والسعي، ولاحظ القَسَم على صدق وعد الله بالرزق، وهو قَسَم لم يتكرر في القرآن على هذه الصيغة، فكما أن الله تعالى القادر جَعَلَكُمْ تَنْطِقُونَ، فكذلك هو القادر على التكفل برزقكم وأمور معيشتكم، أفلا يكون قادراً بعد ذلك على بعثكم ومحاسبتكم؟!!

فمن الملاحظ إذاً أن السياق يؤكّد حقيقة قدرة الله تعالى على البعث من خلال بيان قدرته رزق العباد، وهو أمر لا يخفى انسجامه مع دلالة اسم السورة.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى عرض قصصي متنوّع، وهو أيضاً يبرز بعض مظاهر قدرة الله تعالى، خصوصاً ما يتعلق بالرزق: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرِيَيْنِ﴾ ٤١ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ٤٢ فَرَأَى إِلَهُه فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ٤٣، ولاحظ كمال توكل إبراهيم عليه السلام على رازقه، فقد جاء بعجل سمين ليقربه إلى ضيفه، ثم بشرت الملائكة إبراهيم وامرأته بأن الله سيرزقهما بغلام عليم، مع كونها عقيماً، وزوجها شيخ كبير.

وبرزت مظاهر قدرة الله تعالى في إهلاك قوم لوط بحجارة من طين، وذلك لأنهم أعرضوا عن الطريق الحلال الذي هيأه الله لهم ليرزقهم بالذرية، فقد تركوا الزواج بالنساء وفضلوا إتيان الرجال شهوة.

وأما قصة إهلاك فرعون فهي تبرز قدرة الله في إهلاك هذا الطاغية الذي كان يزعم أنه الربّ الأعلى، فلو كان يملك من أمر رزقه - قبل رزق الناس - شيئاً لدفع عن نفسه الهلاك، وأما قصة عادٍ وثمود وقوم نوح فهي تبرز مظاهر قدرة الله تعالى وبشكل منسجم مع سياق السورة من أكثر من جانب، فهم أولاً قد أمروا أقوامهم باستغفار الله تعالى والتوبة إليه ليرزقهم الله ويمتعهم متاعاً حسناً، وهذا أمر أخبرت عنه سور أخرى كسورة هود، ولكن الأقوام أعرضوا فاستحقوا العذاب.

وثانياً: ذكر إهلاك عادٍ بالريح العقيم متلائم مع دلالة اسم السورة، فالله تعالى قادر على جعل الريح مُهلكةً للأقوام المكذّبة، كما هو قادر على جعلها سبباً للرزق بما تذروه من السحب وحبوب اللقاح وغيرها، وثالثاً: كذلك ذكر إهلاك ثمود بالصاعقة، فالله تعالى قادر

على جعل الريح تحمل السحب المهيأة للعذاب، فإذا رآها القوم المكذبون ظنوها عارضاً ممطرهم، فإذا بها العذاب الأليم، وهو سبحانه قادر على جعل الريح أيضاً تسوق السحب المحملة بالأمطار التي تغيث العباد، كما هو قادر على جعل هذه السحب المحملة بالمطر عذاباً لإهلاك المكذبين كقوم نوح، وقادر على إنجاء نوح وأهله كما هو قادر على تسيير السفن في البحار.

إذاً فالقصص القرآني المعروض في هذه السورة يسهم في التأكيد على محور السورة، من خلال بيان بعض مظاهر قدرة الله تعالى المتعلقة بالرزق، وهو أمر مترابط مع دلالة السورة.

رابعاً: جاء في خاتمة السورة تأكيد على كل ما سبق، فقد أعادت الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى من خلال ذكر بعض مظاهر قدرته فيما يتعلق بالرزق: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِإِثْنٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٧٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَبْدُونَ ٧٨ ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٧٩﴾ فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٨٠ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٨١﴾.

وكما افتتحت السورة بذكر بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى في تهيئة أسباب الرزق للعباد، لتدعو من خلال ذلك إلى الإيمان باليوم الآخر، ختمت بالتأكيد على كونه تعالى هو وحده القادر على رزق عباده، وبالتالي هو وحده المستحق للعبادة، وحذرت من التكذيب باليوم الآخر: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٨٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ٨٧ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ٨٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْمِلُونَ ٨٩ ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ٩٠﴾. وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دل عليه اسم السورة أجمل دلالة.



سورة الذاريات

سورة بيان أن الله هو الباعث كما أنه هو الرازق

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٦)

المقدمة التي تحوي قسماً بأسباب الرزق التي هيأها الله لعباده على أن يوم القيامة واقع لا محالة:

■ افتتحت السورة بالقسم بالرياح التي تذر السحب وغيرها من أسباب الرزق، وبالسحب المحملة بالغيث وبالسفن الجارية وما تحمله من أسباب الرزق وبالرياح التي تقسم السحب حسب إرادة الله، على أن وعده تعالى برزق عباده لصادق، وأن يوم الدين الذي فيه حساب الخلق لواقع.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٧-٢٣)

تأكيد قدرة الله على البعث بيان مصير المكذبين الغافلين ومصير المتقين العاملين في ذلك اليوم:

■ أقسم الله بالسماء ذات الحجب، وما فيها من السحب التي تحمل رزق العباد وكأنها محبوبة حبكاً، أن الناس مختلفون حول الإيمان باليوم الآخر.

■ فمنهم خراصون لاهون عن الاستعداد لذلك اليوم: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ يَوْمِ الَّذِينَ ﴿٧﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْتَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

■ ومنهم متقون مؤمنون مستعدون للقاء الله في ذلك اليوم: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ ﴿٩﴾ وَيَلْأَنَّهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

■ وكما رزقهم الله من واسع فضله، أنفقوا في سبيل الله ليوسعوا على الفقراء: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿١١﴾﴾.

■ وقد أعاد السياق بيان قدرة الله على الرزق بالقسم بما هيأه الله من أسباب الرزق في السماء والأرض: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُرْعَدُونَ ﴿١٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّكُمْ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ نَظْفُونَ ﴿١٣﴾﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٤-٤٦)

عرض قصصي يبرز بعض مظاهر قدرة الله وبخاصة في موضوع الرزق:

- فقد برزت شدة يقين إبراهيم عليه السلام برازقه سبحانه حين قدّم لأضيافه عجلًا سميناً مع أنه لا يعرفهم.
- وبرزت قدرة الله في الرزق في بشارة الملائكة إبراهيم عليه السلام وامراته بغلام عليم، مع كونها عجوزاً عقيماً.
- وبرزت قدرة الله في إهلاك قوم لوط بحجارة من طين، بعد أن أعرضوا عن الطريق المباح ليرزقهم الله بالذرية، وفضلوا إتيان الرجال شهوة.
- وبرزت قدرة الله في إهلاك فرعون الذي كان يزعم أنه الرب الأعلى، ولو كان يملك من أمر رزقه شيئاً قبل رزق الناس لدفع عن نفسه الهلاك.
- وبرزت قدرة الله في إهلاك عادٍ وثمود وقوم نوح عليه السلام، وهم أمروا بالاستغفار ليرزقهم الله ويمتعهم متاعاً حسناً، لكنهم أعرضوا عن دعوة خالقهم حتى استحقوا العذاب.
- وكما أقسم الله بالرياح الذاريات التي جعلها الله أحد أسباب الرزق أول السورة، بيّنت هذه القصص أن الله جعل الريح سبباً لإهلاك عادٍ، وكما أقسم الله بالسحب المحملة بالغيث أول السورة، جعلها الله هنا صاعقة أهلكت ثموداً، وكما أقسم بالسفن الجارية في البحار حاملة أرزاق العباد، جعل الله السفينة سبباً لإنجاء نوح عليه السلام ومن آمن معه، كل ذلك يؤكّد قدرة الله المطلقة خاصة في موضوع الرزق.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٤٧-٦٠)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

- إعادة الدعوة إلى الإيمان بقدرة الله على البعث من خلال بيان مظاهر قدرته على الرزق: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْمٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٥٧) وَالْأَرْضَ قَرَشْنَاهَا فَتَنَمَّ النَّهْدُونَ ﴿٥٨﴾ وَمِنْ كُلِّ ثَمَرٍ حَلَلْنَا لَكُمْ وَلَكُمْ لَذَّةُ الْحَيَاةِ ﴿٥٩﴾ وَكَمَا افْتَتَحْنَا السُّورَةَ بِالْقَسَمِ ببعض مظاهر أسباب الرزق التي هيأها الله على أن اليوم الآخر حق، ختمت بالتأكيد على كونه تعالى وحده الرازق، مع التحذير من التكذيب باليوم الآخر: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٦٠) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٦١﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٦٢﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَهْلِيهِمْ فَلَا يَسْتَمِعُونَ ﴿٦٣﴾ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِيهِمُ الَّذِينَ يُوعَدُونَ ﴿٦٤﴾.

سورة الطور

﴿وَالطُّورِ ١﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤﴾ وَالسَّعْفِ
الْمَرْفُوعِ ٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧﴾ مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ ٨﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى القَسَمِ بجبل الطور، وهو الجبل الذي ناجى عليه موسى عليه السلام ربّه سبحانه وتعالى، وفيه طَلَبَ موسى عليه السلام رؤية الله، فخرّ موسى صِعْقاً، وفيه أخذ الألواح عن ربّه، وهو الجبل الذي رُفِعَ فوق رؤوس بني إسرائيل تهديداً لهم حينما أعرضوا عن هدى الله، وهو الجبل الذي طلب فيه بنو إسرائيل رؤية الله جهرة فأخذتهم الرجفة، ثم بعثهم الله بعد موتهم، فالقَسَمَ بهذا الجبل يدلّ على أن الله تعالى هو الذي أوحى لموسى عليه السلام وهو الذي يوحى لمحمد ﷺ لتبليغ حقائق الدين، والتي من أهمها قدرة الله على البعث لليوم الآخر كما حصل على جبل الطور مع بني إسرائيل^(١).

أقوال بعض المفسرين والكاتين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتين أوجهاً من الربط بين اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة تمثل حملة عميقة التأثير في القلب البشري، ومطاردة عنيفة للهواجس والشكوك والأباطيل التي تساوره، وفيها دحض لكل حجة أو عذر قد يُتخذ للحيدة عن الحق، والزيغ عن الإيمان، والقَسَمَ بالطور يدل على أن الله تعالى يقسم بالمقدسات على أن العذاب واقع على المكذبين، ومن دلالات هذا الاسم أنه رمز لظهور

(١) ذكرت سورة البقرة أن الله تعالى قد رفع الطور فوق رؤوس بني إسرائيل ترهيباً لهم لالتزام أحكام الله، ينظر الآيتان: ٦٣، ٩٣، وقد ذكر عدد من المفسرين باقي المعلومات المذكورة عن جبل الطور، منهم: الرازي، مفاتيح الغيب، ج ١٤، ص ٢٣٥ ج ١٥، ص ٢٠، والآلوسي، روح المعاني، ج ٥، ص ٤٣، ٦٩، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٩، ص ٩٠-١٢٩. وذلك عند تفسيرهم الآيات: ١٤٣-١٥٥ من سورة الأعراف.

الحق وبزوغ فجر رسالة سماوية جديدة أرسل بها موسى عليه السلام^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: إثبات صدق الوحي إلى الأنبياء وما يخبر به من الحقائق، من خلال القَسَم بالأماكن التي أوحى الله بها للرسولَيْن الكريمين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، فبالقَسَم بهذه الأماكن يثبت أن الله تعالى هو الذي يوحى لرسله لينذروا أقوامهم، وبذلك يثبت أن حقيقة اليوم الآخر - التي هي من أهمّ قضايا الوحي - حقٌّ لا مرية فيها. ولما كان جبل الطور هو الجبل الذي صُنع فيه موسى عليه السلام، وفيه أخذ ألواح الرسالة عن ربّه، وهو الجبل الذي أمات الله عليه المكذّبين من بني إسرائيل ثم بعثهم، وهو الجبل الذي رُفِع فوق رؤوسهم ليُلزَموا الإيمان، أقسم الله به وجعل من هذا القَسَم اسماً للسورة ليدلّ على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة إثبات الوحي وما يخبر به من الحقائق وأهمّها اليوم الآخر، من خلال القَسَم بأماكن الوحي.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

تقسم السورة إلى أربعة أقسام، أولها: مقدّمة تحوي قَسَمًا بأماكن الوحي على أن وقوع العذاب على المكذّبين في اليوم الآخر حقّ، وثانيها: عرض لمصير المكذّبين الكافرين والمؤمنين المتقين في ذلك اليوم، وثالثها: ردّ لشبهات المكذّبين المتعلقة بالوحي، ورابعها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق^(٢).

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٢٩٩، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٧، ص ٢٩١، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٣٩١-٣٣٩٣، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٦، ص ٣٦، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٧، ص ٤٦٤، ٤٦٥، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٤١٣، وعبد الحميد طهماز، من سورة الطور إلى سورة الناس، ٣-١٣، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور، ص ٢٦٦-٢٦٩.

(٢) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١-١٢، وعرض مصير المكذّبين والمؤمنين يوم القيامة: ١٣-٢٨، والردّ على شبهات المكذّبين: ٢٩-٤٤، والخاتمة: ٤٥-٤٩. ومن لطائف هذه السورة: أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، فمن ذلك: أولاً: (أ) قوله تعالى: ﴿وَكُنْطِرَ مَسْطُورٍ﴾ (٢) في رَفَوْ مَسْطُورٍ ﴿وَالْيَبِ الْمَسْطُورِ﴾: ٢-٤، لم تذكر في القرآن إلا هنا، (ب) بينما القَسَم بالطور جاء هنا: ١، وفي سورة =

أولاً: جاء في المقدمة قَسَمَ بالمكائِن اللَّذِينَ أوحى الله فيهما إلى سيدنا موسى وسيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام، على أن العذاب واقع يوم القيامة على المكذِبين: ﴿وَالطُّورِ ١﴾ وَكُنِبِ مَسْطُورِ ٢﴾ فِي رَقٍ مَشْشُورِ ٣﴾ وَأَلْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦﴾، ولعل التفسير الأنسب لهذه الآيات أن يكون القَسَمَ بالطور إشارة إلى المكان الذي أوحى الله فيه لسيدنا موسى عليه السلام، والقَسَمَ بالبيت المعمور إشارة إلى الكعبة الموجودة في مكة، وهي المكان الذي أوحى الله فيه لسيدنا محمد ﷺ، وأما القَسَمَ بالكتاب المسطور فهو يدلّ على الكتب الإلهية وبالأخص في هذا السياق التوراة والقرآن، ومعنى كونهما في ﴿رَقٍ مَشْشُورٍ﴾ أي: في صحف مهيأة للكتابة معروضة للقراءة، وأعتقد أن في ذلك إشارة إلى أن حجة التوراة - قبل التحريف - وحجة القرآن ظاهرة غير خافية.

فالتوراة المنزلة من عند الله والقرآن كتابان مسطوران في صحف منشورة، حجتهما ظاهرة غير خافية لمن أراد أن يؤمن، لكن هذا الوصف زال عن التوراة بعد أن حُرِّفَتْ وبقي للقرآن.

= التين: ٢ فقط، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾: ٥، جاء هنا فقط، وقريب منه: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾: الأنبياء: ٣٢، ثانياً: كذلك فيما يتعلق بأحوال يوم القيامة: أ) ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ هنا فقط بهذه الصيغة: ٦، وقريب منها: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾: التكوثر: ٦، ب) كذلك: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾: ٩، هنا فقط، ج) كذلك: ﴿وَسَيُجْرُ الْجِبَالُ سَبْجًا﴾ هنا فقط بتأكيد الفعل بذكر المصدر: ١٠، وقريب منها: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾: الكهف: ٤٧، و﴿وَسَيُجْرُ الْجِبَالُ﴾: النبأ: ٢٠، و﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾: التكوثر: ٣، د) كذلك قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ هنا فقط: ١٣، هـ) وكذلك: ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾: ٤٥، هنا فقط بصيغة الفعل المضارع، وقريب منها: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾: الزمر: ٦٨، وذكر الفعل ﴿يُصْعَقُونَ﴾ عن أحوال يوم القيامة في سورة الطور ثلاثاً مع قوله عن سيدنا موسى عليه السلام ﴿وَحَرَّ مَوْسَى صَيْقًا﴾: الأعراف: ١٤٣، وقد حصل له ذلك على جبل الطور، ثالثاً: أما فيما يتعلق بردّ شبهات المكذِبين حول الوحي: أ) ذكر حرف الإضراب (أم) في سياق تعداد شبهاتهم والردّ عليها خمس عشرة مرة، يدل ذلك على مدى تنظّعهم، ومن هذه المرات قوله ﴿أَمْ لَمْ سَلِّ بِسَيِّمُونَ﴾: لم تذكر في القرآن إلا هنا: ٣٨، وقريب منها: ﴿إِنْ أَسْأَلْتُمْ أَنْ تُبَلِّغُوا نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَكًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَاتٍ﴾: الأنعام: ٣٥، ومن هذه المرات أيضاً قوله ﴿أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَمَنْ يَكْنُيُونَ﴾: ذكر هنا: ٤١، وفي القلم: ٤٧ فقط. والعبارتان المذكورتان في سورة الطور تؤكدان أن الوحي من الله تعالى وليس للبشر سبيل إليه إلا عن طريق وحي الله للأنبياء. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

أما الْقَسَمَ بالسقف المرفوع، فهو يشير إلى السماء التي هي من دلائل قدرة الله تعالى، وهي ستمور يوم القيامة موراً، وكذلك يشير البحر الذي سيسجر يوم القيامة، وذكر هاتين الآيتين - السماء والبحر - معهود في السور التي تتحدث عن أهوال يوم القيامة، مثل سورتي التكوير والانفطار. ومعلوم أن الإخبار عن يوم القيامة من أبرز الحقائق التي يخبر بها الوحي.

فأنت تلاحظ أن السياق يقسم بالأماكن التي تنزل فيها الوحي، ويقسم بالكتب التي أنزلها الله، على أن الوحي إلى الأنبياء وما فيه من الحقائق - التي أهمها اليوم الآخر - أمر حق لا مرية فيه، وقد أكد ذلك جواب الْقَسَم وما تبعه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧) مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾، ولاحظ ذكر مور السماء، المتلائم مع وصفها بالسقف المرفوع، فمن جعلها سقفاً مرفوعاً في الدنيا، قادر على جعلها تمور موراً يوم القيامة، ولاحظ ذكر تسير الجبال، ليتلاءم ذلك مع ذكر جبل الطور، وتهديد المكذبين بالوحي وحقائقه، الذين هم يخوضون ويلعبون ويعرضون عما جاءهم من الحق.

فالمقدمة إذاً تؤكد حقيقة اليوم الآخر باعتباره من أبرز قضايا الوحي، من خلال الْقَسَم بالأماكن التي أوحى الله فيها إلى أنبيائه بالرسالات، وبذلك يثبت أن الوحي من الله للأنبياء حق، وما يخبر به حق، ومن جهة أخرى يفيد الْقَسَم بالطور تأكيداً آخر على إثبات يوم القيامة، فهو قد شهد صعق موسى عليه السلام حينما طلب رؤية ربه، وهو قد شهد موت المكذبين من أمته عليه السلام حينما طلبوا رؤية الله جهرة فأخذتهم الرجفة، ثم أحياهم الله، فذلك يدل على قدرة إحياء الله الناس للحساب كما أحيى أولئك. ثم إن الْقَسَم بهذا الجبل يذكر برفعه فوق رؤوس بني إسرائيل حتى يلتزموا بأحكام التوراة، ففي ذكره موعظة للمعرضين من أمة سيدنا محمد ﷺ.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض مصير المكذبين الكافرين ومصير المؤمنين المتقين يوم القيامة، وقد تقدم ذكر مصير المكذبين؛ لأنه الأنسب للسياق الذي يحوي تهديداً لهم: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا

بُصُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٦﴾ ، فهم كانوا يكذبون بالوحي ويدّعون أنه سحر، فهاهم الآن يرون الحقائق التي أنذرهم بها الوحي أمام أعينهم، ويقال لهم: أفسح هذا؟.

ثم انتقل السياق إلى عرض مصير المؤمنين المتقين: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿٥٧﴾ فَتَكِيهِمْ يَمَا ءَانْتَهُمْ رِيْهُمْ وَوَقْنَهُمْ رِيْهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٨﴾ كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٦٠﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلِّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ ﴿٦١﴾ ، فإيمانهم بالوحي وما جاء به من الحقائق وقاهم من عذاب الجحيم، ولاحظ عرض مصير ذريتهم المؤمنين أيضاً، ليكون ذلك أدلّ على أن القيامة وما فيها من ثواب حق لا مرية فيه. إن عرض مصير الفريقين يؤكّد بلا ريب حقيقة اليوم الآخر، وهي الحقيقة التي أقسم الله عليها بجبل الطور الذي سمى السورة باسمه.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى ذكر شبه المكذّبين المتعلقة بالوحي وردّها: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٦٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّذَرْنَاهُ بِرَبِّ الْمُنُونِ ﴿٦٣﴾ قُلْ تَرَىٰ صُورًا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْزِلِينَ ﴿٦٤﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَقُهُمْ هَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴿٦٥﴾ أَمْ يَقُولُونَ قَوْلُهُمْ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٦﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٦٧﴾ ، ولاحظ قوله ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ الدال على الوحي، أي: أنت إنما تنذر قومك بما يوحي إليك ربك، ولست بكاهن ولا مجنون ولا شاعر ولا متقول كما يزعمون لينكروا نزول الوحي عليك، ولاحظ تحديهم بأن يأتوا بحديث من مثل هذا القرآن إن كانوا صادقين، ولن يستطيعوا.

ومن الملاحظ أن حرف الإضراب (أم) في سياق عرض شبهاتهم قد تكرر خمس عشرة مرة، وذلك يطلعك على مدى تنطع المكذّبين وإنكارهم للوحي، وما يخبرهم به من حقائق والتي من أهمّها حقيقة اليوم الآخر، وهي الحقيقة التي قد أقسم الله بجبل الطور على أنها حق، وقد أفاد هذا القسم أن الوحي حق أيضاً، فإن من أوحى لموسى عليه السلام على جبل الطور، هو الذي يوحي لنبينا ﷺ في مكة، وفي هذا ردّ لشبهاتهم المتعلقة بإنكار الوحي.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لكل ما سبق، فقد أعادت التأكيد على أن عذاب المكذبين في يوم القيامة حق: ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلْتَمِتُوا بِمَوْتِهِمْ أَلَدَىٰ فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾، ولاحظ ذكر صعقهم في ذلك اليوم، ليتلاءم ذلك مع صعق موسى عليه السلام على جبل الطور، وما حصل على ذلك الجبل مع المكذبين من قوم موسى الذين أماتهم الله ثم أحياهم.

وكما افتتحت السورة بالقسم بالأماكن التي نزل فيها الوحي على الأنبياء، فثبت بذلك أن الوحي وما يخبر به حق، ختمت بأمر النبي ﷺ بالصبر على دعوة قومه بما يأتيه من الوحي: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿١٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُودِ ﴿١٩﴾﴾، ولاحظ قوله تعالى عن سيدنا محمد ﷺ ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، المقابل لطلب سيدنا موسى على جبل الطور رؤية الله، فقال الله له: ﴿لَنْ تَرَنِي﴾، وفي سورة النجم التالية لسورة الطور أجمل تجلّ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ في حديثها عن المعراج، وكما أقسم سبحانه في مفتح السورة بالسماء التي هي كالسقف المرفوع، ختم السورة بأمر النبي ﷺ بتسبيح الله تعالى مع ذكر آيتي الليل والنجوم، وهما آيتان متعلقتان بالسماء، وهكذا التقى البدء والختام على محور إثبات أن الوحي وما يخبر به من الحقائق التي من أهمها حقيقة اليوم الآخر حق لا مرية فيه، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الطور

سورة إثبات الوحي وما يخبر به من الحقائق - وأهمها اليوم الآخر -
من خلال القسم بأماكن الوحي

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٣-٢٨)

عرض لمصير المكذبين الكافرين، ومصير المؤمنين المتقين في ذلك اليوم:

■ ابتدأ السياق بعرض مصير المكذبين لأنهم أقرب إلى الأهوال المذكورة عن يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ۖ هَٰذَا النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۖ﴾.

■ ثم انتقل إلى مصير المؤمنين الذين آمنوا بالوحي واتبعوا هداه فكانوا من المتقين: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ۖ فَنَكِهِنَّ يَمْشَيْنَ ۖ وَالنَّهْمُ رَبُّهُمْ ۖ وَوَقْنَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۖ﴾.

■ وقد بين السياق أيضاً مصير ذرياتهم المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۖ﴾.

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٢)

المقدمة التي تحوي قسماً بمكان الوحي لسيدنا موسى ومكان الوحي لسيدنا محمد عليهما السلام، على أن يوم القيامة واقع:

■ افتتحت السورة بالقسم بجبل الطور الذي أوحى الله فيه لسيدنا موسى عليه السلام، وبالكتاب المسطور وهو إشارة إلى الكتب الإلهية وأخصها هنا التوراة والقرآن، وبالبيت المعمور وهو البلد الحرام الذي فيه الكعبة، بلد الوحي لسيدنا محمد ﷺ، وأقسم بالسماء التي هي سقف مرفوع، والتي ستمور يوم القيامة، وبالبحر المسجور الذي سيُسَجَّر يوم القيامة.

■ وجواب القسم: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۖ مَا لَمْ يَدَافِعْ ۖ﴾، فالقسم بأماكن الوحي يثبت أن ما يوحى الله به إلى الأنبياء من الحقائق حق، وأهمها اليوم الآخر.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٩-٤٤)

ردّ لشبهات المكذّبين المتعلقة بالوحي:

- أثبت السياق أن الوحي للنبي ﷺ نعمة من الله عليه، فهو ﷺ ليس بكاهن ولا مجنون: ﴿فَذَكَّرَ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا جَاهِلٍ﴾ ﴿٢٩﴾.
- وبين أنه ﷺ ليس بشاعر، ولا متقول، ودعاهم إلى أن يأتوا بمثل القرآن: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ ﴿٣٠﴾.
- وردّ السياق فريات متعدّدة يفصل بينها بحرف "أم" المذكور خمس عشرة مرة، للدلالة على كثرة افتراءاتهم واضطرابها، وبذلك يثبت أن الوحي للنبي ﷺ وما يخبر به من الحقائق حق لا مرية فيه.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٤٥-٤٩)

الخاتمة المؤكّدة لما سبق:

- أعادت التأكيد على أن عذاب المكذّبين في يوم القيامة حق.
- وكما افتتحت السورة بالقسم بأماكن الوحي، فثبت بذلك أن الوحي وما يخبر به حق، ختمت بأمر النبي ﷺ بالصبر على دعوة قومه بما يأتيه من الوحي: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُورِ ﴿٤٩﴾﴾.

سورة النجم

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى القَسَمَ بالنجم الذي يكون في السماء في حال هويّه، على أن النبي ﷺ يتلقّى الوحي والعلم من ربه تبارك وتعالى، فهو ﷺ ليس بضالّ ولا غاوٍ، والقَسَمَ بالنجم في حال هويّه يعطي دلالة بطلان عبادة الكواكب والنجوم التي كان يقوم بها بعض المشركين، لا سيما «الشّعري» وهو مذكور في السورة ولم يذكر في سورة أخرى^(١)، كما أن هذا القَسَمَ - من وجهة نظري - يعطي دلالة على أن مَنْ جعل للنجم مساراً يهوي به، قادر على خرق قوانين السماء وأن يعرج بعبدته ﷺ فيخترق السماوات السبع، حتى يصل إلى سدرة المنتهى.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وبموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة تتمحور حول بيان صدق الوحي الذي جاء بهذه العقيدة وبيان وثاقته، وبيان وهن عقيدة الشرك وتهافتها، وأن القَسَمَ بهويّ النجم مهما كان عظيماً يدل على دحض عقيدة الشرك، فالنجم يهوي ويتغير مقامه، فلا يكون معبوداً، ومن جهة أخرى يشابه هويّ النجم وما ينتج عنه من نور حسيّ، يشابه نزول القرآن من السماء وما فيه من نور معنوي^(٢).

(١) قد أشار سيد قطب إلى أن اسم السورة يدل على بطلان عبادة الكواكب، لا سيما الشعري: في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٤٠٦.

(٢) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٣٠٣، وقد فسر هوي النجم بالشهب المنقضة على مَنْ يسترقون السمع من الشياطين، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٧، ص ٣١٢، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٤٠٥ =

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان أن ما يوحي الله تعالى به إلى الأنبياء من العلم حق، وأن الحقائق التي يدعو إليها الوحي - والتي أهمها التوحيد - حق، وأن ما سواه جهل وضلال، ولما كانت حادثة المعراج بالنبِيِّ ﷺ أدل ما في السورة على صدق الوحي الذي يتلقاه ﷺ من ربه، أقسم تعالى بالنجم في حال هويّه ليدل على أن مَنْ جعل له مساراً يهوي فيه، قادر على أن يعرج بعبده ﷺ في السماوات السبع ويخرق قوانينها، وبذلك تتحقق الدلالة على صدق الوحي بأبلغ صورة، ومن جهة أخرى يدل القسم بهويّ النجم على بطلان عقيدة الشرك، فالكواكب والنجوم لا تكون معبودة؛ لأنها تنتقل وتتغير أماكنها. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان أن الوحي للأنبياء حق، والحقائق التي يدعو إليها حق، وأهمها التوجه بالعبادة لله وحده، وما سواه جهل وضلال.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز التناقض بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام الأول: مقدّمة تحوي قسماً بالنجم إذا هوى على أن ما يتلقاه النبي ﷺ من الوحي والعلم حق، والثاني: إبطال الشرك بمختلف صوره وبيان أنه ناشئ عن جهل المكذبين، مع بيان بعض حقائق الوحي وما يأتي به من العلم من الله تعالى، والثالث: الخاتمة المؤكّدة لما سبق^(١).

= ٣٤٠٦، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٧، ص ٨٨-٩٢، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٧، ص ٤٨٦، ٤٨٧، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٤١٦، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور، ص ٢٧٠-٢٧٧.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-١٨، وإبطال الشرك وبيان بعض حقائق الوحي: ١٩-٥٥، والخاتمة: ٥٦-٦٢. ومن لطائف هذه السورة: أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: هي أكثر سورة في القرآن ذكرت فيها عبارة ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ التي تعود على الله تعالى، وذلك أربع مرات، مرتان في الآية ٣٠: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُ أَلْسِنُ الْغَايَةِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا تَقُولُ﴾، ومرتان في الآية ٣٢: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْتُمْ مِمَّنْ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَتٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُرْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تَقُولُ﴾، ثانياً: منها ما يتعلق بالنبِيِّ ﷺ، فقولته تعالى ﴿مَا مَلَكَ مَا جِئَكُمْ وَمَا وَعَدَ﴾ ﴿وَمَا يَطُوعُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ ٢-٥، لم يذكر في موقع آخر من القرآن، وثالثاً: ومنها ما يتعلق بالمشرّكين المكذّبين: (أ) هي أكثر سورة في القرآن - بعد سورة يونس - يذكر فيها المصدر ﴿ظَنَ﴾ في سياق بيان جهل المشرّكين المكذّبين ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا

أولاً: جاء في مقدّمة السورة قَسَم من الله تعالى بالنجم في حال هويّه، على أن النبي ﷺ ليس بصاحب ضلال ولا غواية، إنما هو يتلقّى وحيه عن الله عزّ وجلّ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَبْطِئُ عَنِ الْمَوْتِ ۝٣ إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١﴾، ولا حظ بيان أن نطقه ﷺ بما يتعلق بأمور التشريع إنما هو وحى من الله تعالى، ولا حظ بيان أنه يتلقّى الوحي والعلم من لدن جبريل عليه السلام، وبيان مقام القرب هذا الذي حازه النبي ﷺ ولم يحزه أحد من قبله، هو أبرز تجليات قوله تعالى في سورة الطور السابقة لسورة النجم عنه ﷺ ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (بعض الآية: ٤٨).

فبعد أن بيّن سبحانه أنه ﷺ يتلقّى الوحي والعلم عن جبريل، وجبريل يتلقّى عن الله عزّ وجلّ، وأنه ﷺ ذو مقام سام عند الله تعالى، لم يعد هناك شك في كونه ﷺ صادقاً فيما يبلغه عن ربّه، ولم يعد هنالك مجال لاتهامه بأي من التهم الباطلة التي يدّعيها المشركون المكذّبون.

وقد أقسم سبحانه على هذه الحقائق بالنجم إذا هوى، ليدل على أن الله الذي جعل للنجم مساراً يهوي به، قادر على خرق قوانين السماء وأن يعرج بعبدّه ﷺ في السماوات السبع ويصل إلى مقام القرب، ومن دلالات هذا القَسَم أيضاً أن ما يدّعيه المشركون من عبادة الكواكب والنجوم باطل.

= الْقَلَنَ : ٢٣، و ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الْقُلُوبَ وَإِنَّا لَظَنُّونَ لَا يَفْقَهُونَ لَاحِقَ شَيْءٍ﴾ : ٢٨، وانظر في سورة يونس : ٣٦ مرتين، ٦٠، ٦٦، (ب) هي من أكثر السور التي جاء فيها عبارات تنفي العلم عن المشركين المكذّبين بصيغة صريحة : ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ : ٢٨، ﴿ذَلِكَ مَتْلُوهٌ مِنْ أَلْفٍ﴾ : ٣٠، و﴿أَعْبَدُوهُ عِلْمُ الْغَيْبِ هُوَ يَرَىٰ﴾ : ٣٥ وهذه العبارة الأخيرة لم تتكرر في القرآن، وقد جاءت مثل هذه العبارات في سورة الأنعام سبع مرات : ١٠٠، ١٠٨، ١١٩، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٨، وفي سورة الحج أربع مرات : ٣، ٥، ٨، ٧١، (ج) لم تذكر ﴿أَلَلَّتْ وَالْفَزَىٰ﴾ : ١٦ وَنُوءَ﴾ : ١٩، ٢٠، في سياق بيان بطلان عبادتها، وكذلك ﴿الْيَمْرُؤُا﴾ : ٤٩، (د) لم تذكر هذه العبارة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ : ٥٥، (هـ) لم يوصف المشركون المكذّبون بأنهم ﴿سَيِّدُونَ﴾ : ٦١. ورابعاً : أعتقد أن وصف يوم القيامة بقوله تعالى ﴿أَوَلَيْتِ الْأَزْفَةُ﴾ : ٥٧، متلائم مع وصف النجم بالهوي أول السورة، وذلك من حيث السرعة، فالنجم يهوي سريعاً، والقيامة يقرب وقها سريعاً. ولم يذكر هذا الوصف إلا هنا : ٥٧، وفي سورة غافر : ١٨. ينظر للمراجعة : عبد الباقي، المعجم المفهرس.

وقد أكد السياق أن النبي ﷺ في ذلك المقام قد رأى من آيات الله الكبرى، ولم تكن رؤيته رؤيا نائم، بل رؤية يقظان ما زاغ البصر منه وما طغى.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى بيان أن ما يقوم به المشركون المكذبون من عبادة الأصنام وتكذيب النبي ﷺ، إنما هو راجع إلى جهلهم وضلالهم: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ ﴿١٦﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ ۖ ﴿١٧﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۖ ﴿١٨﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۖ ﴿١٩﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْثَمُ وَعَابَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ۖ ﴿٢٠﴾

ولاحظ بيان أن تسمية هذه الأصنام بالآلهة ليس له وجه حق، إنما هو جهل وضلال وهوى وظن باطل تلقوه من آبائهم، ولاحظ قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ﴾ المشير إلى الوحي، فقد جاءهم العلم والوحي الصادق من ربهم، ففهم إصرارهم على ضلالهم!؟

ثم انتقل السياق إلى إبطال وجه آخر من وجوه الشرك الجاهلية، وهو فيما كانوا يعتقدونه بالملائكة الكرام: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ۖ ﴿٢١﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونُ الْمَلَائِكَةَ نَسِيَةً الْآثَىٰ ۖ ﴿٢٢﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ۖ ﴿٢٣﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ ﴿٢٤﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ۖ ﴿٢٥﴾

فالملائكة الكرام ليسوا إلا عباداً لله عز وجل، لا يملكون من أمرهم شيئاً بل هم مطيعون لربهم سبحانه وتعالى، ولاحظ بيان أن تسمية الجاهليين الملائكة تسمية الأنثى، وزعمهم أنهم بنات الله، إنما هو اعتقاد ناشئ عن جهلهم وظنهم الباطل أيضاً، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً.

فالملاحظ إذاً أن السياق يثبت أن العلم الذي يأتي من طريق الوحي هو الحق فقط، وأن ما عداه جهل وظن وضلال، وهذه الحقيقة التي أقسم الله عليها بالنجم إذا هوى، وجعل من هذا القسم اسماً للسورة ليدل عليها.

وفي سياق الرد على شبهات المشركين المكذبين واعتقاداتهم الباطلة، بين السياق أن الله عز وجل له ما في السماوات والأرض، وأنه واسع المغفرة، وأنه هو الذي ينشئ الإنسان جنيئاً في بطن أمه، وبالتالي فالله وحده المستحق للعبادة.

ثم انتقل السياق إلى عرض موقف آخر يبرز جهل المشركين المكذّبين: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ۖ وَاعْتَدَىٰ قَلِيلًا وَكَذَّبَ ۚ أَعِنْدَهُ غَنُمٌ قَلِيلٌ فَهُوَ يَكْبَرُ ۚ أَمْ لَمْ يُبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۖ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ۚ أَلَا نُزِرُ وَزْرًا وَزَرًا ۚ وَزَرًا أُخْرَىٰ ۚ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۚ وَأَنَّ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۚ﴾، فهذا المكذّب الذي يمنع الخير عن الناس، إنما دفعه جهله وضلاله إلى ذلك، ولو أنه آمن بما جاء به وحي الأنبياء من العلم لما منع خيره عن أحد، ولاحظ التفصيل في ذكر ما جاء في صحف موسى وإبراهيم عليهما السلام، ليتلاءم ذلك مع المحور المذكور للسورة، وهو أن ما يأتي عن طريق الوحي من العلم هو الحق، وما عداه جهل وضلال.

وقد ذكر السياق بعض ما جاء في هذه الصحف من العلم، وذكر منها ما يتعلق بالحقيقة الكبرى التي ينزل الوحي من أجلها، ألا وهي التوحيد: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۚ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۚ وَأَنَّ عَلَيْهِ النُّشْأَةَ الْآخِرَىٰ ۚ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ۚ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ ۚ﴾، فالسياق يبرز بعض مظاهر قدرة الله تعالى في خلق أصل الإنسان، وبيان قدرته تعالى على إهلاك المكذّبين، وقدرته على بعث الخلق ليوم الحساب، ولاحظ ذكر كونه تعالى رب الشعري، ليتلاءم ذلك مع تسمية السورة بالقسم بالنجم في حال هويّه، فالشعري أحد النجوم التي لها مدار تهوي فيه، فلا تجوز عبادتها، بل المعبود بحق هو مَنْ خلقها وجعل لها مساراً تهوي فيه.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فكما افتتحت السورة بالقسم بالنجم إذا هوى على أن الوحي والعلم الذي يتلقاه النبي ﷺ عن ربه حق، وأن حقيقة التوحيد - التي هي أهم حقائق الوحي - حق، وأن ما عدا الوحي جهل وضلال، ختمت ببيان أن النبي ﷺ إنما هو كمن سبقه من الأنبياء يتلقى العلم والوحي عن الله، وبيان أن ما يدفع المشركين إلى التكذيب إنما هو جهلهم وضلالهم، وقد دعتهم السورة إلى ترك التلهي وعبادة الله الواحد: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأَوَّلَىٰ ۚ أَرَأَيْتَ الْآزِفَةَ ۚ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ۚ أَفَنَ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجِبُونَ ۚ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَكُونُونَ ۚ وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ ۚ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۚ﴾، وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة النجم

سورة بيان أن وحي الله للأنبياء حق، وأن الحقائق التي يدعو إليها حق، وأهمها التوجه بالعبادة لله وحده، وأن ما سواه جهل وضلال

<p>الموضوع الثالث: (الآيات: ٦٢-٥٦) الخاتمة المؤكدة لما سبق:</p> <p>■ فكما افتتحت السورة بالقسم بالنجم إذا هوى على أن الوحي والعلم الذي يتلقاه النبي ﷺ من ربه حق، وأن ما عداه جهل وضلال، ختمت بالتأكيد على أن النبي ﷺ إنما هو كمن سبقه من الأنبياء يتلقى الوحي والعلم من الله، وببيان أن الذي يدفع المشركين إلى التكذيب إنما هو جهلهم وضلالهم: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّيْلِ تَمْجُونَ ۖ وَتَضْحَكُونَ ۚ وَلَا تَتَكُونُونَ ۚ وَأَنْتُمْ سَوْدُونَ ۚ فَأَعْبُدُوا اللَّهَ ۖ وَعَبُدُوا ۙ﴾.</p>	<p>الموضوع الثاني (الآيات: ١٩-٥٥) إبطال الشرك بمختلف صوره وبيان أنه ناشئ عن جهل المكذبين، مع بيان بعض حقائق الوحي وما يأتي به من العلم:</p> <p>■ بين السياق بطلان عبادة الأصنام: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّيْلِ وَالنَّجْمَ ۖ وَتَوَدَّ أَنْ تَكُونَ الْأَنْفُسُ ۚ تَلَذُّ ۚ فَإِذَا فِئَمَةٌ صَبَرُوا ۙ﴾.</p> <p>■ وبين أنها من جهالتهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيئُوهَا أَنْتُمْ وَابْنُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ۙ﴾.</p> <p>■ وبين السياق بطلان عبادة الملائكة الكرام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمَعُونَ أَلْسِنَةَ أَصْنَمٍ ۚ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَا ظَنُّهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۚ وَمَا هُوَ إِلَّا قُرْآنٌ مَنجُومٌ ۚ﴾.</p> <p>■ وبين السياق أن الله وحده المستحق للعبادة، فهو الذي له ما في السماوات والأرض، وهو واسع المغفرة، وهو الذي أنشأ الإنسان جنيئاً في بطن أمه.</p> <p>■ وبين السياق جهل المكذبين الذين يمعنون الخير عن الناس، وما ذلك إلا لعدم إيمانهم بما جاء في صحف موسى وإبراهيم الذي وفي، ألا تزر وزارة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى.</p> <p>■ وبين السياق بطلان عبادة الكواكب والنجوم، بل المستحق للعبادة رب هذه الكواكب وخالقها: ﴿وَأَنْتُمْ هُمْ رَبُّ الْأَشْجَارِ ۙ﴾.</p>	<p>الموضوع الأول (الآيات: ١-١٨) المقدمة التي تحوي قسماً بالنجم إذا هوى على أن ما يتلقاه النبي ﷺ من الوحي والعلم حق:</p> <p>■ أقسم الله بالنجم إذا هوى على أن النبي ﷺ ليس بضال ولا غاوٍ، وأنه ما ينطق عن الهوى، بل هو وحي يوحى من الله.</p> <p>■ والقسم بالنجم إذا هوى يدل على أن من جعل للنجم مساراً يهوي فيه، قادر على خرق قوانين السماء فيعرج بعبدته ﷺ ليتلقى الوحي من مكان القرب، كما وأن القسم بالنجم يدل على بطلان عبادة الكواكب لأنها تهوي في مساراتها رغم ضخامة حجمها.</p> <p>■ وبينت المقدمة أن رحلة معراجة ﷺ لم تكن رؤيا نائم، بل رؤيا يقظان ما زاغ البصر منه وما طغى.</p>
---	---	---

سورة القمر

﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتَبٌ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى حديثها عن معجزة انشقاق القمر للنبي ﷺ حينما طلب منه قومه ذلك، فكان انشقاقه آية دالة على صدق النبي ﷺ المؤيد بالمعجزات من ربه، بعد أن لم يكف قومه معجزة القرآن الكريم لحملهم على الإيمان.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور السورة هو بيان تحقق الساعة وشدة قربها، وبيان مصير المكذبين بها، فهي بمثابة حملة مفزعة لقلوب المكذبين بالنذر، بقدر ما هي طمأنينة لقلوب المؤمنين، فقصص السابقين المذكورين فيها تؤكد قدرة الله تعالى على تعذيب المكذبين وإهلاكهم، وختمها بمشهد من يوم القيامة يؤكد قدرته على البعث، ومعجزة انشقاق القمر للنبي ﷺ آية دالة على قدرة الله على إهلاك المكذبين بعد معانيتهم الآيات^(١).

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٣٠٧، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٧، ص ٣٣٩، ٣٤٠، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٤٢٤-٣٤٢٨، وهو يثبت حادثة انشقاق القمر، ولكنه يتوقف في تعليقه بأنه معجزة كما جاء في الروايات، بل يعتبره آية من آيات الله، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٧، ص ١٦٦-١٧٢، وأ.د. مسلم، زملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٧، ص ٥١٢. وطهماز، من سورة الطور إلى سورة الناس، ص ٣٥، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٤١٩، وقد ذكر أن انشقاق القمر إما معجزة للنبي ﷺ أو من أحداث الآخرة دون ترجيح، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ١٠٧-١٠٩، وانظر الروايات التي ذكرت أنها معجزة لنبي ﷺ: صحيح البخاري، كتاب التفسير، برقم: ٤٤٨٦، وصحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، برقم: ٥٠١٤. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان بآيات الله التي أيد بها نبيه ﷺ بعد أن لم تكف المكذبين معجزة القرآن وما فيه من الذكر، مع تهديدهم ببيان مصير المكذبين السابقين بآيات الله ورسله، ولما كانت معجزة انشقاق القمر للنبي ﷺ أدل ما في السورة على المحور المذكور، سُميت السورة بها للدلالة عليه. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان إهلاك الله للمكذبين بعد معاينتهم الآيات الدالة عليه سبحانه.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: مقدّمة تحوي تهديداً بالعذاب الأخروي بعد أن لم تكف المكذبين آيات الله المعجزات في الدنيا، ثم عرض قصصي يبرز مصير الأقوام لما كذبوا بدعوة الرسل وما أيدهم الله به من آيات، ثم خاتمة مؤكدة لما سبق^(١).

أولاً: جاء في مقدّمة السورة تهديد للمكذبين بمعجزة انشقاق القمر - الذين يعتبرونها وكل آية يرونها من آيات الله سحراً مستمراً - بالعذاب الأخروي من الله بعد أن لم تكفهم آياته في الدنيا: ﴿أَفَتَرَبَّ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۚ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۚ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۚ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ ۚ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۚ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ ۚ خُشْعًا ۚ﴾

(١) مقدّمة السورة شملت آيات: ١-٨، والعرض القصصي: ٩-٤٢، والخاتمة: ٤٣-٥٥. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وهي كلها تحوي تهديداً للمكذبين: (أ) فقد تكرر فيها «الساعة» ثلاث مرات: ﴿أَفَتَرَبَّ السَّاعَةُ﴾: ١، ﴿يَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ وَامْرٌ ۚ﴾: ٤٦، ولم تتكرر هذه الصيغة، (ب) هي الوحيدة التي اختصت بقوله ﴿وَلَقَدْ بَرَأْنَا الْإِنْسَانَ لِلْذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾: ١٧، (ج) هي الوحيدة التي تكرر فيها ذكر «النذر» مع آل التعريف: ٥، ٢٣، ٣٣، ٣٦، ٤١، كما أنها الوحيدة التي ذكرت فيها كلمة «نذر» دون آل التعريف: ١٦، ١٨، ٢١، ٣٠، ٣٧، ٣٩، (د) قوله ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾: ٤، ذكر هنا فقط، (هـ) وكذلك قوله ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾: ٦، وقوله ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرَجٌ﴾: ٨، فلم تتكرر «عسر» بدون ياء، وقوله ﴿فَلَعَنَ لَكُمْ أَعْدَٰءُ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾: ٤٢، وفي المقابل عن أهل الجنة ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾: ٥٥، فلم يذكر «ملك» في موضع آخر، وقوله ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾: ٥١، هنا فقط. ينظر للمراجعة: عبد الباقى، المعجم المفهرس.

أَبْصَرُهُمْ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾، فهم لم تكفهم آيات القرآن، ولا حتى انشقاق القمر لحملهم على الإيمان، فاستحقوا العذاب في ذلك اليوم العسر.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض قصصي يؤكّد إهلاك الله للمكذّبين السابقين بدعوة رسل الله وآياته التي أيدهم بها، وقد ابتدأ السياق بقصة نوح، إذ لم يكف قومعه تسع مئة وخمسون عاماً من الدعوة: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَجٍ وَدَسِيرٍ ﴿١٣﴾ تَجَرَّى بِاعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنِ كَانَ كُفْرٌ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٥﴾﴾، ثم عرض السياق إهلاك عادٍ بعد أن كذبوا هوداً، وإهلاك ثمود بعد كذبوا صالحاً، وعقروا الناقة، وهي معجزة دالة على صدق النبي كمعجزة انشقاق القمر، فأهلكهم الله، وعرض إهلاك قوم لوط بعد أن أعرضوا عن نعمة الله عليهم بالنساء، وختم بإهلاك فرعون وقومه الذين كذبوا بآيات الله كلّها، وبعد كل قصة كان يكرر العبارة ﴿وَلَقَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾.

إن عرض هذه القصص مع التعقيب على كل واحدة منها بهذا السؤال، ليؤكد المحور المذكور من الدعوة إلى الإيمان بالمعجزات التي أيّد الله بها نبيّه ﷺ بعد أن لم تكف المكذّبين معجزة القرآن.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التهديد بالعذاب الأخروي لمن كذب بآيات الله المعجزات في هذه الدنيا: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَهُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿١٦﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ﴿١٧﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿١٨﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذًى وَأَمْرٌ ﴿١٩﴾﴾.

وكما افتتحت بتهديد المكذّبين بمعجزة انشقاق القمر بعد أن تكفهم معجزة القرآن الكريم، ختمت ببيان المصير الأخروي للفريق المقابل وهم المؤمنون بآيات الله المعجزات يوم القيامة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٢٠﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقَدَّرٍ ﴿٢١﴾﴾. وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، كون انشقاق القمر من آيات الله المعجزات التي أيّد الله بها نبيّه ﷺ.

سورة القمر

سورة بيان إهلاك الله للمكذّبين بعد معاينتهم الآيات الدالة عليه سبحانه وتعالى

الموضوع الأول (الآيات : ٨-١)	الموضوع الثاني (الآيات : ٩-٤٢)	الموضوع الثالث (الآيات : ٤٣-٥٥)
<p>المقدمة التي تحوي تهديداً بالعذاب الأخروي بعد أن لم تكفِ المكذّبين آياتُ الله المعجزات في الدنيا :</p> <p>■ افتتحت السورة بعرض موقف المكذّبين من آية انشقاق القمر لسيدنا محمد ﷺ : ﴿ أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُرْسِلُوهُمْ وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعِجِرٌ ﴿١﴾ .</p> <p>■ وقد ذكّرتهم المقدمة وهذّبتهم ببيان مصير المكذّبين السابقين : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ .</p> <p>■ وحذّرتهم من العقوبة الأخروية إذا أصرّوا على تكذيبهم : ﴿ قَوْلٌ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ هَٰذَا أَنْصُرْهُ خُشَعًا أَنْصَرُّهُمْ يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَعْدَانِ كَانَهُمْ جَرَادٌ مُّتَبَرِّجٌ ﴾ ﴿٧﴾ .</p>	<p>عرض قصصي يبرز مصير الأتواء لما كذبوا بدعوة الأنبياء وما أيّدهم الله به من الآيات :</p> <p>■ أول قصة، قصة قوم نوح عليه السلام الذين لم تكفهم ألف سنة إلا خمسين عاماً من الدعوة، فقد نجى الله رسوله في السفينة، وأهلك قومه المكذّبين : ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوَاجِ وَدُسِّرَ ﴾ ﴿١٢﴾ نَجَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٣﴾ .</p> <p>■ ثم عرض السياق قصة إهلاك عاد بريح صرصر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر .</p> <p>■ ثم عرض قصة إهلاك ثمود بعدما عقروا الناقة، وهي آية دالة على الله وعلى صدق صالح عليه السلام، كدلالة آية انشقاق القمر على صدق سيدنا محمد ﷺ .</p> <p>■ ثم عرض قصة إهلاك قوم لوط عليه السلام الذين آثروا الشهوة المحرمة على شهوة النساء التي أباحها الله .</p> <p>■ ثم ختم بقصة فرعون وآله الذين كذبوا بآيات الله كلها، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .</p> <p>■ بعد كل قصة كان السياق يذكر السؤال التالي : ﴿ وَلَقَدْ بَيَّنَّا الْفُرْقَانِ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴾ ﴿١٧﴾ ، وهو سؤال يؤكد المحور المذكور الدال على التحذير من التكذيب بآيات الله لأنه أمر معرض للهلاك .</p>	<p>الخاتمة المؤكّدة لما سبق :</p> <p>■ أعادت التهديد بالعذاب الأخروي لمن كذب بآيات الله المعجزات في هذه الدنيا : ﴿ أَنزَلْنَاهُ عَلَىٰ سَبْعٍ مِّنْ نُّجُومٍ ﴾ ﴿٤٣﴾ سَبْعَ لُجُجٍ وَيَوْمَ لَا يُنْفَعُ الدُّعَاءُ وَلَا السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ وَآمِرٌ ﴿٤٤﴾ .</p> <p>■ وكما افتتحت السورة بتهديد المكذّبين بمعجزة انشقاق القمر، ختمت ببيان مصير الفريق المقابل، وهم المؤمنون المتقون : ﴿ إِنَّ الْأَتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَهِيَ الْفُجَاءُ فِي جَنَّتٍ وَعَنَّا فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِكٍ مُّقْدِرٍ ﴾ .</p>

سورة الرحمن

﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس رحمه الله: «الراء والحاء والميم: أصل واحد يدل على الرقة والعطف والرافة»^(١)، وزاد الإمام الأصفهاني رحمه الله: «الرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل في الرقة المجردة، وقد تستعمل في الإحسان المجرد عن الرقة...، وإذا وصف به البارئ فليس يراد به إلا الإحسان المجرد عن الرقة»^(٢)، فافتتاح السورة بهذا الاسم الجليل يعطي دلالات متناسقة مع ما سيذكره السياق من مظاهر رحمته تعالى بالإنس والجان، يؤكد هذا مجيء هذا الاسم على صيغة المبالغة.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة الدلالة على عظيم ملك الله وتمايم اقتداره، بعموم رحمته وسبقها لغضبه، فالسورة إعلان عام في ساحة الوجود الكبير بآلاء الله الباهرة في جميل صنعه وإبداع خلقه، وفي فيض نعمائه وفي تدبيره للوجود وما فيه، وتوجه الخلائق كلها إلى وجهه الكريم، مع تحذير الثقيلين إن كانا يملكان التكذيب بهذه الآلاء، فالسورة تحث على شكر آلاء الله وتحذر من تكذيبها أو التغافل عنها، وعلى هذا كله دل اسمها «الرحمن»^(٣).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى

(١) ينظر: ابن فارس، المقاييس، ٤٤٦.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ٣٤٧. بتصرف.

(٣) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٣١١، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٧، ص ٣٧١، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٤٤٥، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٧، ص ٢٢٩، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٧، ٥٤٥، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ص ٤٢٢-٤٢٤، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن، ص ٢٧٣-٢٧٦.

التوحيد من خلال عرض بعض مظاهر رحمة الله تعالى المتعلقة بالإنس والجنّ في الدنيا والآخرة. ولما كان الاسم الجليل «الرحمن» يدلّ على ذلك، جُعل اسماً للسورة للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان بعض مظاهر آلاء الرحمن على الإنس والجانّ في الدنيا والآخرة.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة لقسمين متساويين تقريباً؛ أولهما: بيان بعض آلاء الرحمن على الإنس والجانّ في الدنيا، وثانيهما: بيان بعض آلاء الرحمن على الإنس والجانّ في الآخرة^(١).

(١) القسم الأول شملته الآيات: ١-٣٦، والقسم الثاني: ٣٧-٧٨. ومن لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور التي تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة بالله تعالى تبرز بعض مظاهر رحمته: (أ) فمن ذلك تكرار عبارة ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ إحدى وثلاثين مرة، منها الآيتان رقم: ٥٥، و ٦٩، وقريب منها قوله تعالى في سورة النجم: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾: ٥٥، علماً بأن رقم سورة الرحمن المشهورة بتكرار تلك العبارة: ٥٥، وقريب منها أيضاً: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾: الأنعام: الأعراف: ٦٩، ٧٤، (ب) هي السورة الوحيدة التي تكرر فيها الفعل «خلق» مع كلمة «الإنسان» صراحة وليس بالضمير العائد عليه: ٣، ١٤، (ج) سورة الرحمن وسورة العلق الوحيدتان اللتان تكرر فيهما الفعل «علم» المختص بالله تعالى فيما يتعلق بالإنسان كجنس وليس كفرد أو مجموعة خاصة: الرحمن: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ٢، ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ ٢، ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ ٢-٤، والعلق: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ١، ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾: ٤، ٥، (د) هي أكثر سورة تكررت فيها كلمة «الميزان» الدالة على رحمة الله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ٧، ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ ٦، ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾: ٧-٩، (هـ) هي وسورة الأنعام أكثر سورتين تكررت فيهما كلمة «إنس»، وقد جاءت في سورة الرحمن في سياق التذكير بنعم الله والتحذير من تكذيبها، الرحمن: ٣٣، ٣٩، ٥٦، ٧٤، والأنعام: ١١٢، ١٢٨ (مرتين)، لكن سورة الرحمن تميّزت بأنها السورة الوحيدة التي تكررت فيها كلمة «جانّ»: ١٥، ٣٩، ٥٦، ٧٤، (و) هي السورة الوحيدة التي ذكر فيها وصف الله تعالى بأنه «ذو الجلال والإكرام»: ٢٧، ٧٨، وقريب منها وصفه تعالى بأنه «الأكرم» في سورة العلق: ٣، ثانياً: ومنها أمور متعلقة باليوم الآخر وهي أيضاً تبرز مظاهر رحمة الله تعالى: (أ) هي السورة الوحيدة التي وصفت فيها حالة السماء يوم القيامة بقوله ﴿فُكِّتْ وَرُفِدَتْ كَالْإِهْنَانِ﴾: ٥٧، ولاحظ أن التعبير لطيف متناسب مع دلالة اسم السورة، (ب) هي السورة الوحيدة التي ذكرت فيها عبارة ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾: ٤١، بالجمع لا الأفراد مع الفعل المبني للمجهول، ودلالة الجمع ألطف من دلالة الأفراد، وانظر قوله في سورة العلق لكن مع الفعل المبني للمعلوم: ﴿لَتَسْمَنَّ الْأُيُتَامَى﴾: ١٥، ﴿نَاصِبَةٍ كَذِبَةٍ خَالِفَةٍ﴾: ١٥، (ج) هي السورة الوحيدة التي أخبرت عن ﴿وَلَيْسَ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾: ٤٦، والتعبير بالثنية يؤكد مزيد الرحمة، وهي كذلك =

أولاً: جاء في القسم الأول من السورة بيان لعدد من مظاهر رحمة الله تعالى على الإنس والجن في هذه الحياة الدنيا: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾، ولاحظ ذكر خلق الإنسان بين تعليم القرآن وتعليم البيان، إن في ذلك مزيد تأكيد على مظاهر رحمته تعالى بالإنسان، إذ لو أن الإنسان خُلِق بلا تعليم لما كان حاله أحسن من البهائم، لكن الله أكرمه بالتعليم.

وقد بيّن السياق أن الله تعالى سَخَّر ما في هذا الكون ليتمكن الإنسان والجان من العيش بكرامة في الأرض، فقد خلق الله الشمس والقمر بحسبان، وجعل نجوم السماء دالة على قدرته، وكذلك شجر الأرض، وقد رفع السماء ووضع للكون ميزاناً، فلا ينبغي للإنسان ولا للجان أن يطغيا بسوء تصرفاتهما في ميزان الكون، كما أنهما مأموران بأن يقيما الوزن بالقسط بلا تخسير، وقد وضع الله الأرض للأنام وجعل فيها فاكهة ونخلاً وحَبّاً وريحاناً، هذا كله يدلّ كما ترى على مظاهر رحمة الله تعالى بالإنسان والجان. أكد ذلك السؤال التقريري بعد ذكر هذه النعم: ﴿فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمْ أَتُكْذِبُونَ﴾.

ثم انتقل السياق بعد أن أقرّ نعمة الإمداد إلى نعمة الإيجاد، فذكر أصل خلق الإنسان والجان: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۝٥ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ۝٦ فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمْ أَتُكْذِبُونَ ۝٧ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝٨ فَإِنِّي ءَالَاءِ رَبِّكُمْ أَتُكْذِبُونَ ۝٩﴾، ولاحظ بيان أن الله تعالى هو رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين، ليتلاءم ذلك مع ما سبقه من بيان أنه هو خالق الإنسان والجان، فإن القادر على خلقهما والقادر على خلق المشرقين والمغربين هو وحده المستحق للعبادة.

كما وبيّن السياق من مظاهر رحمة الله بالإنسان والجان أن الله هو الذي مرج البحرين العذب والفرات وجعل بينهما برزخاً لا يبغيان، وهو الذي سخر البحر لتجري فيه السفن، وبعد ذكر هذه الآيات الجليلة ذكر أن كل ما على الأرض سيفنى، ولا يبقى إلا الله ذو

= الوحيد التي وُصفت فيها الجنة بأنهما ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾: ٤٨، وأن ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾: ٥٠، (د) وهي السورة الوحيدة التي أخبرت عن الجنة الآخرين: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾: ٦٢، وأنهما ﴿مُدْهَمَّتَانِ﴾: ٦٤، وأن ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَصَاحَتَانِ﴾: ٦٦. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

الجلال والإكرام. وبذلك يتحقق أنه تعالى هو موجد الخلق أول مرة، كما أنه هو المعيد لهم في الآخرة.

وقبل الانتقال إلى بيان مظاهر رحمة الله في الآخرة، بين السياق أن تسخير الكون للإنس والجن لا يعني أن لهما مطلق الحرية فيه، بل هما مأسوران فيه لا يستطيعان النفاذ منه: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ ٣١ ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٣٢ ﴿يَمَغْسِرُ الْخَبْثَ وَالْإِنْسَ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَفْذَرُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَافْذَرُوا لَا تَفْذَرُونَ إِلَّا سُلْطٰنٍ﴾ ٣٣ ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فليس لأحد من الجن أو الإنس القدرة على النفاذ من أقطار السماوات والأرض إلا إذا أراد الله شيئاً من ذلك، كما أكرم عبده ﷺ بعروج السماوات السبع.

ثانياً: وبعد بيان مظاهر رحمة الله بالإنس والجن فيما يتعلق بالدنيا، انتقل إلى بيان مظاهر رحمته تعالى بهما في الآخرة، وبذلك يتحقق أن الله تعالى هو المنعمُ الرحمنُ ابتداءً، وهو المنعمُ الرحمنُ انتهاءً، وقد بدأ السياق بالحديث عن مصير المجرمين، ولا يتعارض ذلك مع سياق تعداد النعم، بل على العكس، إذ إن بيان مصير المجرمين هو من أبرز مظاهر رحمة الله، لأن بيان مصيرهم دليل عدله تعالى: ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ ٣٤ ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٣٥ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُشْعِلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ ٣٦ ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٣٧ ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسْمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ ٣٨ ﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٣٩ ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ٤٠ ﴿يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ ٤١ .

ولكن بالرغم من أن الحديث عن المجرمين إلا أن التعبير ما زال لطيفاً منسجماً مع اسم السورة، فلاحظ التعبير عن انشقاق السماء ووصفها بالوردة كالدهان، وعدم ذكر شيء عن الحساب، بل يؤخذ المجرمون إلى جهنم مباشرة فلا داعي لحسابهم وقد ثبت من جرائمهم أنهم أهل النار، وذكر النواصي والأقدام بالجمع وليس بالافراد، مع الفعل المبني للمجهول وليس للمعلوم، واقتصر السياق في وصف عذابهم فقط على أنهم يطوفون بين جهنم وبين الحميم الآن.

ثم انتقل السياق إلى الحديث عن أهل الجنة، واللافت للنظر أن السياق قسّم أهل الجنة لقسمين، وجعل لكل فردٍ من القسمين جنتين، ولا يخفى أن هذا التفصيل الذي لم يتكرر في

القرآن على هذا النحو يؤكد المحور الذي تدور حوله السورة، والذي عبر عنه اسمها بأبلغ صورة، فابتدأ بالحديث عن المقربين: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ﴾ (٤٦) ﴿فِي أَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ﴾ (٤٧) ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ (٤٨) ﴿فِي أَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ﴾ (٤٩) ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ (٥٠) ﴿فِي أَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ﴾ (٥١) ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ نَكْهَةٍ ذَوْجَانِ﴾ (٥٢) ﴿فِي أَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ﴾ (٥٣) ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَىٰ الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ (٥٤)، ولاحظ ذكر الفاكهة المتناسب مع ذكرها أول السورة، فكما هي من مظاهر رحمة الله بالإنسان في الدنيا، فهي من مظاهر رحمته تعالى في الآخرة، ولاحظ أن السياق وصف بطائن الفرش بأنها من إستبرق، فإذا كان هذا وصف البطائن فما بالك بالظواهر.

ثم انتقل السياق إلى الحديث عن الجنتين الآخرين لمن هم دون المقربين من أهل الجنة: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ (٥٦) ﴿فِي أَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ﴾ (٥٧) ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ (٥٨) ﴿فِي أَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ﴾ (٥٩) ﴿فِيهَا عَيْنَانِ فَضَّاحَتَانِ﴾ (٦٠) ﴿فِي أَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ﴾ (٦١) ﴿فِيهَا نَكْهَةٌ وَخُلٌّ وَرُمَّانٌ﴾، ولاحظ وصف العينين هنا بالنضاختين، بينما العينان عند المقربين وصفت بالجريان، ووصف العينين بالجريان أبلغ، لأن الجريان يعطي مدى أطول وأزيد للماء، بينما الوصف بالنضخ يحدّد مدى الماء وكأنهما نافورتان محدودتان، ولاحظ وصف الفاكهة المتلائم مع ذكرها في المقدمة، ولا يخفى أن هذا الوصف أقلّ في الدلالة من وصف الفاكهة عند المقربين.

وكما افتتحت السورة باسم الرحمن للدعوة إلى التوحيد بذكر بعض مظاهر رحمته تعالى بالإنس والجانّ، ختمت بالدعوة إلى التوحيد بعد ذكر مظاهر رحمته تعالى بالمؤمنين من الإنس والجانّ في الآخرة: ﴿فِي أَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ﴾ (٦٥) ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ (٦٦) ﴿فِي أَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ﴾ (٦٧) ﴿بَرَكَ أَنْتُمْ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٦٨)، وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ وأجمل دلالة.



سورة الرحمن

سورة بيان بعض مظاهر آلاء الرحمن على الإنس والجان في الدنيا والآخرة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٣٦)

بيان بعض آلاء الرحمن على الإنس والجان في الدنيا:

■ افتتحت السورة بذكر نعمتي خلق الإنسان وتعليمه القرآن والبيان، ولولا هاتان النعمتان لما كان حال الإنسان أفضل من البهائم، ولكن الله أكرمه بالتعليم.

■ وقد بين السياق بعض مظاهر آلاء الله، إذ سحر ما في الكون ليتمكن الإنس والجان من العيش بكرامة في الأرض، فالله خالق الشمس والقمر بحسبان، فلا ينبغي للإنس والجان أن يطغوا بهذا الميزان بسوء التصرف، وقد وضع الله الأرض للأنام وجعل فيها فاكهة ونخلًا وحبًا وريحانًا، ثم أكد هذه النعم بالسؤال التقريري: ﴿فَيَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾.

■ ثم انتقل السياق إلى نعمة الإيجاد، فذكر السياق أن أصل الإنسان من صلصال كالفخار، وأن أصل الجان من مارج من نار، وأكد قدرة الله على خلق الإنس والجان ببيان أنه رب المشرقين ورب المغربين، وأنه هو الذي مرج البحرين فيه يلتقيان، وأنه الذي سحر البحر لتجري فيه الفلك، ثم بين أنه قادر على إفناء العالم كما أنه هو الذي خلق العالم أول مرة: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٣٦﴾ وَيَسْفِكُ صَبَاحُكَ دُوَّ الْحَبَلِ وَالْأَكْرَامِ ﴿٣٧﴾﴾.

■ وبين السياق أن هذه الآلاء لا تعني أن للإنس والجان مطلق الحرية في الكون، بل هما مأسوران فيه لا يستطيعان النفاذ منه.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٣٧-٧٨)

بيان بعض آلاء الرحمن على الإنس والجان في الآخرة:

■ ابتدأ السياق ببيان مصير المجرمين المكذبين بعدما عاينوا من آلاء ربهم الرحمن ما عاينوا، فكان بيان مصيرهم دليلاً على عدل الرحمن سبحانه.

■ ولم يفضل السياق في عرض مصيرهم ولكن ذكر أن المجرمين سيؤخذون بالنواصي والإقدام، ثم يطوفون بين جهنم وبين حميم آني، وعدم التفصيل في بيان مصيرهم متلائم مع دلالات اسم السورة.

■ في المقابل فصل السياق في بيان مصير المؤمنين بالرحمن سبحانه، فابتدأ بالمقربين منهم وهم كل من خاف مقام ربه سبحانه، فلهم جنتان ذواتا أفنان، فيهما عينان تجريان، ومن كل فاكهة زوجان: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَىٰ الْجَنَّتَيْنِ دَانِ ﴿٣٨﴾﴾.

■ ثم فصل السياق في مصير المؤمنين الذين هم دون المقربين في المنزلة، فلهم جنتان أخريان مدهامتان، فيهما عينان نضاختان، وفيهما فاكهة ونخل ورمان.

■ وكما افتتحت السورة بذكر بعض مظاهر آلاء الرحمن على الإنس والجان في الدنيا، ختمت بذكر بعض آلاء الرحمن على المؤمنين من الإنس والجان في الآخرة: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَنَبْتٍ جَسَادِ ﴿٣٩﴾ فَيَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ ﴿٤٠﴾ نَبْرَكَ أَنتُمْ رَبُّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٤١﴾﴾.

سورة الواقعة

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس رحمه الله: «وقع: الواو والقاف والعين أصل واحد يدل على سقوط الشيء، والواقعة: القيامة، لأنها تقع بالخلق فتغشاهم»^(١)، ويقول الإمام الأصفهاني رحمه الله: «الوقوع: ثبوت الشيء ووقوعه، وأكثر ما جاء في القرآن من لفظ (وقع) جاء في العذاب والشدائد»^(٢). وأما الدلالة السياقية فتعود إلى بيان أن يوم القيامة يوم سيقع بالناس بلا كذب، وحينها سيُخفف أناس ويرفع آخرون؛ بناء على الأعمال التي ستوزن بميزان الله، ثم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: السابقين، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، وقد أكد ذلك مجيء اسم السورة بصيغة اسم الفاعل، وكأنها أمر قد حصل، و«أل» التعريف تدلّ على انفرادها بهذه الصفة، فلا واقعة حقيقة غيرها.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

أما من حيث علاقة هذا الاسم بموضوعات السورة، فقد ذكر بعض المفسرين والكاتبين أن سبب تسمية هذه السورة بهذا الاسم إنما يعود لكونها مملوءة بوقائع يوم القيامة، وأنها تحدّثت عن مآل كل قسم من الأقسام الثلاثة المذكورين أولها، والذين كانوا قد ذُكروا في سورة الرحمن السابقة لها، وجزائهم العادل، فاسم السورة يعبر عن القضية الأولى التي تعالجها هذه السورة المكية، ألا وهي النشأة الآخرة ردّاً على قول المشركين الشاكّين فيها والمكذّبين بالقرآن، فدلالة اسم السورة «الواقعة» وما يتعلق به الظرف أدلّ ما فيها على ذلك^(٣).

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ١١٠١.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ٨٨٠.

(٣) ينظر: الفيروزآبادي، البيان بمقاصد القرآن، ص ١٠٦، والمهايمي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٣١٥ =

ومن الممكن أن تُلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: إقامة الحجة على أن القيامة واقعة لا محالة، من خلال بيان قدرة الله تعالى على البعث بالأدلة العقلية، والتأكيد على ذلك ببيان مصير الناس في ذلك اليوم، فاسم السورة يدلّ على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة إثبات أن القيامة واقعة لا محالة.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام: مقدّمة تعرض بعض أهوال يوم القيامة، ثم تفصيل في حال ومصير الأقسام الثلاثة المذكورة فيها، ثم ذكر أدلة عقلية من واقع حياة الإنسان على القدرة الإلهية على البعث، ثم خاتمة مؤكّدة لما سبق^(١).

أولاً: جاءت مقدّمة السورة متحدّثة عن بعض أهوال يوم القيامة، وأن الناس سينقسمون

= والبقاعي، نظم الدرر، ج ٧، ص ٤٠٢، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٧، ص ٢٨١، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٤٦٢، ر. أ. د مسلم وزملاؤه، التفسير الموضوعي، ج ٧، ص ٥٩١، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، ص ٤٢٥، وطهماز، من سورة الطور إلى سورة الناس، ص ٦٥. وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١ - ٧، والحديث عن مصير الأقسام الثلاثة: ٨ - ٥٦، والأدلة العقلية: ٥٧ - ٨٠، والخاتمة: ٨١ - ٩٦. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور تؤكّد وقوع يوم القيامة من خلال بيان مصير الناس فيها: أ) فقولته تعالى ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾: ٧، لم يتكرر في القرآن، وقوله ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾: ٨، ذكر هنا وفي سورة البلد: ١٨ فقط، بينما قوله ﴿أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾: ٩، لم يتكرر، وكذلك ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾: ١٠، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بالأدلة العقلية الدالة على قدرة الله: أ) فمما يتعلق بالإنسان قوله ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ﴾: ٥٨، وقد ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، وكذلك قوله ﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾: ٥٩، وقريب منه في سورة الطور: ٣٥، وكذلك قوله ﴿وَمَا نَحْنُ بِسَبِقِينَ﴾: ٦١، هنا فقط بهذه الصيغة، وقريب منه في سورة الإنسان: ٢٨، والمعارج: ٤١، ب) ومنها ما يتعلق بالزرع، فقوله ﴿أَأَنْتُمْ تَرْزُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الرَّزَّاقُونَ﴾: ٦٤، لم يتكرر في القرآن، ج) ومنها ما يتعلق بالماء، فقوله ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾: ٦٩، ٧٠، لم يتكرر، د) ومنها ما يتعلق بالنبات، فقوله ﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾: ٧٢، لم يتكرر كذلك. وبإمكانك أن تضيف أن قوله تعالى واصفاً حقيقة اليوم الآخر: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَوْحٌ ذَقْنٌ يُبِينُ﴾: ٩٥، لم يتكرر في القرآن بالصيغة ذاتها، وانظر قريباً منه في سورة الحاقة: ﴿وَلَيْلَةٌ كَئِيفٌ يَقِينُ﴾: ٥١. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

حينها إلى ثلاثة أقسام، وذلك يتناسب مع دلالة لفظ الواقعة وجُرسه الصوتي «فالواقعة بمعناها وبجرس اللفظ ذاته - بما فيه من مدٍّ ثم سكون - تُلقَى في الحِسِّ كأنما هي ثِقْلٌ ضخْمٌ ينقُضُ من علٍّ ثم يستقرُّ، لغير ما زحزحة بعد ذلك ولا زوال، ثم إن سقوط هذا الثقل ووقوعه كأنما يتوقع له الحِسُّ أرجحة ورجرجة يُحدثها حين يقع، ويلبي السياق هذا التوقع فإذا هي تخفض أقداراً كانت رفيعة في الأرض، وترفع أقداراً كانت خفيضة، وإذا هي ترجُّ الأرض رجاً، وإذا الجبال الراسية تتحوّل إلى فتات يتطاير كالهباء»^(١). ولاحظ أيضاً قوله تعالى ﴿لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ۖ﴾ المؤكّد للمحور المذكور وارتباط اسم السورة به، ومما يلاحظ أن التعبير عن انقسام الناس جاء بصيغة الماضي: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۖ﴾، والتعبير بهذا الفعل يجعل من القارئ شاهد عيان وكأن الواقعة وقعت وهو يرى انقسام الناس إلى ثلاثة أقسام بأمّ عينيه.

ثانياً: ثم تنتقل السورة إلى الحديث عن مصير تلك الأفرقة الثلاثة، فابتدأت بالمقرّبين لفضلهم، ثم أصحاب اليمين، ثم أصحاب الشمال، ولا توجد سورة في القرآن ذكرت الحديث عن هذه الأقسام الثلاثة مجتمعة بهذا القدر الموجود في سورة الواقعة، ويلفت النظر أيضاً أسلوب التعبير عن تلك الأقسام، فانظر قوله تعالى عن السابقين: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۚ﴾ في جَنَّتِ النَّعِيمِ، وقوله عن أصحاب اليمين: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۖ﴾ في سِدْرٍ مَحْضُورٍ، وقوله عن أصحاب الشمال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۖ﴾ في سَمُورٍ وَحِمِيرٍ وَظِلِّ مِّنْ يَّحْمُورٍ، إن التعبير بشبه الجملة المفيدة للظرفية تطلّعك على مزيد من الحضور وكأنك تراه، بينما جاء التعبير في سور أخرى - كسورة الرحمن مثلاً - بالجملة الاسمية: ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ﴾ التي تفيد الإخبار دون الحضور الذي تجده في سورة الواقعة.

ويلفت النظر أيضاً التفصيلُ في مصير تلك الأقسام الثلاثة، وفي وصف نعيم فريق السابقين المقرّبين، وفريق أصحاب اليمين أوفى وصف، وفي وصف عذاب أصحاب

(١) قطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٤٦٢.

الشمال بأدق التفاصيل وكأنها معروضة للعيان، فانظر قوله تعالى واصفاً نعيم السابقين المقربين: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ۖ مُتَكِينَ عَلَيْهَا مُتَقَلِّبِينَ ۖ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ۖ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ۚ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ۚ﴾ ، وانظر قوله واصفاً نعيم أصحاب اليمين: ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ۖ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ۖ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۖ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ۖ وَفَنَكِهِتٍ كَثِيرَةٍ ۚ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۖ وَفُرُشٍ مَّرْجُوعَةٍ ۚ﴾ ، وانظر قوله واصفاً عذاب أصحاب الشمال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَآ الصَّالُونَ الْمَكِيدُونَ ۖ لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُفُورٍ ۖ فَالْتَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَتَشْرِبُونَ عَلَيْهِ مِنْ الْحَمِيمِ ۖ فَتَشْرِبُونَ شَرْبَ الْحَمِيمِ ۖ هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ۖ﴾ . وهذا يؤكد حقيقة أن القيامة التي ستحدث فيها هذه الأحداث واقعة لا محالة^(١).

ثالثاً: ثم انتقلت السورة إلى ذكر عدد من الأدلة العقلية على حقيقة البعث، يراها الناس في حياتهم بشكل دائم، فالذي خلق الإنسان من المنيّ وصوّره في الأرحام، هو الذي سيُميّته ثم يبعثه للحساب كما أنشأه أول مرة، والذي أخرج الزرع من الأرض ولو شاء أن يجعله حطاماً لفعل، هو القادر على إخراج العباد من الأرض لحسابهم كما أخرج الزرع، والذي أنزل الماء الذي فيه حياة العباد ولو شاء أن يجعله أجاجاً لفعل، هو القادر على بعثهم كما أحياهم بذلك الماء، والذي أخرج الشجر بعد أن سقي بذلك الماء، فاستفاد منه العباد وأوقدوا فيه النار، هو القادر على إخراج العباد من الأرض كما أخرج ذلك الشجر.

فهذه الأدلة العقلية إنما ذكرت لتؤكد أن القيامة واقعة لا محالة، وهي أدلة على صدق القرآن الذي يدعو إلى الإيمان بهذه الحقيقة.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد ذكرت مصير تلك الأفرقة الثلاثة حين الموت، فالسابقون يبشرون بالروح والريحان وجنات النعيم، وأصحاب اليمين في أمن وسلام، وأصحاب الشمال في الحميم والجحيم. وهكذا تلتقي الخاتمة مع المقدمة في التأكيد على المصير الذي سيؤول إليه الأفرقة الثلاثة في القيامة الواقعة لا محالة. وانظر قوله تعالى عن حالة احتضار الإنسان للموت الذي هو أول منازل الآخرة: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ

(١) قد أشار سيد قطب إلى ذلك في المصدر السابق ص ٣٤٦١.

﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينٍ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ ، وكما افتتحت السورة بعرض مشاهد من يوم القيامة تؤكد أن القيامة واقعة لا محالة، حُتِمَتْ بتأكيد المقصد ذاته: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ، وبذلك يلتقي البدء والختام على المحور المذكور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الواقعة

سورة إثبات أن القيامة واقعة لا محالة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٧)

المقدمة التي تعرض بعض أهوال يوم القيامة:

■ افتتحت السورة بعرض لبعض مشاهد يوم

القيامة وكأنها قد وقعت حقاً: ﴿إِذَا وَقَعَتِ

الْوَاقِعَةُ ① لَيْسَ لَوْعِهَا كَاذِبَةٌ ② خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ

③ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ④ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا

⑤ فَكَانَتْ هَبَاءً مُبَدَّنًا ⑥﴾.

■ ثم بينت أن الناس سينقسمون حينها إلى ثلاثة

أقسام: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ⑦﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٨-٥٦)

التفصيل في بيان حال ومصير الأقسام الثلاثة:

■ ثم انتقل السياق إلى عرض مصير الأقسام

الثلاثة بوصف دقيق وكأنك تنظر إليهم.

■ فأول فريق السابقون المقربون: ﴿عَلَى سُرُرٍ

مَوْضُونَةٍ ⑧ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ⑨ يَطُوفُ

عَلَيْهِمْ وَلَدَنٌ مُخْلِدُونَ ⑩ يَأْكُلُونَ وَأَبْرَأُونَ ⑪ وَكُلٌّ مِنْ

مَعِينٍ ⑫﴾.

■ والفريق الثاني أصحاب اليمين: ﴿فِي سِدْرٍ

مَخْضُودٍ ⑬ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ⑭ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ⑮

وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ⑯ وَفُكْهَةٍ كَثِيرَةٍ ⑰ لَا مَقْطُوعَةٍ

وَلَا مَمْنُوعَةٍ ⑱﴾.

■ والفريق الثالث أصحاب الشمال: ﴿وَأَصْحَابُ

الْأَيْمَالِ مَا أَصْحَابُ الْأَيْمَالِ ⑲ فِي سُجُورٍ وَخِمِيرٍ ⑳

وَطَلٍّ مِنْ بَحْمُورٍ ㉑ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ㉒﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٥٧-٨٠)

ذكر أدلة عقلية تؤكد قدرة الله على البعث:

- ثم أكد السياق قدرة الله على بعث الناس في يوم القيامة بأدلة عقلية يرونها كل يوم:
- فالله هو الذي خلق الإنسان من المني، وهو القادر على بعثه.
- وهو الذي أخرج الزرع من الأرض وليس الناس.
- وهو الذي أنزل الماء من المزن ولم يجعله أجاجاً.
- وهو الذي أخرج الشجر بهذا الماء، وسخره للإنسان فيوقدون فيه النار، فكما أن الله تعالى هو القادر على كل ذلك، فهو قادر على بعث الناس في يوم الواقعة.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٨١-٩٦)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

- أعادت التأكيد على قدرة الله على البعث ببيانها حال الأقسام الثلاثة حين الاحتضار: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۖ فَرَوْحٌ وَرَّحَافٌ وَجَنَّتْ نَجِيمٌ ۖ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَعْيُنِ الْيَمِينِ ۖ فَسَلَمٌ ۚ لَكَ مِنْ أَعْيُنِ الْيَمِينِ ۖ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ الضَّالِّينَ ۖ فَنُزُلٌ مِنْ جَحِيمٍ ۖ وَنَصْلَةٌ جَمِيمٌ ۖ﴾.
- وكما افتتحت السورة بعرض مشاهد من القيامة تؤكد أن القيامة واقعة لا محالة، ختمت بتأكيد المقصد ذاته: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ۖ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ۖ﴾.

سورة الحديد

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ
النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ
اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى بيان أن الله أنزل نعمة الحديد الذي فيه بأس شديد ومنافع للناس، وعقب على ذلك بقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (بعض الآية: ٢٥)، وكأنها إشارة إلى ضرورة استعمال الحديد لنصرة دين الله ورسله.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة بجملتها دعوة للجماعة الإسلامية كي تحقق في ذاتها حقيقة إيمانها، لتكون موازينها هي موازين الله، وقيمتها هي القيم الثقيلة في تلك الموازين، ولذلك تدعو السورة إلى بذل النفس والمال في سبيل الجهاد للدفاع عن الدين، وقد سُميت السورة بالحديد؛ لأنه القوة التي تحمي العدل ويُجاهد بها أعداء الدين^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان والإنفاق في سبيل الجهاد لنصرة الدين، مع بيان بعض مظاهر عظمتة تعالى الدالة على أنه قادر على جزاء المنفيين والمجاهدين في سبيله خير الجزاء في الدارين، ولما كان

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٣١٩، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٧، ص ٤٣٢، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٤٧٥، ٣٤٧٦، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٧، ص ٣٥٣، ٣٥٦، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٨، ص ١-٥، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ٣٩٣-٣٩٥، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٢٧٧، ٢٧٨.

ذكر الحديد ذي البأس الشديد أدلّ ما في السورة على ضرورة استخدامه لنصرة الله ورسله بالغيب، سُمّيت السورة به للدلالة على المحور المذكور. وقد تميزت هذه السورة بأنها سورة الدعوة إلى تسخير الحديد والمال لنصرة الله ورسله عليهم السلام.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام، أولها: مقدّمة فيها بيان بعض مظاهر عظمته تعالى لتؤكد قدرته على جزاء المؤمنين المنفقين، وثانيها: دعوة إلى الإنفاق والجهاد في سبيل نصرته الدين مع بيان جزاء المؤمنين والمنافقين يوم القيامة، وثالثها: خاتمة مؤكدة لما سبق^(١).

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٦، والدعوة للإنفاق والجهاد: ٧-٢٤، والخاتمة: ٢٥-٢٩. ومن لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها ما يتعلق ببيان عظمته تعالى للدلالة على قدرته على جزاء المؤمنين: (أ) فهي الوحيدة في القرآن التي ذكرت فيها الأسماء الجليّة: «الأول» و«الآخر» و«الظاهر» و«الباطن»: ٣، (ب) وهي مع سورة سبأ الوحيدتان اللتان ذكر فيهما قوله: ﴿يَعْنَمَ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾: ٤، وسبأ: ٢، (ج) هي وسورة المائدة الوحيدتان اللتان تكررت فيهما عبارة ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هنا مرتان: ٢، ٥، وفي المائدة أربع مرات: ١٧ (بذكر لفظ الجلالة بدل الضمير)، ١٨ (بذكر لفظ الجلالة)، ٤٠ (بذكر لفظ الجلالة مؤكّدا بالضمير)، ١٢٠ (بذكر لفظ الجلالة)، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بالدعوة إلى الجهاد لنصرة الدين، (أ) فقوله تعالى: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ لم يذكر إلا هنا: ١٩، (ب) وكذلك قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَصْرِفُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾: ٢٥، ثالثاً: ومنها أمور متعلقة بالدعوة إلى النفقة لنصرة الدين، (أ) فقد تكررت مشتقات الجذر الرباعي «أنفق» فيها خمس مرات: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَسَلِّفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا يَتُوبُونَ وَأَنْفِقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾: ٧، ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ... لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلُ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةٍ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِهِ﴾: ١٠، (ب) هي أكثر سورة في القرآن ذكرت فيها مشتقات الجذر «قرض»: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾: ١١، و﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾: ١٨، (ج) هي الوحيدة التي ذكرت فيها عبارة ﴿إِنَّ الْمُصْذِقِينَ وَالْمُصْذِقَاتِ﴾: ١٨، بينما ذكرت كلمة «المتصدقين» في سورة يوسف: ٨٨، وكلمتا «المتصدقين والمتصدقات» في سورة الأحزاب: ٣٥، رابعاً: ومنها أمور متعلقة ببيان جزاء الله للمؤمنين، (أ) فهي من أكثر السور التي نسب فيها «الفضل» لله: ٢١ (مرتين)، و ٢٩ (ثلاث مرات ولم يتكرر ذلك في آية أخرى)، (ب) هي وسورة البقرة الوحيدتان اللتان تكررت فيهما مشتقات الجذر «ضاعف» المنسوب لله: ١١، ١٨، وانظر في سورة البقرة: ٢٤٥، ٢٦١، (ج) هي وسورة النور أكثر سورتين تكررت فيهما مشتقات الجذر «نور»: ففي الحديد ست مرات: ﴿يُخْرِجُكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾: ٩، ﴿يَسْتَنِي نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ١٢، ﴿أَنْظُرُونَا نَقْتَسِبْ مِنْ نُورِكُمْ... فَالَّذِينَ سَأَلُوا﴾: ١٣، ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ =

أولاً: جاء في المقدمة بيان لبعض مظاهر عظمة الله تعالى، لبيان أنه قادر على جزاء المنفقين والمجاهدين خير الجزاء: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ①﴾ لَمْ تَكُنِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ② هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ③ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ④ لَمْ تَكُنِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَاللَّهُ تَرْجِعُ الْأَمْوَارَ ⑤ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑥، ولاحظ تكرار «السموات والأرض» أربع مرات، وتكرار الضمير «هو» سبع مرات، وبيان علمه التام بما بين السماء والأرض في الليل والنهار، وكل ذلك يدل على أنه تعالى ليس بحاجة إلى من ينصره، ولكنه أمر المؤمنين بنصر دينه لتعود الفائدة عليهم، وهو كذلك غني عن النفقات وعن القروض، وهو أعلم بمن جاهد وأنفق بنية حسنة من المؤمنين، وبمن تنصل من النفقة والجهاد من المنافقين، وبذلك تبرز العلاقة بين المقدمة وبين «الحديد» الذي ينبغي استخدامه لنصرة الله عز وجل ورسوله ﷺ.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى دعوة المؤمنين إلى الإنفاق لنصرة الله تعالى ونبيه ﷺ: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ⑦ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ⑧﴾، وأكثر ما يحتاج إلى النفقة هو الجهاد لما فيه من ضرورة تجهيز الجيوش وإعداد الجند، وقد أكد ذلك بيان السياق إلى عدم التساوي بين من أنفق وقاتل من قبل الفتح، وبين من أنفق وقاتل من بعده.

وقد تعددت أساليب الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله في هذه السورة، فبعد «الإنفاق» ذكر «الإقراض»: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَمْ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ⑨﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى ثَوْرُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَإِمَامُهُم بُشْرَانُكَمُ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ⑩، ولاحظ بيان جزاء المؤمنين يوم القيامة، وذلك لثلاث فئهم طلب

= وَرُؤُوسُهُمْ ⑩ : ١٩، ﴿وَيَجْعَلُ لَكُمْ ثَوْرًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ : ٢٨، وفي النور سبع مرات : ٣٥ (خمس مرات)، ٤٠ (مرتين).
ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

الله «القرض» من المؤمنين على نحو خاطئ، فالفائدة عائدة عليهم فقط، وقد بين السياق حرمان المنافقين من ذلك النور جزاء تنصلهم من النفقة والقتال في سبيل الله وترتبهم بالمؤمنين.

ومن أجل الزيادة في ترغيب المؤمنين في النفقة والقتال لنصرة الدين، بين السياق تميز المؤمنين على من سبقهم من أهل الكتاب الذين نكلوا عن نصره دين الله: ﴿لَا يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلَ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١١٦﴾﴾، فإذا التزم المؤمنون بما جاءهم من الحق ونصروه كانوا أفضل من أهل الكتاب.

وبعد «الإقراض» ذكر «التصدق»: ﴿إِنَّ الْمَصَدِّقِينَ وَالْمَصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفَ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٨﴾﴾، ولاحظ بيان مضاعفة الأجر من الله، فهو الغني، والفائدة عائدة للمؤمنين، ولاحظ بيان أجر الشهداء عند الله، وكل ذلك يؤكد المحور المذكور الدال على الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الجهاد لنصرة الدين.

وقد حذر السياق من فتنه الدنيا التي قد تمنع العبد من النفقة ومن القتال، وكذلك حذر السياق من البخل، وبين للمؤمنين أن كل ما أصابهم من المصائب في سبيل نصره الله سيؤفون أجره: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١٩﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْغَمِيدُ ﴿١٢١﴾﴾.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت الترغيب في القتال لنصرة الله ورسوله ﷺ، واستخدام نعمة الحديد لأجل ذلك: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٢٥﴾﴾.

وكما افتتحت السورة بذكر بعض مظاهر عظمة الله تعالى، لبيان قدرته على جزاء المؤمنين المنفقين والمقاتلين لنصرته خير الجزاء مع استغنائه تعالى عن خلقه، ختمت بإعادة

دعوتهم إلى الإيمان ونصرة الرسول ﷺ مع بيان أنه تعالى سيؤتيهم ضعف الأجر، وبيان تفضيلهم - إذا التزموا نصره الله ورسوله - على أهل الكتاب الذين نكلوا عن ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَجَعَلَ لَكُم نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّمَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٩﴾﴾. وبذلك التقى البدء والختام على محور الدعوة إلى نصره الله ودينه بالإنفاق والقتال، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة لكون الحديد من أهم النعم التي يجب أن تستخدم لهذا الغرض.



سورة الحديد

سورة الدعوة إلى تسخير الحديد والمال لنصرة الله ورسله عليهم السلام

الموضوع الثالث: (الآيات:

(٢٩-٢٥)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت الترغيب في القتال
لنصرة دين الله، مع الدعوة
إلى تسخير نعمة الحديد في
هذا السبيل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا
رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ
الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ
الْقِسْطَ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ
شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ
اللَّهُ مَن يَصْرُفُ وَرُسُلُهُمُ الْغَيْبِ إِنَّ
اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٩﴾

■ وكما افتتحت السورة ببيان
عظمة ملك الله تعالى لتؤكد
قدرته على جزاء المؤمنين
المنفقين في سبيل نصرته
دينه، ختمت بالتعريض
بأهل الكتاب الذين نكلوا
عن نصرته دين الله، وبالتأكيد
على قدرة الله على جزاء
المحسنين: ﴿إِنَّمَا يَمْلِكُ أَهْلُ
الْكِتَابِ أَن يَفْسِدُوا عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنْ
فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ
يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ ﴿٣٠﴾

الموضوع الثاني (الآيات: ٢٤-٧)

دعوة إلى الإنفاق والجهد في سبيل الله
ونصرة دينه، مع بيان جزاء المؤمنين وجزاء
المنافقين يوم القيامة:

■ ثم انتقل السياق إلى الدعوة للإنفاق لنصرة
الدين، لأن الجهاد بحاجة إلى المال لتجهيز
الجيش، وقد كان ذلك مرة باللفظ الصريح:
﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ
مُسْتَلْفِينَ فِيهِ﴾.

■ ومرة بالإقراض: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا
حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَمْ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾

■ وقد عرض السياق نكول السابقين من أهل
الكتاب عن نصرته دين الله ورسله: ﴿أَلَمْ
يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا
نَزَّلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن
قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ
فَسَقُوتٌ ﴿٣٢﴾

■ ومن أساليب الحث على النفقة الإشادة
بالمُصدقين: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُؤْتِفِينَ وَأَقْرَبُوا
اللَّهَ قَرَضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ
كَرِيمٌ ﴿٣٣﴾

■ وأشادت السورة بالشهداء للحث على
الجهاد: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ
الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ
وَنُورُهُمْ ﴿٣٤﴾

■ وبين السياق حرمان المنافقين من النور يوم
القيامة نتيجة تخاذلهم عن الجهاد في
سبيل الله.

الموضوع الأول (الآيات:

(٦-١)

المقدمة التي تعرض بعض
مظاهر عظمة الله تعالى
لتؤكد قدرته على جزاء
المنفقين في سبيله:

■ افتتحت السورة ببيان
عظمة ملكوت الله تعالى:
﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
﴿١﴾ لَمْ يَلِكْ أَلَمْ يَلِكْ أَلَمْ يَلِكْ
يُحْيِ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾

■ وذكرت المقدمة الضمير
'هو' العائد على الله
سبع مرات، وذكرت
السموات والأرض أربع
مرات، منها مرتان
بعبارة: له ملك
السموات والأرض،
وكل ذلك يدعو المؤمنين
إلى الإنفاق في سبيل الله
لنصرته دينه ليقينهم بأن الله
الذي بيده الملك
سيجزئهم خير الجزاء.

سورة المجادلة

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ① الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهُتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَفْظٌ عَفُورٌ ②﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الجيم والداو واللام أصل واحد، وهو من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام»^(١)، وقال الإمام الأصفهاني رحمه الله: «الجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلتُ الحبلَ، أي: أحكمتُ قتلَه . . . ومنه الجدال، فكان المتجادِلَيْنِ يقتل كل واحد منهما الآخر عن رأيه»^(٢)، وقد سُميت هذه السورة الكريمة بـ «المجادلة» بصيغة اسم الفاعل و«المجادلة» بصيغة المصدر، وكلا الاسمين يدلان على معنى واحد، فدلالة الكسر يدل على خولة بنت ثعلبة، التي جادلت النبي ﷺ في موضوع ظهار زوجها منها قبل نزول حكم الظهار، ودلالة الفتح يدل على مجادلتها للنبي ﷺ في الموضوع ذاته^(٣). فالدلالة السياقية لاسم السورة يدل على تمام علم الله بمجادلة تلك المرأة للنبي ﷺ في موضوع الظهار، وبيان حكم الله فيه.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً للربط بين موضوعات هذه السورة ومحورها واسمها، فذكروا أن من مقاصد هذه السورة بيان تمام علم الله وكمال قدرته، وقد كان من

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٢٠٥.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ١٨٩ بتصرف.

(٣) أخرج الحادثة الإمام أبو داود، السنن، كتاب الطلاق، حديث رقم: ٢٢١٤، والنسائي، السنن، كتاب الطلاق، حديث رقم: ٣٤٠٦، وابن ماجه، السنن، كتاب الطلاق، حديث رقم: ٢٠٥٣.

مظاهر عظم هذه القدرة أن سمع قول المجادلة مع النبي ﷺ في زوجها، ومن ثم بيانه تعالى لحكم الظهار الذي كان أحد مظاهر الخروج من الفطرة السوية للإنسان بما يلحقه بالزوجة من الأذى، ومن مظاهر تمام علمه تعالى وكمال قدرته المذكورة في السورة، بيان وقوع البأس الشديد بمن حادّ الله ورسوله ﷺ، ومن مقاصد السورة أيضاً إنشاء تصوّر جديد شامل لهذه الحياة، وتربية النفوس على منهج الله بأن يبني في ضميرها الشعور الحي بوجود الله تعالى في أخصّ خصائصها، وأصغر شؤونها، وأخفى طواياها، وحراسته لها من كيد أعدائها خفيّة وظاهره، وكل ذلك يدلّ عليه اسم السورة الدالّ على حادثة مجادلة خولة النبي ﷺ في موضوع الظهار وما تبعه من بيان حكم الله فيه^(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: تربية المؤمنين على الالتزام بحدود الله وأحكامه من خلال بيان تمام علم الله وكمال قدرته، وأنهم إذا التزموا بذلك فهم في رعاية صاحب القدرة العظمى سبحانه، والنصر حيثنذ سيكون حليفهم، ولما كانت حادثة مجادلة خولة بنت ثعلبة النبي ﷺ وما نتج عنها من بيان حدّ من حدود الله، أدلّ ما في السورة على تمام علمه وعظيم قدرته تعالى، سُمّيت السورة بتلك الحادثة ليدلّ على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة تربية المؤمنين على الالتزام بحدود الله السميع العليم.

وبتأمّل موضوعات السورة يبرز التناسق بينها وبين محور السورة ودلالة اسمها، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: أولها: مقدّمة تبيّن تمام علم الله وكمال حكمته في موضوع الظهار، وثانيها: تربية للمؤمنين على الالتزام بحدود الله وأحكامه، وثالثها: خاتمة مؤكّدة لما سبق^(٢).

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ٣٢٥، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٧، ص ٤٧٤، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٥٠٣، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ص ٢٨، ج ٦، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٨، ص ٣١، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٤٤٦، ود. شحاتة، أهداف كل سورة، ج ٢، ص ٢٢١-٢٢٩، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور، ص ٢٧٩-٢٨٢.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٤، وتربية المؤمنين على الالتزام بحدود الله وأحكامه: ٥-١٣، والخاتمة: =

أولاً: جاء في المقدمة بيان تمام علم الله تعالى وكمال حكمته، وذلك من خلال بيان سماعه قول المرأة التي تجادل النبي ﷺ في موضوع زوجها، وثم بيان حكم الله تعالى في ذلك: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهُتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٢)، ولاحظ نسبة السمع إلى الله في الآية الأولى ثلاث مرات، وذلك بصيغة الفعل الماضي والمضارع وصيغة المبالغة، فهو قد علم أن ذلك سيحصل منذ الأزل، وقد سمعه حال وقوعه واقعاً، وهو سبحانه سميع بكل شيء، ولاحظ حكمة الله تعالى في التفريق بين الزوجة والأم، وإنصاف الزوجة من الظهار الخارج عن الفطرة.

ثم بين السياق حكم الظهار، فعلى المظاهر أن يحرر رقبة، فإن لم يجد فعليه صيام

= ١٤-٢٢. ومن لطائف هذه السورة: أولاً: ذكر لفظ الجلالة «الله» في كل آية مرة فأكثر، وذلك لتربية المهابة من الله تعالى في نفوس المؤمنين فيلتزموا بحدوده وأحكامه ويستشعروا معيته ويلتمسوا نصره، وثانياً: نسب السمع إلى الله تعالى في الآية الأولى منها ثلاث مرات، ولم يحصل ذلك في آية أخرى من القرآن، وثالثاً: ذكرت فيها هذه العبارة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: ٥، ولم تتكرر في القرآن، وقريب منها قوله تعالى في سورة الحج ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾: ٧٠، لكن لا يخفى أن دلالة آية المجادلة أبلغ، ورابعاً: ذكرت فيها هذه العبارة ﴿يَوْمَ يَعْتَصِمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ مرتين: ٦ (عن الكافرين)، ١٨ (عن المنافقين)، ولم تذكر هذه العبارة في موضع آخر من القرآن بهذه الصيغة، وبإمكانك أن تضيف أيضاً عبارة «عذاب مهين» التي تكررت في سورة المجادلة مرتين عن الفريقين: ٥، ١٦، ولم تتكرر هذه العبارة في غير المجادلة إلا في سورة النساء ثلاث مرات، ٣٧، ١٥١، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾، ١٠٢، ﴿أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾، وخامساً: ذكرت فيها عبارة (حزب الشيطان) مرتين: ١٩، ولم تذكر هذه العبارة في القرآن إلا في سورة فاطر وتلميحاً: ٦ ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، وذكرت في المجادلة عبارة (حزب الله) مرتين: ٢٢، ولم تذكر في موضع آخر سوى في سورة المائدة مرة واحدة: ٥٦، وسادساً: نسب فيها الجذر «كبت» إلى الله تعالى على الكافرين مرتين: ٥ ﴿كَيْتُ كَمَا كَيْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، ولم يذكر هذا الجذر في موضع آخر إلا في سورة آل عمران: ١٢٧ ﴿أَوْ يَكْتُمُهُمْ﴾، وسابعاً: سورة المجادلة مع سورة النساء أكثر سورتين في القرآن تكررت فيها العبارة ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وذلك ثلاث مرات في المجادلة: ٣، ١١، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، ١٣، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، وثلاث مرات في النساء: ٩٤، ١٢٨، ١٣٥ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، ولا يخفى ما في هذا من التربية على الالتزام بحدود الله، وخامساً: تكرر فيها الفعل المضارع «ينبي» العائد على الله تعالى مرتين: ٦، ٧، وقد اشتركت بذلك مع سورتي التوبة والأنعام، أما سورة المائدة فقد تكرر فيها ذلك ثلاث مرات، لكن لا يخفى أن المجادلة أصغرهن حجماً وبفرق كبير. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

شهرين متتابعين، فإن لم يجد فليطعم ستين مسكيناً، وذلك كله قبل أن يمسّ زوجته، واللافت للنظر أن السياق قد اعتبر حكم الله تعالى في هذه القضية حدّاً من حدود الله لا يجوز تجاؤها، وإلا خرج المتجاوز عن دائرة الإيمان إلى الكفر: ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (بعض الآية: ٤)، وذلك يؤكد المحور المذكور، فالمقدمة من خلال بيان حكم الله في حادثة مجادلة المرأة وإتباع ذلك بحكم الله، أبرزت تمام علم الله وكمال حكمته، ليكون في ذلك تربية للمؤمنين على الالتزام بأحكام ربهم.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى تربية المجتمع الإيماني على الالتزام بحدود الله تعالى فيما يتعلق بما هو خارج هذا المجتمع، فابتدأت بموضوع تهوين شأن الكافرين بآيات الله والمحاذين لله ورسوله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كُنْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْنِ يَنْتَبِئُ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٦﴾، فمن مظاهر كمال قدرته تعالى أنه حكم على هؤلاء بالخزي والمهانة كما أخزي وأهين من كان قبلهم، ولهم في الآخرة عذاب مهين، ولاحظ الإشارة إلى تمام علم الله وكمال قدرته حيث إنه سينبئهم بما عملوا يوم القيامة بأعمالهم التي أحصاها لهم، وهم قد نسوها وهم عاملوها!

ثم عاد السياق إلى التربية على الالتزام بأحكام الله تعالى فيما يتعلق بداخل المجتمع الإيماني، واللافت للنظر أن السياق قد ابتدأ ذلك ببيان تمام علم الله، ليكون ذلك أدعى إلى الالتزام بأوامره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٧﴾، وحذرت السورة من النجوى المحرمة، وهي التي تكون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ، وذلك - كما لا يخفى - يبرز تمام علم الله بما يكون في هذه النجوى الخفية، وحذرت السورة من فعل اليهود الذين كانوا يُحيون النبي ﷺ بتحية خبيثة ويقولون في أنفسهم: لولا يعذبنا الله بما نقول، فقد علم الله بما في أنفسهم فأخبرنا به، ثم أمرت السورة المؤمنين إذا أرادوا التناجي بأن لا يتناجوا إلا بالبر والتقوى، وأن يتقوا الله الذي إليه يحشرون.

فسياق السورة يبرز بصورة جلية بعض مظاهر تمام علم الله تعالى بما يدور في الخفايا، ويأمر المؤمنين بناءً على ذلك بالالتزام بأحكام الله وأوامره، وحينئذ سيكون النصر حليفهم.

ثم انتقل السياق إلى خُلِقَ كريم آخر متعلق بالاجتماع بين المؤمنين، وهو أن يتفَسَّحوا في المجالس، وأن ينفَضُوا عن المجلس إذا أمروا بذلك: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١١)، وأعتقد أن هذا الأمر مرتبط بما سبقه من أكثر من ناحية فهو متعلق باجتماع الناس على شيء معين أولاً كما في الاجتماع للنجوى، ثم إن فيه دلالة على تمام علم الله أيضاً، وذلك أن هذا الأمر يربّي المؤمن على أن لا يكون في قلبه كِبَرٌ يمنعه من الإفصاح لأخيه حتى لو كان متأخراً، ثم إن الأمر بالانفضاض عن المجلس فيه تربية على عدم الإثقال على المتكلم، أو صاحب مكان المجلس، وهذا خُلِقَ عظيم متعلق بأمر خفيّ في النفوس لا يعلمه إلا الله، وفيه توقيف لأصحاب العلم.

ثم انتقل السياق إلى تربية المؤمنين على خُلِقَ آخر يبرز تمام علم الله تعالى، فقد أمرهم ابتداءً بتقديم صدقة إذا أرادوا مناجاة النبي ﷺ، وقد علم سبحانه بما كان في نفوس المؤمنين من الإشفاق من هذا الأمر فرفعه عنهم وأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والطاعة لله ولرسوله ﷺ: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِكُمْ صَلَاتَكُمْ فَإِذَا تَرَ تَفَعَّلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢)، ولاحظ إعادة التحذير ببيان أن الله خبير بما يعملون، فأنت ترى أن السياق يربّي المؤمنين على الالتزام بأوامر الله تعالى وأحكامه، من خلال بيان تمام علمه وكمال قدرته، وهذا مرتبط مع اسم السورة «المجادلة» الذي دلّ على تمام علمه وكمال حكمته تعالى.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لكل ما سبق، فقد أبرز تمام علم الله تعالى بما كان يدور بين المنافقين الذين يتولّون اليهود، وعلم بكونهم كاذبين في حلفهم للتنصل حين افتضاح هذا الأمر الخفي: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٣) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَنَهُمْ جُنَّةً

فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ ، وقد بيّن السياق أن أيمانهم الكاذبة لن تغني عنهم من الله شيئاً حين يبعثهم الله .

واللافت للنظر أن السياق قد بيّن أنهم بعملهم هذا قد خرجوا من دائرة الإيمان إلى دائرة الكفر، وأصبحوا من حزب الشيطان: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ .

وقد أعادت الخاتمة التذكير بأن الله سينتصر على المحادّين لله ولرسوله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿١٨﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلُنا إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٩﴾﴾ ، وفي ذلك تربية للمؤمنين على أن يكونوا مع الله ورسوله ﷺ، وذلك بالتزامهم بأوامر الله تعالى وأحكامه .

وكما افتتحت السورة ببيان تمام علم الله تعالى وكمال قدرته ليكون في ذلك تربية للمؤمنين على الالتزام بأحكامه وأوامره، فإذا فعلوا كان النصر حليفهم، ختمت السورة بالمقصد ذاته: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ ، وهكذا التقى البدء والختام على محور التربية من خلال بيان بعض مظاهر تمام علم الله وكمال قدرته، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ دلالة .



سورة المجادلة

سورة تربية المؤمنين على الالتزام بحدود الله السميع العليم

الموضوع الأول (الآيات: ١-٤)

المقدمة التي تبين تمام علم الله وكمال قدرته من خلال حادثة المرأة المجادلة للنبي ﷺ:

- افتتحت السورة ببيان سماع الله لقول المرأة المجادلة: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١﴾.
- وبين أن الزوجة غير الأم، فالظهار مُنْكَرٌ من القول وزُور.
- وبينت حكم الظهار، فعلى المظاهر أن يُحرر رقبة، فإن لم يجد فعليه صيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فعليه إطعام ستين مسكيناً، من قبل أن يتماساً.

- واعتبرت المقدمة عدم الالتزام بحدود أمر الله مخرج عن دائرة الإيمان: ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢﴾.

الموضوع الثاني (الآيات: ٥-١٣)

تربية المؤمنين على الالتزام بحدود الله وأحكامه:

- هوّن السياق من شأن الكافرين المحاذين لله ورسوله ﷺ الخارجين عن حدوده: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كُنْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْنِكَ الْبَنَاتِ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝٣﴾.
- وبين أن من مظاهر كمال علم الله وقدرته تعالى أنه سيبعثهم يوم القيامة فينبئهم بما عملوا.
- وبين أن من مظاهر كمال علم الله وقدرته أنه يعلم ما في السماوات والأرض، ويعلم ما يكون بين المتناجين: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاقِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَمَى مِنْ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ مُعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٤﴾.
- وحرم السياق النجوى المحرمة وهي التي تكون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ.
- وحذر من فعل اليهود الذين كانوا يحيون النبي ﷺ بتحية خبيثة: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ بَصُلُوتُهَا فَتِلْكَ الْمَصِيرُ ۝٥﴾.
- أمر السياق المؤمنين بأن لا يتناجوا إلا بالبر والتقوى. وأمرهم بالإفساح في المجالس والنشوز من المجالس إذ طُلب منهم ذلك، وفي هذا تربية لهم على أن لا يكون في قلوبهم كبر.
- ورفع الله عن المؤمنين الحرج حين أمرهم بتقديم الصدقة إذا أرادوا مناجاة الرسول ﷺ، فأزال عنهم هذا الحكم، وأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله ﷺ.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٤-٢٢)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أبرزت تمام علم الله وكمال قدرته من خلال بيان أنه عالم بما كان يدور بين المنافقين ومواليهم من اليهود وبين أن أيمانهم الكاذبة لن تغني عنهم شيئاً يوم القيامة.

■ وأعادت التذكير بأن الله سينتصر على المحاذين لله ورسوله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ ﴿١٤﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْكَ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّ اللَّهَ فَوْقُ عَرْشِهِ ﴿١٥﴾، وفي ذلك تربية للمؤمنين على أن يكونوا مع الله ورسوله ﷺ.

■ وكما افتتحت السورة ببيان تمام علم الله وكمال قدرته في حادثة المجادلة ليربي المؤمنين على الالتزام بأوامره وأحكامه، حينئذ سيكون النصر حليفهم، ختمت بالمقصد ذاته: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْعُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٢٢﴾.

سورة الحشر

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَتَاُوَلِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الحاء والشين والراء هو السَّوق والبعث والانبعاث، . . وأهل اللغة يقولون: الحشر: الجمع مع سَوْق»^(١)، وقد أكد كلامه الإمام الأصفهاني رحمه الله بقوله: «الحشر: إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها»^(٢)، ولا يخفى أن الحشر المقصود في السورة متعلق بيهود بني النضير الذين نقضوا العهد مع النبي ﷺ إذ قد حاولوا قتله، وتآمروا أيضاً مع قريش ضده ﷺ، فحاصر النبي ﷺ حصونهم المنيعة حتى ألقى الله في قلوبهم الرعب وهزمهم، وأمكن المؤمنين منهم، فكان ذلك الحشر أول الإخراج لهم من أرض الجزيرة العربية. فاسم السورة يدل على هزيمة الله لهؤلاء الذين شاقوا الله تعالى ورسوله ﷺ.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم هذه السورة ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن من مقاصدها وصف ما جرى في يوم حشر بني النضير، وبيان

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٢٦٦. بتصرف.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ٢٣٧.

كيف وقع، ولماذا وقع، وما كان في أعقابه من تنظيمات في المجتمع المسلم، وتربية النفوس في ربط أحداث ذلك اليوم بالخالق سبحانه، فالسورة تعرّفنا على بعض صفات الله تعالى وعظيم قدرته، وقد كان أدلّ ما في السورة على عظيم قدرة الله تعالى حشر بني النضير ذوي الحصون المنيعه وهزيمتهم، ولذلك سُمّيت السورة باسمه^(١).

لكنني لاحظت أن سياق السورة لم يقتصر على بيان عظيم قدرة الله وتمايم علمه في ظاهر الأمور فحسب، بل بيّن كذلك بعض مظاهر قدرة الله وتمايم علمه بباطن الأمور أيضاً، فمن الممكن أن ينبني على الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان انتصار الله على من شاقّه إن كان على الصعيد الظاهر، أو على الصعيد النفسي في الباطن، وذلك لكما ل قدرة الله وتمايم علمه بما يختصّ بعالم الغيب أو عالم الشهادة، ولما كان حشرُ الله ليهود بني النضير أدلّ ما في السورة على انتصاره تعالى على أعدائه من اليهود وإخوانهم من المنافقين في الظاهر ونفسياً في الباطن، سُمّيت السورة به. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان انتصار الله على مَنْ شاقّه انتصاراً مادياً في الظاهر، وانتصاراً نفسياً في الباطن.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالات اسم السورة، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام: أولاً: مقدّمة تبرز بعض مظاهر قدرة الله تعالى المطلقة في انتصاره على من شاقّه، وثانياً: بيان فضل الله تعالى على المؤمنين الناتج عن انتصاره على بني النضير، وثالثاً: بيان الهزيمة النفسية لأهل الكتاب وإخوانهم من المنافقين، ورابعاً: خاتمة مؤكّدة لما سبق^(٢).

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ٣٣٠، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٧، ص ٥٠٩، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٥١٨-٣٥٢١، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٨، ص ٦٣، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٨، ص ٥٧. والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ص ٤٤٩-٤٥١، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(٢) مقدّمة السورة شملت الآيات: ١-٤، وبيان فضل الله على المؤمنين: ٥-١٠، والهزيمة النفسية لأهل الكتاب والمنافقين: ١١-١٧، والخاتمة: ١٨-٢٤. ومن لطائف هذه السورة: أولاً: هي السورة الوحيدة في القرآن التي افتتحت بالتسبيح وذكر الاسمين الجليلين: «العزیز الحكيم»، وختمت أيضاً بالتسبيح وبذات الاسمين، وقد =

أولاً: جاء في المقدمة بيان لكمال قدرة الله تعالى في انتصاره على يهود بني النضير الذين شاقّوه، ولم يكن انتصار الله عليهم عسكرياً ظاهراً فحسب، بل وصل مداه إلى هزيمتهم نفسياً أيضاً: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ①﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْتَمَسُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِ الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَأْأُولِ الْآبَصِرِ ② وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ أَلِيمٌ ③ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ④،

ولاحظ أولاً افتتاح السورة بالتسبيح الدال على تنزيه الله تعالى لكمال قدرته وشمول علمه ظاهراً وباطناً، وثانياً ذكر الضمير «هو» العائد عليه سبحانه، مما يزيد جَوْ السورة مهابة وإجلالاً مناسباً لذلك النصر المبين، وثالثاً بيان أن الله وحده هو الذي أخرجهم من

= افتتحت بالفعل الماضي «سَبَّحَ» الدال على أن التسبيح كائن له تعالى منذ الأزل، وختمت بالفعل المضارع «يسبح» الدال على استمرارية التسبيح له تعالى إلى الأبد، ولا تخفى دلالة التسبيح مع سياق السورة الدال على كمال قدرة الله ومطلق التنزيه له، ولا يخفى كذلك الترابط بين دلالة الاسمين الجليلين «العزیز الحكيم» مع سياق السورة، وثانياً: هي أكثر سورة في القرآن تقدم فيها الضمير المنفصل «هو» على اسم الجلالة «الله»، فقد جاء ذلك فيها ثلاث مرات: ٢٢، ٢٣، ٢٤، ومعلوم أن إظهار لفظ الجلالة مسبقاً بهذا الضمير فيه مزيد إظهار للجلالة والمهابة الإلهية، وبالإمكان أن تضاف مرة رابعة في الآية الثانية ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقد ذكر الاسم الموصول «الذي» بدلاً من لفظ الجلالة لأن لفظ الجلالة قد ذكر في الآية الأولى، أضف إلى ذلك أن هذه السورة أربع وعشرون آية، وقد تكرر لفظ الجلالة «الله» فيها تسع وعشرون مرة، ولم تُخَلْ إلا سبع آيات من هذا الاسم الجليل، وثالثاً: امتازت هذه السورة على باقي سور القرآن بذكر أسماء الله تعالى لم تذكر في أي سورة أخرى، وهي: السلام، المؤمن، المهيمن، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور (بهذه الصيغة بال التعريف)، وسأذكر - إن شاء الله - مناسبتها لسياق السورة في مكانها، بينما الاسم الجليل «الملك» مع ال التعريف فقد ذكر في أربع سور: طه: ١١٤، والمؤمنون: ١١٦، وقد كانت العبارة ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ الْكَلِمَةَ الْحَقُّ﴾ في الموضوعين، علماً بأن الذي يفصل بين سورتي طه والمؤمنون سورتان هما الأنبياء والحج، وذكر اسم الله تعالى «الملك» متبوعاً بـ «القدوس» في سورتي الحشر: ٢٣، والصف: ١، ورابعاً: امتازت سورة الحشر بعبارة ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: ٤، بينما في سورة الأنفال كانت العبارة ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَكَلِمَةُ اللَّهِ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾: ١٣، ولم يذكر الرسول ﷺ في سورة الحشر لأن الله تعالى هو الذي تولى قذف الرعب في قلوب أهل الكتاب مما أدى إلى هزيمتهم، بينما ذكر ﷺ في سورة الأنفال لأنه كان له دور في غزوة بدر، وخامساً: انظر إلى الآية ٢ من سورة الحشر ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾، وانظر الآية: ١٤ ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ وهما تدلان على الهزيمة النفسية لهؤلاء الذين شاقوا الله تعالى. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

ديارهم لأول الحشر، وقد كانت نفوس المؤمنين تستبعد ذلك لحصانة حصونهم، وهذا يدل على تمام علم الله بعالم الغيب، فهو يعلم ما في القلوب، فهذا الانتصار العسكري الظاهر، أما الانتصار النفسي فقد كان بقذف الرعب في قلوبهم وهو يدل على علم الله بما في القلوب أيضاً، ورابعاً بيان كمال انتصار الله عليهم حتى في الآخرة، ولاحظ أخيراً أن سبب ذلك كله أنهم شاقوا الله ورسوله، والله شديد العقاب، وقد برز أحد مظاهر شدة عذابه في إخراج هؤلاء.

فهذه المقدمة تحوي تلخيصاً يؤكد محور السورة الدال على انتصار الله على من شاقه انتصاراً مادياً ظاهراً ونفسياً باطناً، وذلك لكمال علمه بما في الظاهر والباطن، وقد برز ذلك في يوم حشر يهود بني النضير الذي سُميت السورة باسمه.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى بيان بعض مظاهر فضل الله على المؤمنين التي برزت من هذا الحشر: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِتُخَّرِيَ الْفَاسِقِينَ ٥﴾ وَمَا آفَاكُمُ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٦﴾، ولاحظ أن السياق قد ذكر أن المؤمنين لم يكن لهم دور ملحوظ في هذا الحشر إلا فيما يتعلق بقطع شجرهم وتخريب بيوتهم، فقد بين السياق أنهم لم يوجفوا خيلاً ولا ركاباً للحصول على هذا الفياء، وذلك يؤكد المحور المذكور من أن الله تعالى هو الذي تولى الانتصار على بني النضير.

وقد بين السياق كيفية توزيع هذا الفياء على ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والفقراء من المهاجرين، ثم انتقل السياق إلى أمر آخر يبرز تمام علم الله بما نفوس الخلق، وذلك أنه شهد للانتصار بعدم وجود بغضاء في قلوبهم تجاه المهاجرين الذين اختصوا ببعض هذا الفياء دونهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُخَيِّبُونَ مَن هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شَعْنَهُ نَفْسُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٠﴾، واعتقد أن ذكر ذلك متلائم مع ما ذكر من قذف الرعب في قلوب بني النضير، ومع ما سيأتي من

بيان أن قلوب اليهود شتى، بينما قلوب المؤمنين سليمة على بعضهم البعض، فكما أن الله قادر على جعل قلوب اليهود شتى وقادر على أن يقذف فيها الرعب، فهو قادر على جعل قلوب المؤمنين ممتلئة محبة ومودة، ومن ناحية أخرى فيه دلالة على علم الله بعالم الغيب الباطن أيضاً.

إذاً فذكر هذا الفضل الإلهي على المؤمنين الناتج عن هذا الحشر قد أسهم في الدلالة على المحور المذكور من كمال قدرة الله وتمام علمه بعالمي الغيب والشهادة.

ثالثاً: ثم انتقلت السورة إلى أمر خطير آخر يبرز تمام علم الله بعالم الغيب، فقد علم سبحانه بما دار بين المنافقين وإخوانهم الكافرين من أهل الكتاب حول الأمر على النبي ﷺ وعلى المؤمنين، ولم يقتصر البيان الإلهي على ذلك فحسب، بل بين أن تأمرهم لن يفضي إلى نتيجة فعلية وأنهم كاذبون: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْلِكَنَّ أَزْوَاجَهُمْ ثُمَّ لَا يَنْصُرُوهُمْ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾.

ولاحظ أيضاً بيان علمه تعالى بما في قلوبهم من رهبتهم المؤمنين أكثر من الله، ولم يقتصر السياق على بيان علم الله تعالى بما في قلوب المنافقين فحسب، بل بين كمال علمه تعالى بما انطوت عليه نفسيات اليهود أيضاً: ﴿لَا يُقْبِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾، وقد بين السياق أن حال المنافقين مع اليهود كحال الشيطان مع الإنسان، إذ تبرأ منه لما أغواه، فأنت تلاحظ أن السياق بيانه تمام علم الله بعالمي الغيب والشهادة يؤكد الهزيمة النفسية لمن شاق الله ورسوله ﷺ كما بينت الهزيمة المادية لهم أول السورة، والذي كان حشر بني النضير أدل ما في السورة عليه فسميت باسمه.

رابعاً: ثم جاءت الخاتمة وهي تحوي تأكيداً لكل ما سبق، فقد أمرت المؤمنين بتقوى الله تعالى؛ لأنه ذو العلم المطلق والقدرة التامة، وهو وحده بيده النصر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ وَلَا تَكُونُوا

كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ ، ولاحظ إعادة الأمر بتقوى الله في الآية الأولى، مما يتناسب مع ما بيّنه السياق من تمام علم الله بما يختصّ بعالم الغيب والشهادة، ولاحظ ذكر كونه تعالى خبيراً بما يعلمون، أما الأمر بأن لا يكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فهو متلائم مع ذكر المنافقين وإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب، الذين نسوا الله واعتمدوا على حصونهم وقوتهم، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وهزمهم في الظاهر والباطن.

ولما كان جَوَّ السورة مفعماً ببيان بعض مظاهر علم الله التام وكمال قدرته، ناسب ذكر عظمة قرآنه العظيم: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشَعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ لِنَاسٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ ، فعظمة هذا القرآن إنما هي من عظمة مُنْزَلِهِ سبحانه وتعالى، ولذلك كان واجباً على الناس الإيمان به والعمل بما جاء فيه.

ولذلك أردف السياق ذكر القرآن بذكر بعض الأسماء الحسنى لله عزّ وجلّ وصفته العليا: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ، ولاحظ أن أول صفة للواحد هي كونه عالماً بالغيب والشهادة، وذلك يتناسب مع الجَوَّ العام للسورة، وذكر «الرحمن الرحيم» متلائم مع ما بيّنته السورة من رحمة الله في توزيع الفيء على الجهات الضعيفة في المجتمع، ومن تراحم الأنصار والمهاجرين ومن جاء بعدهم من المؤمنين، أما «الملك» فمتلائم مع قدرته على إزالة ملك يهود بني النضير وجعله فيئاً للمؤمنين، و«القدوس السلام» متلائم مع تنزيهه الله تعالى المذكور أول السورة وآخرها وتنزّهه عن صفات النقص، و«المؤمن» متلائم مع وهبه الأمن للمهاجرين والفئات المستضعفة في المجتمع، ومع وهبه الجنة للمؤمنين يكونون فيها آمنين يوم القيامة.

سورة الحشر

سورة بيان انتصار الله على مَنْ شاقّه انتصاراً مادياً في الظاهر وانتصاراً نفسياً في الباطن

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٤)

المقدمة التي تبرز بعض مظاهر قدرة الله تعالى المطلقة في انتصاره على مَنْ شاقّه:

■ افتتحت السورة ببيان أن كل ما في السماوات والأرض يسبّح لله وينزّهه: ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

■ وبيّنت انتصاره تعالى انتصاراً مادياً ظاهراً على مَنْ شاقّه: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾.

■ وبيّنت انتصاره انتصاراً نفسياً في الباطن على مَنْ شاقّه: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرَوْنَ بِأَوْدَانِهِمْ يَقْنَطُونَ وَأَيَّدَى الْمُؤْمِنِينَ فَأَغْرَبُوا بِتَأْوِيلِ الْأَنْبَاءِ﴾.

■ وبيّنت أن سبب الهزيمة التي لحقت ببني النضير إنما هو مشاققتهم الله ورسوله ﷺ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٥-١٠)

بيان بعض مظاهر فضل الله تعالى على المؤمنين التي برزت من هذا الحشر:

■ انتقل السياق إلى بيان حكم الفيء، وبيّن أنه غنيمة يغنمها المؤمنون بلا قتال، كما حصل مع بني النضير الذين حاصروهم المؤمنون، وبيّن أن الفيء يوزع على ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.

■ وبيّن السياق سلامة قلوب المهاجرين والأنصار على بعضهم البعض، وأنهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، هذا في مقابل بيان المقدمة أن الله قذف في قلوب بني النضير الرعب، وما سيأتي من بيان أن الله جعل قلوب اليهود شتى.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١١-١٧)

بيان الهزيمة النفسية لأهل الكتاب وإخوانهم من المنافقين:

■ بين السياق كذب المنافقين في ادعائهم أنهم سينصرون اليهود ضد المسلمين: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْتِيَنَّكَ الْأَدْبَرُ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

■ وبين أن المنافقين يرهبون المؤمنين أكثر من رهبتهم من الله تعالى، وما ذلك إلا لقلة إيمانهم.

■ وبين مدى الهزيمة النفسية في قلوب اليهود، التي جعلتهم لا يقاتلون المؤمنين إلا في قرى محصنة أو من وراء جُدُر، وبين أن قلوبهم شتى مما يؤكد هزيمتهم النفسية.

■ وبين أن حال المنافقين مع اليهود كحال الشيطان مع الإنسان حينما أغواه ثم تبرأ منه، كذلك تبرأ المنافقون من نصرة اليهود.

■ الموضوع الرابع: (الآيات: ١٨-٢٤)

■ الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أمرت المؤمنين بتقوى الله مرتين، لأن الله ذو القدرة المطلقة وهو وحده بيده النصر.

■ وأمرتهم بأن لا يكونوا كاليهود والمنافقين الذين اعتمدوا على قوتهم وحصونهم، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم والحق بهم الهزيمة.

■ وبينت عظمة القرآن العظيم الداعية إلى الإيمان به والعمل بما جاء فيه من الهدى، وما عظمة القرآن إلا من عظم منزل سبحانه.

■ وبينت أن الله عالم الغيب والشهادة مما يتناسب مع بيان السورة هزيمة من شاق الله تعالى في الظاهر والباطن.

■ وذكرت عدداً من الأسماء الحسنى التي لم تذكر في سورة أخرى، وهي أسماء متناسقة مع سياق السورة وتدلل على عظمة الله وكمال قدرته.

■ وكما افتتحت السورة بتسبيح الله وتنزيهه، ختمت بالمقصد ذاته: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

سورة الممتحنة

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنَفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَالَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَنَسَلُوا مَا أَنَفَقْتُمْ وَلِنَسَلُوا مَا أَنَفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن منظور رحمه الله: «المِخْنَةُ: الخبرة، وامتحان القول: نظر فيه ودبره... ومحنته وامتحنته: بمنزلة: خبرته واختبرته»^(١)، وقد سُميت هذه السورة الكريمة بـ «الممتحنة» بصيغة اسم الفاعل، و «الممتحنة» بصيغة اسم المفعول، فأما دلالة الكسر فمن باب إضافة الامتحان إلى السورة، وهو قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ (بعض الآية: ١٥)، فكان ذكر هذا الامتحان في هذه السورة جعلها بمثابة الامتحان للنساء المهاجرات، وأما دلالة الفتح؛ فلما أن تكون إشارة إلى أول النساء المهاجرات، وهي امرأة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، أو أن تكون الإشارة إلى النساء المهاجرات، أي: النساء الممتحنات. فدلالة اسم السورة تعود إلى امتحان النساء المهاجرات لمعرفة إذا كان الإيمان هو الذي أخرجهن من مكة، أم غرض دنيوي.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً للربط بين موضوعات السورة ومحورها واسمها، فذكروا أن من مقاصد السورة بيان ما يجب أن يكون عليه المجتمع الإيماني من الولاء والبراء وفق المنهج الإلهي الذي اختاره الله لهم، وهذا أعظم الامتحانات، فيجب تقديم الولاء لله ولدينه على كل الولاءات الأخرى التي تقوم على الجنس أو الأرض أو

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج ١٤، ص ٣١.

العشيرة أو القرابة، وعلى ذلك دلّت تسميتها بالمتحنة؛ لأنها تدل على امتحان النساء اللواتي هاجرن من مكة في إيمانهنّ وولائهنّ لله ولدينه^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: تربية المؤمنين على أن يكون ولاؤهم لله ولدينه ولرسوله ﷺ، والتبرؤ من أيّ ولايات أخرى والتي أخطرها: موالاة الكافرين، ولما كانت النساء الفئة الأضعف في المجتمع، وهنّ سبب المصاهرة والنسب والرحم، أمرت السورة بامتحانهنّ في إيمانهنّ وحقيقة انتمائهنّ لله ولرسوله ﷺ، ليكون ذلك أدعى للمؤمنين بالالتزام بالولاء لله تعالى، واشتقّ من هذا الامتحان اسماً للسورة. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة تربية المؤمنين والمؤمنات على موالاة الله ورسوله ﷺ، وبيان أن هذا أصعب الامتحانات.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز التناسق بينها وبين المحور المذكور ودلالات اسم السورة، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: الأول: مقدّمة تدعو إلى الولاء لله ولدينه ولرسوله ﷺ والتبرؤ من موالاة الكافرين، والثاني: الدعوة إلى التّأسي بإبراهيم عليه السلام في موضوع الولاء والبراء وبيان بعض أحكام هذا الموضوع، والثالث: الخاتمة المؤكّدة لما سبق^(٢).

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٣٣٥، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٧، ص ٥٤٧، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٥٣٧، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٨، ص ١٣١، وأ.د. مسلم، التفسير الموضوعي، م ٨، ص ٩٠-٩٣، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٤٥٢، ود. شحاتة، أهداف كل سورة، ج ٢، ص ٢٥٩-٢٦٧، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور، ٢٨٣-٢٨٤.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٣، والتأسي بإبراهيم عليه السلام وأحكام الولاء: ٤-٩، والخاتمة: ١٠-١٣، ومن لطائف هذه السورة: أولاً: قوله تعالى في الآية الأولى منها ﴿لَا تَتَّبِعُوا عِدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أُولِيَاءَ﴾ لم يتكرر في القرآن بهذه الصيغة - عدوي -، لكن جاء في القرآن قريباً منها في سورة الأنفال الآية ٦٠ منها: ﴿تَرْهَبُونَ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، علماً بأن رقم سورة الممتحنة ٦٠، وفي سورة التوبة الآية ١١٤: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ وعلى لسان إبراهيم عليه السلام المذكور أيضاً في سورة الممتحنة، وثانياً: قوله تعالى في الآية الأخيرة من سورة الممتحنة ﴿لَا تَتَّخِذُوا قَوْمًا عَصِبَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ﴾ لم يتكرر في القرآن بالصيغة ذاتها، وبإمكانك أن تضيف قوله تعالى في الآية ٩: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّكُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، وقد أشبهه قوله تعالى في الآية ٢٣ من سورة التوبة ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ولم ترد هذه العبارة في مكان آخر من القرآن، وثالثاً: قوله تعالى =

أولاً: جاء في مقدمة السورة تربية للمؤمنين على أن يكون ولاؤهم لله ولرسوله ﷺ، وأن يقطعوا موالاتهم للكفار، وذلك من خلال التعقيب على ما فعله حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه حين حاول إخبار قريش بتجهيز النبي ﷺ الجيش لفتح مكة^(١): ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخْذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَآيَتِيَ مَرْضَانِي تُشِرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ إِن يَشْفَقْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَسْنَانُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ نَكْفُرُونَ ۝ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝﴾، ولاحظ بيان مدى إساءة الكفار للمؤمنين، وبيان مدى حقدهم وودهم أن يكفر المؤمنون بعد إيمانهم، فقيم تكون بين الفريقين مودة وموالة إذا؟ ولاحظ ذكر الأرحام والأولاد المتلائم مع دلالة اسم السورة على النساء اللواتي هن سبب الأرحام والأولاد.

فمقدمة السورة تربّي المؤمنين على الامتحان الأصعب في إيمانهم، وهو موالة الله ودينه ورسوله ﷺ، وقطع موالة الكافرين ومودتهم، ولا يخفى تناسق ذلك مع دلالة اسم السورة.

ثانياً: ولتعميق مبدأ الولاء لله تعالى في قلوب المؤمنين، ذكر لهم أسوة في السلف وهو إبراهيم عليه السلام، الذي تبرأ من قومه ومن أبيه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا

== ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾: ٤، لم يتكرر في القرآن، ورابعاً: لفظة «برءاء» بصيغة الجمع لم تذكر إلا في هذه السورة: ٤، وخامساً: عبارة «أسوة حسنة» ذكرت في هذه السورة مرتين عن إبراهيم عليه السلام والذين معه: ٤، ٦، ولم تذكر مرة أخرى إلا في سورة الأحزاب: ٢١، في حق سيدنا محمد ﷺ، وسادساً: المصدر «مودة» ذكر في هذه السورة ثلاث مرات، هي أكثر سورة في القرآن حصل فيها ذلك، وقد كانت مرتان منهما في سياق النهي: ١، ومرة في سياق الترجي: ٧. ينظر: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

(١) أخرج الحادثة الإمام البخاري رحمه الله في الصحيح، كتاب التفسير، رقم: ٤٨٩٠، والإمام مسلم رحمه الله في الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، رقم: ٦٤٨٥.

عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿١٠٠﴾ ، ولاحظ أن السياق نهى عن الاستغفار للمشركين ، وذلك لمزيد تعميق ضرورة ترك الموالاتة والمودة بين المؤمنين وبينهم .

وقد بين السياق بعض أحكام الولاء والبراء : ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ، ولاحظ الاستطراد في الآية الأخيرة ، وذلك لتعميق ضرورة ترك الموالاتة والمودة معهم ، فذكر إبراهيم عليه السلام وبعض أحكام الولاء والبراء ، منسجم مع دلالة اسم السورة على هذا المحور .

ثالثاً : جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق ، فأمرت السورة بامتحان النساء اللواتي يهاجرن من مكة إلى المدينة ، لمعرفة السبب الحقيقي في هجرتهم ، فإن غلب على الظن أنهم مؤمنات ، يحرم إرجاعهم إلى الكفار حتى لا يفتن في دينهم : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَايَنْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُفَّارِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ ، ولما كانت النساء الفئة الأضعف في المجتمع ، وهن سبب المصاهرة والنسب والرحم ، اشتق من امتحانهم اسم للسورة ، ليكون ذلك أدعى للمؤمنين على الالتزام بالمحور الذي دل عليه هذا الاسم .

وكما افتتحت السورة ببدء المؤمنين بموالاتة الله ودينه ورسوله ﷺ ، ختمت بالنداء ذاته وبالمقصد ذاته : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسْأَلُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَسْأَلُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٠٢﴾﴾ ، وهكذا التقى المفتتح مع الختام على المحور الذي دل عليه اسم السورة أبلغ الدلالة .



سورة المتحنة

سورة تربية المؤمنين والمؤمنات على موالاة الله ورسوله ﷺ وبيان أن هذا أصعب الامتحانات

الموضوع الأول: (الآيات: ٣-١)	الموضوع الثاني: (الآيات: ٤-٩)	الموضوع الثالث: (الآيات: ١٠-١٣)
<p>المقدمة التي تدعو إلى الولاء لله ورسوله ﷺ، والتبرؤ من موالاة الكافرين:</p>	<p>الدعوة إلى التأسي بإبراهيم عليه السلام في موضوع الولاء والبراء، مع بيان بعض أحكام هذا الموضوع:</p>	<p>الخاتمة المؤكدة لما سبق:</p>
<p>■ افتتحت السورة بتعقيب إلهي على حادثة حاطب ابن أبي بلتعة رضي الله عنه، وأمرت بترك موالاة الكافرين: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.</p>	<p>■ ثم بيّن السياق أن إبراهيم عليه السلام تبرأ من قومه حينما أصرّوا على الكفر: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيِ إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾.</p>	<p>■ أمرت بامتحان المؤمنات المهاجرات للتأكد من أن يكون ولاؤهن لله ولرسوله ﷺ، لا لغرض دنيوي: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ إِنَّهُنَّ عَلِمْنَ بِأَنَّهُنَّ﴾.</p>
<p>■ وحدّرت من الكافرين وبينت مدى حقدهم على المؤمنين: ﴿إِن يَبْقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءُ وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُم بِالسُّوءِ وَوَدُوًّا لَّوْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾.</p>	<p>■ ونهى السياق أيضاً عن الاستغفار للمشرّكين: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ﴾.</p>	<p>■ وأجاز أن يبرّ المؤمنين من لم يقاتلوهم في الدين ولم يخرجوهم من ديارهم.</p>
<p>■ وكما افتتحت السورة بنداء المؤمنين لترك موالاة الكافرين، ختمت بالنداء ذاته وبالمقصد ذاته: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾.</p>	<p>■ وفي المقابل حرّم موالاة من قاتل المؤمنين في الدين وأخرجهم من ديارهم وظاهر على إخراجهم.</p>	

سورة الصَّفِّ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِنُّونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرصُوضٌ ۝﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى ندبها المؤمنين إلى أن يقاتلوا الأعداء صفّاً كأنهم بنيان مرصوص، وهي بذلك تشير إلى أن المؤمنين ينبغي أن تكون قلوبهم وعقولهم وتحركاتهم متّحدة في الهدف المطلوب منهم في الحياة، وهو نصره دين الله، ولا يمكن أن يكونوا صفّاً في القتال إلا إذا كانوا صفّاً واحداً في حياتهم الاجتماعية أيضاً.

أقوال بعض المفسّرين والكاتّبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتّبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن السورة تهدف لأمرين، أولهما: أن تقرّر في ضمير المسلم أن دينه هو المنهج الإلهي للبشرية في صورته الأخيرة، والثاني مبنيّ على الأول، وهو أن يكون شعور المؤمن بهذه العقيدة شعوراً يدفعه إلى صدق النية في الجهاد لإظهار دين الله على الدين كلّ كما أراد الله، وعدم التردّد بين القول والفعل، فاسم السورة يشير إلى اتحاد القلوب والنيات في موالة الله، ومعاداة مَنْ عاداه، بانضباط ووحدة وتماسك، ولذلك بيّنت اختلاف بني إسرائيل على موسى وعيسى عليهما السلام عن نصره دينهم وأنبياهم^(١).

(١) ينظر: البقاعي، نظم الدرر، ج ٧، ص ٥٧٠-٥٧٣، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٥٥٠-٣٥٥٥، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٨، ص ١٧٣، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٨، ص ١٢٣، ١٢٤، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٤٥٥، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ٤٠٥-٤٠٧، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٢٨٥-٢٨٧.

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى القتال في سبيل الله لتحقيق وعد الله بإظهار الدين على الدين كله، ولما كان القتال صفًا أدل ما في السورة على وحدة القلوب والعقول والتحركات على هذا الهدف، سُميت السورة به للدلالة على المحور المذكور وللتغريب فيه. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة دعوة المؤمنين إلى اتحاد القلوب والعقول لتحقيق وعد الله بإظهار دين الإسلام على الدين كله.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: أولها مقدمة تدعو إلى أن يطابق قول المؤمنين فعلهم خاصة فيما يتعلق بالقتال، وثانيها بيان نكول بني إسرائيل عن نصرة دين الله لاختلافهم على أنبيائهم مع علمهم أن دين الله هو الحق، وثالثها: الخاتمة المؤكدة لما سبق^(١).

أولاً: جاء في مقدمة السورة دعوة للمؤمنين إلى أن يوافق قولهم فعلهم، خاصة فيما يتعلق بالقتال كونه أكثر شيء يهابه الإنسان وأصعب امتحان يثبت صدق الإيمان: ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ

(١) مقدمة السورة شملت الآيات: ٤-١، وبيان نكول بني إسرائيل عن نصرة دين الله: ٥-٩، والخاتمة: ١٠-١٤. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً منها أمور متعلقة بالمؤمنين: أ) فقوله تعالى لهم ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ لم يذكر إلا هنا: ٢، ٣، ب) وكذلك وصف قتالهم بقوله ﴿صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَنٌ مَرْصُوفٌ﴾: ٤، ج) وصف الجهاد بالتجارة لم يذكر إلا هنا: ١٠، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بنكول بني إسرائيل مع علمهم بأن الدين حق: أ) فقول موسى عليه السلام لهم ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾: ٥، لم يذكر إلا هنا، ب) وكذلك قول عيسى عليه السلام لقومه ﴿وَمُبَشِّرًا بِرُسُولِي يَأْتِي بِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَهْبَاءً﴾: ٦، ج) أما قوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ﴾: ٧، فلم يذكر إلا هنا بهذه الصيغة يذكر «أل» التعريف للكذب، وقد ذكر افتراء «الكذب» في سورة آل عمران عن بني إسرائيل بصيغة مشابهة: ﴿فَمَنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: ٩٤، د) وقوله ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾: ٨، فلم يذكر إلا هنا، وقريب جداً منه في سورة التوبة: ٣٢، هـ) وقول عيسى عليه السلام مع جواب الحواريين ﴿مَنْ أَضَارِكُ إِلَى اللَّهِ قَالَكَ الْخَوَارِثُ مِمَّنْ أَضَارُكَ اللَّهُ﴾ لم يذكر إلا هنا: ١٤، وفي سورة آل عمران: ٥٢، ولكن سورة الصف تميّزت بدعوة المؤمنين بقوله ﴿كُونُوا أَصَارَ اللَّهِ﴾: ١٤، إذ لم يتكرر. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ٢٠٠ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْنِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْصُومٌ ﴿٢٠١﴾ ، لاحظ الاسمين الجليلين «العزیز الحكيم» المناسبين لما تدعو إليه السورة من تحقيق عزة الإسلام، ولاحظ أن السورة تنهى عن أن يكون قول المؤمن مخالفاً لفعله، لأنه لا يمكن أن تتحقق الوحدة في القتال، إلا إذا تحقق الصدق في الأقوال والأفعال في الظروف الاعتيادية، ثم ستتحقق الوحدة في الظروف الصعبة كالقتال.

فالمقدمة تدعو المؤمنين إلى الاجتماع على وحدة الهدف في الأقوال والأفعال والنوايا، وأن يكون ذلك مبنياً على الصدق، فمتى ما تحقق ذلك، سيستحقون النصر الذي وعدهم الله به.

ثانياً: وبعدما أمرت المقدمة المؤمنين بوحدة الهدف، انتقل السياق إلى بيان تفرق بني إسرائيل على أنبيائهم ليحذر المؤمنون من موقف من سبقهم من الأمم، وابتدأ السياق بذكر اليهود: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ لِمَ تَوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ٢٠٢ ، فهم أعرضوا عن نبيهم، وأذوه وهم يعلمون أنه رسول الله إليهم، فكانت نتيجة زيغهم عن نبيهم وعن حكم الله الذي أنزله عليه، أن أزاع الله قلوبهم فلا تجتمع كلمتهم على الحق أبداً.

ثم بين السياق موقف النصارى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَمَّهُ أَهْمُ أَحَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ٢٠٣ ، فقد اختلفت كلمتهم في عيسى عليه السلام بعد رفعه مع علمهم بأنه رسول الله إليهم، وكفروا بما أخبرهم به من حقيقة نبوة سيدنا محمد ﷺ، وقالوا: هذا سحر مبين، فهم أيضاً مختلفون زائغون عن الحق.

إن عرض موقف أهل الكتاب السابقين وبيان زيغهم وضلالهم، فيه أبلغ تحذير للمؤمنين من أن يلحق بهم ما حاق بمن قبلهم إذا لم ينتهوا عن أن يخالف قولهم فعلهم، وإذا لم يكونوا كالصف متفقين على وحدة الهدف والنية.

ثم عرض السياق موقف المشركين: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى

الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾، فهم أيضاً مختلفون في الحقّ كارهون له، مع أن الأصل أن يجمعهم الحقّ على الخير والفلاح، لا أن يتفرّقوا عنه، ويبان أن الله سيتمّ نوره بمثابة وعد للمؤمنين بنصر دينهم على الدين كلّ، بشرط أن يكونوا صفّاً كالبنيان المرصوص.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت الحثّ على القتال في سبيل الله لنصرة دينه، مع بيان أن ذلك هو التجارة الرباحة عند الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرُ عَلَىٰ تَجَارِكُمْ تُجِيرُكُمْ مِنْ عَذَابِ آلِمْ﴾ ﴿١٠﴾ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْمُرُكُمُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَقِفْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُتَوَمِّلِينَ ﴿١٣﴾.

وكما افتتحت السورة بدعوة المؤمنين إلى وحدة الهدف في النية والقول والفعل والاجتماع على نصره دين الله، ختمت بحثهم على أن يكونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار الله من قبل، مع وعدهم بنصر الله وظهور دينهم على الدين كلّ متى ما حقّقوا وحدة الصف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنَّا طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَبْدَأَ الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾، وبذلك التقى البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الصف

سورة دعوة المؤمنين إلى اتحاد القلوب والعقول لتحقيق وعد الله بإظهار
دين الإسلام على الدين كله

الموضوع الأول (الآيات:

(٤-١)

المقدمة التي تدعو المؤمنين إلى أن يطابق قولهم فعلهم خاصة فيما يتعلق بالقتال:

■ افتتحت السورة ببيان عظمة الله تعالى الذي وعد بإظهار دينه على الدين كله: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

■ ثم أمرت المؤمنين بأن يكون قولهم مطابقاً لفعلهم، وبيّنت أن مخالفة القول للفعل أمر كبير مقتاً عند الله.

■ إن دعوة المؤمنين إلى مطابقة قولهم بفعلهم يدل على ضرورة اتحاد قلوبهم وعقولهم لتحقيق وعد الله بإظهار دينه، وهو أمر لا يكون إلا بالقتال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنَهُ مَرْضُوضٌ﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٥-٩)

بيان نكول بني إسرائيل عن نصره دين الله لاختلافهم على أنبيائهم مع علمهم أن دين الله هو الحق:

■ ثم بيّن السياق نكول اليهود عن نصره دين الله الذي أنزله على موسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ وَقَدْ نَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

■ ثم بيّن نكول النصارى عن نصره دين الله الذي أنزله على عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

■ إن عرض موقف الأمم السابقة حين نكلوا عن نصره دين الله، فيه أبلغ تحذير للمؤمنين من أن يكونوا مثل من سبقهم من الأمم.

الموضوع الثالث: (الآيات:

(١٠-١٤)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت حتّ المؤمنين على نصره دين الله والذي لا يكون إلا بالجهاد، وبيّنت أن الجهاد تجارة رابحة عند الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى يَجْدٍ تَشْتَرُونَ عَذَابِ الْآلِيمِ ﴿١١﴾ تَوَسَّلُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُؤْمِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْمُرُكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ سَبِيلٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

■ وكما افتتحت السورة بدعوة المؤمنين إلى اتحاد القلوب والعقول لنصرة دين الله، ختمت بدعوة المؤمنين إلى الاقتداء بموقف الحواريين حينما اتحدت قلوبهم وعقولهم لنصرة نبيهم عيسى عليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَصَارَ إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَصَارُ اللَّهِ فَامَنَّتْ عَلَيْهِمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ فَأَبْدَأَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَذْوِهِمْ فَاصْبِرُوا لِمَا هُمْ بِظَاهِرِينَ﴾.

سورة الجمعة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ
ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا
مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا
وَتَرَكَوْا قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمَنِ التَّجَرُّوْا وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى حادثة قدوم غير تجارية إلى المدينة المنورة، وقد كان رسول الله ﷺ يخطب حينها خطبة الجمعة، فلما سمع بقدومها المسلمون ثار الناس إليها ولم يبقَ أمام النبي ﷺ إلا القليل. فأنزل الله تعالى قوله معاتباً وموجهاً لهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكَوْا قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمَنِ التَّجَرُّوْا وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣﴾﴾. فاسم السورة يحذّر من التلهي بالدنيا عن طاعة الرسول ﷺ^(١).

أقوال بعض المفسرين والكاّتين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاّتين أوجهاً للربط بين اسم السورة وموضوعاتها واسمها، فذكروا أن من مقاصد هذه السورة أن يقرّ في أخلاق المؤمنين أنهم المختارون لحمل أمانة العقيدة، وأن بعثة النبي ﷺ فيهم منّة كبرى تقتضي النهوض بالتكاليف التي حُمِّلوها بعد نكول بني إسرائيل عن حملها، والتخلص من الجواذب المعوّقة عن هذه الأمانة مثل الحرص والرغبة العاجلة في الربح، واسمها «الجمعة» المفيد فرضية الاجتماع فيها والإقبال على الله والتجرّد عن غيره، يدلّ دلالة واضحة على ذلك^(٢).

(١) أخرج الحادثة الإمام البخاري، الصحيح، كتاب التفسير، برقم: ٤٨٩٩، والإمام مسلم، الصحيح، كتاب الجمعة، برقم: ١٩٥٢.

(٢) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٢٤٠، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٧، ص ٥٩٠، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٥٦٢، ٣٥٦٣، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٨، ص ٢٠٥، وأ.د. مسلم، التفسير =

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان فضل النبي ﷺ وتربية المؤمنين على وجوب التزام هديه وعدم الإعراض عن هديه ابتغاء عرض من الدنيا، ولما كانت حادثة بعض المؤمنين مع النبي ﷺ في يوم الجمعة حين قدوم العير أدل ما في السورة على هذا المحور، سُميت السورة باسم ذلك اليوم للدلالة عليه. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان فضل النبي ﷺ الداعي إلى التزام هديه وعدم التلّهي عنه.

وبتأمل موضوعات السورة تبرز العلاقة بينها وبين دلالات اسمها، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: أولها: مقدّمة تبيّن فضل الله على المؤمنين ببعثة النبي ﷺ، وثانيها: التحذير من موقف اليهود المتخاذلين عن حمل أمانة دينهم وهدى نبيهم ﷺ، وثالثها: خاتمة مؤكّدة لما سبق^(١).

= الموضوعي، م ٨، ص ١٤٥، ١٤٦. ود. شحاتة، أهداف كل سورة، ج ٢، ٢٨٦-٢٨٩، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٤٥٨، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ٤٣٩-٤٤١، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(١) مقدّمة السورة شملت الآيات: ١-٤، والتحذير من موقف اليهود: ٥-٨، والخاتمة: ٩-١١. ومن لطائف هذه السورة: أنها تشترك مع ثلاث سور من القرآن بأوجه عدّة، وذلك راجع إلى اشتراك هذه السور في أحد جوانب المحور المذكور لكل سورة منها وهو بيان نكول اليهود عن حمل أمانة دينهم، وهذه السور هي: البقرة، وآل عمران، والحشر، وإليك بعض أوجه التناقص بين هذه السور الأربع: أولاً: جاء في سور الجمعة قوله تعالى في الآية: ٢ ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَرُكُوبَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، وانظر الآية ١٢٩ من سورة البقرة ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَرُكُوبَهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وانظر الآية ١٥١ ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رُسُلًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَرُكُوبَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيْكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ وانظر الآية: ١٦٤ من سورة آل عمران ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَرُكُوبَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، وثانياً: قد اشتركت هذه السور الأربع بالدعوة إلى التزام طاعة النبي ﷺ: الجمعة: ٩-١١، والبقرة: ١٠٥، وآل عمران: ٣٢ و ١٣٢، والحشر: ٦-٩، وثالثاً: انظر قوله تعالى في الآية: ٤ من سورة الجمعة عن بعثة النبي ﷺ ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، وقد جاء في سورتي البقرة وآل عمران اعتبار بعثة النبي ﷺ فضلاً من الله تعالى، انظر الآيتين: ٩٠، ١٠٥ من سورة البقرة، والآيتين: ٧٣، ٧٤ من سورة آل عمران، ورابعاً: اشتركت هذه السورة مع سورتي البقرة وآل عمران في بيان تفضيل اليهود الدنيا على الآخرة، انظر قوله تعالى الآيتين: ٦ و ٧ من سورة الجمعة: ﴿فَتَمَنَّا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وَلَا يَمَنُّنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، وانظر الآيتين: ٩٤، ٩٥ في سورة البقرة اللتين ذكرتا العبارة بنفسها =

أولاً: جاء في المقدمة بيان تنزيه الله تعالى، وفضله على المؤمنين إذ بعث فيهم النبي ﷺ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ① هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ② وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ④، وأعتقد أن افتتاح هذه السورة بذكر الأسماء الجليلة «الملك القدوس العزيز الحكيم» متلائم مع دلالات اسم السورة، لأن يوم الجمعة إنما شرع من أجل ذكر الله تعالى، ثم إن في ذكر هذه الأسماء تربية للمؤمنين على عدم ترك الجمعة رغبة في الدنيا، لأنه سبحانه يملك الفضل كله، ولاحظ وصف «الأميين» الذي كان عليه العرب، ليكون ذلك أظهر في بيان فضل الله تعالى في بعثة النبي ﷺ، ولاحظ ذكر امتداد هذا الفضل إلى يوم القيامة، و تكرار لفظة «الفضل» المنسوبة إلى الله، فالمقدمة تحوي تربية للأمة الإسلامية على أداء حق النبي ﷺ بالتزام هديه كونه مِنَّةَ عظمى من الله عليهم، ولا يخفى تلاؤم ذلك مع دلالة اسم السورة.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى التحذير من اليهود الذين نكلوا عن حمل أمانة دينهم، فتركوا هدي نبيهم والكتاب الذي أنزله الله عليه، وهم أشهر الأمم في ذلك، ففي ذكرهم تحذير

= لكن ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾، وقد قال تعالى في سورة آل عمران تعقيماً على ذكر اليهود ومحدراً من الاغترار بالدنيا ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾: ١٨٥، وخامساً: لا يخفى اشتراك سورة الجمعة والبقرة وآل عمران ببيان ترك اليهود لهدى كتابهم، انظر الآية: ٥، من سورة الجمعة، وانظر على سبيل المثال لا الحصر الآية: ١٠١ من سورة البقرة، والآية: ٢١ من سورة آل عمران، سادساً: اشتركت السور الأربع بالدعوة إلى ذكر الله تعالى: الجمعة: ٩، ١٠، وانظر مثلاً لا حصرأ: البقرة: ١٩٨، ٢٠٠، وآل عمران: ١٣٥، ١٩١، وبإمكانك أن تضيف أن سورة الحشر افتتحت بـ ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ﴾ وختمت بـ ﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾، وفيها قوله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾: ١٩، وفيها من أسماء الله الحسنى ما لم يذكر في غيرها، وذلك بلا ريب داع إلى ذكر الله تعالى، وسابعاً: قد اختصت سورتا الحشر والجمعة بذكر الاسمين الجليلين «الملك القدوس» دون باقي سور القرآن: الجمعة: ١، والحشر: ٢٣، وقد ذكر فيها الاسمان الجليلان «العزيز الحكيم» مرتين في كل منهما: الجمعة: ١، ٣، والحشر: ١، ٢٣، وقد ذكرت هذه العبارة «عالم الغيب والشهادة» مرة واحدة في كل منهما: الجمعة: ٨، والحشر: ٢٢. وإذا تأملت المواضع المذكورة في السياق الخاص لكل سورة ستجد أنها جاءت على نحو متلائم مع المحور المذكور لكل سورة منها. وينظر للمراجعة، عبد الباقي، المعجم المفهرس.

للمؤمنين من موقف اليهود، وتربية لهم على التزام هدي نبيهم ﷺ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا
التَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ ، وقد أعقب السياق هذه الآية ببيان تفضيل اليهود الدنيا على
الآخرة، ولذلك فهم يكرهون الموت ولا يتمنونوه أبداً بما قدمت أيديهم، وذلك فيه إشارة
إلى تربية المؤمنين على عدم تفضيل متاع الدنيا على هدي النبي ﷺ، ولا يخفى ترابط ذلك
مع دلالة اسم السورة.

ثالثاً: جاء في الخاتمة ذكر الحادثة التي منها اشتق اسم السورة، وهي تحوي تأكيداً لما
سبق، فهي تحذر من الاشتغال عن يوم الجمعة وما فيه من ذكر الله وهدى النبي ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَدَّعَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ ، وأعتقد أن ذكر «فضل الله» متلائم مع دلالة الاسمين الجليلين في
المقدمة «الملك القدوس»، وهما كذلك متلائمان مع بيان أن الله تعالى خير الرازقين في
الختام، وإذا فلا يجوز الانشغال بكسب الرزق عن ذكره تعالى في يوم الجمعة الذي جعله
الله من شعائر دينه، وذلك لأن المؤمن يوقن أن الله سيغنيه من فضله.

وكما افتتحت السورة بتنزيه الله تعالى وبيان فضله على المؤمنين ببعثة النبي ﷺ فيهم
والأمر بالتزام هديه، ختمت بذكر صفات الله تعالى متلائمة مع دلالة الأسماء الواردة في
المفتتح، وبيان وجوب التزام هديه ﷺ وعدم التلهي عنه بمتاع الدنيا: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ
لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾ ،
وهكذا التقى البدء والختام في هذه السورة على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ
الدلالة.



سورة الجمعة

سورة بيان فضل النبي ﷺ الداعي إلى التزام هديه وعدم التلهي عنه

<p>الموضوع الأول: (الآيات: ١-٤) (٤)</p> <p>المقدمة التي تبيين فضل الله تعالى على المؤمنين ببعثة النبي ﷺ:</p> <p>■ افتتحت السورة بتسبيح الله مالك السماوات والأرض، وباعث الرسول ﷺ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَيْكَ الْغَدُوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾</p> <p>■ وبينت أن فضله ﷺ لم يقتصر على مَنْ عاصره فقط، بل شمل كل مَنْ آمَن به إلى يوم الدين: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَأْ يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾</p>	<p>الموضوع الثاني: (الآيات: ٥-٨) (٨)</p> <p>التحذير من موقف اليهود المتخاذلين عن حمل أمانة دينهم وهدى نبيهم عليه السلام:</p> <p>■ ثم يبين السياق نكول اليهود عن حمل الأمانة التي أوحاها الله بها في التوراة المنزلة على موسى عليه السلام: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَبِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾</p> <p>■ وبين السياق أنهم فضلوا الدنيا والتلهي بها عن الآخرة: ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَعَيْتُمْ أَنَاكُمْ أُولَئِكَ إِلَهُ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَمَتَنُوا أَلْوَتْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٥﴾ وَلَا يَمْنُنَ اللَّهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٦﴾</p>	<p>الموضوع الثالث: (الآيات: ٩-١١) (١١)</p> <p>الخاتمة المؤكدة لما سبق:</p> <p>■ حذرت من الاشتغال والتلهي بالدنيا عن صلاة الجمعة وما فيها من ذكر الله وهدى النبي ﷺ: ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٩﴾</p> <p>■ وكما افتتحت السورة ببيان فضل الله على المؤمنين ببعثة النبي ﷺ مما يدعو إلى التزام هديه، ختمت بالتحذير من التشاغل والتلهي بالدنيا عن التزام هديه ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَزَكَّوْا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الْهَوَىٰ وَفِي الْبَيْعِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ﴿١٠﴾</p>
---	--	---

سورة المنافقون

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ
الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى ذكرها بعض صفات المنافقين، وبعض مواقفهم من الرسول الكريم ﷺ، التي تثبت أنهم يبطنون خلاف ما يظهرون، وتثبت استحقاقهم الغضب واللعنة من الله تعالى، ففي تسمية السورة بهم بصيغة اسم الفاعل وجمع المذكر السالم، بيان لمدى عراقتهم في النفاق، وفي ذلك تحذير للمؤمنين منهم ومن صفاتهم.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة ذم النفاق والمنافقين، وكشف مؤامراتهم وفضح دسائسهم، ففي السورة حملة عنيفة عليهم وعلى ما في نفوسهم من الكيد والبغض للمسلمين، وفيها تحذير منهم ومن صفاتهم^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: عرض أمراض المنافقين القلبية، وما نتج عنها من أخلاق ظاهرة ذميمة، وتحذير المؤمنين منها بتوجيهات تربوية. وفي تسمية السورة بالمنافقين دلالة لا تخفى على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٣٢٤، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٧، ص ٦٠٥، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٥٧٢، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٨، ص ٢٣٣، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٨، ص ١٦٦، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٤٦٠، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ٣٥٥-٣٥٧، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن، ص ٢٨٨-٢٩٠.

السورة بأنها سورة بيان الأمراض القلبية للمنافقين وأخلاقهم الذميمة وتحذير المؤمنين منهم .
وبتأمل قسَمِي السورة يبرز الترابط بينهما وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه ، وفيما يلي بيان ذلك :

من الممكن أن تقسم السورة لقسمين ، أولهما : عرض لأمراض المنافقين القلبية وأخلاقهم الذميمة ، والثاني : تحذير المؤمنين منهم بتوجيهات ربانية تربوية^(١) .

أولاً : جاء في القسم الأول من السورة عرض للأمراض القلبية لدى المنافقين ، والتي نتجت عنها أخلاق ذميمة ، وقد ابتدأ السياق بالحديث عن الأمراض القلبية لخطورتها البالغة : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ ① اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ② ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَجَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهَرٌ لَا يَقْقَهُونَ ③ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ فَنُفِّلَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُؤَفِّكُونَهُمْ ④ ، فهم يبطنون خلاف ما يظهرون ، وهم كاذبون يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، ولم يكتفوا بذلك بل اتخذوا أيمانهم الكاذبة للصدِّ عن سبيل الله تعالى ، وهم لم يدخل الإيمان إلى قلوبهم حقاً ، ولذلك تركوه وعادوا إلى الكفر ، وقد نتج عن هذه

(١) القسم الأول شملته الآيات : ١-٨ ، والثاني : ٩-١١ . ومن لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه ، ومن ذلك : أولاً : قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ ذكر هنا فقط مع ذكرهم الصريح المناسب لاسم السورة ، بينما شهد الله عليهم بالكذب لكن بضمير في سورة التوبة : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ : ١٠٧ ، وبالعبارة ذاتها في سورة الحشر : ١١ ، ثانياً : هي الوحيدة المختصة بقولهم الكاذب : ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ : ١ ، ثالثاً : والوحيدة المختصة بقوله تعالى عنهم : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ فَنُفِّلَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُؤَفِّكُونَهُمْ ﴾ : ٤ ، خامساً : والوحيدة التي اختصت بقوله تعالى عنهم حين دعوا إلى استغفار الرسول ﷺ : ﴿ لَوْأَنَّهُمْ ذُكِّرُوا بِمَا فِي أُلُوبِهِمْ لَأَعَرَّتْ مِنْهَا الْأَذَلُّ ﴾ : ٨ ، سابعاً : وصفهم بأنهم لا يعلمون مع التصريح بذكرهم هنا فقط : ﴿ وَلَكِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ : ٨ ، بينما وصفوا بأنهم لا يعلمون لكن بالضمير في سورة البقرة : ﴿ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ : ١٣ ، وفي سورة التوبة : ﴿ فَهَرٌ لَا يَقْقَهُونَ ﴾ : ٩٣ ، ثامناً : هي الوحيدة التي نسبت العزة لله مع ذكر الرسول ﷺ والمؤمنين : ﴿ وَيَلْلَهُ أَلَمِرَةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ : ٨ ، وذكر المؤمنين مناسب في مقابل التصريح بذكر المنافقين كما سبق ، بينما نسبت العزة في القرآن لله تعالى فقط دون ذكر المؤمنين في سورة النساء : ١٣٩ ، ويونس : ٦٥ ، وفاطر : ١٠ ، والصفافات : ١٨٠ . ينظر للمراجعة : عبد الباقي ، المعجم المفهرس .

الأمراض القلبية عدد من الأخلاق الظاهرة الذميمة، فهم جنباء بالرغم من كمال أجسامهم. ثم عرض السياق أنهم مُصِرّون على باطلهم بالرغم من دعوتهم للاستغفار والتوبة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۝٦﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦﴾، فهم قد بلغوا من الكفر والفسوق حدًا لا يجدي استغفار رسول الله ﷺ - وهو خير البشر - لهم نفعاً.

ثم عرض السياق شيئاً من أقوالهم الدالة على مرض قلوبهم، وكأن عرض مثل هذه الأقوال يعلل عدم نفع استغفار الرسول ﷺ لهم، ويبين مدى الكفر والفسوق الذي بلغوه: ﴿هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ۚ وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾، فهم كارهون لله ولرسوله ﷺ حتى دفعهم كرههم إلى البخل، وهم متكبرون يدعون أنهم هم الأعزاء، ولكن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

فالقسم الأول من السورة كما ترى يعرض الأمراض القلبية لدى المنافقين، وما نتج عنها من أخلاق ظاهرية ذميمة، جعلتهم يستحقّون الغضب واللعنة من الله تعالى.

ثانياً: جاء في القسم الثاني من السورة توجيهات تربوية للمؤمنين تحذّرهم من الاقتداء بالمنافقين بعد أن كشفت سرائرهم الخبيثة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ ۚ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠﴾، ولاحظ أن السياق حذّر المؤمنين من التلهي بالأموال والأولاد عن ذكر الله، لأن الذي سبب الأمراض القلبية للمنافقين إنما هو حبهم للدنيا وما فيها من أموال وأولاد حتى أغفلهم عن الإيمان بالله تعالى، ولاحظ أيضاً أن السياق دعا المؤمنين إلى النفقة في سبيل الله، وذلك يقابل وصف المنافقين بالبخل، والذي يدعو المؤمن إلى الإنفاق إنما هو يقينه بأنه سيجد

أجره في الآخرة، ولما انعدم هذا اليقين في قلوب المنافقين، انعكس ذلك على سلوكهم حتى أصبحوا مثلاً للبلخ.

وكما افتتحت السورة ببيان علم الله تعالى وشهادته على ما في قلوب المنافقين من الكذب والكفر الذي دفعهم إليه عدم الإيمان بالله واليوم الآخر، ختمت ببيان أن الله تعالى قضى على كل نفس أجلاً مسمى، وسيحاسب الجميع يوم القيامة؛ لأنه خير بما عمله كل نفس: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١١)، وفي ذلك أبلغ تحذير للمؤمنين من المنافقين ومن صفاتهم السيئة، وبذلك يلتقي البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة المنافقون

سورة بيان الأمراض القلبية للمنافقين وأخلاقهم الذميمة وتحذير المؤمنين منهم

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٨)

عرضٌ لأمراض المنافقين القلبية وأخلاقهم الذميمة:

■ افتتحت السورة ببيان شهادة الله بكذب المنافقين في ادعائهم الإيمان بالرسول ﷺ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتُنَفِّقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتُنَفِّقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾﴾.

■ وبينت أنهم يحلفون الإيمان الكاذبة للصد عن سبيل الله: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾.

■ وقد طبع الله على قلوبهم لعودتهم للكفر بعد الإيمان: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾.

■ وهم جنباء بالرغم من قوة أجسامهم: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو فَاذْهَبْهُمْ فَتُلَاهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾.

■ وهم لسقم قلوبهم يعرضون عن استغفار الرسول ﷺ لهم ويلوون رؤوسهم متكبرين.

■ وقد انعكس مرض قلوبهم على ألسنتهم أيضاً فتلفظوا بأقوال تدل على كفرهم: ﴿هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ﴿٥﴾﴾، فهذا دليل على بخلهم بالإضافة إلى كفرهم.

■ ومن ذلك أيضاً: ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ ﴿٦﴾﴾، فهم حاقدون كارهون مستكبرون.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٩-١١)

تحذير المؤمنين منهم بتوجيهات ربانية تربوية:

■ حذر السياق المؤمنين من التلهي بالأموال والأولاد عن ذكر الله، وهذا يقابل وصف المنافقين بالبخل.

■ وحذر المؤمنين من التلهي بالدنيا عن الاستعداد بالعمل الصالح للقاء الله، وهذا يقابل حب المنافقين للدنيا وما فيها من أموال وأولاد حتى غفلوا عن الإيمان بالله والعمل الصالح.

■ وكما افتتحت السورة ببيان شهادة الله العليم على ما في قلوب المنافقين من الكذب لعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر، ختمت ببيان أن الله سيحاسب جميع الخلق يوم القيامة، لأنه خبير بما عمله كل نفس: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

سورة التغابن

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ
وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس: «الْعَبْنُ: الغين والباء والنون كلمة تدلّ على ضعف واهتضام، يقال: غَبِنَ الرجلُ في بيعه فهو يُغَبِّنُ غَبْنًا، وذلك إذا اهتضم فيه، وَغَبِنَ في رأيه: وذلك إذا ضعف رأيه، والقياس في الكلمتين واحد»^(١). وزاد الإمام الأصفهاني: «يوم التغابن: يوم القيامة، لظهور الْعَبْنِ في المبايعة المشار إليها بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ (البقرة: بعض الآية ٢٠٧)، وبقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾ (التوبة: بعض الآية ١١١)»^(٢)، وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى وصف حال الناس في ذلك اليوم، إذ سيظهر غبن الكافرين لعدم إيمانهم، وسيظهر غبن بعض المؤمنين لتقصيرهم في الأعمال الصالحة التي تُرصد لذلك اليوم. ووصف القيامة بيوم التغابن يعطي دلالة على أنه لا تغابن حقيقة إلا في ذلك اليوم.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أنها إنما سُميت بالتغابن لحديثها عن التغابن والمغبونين، وأسباب التغابن وسبل الوقاية منه، واسم السورة يدلّ على كمال المؤمنين في نظر العاقبة، إذ غَبَنُوا الكافرين بأخذ أماكنهم من الجنة، وإعطائهم أماكنهم من النار، وكمال سفه الكافرين إذ غَبَنَهُم المؤمنون. والْعَبْنُ يلحق أيضاً يوم القيامة بمن قَصُرَ في الإحسان من المؤمنين، فيتمنى أن لو زاد في

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٨١١.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ٦٠٢.

الإحسان فتعلو مرتبته في الجنة، واسم السورة يحذّر مما جاء في سورة المنافقون السابقة لها من إقامة الدليل على أنه لا بُدّ من الحساب^(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال المذكورة بالقول بأن محور السورة هو: إثبات حقيقة يوم القيامة من خلال التحذير مما أوقع الكافرين في الغبن الأكبر يوم القيامة، والتحذير من التقصير لثلا يقع المؤمن في الغبن في ذلك اليوم، فاسم السورة يدلّ على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة التحذير من الوقوع في الغبن يوم القيامة.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام: أولها مقدّمة تبين قدرة الله على البعث والحساب، وثانيها تحذير مما أوقع الكافرين في الغبن الأكبر يوم القيامة، وثالثها تحذير للمؤمنين من التقصير لثلا يقعوا في الغبن يوم القيامة، ورابعها خاتمة مؤكّدة لما سبق^(٢).

أولاً: تذكر المقدّمة أن الذي خلق الناس جميعاً بأحسن صورة، وخلق السماوات والأرض، لقادر على بعث الناس لحسابهم: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ

(١) ينظر: المهايمي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٣٤٥، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٣، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٥٨٣، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٨، ص ٢٥٩، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، ج ٨، ص ١٨٩، وأحمد عطا عمر، تفسير جزء قد سمع، ص ١٥١، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٤٦٢، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٢٩٣.

(٢) مقدّمة السورة شملت الآيات: ١ - ٤، والتحذير مما أوقع الكافرين في الغبن الأكبر: ٥ - ١٠، والتحذير من التقصير: ١١ - ١٥، والخاتمة: ١٦ - ١٨. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور تبين سبب غبن الكافرين يوم القيامة: (أ) فقوله تعالى عنهم ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا﴾: ٦، لم يتكرر في القرآن، وكذلك قوله ﴿يَعْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُغْنِيَهُمْ عَنْكُمْ وَفَقَدُوا مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾: ٧، وثانياً: ومنها أمور متعلقة بتحذير المؤمنين من الغبن يوم القيامة: (أ) فقوله ﴿إِنَّ مِنْكُمْ فُجُورًا مُبِينًا﴾: ١٤، ذكر هنا فقط، وقريب منه في سورة التوبة: ٢٤، (ب) وأما قوله ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ فقد ذكر هنا: ١٥، وفي سورة الأنفال فقط: ٢٨، بعبارة قريبة، (ج) قوله ﴿فَأَنفِقُوا لِلَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾: ١٦، لم يتكرر، وكذلك قوله ﴿وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا﴾: ١٦، وقريب منه في سورة المائدة: ١٠٨. وبإمكانك أن تضيف أن هذه السورة هي الوحيدة في القرآن التي ذُكرت فيها لفظتا ﴿لَتُبْنَ﴾ و﴿لَتَنْبُتَنَّ﴾: ٧، وهما تؤكّدان قدرة الله على البعث والجزاء الذي يبين فيه غبن المغبون. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

وَلَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرَ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ واللافت للنظر في هذه المقدمة أن قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُلْنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾، يبين أن الله قدير على جمع الناس ليوم التغابن وأن يظهر لهم أعمالهم فيبان غبن المغبون.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى خطاب الكافرين الذين زعموا أنهم لن يبعثوا، فبين الله لهم أنهم سيبعثون ليوم الجمع، ذلك يوم التغابن، واللافت للنظر أيضاً أن السورة حذرت من الأعمال التي أوقعت الكافرين بالغبن الأكبر يوم القيامة: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ عَنِ حَيْدٍ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾، فهم يكفرون ويتولون عن الرسل، وهم يزعمون أنهم لن يبعثوا، فكُفِّرهم وتولَّيهم ساقهم إلى إنكار الآخرة، وهذا أكبر غبن وأكبر خسارة يوم القيامة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٨﴾. وهذه السورة هي الوحيدة في القرآن التي جاء فيها لفظة ﴿لَتُبْعَثَنَّ﴾ ولفظة ﴿لَتُنَبَّيَنَّ﴾ بضمير الجمع المخاطب، مما يناسب دلالة اسم التغابن كما لا يخفى، فهما تؤكدان قدرة الله تعالى على بعث البشر، وجزائهم بالعدل حسب أعمالهم، حينها سيبان المغبون، أضف إلى ذلك التوكيد بالقَسَمِ، وبيان أن ذلك على الله يسير.

ثالثاً: ثم انتقلت السورة إلى خطاب المؤمنين وأمرتهم بالصبر على المصائب حتى لا يُحرموا من الأجر يوم التغابن، وأمرتهم بطاعة الله والرسول، واللافت للنظر أيضاً أن السورة قد حذرت المؤمنين من الوقوع في التقصير، والتلهي بالأزواج والأموال والأولاد عن الاستعداد لذلك اليوم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٩﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾.

رابعاً: خُتِمت السورة بذكر وصايا تقي المؤمنين من الوقوع في الغبن يوم القيامة: ﴿فَأَنفِقُوا آلَهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ تَقْرِضُوا اللَّهَ فَرَضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾، فأمرتهم ببذل كل الجهد بالتقوى، والسمع والطاعة والنفقة، ولاحظ أن السورة ختمت ببيان أن الله عالم الغيب والشهادة فيجازي كل امرئ يوم التغابن بما عمل من خيرٍ أو شرٍّ، وكل هذه الأمور لا يخفى ارتباطها بدلالة اسم التغابن، فالسورة تأمر المؤمنين بالتقوى والإنفاق وعدم التلهي بما يوقعهم في التقصير، حتى لا يلحق بهم الغبن يوم القيامة. وهكذا تلتقي مقدمة السورة مع خاتمتها على التحذير مما يوقع في الغبن في يوم القيامة، وهو المحور الذي دلَّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة التغابن

سورة التحذير من الوقوع في الغبن يوم القيامة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٤)

المقدمة التي تبين قدرة الله على البعث والحساب:

- افتتحت السورة بتسبيح الله القادر على كل شيء: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْغَلْبُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾.
- وبينت أن الله الذي خلق الناس أول مرة قادر على بعثهم ومجازاتهم بأعمالهم، فالله بما تعملون بصير، وإليه المصير، وهو عليم بذات الصدور.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٥-١٠)

تحذير مما أوقع الكافرين في الغبن الأكبر يوم القيامة:

- ثم بين السياق موقف الكافرين بقدرة الله تعالى، المكذبين بما جاءت به رسله فكفروا وتولوا.
- ثم رد السياق على زعمهم بأنهم لن يبعثوا: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذَّبَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَفَرُوا وَلَنْ يَأْتِيَنَّهُمُ الْعَذَابُ الْبَاقِ ﴿٥﴾﴾.
- وقد بين السياق جزاء هؤلاء الكافرين المكذبين يوم القيامة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدِينَ ﴿٦﴾﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١١-١٥)

تحذير المؤمنين من التقصير لئلا يقعوا في الغبن يوم القيامة:

- ثم أمر السياق المؤمنين بالصبر على مصائب الدهر، وبطاعة الله والرسول ﷺ، والتوكل على الله، ليثبت لهم الأجر العظيم يوم التغابن.
- وحذر السياق من التلهي عن الاستعداد لذلك اليوم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا آتَاكُمُ اللَّهُ فَتَحَ لَكُمْ فَتْحًا جَدِيدًا وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾.

الموضوع الرابع: (الآيات: ١٦-١٨)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

- أعادت أمر المؤمنين بالتقوى والطاعة والإنفاق استعداداً ليوم التغابن: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان قدرة الله على بعث الناس وحسابهم في يوم التغابن، ختمت بالتأكيد على الموضوع ذاته، مع الدعوة إلى عدم التقصير في العمل الصالح استعداداً لذلك اليوم: ﴿إِنْ تَقُصِّرُوا عَنْ عَمَلِكُمْ وَتَعْجَلْوا بِهِ يَأْتِ بِكُمْ خِزْيَانٌ لَّعِينٌ ﴿١٧﴾﴾.

سورة الطلاق

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى بيانها لأحكام أهم الموضوعات المتعلقة بالأسرة، وهو الطلاق، فقد فصلت هذه السورة في بيان تلك الأحكام كالعدة والمسكن والنفقة والإرضاع، مع الأمر بالمعروف والتزام التقوى، فاسم السورة يعطي لهذا الموضوع أهمية عظمى ويدعو إلى التزام الأحكام الإلهية المتعلقة به، ويحذر من التلاعب بها فضلاً عن الإعراض عنها.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة هو بيان أحكام الطلاق وما يترتب عليه، وتهيئة النفوس لتقبل هذه الأحكام والامثال لها، ووُضِلَ هذه الأحكام بقدر الله في السماوات والأرضين، وسننه في إهلاك العاتين عن أمره، والفرج والسعة لمن يتقونه، كل ذلك يطلعنا على خطورة هذا الموضوع وتوليته أهمية كبرى، لدرجة أن السورة افتتحت بثناء النبي ﷺ قائد الأمة بشخصه لأهمية هذا الأمر^(١).

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ٣٤٧، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٢٣، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٥٩٣-٣٥٩٨، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٨، ص ٢٩٣، ٢٩٤، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٨، ص ٢١٣، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٤٦٥، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ٤٩٥-٤٩٧، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٢٩٧-٣٠٠.

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الالتزام بتقوى الله فيما يتعلق بأحكام الطلاق، مع التحذير من الإعراض عنها ببيان مصير العاتين عن أمر ربهم، ولما كان تفصيل هذه السورة لأحكام الطلاق وبيان حكمة الله في شرعه دالاً على المحور المذكور، سُميت السورة بالطلاق للدلالة عليه. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة الدعوة إلى التزام الأحكام الإلهية الخاصة بالطلاق والتي تحقق جبر الخاطر لمن يلتزم بها، مع التحذير من التلاعب بها فضلاً عن الإعراض عنها.

وبتأمل موضوعي السورة يبرز الترابط بينهما وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة لقسمين: أولهما بيان أحكام الطلاق مع الدعوة إلى التزام تقوى الله فيها لتحقيق جبر الخاطر للمطلق والمطلقة، وثانيهما: بيان مصير العاتين عن أمر ربهم^(١).

(١) بيان أحكام الطلاق شملته الآيات: ١-٧، وبيان مصير العاتين: ٨-١٢، ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وكلها تدعو إلى التزام أحكام الله مع التحذير من تركها: أ) فقد تكررت فيها مشتقات الجذر «وقى» خمس مرات، وإليك التفصيل: هي أكثر سورة تكرر فيها الشرط «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ...»: ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾: ٢، ﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾: ٤، ﴿يُكَفِّرْ عَنْ سَيِّئَاتِهِ. وَكُفْرًا لَهُ أَجْرًا﴾: ٥، وكلها عبارات لم تتكرر بالصيغ ذاتها، وقوله «وَأَتَقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾: ١، لم يتكرر بذات الصيغة، وقوله «فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: ١٠، كذلك الأمر، وقريب منه في سورة المائدة: ١٠٠، دون ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ب) لم يذكر الفعل «يتعد» إلا هنا: ١، مع سورتي البقرة: ٢٢٩، والنساء: ١٤، ج) لم تتكرر عبارة «حدود الله» إلا هنا: ١ (مرتين)، وفي سورة البقرة سبع مرات، د) لم يتكرر الجذر «يسر» إلا هنا: ٤ ﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾، ٧ ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾، وفي سورة الشرح: ٥، ٦، وأما الجذر «عسر» فلم يتكرر إلا هنا: ٦ ﴿وَإِنْ تَنَاسَرْتُمْ﴾، ٧، وفي سورة البقرة: ١٨٥، ٢٨٠، والشرح: ٥، ٦، هـ) قوله عن ثواب المؤمن الملتزم بحكم الله ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكَ رِزْقًا﴾ لم يذكر إلا هنا: ١١، وقريب منه في سورة الحج: ٥٨، وقوله ﴿وَرِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ لم يذكر إلا هنا بهذه الصيغة: ٣، وكذلك قوله ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾: ٣، لم يتكرر، وكذلك قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَلْعَنُ أُمَّرِيءَ﴾: ٣، وقوله ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾: ٣، وقوله ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾: ١٢، لم يتكرر بهذه الصيغة، وقوله ﴿يُنَزِّلُ الْأَمْثَالَ يَنْهَنَ﴾: ١٢، لم يتكرر، وكذلك قوله عن العاتين عن أمر الله ﴿وَعَذَابُهَا عَذَابٌ يُكْرَهُ﴾: ٨، وقريب منه في سورة الكهف ﴿فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا يُكْرَهُ﴾: ٨٧. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

أولاً: جاء في القسم الأول من السورة عرض لأحكام الطلاق مع الدعوة إلى التزام تقوى الله تعالى في تطبيقها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾، ولاحظ افتتاح السورة بنداء النبي ﷺ قائد الأمة، ليدل ذلك على خطورة موضوع السورة وأهميته، ولاحظ عبارة ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ مع التحذير من تعديها.

وقد فصل السياق في بيان تلك الأحكام، فأمر الزوج بعد انتهاء العدة إما بالإمساك على مطلقته بالمعروف، أو تسريحها بإحسان، مع شهادة ذوي عدل، وقد بين أن من يتق الله يجعل له مخرجاً، وهذا خير عزاء للحالة النفسية البئسة لكلا الزوجين حالة حصول الطلاق، وقد بين السياق أيضاً أن من يتق الله يرزقه من حيث لا يحتسب، وذلك لأن الزوج مكلف بالإنفاق على زوجته في فترة العدة، وأعتقد أنه يمكن أن تكون الإشارة إلى الرزق تعود إلى أن الله قد يبدل الزوج أفضل من المطلقة، أو يبدل المطلقة زوجاً أفضل من مطلقها. فالدعوة إلى التزام التقوى تشمل الرجال والنساء.

ثم فصل السياق في فترة العدة لدى النساء اللواتي يئسن من المحيض، والنساء الصغار اللواتي لم يحضن، فعدتهن ثلاثة أشهر، وقد بين السياق أن من يتق الله يجعل له من أمره يسراً، ولعل في ذلك إشارة إلى تعويض المطلقات بأزواج أفضل، أو تعويض الأزواج بزوجات أفضل. ولاحظ الدعوة إلى التزام أحكام الله في قوله: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٢﴾﴾، ولاحظ ذكر لفظ الجلالة، لإفاضة الهيبة على السياق، فإن منزل هذه الأحكام هو الله الخالق الحكيم، وسيعظم الأجر لمن يطيعه ويتقيه.

ثم فصل السياق في حكم السكنى، فأمر بإسكان المطلقات على حسب القدرة دون ضرر ولا تضيق عليهن، وأمر الأزواج بالنفقة على المطلقات ذوات الأحمال حتى يضعن حملهن، وإيتاء المرضعات منهن أجورهن، وأمر الطرفين بالالتزام المعروف. وبين أن الله سيجعل من بعد عسر يسراً، وهي عبارة لا يخفى ما فيها من دلالات تجبر خاطر الطرفين لما لحقه من أذى نفسي نتيجة الطلاق، سيما وفي حالة وجود أطفال منهما.

وكما افتتحت السورة بأمر النبي ﷺ والمؤمنين بالتزام تقوى الله في تطبيق أحكام الطلاق، ختمت ببيان مظاهر كمال قدرته تعالى وشمول علمه، ليكون ذلك أدعى إلى التزام الأحكام الواردة في السورة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِغَعْمُوا أَنْ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝﴾ ، وبذلك التقى البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور، والذي دلَّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الطلاق

سورة الدعوة إلى التزام الأحكام الإلهية الخاصة بالطلاق، والتي تحقق جبر الخاطر لمن يلتزم بها، مع التحذير من التلاعب بها فضلاً عن الإعراض عنها

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٧)

بيان أحكام الطلاق مع الدعوة إلى التزام تقوى الله فيها لتحقيق جبر الخاطر للمطلق والمطلقة:

■ افتتحت السورة ببيان حكم العدة، وبيان وجوب بقاء المطلقة طلاقاً رجعيّاً في بيت الزوجية، لعل الله يجبر خاطرها ويرجعها زوجها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾.

■ ثم فصل السياق في أحكام الطلاق، فإذا انتهت العدة فإما أن يجبر زوجها خاطرها فيرجعها، أو يُطلقها بإحسان.

■ وبيّن السياق أن الله سيجعل لمن يتقيه مخرجاً، وهو بذلك يجبر خاطر الطرفين إذا التزما التقوى.

■ وبيّن أن الزوج مكلف بالإنفاق على مطلّقة فترة العدة، وجبر خاطره ببيان أن الله يرزق من يتقيه من حيث لا يحتسب.

■ وبيّن مدّة عدّة النساء اللواتي يثنس من المحيض، والنساء اللاتي لم يحضن، وجبر خاطرن ببيان أن الله سيجعل لمن يتقيه من أمره يسراً، فعنه يبدل المطلقة زوجاً أفضل، ويبدل المطلق زوجة أفضل.

■ وفصل السياق في حكم السكنى، فجبر خاطر النساء المطلقات بأمر الرجال بعدم التضييق عليهن أو إضرارهن، وجبر خاطر الرجال بأمرهم بإسكان المطلقات بحسب قدرتهن المالية.

■ وأمر الرجال بالإنفاق على المرضعات المطلقات، وأمر الطرفين بالالتزام المعروف، وبيّن أنه تعالى سيجعل من بعد عسر يسراً، وهي عبارة تجبر خاطر الطرفين لاسيما حين وجود أطفال منهما.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٨-١٢)

بيان مصير العاقين عن أمر ربهم:

■ بعد أن فصل السياق في أحكام الله التي تحقق جبر الخاطر لمن يتقيه من المطلّقين والمطلّقات، بيّن مصير من أعرض عن أحكام الله أو تلاعب بها: ﴿وَكَيْفَ مِنْ قَرْبَةٍ عَنَّا عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذِّبْنَهَا عَذَابًا ثَكْرًا﴾.

■ ومما يحث على التزام أحكام الله بيان الخاتمة أن الله سيدخل من يلتزم بهذه الأحكام جنات تجري من تحتها الأنهار قد أحسن الله له رزقاً.

■ وكما افتتحت السورة بأمر النبي ﷺ والمؤمنين بالالتزام تقوى الله في أحكام الطلاق، ختمت ببيان عظمة الله وشمول علمه ليكون ذلك أدعى إلى الالتزام: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لَعَلَّكُمْ أَنْ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

سورة التحريم

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَىٰ مَرَضَاتِ أَرْوَجِكُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَضَّ
 اللَّهُ لَكُمْ نَحْلَةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَرْوَجِهِ
 حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ
 أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ نُنْوَإَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا
 عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَكِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الحاء والراء والميم أصل واحد، وهو المنع والتشديد»^(١)، وزاد الإمام الأصفهاني: «الحرام: الممنوع منه إما بتسخير إلهي، وإما بمنع بشري، وإما بمنع قهري...»^(٢)، وزاد الإمام ابن منظور: «التحريم: خلاف التحليل»^(٣)، فالدلالة اللفظية لاسم السورة تعود إلى معنى منع النفس من شيء معين، وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى حادثة تأمر عائشة وحفصة عليهما السلام على زينب بنت جحش غيرة منها، لأن النبي ﷺ كان يمكث عندها يشرب عسلاً، فتواصتا أن أيتهما دخل عليها النبي ﷺ فلتقل: إني أجد منك رائحة مغاير - صمغ حلو ذو رائحة كريهة - فلما دخل على إحداها وقالت له ذلك، قال لها: «لا، ولكنني كنت أشرب عسلاً عند زينب ابنة جحش، فلن أعود له، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً»^(٤)، فلما أدت هذه المؤامرة إلى أن حرم النبي ﷺ على نفسه شرب العسل، اشتق منها اسمٌ للسورة لدعوة نسائه إلى عدم التآمر عليه ﷺ مرة أخرى، وأن يكفر النبي ﷺ عن يمينه.

(١) ينظر: ابن فارس، المقاييس، ص ٢٥٦.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ٢٢٩.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ج ٤، ص ٩٧.

(٤) هذه رواية الإمام البخاري رحمه الله: الجامع الصحيح، كتاب التفسير، برقم: ٤٩١٢.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً للربط بين موضوعات هذه السورة ومحورها واسمها، فذكروا أن هذه السورة تعرض صفحة من الحياة البيئية للرسول ﷺ، وصورة من الانفعالات والاستجابات الإنسانية بين بعض نسائه، وبينهن وبينه، وانعكاس هذه الانفعالات والاستجابات في حياته ﷺ وحياة المسلمين كذلك، فالسورة تدعو إلى التخلق بالخلق الشرعي وحسن الأدب مع الله تعالى ومع رسوله ﷺ، واسمها «التحريم» بما دلّ عليه يعبر عن ذلك^(١).

ومن الممكن أن يبنى على الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: تربية المؤمنين والمؤمنات على موالاة الله ورسوله ﷺ والتحذير من أن التظاهر عليه ﷺ يُعدّ خروجاً من هذه الموالاة. ولما كانت حادثة عائشة وحفصة رضي الله عنهما مع النبي ﷺ أدلّ ما في السورة على المحور المذكور، ومحذرة من العودة إلى التظاهر عليه ﷺ، اشتق منها اسم السورة. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة التحذير من الخروج عن موالاة الله ورسوله ﷺ.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين محورها ودلالات اسمها، وإليك بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: الأول: مقدّمة تدعو إلى موالاة الله تعالى ورسوله ﷺ والتوبة من التظاهر عليه الذي يؤدي إلى الخروج عن هذه الموالاة، والثاني: بيان مصير من وإلى الله تعالى ورسوله ﷺ، ومصير الكافرين المعرضين عن هذه الموالاة، والثالث: الخاتمة المؤكّدة لما سبق^(٢).

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٣٥١، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٤٣، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٦١٠، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٨، ص ٣٤٥، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٨، ص ٢٤٥، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ص ٤٦٨ - ٤٧٠، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ٥٠٥، ٥٠٦، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٥، وبيان مصير المؤمنين الموالين ومصير الكافرين: ٦-٩، والخاتمة: ١٠-١٢.

ومن لطائف هذه السورة: أولاً: انفردت هذه السورة من بين سور القرآن بهذه العبارة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ...﴾: ٤، وثانياً: امتازت هذه السورة بمشتقات للجزء «نبا» على صيغ لم تذكر في مواضع أخرى من القرآن: نبات، نبأها، أنباك، نبأني، الآية: ٤، وثالثاً: امتازت أيضاً بمشتقات للجزء «توب» على صيغ لم تذكر =

أولاً: ابتدأت السورة بذكر حادثة حفصة وعائشة عليهما السلام مع النبي ﷺ: ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ لِمَ تَحْرُمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَىٰ مَرْضَاتٍ أَرْوَاهُ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَّحِيمٌ ١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ٢ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَرْوَاحِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ٣ إِنْ نَوَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ٤، ولاحظ عبارة «والله مولاكم» المترابطة مع محور السورة ودلالات اسمها، ولاحظ بيان أن ما قامت به حفصة وعائشة أمر يستوجب التوبة، وقد أدى إلى أن صغت قلوبهما، ولاحظ التحذير من أن التظاهر عليه مرة أخرى أمر يخرجهما عن الموالاتة لله تعالى ولرسوله ﷺ، مع بيان أن الله هو مولاة وجبريل والملائكة وصالح المؤمنين.

وقد بينت المقدمة أيضاً أن التظاهر عليه ﷺ مرة أخرى قد يؤدي إلى أن يطلقهن النبي ﷺ ويبدله الله خيراً منهنّ مسلمات مؤمنات قانتات . . ، فالمقدمة إذاً من خلال هذه الحادثة تربّي المؤمنين والمؤمنات على لزوم موالاتة الله تعالى ورسوله ﷺ وعدم القيام بعمل قد يؤدي إلى الخروج عن هذه الموالاتة، وهذا متلائم تماماً مع دلالات اسم السورة.

ثانياً: وبمناسبة الحديث عن وجوب لزوم موالاته ﷺ، عقب السورة على تلك الحادثة ببيان أن الإعراض عن موالاتة الله تعالى ورسوله ﷺ أمر يؤدي إلى النار: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا قَوْا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ٥﴾، ولاحظ لفظة ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ المتلازمة مع ما قامت به حفصة وعائشة وهما من أهل بيت النبي ﷺ، ولاحظ بيان أن ملائكة النار لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهو متناسب أيضاً مع اعتبار التظاهر على النبي ﷺ معصية تستوجب التوبة.

ثم عرض السياق مصير المؤمنين الموالين لله تعالى ولرسوله ﷺ يوم القيامة، ومصير

= في مواضع أخرى من القرآن: تتوبا: ٤، ثابتات: ٥ (لم توصف النساء بهذا الوصف في مكان آخر)، وبالإمكان إضافة هذه العبارة التي لم تتكرر في القرآن ﴿تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾: ٨، ورابعاً: امتازت هذه السورة بكثرة ضمير المثنى المؤنث: تتوبا، تظاهرا، قلوبكما: ٤، كانتا، فخانتاهما، ادخلا: ١٠. ينظر: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

الكافرين المعرضين عن هذه الموالاة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْدِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُبُوتًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزَىٰ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ثَوْرُهم يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهم وَيَأْمِنُهم يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا لَنَا ثَوْرًا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٨﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَأَمُودُهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ ٩﴾، ولاحظ بيان أن الله تعالى لا يخزي يوم القيامة النبي ﷺ والذين آمنوا معه، وفي ذلك تربية للمؤمنين على موالاته ﷺ، وبما أن الكفار قد اختاروا الإعراض عن موالاة الله تعالى ورسوله ﷺ فقد وجب جهادهم حتى يكون الدين لله.

فسياق السورة يدعو إذاً إلى موالاة الله ورسوله ليتحقق للمؤمنين الفلاح في الدنيا والآخرة، وهذا أمر متناسق مع دلالات اسم السورة كما لا يخفى.

ثالثاً: جاء في الخاتمة ذكر موقفين متقابلين متعلقين بموالاة أنبياء الله ورسله، فالأول منهما موقف امرأة نوح وامرأة لوط اللتين أعرضتا عن موالاة أنبياء الله حتى استحققتا دخول النار: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ١٠﴾، ولاحظ أن إعراضهما عن موالاة الأنبياء كان بمثابة خيانة أدت بهما إلى دخول النار، ولاحظ عبارة «ادخلا النار مع الداخلين» المتناسقة مع ما سبقها من بيان أن النار مصير الكافرين المعرضين عن موالاة الله ورسله.

وكما افتتحت السورة بذكر حادثة حفصة وعائشة رضي الله عنهما مع النبي ﷺ وبيان أنها أمر يستوجب التوبة حتى لا تخرجا عن دائرة الموالاة لله تعالى ورسوله ﷺ، ختمت السورة بذكر موقف امرأتين مؤمنتين كان ولاؤهما لله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَانْجِنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَانْجِنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنِينِ ١٢﴾، وهكذا التقى البدء والختام على محور التربية على موالاة الله تعالى ورسوله ﷺ وعدم القيام بما يخرج عن هذه الموالاة، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة التحريم

سورة التحذير من الخروج عن موالاة الله ورسوله ﷺ

<p>الموضوع الثالث: (الآيات: ١٠-١٢)</p> <p>الخاتمة المؤكدة لما سبق:</p> <p>■ بَيَّنَّتْ الخاتمة موقف امرأة نوح وامرأة لوط اللتين أعرضتا عن موالاة أنبياء الله حتى استحققتا دخول النار: ﴿فَكَانَتَاهُمَا فَوْقَ يُغْيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾.</p> <p>■ وكما افتتحت السورة بذكر حادثة حفصة وعائشة مع النبي ﷺ ودعوتهما إلى التوبة حتى لا تخرجا عن موالاة الله ورسوله، ختمت بعرض موقف امرأة فرعون ومريم ابنة عمران اللتين كان ولاؤهما لله تعالى.</p>	<p>الموضوع الثاني: (الآيات: ٦-٩)</p> <p>بيان مصير مَنْ وَآلَى الله ورسوله ﷺ، ومصير الكافرين المعرضين عن هذه الموالاة:</p> <p>■ بَيَّنَّ السياق أن الإعراض عن موالاة الله ورسوله ﷺ أمر يؤدي إلى النار: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْمًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَفُودُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.</p> <p>■ وبيَّن السياق مصير الكافرين: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْلَمُونَ الْيَوْمَ إِنَّمَا يُجْرَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.</p> <p>■ وبيَّن مصير المؤمنين الموالين لله ورسوله ﷺ: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.</p>	<p>الموضوع الأول: (الآيات: ١-٥)</p> <p>المقدمة التي تدعو إلى موالاة الله ورسوله ﷺ، وتدعو إلى التوبة من التظاهر على الرسول الذي يؤدي إلى الخروج عن هذه الموالاة:</p> <p>■ افتتحت السورة بمعاتبة النبي ﷺ الذي حَرَّمَ على نفسه شرب العسل بعد تأمر حفصة وعائشة رضي الله عنهما: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِرَّحْمَةٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَتَّغِيَ مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.</p> <p>■ ودعت المقدمة حفصة وعائشة رضي الله عنهما إلى التوبة من التآمر على النبي ﷺ، وبيَّنت أن هذا التآمر يؤدي إلى الخروج عن موالاة الله ورسوله ﷺ: ﴿إِنْ نُؤَيَّا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾.</p> <p>■ وحذرت من أن التظاهر على النبي ﷺ مرة أخرى قد يؤدي إلى أن يطلقهن وأن يبده الله خيراً منهن.</p>
---	--	---

سورة الملك

﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَاتَّجِيعَ الْبَصَرِ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ أُنْجِيعَ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس رحمه الله: «الميم واللام والكاف: أصل صحيح يدل على قوة في الشيء وصحة... والاسم: المَلِكُ: لأن يده فيه قوة صحيحة»^(١)، وزاد الإمام الأصفهاني رحمه الله: «المُلْكُ: هو التصرف بالأمر والنهي... فالمُلْكُ ضبط الشيء المتصرف فيه بالحكم»^(٢)، فوصف الله تعالى بأنه «بيده الملك» يدل على أنه سبحانه هو وحده المالك لكل الوجود، وهو وحده بيده الأمر والنهي والتصرف في الوجود حسبما أراد، وصيغة الحصر والقصر تؤكد على أنه تعالى بيده - لا بيد غيره - القدرة على المذكور.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة هو تأكيد حقيقة أن الله تعالى بيده الملك، وذلك من خلال سائر الصور التي عرضتها السورة وسائر الحركات المغيَّبة التي تؤكد الخضوع للقدرة الإلهية، فالسورة تتناول عناصر المُلْك الكامل وهي: القدرة المطلقة، التنزه عن العبيثية، السيطرة التامة، والقدرة على مكافأة المحسن ومعاقبة المسيء^(٣).

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٩٩٦.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ٧٤٥. بتصرف.

(٣) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٣٥٣، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٦٢، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٦٢٨، ٣٦٣١، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٩، ص ٧-٩، وأ. د. مسلم، =

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى في الدنيا والآخرة، الدالة على أن الله وحده بيده الملك، ولما كان اسم السورة «الملك» المنسوب لله تعالى والمقصود عليه وحده يدل على المحور المذكور، جعل اسماً للسورة. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان أن الله وحده بيده الملك في الدنيا والآخرة.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى أربعة أقسام، أولاً: مقدّمة تعرض بعض مظاهر كمال قدرته تعالى لتدل على أنه صاحب الملك، وثانياً: عرض لبعض مظاهر كمال قدرته تعالى في الآخرة، وثالثاً: تعقيب يعرض مظاهر أخرى للتأكيد على كمال القدرة الإلهية وشمول علمه تعالى في الدنيا، ورابعاً: الخاتمة المؤكّدة لما سبق^(١).

أولاً: جاء في مقدّمة السورة ذكر بعض مظاهر كمال قدرة الله الدالة على أنه سبحانه

= وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ٢٦٤، ٢٦٥، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٤٧١، وادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن، ص ٣٠١-٣٠٥.

(١) مقدّمة السورة شملت الآيات: ١-٥، وعرض مظاهر قدرته تعالى في الآخرة: ٦-١٢، والتعقيب: ١٣-٢٤، والخاتمة: ٢٥-٣٠. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: هي السورة الوحيدة التي ذكرت فيها هذه العبارة بذات الصيغة: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي يَبْدُو أَلْئَلُكَ﴾: ١، بينما ذكر الفعل «تبارك» منسوباً لله تعالى في سورة أخرى، ثانياً: وهي السورة الوحيدة التي ذكرت فيها هذه العبارة ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾: ٢، ثالثاً: هي وسورة فاطر الوحيدتان اللتان اختصتا بذكر الاسمين الجليلين مع بعضهما «العزیز الغفور»، وهما يدلان على كمال قدرته وشمول رحمته: الملك: ٢، وفاطر: ٢٨، رابعاً: هي من السور التي اختصت بذكر الاسمين الجليلين «اللطيف الخبير» الدالين على كمال قدرة الله وشمول علمه: الملك: ١٤، والأنعام: ١٠٣، والحج: ٦٣، ولقمان: ١٦، والأحزاب: ٣٤، خامساً: هي وسورة الأحقاف الوحيدتان اللتان اختصتا بعبارة ﴿إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾: الملك: ٢٦، والأحقاف: ٢٣، علماً بأن سورة الملك أول سورة في الجزء: ٢٩، وسورة الأحقاف أول سورة في الجزء: ٢٦، سادساً: امتازت هذه السورة بالرغم من قصرها بكثرة الضمير «هو» العائد على الله تعالى: ١، ٢، ١٤، ١٥، ٢٣، ٢٤، ٢٩، وبكثرة الاسم الموصول «الذي» العائد على الله: ١، ٢، ٣، ١٥، ٢٣، ٢٤. وكثرتهما تؤكدان الدلالة على كمال قدرته والتأكيد على أنه بيده الملك. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

بيده الملك: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ٢ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِبًا وَهُوَ حَسِيرٌ ٤ ، ولاحظ بيان أنه تعالى على كل شيء قدير، وأنه تعالى خالق الموت والحياة، وهما أمران لا يقدر عليهما غيره، ولاحظ ذكر السماوات السبع وهي من أعظم المخلوقات، كل ذلك يؤكد المحور المذكور.

ثم إن من اللافت جداً للنظر أن الآيات الدالة على قدرة الله تعالى جاءت في هذه السورة بأسلوب يمكن أن يوصف «بالمثنوية»، فانظر مثلاً قوله في الآية الأولى: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وانظر في الآية الثانية: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾، وانظر قوله: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾، وقوله في الآية التي تليها ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ...﴾. وسترى أن هذا الأسلوب مطرد في كل السورة.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى بيان أنه تعالى بيده الملك يوم القيامة أيضاً كما أنه بيده الملك في الدنيا، وبذلك يتحقق قوله في المقدمة: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾، ويتحقق أنه هو المبدئ كما أنه هو المعيد: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَسَاءَ الْمَصِيرُ﴾ ٦ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَنْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ٩ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ١٠ فَاعْرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَحَقًّا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ١١ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ١٢ ، فهو سبحانه كما أنه قادر على خلق البشر، قادر على أن يعاقب المسيء ويثيب المحسن، ولاحظ المثنوية في الآية التاسعة: ﴿قَالُوا بَلَىٰ...﴾، وفي الآية التي تليها: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا...﴾.

ثالثاً: ثم انتقل السياق إلى تعقيب يذكر بعض مظاهر كمال قدرته تعالى وشمول علمه في الدنيا، ليؤكد أن بيده الملك في الدارين: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ١٤ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ

وَالَّذِي يُرْسِلُ الْفَلَاحَ وَالْجَارَ الْمُتَرَاوِعَ ۖ وَمَنْ يَمُوتُ ۖ أَتَمْنَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْفَلَاحِ ۚ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمْنُكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ ۚ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ، ولاحظ تقديم ذكر الإسرار على الجهر، ليكون في ذلك مزيد تأكيد على أنه تعالى عالم بالسّر كما أنه عالم بالجهر، ولاحظ تشنية ذكر الضمير ﴿هُوَ﴾، وتشنية الفعل ﴿أَمْنُكُمْ﴾، مما يؤكد أن أسلوب المشنوية مطرد في السورة.

وبعد عرض هذه المظاهر انتقل السياق إلى نفي الشريك عن الله عزّ وجلّ، فالمعبود بحق هو المتفرد بالقدرّة المطلقة الذي بيده الملك: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿١٨﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾، فالله تعالى وحده هو الناصر، وهو وحده بيده الرزق، ولاحظ تشنية الاستفهام «أمن»، وفي مقابل هذين الاستفهامين، عرض مظهرين لتأكيد التوحيد له عزّ وجلّ: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٩﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠﴾﴾. ولاحظ تشنية عبارة ﴿قُلْ هُوَ﴾.

فسياق السورة كما ترى يؤكد أن الله تعالى وحده بيده الملك، فهو وحده المستحقّ للعبادة، وهذا ما دل عليه اسم السورة.

رابعاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التأكيد على أن الله تعالى بيده الملك يوم القيامة كما أنه بيده الملك في الدنيا: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢١﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُهُ عِنْدَ اللَّهِ وَلَئِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

وكما افتتحت السورة ببيان أن الله تعالى بيده الملك في الدنيا والآخرة، فهو وحده المستحقّ للعبادة، ختمت ببيان المقصد ذاته: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي أَلَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا ۖ فَمَنْ يُخْرِجُ الْكَافِرِينَ ۚ مِنَ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ۖ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَابُ مَأْوَكُمْ غَوُوا ۖ فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَالٍ مَعِينٍ ﴿٢٦﴾﴾، ولاحظ تشنية ذكر عبارة ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾، وبذلك التقى البدء والختام في هذه السورة على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة الملك

سورة بيان أن الله وحده بيده الملك في الدنيا والآخرة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٥)

المقدمة التي تعرض بعض مظاهر كمال قدرته تعالى لتدل على أنه صاحب الملك:

- افتتحت السورة بذكر محورها الدال على أن الله بيده الملك لكمال قدرته سبحانه: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾.
- وعرضت بعض مظاهر قدرته تعالى لتؤكد المحور، فالله هو الذي خلق الموت والحياة، وهو الذي خلق سبع سماوات طباقاً، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٦-١٢)

عرض لبعض مظاهر كمال قدرته تعالى في الآخرة ليؤكد أن له الملك في الآخرة كما أن له الملك في الدنيا:

- عرض السياق مصير الكافرين بربهم صاحب الملك سبحانه، فبين أن لهم عذاب جهنم وبئس المصير، وبين كيف تستقبل النار الكافرين إذ تكاد تميز من الغيظ: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَنْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٦﴾.
- وعرض السياق تحسر الكافرين فيها: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝٧﴾.
- وبين مصير المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٨﴾.
- إن عرض المصير الأخروي لكلا الفريقين ليؤكد أن الله تعالى صاحب الملك في الآخرة، كما أنه صاحب الملك في الدنيا.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٣-٢٤)

تعقيب يعرض كمال قدرته تعالى وشمول علمه في الدنيا:

- بين السياق أن الله يعلم السر والعلن: ﴿وَأَيُّرَأُ قَوْلُكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ ۚ إِنَّكُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١٣﴾ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ۝١٤.
- وأنه هو الذي جعل الأرض ذلولاً ليسهل على الناس تحصيل الرزق.
- وأنه لا يؤمن خسفه ولا إرسال عقابه على الكافرين.
- وأنه تعالى الناصر الرازق، وأنه هو الذي أنشأ الإنسان وجعل له السمع والأبصار والأفئدة، وإليه مرجع الناس يوم القيامة.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٢٥-٣٠)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

- أعادت التأكيد على أن الله بيده الملك يوم القيامة كما أنه بيده الملك في الدنيا، فأخبر تعالى عن قدرته على عذاب الكافرين: ﴿فَلَنَّا رَأُوهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ۝٢٥﴾.
- وكما افتتحت السورة ببيان أن الله تعالى بيده الملك في الدنيا والآخرة، ختمت ببيان المقصد ذاته: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي أَلَهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٦ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٢٧ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَابُ مَاؤُكُم غَوَّا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ۝٢٨﴾.

سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ
مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتَبْصُرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَقْتُونُ
﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة على أرجح الأقوال لأمرين اثنين: أحدهما أن يكون القسم بالقلم عائداً على أداة الكتابة المعروفة، والقسم بما يسطرون إشارة إلى الكتابة، بمعنى أن الله تعالى يقسم بالقلم وما يكتبه الكاتبون على نفي فرية الجنون عن سيدنا محمد ﷺ، وفي هذا القسم إشارة لأهمية الكتابة والتعلم، والثانية أن يكون القسم عائداً على ما يكنى عنه بـ ﴿القلم﴾ من تعلق علم الله تعالى بالموجودات الكائنة والتي ستكون في اللوح المحفوظ، والقسم بـ ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ إشارة إلى ما سطرته الملائكة في ذلك اللوح المحفوظ، وفي هذا القسم إشارة لكمال علم الله تعالى بالغيب ومُلْكه لمقالات الأمور^(١). وقد ترجح لديّ بعد النظر في سياق السورة أن الوجه الثاني هو الأقرب للصواب، وسأبين أسباب الترجيح إن شاء الله.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً للربط بين دلالة اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة هو إثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ وتثبيت قلبه،

(١) من المفسرين الذين اعتمدوا أن يكون القسم (بالقلم وما يسطرون) يشير إلى أهمية الكتابة والتعلم: البقاعي، نظم الدرر، ج ٩، ص ٨٩، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٦٥٠، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٩، ص ٦٠، معتبراً أن قوله تعالى ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ قد يكون إشارة إلى ما يكتبه كتبة الوحي من القرآن حين تنزله على النبي ﷺ، ومن المفسرين من ذكر القول الثاني دون ترجيح: الطبري، جامع البيان، ج ١٠، ص ٨١٣٥، والزمخشري، الكشاف، ج ٤، ص ٥٧٢، والرازي، مفاتيح الغيب، ج ٣٠، ص ٧٨، والآلوسي، روح المعاني، ج ١٥، ص ٢٨، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٩، ص ٦٠.

وإثبات براءته من فرية الجنون التي افتراها عليه الجاحدون، وقد أقسم سبحانه بالقلم وهي أداة الكتابة المعروف كونه يبين المعارف فيما يكتب به الكاتبون، وفي ذلك تنويه لأهمية الكتابة، أو كونه يشير إلى ما كان يسطره كُتِبَ الوحي من القرآن، أو ما يسطره الملائكة في اللوح المحفوظ، على أن النبي ﷺ بريء من الجنون كونه هو المهتدي لحيازته العلم وتقبل القرآن والتخلق بالفرقان، فكأن السورة تحتضن النبي ﷺ والحفنة المؤمنة معه، وتسري عنه وتثني عليه بإبراز العنصر الأخلاقي الذي يتمثل به ﷺ^(١).

وما ذكره الأفاضل عن نفي فرية الجنون عن النبي ﷺ صحيح بلا ريب، ولكني أعتقد أن القَسَم لنفي تلك الفرية كان على ما يكتبه الملائكة الموكلون باللوح المحفوظ، فيمكن تلخيص محور السورة بالقول بأنه: نفي فرية الجنون عن النبي الكريم ﷺ من خلال بيان بعض مظاهر كمال علم مُرْسِلِه سبحانه وتعالى بالغيب والتدبير الإلهي الغيبي بالخفاء الدال على أنه وحده بيده مقاليد الأمور، فبيان كمال علم المُرْسِل ينفي بأبلغ صورة فرية الجنون عن المُرْسِل، ولما كان القَسَم بالقلم الذي يدل كناية على ما يسطره الملائكة بأقلامهم في ذلك اللوح المحفوظ الدال على كمال علم الله بالغيب أدل ما في السورة على المحور المذكور، اتُخذ من القَسَم بالقلم اسماً للسورة. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان كمال علم المُرْسِل سبحانه وتعالى بالغيب والتدبير الخفيّ الدال على أنه بيده مقاليد الأمور، الداحض لفرية الجنون عن المُرْسِل ﷺ.

وبتأمل موضوعات السورة يظهر الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

(١) ينظر: البقاعي، نظم الدرر، ج ٩، ص ٨٩، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٦٥٠-٣٦٥٥، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٩، ص ٦٠، ٦١، وأ. د. مسلم، التفسير الموضوعي، م ٨، ص ٢٩٠. والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٤٧٤، وقد رجّح أن القَسَم عائد على القرآن لكونه أهمّ كتاب في الدنيا. ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ٤١١-٤١٨، وقد ذكر أن القلم يدل على أهمية الكتابة والتعلم على المعنى الأول، أو يعود إلى اللوح المحفوظ على المعنى الثاني ولم يرجّح بينهما، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وحمود منها بالدراسة.

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة موضوعات: أولها: مقدّمة تحوي قسماً بكمال علم الله تعالى بالغيب على نفي فرية الجنون عن النبي الكريم ﷺ، وثانيها: تثبيت النبي ﷺ والرّد على المكذّبين من خلال بيان بعض مظاهر كمال علم الله بالغيب وبعض مظاهر تدييره الخفي، وثالثها: الخاتمة المؤكدة لما سبق^(١).

أولاً: جاء في المقدّمة قسّم بما يسطره الملائكة بأقلامهم في اللوح المحفوظ على أن النبي الكريم ﷺ بريء من فرية الجنون: ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَا أَنتَ بِنَبِيٍّ مِّمَّنْ يُصَوِّرُونَ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ فَسَتَبْصُرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَيِّكُمْ أَلْفَتُونُ ۝ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝﴾، ولاحظ الفعل ﴿يَسْطُرُونَ﴾ الدال على الاستمرارية، لأن علم الله تعالى مستمر لا يتوقف ولا ينتهي، ولاحظ ثانياً: قوله تعالى ﴿يَنْعَمَ رَبِّكَ﴾ المؤكدة بالباء، فما ينزل عليك من الوحي إنما هو نعمة من الله تعالى عليك، فأني يصلك الجنون، ولاحظ تأكيد نفي الجنون بحرف الباء، وثالثاً: الإشارة إلى

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٧، وتثبيت النبي ﷺ والرّد على المكذّبين: ٨-٤٣، والخاتمة: ٤٤-٥٢. ومن لطائف هذه السورة: أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: كلمة ﴿يَسْطُرُونَ﴾ بدلالتها على ما يسطر باللوحة المحفوظ بالفعل المضارع لم تذكر إلا هنا: ١، وقريب منها لفظة ﴿مَسْطُورٌ﴾ في سورة الإسراء: ٥٨، والأحزاب: ٦، و﴿مُسْتَطَرٌّ﴾ في سورة القمر: ٥٣، علماً بأن رقم سورة القمر: ٥٤، ثانياً: لم يتكرر نفي فرية الجنون عن النبي ﷺ في سورة واحدة إلا هنا: ٢، فقبلها آية واحدة، و ٥١، فبعدها آية واحدة، ثالثاً: لم يوصف النبي الكريم ﷺ بأنه ﴿لَعَلَّ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ إلا في هذه السورة: ٤، ومن كان على خلق عظيم فكيف يأتيه الجنون، رابعاً: في المقابل لم يوصف المكذّبون بـ ﴿أَلْفَتُونُ﴾ بصيغة اسم المفعول إلا هنا: ٦، خامساً: هذه العبارة ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾: ٣٧، لم تذكر إلا هنا وهي تدل على نفي العلم عنهم، متناسقة مع القسم بما سطر في اللوح المحفوظ الدال على كمال علم الله، سادساً: وكذلك هذه العبارة ﴿أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ التي لم تذكر إلا في هذه السورة: ٤٧، وفي سورة الطور: ٤١، وسابعاً: لم تذكر هذه العبارة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ إلا في هذه السورة: ٧، وفي سورة النحل: ١٢٥، وذكرت ذات العبارة في سورة الأنعام لكن ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ﴾: ١١٧، وقريب منها في سورة النجم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ افْتَدَى﴾: ٣٠، وثامناً: ارتبط حرف السين الدال على المستقبل مع الأفعال المضارعة في هذه السورة ثلاث مرات: ﴿سَتَبْصُرُ وَيُبْصِرُونَ﴾: ٥، و﴿سَتَسِيرُ عَلَى الْقُرْطُوبِ﴾: ١٦، و﴿سَتَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَلْتَمُونُ﴾: ٤٤، ولا يخفى دلالة ذلك على كمال علم الله بالغيب، علماً بأن العبارة الأخيرة لم تذكر إلا في سورتي القلم والأنعام: ١٨٢. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

علم الغيب في قوله ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ ، وكذلك في قوله ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ وهما عبارتان تدلان على المستقبل بلا شك .

وقد أكد السياق نفي فرية الجنون ببيان أنه ﷺ على خلق عظيم ، ومن كان على خلق عظيم لا يكون مجنوناً ، وفي المقابل وُصف المكذبون بأنهم مفتونون وضالّون .

أما الذي دفعني إلى اعتبار أن القسم بـ ﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ يعود على ما يسطره الملائكة في اللوح المحفوظ الدال على كمال علم الله تعالى بالغيب ، فقد ذكرت بعض ذلك في الحاشية السابقة ، وسيأتي ذكر بعض مظاهر تدبير الله الخفي في الغيب في قصة أصحاب الجنة ، والإشارة إلى إنجاء يونس عليه السلام من الحوت . فكأن السورة توحى بأن الله المتصف بكمال العلم والتدبير الخفي الدال على أن مقاليد الأمور بيده ، لا يمكن أن يوصف رسوله بالجنون ، وأعتقد أن التفسير بهذا الوجه أنسب للسياق من الوجه الثاني الدال على أهمية الكتابة .

ثانياً : ثم انتقل السياق إلى تثبيت النبي ﷺ في دعوته ، وأن لا يثنيه ما يجده من قومه من التكذيب والاتهام الباطل عن الاستمرار في الدعوة : ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ وَدُّوْا لَوْ تَذَرُهُنَّ يَذَّهَبْنَ ۝٩ وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾ ، ولاحظ الإشارة إلى كمال علم الله بالغيب ، من خلال بيان ما يكرّ في صدور المكذّبين من وُدّهم أن يداهنهم النبي ﷺ ، فيكون ذلك باباً لهم كي يشوه شيئاً فشيئاً عن دعوته .

ومن مظاهر كمال علم الله تعالى بالغيب أيضاً وتدبيره لمقاليد الأمور حسب إرادته ، بيان مصير هذا الحلاف المهين ، الموصوف بتسع صفات ذميمة : ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُوطِ ۝١١﴾ ، فقد علم سبحانه في علمه القديم بمصير هذا المكذب .

ولكي يكتمل النسق ، عرض السياق قصة أصحاب الجنة ، وهي أيضاً تبرز بعض مظاهر كمال علم الله بالغيب ، وتدبيره الخفي لمجازاتهم : ﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْبَوْا لِيُصْرِمُنَهَا مُمْصِحِينَ ۝١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ۝١٨ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ۝٢٠﴾ ، فقد علم سبحانه بنيتهم السرية الخبيثة ، وجازاهم بأن جعل جنتهم كالصريم وهم نائمون ، لأنهم أرادوا حرمان المساكين خفية ، فحرّمهم الله من ثمرات جنتهم خفية .

وقد استدلل السياق بما جاء في هذه القصة من مظاهر كمال علم الله تعالى على الرد على المكذبين للنبي ﷺ الذي يتهمونه بالجنون: ﴿كَذَلِكَ الْمَلَأُ وَلَقَدْ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَجَعَلُ السَّالِينَ كَالْجَرِيمِ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَلَيَّا بَلِغَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلَّمَهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (٤٠)﴾ ، ولاحظ كيف كان الرد عليهم ببيان جهلهم ، في مقابل بيان كمال علم الله تعالى الذي أقسم عليه أول السورة ، فجعل المسلمين متساوين في مصيرهم مع المجرمين متناف مع الحكمة ، والكافرون بتكذيبهم النبي ﷺ واتهامه كأنهم يريدون أن يتحقق هذا التساوي ، ثم لاحظ دعوتهم إلى إبراز كتابهم الذي فيه يدرسون إن كانوا صادقين ، وكأن السورة تقول: قد أقسمنا باللوح المحفوظ لدينا وبما يسطر الملائكة فيه بأقلامهم على براءة نبيكم من فرية الجنون ، وبرز بذلك بعض مظاهر كمال علمنا بالغيب ، وذكرنا بعض مظاهر تدبيرنا الخفي الدال على أن مقاليد الأمور بأيدينا ، فأتونا بكتابكم ! أم تزعمون أن لكم أيماناً بالغة إلى يوم القيامة ، أيكم يزعم ذلك؟

وقد أكد سبحانه أن بيده مقاليد الأمور وأنه ذو القدرة المطلقة من خلال بيان ما في القيامة من الأهوال: ﴿أَمْ لَمْ شُرَكَاءَ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَشَعَتِ أَصْفُورُهُمْ رَبَّهُمْ ذَلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣)﴾ ، فقد بين السياق أنه يوم تشتد أهوال القيامة لن تنفعهم آلهتهم شيئاً ، وحينئذ لا تنفع الحسرة لأنهم كانوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ .

فالسباق كما تلاحظ يدل على نفي فرية الجنون عن النبي الكريم ﷺ ، ويبين صدقه وشدته في دعوته ، وذلك من خلال بيان بعض مظاهر كمال علم الله تعالى بالغيب ، وبعض مظاهر تدبيره الخفي ، وكأن السياق يقول: إن الله الذي قد بين لكم بعض صفاته ، لا يمكن أن يكون رسوله متهماً بالجنون كما تزعمون . وبذلك تدحض فريتهم بأبلغ رد .

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد على ما سبق ، فقد أعادت ذكر بعض مظاهر كمال علم الله تعالى بالغيب وتدبيره الخفي لمجازاة أعمال الخلق ، لتؤكد على براءة النبي ﷺ: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا

فَهُمْ مِنْ مَّعْرَمٍ يُثْقَلُونَ ﴿٤٩﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكُنُّونَ ﴿٥٠﴾ . ولاحظ الآية الأخيرة التي تنفي العلم عنهم، وتثبت علم الغيب لله تعالى، وبذلك تدحض فريتهم بأبلغ رد.

وكما افتتحت السورة بالقسم بما يسطره الملائكة في اللوح المحفوظ بأقلامهم، الدال على كمال علم الله تعالى بالغيب، على أن رسوله الكريم ﷺ بريء من فرية الجنون، ختمت كذلك بذكر بعض مظاهر تدبيره الخفي الدال على كمال علمه بالغيب، ليستدل بذلك على نفي فرية الجنون عن النبي ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٥١﴾ نُوَلِّا أَنْ تَدْرِكُمُ يَمَعَةٌ مِّنْ رَبِّهِ لَنُبْدِيَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٥٢﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥٤﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ ، فالله الذي أرسلك هو صاحب العلم التام والقدرة الكاملة، وبيده مقاليد الأمور والتدبير في الظاهر والباطن، فاصبر لحكمه ولا تلتفت إلى فرياتهم الباطلة. وهكذا التقى البدء والختام على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة القلم

سورة بيان كمال علم المرسل سبحانه وتعالى بالغيب والتدبير الخفي، الدال على أنه بيده مقاليد الأمور، الداحض لفرية الجنون عن المرسل ﷺ

الموضوع الأول: (الآيات:

(٧-١)

المقدمة التي تحوي قسماً بكمال علم الله بالغيب على نفي فرية الجنون عن النبي ﷺ:

■ افتتحت السورة بالقسم بما يسطره الملائكة في اللوح المحفوظ الدال على كمال علم الله بالغيب، على أن النبي ﷺ بريء من فرية الجنون: ﴿تَوَالَّفَ وَآلَفُوا وَمَا يَسْطَرُونَ﴾ ① مَا أَنْتَ بِمَعْمَرٍ رِيكَ بِمَجْنُونٍ ②.

■ وبينت المقدمة أن له ﷺ أجراً غير ممنون وأنه لعل خلق عظيم.

■ وفي المقابل وصفت المكذبين بالمفتونين الضالين: ﴿مَسْتَبِيرٌ وَيُضَيَّرُونَ﴾ ③ بِأَيِّكُمْ أَلْفَتُونَ ④ إِنَّ رِيكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهَيَّيْنِ ⑤.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٨ - ٤٣)

تثبيت النبي ﷺ والرد على المكذبين من خلال بيان بعض مظاهر علم الله بالغيب، وبعض مظاهر تدبيره الخفي:

■ برز علم الله تعالى بالغيب في بيان أن المكذبين يودون في قلوبهم لو يداهنهم النبي ﷺ فيداهنوه.

■ وبرز علمه تعالى بالغيب في المستقبل بتوعد الحلاف المهين بقوله: ﴿سَيَكُونُ عَلَى الْقُرْطُومِ﴾ ⑥.

■ وبرز علمه تعالى بالغيب ببيان السورة أنه تعالى عَلِمَ بالنية الخبيثة التي أسرها أصحاب الجنة: ﴿إِنْ أَتَيْنَاهُمْ لَبِئْسَ مَا فِيهَا وَمَا يَسْتَنْوُونَ﴾ ⑦.

■ وبرز تدبيره الخفي سبحانه في بيان المصير الذي آلت إليه جنتهم وهم لا يشعرون: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ﴾ ⑧ فَاصْبَحَ أَكْثَرُهُمْ كَالْفَصِيرِ ⑨.

■ بين السياق جهل المكذبين في مقابل بيان المقدمة كمال علم الله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ ⑩ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ⑪.

■ وقد أكد السياق أن الله بيده مقاليد الأمور وأنه ذو القدرة المطلقة في الآخرة أيضاً، من خلال بيان مصير المكذبين في ذلك اليوم: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُودِ فَلَا يَسْتَلِيمُونَ﴾ ⑫ خَنِيعَةٌ أَنْصَرَّتُمْ رَعَفَهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى الشُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ ⑬.

الموضوع الثالث: (الآيات:

(٤٤-٥٢)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت ذكر بعض مظاهر كمال علم الله بالغيب وتدبيره الخفي لمجازاة أعمال الخلق: ﴿تَذَرِي وَمَنْ يَكْذِبُ يَكْذِبْ يَهْدِي اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ صَبْرًا وَمَنْ يَكْذِبْ لَا يَكُونُ لَكَ بِهِ حَقٌّ وَأَنْتَ كَذِبٌ لَكُنْ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ ⑭.

■ وكما افتتحت السورة بالقسم بما يسطره الملائكة بأقلامهم في اللوح المحفوظ على أن النبي ﷺ بريء من فرية الجنون، ختمت بذكر بعض مظاهر تدبير الله الدال على كمال علمه بالغيب، للدلالة على نفي فرية الجنون عن النبي ﷺ، فقد تدارك الله برحمته يونس عليه السلام في بطن الحوت واجتباؤه وجعله من الصالحين، ثم قال خاتماً تعالى السورة: ﴿وَإِنْ يَكَاذِبُ الَّذِينَ كَذَبُوا لَكَ لَوْلَا إِسْرَارُكَ لَمَنِ كَذَبُوا إِلَّا أَنْتَ أَعْلَمُ بِمَا يَكُونُ﴾ ⑮ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ⑯.

سورة الحاقة

﴿ الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣ ﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس: «حقّ: الحاء والقاف أصل واحد، وهو يدلّ على إحكام الشيء وصحّته، فالحقّ: نقيض الباطل، ويقال: حقّ الشيء إذا وجب، والحاقة: القيامة، لأنها تحقّ بكل شيء، قال تعالى: ﴿حَقَّتْ لِكُلِّمَّةٍ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (الزمر: بعض الآية ٧١)»^(١). وزاد الإمام الأصفهاني: «الحقّ: المطابقة والموافقة، والحاقة: القيامة، لأنه يحقّ فيها الجزاء»^(٢). وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى تهويل شأنها، وبيان أنها حق لا مرية ولا هزل فيها. أكّد ذلك مجيء اسم السورة بصيغة اسم الفاعل من الفعل «حقّ»، وأكّد هذا أيضاً السؤال عنها مرتين، وإضافة «أل» التعريف لاسم السورة أفاد انفرادها بهذا الوصف، فلا حاقة حقيقة غيرها.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أنها سميت بذلك؛ لأن فيها مزيد تأكيد على تحقّق يوم القيامة وأنه جدّ لا هزل فيه، وعلى حقيقة الجزاء في ذلك اليوم الذي فيه إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل، وكمال قدرة الله تعالى وعدله، فهي تثبت صدق وعود القرآن وبراءة الرسول ﷺ مما اتهمه به أهل الضلال^(٣).

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٢٤٥.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ٢٤٦.

(٣) ينظر: المهايبي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٣٦٠. والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ١١٩، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٦٧٤. والصابوني، صفوة التفاسير، ج ٣، ص ٤٠٩، وأ. د مسلم وزملاؤه، التفسير الموضوعي، ج ٨، ص ٣١٨، وطهماز، من سورة الطور إلى سورة الناس، ص ٢٥٣، ود. حسن باجودة، تأملات في سورة الحاقة، ص ٣، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

ويمكن تلخيص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السور هو: إثبات أن يوم القيامة يوم حقّ جدّ لا مجال فيه للهزل، من خلال بيان مصير المكذّبين ومصير المؤمنين في ذلك اليوم، فوصف يوم القيامة بالحاقة يدل على المحور المذكور، وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان أن القيامة حقّ جدّ ولا هزل فيها.

وبتتبع موضوعات السورة يظهر الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة لثلاثة أقسام: أولاً: مقدّمة تهول أمر الحاقة وتبيّن مصير الأقوام المكذّبة بذلك اليوم العظيم، وثانياً: عرض لبعض مشاهد يوم القيامة تؤكد أنه حقّ لا هزل فيه، وثالثاً: خاتمة مؤكّدة لما سبق^(١).

أولاً: جاءت المقدّمة بذكر اسم يوم القيامة «الحاقة» مع تكرار السؤال التجهيلي المفيد تهويل ذلك اليوم: ﴿الْحَاقَّةُ ۝ مَا الْحَاقَّةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝﴾، «ويبرز هذا المعنى في اسم القيامة المختار في هذه السورة: الحاقة، وهي بلفظها وجرسها ومعناها تلقي في الحسّ معنى الجدّ والصرامة والحق والاستقرار، وإيقاع اللفظ بذاته أشبه شيء برفع الثقل طويلاً، ثم استقراره استقراراً مكيناً، رفعه في مدّة الحاء بالألف، وجده في تشديد

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١ - ١٢، ومشاهد يوم القيامة: ١٣ - ٣٧، والخاتمة: ٣٨ - ٥٢. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة ببيان أن يوم القيامة جدّ لا هزل فيه: أ) فقلوه ﴿إِذَا يُنْفَخُ فِي السُّبُحِ نَفْخَةٌ وَجِدَّةٌ﴾: ١٣، ذكر بهذه الصيغة هنا فقط، ب) وكذلك قوله ﴿وَجِلَّتِ الْأَرْضُ وَّلَجِبَالٌ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَجِدَّةً﴾: ١٤، وقريب منه في سورة الفجر: ٢١، ج) وقوله ﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾: ١٦، لم يتكرر، د) وكذلك قوله تعالى واصفاً ذلك اليوم: ﴿وَلَهُ لَحُوقُ الْيَقِينِ﴾: ٥١، وقريب منه ما جاء في سورة الواقعة السابقة: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُ حَقُّ الْيَقِينِ﴾: ٩٥، وبإمكانك أن تضيف أنه مما يؤكد دلالة الجدّة والصرامة في هذه السورة أنه ذكر فيها من أسماء يوم القيامة: القارعة: ٤، والواقعة: ١٥، ثانياً: ومنها أمور متعلقة ببيان مصير المؤمنين في ذلك اليوم: أ) فقلوه ﴿هَاقُمُوا اقْرَءُوا كِتَابِي﴾: ١٩، لم يتكرر، ب) وكذلك قوله ﴿إِنِّي لَعَلْتُ آتِيَّ مُلْكِي جَسِيَّةً﴾: ٢٠، ج) وأما قوله ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ فقد ذكر هنا: ٢١، وقريب منه في سورة القارعة: ٢٠، ثالثاً: ومنها أمور متعلقة ببيان مصير الكافرين: أ) فقلوه تعالى عن الكافر ﴿يَلَيِّنُنِي لَرَأَيْتُ كِتَابِي﴾: ٢٥، لم يتكرر، ب) وكذلك قوله تعالى عنه ﴿وَلَوْ أَدْرَى مَا جَسِيَّةٌ﴾: ٢٦، ج) وقوله ﴿خُذُوا قُلُوبَكُمْ﴾: ٣٠ لم يتكرر بهذه الصيغة، د) وقوله ﴿ثُمَّ فِي سَبِيلِكَ دَرَعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾: ٣٢، لم يتكرر. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

القاف بعدها، واستقراره بالانتهاء بالتاء المربوطة التي تُنطق هاء ساكنة^(١). فالدلالات الناتجة عن وصف يوم القيامة بالحاقة تفيد معاني الجدّ والصرامة فلا مجال للهلزل. ثم إن النطق ثلاث مرات بهذا الاسم مع الوقوف على الهاء بعد حرف الاستعلاء «القاف» المفخّم المشدّد، أشبه بثلاث قذائف لها دوي هائل لا نظير له في كل أسماء السور المشيرة إلى يوم القيامة.

ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن الأقوام المكذّبة بيوم القيامة وبيان مصيرهم بأسلوب يكاد يخطف القلوب: فلاحظ كيف كان التعبير عن كيفية إهلاكهم: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَمْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝ وَآمَّا عَادُ فَأَمْلِكُوا بَرِيحَ صَرْصَرٍ عَلَيَّهِ ۝﴾، ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ۝ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْبَارَةِ ۝﴾ وانظر إلى الكلمات: بالطاغية، صرصر، أخذة رابية، طغى، التي تحوي حروف الاستعلاء: الطاء والغين والخاء، مع تفخيم الراء، وتفخيم الألف بعد الغين، فكل هذه الكلمات تفيد الجدّ والصرامة، وهي متناسبة مع اسم السورة الذي يحوي المدّ اللازم المثلث، مع حرف الاستعلاء: القاف. ولاحظ التعقيب على إهلاك الأقوام الذي يفيد الجدية: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ۝﴾. وقوله تعالى معقباً على ذكر نجاة نوح عليه السلام ومن معه، وإهلاك المكذّبين من قومه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْبَارَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكُرَةً وَفِيهَا أَذُنٌ وَعِیَّةٌ ۝﴾.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى عرض بعض مشاهد الآخرة، والملاحظ أن طابع التهويل والجدّ والصرامة يغطي تلك المشاهد كلها: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۝﴾، لاحظ كيف أكّد السياق على أن النفخة الواحدة والدكة الواحدة كفتلتان بيد ذلك اليوم العظيم دون إعادة، ولاحظ أيضاً كيف عبّر السياق عن نجاة من أوتي كتابه بيمينه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَهْوَأُ أَمْزَرُوا كِتَابِيَةَ ۝ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ ۝﴾ فهو لم يكذب يصدق أنه نجا. وكيف عبّر عن مصير الكافر بضمير المفرد في مقابل الأمر بضمير الجمع للملائكة ليأخذوه وينفردوا به ليعذبوه ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝﴾.

(١) قطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٦٧٤. وقد بين أوجهاً متعددة لتناسق بعض ألفاظ هذه السورة ومشاهدها مع جوها الدال على التهويل والجدّ والصرامة، وقريب منه كلام د. باجودة، تأملات في سورة الحاقة، ص ٤.

﴿٣٦﴾ تَرْفٍ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٧﴾ ، كل ذلك يناسب سياق التهويل والجدية والصرامة التي دلّ عليها وصف يوم القيامة بالحاقة. ولا تجد في السور التي سُمّيت بأسماء يوم القيامة أو مشاهدته تعبيراً عن مصير الكافر أشدّ تهويلاً وحزماً من هذه السورة.

ثالثاً: وجاءت خاتمة السورة لتؤكد ما سبق، وهي أيضاً مطبوعة بطابع الجدّ والصرامة، يؤكد ذلك القَسَم بما تبصرون وما لا تبصرون على صدق النبي ﷺ بما ينذر به قومه من حقائق الوحي، ولاحظ تكرير التقرير للمكذّبين: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾. بل إن الجدّ والحزم والصرامة كان طابع التعبير حتى فيما يتعلق بنفي أيّ فرية عن النبي ﷺ: ﴿وَلَوْ لَقَوْلٌ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٨﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٩﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٥٠﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾، وحاشاه ﷺ من أيّ شيء من ذلك. ثم لاحظ ختم السورة بـ «إن» المفيدة للتوكيد خمس مرات لإثبات صدق النبي ﷺ، وتكذيب المكذّبين.

وكما افتتحت السورة بذكر يوم الحاقة العظيم، وبيان مصير بعض الأقوام التي كذبت به، ختمت ببيان حسرة الكافرين على عدم إيمانهم بالحاقة، وبال دعوة إلى تسبيح الله العظيم القادر على بعث الخلق في ذلك اليوم: ﴿وَإِنَّمَا لَنَذْكُرَنَّ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٥٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴿٥٩﴾ وَإِنَّمَا لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّمَا لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥٦﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٧﴾﴾، وبذلك يلتقي البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور الدال على أن يوم القيامة حقّ جدّ لا هزل فيه، الذي أكّده اسم السورة بدلالات الجدّة والحزم والصرامة التي طبعت كل موضوعات السورة بطابعها.



سورة بيان أن القيامة حقٌ وجدُّ لا هزل فيها

<p>الموضوع الأول: (الآيات: ١٢-١)</p> <p>■ المقدمة التي تهوّل أمر الحاقة وتبيّن مصير بعض الأقوام المكذّبين بذلك اليوم العظيم:</p> <p>■ افتتحت السورة بذكر اسم «الحاقة» مع تكرار السؤال التجهيلي المفيد تعظيم هول ذلك اليوم: ﴿الْحَاقَّةُ ۝ مَا لِحَاقَةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لِحَاقَةُ ۝﴾.</p> <p>■ ثم بيّنت مصير بعض الأقوام المكذّبين بذلك اليوم: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُفْلِسُوا ۝ فَأَمَّا عَادٌ فَأُفْلِسُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَلَاتٍ ۝﴾، وبيّنت إهلاك فرعون وقوم نوح عليه السلام.</p>	<p>الموضوع الثاني: (الآيات: ١٣-٣٧)</p> <p>عرض لبعض مشاهد يوم القيامة تؤكد أنه حق لا هزل فيه:</p> <p>■ ثم انتقل السياق إلى عرض بعض مشاهد ذلك اليوم عظيم الهول: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَجِدَّةٌ ۝ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَجِدَّةً ۝ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝﴾.</p> <p>■ وبيّن أنه يومئذ تنشق السماء وتهوي، ويأتي العرش تحمله الملائكة، حينئذ يُعرض الناس على ربهم لا تخفى منهم خافية.</p> <p>■ وبيّن أنه من عظم هول ذلك اليوم لا يكاد المؤمن يصدّق أنه نجا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْدَهُ بِئْسَ مِيقَاتُ ۝ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْدَهُ بِئْسَ مِيقَاتُ ۝﴾.</p> <p>■ وأما الكافر فمصيره مهول مفرع: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝﴾.</p>	<p>الموضوع الثالث: (الآيات: ٣٨-٥٢)</p> <p>الخاتمة المؤكّدة لما سبق:</p> <p>■ أعادت التأكيد على أن حقائق الوحي التي ينذر بها النبي ﷺ حق: ﴿فَلَا أَقِيمُ يَوْمَ تُصْرُونَ ۝ وَمَا لَا تُصْرُونَ ۝﴾.</p> <p>■ ونفت عنه ﷺ أي فرية متعلقة بالوحي: ﴿وَلَوْ نَقُولُ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝﴾.</p> <p>■ وكما افتتحت السورة ببيان أن يوم القيامة حق وبيّنت مصير بعض المكذّبين بذلك اليوم، ختمت بتهديد الكافرين مع التأكيد على المقصد ذاته: ﴿وَأِنَّهُمْ لَحَرَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ وَأِنَّهُمْ لَعَوْا ۝﴾.</p> <p>■ البقيين ٥١ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ۝﴾.</p>
--	---	--

سورة المعارج

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الأصل الثالث - للجزر عرج - : العروج : الارتقاء، يقال: عرج يعرج عروجاً ومَعْرَجاً، والمَعْرَجُ: المصعد»^(١)، وأكد الإمام الأصفهاني ذلك فقال: «العروج: ذهاب في صعود، قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾» (المعارج: بعض الآية ٤) وقال: ﴿فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾» (الحجر: بعض الآية ١٤)، والمعارج: المصاعد»^(٢). وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى وصف الله تعالى بـ «ذي المعارج» وقد فسّرت الآية التالية له، فيكون المعنى: إن العذاب الذي سأل عنه السائل واقع بالكافرين ولا دافع له، وهو سيقع بهم من الله ذي المعارج، أي: «صاحب المعارج وخالقها، وهي المنازل التي ترتقي بها الملائكة، وقد جاء هذا الوصف ليكون تخلصاً إلى ذكر يوم الجزاء الذي يكون فيه العذاب الحق للكافرين، وهذا العروج كائن يوم القيامة وهو اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة. وهذه تقريبات لنهاية عظمة تلك المنازل وارتقاء أهل العالم الأشرف إليها وعظمة يوم وقوعها»^(٣). فاسم السورة يدلّ على طول ذلك اليوم على الكافر، وقدرة الله تعالى على البعث وعذاب الكافرين في ذلك اليوم الذي يستبعدونه.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٧٦٨.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ٥٥٧.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٩، ص ١٥٧.

وموضوعاتها، فذكروا أن محور السورة يقوم على إثبات القيامة وتصوير عظمتها وطول يومها وأنه قد قُرب، وإنذار من كفر بها وذكر بعض سماتهم، وسمات من آمن بها وشمّر لها، وعلى هذا دلّ اسم «المعارج»، والتركيز في هذه السورة على الهول النفسي لما فيها من ذكر للجزاء وموازينه، أكثر من مشاهد الكون وحركاته، وقد ذكرت السورة بعض صفات ترتقي بأصحابها على باقي البشر وتعرج بهم إلى ربّهم، وفي المقابل حقّرت السورة شأن قسم آخر من الناس وهم الكافرون^(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: إثبات حقيقة اليوم الآخر من خلال الرّد على المكذّبين المستبعدة لذلك اليوم المهول والغافلين عنه، وبيان استعداد المؤمنين المصدقين لذلك اليوم، وإنما اختير اسم «المعارج» الدال على طول ذلك اليوم، لكونه أدل ما في السورة على كمال غفلة المكذّب عنه، ومدى استعداد المؤمن المصدّق له، فهو يدل على المحور المذكور^(٢). وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان طول يوم القيامة وغفلة المكذّبين عنه، واستعداد المؤمنين له.

وبتتبع موضوعات السورة يظهر ارتباط اسم السورة «المعارج» بموضوعاتها ارتباطاً وثيقاً، وفيما يلي بيان ذلك:

تحتوي السورة مقدّمة تبيّن استبعاد المكذّب لوقوع عذاب الآخرة مع الرّد عليه، ثم ذكراً لبعض المشاهد الأخروية مع بيان مصير المكذّب بسبب غفلته، ثم بيان استعداد المؤمن ليوم القيامة ومصيره فيه، ثم خاتمة عن موقف المكذّبين زمن النبي ﷺ مع الرّد عليهم^(٣).

(١) ينظر: البقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ١٤٤، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٦٩٣، وأ. د مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، ج ٨، ص ٣٤٠، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٣٠٦، ٣٠٧.

(٢) أخرج الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: ما «من صاحب كنز لا يُؤدّي زكاته إلا أحمي عليه في نار جهنم فيجعل صفائح فيكوى بها جنباه وجبينه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار...»، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، رقم: ٢٢٥٤.

(٣) المقدّمة شملت آيات: ١-٧، والحديث عن مصير المكذّبين: ٨-٢١، والحديث عن المؤمنين: ٢٢-٣٥، والخاتمة: ٣٦-٤٤. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة ببيان طول يوم القيامة وعظيم هوله: أ) فوصف طول ذلك اليوم =

أولاً: تأتي المقدمة لتردّ على السائل المنكر أو المستبعد لوقوع العذاب على الكافرين يوم القيامة، وما ذاك إلا لتغافلهم عن تلك الحقيقة ليصنعوا في هذه الدنيا ما يشاؤون بلا حساب، فكانت الإجابة بأن الله قد جعل لهم يوماً مقداره خمسون ألف سنة تعرج فيه الملائكة لتدبير شؤون ذلك اليوم ومهامه: ﴿سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ۝ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ۝ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝﴾، فكان وصف الله تعالى بأنه «ذو المعارج» وما بيّنته الآية التالية لهذا الوصف، دلالة على طول ذلك اليوم الذي يستعبده الكافر. وفيه دلالة أيضاً على قرب وقوعه حتى لو طال أمده في نظر البشر. فكم تساوي حياة البشر منذ بدئها على الأرض في مقابل طول ذلك اليوم؟

ولاحظ أيضاً قوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَبِيلًا ۝ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝ وَرَنَّهُ قَرِيبًا ۝﴾ الذي يؤكّد هذه الحقيقة.

ثانياً: ثم تنتقل السورة إلى بيان موقف الكافرين في ذلك اليوم الطويل، فلا يسأل حميم حميماً، ومما يلاحظ هنا أن السورة قدّمت ذكر مصير الكافرين يوم القيامة على ذكر بعض أعمالهم، لبيان مدى غفلتهم عن هذا اليوم: ﴿يَصْرُوهُمْ يُودُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَقْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ بَيْنِهِ ۝ وَصَحْبَتَهُ وَأَخِيهِ ۝ وَفَصِّلَتْهُ الَّتِي تُوْبِهِ ۝ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ۝﴾، ويلاحظ أيضاً أن سياق السورة يركّز على عرض الهول النفسي لهؤلاء المكذّبين أكثر من بيان هول الأحداث الكونية لذلك اليوم، مما يؤكّد مدى غفلة المكذّب عن الحساب الطويل في ذلك اليوم.

= بخمسين ألف سنة لم يذكر في القرآن إلا هنا: ٤، ب) وقوله تعالى ﴿فَذَرُهُمْ يُخَوِّضُوا وَيَقُولُوا وَوَعَدُ اللَّهِ يُوعَدُونَ﴾ ذكر هنا: ٤٢، وفي سورة الزخرف: ٨٣ فقط، ج) لكن سورة المعارج امتازت بقوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾: ٤٤، إذ لم يتكرر بالصيغة ذاتها، ثانياً: ومنها أمور متعلقة ببيان غفلة الكافرين عن ذلك اليوم: أ) فقله تعالى عنهم ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾: ٦، لم يذكر إلا هنا، وكذلك وصف جهنم بأنها ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ۝ وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾: ١٧، ١٨ لم يذكر إلا هنا بهذه الصيغة لبيان مدى تغافلهم عن الاستعداد ليوم المعارج، ثالثاً: ومنها أمور متعلقة ببيان استعداد المؤمنين لذلك اليوم: أ) فقله تعالى ﴿وَرَنَّهُ قَرِيبًا﴾: ٧، ذكر هنا فقط وهو يتنبه المؤمنين للاستعداد، ب) وكذلك وصفهم بقوله ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾: ٢٣، ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، ج) وأما قوله ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مِّمَّا لِّلنَّاسِ مِنَ الْغُلَامِ ۝ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾: ٢٤، ٢٥، فقد ذكر هنا بزيادة «معلوم» وهو يؤكّد استعدادهم لذلك اليوم، وذكر قريب منه في سورة الذاريات: ١٩، لكن دون «معلوم». ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

ثم ذكرت من أعمالهم ما يدل على غفلتهم عن يوم المعارج وكأنهم يعيشون أبداً : ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ۖ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ۖ﴾ (٧) ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ﴾ (٨) ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ﴾ (٩) ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۖ﴾ (١٠) . فقد ألهاهم التولي وجمع المال والبخل عن الاستعداد لذلك اليوم .

ثالثاً : ثم انتقلت السورة إلى ذكر أعمال المؤمنين الذين يخافون ذلك اليوم ويعملون له ، ويلاحظ هنا أن السورة قدّمت ذكر أعمال المؤمنين على ذكر ثوابهم على عكس ما حصل مع الكافرين المذكورين قبل قليل ، لبيان مدى استعداد المؤمنين لذلك اليوم ، فذكرت من أعمالهم : الدوام على الصلاة ، وأداء الزكاة ، والتصديق بيوم الدين والخوف من عذاب الله فيه ، وحفظ الفروج والأمانة والعهد والشهادات ، ومن اللطيف أن التعبير عن أدائهم الزكاة هنا جاء مؤكداً بأنه معلوم : ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۖ﴾ (١١) ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ ، بينما في سورة الذاريات : ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (١٢) (الذاريات : ١٩) ، فزيادة كلمة (معلوم) في المعارج أفاد كمال استعدادهم لذلك اليوم الطويل ، فهم يجعلون مقدار الزكاة أمراً واجباً وله حسابه الخاص ، ولاحظ قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَاتٍ ۖ﴾ (١٣) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ۖ﴾ (١٤) ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۖ﴾ (١٥) الذي يؤكد كمال استعدادهم ليوم المعارج الطويل .

رابعاً : الخاتمة ، وفيها انتقلت السورة إلى ذكر أحوال الكافرين في مواجهة الدعوة وهي أحوال تؤكد غفلتهم عن يوم المعارج ، ومما يلاحظ أن قوله تعالى : ﴿أُطِيعُ كُلَّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ ۖ﴾ (١٦) ﴿أَن يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۖ﴾ (١٧) ﴿كَلَّا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ ۖ﴾ (١٨) ﴿فَلَا أَقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ ۖ﴾ (١٩) ﴿عَلَىٰ أَن تُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۖ﴾ (٢٠) فيه بيان مدى غفلة الكافرين عن ذلك اليوم ، « فإن قلت : من أي وجه دلّ هذا الكلام على إنكار البعث ؟ قلت : من حيث إنه احتجاج عليهم بالنشأة الأولى ، كالاحتجاج بها عليهم في مواضع من التنزيل ، وذلك قوله : ﴿خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي : من النطف ، . . وقيل : معناه : إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ نَظْفَةٍ كَمَا خَلَقْنَا بَنِي آدَمَ كُلَّهُمْ ، ومن حُكْمنا أَن لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ مِنْهُمْ الْجَنَّةَ إِلَّا بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ » (١) .

ومن اللطيف أيضاً أن السياق لم يفصل في أصل نشأة الإنسان كما جاء في سورتي

الواقعة والقيامة، فانظر كيف عبّر عن ذلك: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٩)، وذلك للتأكيد على مدى قصر حياة الإنسان في مقابل طول يوم المعارج^(١).

وختمت السورة بإعادة التذكير بهول ذلك اليوم الطويل والقريب، وبيان غفلة الكافرين عنه: ﴿فَذَرَهُمْ يَخْضَوْنَ وَيَلْعَبُونَ حَتَّى يَلْقَوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ (٤١) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفُضُونَ (٤٢) خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤). والتقى البدء والختام على بيان مدى غفلة المكذّب عن يوم المعارج الطويل، فأنت ترى أن دلالة اسم السورة «المعارج» قد عبّر عن محور السورة وموضوعاتها بأبلغ صورة.



(١) ينظر: الآيات من سورة الواقعة: ٥٨-٦٢، والآيات من سورة القيامة: ٣٧-٣٩.

سورة المعارج

سورة بيان طول يوم القيامة، وبيان غفلة الكافرين عنه، واستعداد المؤمنين له

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٧)

المقدمة التي تردُّ على الكافر المستبعد وقوع يوم القيامة، بيان طول ذلك اليوم وقرب وقوعه:

■ افتتحت السورة بالردِّ على مَنْ يستبعد وقوع القيامة: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿١﴾ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٢﴾﴾.

■ وبيّنت طول ذلك اليوم الذي يستبعده الكافرون: ﴿تَمُوتُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٣﴾﴾.

■ وبيّنت قرب وقوعه: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٤﴾ وَرَأَوْهُ قَرِيبًا ﴿٥﴾﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٨-٢١)

عرض لبعض مشاهد ذلك اليوم مع بيان مصير الكافر المكذّب بسبب غفلته:

■ ثم عرض السياق بعض أحوال ذلك اليوم لتأكيد حقيقة وقوعه: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَنْتَلِ حِمِيمٌ حِمِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

■ وبيّنت أن الكافر في ذلك اليوم يودُّ لو أنه يفدي نفسه من العذاب ببنيه وصاحبه وأخيه وفصيلته ومن في الأرض جميعاً.

■ ثم بيّنت أن سبب عذابهم هو غفلتهم عن الاستعداد لذلك اليوم: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأُفٍّ ﴿١١﴾ تَرْأَعُهُ لِلَّشْوَى ﴿١٢﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْرَكَ وَتَوَكَّلْ ﴿١٣﴾ وَجَمْعَ فَأَوْعَى ﴿١٤﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٥﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿١٦﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿١٧﴾﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٢-٣٥)

بيان استعداد المؤمنين لذلك اليوم، وبيان مصيرهم فيه:

■ ثم عرض السياق في المقابل استعداد المؤمنين ليوم المعارج: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَقْلُومٌ ﴿٢٣﴾ لِلتَّائِيلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٤﴾﴾.

■ وبيّنت السياق أن إيمانهم بذلك اليوم وخشيتهم من عذاب الله فيه، هو الذي جعلهم يستعدّون للقاء الله فيه بالأعمال الصالحة: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيْرَ الَّذِينَ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٧﴾﴾.

■ وقد بيّنت أنهم يوم القيامة في جناتٍ مكرّمون.

الموضوع الرابع: (الآيات: ٣٦-٤٤)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت بيان غفلة المكذّبين عن الإيمان والاستعداد ليوم المعارج: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قُلْكُمُ مَهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْآلَمِينَ وَعَنِ النَّبِيِّينَ عَزَّيْزٍ ﴿٣٧﴾ أَنْطَمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾﴾.

■ وبيّنت قصر حياة الإنسان في الدنيا مقابل طول يوم المعارج: ﴿فَدَرَهُمْ بَحْصُورًا وَيَلْعَبُونَ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

■ وكما افتتحت السورة بالردِّ على المكذّب المستبعد وقوع يوم المعارج الطويل، ختمت ببيان مصير المكذّبين في ذلك اليوم: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ يِرَاعًا كَافَّةً إِلَى نَصْبٍ يُوَفِّسُونَ ﴿٤٠﴾ خَنِيعَةً أَبْصَرُهُمْ رَهَقَهُمْ ذُلٌّ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤١﴾﴾.

سورة نوح

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ① قَالَ يَقُولُوا إِنِّي لَكُم نَذِيرٌ مُّبِينٌ ② أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ③ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ④﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

سُمِّيت هذه السورة الكريمة باسم «نوح» عليه السلام؛ لأنها تبين خلاصة دعوته لقومه، وخلاصة موقفهم منها، فقد بيّنت هذه السورة أن نوحاً عليه السلام استخدم شتى أساليب الدعوة من الجهر والإسرار، والدعوة بالليل والنهار، وبيّنت السورة مدى عناد قومه واستكبارهم عن الحق، فاسم السورة يدل على أن نوحاً عليه السلام لم يقصر في دعوته، فهو مثال سامي للدعاة.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن من دلالات اسم السورة الدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده وإفراده بالعبادة، ومن دلالاته بيان كمال القدرة الإلهية في الآفاق، وبيان تمام القدرة الإلهية على تحقيق دعوة نوح على قومه، وتبديلهم بغيرهم، وذكروا أن التركيز في السورة على محاولات نوح المكثفة لإنقاذ قومه، فالسورة تبين المعالم الرئيسية لدعوته التي يحتاجها كل داعية إلى الله، فالسورة تجعل من نوح عليه السلام قدوة مثالية لكل الدعاة على مرّ العصور، وذكروا أيضاً أن السورة تعرض صورة من العناد البشري للحق، وصورة من الرحمة الإلهية المتجلية برعاية الله للإنسان، فمن مقاصد السورة التسمية عن النبي ﷺ وعن الجماعة المؤمنة في مكة، وعن كل داعٍ إلى الله في الأرض، لأن السورة تعرض تقديم نوح حسابه الأخير بعد صبره على الدعوة المضنية ألف سنة إلا خمسين عاماً. وفي

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: عرض التقرير النهائي لنوح عليه السلام الذي يبرز عدم تقصيره في دعوته لقومه في أيّ جانب من جوانبها، وفي ذلك تثبيت للنبي ﷺ والمؤمنين مما يلاقوه من أذى في مكة. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة قدوة الدعاة.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز أن من أهمّ الدلالات السياقية لاسم السورة بيان عدم تقصيره عليه السلام في دعوته بالرغم من طول مكثه فيهم، وفيما يلي بيان للترابط الشديد بين هذه الدلالة وبين موضوعات السورة:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: أولاً: مقدّمة تحوي خلاصة المقصد من دعوة نوح عليه السلام، ثانياً: خطاب لنوح عليه السلام مع ربّه عزّ وجلّ يبرز فيه من جانب عدم تقصيره في دعوته لقومه، ومن جانب آخر يبرز موقف قومه من دعوته، وثالثاً: خاتمة على لسان نوح عليه السلام تبرز بغضه للكفر والكافرين الظالمين، ومودّته وحرصه على المؤمنين إلى يوم الدين^(٢).

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٣٦٦، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ١٦٢، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٧٠٦، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٩، ص ١٨٥، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٨، ص ٣٦٣، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٤٨٠، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ٣١٩-٣٢٢، وادى، ومهنا، من دلالات أسماء السور، ص ٣٠٨-٣١١.

(٢) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١- ٤، وخطاب نوح مع ربه تعالى فيما يتعلق بعدم تقصيره في الدعوة: ٥- ٢٠، وفيما يتعلق ببيان موقف قومه من الدعوة: ٢١- ٢٥، والخاتمة: ٢٦- ٢٨، وقد كان السياق يفصل بين هذه الموضوعات بعبارة ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ﴾، ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور تؤكد عدم تقصير نوح في دعوته: أ) فقوله ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لِكُلِّ لُغَةٍ وَهَرَّابٌ﴾: ٥، ذكر هنا فقط، ب) وكذلك قوله ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾: ٨، ج) وقوله ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَفْتُ لَهُمْ وَأَسَرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾: ٩، د) وقوله لافتاً أنظارهم إلى آيات الله ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾: ١٧، وقوله ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾: ١٩، ثانياً: ومنها أمور تحذّر من الإصرار على التكذيب: أ) فقوله تعالى على لسان نوح ﴿لَنْ يَزِيدَهُ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾: ٦، ذكر هنا فقط، ب) وكذلك قوله ﴿جَعَلُوا أَسِيعَةً فِيْ عَادَاتِهِمْ وَأَسْفَفُشُوا نِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾: ٧، وقد ذكر تغشي الشباب أيضاً هرباً من سماع الدعوة في سورة هود فقط: ٥، ج) وكذلك قولهم ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾: ٢٣. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

أولاً: جاءت المقدمة تحوي إقراراً موجزاً من الله تعالى عن دعوة نوح عليه السلام، يبرز فيه السياق عدم تقصيره في الدعوة: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ١ قَالَ يَفْقَهُوا إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٢ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ٣ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٤ ، فقد بين الله تعالى أن نوحاً عليه السلام دعا قومه إلى توحيد الله وتقواه، وبين لهم وجوب المسارعة إلى طاعته؛ لأنه لا مفرّ لهم من الموت، وهذه خلاصة دعوة الأنبياء جميعاً. إن افتتاح السورة بهذا الإقرار من الله تعالى لما قام به نوح يبرز - فيما اعتقد - رضا الله التام عن الأداء غير المقصر لنوح عليه السلام. فهو بشهادة الله له يستحق أن يكون قدوة للدعاة.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض نوح عليه السلام تقريره الأخير لدعوته، ويبرز في ذلك أيضاً عدم تقصيره، فقد دعاهم دعوة متكررة على اختلاف الأزمنة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا ٧ فَمَا ذَانِهِمْ وَأَسْتَغْفِسُوا بِآبَائِهِمْ وَأَصْرُوا ٨ وَاسْتَكَبَرُوا اسْتِكْبَارًا ٩ ، واستخدم مختلف الأساليب، كالجهر والسرار والترغيب والترهيب: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ٩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ١٠ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ١١ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِي وَجَنَّتْ لَكُمْ جَنَّتٌ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ١٢ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ١٤ ، وقد كان من أساليبه أيضاً خطاب فطرتهم وعقولهم ليتيقظوا من غفلتهم: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ١٥ وَجَعَلَ اللَّيْلَ فِيهَا ثَوْبًا وَجَعَلَ السَّانِبَاتِ فِيهَا غَنًا ١٦ وَأَلْقَىٰ فِيهَا الْبَازِلَاتِ ١٧ فَيَخْرُجُنَّ إِخْرَاجًا ١٨ وَأَلَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ١٩ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ٢٠﴾. إن ما جاء في تقرير نوح عليه السلام من تنوع أساليب الدعوة على اختلاف الأزمنة وتكرار الدعوة بدون ملل أو كلل، يبرز عدم تقصير نوح عليه السلام في أي جانب من الجوانب، بل لقد قام بمهمته على أتم وجه. فعلى الدعاة الاقتداء به عليه السلام باستخدام شتى أساليب الدعوة.

وبعدما عرض نوح عليه السلام خلاصة دعوته لقومه، التي بين فيها عدم تقصيره، انتقل

إلى عرض موقف قومه من كل ذلك الجهد: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهْم عَصَوْي وَأَتَّبَعُوا مِن لَّدُنِّي مَالَهُمْ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ۝ وَمَكْرُوهًا مَّكْرًا كَبِيرًا ۝ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ۝ مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُغْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ۝﴾ ، واللافت للنظر أن الآية الأخيرة: ﴿مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُغْرِقُوا...﴾ التي هي تعقيب من الله عز وجل على عرض نوح عليه السلام موقف قومه من دعوته، كان من الممكن أن تكون الآية الأخيرة في السورة، لكن تقديمها كتعقيب إلهي على كلام نوح عليه السلام حول موقف قومه يؤكد أن نوحاً عليه السلام لم يقصّر في الدعوة، وفي ذلك تربية للدعاة للالتزام بالصبر على تكذيب الأقوام.

ثالثاً: ثم ختمت السورة بدعاء ختامي لنوح عليه السلام يظهر فيه بغضه للكفر والكافرين الظالمين، وحرصه ومودته للمؤمنين، وبيان وحدة دعوة الدين إلى يوم الدين: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَصِلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَارًا ۝﴾ .

فأنت ترى أن تسمية السورة بـ «نوح» عليه السلام يعطي أفضل أنموذج للدعاة، فهو لم يقصّر في دعوته لقومه بالرغم من مكثه فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، وفي هذا تثبيت للنبي ﷺ وللمؤمنين المستضعفين، ولكل داعية إلى الحق حتى يوم الدين، وهذا هو المحور الذي التفت عليه مقدّمة هذه السورة وخاتمتها، ودلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة نوح

سورة قدوة الدعاة

الموضوع الأول: (الآيات:

(٤-١)

المقدمة التي توجز دعوة نوح عليه السلام لقومه، وتبرز شهادة الله له في أنه لم يقصر في دعوته:

■ افتتحت السورة بإقرار الله تعالى أن نوحاً عليه السلام أحد رسل الله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

■ ثم بينت أنه عليه السلام دعا قومه بملخص دعوة الأنبياء جميعاً: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا﴾ ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَأَنزَلَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَوَدَّخِرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

■ فالمقدمة تقرّر أن نوحاً عليه السلام قد بادر لإجابة أمر ربه فدعا قومه.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٥-٢٥)

خطاب لنوح عليه السلام مع ربه عز وجل يبرز عدم تقصيره في الدعوة، ويبرز موقف قومه من دعوته:

■ ثم انتقل السياق إلى بيان أن نوحاً عليه السلام لم يقصر في دعوته قومه، فقد استخدم شتى أساليب الدعوة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا ﴿٧﴾ فِي مَا ذُنُوبُهُمْ وَأَسْتَغْفِرُوا لَهَا أَلَيْسَ إِنَّهُمْ بِخَاسِرِينَ ﴿٨﴾﴾.

■ وقد رغبتهم بالاستغفار وما فيه من فوائد.

■ وخاطب عقولهم قائلاً: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿٩﴾﴾ وعرض أدلة عقلية دالة على الله تعالى، فبين لهم أن الله هو الذي خلق سبع سماوات، وجعل فيهن الشمس والقمر، وهو الذي خلق البشر من الأرض ثم يعيدهم فيها، ويخرجهم يوم القيامة منها.

■ ثم بين السياق موقف قومه من دعوته: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿١٠﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١١﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا ﴿١٢﴾﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات:

(٢٦-٢٨)

الخاتمة التي تبرز بُغض نوح عليه السلام للكافرين، ومودته للمؤمنين إلى يوم الدين:

■ وقبل الختام سجلت الخاتمة بغض نوح عليه السلام للكفر والكافرين: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ يَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

■ وكما افتتحت السورة ببيان دعوة نوح عليه السلام قومه للإيمان، ختمت ببيان مودته عليه السلام للمؤمنين إلى يوم الدين: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِإِخْوَتِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ وَلَا تَجْعَلْ لِّإِخْوَتِي الْمُؤْمِنِينَ سُلُوكًا ﴿٢٨﴾﴾.

سورة الجن

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى حادثة استماع نفرٍ من الجنِّ إلى قراءة النبي ﷺ القرآن، فلما سمعوه آمنوا به^(١)، فهذه السورة تبرز إقرار هؤلاء النفر من الجنِّ بالإيمان وصحة الاعتقاد، وبيانهم زيف الباطل الذي كان قد أناطه الإنس بالجنِّ، كاستعانة بهم والاعتقاد بأنهم يعلمون الغيب وغير ذلك.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً للربط بين موضوعات هذه السورة ومحورها واسمها، فذكروا أن هذه السورة بمثابة شهادة من بعض عالم الجنِّ بكثير من القضايا العقيدية التي كان المشركون يجحدونها ويجادلون فيها، كادعائهم أنه ﷺ كان يتلقى بعض معلوماته عن الجنِّ، وهي كذلك تحوي تصحيحاً للأوهام التي أثبتت حول عالم الجنِّ كادعاء أنهم يعلمون الغيب، وادعاء أن بينهم وبين الله تعالى نسباً، وهي كذلك تحوي ردّاً على من ينكر وجود عالم الجنِّ ويعتبره من قبيل الخرافات، وتساهم في إنشاء تصوّر الإسلامي عن حقيقة الإلهية، وحقيقة العبودية، وما من شك أنها تظهر أيضاً شرف النبي ﷺ إذ لَبِنَ الله له قلوب الإنس والجنِّ، وهي تظهر شرف هذا القرآن العظيم الذي آمن به الجنِّ بمجرد استماعه^(٢).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: دعوة الإنس إلى

(١) ينظر: البخاري، صحيح البخاري، كتاب التفسير، برقم: ٤٩٢١، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الصلاة، برقم: ٩٣٧.

(٢) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٣٦٨، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ١٨٠، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٧٢٠-٣٧٢٣، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٩، ص ٢١٧، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، =

الإيمان بالنبي ﷺ وصحة الاعتقاد، من خلال ما بيّنه هؤلاء النفر المؤمن من الجنّ من صدق الإيمان وصحة الاعتقاد وكشف الباطل المتوهم حول عالم الجنّ. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة كشف زيف الباطل الذي أناطه الإنس بالجنّ.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز التناسق بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: أولاً: مقدّمة متحدّثة عن حادثة استماع النفر من الجنّ إلى النبي ﷺ مع بيان صحة اعتقادهم فيما يتعلق بالله تعالى، وثانياً: بيان صحة اعتقادهم في قضايا عقيدية أخرى، وثالثاً: خاتمة مؤكّدة لما سبق^(١).

أولاً: جاء في المقدّمة ذكر هذه الحادثة وإقرار الجنّ بصحة اعتقادهم فيما يتعلق بالله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن تُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنِّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝﴾، فهم مؤمنون بالله تعالى

= التفسير الموضوعي، م ٨، ص ٣٩٢، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ٢٠٩، ٢١٠، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور، ص ٣١٣.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٥، وبيان صحة اعتقادهم في القضايا العقيدية: ٦-١٤، والخاتمة: ١٥-٢٨. ومن لطائف هذه السورة: أولاً: أن نفى الصاحبة عن الله تعالى لم يذكر إلا فيها وفي سورة الأنعام على لسان الإنس فيما زعموه حول الجنّ، ينظر: الجنّ: ٣، والأنعام: ١٠٠، ١٠١، وثانياً: تشترك هذه السورة مع سورة الكهف في أحد جوانب المحور، فسورة الجنّ تثبت عدم قدرة الجنّ على دفع الأذى عن الإنس، وسورة الكهف تثبت حماية من لجأ إلى الله من الأذى، وقد اشتركت السورتان في أمور عدة أذكر منها: (أ) هما أكثر سورتين في القرآن ذكرت فيهما مشتقات الجذر «رشد» فقد ذكرت في سورة الجن أربع مرات: ٢: الرشد، ١٠، ١٤، ٢١: رَشَدًا، وفي سورة الكهف أربع مرات أيضاً: ١٠، ٢٤: رَشَدًا، ١٧: مرشداً، ٦٦: رُشْدًا، (ب) لم تتكرر مشتقات الجذر «رهب» إلا هنا مرتين: ٦، ١٣: رهقاً، وفي سورة الكهف مرتين أيضاً: ٧٣: ﴿رَهَقْنِي﴾، ٨٠: ﴿رَهَقَهُمَا﴾، (ج) لم يذكر المصدر «شطط» إلا في هاتين السورتين: في الجن: ٤: ﴿شَطَطًا﴾، وفي الكهف: ١٤: ﴿شَطَطًا﴾. (د) لم تذكر لفظة «مُتَحَكِّمًا» إلا في هاتين السورتين: في الجن: ٢٢، وفي الكهف: ٢٤. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس. هـ) ولا يخفى ذكر الكتاب غير ذي العوج في مقدمة سورة الكهف، وأن الذي دعا النفر من الجنّ إلى الإيمان الاستماع إلى هذا الكتاب كما جاء في مقدّمة سورة الجن، (و) ختمت السورتان ببيان كمال علم الله تعالى والدعوة إلى الإيمان بالرسول ﷺ الداعي إلى التوحيد، ولا يخفى اشتراك السورتين بفاصلة الألف.

وبرسوله ﷺ وبالقرآن الذي أنزله عليه، وهم لا يشركون بالله أحداً، وينفون عنه الصاحبة والولد، وفي ذلك دحض للباطل الذي ألحقه الإنس بالجنّ من ادّعاء أن بينهم وبين الله تعالى نسباً.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض صحة اعتقاد هؤلاء النفر من الجنّ فيما يتعلق بقضايا عقيدية أخرى: ﴿وَأَنْتُمْ كَانِ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَرَادُوهُمْ رَهَقًا ۖ﴾ (٦) وَأَنْتُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنَ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۖ (٧) وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۖ (٨) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنهَا مَقْعَدًا لِلْسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۖ (٩) وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمِّنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۖ (١٠) ، فهم ينفون قدرتهم على حماية الإنس من الأذى، وهم مؤمنون بالآخرة، وقد أيقنوا أنهم قد منعوا من أخبار السماء، وهم لا يعلمون بالغيب، وكل ذلك ينفي - كما لا يخفى - ما كان يزعمه الإنس حول الجنّ، وقد بيّن السياق أن الجنّ متفاوتون في قضية الإيمان، فمنهم مؤمن صالح، ومنهم كافر، وهم موقنون بعدم إعجاز الله تعالى هرباً.

ثالثاً: جاء في الخاتمة دعوة الإنس إلى الإيمان بالنبي ﷺ بعدما عرضت السورة موقف هؤلاء النفر من الجنّ، فبيّنت مصير الكافر المعرض عن الإيمان: ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْفَاسِقُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۖ (١١) وَأَمَّا الْفَاسِقُونَ فَكَانُوا لِحَبَّتِهِمْ حَطَبًا ۖ (١٢) وَالْوَلِيُّ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا ۖ (١٣) لِنَفِئَنَّهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۖ (١٤) ، ودعت إلى توحيد الله تعالى والإيمان برسوله ﷺ كما آمن أولئك النفر: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۖ (١٥) وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۖ (١٦) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۖ (١٧) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۖ (١٨) قُلْ إِنِّي لَنْ يُخْرِجَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۖ (١٩) ، وقد بيّن السياق أن النبي ﷺ وهو رسول لا يعلم الغيب، كما أفروا بعدم علمهم الغيب أيضاً.

وكما افتتحت السورة ببيان إيمان ذلك النفر بالله تعالى وبرسوله ﷺ وإقرارهم عدم معرفتهم بالغيب، ختمت السورة بدعوة الإنس إلى الإيمان بذات القضايا التي آمن بها أولئك النفر: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لِمِ رَبِّي أَمَدًا ۖ (٢٠) عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۖ (٢١) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۖ (٢٢) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَكَ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخَصَّىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ۖ (٢٣) ، وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة الجن

سورة كشف زيف الباطل الذي أناطه الإنس بالجن

<p>الموضوع الأول: (الآيات: ١-٥)</p> <p>المقدمة التي تبرز صحة اعتقاد النفر من الجن فيما يتعلق بالله تعالى:</p> <p>■ افتتحت السورة بذكر حادثة استماع النفر من الجن لقراءة النبي ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعَ قُرْآنًا عَجَبًا ۝١﴾.</p> <p>■ وبيّنت أنهم مؤمنون موحدون: ﴿وَلَنْ نُشْرَكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢﴾.</p> <p>■ وهم ينفون عن الله تعالى الصاحبة والولد: ﴿وَأَنَّهُمْ قَتَلُوا جَدَّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾.</p>	<p>الموضوع الثاني: (الآيات: ٦-١٤)</p> <p>بيان صحة اعتقادهم في قضايا عقدية أخرى:</p> <p>■ بيّن السياق أن هؤلاء النفر من الجن ينفون عن أنفسهم القدرة على حماية الإنس من المخاوف: ﴿وَأَنَّهُمْ كَانُوا يَجَالُ مِنْ الْإِنْسِ يُؤَدُّونَ رِجَالًا مِّنَ الْجِنِّ فَوَادُّهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾.</p> <p>■ وبيّن أنهم موقنون بأنهم قد مُنِعوا من أخبار السماء: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَحْدُ لَمْ شَهِبًا رَّصَدًا ۝٧﴾.</p> <p>■ وأنهم لا يعلمون الغيب: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَْادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝٨﴾.</p> <p>■ هذا ينفي ما كان يزعمه الإنس حول الجن من الاعتقادات الباطلة والقدرات الخارقة.</p>	<p>الموضوع الثالث: (الآيات: ١٥-٢٨)</p> <p>الخاتمة المؤكدة لما سبق:</p> <p>■ دعت الخاتمة الإنس إلى التوحيد والإيمان بالنبي ﷺ كما آمن هؤلاء النفر من الجن: ﴿وَأَنَّ السَّجْدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝١٥﴾ وَأَنَّهُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٦﴾.</p> <p>■ وكما افتتحت السورة ببيان إيمان ذلك النفر من الجن بالله ورسوله ﷺ وبيّنت عدم معرفتهم بالغيب، ختمت بدعوة الإنس إلى الإيمان بالقضايا ذاتها كما آمن ذلك النفر: ﴿قُلْ إِن أَدْرَيْتُمْ أَفَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَكُمْ رَبِّي أَمَدًا ۝١٧﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ إِلَّا مَن أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۝١٩﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدِ ابْتَلَوْنَا رُسُلَنَا وَلَهُمْ مَا لَدَيْهِمْ وَأَخَصَّى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ۝٢٨﴾.</p>
---	--	--

سورة المزمّل

﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ ۝ قُرْ آلِيلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِصْفَهُ ۝ أَوْ أَنْقِضْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ۝ وَرَبِّلِ الْقُرْمَانَ تَرْبِيًا ۝ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن منظور رحمه الله: «المزمّل: أصله المزمّل، والتاء تدغم في الزاي لقربها منها، يقال: تزمّل فلان، إذا تلفّف بشيابه»^(١)، وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى وصف حالة النبي ﷺ في فترة الوحي أول البعثة، حينما رأى جبريل عليه السلام بين السماء والأرض، فأسرع إلى بيته ﷺ ودخل على خديجة رضي الله عنها قائلاً: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَذَرُونِي»^(٢). فاسم السورة يدل على أمر النبي ﷺ بعدم الخوف الذي يدعوه إلى التزمّل، والاستعانة على أداء واجبات الدعوة بصلاة قيام الليل.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم السورة ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن تسمية هذه السورة بـ «المزمّل» يدل على أن تكليف حمل أمانة الدعوة ثقيل، ويحتاج لجهد طويل، فلم يعد هناك نوم، ومما يعين على حمل أمانة هذه الدعوة قيام الليل والتوجّه الخالص إلى الله تعالى، لأن الاجتهاد في خدمة الله دال على غاية المحبة^(٣).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: تهيئة النبي ﷺ لتحمل أعباء الدعوة بالكّد والاجتهاد وترك الراحة والاستعانة على ذلك بصلاة قيام الليل،

(١) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج ٧، ص ٥٨.

(٢) الحادثة المذكورة أخرجها الإمام البخاري رحمه الله في الصحيح، كتاب تفسير القرآن، برقم: ٤٩٢٥، ومسلم في الصحيح، كتاب بدء الوحي، برقم: ٣٢٨.

(٣) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٣٧١، والباقعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٢٠٢، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٧٤٢، ٣٧٤٣، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٩، ص ٢٥٤، وأ. د. مسلم، التفسير الموضوعي، م ٨، ٤٢٥، ٤٢٦، ووادي، ومهت، من دلالات أسماء السور، ص ٣١٤-٣١٦.

مع بيان مصير الكافرين الذين آثروا راحة الدنيا ودَعَتَهَا على تحمّل تكاليف الإيمان، فاسم السورة - الذي يدعو النبي ﷺ إلى ترك التزمل - يدل على هذا المحور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة الدعوة إلى الاستعانة على تكاليف الإيمان بقيام الليل.

وبتأمل موضوعات السورة يظهر الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: مقدّمة تحوي تهيئة للنبي ﷺ لتحمل أعباء الدعوة والاستعانة بصلاة الليل، ثم بيان لمصير الكافرين الذين آثروا راحة الدنيا على تحمّل تكاليف الإيمان، ثم خاتمة مؤكّدة للمحور المذكور^(١).

أولاً: جاء في مقدّمة السورة أمر النبي ﷺ بعدم التزمل الذي يدعوه إليه الخوف في بداية الوحي من القيام بمهمة الدعوة، ويأمره بالاستعانة بقيام الليل والتوكّل على الله ليعينه على أداء مهمته ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الزَّمِّلُ ①﴾ ﴿أَلَيْلٌ إِلَّا قَلِيلًا ②﴾ ﴿يَصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ③﴾ ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ④﴾ ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ⑤﴾ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ⑥﴾ ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْعًا طَوِيلًا ⑦﴾ ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَنَتَّلْ إِلَيْهِ تَتْتِيلًا ⑧﴾ ﴿رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ⑨﴾ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ⑩﴾، ولاحظ اختصاص قيام الليل

(١) مقدّمة السورة شملت آيات: ١- ١٠، وبيان مصير الكافرين: ١١- ١٩، والخاتمة: ٢٠، ومن لطائف هذه السورة: أنها اختصت بعبارات والألفاظ لم تذكر في موضع آخر من القرآن، وهي عبارات وألفاظ متلائمة مع الأمر بالاجتهاد للقيام بتكاليف الدعوة، ومع بيان حال الكافرين، وإليك تفصيل ذلك: أولاً: من هذه العبارات والألفاظ ما هو متعلق بسيدنا محمد ﷺ: (أ) لم يرد فعل الأمر بصيغة المفرد «قم» إلا في هذه السورة وجارتها «المدثر»، (ب) لم يوصف القرآن بـ «قَوْلًا ثَقِيلًا» إلا في هذه السورة، (ج) كذلك وصف قيام الليل بعبارة «أَشَدُّ وَطْأً»، (د) ووصف الدعوة إلى الله في النهار بـ «سَبْعًا طَوِيلًا»، (هـ) لم تذكر مشتقات الجذر «بتل» إلا في هذه السورة، وقد جاءت بصيغة التشديد والمصدر «وَتَنَتَّلْ إِلَيْهِ تَتْتِيلًا»، وثانياً: من العبارات والألفاظ ما هو متعلق بالكافرين المؤثرين راحة الدنيا على تكاليف الإيمان: (أ) وصفهم بـ «أَوَّلَى الْآثَمَةِ» لم يذكر إلا هنا، (ب) وكذلك وصف عذاب طعام جهنم بـ «وَلَعَلَّامًا ذَا غَضَوٍ»، (ج) ووصف عذاب فرعون بـ «أَخَذًا وَيَلًا»، (د) ووصف حال الجبال يوم القيامة بـ «كَيْيََّ مَهِيلاً»، (هـ) ووصف يوم القيامة بـ «يَوْمًا يَجْمَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا»، وقد أشار سيد قطب رحمه الله إشارة سريعة إلى تناسق الألفاظ الدالة على الشدة مع جلال التكليف وجديّة الأمر، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٧٤٣. وينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

بالذكر، وهو متلائم مع ترك التزمل والاجتهاد في الطاعة، ولاحظ أن الأمر في المقدمة كان بقيام الليل كله إلا قليلاً، لأن في ذلك زيادة في التناسق مع دلالة اسم السورة، وسيأتي في الخاتمة تخفيف متعلق بهذا الأمر، ولاحظ ذكر الإكثار من ذكر الله والتبتل إليه والتوكل عليه وحده، وهي أوامر كما ترى متلائمة مع المحور الدال على تهيئة النبي ﷺ لأداء تكاليف رسالته، ومتلائمة مع دلالة اسم السورة.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى بيان مصير الكافرين الذين آثروا راحة الدنيا على القيام بتكاليف الإيمان: ﴿وَذَرْنِي وَالْكَذِبِينَ أَُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلُكُمْ قَلِيلًا ۝ إِنَّا لَدَيْنَا أَنْكَالٌ وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝﴾، ولاحظ وصف الكافرين بأولي النعمة، وهو وصف دال على إشارتهم الراحة، وما من شك أن التخويف بذكر يوم القيامة متناسق مع الدعوة إلى القيام بتكاليف الدعوة، حتى لا يقع المؤمن في عذاب ذلك اليوم، ولاحظ ذكر فرعون الذي ادعى الإلهية، وهو في الوقت ذاته أثر راحة الدنيا ودعتها على الإيمان بموسى عليه السلام، فأخذه الله أخذاً وبيلاً، ثم أعاد السياق ذكر التخويف بيوم القيامة وأهواله، ليكون ذلك أدعى في حث الناس على القيام بتكاليف الإيمان، لئلا يقعوا في عذاب ذلك اليوم الشاق.

إذاً فالتخويف بعذاب يوم القيامة، وعرض مصير فرعون، متلائمان مع دلالة اسم السورة الداعي إلى الاجتهاد في القيام بتكاليف الإيمان، وبيان مصير من آثر الراحة على تكاليف الإيمان.

ثالثاً: ثم جاء في الخاتمة التخفيف على النبي ﷺ ومن آمن معه فيما يتعلق بقيام الليل، فأمرهم بقراءة ما تيسر من القرآن في قيام الليل، وذلك لعلمه سبحانه بأصحاب الأعداء من المرضى ومن يضرب في الأرض ابتغاء للرزق وللجهاد في سبيل الله، وكما افتتحت السورة بأمر النبي ﷺ بترك الراحة، وأمرته بقيام الليل والاجتهاد في القيام بتكاليف الدعوة، وذكر ربه والتوكل عليه، ختمت أيضاً بأمر النبي ﷺ والمؤمنين معه بالاستعانة بقيام الليل والاجتهاد بالقيام بتكاليف الإيمان من صلاة وزكاة واستغفار: ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا

الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا
وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ (بعض الآية : ٢٠)، وهكذا التقى البدء والختام على محور
الاجتهاد في القيام بتكاليف الإيمان والاستعانة بصلاة قيام الليل ، وهو المحور الذي دلّ
عليه اسم السورة .



سورة المزمل

سورة الدعوة إلى الاستعانة بقيام الليل على تكاليف الإيمان

<p>الموضوع الثالث: (الآية ٢٠)</p> <p>الخاتمة المؤكدة لما سبق:</p> <p>■ خفت عن النبي ﷺ وعن أمته فيما يتعلق بقيام الليل، فأمرت بقراءة ما تيسر من القرآن في قيام الليل، رحمة بالمرضى والمهاجرين في الأرض ابتغاء الرزق والجهاد.</p> <p>■ وكما افتتحت السورة بأمر النبي ﷺ بترك الراحة والاستعانة بقيام الليل على تكاليف الدعوة، ختمت بالأمر ذاته مع الدعوة لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاستغفار: ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَئْسَرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجُوٌّ وَالْآخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَالْآخِرُونَ يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا يَئْسَرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَقَرِضُوا لِلَّهِ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا نُقِضْهُ إِلَّا فَتْحًا مِنْ خَيْرٍ يُجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ نَجْرًا وَأَسْتَفِرُّوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾.</p>	<p>الموضوع الثاني: (الآيات: ١١-١٩)</p> <p>بيان مصير الكافرين الذين آثروا راحة الدنيا على تحمّل تكاليف الإيمان:</p> <p>■ ثم انتقل السياق إلى بيان موقف الكافرين، وبيّن أنهم آثروا نعيم الدنيا على الإيمان بالله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّفْسَةِ وَمَهَلْهُمُ قَلِيلًا ۝١١﴾.</p> <p>■ وبيّن أنهم يستحقّون العذاب يوم القيامة: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غَضَبٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣﴾ فهم لا يشارهم راحة الدنيا على الإيمان، استحقّوا العذاب الشاقّ الدائم في القيامة.</p> <p>■ وأكد السياق استحقاق الكافرين للهلاك بعرض أنموذج كفر سابق آثر راحة ونعيمها على تحمّل تكاليف الإيمان: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْهِمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى قُرْعَانَ رَسُولًا ۝١٤ فَعَصَى قُرْعَانُ الرُّسُولَ ۝١٥ فَأَخَذْتَهُمْ أَخَذًا وَبِيلًا ۝١٦﴾.</p>	<p>الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٠)</p> <p>المقدمة التي تدعو النبي ﷺ إلى الاستعانة بقيام الليل على أعباء الدعوة:</p> <p>■ افتتحت السورة بأمر النبي ﷺ بترك التزمل الذي يدعوه إليه الخوف من القيام بمهمة الدعوة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ ۝١ قُمْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾.</p> <p>■ وأمرته بالاستعانة أيضاً بالإكثار من ذكر الله والتبثّل إليه: ﴿وَأَذْكُرْ أَنْتَ رَبَّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾.</p> <p>■ وأمرته بالصبر على مشاق الدعوة: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْبِزْهُمْ هَزَبًا جَمِيلًا﴾.</p>
---	---	--

سورة المدثر

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَنِبَاكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن منظور رحمه الله: «الدثار: الثوب الذي يستدفأ به . . يقال: تدثر فلان بالذثار تدثراً واذثر اذثاراً، فهو مُدَثِّر، والأصل: متدثر، أدغمت التاء في الدال وشدّدت»^(١)، وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود أيضاً إلى وصف حالة النبي ﷺ في فترة الوحي أول البعثة، حينما رأى جبريل عليه السلام بين السماء والأرض، فأسرع إلى بيته وقال لخديجة رضي الله عنها «زملوني زملوني، فدثروني»^(٢)، فاسم السورة يدل على أمر النبي ﷺ بعدم الخوف الذي يدعوه إلى التدثر، والنهوض إلى القيام بمهمته وإنذار قومه.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم هذه السورة ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن من مقاصد هذه السورة دعوة النبي ﷺ إلى الجدّ والاجتهاد والتشمير وحمل النفس على النهوض بالتبعية الكبرى، ومواجهة قريش بالدعوة والإنذار جهاراً وكافة، وهو أمر سيطرّب عليه مشاق كثيرة متنوّعة بحاجة إلى استعداد كافٍ^(٣).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: تهيئة النبي ﷺ للاجتهاد والاستعداد لإنذار قومه بالقرآن وما فيه من الترهيب بالآخرة وأهوالها، مع بيان

(١) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج ٥، ص ٢١٦، بتصرف.

(٢) سبق تخريج الحادثة المذكورة في سورة المزمل السابقة.

(٣) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٣٧٣، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٢٢٠، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٧٥٢، ٣٧٥٤، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٩، ص ٢٩٣، وأ.د. مسلم، التفسير الموضوعي، م ٨، ص ٤٥٠، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور، ص ٣١٧-٣٢٠.

مصير المكذّبين بالقرآن وبيوم القيامة، فاسم السورة - الذي يدعو النبي ﷺ إلى ترك التدنّس - يدل على هذا المحور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة الدعوة إلى الاجتهاد بالإنذار بالقرآن والآخرة.

وبتأمل موضوعات السورة يظهر الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: مقدّمة تدعو النبي ﷺ إلى الاجتهاد في إنذار قومه والصبر على ذلك، ثم بيان مصير المكذّبين بالقرآن العظيم يوم القيامة، وخاتمة مؤكّدة لما سبق^(١).

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٧، وبيان مصير المكذّبين: ٨-٤٨، والخاتمة: ٤٩-٥٦. ومن لطائف هذه السورة: أنها كسابقتها امتازت بألفاظ وعبارات لم تذكر في موضع آخر من القرآن متلائمة مع الأمر بالاجتهاد للقيام بتكاليف الدعوة، ومع بيان حال الكافرين، وإليك تفصيل ذلك: أولاً: من هذه الألفاظ والعبارات ما هو متعلّق به ﷺ: (أ) فعل الأمر «قم» هنا وفي المزمّل فقط، (ب) ﴿وَيَايَاكَ فَطَقَّرْ﴾، (ج) ﴿وَالرَّجَزَ فَأَهْجُرْ﴾، (د) ﴿وَلَا تَمُتْ تَنْكَبُزْ﴾. هن فقط، أما ﴿وَرَبَّكَ تَكْذِبْ﴾ فقد جاء قريب منه في سورة الإسراء: ﴿وَكِبْرُهُ تَكْبِيرٌ﴾، وأما ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ فقد أمر ﷺ بالصبر في مواضع متعدّدة لكن ليس بهذه الصيغة، ثانياً: ومن هذه الألفاظ والعبارات ما هو متعلّق بالكافرين بالقرآن العظيم وبالأخرة: (أ) لم يعبر عن النفخ في الصور بعبارة ﴿يُفْرَى فِي الْأَنْفُورِ﴾ إلا هنا، (ب) وصف يوم القيامة بأنه ﴿يَوْمٌ غَيْرٌ ۖ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ لم يذكر إلا هنا، وقريب منه في سورة الفرقان: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرًا﴾، (ج) وصف عذاب الكافر بالقرآن بعبارة ﴿سَأُفْقَعُ صَعُودًا﴾ وبعبارة ﴿نَقِيلُ كَيْفَ نَقَرٌ ۖ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرٌ﴾، (د) لم يذكر اسم «سقر» إلا هنا ثلاث مرات مع ذكر عدتها من الملائكة: ٢٦، ٢٧، ٤٢، وفي سورة القمر مرة واحدة: ٤٨، ولا يخفى اشتراك السورتين بفاصلة الرءاء، هذا وقد اشتركت سورتا المزمّل والمدنّر في أحد جوانب المحور الخاص لكل منهما، وقد أشار الأستاذ بسام جرار إلى الفرق بين محور السورتين لدى مراجعته لكتاب من دلالات أسماء السور، فقال: «في المزمّل طلب القيام لبناء النفس، وفي المدنّر طلب القيام لواجب الدعوة إلى الله تعالى»، ينظر: ص ٣٢٠، وإليك بعض مظاهر التناسق بين السورتين: أولاً: ابتدأت السورتان بنداء للنبي ﷺ وأتبعته بذلك بفعل الأمر «قم»، ثانياً: في أول سورة المزمّل أمر النبي ﷺ بصلاة قيام الليل، وكذلك في آخرها أمر هو ومن معه بالصلاة والزكاة والنفقة، وقد كان أول اعتراف للمجرمين المعذّبين في سقر كما تذكر سورة المدنّر أنهم لم يكونوا من المصلّين ولم يكونوا يطعمون المسكين، ثالثاً: انظر قوله تعالى في سورة المزمّل ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾: ١٧، وانظر في سورة المدنّر: ﴿لَا يَلَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾: ٥٣، رابعاً: وصف حال الكافرين في سورة المزمّل بـ ﴿أُولَى الْأَنْفَمَةِ﴾: ١١، وانظر قوله تعالى في سورة المدنّر: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَا لَا مَثَلُودًا ۖ وَبَيْنَ شُهُودًا﴾: ١٢ و١٣، خامساً: وصف القرآن بـ (التذكّرة) جاء في سورة المزمّل مرة واحدة: ١٩، وفي سورة المدنّر مرتين: ٤٩، ٥٤، ولم تذكر هذه اللفظة مرتين في سورة أخرى غير المدنّر، سادساً: انظر في سورة المزمّل قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يُعَذِّبُ الْقَلِيلَ

أولاً: جاء في مقدمة السورة أمر للنبي ﷺ بالقيام والاجتهاد في إنذار قومه، والاستعداد لما يتطلبه ذلك من تطهير النفس وتركيتها، والصبر على القوم: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ١ قُمْ فَأَنْذِرْ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ٣ وَتَبَّكَ فَطَهِّرْ ٤ وَالْزَجَرَ فَاهْبُتْ ٥ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ٧﴾، فهو ﷺ مأمور بأن يصدع بدعوة التوحيد واتخاذ الله الكبير إلهاً فقط، فليس دونه آلهة سبحانه، ولاحظ قوله تعالى ﴿وَتَبَّكَ فَطَهِّرْ﴾ وهو إما أن يدل كناية عن تطهير النفس وتركيتها، أو أن يدل حقيقة على تطهير الثياب للصلاة، وعلى الاعتبارين فهو متناسق مع دلالة اسم السورة، وهو ﷺ مأمور بترك ما يستقبح من عادات الجاهليين الباطلة، وأن يترك أجر دعوته على الله تعالى فيجازه كيف يشاء من فضله، وأن يصبر ابتغاء وجه ربه سبحانه، فأنت تلاحظ أن المقدمة تهتئ النبي ﷺ للاستعداد التام للإنذار قومه بما أوحاه الله إليه، ولا يخفى تناسق ذلك مع دلالة اسم السورة.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى بيان مصير المكذبين بالقرآن العظيم وبالأخرة: ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأُنْفُورِ ٨ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ١٠ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ١١﴾، ولاحظ التعبير عن النفخ في الصور بالنقر في الناقور، وهو متناسق مع الأمر «قم»، ولاحظ أن السياق خصص عرض مصير الكافر بآيات الله في ذلك اليوم ليكمل التناسق مع المحور المذكور ودلالة اسم السورة: ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِنَا عِنْدًا ١٢ سَأَرْفَعُهُمْ صَعُودًا ١٣ إِنَّهُمْ فَكَّرُوا وَقَدَّرَ ١٤ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَرُوا ١٥ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَرُوا ١٦ ثُمَّ نَظَرَ ١٧ ثُمَّ عَسَى وَبَسَّ ١٨ ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ١٩ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ٢٠ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ٢١ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ٢٢﴾، ولاحظ التفصيل في عرض موقفه من القرآن، فهو متردد في اتخاذ وصف له، وبمناسبة الحديث عن الإنذار بما في الآخرة من عذاب لأمثال هذا الكافر بآيات الله، فصل السياق في وصف سقر وعدتها من الملائكة، ولاحظ أيضاً اختيار اسم «سقر» المتناسق مع الأمر «قم». وما من ريب أن حرف الاستعلاء (القاف) أبلغ في الإنذار في الألفاظ المستخدمة لهذا الغرض.

ثم عاد السياق إلى بيان أن هذا القرآن بما يحويه من الترهيب بالآخرة وعذاب النار،

= وَأَنْتَ أَكْبَرُ ٢٣، وانظر في سورة المدثر: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ٢٤ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ٢٥ وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْرَقَ ٢٦﴾: ٣٢-٣٤، وسابعا: جاء في آخر آية من سورة المزمل قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وانظر آخر آية في سورة المدثر: ﴿هُوَ أَقْلُ النَّفَرِ وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ﴾. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

إنما هو بمثابة نذير للبشر: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ٢٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ٢٣ وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرَ ٢٤ إِنَّمَا لِيَخْذَى الْكُفْرَ ٢٥ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ٢٦ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ٢٧﴾، ولاحظ التعبير بإدبار الليل وإسفار النهار، المتناسق مع دلالة اسم السورة، فكأن السياق يبين للنبي ﷺ في هذه السورة أن مهمته إنذار قومه بهذا القرآن في النهار، بينما في سورة المزمل كان الأمر بعبادة الله تعالى مخلصاً في الليل، ثم فصل السياق في مصير المكذبين بآيات الله تعالى وما فيها من الإنذار والأمر بطاعة الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ ٢٨ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ٢٩ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ ٣٠ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ٣١ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ٣٢ قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ الْمَصْلِينَ ٣٣ وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ ٣٤ وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْفَاضِينَ ٣٥ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ٣٦ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ٣٧ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ ٣٨﴾، وذكر الصلاة أولاً باعتبارها أبرز مظاهر العبودية لله تعالى، وعرض موقفهم من القرآن وما ينذر به من حقائق الآخرة، فقد كانوا يخوضون مع أهل الباطل في الصّد عنه واتخاذ موقف المعادي له، وكانوا يكذبون بالآخرة، وهذا متنسق مع ما بينه السياق من موقف الكافر ومصيره يوم القيامة قبل قليل.

إذا فالسياق يبين أن مهمة النبي ﷺ الاجتهاد في إنذار قومه بهذا القرآن وما يحويه من الترهيب بحقائق الآخرة وأحوالها، ويبين موقف الكافرين من هذا الإنذار، وذلك متنسق مع دلالة اسم السورة.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لكل ما سبق، فقد أعادت بيان أن دعوة النبي ﷺ بهذا القرآن إنما هي بمثابة تذكرة للبشر: ﴿فَمَا لَمْ يَنْتَهِ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ٤١ كَانَهُمْ حُمُرٌ مَنَافِرَةٌ ٤٢ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ٤٣ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً ٤٤ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ٤٥﴾، ولاحظ وصف النبي ﷺ وهو ينذر قومه بهذا القرآن بالقُسورة، وهي تحوي حرف القاف المتسق مع الأمر «قم» ومع لفظة «سَقَر»، ليكون ذلك أظهر في الدلالة على المحور المذكور وأكثر تناسقاً مع اسم السورة.

وكما افتتحت السورة بأمر النبي ﷺ بالاجتهاد في إنذار قومه بهذا القرآن لعلهم يتذكرون، ختمت بالدعوة إلى الانتفاع بما فيه من التذكرة، فمن شاء ذكره: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ تَذْكِرَةٌ ٥١ فَمَنْ شَاءَ ذَكُرُوا ٥٢ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقَوَى وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ ٥٣﴾، وهكذا التقى البدء والختام على محور أمر النبي ﷺ بالاجتهاد في إنذار قومه بهذا القرآن وبالآخرة، وعرض موقف قومه منه، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة المدثر

سورة الدعوة إلى الاجتهاد بالإنذار بالقرآن والآخرة

الموضوع الثالث: (الآيات:

(٤٩-٥٦)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ وصفت إنذار النبي ﷺ قومه بالتذكيرة وبيّنت موقفهم منه: ﴿فَمَا لَمْ يَنْتِ التَّذِكُّرَةُ مُعْرِضِينَ ۚ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿كَانَهُمْ حُمْرٌ مُّنتَفِرَةٌ ۖ﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ۖ﴾ ﴿٥٣﴾

■ وأعادت بيان عدم إيمانهم بما ينذرهم به ﷺ من الآخرة: ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ۖ﴾ ﴿٥٤﴾

■ وكما افتتحت السورة بأمر النبي ﷺ بالاجتهاد في الإنذار بالقرآن وما فيه من التحذير من الآخرة، ختمت بالدعوة إلى الانتفاع بما فيه من التذكيرة: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ۖ﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿شَاءَ ذَكْرٌ ۖ﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُوَى وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ ۖ﴾ ﴿٥٧﴾

الموضوع الثاني: (الآيات: ٨-٤٨)

بيان مصير المكذّبين بالقرآن والآخرة:

■ ثم عرض السياق مصير المكذّبين بالآخرة: ﴿فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ ۚ﴾ ﴿٨﴾ ﴿فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۚ﴾ ﴿٩﴾ ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ عَذِّبٌ ۖ﴾ ﴿١٠﴾

■ ثم بيّن موقفهم من القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ﴾ ﴿١١﴾ ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۖ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۖ﴾ ﴿١٣﴾

■ وبيّن مصيره يوم القيامة: ﴿سَأُصْلَبُ سَقَرٌ ۖ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا سَقَرٌ ۖ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۖ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿لَوَاقِعٌ لِلْبَشَرِ ۖ﴾ ﴿١٧﴾

■ وبيّن السياق أن الذي أدخل الكافرين في سقر هو عدم إيمانهم بما أنذرهم به النبي ﷺ من القرآن والآخرة: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۖ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿قَالُوا لَوْ نَكُنْ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۖ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿وَلَوْ نَكُنْ نَاطِقِينَ ۖ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْفَاطِيْنِ ۖ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ ۖ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿يَوْمَ الَّذِينَ ۖ﴾ ﴿٢٣﴾

الموضوع الأول:

(الآيات: ١-٧)

المقدمة التي تدعو النبي ﷺ إلى الاجتهاد في إنذار قومه والصبر على ذلك:

■ افتتحت السورة بأمر النبي ﷺ بترك التدثر، والاجتهاد في الإنذار: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۖ﴾ ﴿١﴾ ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ ۖ﴾ ﴿٢﴾ ﴿وَرَبُّكَ كَرِيمٌ ۖ﴾ ﴿٣﴾

■ وأمرته بالاستعداد لما يتطلبه الإنذار من تطهير النفس وتركيتها: ﴿وَيَا بَكَ ۖ﴾ ﴿٤﴾ ﴿طَهِّرْ ۖ﴾ ﴿٥﴾ ﴿وَالْزَكَاةَ فَانْهَ ۖ﴾ ﴿٦﴾

■ وأمرته بالصبر على أمر الله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۖ﴾ ﴿٧﴾

سورة القيامة

﴿لَا أُقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۝ وَلَا أُقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ ۝ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ
يَجْمَعَ عِظَامُهُ ۝ بَلَىٰ قَدْ رَيْنَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ ۝﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام الأصفهاني: «قام يقوم قياماً، فهو قائم، وجمعه: قيام، والقيامة: عبارة عن قيام الساعة المذكور في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ (الروم: بعض الآية ١٢)، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (المطففين: ٦)، والقيامة أصلها ما يكون من الإنسان من القيام دفعة واحدة»^(١). وزاد الإمام ابن منظور: «يوم القيامة: يوم البعث، يقوم فيه الخلق بين يدي الحي القيوم، قيل: أصله مصدر: قام الخلق من قبورهم قيامة»^(٢). وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى القسم بيوم القيامة الدال على قدرة الله على بعث الناس ليقوموا بعد موتهم بين يدي الله، والقسم باسم السورة يدل على أن يوم القيامة أمر لا مفرّ منه.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أنها تتضمن تعظيم الله عز وجل الذي لا يتناهى ثوابه وعقابه في ذلك اليوم، وقد أكد ذلك أنها ذكرت قيام الناس بعد الموت إلى ساحة الحساب، فاسم السورة يشير إلى العلاقة المترابطة بين النفس البشرية ويوم القيامة، وأن يوم القيامة يوم لا مفرّ منه^(٣).

(١) الأصفهاني، المفردات، ص ٦٩٠.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج ١٢، ص ٢٢٩. بتصرف.

(٣) ينظر: الفيروزآبادي، البيان بمقاصد سور القرآن، ص ١٢١، المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٣٦٧، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٢٤١، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٧٦٦. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٩، ص ٣٣٧، والصابوني، صفوة التفاسير، ج ٣، ص ٤٥٨، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٤٨٩، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٣٢١.

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السور هو: إثبات أن البعث ليوم القيامة أمر لا مفرّ منه، من خلال بيان القدرة الإلهية على الخلق أول مرة، فالقادر على الخلق أول مرة، قادر على البعث ليوم القيامة، فاسم السورة يدل على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان أن يوم القيامة أمر لا مفرّ منه.

وبتأمل موضوعات السورة يظهر الترابط بين دلالة اسم السورة وموضوعاتها، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام، أولها: مقدّمة تبيّن استبعاد الإنسان المكذب وقوع يوم القيامة مع الرّدّ عليه، وثانيها: ذكر بعض أحداث ذلك اليوم تؤكد أنه لا مفرّ منه، وفي وسطها تثبيت لقلب النبي ﷺ، وثالثها: خاتمة مؤكّدة لما سبق^(١).

أولاً: جاءت المقدّمة تحوي قسماً بذلك اليوم العظيم، وتبيّن موقف الإنسان الذي يسأل عن موعد القيامة مستبعداً وقوعها: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ❶ وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَأَمَةِ ❷ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَنُ أَنَّ تَجْمَعُ عِظَامُهُ ❸ بَلَى قَدَرِينَ عَلَيَّ أَنْ شَوَى بَنَانَهُ ❹ بَلَى يُرِيدُ الْإِنْسَنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ❺ يَنْتَلِ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ❻، ولاحظ بيان قدرة الله على بعث الأجساد ليوم القيامة حتى لو أكلتها الأرض، وأن يجعل أصابع الإنسان خلقاً سوياً كما كانت قبل موته، ولا يخفى تناسق ذلك مع دلالة اسم السورة على أن يوم القيامة آتٍ مهما فَجَرَ الإنسان وتغافل عنه أو كَذَّب بوقوعه.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن بعض مشاهد ذلك اليوم، واللطيف أن السياق

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١ - ٦، وأحداث يوم القيامة: ٧ - ٢٥، والخاتمة: ٢٦ - ٤٠. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة ببيان قدرة الله على الخلق والبعث: أ) فقوله ﴿أَيْحَسِبُ الْإِنْسَنُ أَنَّ تَجْمَعُ عِظَامُهُ﴾: ❸، لم يتكرر في القرآن، ب) وكذلك قوله ﴿بَلَى قَدَرِينَ عَلَيَّ أَنْ شَوَى بَنَانَهُ﴾: ❹، ج) وقوله ﴿أَيْحَسِبُ الْإِنْسَنُ أَنْ يُفْجِرَ سُنَّتَهُ﴾: ❺، ثانياً: ومنها أمور متعلقة ببيان أن يوم القيامة لا مفرّ منه: أ) فقوله تعالى ﴿يَقُولُ الْإِنْسَنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْزُ﴾: ١٠، لم يتكرر، ب) وكذلك قوله ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾: ١١، ج) وقوله ﴿إِلَّا رَيْكَ يَوْمَئِذٍ النَّفْثُ﴾: ١٢، د) وقوله ﴿إِلَّا رَيْكَ يَوْمَئِذٍ النَّفْثُ﴾: ٣٠. وهذه السورة هي الوحيدة التي أقسم الله فيها بيوم القيامة. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

عقب على سؤال الإنسان المستبعد لوقوع ذلك اليوم بنقله إلى مشاهد ذلك اليوم بالظرف المقرون بالفاء المفيدة سرعة التعقيب: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (٦) ﴿إِذَا رَأَوْا تَبْعَهُ﴾ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَتَيْنَ الْفَرُّ (١٠) ، وكأن الإنسان لم يكذب ينهي سؤاله إلا وقد أصبح يرى مشاهد ذلك اليوم بعينه. وذلك فيه مزيد تأكيد على قدرة الله على البعث، ولاحظ قوله تعالى الذي يفيد أنه لا مفر من حقيقة البعث: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ (١١) إِنْ رَأَيْكَ يَوْمَئِذٍ الْمُنْتَفِرِ (١٢) .

وفي خلال ذكر تلك الأحداث يأتي أمر للنبي ﷺ بعدم التعجل في حفظ القرآن، لأن الله قد تكفل بحفظ القرآن في قلبه ﷺ، والعلاقة بين محور السورة وهذه التوجيهات واضح، فإن القادر على جمع عظام الإنسان بعد موته، وجعل لحسابه يوماً لا مفر منه، قادر على جمع القرآن في قلب النبي ﷺ، وإن الذي خلق الإنسان ولم يتركه سُدى، هو الذي أقام عليه الحجة في ذلك القرآن الذي حفظه من النسيان والتحريف.

ثالثاً: وجاءت الخاتمة لتؤكد ما سبق، فتحدثت عن حالة احتضار الإنسان للموت، وأنه لن يمنع حينئذ من خروج الروح مانع، واللطف أيضاً أن السياق قد عقب على تلك الحالة بذكر مشهد سَوْقِ الناس إلى ربهم في يوم القيامة، وكأن الإنسان بمجرد موته قد أصبح من أهل تلك المشاهد الأخروية: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الرَّاقِيَ﴾ (١٣) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (١٤) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (١٥) وَالْقَبْرِ السَّاقِ إِلَى السَّاقِ (١٦) إِنْ رَأَيْكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقِ (١٧) ، وهذا فيه مزيد تأكيد على قدرة الله على بعث الناس للقيامة كما لا يخفى.

فالخاتمة ذكرت الإنسان بأصله وأنه لن يترك سُدى، وأثبتت أن الذي خلق الزوجين الذكر والأنثى من النطفة، هو القادر على أن يحييهم ليوم القيامة: ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مِمِّي بُنِي (١٨) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (١٩) لَجَعَلَ مِنْهُ الْزَوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٢٠) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدَرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْتَوْنِ﴾ . وهكذا يلتقي البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور، فكما افتتحت السورة ببيان أن الله قادر على بعث الناس ليوم القيامة بعد موتهم، ختمت بتأكيد قدرة الله على ذلك ببيان أنه هو الذي خلق الناس أول مرة، فهو المبدئ المعيد سبحانه، وهذا ما دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة القيامة

سورة بيان أن يوم القيامة لا مفرّ منه

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٦-٢٠)

(٤٠)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أكدت قدرة الله على بعث الناس ليوم القيامة، ببيان أنه تعالى جعل الموت أمراً لا مفرّ منه، كذلك القيامة أمر لا مفرّ منه: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الْقَرَابَةَ ۖ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۖ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ۖ وَالَّذِي تَأْتِي الْفَسَاقُ ۖ﴾ (٢٦) ﴿إِنِّي رَجَعْتُ إِلَى الْفَسَاقِ ۖ﴾ (٢٧) وأعادت التأكيد على أن الله لن يترك الإنسان سُدىً، بل سيبعثه ليوم القيامة ويجازيه بأعماله: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۖ﴾ (٢٨) وكما افتتحت السورة ببيان أن الله قادر على بعث الناس بعد موتهم، ختمت بتأكيد ذلك ببيان أنه الذي خلقهم أول مرة فهو المبدئ المعيد سبحانه: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۖ﴾ (٢٩) ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (٣٠) ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (٣١) ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (٣٢) ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (٣٣) ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (٣٤) ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (٣٥) ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (٣٦) ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (٣٧) ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (٣٨) ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (٣٩) ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (٤٠).

الموضوع الثاني: (الآيات: ٧-٢٥)

عرض لبعض أحداث يوم القيامة تؤكد أنه لا مفرّ منه:

■ ثم ردّ السياق على المكذّب المستبعد وقوع القيامة: ﴿إِنَّا بِقَٰرِعِ الْبَصَرِ ۖ﴾ (٧) ﴿وَحَسَفَ الْقَمَرُ ۖ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۖ﴾ (٨) ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَتَيْنَ الْغَرَّةَ ۖ﴾ (٩) ■ وبين أنه لا مفرّ من ذلك اليوم: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۖ﴾ (١٠) ﴿إِنِّي رَجَعْتُ إِلَى الْغَرَّةِ ۖ﴾ (١١) ■ وبين السياق أن الله القادر على جمع الناس ليوم القيامة قادر على جمع القرآن في قلب النبي ﷺ، وأن الله خلق الإنسان ولم يتركه سُدىً، قادر على حفظ كتابه من التحريف: ﴿كَلَّا نَحْنُ نَحْكُمُ بِحُكْمِ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ لِّمَا كَانُوا فِي شَكٍّ ۖ﴾ (١٢) ﴿لَٰكِنَّا نَحْكُمُ بِحُكْمِ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ لِّمَا كَانُوا فِي شَكٍّ ۖ﴾ (١٣) ﴿لَٰكِنَّا نَحْكُمُ بِحُكْمِ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ لِّمَا كَانُوا فِي شَكٍّ ۖ﴾ (١٤) ﴿لَٰكِنَّا نَحْكُمُ بِحُكْمِ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ لِّمَا كَانُوا فِي شَكٍّ ۖ﴾ (١٥) ﴿لَٰكِنَّا نَحْكُمُ بِحُكْمِ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ لِّمَا كَانُوا فِي شَكٍّ ۖ﴾ (١٦) ﴿لَٰكِنَّا نَحْكُمُ بِحُكْمِ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ لِّمَا كَانُوا فِي شَكٍّ ۖ﴾ (١٧) ﴿لَٰكِنَّا نَحْكُمُ بِحُكْمِ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ لِّمَا كَانُوا فِي شَكٍّ ۖ﴾ (١٨) ﴿لَٰكِنَّا نَحْكُمُ بِحُكْمِ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ لِّمَا كَانُوا فِي شَكٍّ ۖ﴾ (١٩) ﴿لَٰكِنَّا نَحْكُمُ بِحُكْمِ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ لِّمَا كَانُوا فِي شَكٍّ ۖ﴾ (٢٠).

■ ولكي يؤكد السياق قدرة الله على جمع الناس ليوم القيامة الذي لا مفرّ منه، عرض مصير المؤمنين ومصير الكافرين في ذلك اليوم: ﴿وَبُعِثُوا يَوْمَئِذٍ ۖ﴾ (٢١) ﴿نَاصِرَةٌ ۖ﴾ (٢٢) ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۖ﴾ (٢٣) ﴿وَبُعِثُوا يَوْمَئِذٍ ۖ﴾ (٢٤) ﴿بَاسِرَةٌ ۖ﴾ (٢٥) ﴿تَنْظُرُ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۖ﴾ (٢٦).

الموضوع الأول:

(الآيات: ١-٦)

المقدمة التي تبين استبعاد الإنسان المكذّب وقوع يوم القيامة مع الردّ عليه: ■ افتتحت السورة ببيان قدرة الله على بعث الناس ليوم القيامة، كما هو قادر على خلقهم أول مرة: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (١) ﴿وَلَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (٢) ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (٣) ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (٤) ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (٥) ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (٦) ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (٧) ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (٨) ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (٩) ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (١٠) ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (١١) ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (١٢) ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (١٣) ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (١٤) ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (١٥) ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (١٦) ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (١٧) ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (١٨) ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (١٩) ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ﴾ (٢٠).

سورة الإنسان

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝ إِنَّا آَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكَنًا وَلَأَغْلِقَنَّ أَعْيُنَهُمْ فَاصْبِرْ ۝ إِنَّ الْآَبَرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى بيانها أن الله تعالى هو خالق الإنسان إذ لم يكن شيئاً مذكوراً، فخلقه الله من نطفة أمشاج، وجعل له السمع والبصر، وبيّن له سبيل الهداية والإيمان والشكر من سبيل الضلال والجحود والكفر، ثم بيّنت مصير الفريق يوم القيامة، فاسم السورة يدل على أن المفترض من الإنسان أن يكون مؤمناً شاكراً لربه لينال النعيم الخالد يوم القيامة، لا أن يكون كفوراً جاحداً فيستحقّ العذاب الخالد يوم القيامة.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أنها بمثابة هتاف نديّ إلى الطاعة والالتجاء إلى الله وابتغاء رضاه، وتذكّر نعمته والإحساس بفضلله وافتقاره، وذلك بحديثها عن أصل الإنسان وبيان مصيره الذي يختاره، وبترويجها بطريق الجنة وتحذيرها من طريق النار، وختمها ببيان عاقبة البلاء لهذا الإنسان، فاسم السورة يشعر أن الحكمة أن يؤول الإنسان إلى مآل أهل الشكر، لا لمآل أهل الكفر، فمن أراد أن يكون شيئاً مذكوراً، فليكن شاكراً لا كفوراً^(١).

(١) ينظر: المهاييم، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٣٧٨، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٢٥٩، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٧٧٧-٣٧٧٩، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٩، ص ٣٧١، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٨، ص ٥٠٧، ٥٠٨، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ص ٤٩١، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٣٢٤-٣٢٦.

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: دعوة الإنسان إلى الإيمان والعمل الصالح لنيل الأجر العظيم الدائم حين بعث الإنسان للحساب يوم القيامة، وهو اليوم الذي يتلهى عنه الإنسان الكافر مع علمه بقدرة الله عليه، فهو الذي خلق الإنسان أول مرة إذ لم يكن شيئاً، ولما كان في تسمية السورة بـ «الإنسان» دلالة على الفريقيين من «الإنسان» المؤمن منه والكافر، ودلالة على ما يجب على الإنسان من الإيمان والعمل الصالح كونه مخلوقاً لله، سُميت بهذا الاسم للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة دعوة الإنسان إلى القيام بما يجب عليه من العمل الصالح، ليكون مآله مآل أهل الإيمان والشكر، لا مآل أهل الجحود والكفر.

ويتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام، أولاً: مقدّمة تثبت قدرة الله على خلق الإنسان وبعثه وجزائه، ثانياً: التفصيل في عرض أعمال المؤمنين الشاكرين وجزائهم يوم القيامة للترغيب فيه، ثالثاً: خاتمة مؤكّدة لما سبق^(١).

أولاً: جاء في مقدّمة السورة إثبات لقدرة الله تعالى على الخلق والبعث، وبيّنت بإيجاز مصير الإنسان الكافر والإنسان المؤمن: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا

(١) مقدّمة السورة شملت الآيات: ١-٦، وعرض مصير الفريقيين: ٧-٢٢، والخاتمة: ٢٣-٣١، ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً منها أمور تثبت قدرة الله على الخلق: أ) فوصف الإنسان بقوله تعالى ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ ذكر هنا فقط: ١، ب) وصف النطفة بـ «الأمشاج» ذكر هنا فقط: ٢، ثانياً: ومنها أمور تؤكّد قدرته على البعث من خلال بيان مصير الإنسان الكافر: أ) فقله ﴿إِنَّا أَقْنَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا وَأَغْلَلْنَا وَصِيرًا﴾: ٤، ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، وقريب منه في سورة الرعد: ٥، وسبأ: ٣٣، ويس: ٨، وغافر: ٧١، ب) قوله تعالى ﴿إِنَّكَ هَؤُلَاءِ جُحُودٌ أَلْعَاجِلَةُ﴾: ٢٧، ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، وقريب منه جداً في سورة القيامة: ٢٠، وقريب منه في سورة الإسراء: ١٨، وأما قوله ﴿وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾: ٢٧، فلم يذكر إلا هنا، ثالثاً: ومنها أمور تؤكّد قدرته على البعث من خلال جزاء الإنسان المؤمن: أ) فقله تعالى ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَتْ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾: ٧، ذكر هنا فقط، ب) وهي الوحيدة التي تكررت فيها «الفضة» لوصف النعيم: ﴿بَيَاضٌ مِّنْ فِضَّةٍ﴾: ١٥، ﴿قَوَائِرًا مِّنْ فِضَّةٍ﴾: ١٦، ﴿أَسَاوِرٌ مِّنْ فِضَّةٍ﴾: ٢١. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَلَآ وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُونَ مِنْ كُلِّ مَيْسَرَةٍ مَرَجًا مَكْفُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرِبُ بِهَا عَبْدُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ ﴿١﴾ ، فكما أن الله قادر على خلق الإنسان وقد كان عدماً، فهو قادر على بعثه وجزائه، وقد ابتدأت السورة بعرض مصير الكافرين؛ لأنهم المخاطبون بالمقام الأول حين نزول هذه السورة المكية، وعرض مصير الفريقين دال بلا شك على قدرته تعالى على البعث والحساب.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى تفصيل لعرض الأعمال الصالحة التي يقوم بها الأبرار، حتى استحقوا الجزاء العظيم يوم القيامة: ﴿يُؤْتُونَ بِالْذِّكْرِ وَنَفَاقُونَ يَوْمًا كَانَ سُوءٌ مُسْتَقِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَمًا عَلَى حَبِّهِ، وَسَكِينًا وَتَيْمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لُؤْمِهِ اللَّهُ لَا تُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعْنَهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ ، فهم لإيمانهم باليوم الآخر وما فيه من الأهوال، يكثرون من الأعمال الصالحة بنية خالصة لله لينالوا الأجر في ذلك اليوم، وما من شك أن عرض أعمالهم وجزائهم يؤكد المحور المذكور، ثم إن اختصاص أعمال المؤمنين بالتفصيل في العرض دون الكافرين يؤكد دلالة اسم السورة على أن هذا الموقف هو ما يجب أن يكون عليه الإنسان.

وقد أكد السياق أن هذا الجزاء الذي هيأه الله للمؤمنين هو الذي ينبغي أن يسعى له الإنسان: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَرًا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿١٢﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُودٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوعًا أَسَاوِرٌ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿١٣﴾﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُنْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿١٤﴾﴾ .

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت الدعوة إلى الإكثار من العمل الصالح لنيل الأجر في اليوم الآخر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿١٥﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَائِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿١٦﴾ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١٧﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿١٨﴾﴾ ، وأعتقد أن اختصاص الذكر وقيام الليل بالعرض متلائم مع ما بيّنه السياق من أن الأبرار يعملون أعمالهم لوجه الله، فالذكر وقيام الليل أبعد الأعمال عن الرياء. وهذا يؤكد أن على الإنسان أن يعمل الأعمال الصالحة وبنية صالحة.

وكما افتتحت السورة بذكر قدرة الله تعالى على الخلق والبعث والجزاء وذكر مصير

الفريقين يوم القيامة ، ختمت بالتأكيد على القدرة على الخلق والبعث وذكر مصير الفريقين ، مع الدعوة إلى عدم التلهي بالدنيا عن الأعمال الصالحة التي تكون رصيذاً يوم القيامة :

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَقِيلًا ﴿٣٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمَثَلَهُمْ تَبَدُّلًا ﴿٣٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٣٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٤١﴾﴾ ،

وبذلك التقى البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور الذي دل عليه اسم السورة أبلغ الدلالة .



سورة الإنسان

سورة دعوة الإنسان إلى القيام بما يجب عليه من العمل الصالح، ليكون مآله مآل أهل الإيمان والشكر لا مآل أهل الجحود والكفر

الموضوع الأول:

(الآيات: ١-٦)

المقدمة التي تثبت قدرة الله على خلق الإنسان وبعثه وجزائه:

- افتتحت السورة بسؤال استنكاري يثبت قدرة الله على خلق الإنسان: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝﴾.
- ثم بينت أن الله أعطى الإنسان عقلاً يستطيع أن يختار به طريق الإيمان والشكر، أو طريق الجحود والكفر: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝﴾.

■ وعرضت بإيجاز مصير الكافرين: ﴿إِنَّا أَغْنَيْنَاهُم بِكُلِّ شَيْءٍ فَلَمْ يَرْغَبُوا بِذَلِكُمْ فَجَعَلْنَا لَهُمْ قُلُوبًا سُمْيَةً ۝﴾.

■ وعرضت بإيجاز مصير المؤمنين: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَنَّا يَشْتَبِ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٧-٢٢)

التفصيل في عرض أعمال المؤمنين

وجزائهم يوم القيامة للترغيب فيه:

■ ثم حث السياق على الإيمان والعمل الصالح لينال «الإنسان» الجزاء الذي أعدّه الله للمؤمنين: ﴿يُؤْتُونَ بِالنَّدْرِ وَيَحْفَظُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ مَسْكِينًا وَنَبِيًّا وَأَيَّدُوا ۝ إِنَّمَا نَطْمَعُكَ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ لَا نُزِيدُ مِثْرًا جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ۝﴾.

■ ثم فصل السياق في عرض جزائهم في ذلك اليوم: ﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَعْرَةً وَنُورًا ۝ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَخَيْرًا ۝﴾.

■ وأكد السياق أن هذا الجزاء الذي أعدّه الله للمؤمنين، هو الجزاء الذي ينبغي على «الإنسان» أن يسعى إليه بالعمل الصالح: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ تَشْكُورًا ۝﴾.

الموضوع الثالث:

(الآيات: ٢٣-٣١)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت الدعوة إلى الإكثار من العمل الصالح لنيل الأجر في الآخرة: ﴿وَأَذْكُرْ أَنَّم رَبِّكَ بَشْرًا وَأَصِيلًا ۝ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ۝﴾.

■ وحذرت من أن يكون موقف الإنسان موقف الجحود والكفر: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجْحُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَبِيلًا ۝﴾.

■ وكما افتتحت السورة بذكر قدرة الله على خلق الإنسان وبعثه، وبينت مصير الإنسان المؤمن والإنسان الكافر، ختمت بالدعوة إلى الإيمان والعمل الصالح مع بيان مصير الفريقين: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ ۝ فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ يَدْخُلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾.

سورة المرسلات

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١ فَالْعَصْفَاتِ ۝٢ وَالشَّيْرَتِ نَشْرًا ۝٣ فَالْفَرْقَتِ فَزًّا ۝٤ فَاَلْمُلَقَّاتِ زِكْرًا ۝٥ عُدْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفِّعُ ۝٧﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الراء والسين واللام: أصل واحد مطرد منقاس، يدلّ على الانبعاث والامتداد»^(١)، وقد زاد الإمام الأصفهاني رحمه الله: «والإرسال يكون في الإنسان، وفي الأشياء المحبوبة والمكروهة، وقد يكون ذلك بالتسخير كإرسال الريح والمطر»^(٢)، فاستخدام صيغة اسم المفعول لوصف الرياح المرسلّة يعطي دلالة كمال الانقياد والطاعة لمرسلها سبحانه، وأما الدلالة السياقية فتدلّ على وصف الرياح التي يرسلها الله تعالى بأمره حيثما يشاء وكيفما يشاء، فيجعلها سبباً من أسباب رزق العباد بما تسوقه من السحب المحمّلة بالغيث، فيحيي به الأرض بعد موتها.

أقوال بعض المفسّرين والكاتّين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتّين أوجهاً للربط بين اسم هذه السورة ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن المحور الذي تدور حوله هذه السورة هو إثبات اليوم الآخر من خلال بيان ما له تعالى من القدرة على إنبات النبات، وإنشاء الأقوات، فالسورة تسهم في تصحيح موازين القِيَم في حياة الناس، وبخاصة فيما يتعلق بالاعتقاد باليوم الآخر الذي هو حجر الأساس في العقيدة السماوية، وهو أيضاً حجر الأساس في تصوّر الحياة الإنسانية، فاسمها «المرسلات» إن كان يدل على تتابع إرسال الملائكة بمهامهم الخاصة بهم، يدل على تتابع أحداث يوم القيامة ومواقفه المذهلة، وإن كان الاسم يدل على الرياح المرسلّة

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٤٠٢.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ٣٥٣. وهو يرى أن المرسلات هي الملائكة لا الرياح.

فهو يدل على بيان قدرة الله من إنبات النبات وإنشاء الأقوات^(١).

ولكنني أعتقد أن الوجه الثاني لتفسير «المرسلات» أقرب للصواب، ويمكن تلخيص محور السورة بالقول بأنه: الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر من خلال بيان بعض مظاهر قدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة والبعث، ولما كانت الرياح التي تسوق السحاب الذي فيه الغيث لإحياء الأرض بعد موتها أدل ما في السورة على تلك المظاهر، اشتق من إرسال الله تعالى لها حيث يشاء اسم السورة ليدل على المحور المذكور. وسأبين أسباب ترجيح أن يكون اسم السورة وصفاً للرياح لا الملائكة بعد قليل إن شاء الله. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان مظاهر قدرته تعالى على الإحياء والإماتة في الدنيا، الدالة على قدرته على البعث لليوم الآخر.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: مقدمة تحوي قسماً على أن اليوم الآخر واقع لا محالة، ثم عرض لمشاهد وأحوال من يوم القيامة تبرز مصير الكافرين والمؤمنين في ذلك اليوم، ثم خاتمة مؤكدة لما سبق^(٢).

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٣٨٢، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٢٨١، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٧٨٩-٣٧٩٠، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢٩، ص ٤١٩، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٨، ص ٥٣٧. والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ٤٩٣-٤٩٥، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود منها بالدراسة.

(٢) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١-٧، ومشاهد اليوم الآخر: ٨-٤٤، والخاتمة: ٤٥-٥٠. ومن لطائف هذه السورة: أنها امتازت بعدة أمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، أولاً: تكرار عبارة ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ لِلْكَذِبِينَ﴾ عشر مرات، وهي عبارة فيها إنكار ووعد على منكري الآخرة، ثانياً: هي السورة الوحيدة في القرآن التي تكرر فيها وصف يوم القيامة بـ ﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾، وذلك ثلاث مرات: ١٣، ١٤، ٣٨، بينما ذكر هذا الوصف مرة واحدة في كل من السور التالية: الصافات: ٢١، والدخان: ٤٠، والنبأ: ١٧، ثالثاً: لم تذكر عبارة ﴿وَإِذَا النُّجُومُ طُيَسَتْ﴾ في سياق بيان أحوال يوم القيامة إلا هنا: ٨، وكذلك عبارة ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فَجَتْ﴾: ٩، وعبارة ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِفَتْ﴾: ١٠، وقريب منها في سورة طه ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾: ١٠٥، رابعاً: لم توصف الأرض بكونها ﴿كَفَانًا﴾ إلا هنا: ٢٥، بمعنى: جامعة البشر من أحياء وأموات، وذلك في سياق الدلالة على قدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة، وكذلك وصف أصل خلق الإنسان بـ ﴿مَاءٍ تَهَيَّيْنِ﴾: ٢٠. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

أولاً: جاء في المقدمة قَسَمَ بآيات الله الكونية وآياته المتلوة المتمثلة بوحيه إلى الأنبياء على أن يوم القيامة واقع لا محالة: ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا ۝١﴾ فَأَلْصَقْنَ عَصْفًا ۝٢﴾ وَالنَّشِيرَاتُ تَشِيرًا ۝٣﴾ فَأَلْفَرَقْنَ فَرَاقًا ۝٤﴾ فَأَلْمَلِكَيْنِ ذِكْرًا ۝٥﴾ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ۝٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفْعٍ ۝٧﴾ ، واعتقد أن الآيات الأربع الأولى تشير إلى دور الرياح في تجميع السحاب أو نشره وتفريقه حسب إرادة الله تعالى، فالرياح يرسلها الله متتابعة ويجعلها تعصف بالسحاب حتى تجمعها فيتراكم وينزل الغيث حيثما أراد الله، كما أنها تقوم بنشر السحاب وتفريقه في بقاع الأرض حسب إرادته سبحانه، ولاحظ وصف الرياح بالمرسلات، بصيغة اسم المفعول الدالة على أنها خالية من الإرادة، بل هي تسير وفق ما أراد مُرسلها سبحانه ابتداءً، ثم أسند إليها الأفعال الثلاثة: العصف والنشر والفرق، على طريقة المجاز العقلي - إسناد الفعل إلى غير فاعله - فالله تعالى يرسلها ثم كأنه يجعل لها دوراً في باقي الأفعال، وكلٌ حسب إرادته.

فإرسال الرياح لتجميع السحب ومن ثم نزول الغيث يمثل أعظم مظاهر الآيات الكونية التي يراها الناس عياناً كل يوم على قدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة، فكما يحيي البلاد الميتة بالغيث فتخرج النبات، كذلك هو قادر على إحياء الموتى، ويشهد لهذا التفسير الإشارة في هذه السورة إلى الأرض وما فيها من الماء الفرات الذي يسقي الله به الناس، ثم إن آية الرياح وما ينتج عنها من حياة للبشر يراها الناس بشكل يومي، أشد ترابطاً مع دلالة قوله ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ المتكرر عشر مرات في هذه السورة، من آيات الوحي الذي تلقاه الملائكة على الأنبياء والرسل، والله أعلم. ولذلك أرجح أن يكون اسم السورة «المرسلات» مشيراً إلى الرياح لا الملائكة.

أما الآيتان الخامسة والسادسة فهي تشير إلى دور الملائكة في إلقاء الوحي على الأنبياء والرسل، ليكون في ذلك إغذار من الله تعالى للناس وإنذار لهم. وهكذا اجتمعت الآيات الكونية مع آيات الوحي للقَسَم على أن يوم القيامة واقع لا محالة. فالآيات الأربع الأولى تدل على دور الرياح، والآيتان الخامسة والسادسة تدلان على الملائكة، والله أعلم.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض بعض أهوال يوم القيامة الذي يكذب به المكذبون: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۝٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ ۝١٠﴾ وَإِذَا الرَّسْلُ أُنْفَتْ ۝١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ

أُحِلَّتْ ﴿١٣﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ ، ولاحظ ذكر طمس النجوم، وأعتقد أنه متلائم مع حجب السحب التي تجمعها الرياح لنور النجوم أحياناً، وكذا انفراج السماء متلائم مع فرق الرياح للسحب، وذكر نسف الجبال متلائم مع دورها في زيادة نسبة تدفق مياه الأنهار بسبب ذوبان الجليد على قمم الجبال^(١). فالسورة تستشهد على أهوال يوم القيامة بآيات يراها الناس عياناً في حياتهم، ليكون ذلك أدعى لهم للإيمان بذلك اليوم. ولا يخفى ترابطها مع دلالة اسم السورة.

وقد قرّر السياق حقيقة قدرة الله تعالى على بعث البشر للحساب، فكما أهلك المكذّبين الأوائل وسيُبعثهم بالمكذّبين الأواخر، فكذلك هو قادر على بعث الجميع، وقد أكد السياق هذا المعنى أيضاً من خلال التذكير بأصل البشر: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢١﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢٢﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٣﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ ، ولاحظ وصف الماء بالمهين، ليكون ذلك أدلّ على كمال قدرة الله تعالى، فكما خلق الله تعالى البشر من هذا الماء المهين وقد كانوا عدماً، كذلك هو قادر على بعثهم بعد موتهم.

ثم أعاد السياق التذكير بآيات كونية يراها الناس يومياً في حياتهم، وهي متلائمة مع دور الرياح المرسلة: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كَفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْشً شَجَاجَةً وَأَشْجِينَ مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ ، فقد جعل الله تعالى الأرض جامعة لبني البشر جميعاً، فالأحياء على ظهرها، والأموات في بطنها، وذلك يدل على قدرته على البعث بلا شك، ولاحظ ذكر الجبال الرواسي الشامخات، ومعلوم أن لها دوراً في توفير الماء الفرات إذ تعتبر الجبال مستودعات للمياه لأن الغيث ينزل عليها أكثر من أي بقعة ثانية في الأرض. ثم إن ذوبان الجليد الذي يكون في قممها من أهمّ روافد مياه الأنهار^(٢)، وقد ذكرت تلاؤم ذكر الجبال مع أهوال يوم القيامة المذكورة أول السورة.

ومن اللطيف أن من الأهوال المذكورة يوم القيامة أن الله سيجعل للمكذّبين ظلاً ذا

(١) ينظر: أ. د. زغلول النجار، الأرض في القرآن الكريم، ص ٢٥٧. وأ. د. محمد راتب النابلسي، آيات الله في الأفاق، ص ١٤٢.

(٢) ينظر: المرجعان السابقان في الصفحة المشار إليها في كليهما.

ثلاث شعب، لا ظليل ولا يغني من اللهب، وأعتقد أن ذكر ذلك متلائم مع ما ينتج عن تجمع السحب التي تسوقها الرياح من الظّل، فالسورة كما ترى تستشهد على أهوال يوم القيامة بآيات يراها الناس بشكل يومي. فكما أنه قادر على خلق الظّل في الحياة الدنيا ليستظلّ به الناس من الحرّ، قادر على جعل الظّل يوم القيامة لا يغني من حرّ جهنم شيئاً.

وكما ذكرت السورة مصير المكذّبين، ذكرت مصير المؤمنين في ذلك اليوم: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ۝۱۱ وَفَوْكَهَ مِمَّا يَشْتَبُونَ ۝۱۲ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝۱۳﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝۱۴، ولاحظ ذكر كونهم في الظلال، لكنها ظلال حقيقية تحقق لهم الرفاهية التامة، ولا يخفى تلاؤم ذلك مع الظّل الناتج عن تجمع السحب، ولاحظ أنهم مأمورون بالأكل والشرب ليتحقّق لهم الهناء، وأعتقد أن ذلك متلائم مع ما ينتج عن تجمع السحب ونزول الغيث من إخراج الأرض خيراتها من طعام وشراب. فدلالة اسم السورة كما ترى منسجم مع سياقها كلّ.

ثالثاً: وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر من خلال ما يراه الناس من آيات كونية متعلقة بالرياح المرسلّة، ومن خلال الآيات التي تلقّيها الملائكة على الأنبياء والمرسلين، ختمت السورة بتهديد المكذّبين بتلك الآيات بنوعيّها: ﴿وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝۱۵ كُلُوا وَتَمَنَعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْزَمُونَ ۝۱۶ وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝۱۷ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَزْكُمُوا لَا يَزْكُمُونَ ۝۱۸ وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝۱۹﴾ فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ۝۲۰، فالخاتمة تعيد تذكيرهم بأن طعامهم الذي يتمتعون به إنما هو ناشئ عن نزول الغيث من السحب التي تجمعها الرياح كما قرّرت ذلك الآيات الأربع الأولى، ودعوتهم للركوع الذي هو مظهر عبادة وشكر الله تعالى، متلائم مع الآيات التي تلقّيها الملائكة على الأنبياء والرسل الداعية إلى عبادة الله وشكره كما قرّرت ذلك الآيتان الخامسة والسادسة، وبذلك التقى البدء والختام على محور الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر من خلال ما يراه الناس من مظاهر قدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة المرسلات

سورة بيان مظاهر قدرته تعالى على الإحياء والإماتة في الدنيا، الدالة على قدرته على البعث لليوم الآخر

الموضوع الأول: (الآيات: ٧-١)	الموضوع الثاني: (الآيات: ٨-٤٤)	الموضوع الثالث: (الآيات: ٤٥-٥٠)
<p>المقدمة التي تحوي قسماً على أن القيامة واقعة لا محالة:</p> <ul style="list-style-type: none"> ■ افتتحت السورة بقسم الله بالرياح التي يرسلها متتابعة، فيجعلها تعصف بالسحب وتشرها وتفرقها حسب إرادته فينزل منها الغيث ليُحيي الأرض والعباد. ■ وأقسم بالملائكة التي تلقي آيات الوحي على الأنبياء لتكون ذكراً للناس وإعذاراً وإنذاراً من الله تعالى. ■ وجواب القسم: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧)، فالقسم بالرياح المرسلة وما ينتج عنها من نزول الغيث وحياة الأبدان، والقسَم بالملائكة وما تلقيه من آيات الوحي التي بها حياة الأرواح، يدلان على أن الله قادر على الخلق والبعث ليوم القيامة. 	<p>عرض لمشاهد وأحوال من يوم القيامة تبرز مصير الكافرين ومصير المؤمنين في ذلك اليوم، ليكون في ذلك مزيد تأكيد على قدرة الله على البعث:</p> <ul style="list-style-type: none"> ■ ذكر السياق من أحوال ذلك اليوم انطماس النجوم، وانفراج السماء، ونسف الجبال، وتأخير الرسل إلى يوم الفصل الذي فيه الحساب. ■ وقد كرّر السياق عبارة: ﴿وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ (١٥) لزيادة الإنكار عليهم بعدما رأوا من الآيات الدالة على قدرته تعالى على البعث ما رأوا، وهم بكفرهم بقدرة الله سيحقق لهم العذاب الخالد يوم القيامة. ■ وأبرز السياق قدرته تعالى على البعث ببيان أن الله هو الذي خلق الإنسان من ماء مهين. ■ وأنه هو الذي جعل الأرض كفتاً، أحياء وأمواتاً، وجعل فيها رواسي شامخات، وأسقى الإنسان ماء فراً. ■ ثم ذكر السياق مصير المؤمنين المتقين: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ﴾ (١٦) وَفَوْكَةٍ مِّنَّا يَنْتَهُونَ (١٧)، فهم بإيمانهم بقدرة الله تحقق لهم الأمن والسعادة الأبدية. 	<p>الخاتمة المؤكدة لما سبق:</p> <ul style="list-style-type: none"> ■ أعادت النعي على المكذبين الذين لم يؤمنوا بقدرة الله على بعثهم: ﴿وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ (١٨) كَلُوا وَتَمَنَّوْا قَلِيلاً إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ (١٩). ■ فطعامهم الذي يأكلونه إنما ساقه الله لهم بالرياح المرسلة التي تأتي بالسحب المحملة بالغيث، ولكنهم كذبوا بقدرة الله رغم ما رأوه من قدرته على إخراج طعامهم من الأرض. ■ وأعادت النعي على المكذبين الذين لم يؤمنوا بما جاء في آيات الوحي من الهدى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ (٢٠). ■ وبذلك تلتقي المقدمة وما فيها من القسم بمظاهر قدرة الله على الإحياء والإماتة، والقسم بآيات الوحي على أن يوم القيامة حق، مع الخاتمة التي تنعي على المكذبين بهذه الآيات بنوعيتها: ﴿وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٢١) فَإِنِّي حَدِيثُ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٢٢).

سورة النبأ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ
مُخْتَلَفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «النون والباء والهمزة: قياسه الإتيان من مكان إلى مكان . . . ومن هذا القياس: النبأ؛ لأنه يأتي من مكان إلى مكان»^(١)، وزاد الإمام الأصفهاني رحمه الله: «النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن . . . وحق الخبر الذي يقال فيه «نبأ» أن يتعرى عن الكذب، كالتواتر، وخبر الله تعالى، وخبر النبي ﷺ»^(٢)، وأما الدلالة السياقية فتعود إلى تساؤل المكذّبين عن اليوم الآخر، مع بيان أنه نبأ من الله تعالى لا مجال لتكذيبه أو الشك فيه، وتسمية السورة «بالنبأ» يوحي كأنه ليس هناك نبأ غيره، فيوم القيامة هو النبأ الأعظم.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة يدور حول حقيقة البعث بعد الموت، بذكر الأدلة على قدرة الخالق على ذلك، فيوم القيامة الذي كان المكذّبون مُجمعين على نفيه، ثابت ثباتاً لا يحتمل الشك، لأن الذي خلقهم ودبّر معيشتهم أحسن تدبير، من حكمته أن لا يترك عبده يأكلون خيره، ويعبدون غيره، وعلى ذلك دلّ اسمها «النبأ» بما فيه من التفخيم^(٣).

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ١٠١٠، بتصرف.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ٧٨٨، بتصرف.

(٣) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٣٨٣، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٢٩٤، ٢٩٥، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٨٠٠-٣٨٠٣، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٦، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ١، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٤٩٦، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: إثبات حقيقة اليوم الآخر من خلال بيان دلالة بعض مظاهر قدرته تعالى على الخلق والبعث في الدنيا، وبيان مصير المكذّبين والمؤمنين في ذلك اليوم، ولما كان في تسمية يوم القيامة بـ «النبا» من التفضيم والتعظيم وكأنه لا نبأ غيره، سُميت السورة به للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة تعظيم شأن يوم القيامة.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: مقدّمة تعظم شأن اليوم الآخر وتؤكد قدرة الله تعالى عليه بعرض بعض مظاهر قدرته تعالى على الخلق والبعث في الدنيا، ثم عرض لمصير الطاغين المكذّبين، ومصير المؤمنين المتقين في ذلك اليوم، ثم خاتمة مؤكدة لما سبق^(١).

أولاً: جاء في مقدّمة السورة بيان لقدرته تعالى على الخلق والبعث، من خلال عرض

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-١٦، وعرض مصير الفريقين يوم القيامة: ١٧-٣٨، والخاتمة: ٣٩، ٤٠. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة ببيان قدرته تعالى على الخلق والبعث: أ) فقله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا أَزْوَاجًا﴾: ٨، ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، وانظر قريباً منه في سورة النحل: ٧٢، وفاطر: ١١، والشورى: ١١، وكذلك قوله ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾: ٩، وانظر قريباً منه في سورة الفرقان: ٤٧، ج) وكذلك قوله ﴿وَجَعَلْنَا آيَلًا لِلْآسَاءِ﴾: ١١، وانظر قريباً منه في سورة الفرقان: ٤٧، د) وكذلك قوله ﴿لِيُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾: ١٠، ١١، وقريب منه أيضاً في سورة الفرقان: ٤٧، هـ) وكذلك قوله ﴿وَجَعَلْنَا أَلْفَافًا﴾: ١٥، ١٦، وانظر قريباً منه في سورة عبس: ٢٧-٣١، ثانياً: ومنها أمور متعلقة ببيان مصير المكذّبين: أ) فوصف جهنم بأنها ﴿كَأَنَّهُ مِرْسَادٌ﴾: هنا فقط: ٢١، وكذلك وصفها بأنها ﴿لَطِيفِينَ نَبَاتًا﴾: ٢٢، وقريب منه في سورة ص: ٥٥، ب) وكذلك وصف جزائهم بـ ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾: ٢٦، ج) ووصفهم بقوله ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾: ٢٨، إذ لم تذكر «كذّاباً» في موضع آخر إلا في هذه السورة: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا كِذَابًا﴾: ٣٥، ثالثاً: ومنها أمور متعلقة بمصير المؤمنين: أ) فقله ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾: ٣١، لم يتكرر بالصيغة ذاتها، وانظر قريباً منه في سورة الزمر: ٦١، ب) كذلك قوله ﴿وَكُنَّا إِهْمًا﴾: ٣٤، ج) وقوله ﴿جَزَاءً يَنْزِلُكَ عَنَّا جَسَابًا﴾: ٣٦، رابعاً: بإمكانك أن تزيد أن كلمة «يوم» الدالة على القيامة ذكرت في هذه السورة خمس مرات: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَانَ مِيقَاتًا﴾: ١٧، ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾: ١٨، ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْبَاطِنُ كَافَّةً﴾: ٣٨، ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾: ٣٩، ﴿يَوْمَ يُنْظَرُ أَلَمْرُ مَا قَدَّمَتْ يَدَا﴾: ٤٠. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

بعض مظاهر قدرته تعالى التي يراها الناس يومياً في الدنيا، وفي ذلك أبلغ رد على تساؤل المكذّبين عن النبا العظيم: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ① عَنِ النَّبِیِّ الْعَظِيمِ ② الَّذِي هُوَ فِيهِ يُخَلِّفُونَ ③ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ④ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ⑤ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْنًا ⑥ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ⑦ وَخَلَقْنَاهُ أَرْوَاجًا ⑧ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ⑨ وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِّسَاءٍ ⑩ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ⑪ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ⑫ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ⑬ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً نَّجَّاجًا ⑭ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ⑮ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ⑯، لاحظ السؤال التجهيلي: عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ؟ المفيد أن يوم القيامة أمر عظيم لا يجوز التغافل عنه أو التكذيب به، ولاحظ قوله: كلا سيعلمون، ثم كلا سيعلمون، المفيد أيضاً تعظيم شأن ذلك اليوم الذي سيعلمون حقيقة وقوعه، فسياق السورة يلفت نظر المكذّبين بيوم القيامة إلى خلق الله للأرض التي يعيشون عليها وجعلها مهاداً، وإلى نومهم واستيقاظهم المشابه للحياة بعد الموت، وإلى خلق السماوات وما فيها، وإخراج النبات بماء السماء، وكلّها آيات تدل على قدرته تعالى على بعثهم ليوم النبا العظيم كما هو قادر على الخلق أول مرة.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض مصير الطاغين المكذّبين، والمؤمنين المتقين لزيادة التأكيد على أن يوم القيامة نبأ عظيم لا مرية فيه، وقبل البدء بعرض مصيرهم، ذكر السياق عدداً من أهوال ذلك اليوم عظيم الشأن، إذ سيُنْفَخُ فيه في الصور فيأتي الناس أفواجاً، وفيه تفتح السماء فتكون أبواباً، وفيه تُسَيَّرُ الجبال فتكون سراباً، ثم ابتداء السياق بعرض مصير المكذّبين في ذلك اليوم؛ لأنهم الأولى بالترهيب: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ① لِلطَّغْيَانِ مَتَابًا ② لَّيْسِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ③ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ④ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ⑤ جَزَاءً وَفَاقًا ⑥ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ⑦ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ⑧ وَكُلُّ شَيْءٍ أَخَصَيْنَاهُ ⑨ كِتَابًا ⑩ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ⑪﴾، ولاحظ بيان أنهم كانوا لا يرجون حساباً لذلك اليوم، وقد دفعهم ذلك إلى التكذيب بآيات الله كذاباً، وهذا متفق تماماً مع تساؤلهم عن النبا العظيم في المقدمة، وبيان أن الله أحصى كل شيء كتاباً فيه دلالة على قدرته على البعث والحساب العادل.

ثم انتقل السياق إلى عرض مصير المؤمنين، ليتكامل الترغيب مع الترهيب: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ ① مَفَارِجًا ② حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ③ وَكَوَاعِبَ أَزْرَابًا ④ وَكَأْسًا دِهَاقًا ⑤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ⑥ جَزَاءً مِّن

رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴿٦٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٦٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٦٨﴾ ، ولاحظ أن السياق يركّز على عرض مظاهر عظمة ذلك اليوم، من خلال التفصيل في عرض مصير الفريقين، وذلك يؤيد وصف القيامة بالنبأ العظيم، ومما يؤيد ذلك بيان أنه لا أحد يملك الكلام - فضلاً عن التصرف - في ذلك اليوم إلا بإذن الرحمن سبحانه .

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فكما افتتحت السورة بتساؤل المكذّبين عن النبأ العظيم، ختمت ببيان أنه اليوم الحقّ، وبال دعوة إلى إحسان العمل؛ لأن الله سيجازي في ذلك اليوم كل امرئ بما قدّمته يده، وكفى بذلك دلالة على قدرته تعالى على البعث لذلك اليوم العظيم: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا ﴿٦٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٧٠﴾﴾ ، وبذلك يلتقي البدء والختام على المحور المذكور الذي دلّ عليه اسم السورة أعظم الدلالة وأفخمها شأنًا .



سورة النبأ

سورة تعظيم شأن يوم القيامة

الموضوع الأول: (الآيات: ١٦-١)

المقدمة التي تعظم شأن يوم القيامة، وتؤكد قدرة الله عليه من خلال بيان قدرته على الخلق والبعث:

■ افتتحت السورة بسؤال تجهيلي يعظم شأن يوم القيامة، ويبين أنه أمر لا يجوز التغافل عنه: ﴿عَمَّ يَسْأَلُونَ﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْلِفُونَ﴾ ﴿كَلَّا سِعْمُونَ﴾.

■ وبينت قدرة الله على البعث ليوم القيامة ببيان أنه هو الذي جعل الأرض مهاداً، والجبال أوتاداً، وهو الذي خلق الناس أزواجاً، وهو الذي يُنزل من المعصرات ماءً ثجاجاً فأخرج به حباً ونباتاً، وجنات ألفافاً.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٣٨-١٧)

عرض مصير الطاغين المكذّبين، ومصير المؤمنين المتقين، في ذلك اليوم عظيم الشأن:

■ ثم انتقل السياق إلى الحديث عن يوم القيامة عارضاً بعض أحداثه الجسيمة: ﴿يَوْمَ يُنْفَعُ فِي الصُّورِ قَاتُونَ أَنْوَابًا﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾.

■ وعرض مصير المكذّبين الطاغين: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ لِلطَّغِينِ مَنَابًا ﴿لَنُيَبِّئَنَّ فِيهَا أَحْقَابًا﴾.

■ وعرض مصير المؤمنين المتقين: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَارِجَ خَدَائِقٍ وَأَعْنَابًا﴾ وَكَوَاعِبَ أَزْرَابًا.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٤٠-٣٩)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ فكما افتتحت السورة بتساؤل المكذّبين عن النبأ العظيم، ختمت ببيان أنه اليوم الحق، مع الدعوة إلى إحسان العمل للقاء الله في ذلك اليوم: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَنَابًا﴾ ﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ رَبًّا﴾.

سورة النازعات

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّشِيطَاتِ شَطَا ۝٢ وَالسَّيْحَاتِ سَبَا ۝٣
فَالسَّيْقَاتِ سَبَا ۝٤ فَاَلْمُدِيرَاتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتَّبِعُنَا
الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ۝٩﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس: «النون والزاء والعين أصل صحيح يدلّ على قَلْع شيء»^(١)، وأما الدلالة السياقية فتعود - على أرجح الأقوال - إلى وصف حال الملائكة وقت احتضار الكافر للموت، فهي تنزع روحه من جسده نزاعاً بليغاً شديداً مهما تفرقت روحه في جسده، ووصف الملائكة بصيغة اسم الفاعل يدلّ على تمكّنها من هذا الفعل.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم هذه السورة ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن مقصود هذه السورة إثبات البعث والجزاء، والاستدلال على ذلك بأن خلق العالم وتدبير نظامه أعظم من إعادة الخلق، وذكروا أن الله قد أقسم بالنازعات الدالة على نزاع الملائكة للأرواح عند الموت، وجعل من هذا القَسَم اسماً للسورة ليدل على إثبات قدرة الله على البعث^(٢).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: إثبات قدرة الله تعالى على البعث من خلال بيان بعض مهام الملائكة الكرام وقت احتضار الإنسان، وبعض

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ١٠٢٢.

(٢) ينظر: البقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٣٠٨، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٥٩، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ٢١، ص ٣٨١١، ود. شحاتة، أهداف كل سورة، ج ٥، ص ٢٢-٣٠، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

مهامهم في الآخرة، ومن خلال بيان قدرة الله على إهلاك المكذّبين وبعث الخلق كما خلقهم أول مرة، ولما كان القسم بالملائكة التي تنزع الأرواح وقت احتضار الإنسان أدل ما في السورة على المحور المذكور، اختير ليكون اسماً للسورة. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة إثبات قدرة الله على البعث من خلال بيان بعض مهام الملائكة وقت احتضار الإنسان، وبعض مهامهم في اليوم الآخر.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: أولاً: مقدّمة مبيّنة لبعض مهام الملائكة وقت احتضار الإنسان وفي يوم القيامة، وثانياً: بيان لبعض مظاهر قدرة الله تعالى في إهلاك المكذّبين، وبعض مظاهر قدرته في خلق السماء والأرض، وثالثاً: خاتمة مؤكّدة لما سبق^(١).

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-١٤، وبيان بعض مظاهر قدرة الله تعالى: ١٥-٣٣، والخاتمة: ٣٤-٤٦. ومن لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: أن الآيات الخمس الأولى منها الدالة على مهام الملائكة وقت الاحتضار وفي يوم القيامة، لم تتكرر في القرآن، وقريب من قوله تعالى ﴿فَالْمَكِيدَاتِ أَثَرًا﴾: ٥، ما جاء في سورة الذاريات: ﴿فَالْمَقَيِّنَاتِ أَثَرًا﴾: ٤، واستخدام لفظ التدبير مناسب لأحداث يوم القيامة كما في النازعات، واستخدام لفظ التقسيم مناسب للرزق كما في الذاريات، ثانياً: أما فيما يتعلق بأحوال يوم القيامة: أ) فقد امتازت هذه السورة بوصف النفخة الأولى بـ ﴿الرَّاجِفَةُ﴾: ٦، بصيغة اسم الفاعل، وهذا الموقع الوحيد في القرآن بهذه الصيغة، وقريب منه لفظة ﴿الرَّجْفَةُ﴾ وهي تدل على العذاب الدنيوي، وقد جاءت في سورة الأعراف: ٧٨، علماً بأن رقم سورة الأعراف: ٧، ورقم سورة النازعات: ٧٩، وذكرت ﴿الرَّجْفَةُ﴾ أيضاً في الأعراف: ٩١، ١٥٥، والعنكبوت: ٣٧، ب) وقد وصفت النفخة الثانية أيضاً في سورة النازعات بـ ﴿الرَّادِفَةُ﴾: ٧، وهي لفظة لم تذكر في موضع آخر، وقريب منها في سورة النمل: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾: ٧٢، علماً بأن رقم سورة النازعات: ٧٩، ج) وصف القلوب يوم القيامة بـ (الواجفة) لم يذكر إلا هنا: ٨، وكذلك وصف الأبصار ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةً﴾: ٩، وقريب منه ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَافَهُمْ وَرَبُّهُمْ﴾ في سورتي القلم: ٤٣، والمعارج: ٤٤، و ﴿خُشَّامًا أَبْصَرُهُمْ﴾ في سورة القمر: ٧، وكذلك وصف الحياة الدنيا بـ ﴿الْحَافِرَةِ﴾ هنا فقط: ١١، ووصف العظام بـ ﴿نَجْرَةٍ﴾: ١١، ووصف الأرض يوم القيامة بـ ﴿الْبَاسِرَةِ﴾: ١٣، ولم توصف القيامة بـ ﴿الْطَّائِفَةِ﴾ إلا هنا: ٣٤، ولم تذكر هذه العبارة ﴿وَبَرَزَتِ الْجَنَّةُ﴾ إلا هنا: ٣٦، وفي سورة الشعراء: ٩١، ومعلوم أن للملائكة دوراً في إبراز الجحيم، ثالثاً: وأما فيما يتعلق بقصة موسى عليه السلام: أ) لم تذكر هذه العبارة ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ﴾ إلا هنا: ١٨، وكذلك =

أولاً: جاء في مقدمة السورة قَسَمَ بالملائكة ذات المهام الخاصة وقت احتضار الإنسان، والملائكة ذات المهام الخاصة في يوم القيامة، على أن الله قادر على بعث الناس يوم القيامة: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّشِيطَاتِ شُطًّا ۝٢ وَالسَّيِّدَاتِ سَبًّا ۝٣ فَالْمُنِفِقَاتِ سَبًّا ۝٤﴾، فقد أقسم الله تعالى بالملائكة التي تنزع أرواح المكذبين، والمصدر (غرقاً) يدل على الإغراق في النزاع، فهم ينزعون روح الكافر مهما تفرقت في جسمه، وأقسم تعالى بالملائكة التي تنشط روح المؤمن حين الاحتضار، فتخرج روحه بخفة، وأقسم تعالى - فيما أرى - بالملائكة التي تُسبِّح بهذه الأرواح بعد إخراجها من الجسد إلى السماء، فإما أن تُفتح أبواب السماء لروح المؤمن، حتى يكتب كتابها في عليين، ثم تعاد للجسد في القبر فينعم فيه إلى قيام الساعة، وإما أن تغلق أبواب السماء لروح الكافر، فتردُّ إلى الجسد في القبر فيعذب فيه إلى قيام الساعة^(١)، فهذه مهام الملائكة فيما يتعلق بموت الإنسان في الدنيا.

أما ما يتعلق بيوم القيامة فقد أقسم سبحانه بالملائكة التي تسبق بالأجساد بعد أن يبعثها الله ويردّ فيها روحها، فتسبق الملائكة بالناس إلى أرض المحشر، ثم تسبق بأهل النار إلى النار، وبأهل الجنة إلى الجنة، ويدبرون أمور ثوابهم أو عقابهم^(٢)، وأعتقد أن مغايرة حرف

= ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْنَا الْكُتُبَ﴾ هنا فقط: ٢٠، وقريب منها ﴿لِرَبِّكَ مِنْ بَيْنِ أَيْدِي الْكُتُبِ﴾ طه: ٢٣، ولم تذكر كلمة ﴿الْكُتُبِ﴾ مرتين إلا في سورة النازعات وصفاً لآية موسى عليه السلام، ووصفاً للطامة، وذلك بتلاام مع الفرية الكبرى لفرعون حينما قال ﴿أَنَا رَبُّكُمْ أَتَعْلَمُونَ﴾: ٢٤. وينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

(١) جاء هذا في رواية أخرجه الإمام أحمد رحمه الله أن الملائكة تعرج بروح الكافر إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فلا يفتح له، لقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ...﴾ (الأعراف: بعض الآية ٤٠)، ثم يؤمرون برّد روحه إلى جسده في قبره فيعذب فيه إلى قيام الساعة، وأن الملائكة تعرج بروح المؤمن حتى تشيعه الملائكة إلى السماء السابعة، فيكتب كتابه في عليين، ثم تعاد روحه إلى جسده فينعم في قبره إلى قيام الساعة، وفي هذه الرواية تفصيل بكيفية نزاع روح المؤمن وروح الكافر على نحو متلائم مع أوصاف الملائكة القابضة للأرواح المذكورة في مقدمة هذه السورة. ينظر: مسند الإمام أحمد، حديث رقم: ١٧٨٠٣، وقد صححه محققه الشيخ شعيب الأرناؤوط، وجاء قريب من هذه الرواية رواية أخرى في سنن أبي داود، حديث رقم: ٤١٢٧.

(٢) من المفسرين الذين قدّموا هذا الوجه من التفسير لهذه الأوصاف الخمسة: الإمامان الرازي والبيضاوي رحمهما الله ما عدا قوله تعالى ﴿وَالسَّيِّدَاتِ سَبًّا﴾، فقد فسّراها بأنهم يسبحون في إخراج روح المؤمن كما يسبح الغواص =

العطف من الواو إلى الفاء يدل على اختلاف الدار التي تقوم بها الملائكة بهذه المهام. وما من شك أن القَسَمَ بالملائكة التي تقوم بهذه المهام يدل أشدّ الدلالة على قدرة الله تعالى على بعث الموتى، ولذلك اتُّخذ من القَسَمِ بهذه الملائكة اسمٌ للسورة، ولاحظ أنه أقسم بـ «النازعات» وليس بـ «الناشطات» أو «السابحات» أو «السابقات» أو «المديرات»، لأن وصف النازعات يختصّ بحال قبض روح الكافر، وهذا أنسب لسياق السورة التي تبرز إنكار المكذّبين بقيام الساعة، ثم إن هذا الوصف يختصّ بالدنيا وليس بالآخرة كالسابقات أو المديرات، ولذلك كان هو الوصف الأنسب للرّدّ على منكري الآخرة.

ثم انتقل السياق إلى ذكر بعض أهوال يوم القيامة، وبيان حالة المكذّبين في تلك الأهوال: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۖ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۖ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۖ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۖ يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۖ إِذَا كُنَّا عِظَمًا نَخِرَةً ۖ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۖ فَاِئْمًا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۖ﴾، وقد تكون هذه الأهوال هي المُقسَم عليه، أو أن يكون المُقسَم عليه محذوفاً ويقدر بـ «لتبعثن»، ولاحظ ذكر النفختين: الراجفة والرادفة، ليكون ذلك أدل على قدرته تعالى على البعث، ولاحظ وصف حالة المكذّبين يوم القيامة، فقلوبهم واجفة خائفة، وأبصارهم خاشعة ذليلة، وذلك لأنهم كانوا يقولون في الدنيا: أنذا متنا وكنا عظاماً نخرة، ستردّ إلى الحياة مرة أخرى؟ ثم يقولون استهزاءً: إذا صحّ هذا ستكون كرّتنا خاسرة.

ويردّ السياق على استهزائهم ببيان أن الله تعالى قادر على بعثكم بمجرد أن يُنفخ في الصور نفخةً واحدة، ولاحظ وصف النفخة بالزجرة، لأنها أنسب لفظ لحال المكذّبين، ثم إن فيها بياناً لبعض مهامّ الملائكة في ذلك اليوم، فإذا حصلت تلك الزجرة، قام الناس جميعاً من قبورهم فتجمعهم الملائكة في الساهرة وهي أرض الحساب.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى بيان بعض مظاهر قدرة الله تعالى على إهلاك المكذّبين،

= الذي يخرج الشيء من أعماق البحار، أو أنها تسبح في مُضَيَّهَا لما أمرت به فيدبرون أمره. ولم يتعرضوا للرواية في الهامش السابق. ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٣١، ص ٢٨، والبيضاوي، عبد الله بن عمر (ت: ٧٩١هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣. ج ٢، ص ٥٦٥.

وبعض مظاهر قدرته في خلق السماء والأرض، ليستدل بذلك على قدرته على البعث، وقدم السياق ذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون، لأنها أنسب لما بينه السياق من موقف المكذبين بالآخرة: ﴿فَقَدْ هَلَّ لَكَ إِلَهٌ أَنْ تَزُكِّيَ﴾ (٧٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (٧٩) فَأَرَاهُ آيَةَ الْكُبْرَى (٨٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى (٨١) ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى (٨٢) فَحَشَرَ فَنَادَى (٨٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٨٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٨٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٨٦)، ولاحظ ذكر التزكية والخشية أول القصة، ليتلاءم ذلك مع قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾، وسيأتي في الخاتمة ذكر مصير من زكى نفسه، ولاحظ وصف آية العصا بالآية الكبرى، ليتلاءم ذلك مع الفرية الكبرى لفرعون حين قال: أنا ربكم الأعلى، وهي متلائمة مع وصف يوم القيامة بالطامة الكبرى أيضاً، ولاحظ بيان أن فرعون حشر ونادى جنوده، ولم يُغنِ ذلك عنه شيئاً، وهذا متلائم مع بيان قدرته تعالى على جعل الملائكة تقوم بحشر الخلق جميعاً يوم القيامة وإيقافهم للحساب ثم العقاب أو الثواب.

وقد اشتمل عذاب فرعون على الدنيا والآخرة، ليتلاءم ذلك مع مهام الملائكة المذكورة أول السورة في الدنيا والآخرة، ومن ناحية ثانية يتلاءم ذكر فرعون الذي مات غرقاً، مع قوله تعالى ﴿وَالنَّارِ عَتِيقاً﴾. وقد تقدّم ذكر عقوبة فرعون في الآخرة على الأولى؛ لأن سياق السورة كله حول الآخرة، فهذه القصة كما ترى تؤكد المحور المذكور وتتلاءم مع دلالة اسم السورة عليه أبلغ التلاؤم.

ثم انتقل السياق إلى بيان بعض مظاهر قدرة الله تعالى في خلق السماء والأرض: ﴿هَآءِ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (٧٧) رَفَعَ سَبْكَهَا فَسَوَّاهَا (٧٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٧٩) وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٨٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٨١) وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا (٨٢) مَتَّعَا لَكُمْ وَلَأْتَمِكُمْ (٨٣)، فخلق السماء والأرض أعظم من إعادة بعث الناس، وذلك دليل على أن القادر على الأولى قادر بلا شك على الثانية، فالسياق يؤكد حقيقة قدرة الله تعالى على البعث ليوم القيامة، وهو ما دل عليه أيضاً وصف الملائكة بالنازعات التي تنزع أرواح المكذّبين، ثم يوم القيامة تسوقهم للحساب.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التذكير بمصير المكذّبين بيوم

القيامة: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الْمَلَائِكَةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٢٥﴾ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٢٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٢٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٢٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٢٩﴾﴾، ولاحظ ذُكِرَ تذكّر الإنسان، الملائم لما ذكرته المقدمة من حسرة المكذّبين على إنكارهم يوم القيامة واستهزائهم به، وذُكِرَ إبراز الجحيم، الذي يبيّن إحدى مهامّ الملائكة في ذلك اليوم، ولاحظ بيان أن الجحيم هي مأوى المكذّبين التي ستسوقهم إليها الملائكة، وهذا يتلاءم مع وصف الملائكة بالسابقات سبقاً والمديرات أمراً أول السورة.

ولكي يكتمل المشهد، عرضت الخاتمة مصير المؤمنين الذي زكّوا أنفسهم وخافوا مقام ربهم: ﴿وَأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣١﴾﴾، وهنا يبرز دور الملائكة مرة أخرى في سوق المؤمنين إلى مأواهم في الجنة.

وكما افتتحت السورة بتأكيد قدرة الله تعالى على البعث، من خلال القسم بالملائكة التي تنزع أرواح المكذّبين، ختمت السورة بتأكيد قدرة الله على البعث من خلال بيان حسرة المكذّبين في ذلك اليوم: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِن ذِكْرهَا ﴿٣٢﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا ﴿٣٣﴾ إِنَّهَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا ﴿٣٤﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُزَوَّلُهَا لِزٍ يَلْبِثُوا إِلَّا غَيْبَةً أَوْ ضَحْهَا ﴿٣٥﴾﴾، وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ دلالة.



سورة النازعات

سورة إثبات قدرة الله على البعث من خلال بيان بعض المهام الموكلة للملائكة حين احتضار الإنسان، وبعض مهامها في اليوم الآخر

الموضوع الثالث:
(الآيات: ٣٤-٤٦)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

- أعادت ذكر بعض مهام الملائكة يوم القيامة في إبراز الجحيم لمن طغى، وسوق الطاغين إلى مأواهم فيها.
- ومن مهامهم أيضاً سوق المتقين إلى مأواهم في الجنة.
- وكما افتتحت السورة بتأكيد قدرة الله على البعث من خلال القسم ببعض مهام الملائكة، ختمت بتأكيد قدرة الله على البعث من خلال بيان حسرة المكذبين في ذلك اليوم: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَى﴾ (٣٤) ﴿كَانَ يَوْمَ يَرَوُهَا كَأَنَّهُمْ يُورَىٰ لَمْ يَلْتَوُوا إِلَّا عَيْنِيَّ أَوْ صَافَهُمْ﴾ (٣٥).

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٥-٣٣)

بيان لبعض مظاهر قدرة الله في إهلاك المكذبين، وبعض مظاهر قدرته في خلق السماء والأرض:

- برزت قدرة الله في إهلاك فرعون الذي قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ﴾ (١٥)، فكان مصيره أن الله أخذه نكال الآخرة والأولى.
- برزت قدرته تعالى في بيان السياق أن خلق السماء أعظم من خلق الإنسان، فالقادر على خلق السماء قادر على خلق الإنسان.
- وبيّن السياق أن الله القادر على إخراج المرعى في الأرض من الماء، قادر على بعث الموتى ليوم القيامة.
- فالقادر على خلق السماء والأرض وخلق الإنسان وبعثه، هو من جعل للملائكة الكرام مهاماً خاصة وقت احتضار الإنسان في الدنيا، ويوم بعثه في الآخرة، كما بيّنت المقدمة.

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٤)

المقدمة التي تبين بعض مهام الملائكة وقت احتضار الإنسان، وفي اليوم الآخر:

- افتتحت السورة بالقسم بالملائكة التي تنزع روح الإنسان الكافر مهما تفرقت في جسمه، وتنشط بروح الإنسان المؤمن فتخرجها بخفة، ثم تسبح الملائكة بهذه الأرواح إلى السماء، فلما أن تُفتح أبوابها للروح المؤمنة ثم ترد إلى القبر لينعم فيه صاحبها إلى يوم القيامة، وإما أن تغلق أبواب السماء دون روح الكافر فتدّ إلى القبر فيعذب فيه إلى يوم القيامة.
- وأقسم الله بالملائكة التي تسبق الأجسام يوم القيامة وتدبر أمور ثوابهم أو أمور عقابهم.
- وجواب القسم إما أن يكون محذوفاً مقدراً بـ (لنُبْعَثَنَّ)، أو أن يكون قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِعَةٌ﴾ (١١) أَصْرُهَا خَشَعَةٌ (١٢) هو الجواب.
- ومن مهام الملائكة يوم القيامة النفخ في الصور ليكون زجرة واحدة تبعث الأموات جميعاً: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (١٤).

سورة عبس

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهَ يَرْكَبُ ۚ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ ۚ (٤) فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى ۚ (٥) أَمَّا مِنْ أَسْتَفَى ۚ (٦) فَأَنْتَ لَمْ تَصَدَّى ۚ (٧) وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَرْكَبُ ۚ (٨) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۚ (٩) وَهُوَ يَخْشَى ۚ (١٠) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۚ (١١)﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «العين والباء والسين أصل واحد يدلّ على تكرّره في شيء»^(١)، وأكد كلامه الإمام الأصفهاني رحمه الله فقال: «العبوس: قطوب الوجه من ضيق الصدر»^(٢)، وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى حادثة مجيء عبد الله بن أمّ مكتوم رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وآله، وقد كان يدعو جماعة من كبار قريش يأمل إسلامهم، فألحّ ابن أمّ مكتوم على النبي صلى الله عليه وآله في طلب الهدى وهو لا يعلم حال النبي صلى الله عليه وآله لأنه أعمى، فكره النبي صلى الله عليه وآله فعل ابن أمّ مكتوم وعبس وجهه، وجعل يُعرض عنه ويُقبل على الآخرين، فأنزل الله هذه السورة معاتباً نبيه صلى الله عليه وآله في إعراضه عن طالب الهدى، وإقباله على المستغنين المستكبرين^(٣).

أقوال بعض المفسرين والكاّتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاّتبين أوجهاً للربط بين اسم هذه السورة ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة يدور حول تصحيح فكر الداعية بما يلائم قيمة الدعوة وتوجيهها، فالسورة تبين حقيقة القيم في المجتمع المسلم بأسلوب قويّ حاسم، والتوجيه في أولها هدف إلى إقرار حقيقة أن يستمدّ الناس قيمهم وموازينهم من اعتبارات إلهية بحتة، فاسم السورة دالّ على المحور بدلالة الحادثة التي اشتق منها^(٤).

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٧٣٠.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ٥٤٤.

(٣) الحادثة المذكورة أخرجها الترمذي رحمه الله في السنن، كتاب تفسير القرآن، برقم: ٣٣٣١.

(٤) ينظر: الفيروزآبادي، البيان بمقاصد القرآن، ص ١٢٥، والمهايمي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٣٨٨، =

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان أن الهداية إلى الدين فضلٌ من الله ومِنَّةٌ لا يدري الداعي مَنْ يستحقّها من المدعوين، فالهداية من الله غير خاضعة لمقياس التمايز البشري، ولما كانت حادثة ابن أم مكتوم رضي الله عنه مع النبي ﷺ أدل ما في السورة على هذا المحور، اشتقّ منها اسم السورة ليدل عليه. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة تصحيح فكر الداعية بما يُلائم قيمة الدعوة وتوجيهها.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: مقدّمة تحوي معاتبه للنبي ﷺ في حادثة ابن أم مكتوم، ثم بيان لنعيم الله على الإنسان من خلق وإمدادٍ تستوجب عليه الإيمان والطاعة لله، ثم خاتمة مؤكدة لما سبق^(١).

أولاً: جاء في مقدّمة السورة معاتبه من الله تعالى لنبيه ﷺ في حادثة ابن أم مكتوم، وتبيّن له أن الهداية من الله فضل لا يدري النبي ﷺ من يستحقّه: ﴿عَسَىٰ وَتَوَكَّلْ ۖ إِنَّ جَاءَهُ

= والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٣٢٣، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ١٠٢، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ٣٨، ٣٩، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٨٢١-٣٨٢٥، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٥٠٠. وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود منها بالدراسة.

(١) مقدّمة السورة شملت آيات: ١-١٠، وبيان نعيم الله على الإنسان: ١١-٣٢، والخاتمة: ٣٣-٤٢، ومن لطائف هذه السورة: أنها امتازت بالفاظ وعبارات متعلقة بالنبي ﷺ وبالقرآن العظيم وباليوم الآخر، وهي لم تذكر في مواضع أخرى من القرآن بالصيغة نفسها، وإليك بيان ذلك: أولاً: من هذه العبارات والألفاظ ما هو متعلق بالنبي ﷺ: (أ) سؤاله ﷺ بـ ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَرْزُقُكَ﴾: ٣، وقريب منه في سورة الأحزاب: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبًا﴾: ٦٣، وفي سورة الشورى: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾: ١٧، ومعلوم أن المواضع الثلاثة متعلقة بأمور غيبية، (ب) سؤاله ﷺ بصيغة الاستفهام أو النفي: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْزُقُكَ﴾: ٧، (ج) قوله تعالى: ﴿فَأَن تَكُونَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: ٦، وقوله ﴿فَأَن تَكُونَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: ١٠، ثانياً: ومنها ما هو متعلق بالقرآن العظيم: (أ) وصفه بـ ﴿مُحِبِّ تَكْرِمَتِهِ﴾: ١٣، (ب) و ﴿مَرْفُوعَةِ مُنْفَعَتِهِ﴾: ١٤، (ج) و ﴿بَائِلِي سَفَرَةٍ﴾: ١٥، (د) و ﴿كَرَامَ رِزْقِهِ﴾: ١٦، ثالثاً: ومنها ما هو متعلق بيوم القيامة وأحواله: (أ) لم يعبر عن يوم القيامة بـ ﴿الْآخِرَةُ﴾ إلا هنا: ٣٣، (ب) وكذلك وصف المؤمنين بـ ﴿يَوْمَ يَوْمِذٍ مُّسْتَوِرَةٍ﴾ ٣٨ ٣٩، (ج) ووصف الكافرين بـ ﴿يَوْمَ يَوْمِذٍ عَلِيَّا غَبَرَةٍ﴾ ٤٠ ٤١، وقريب منه في سورة يونس: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذُلٌّ﴾: ٢٦. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

الْأَعْمَى ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَرَىٰ ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ④ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ⑤ فَأَن تَلُم تَصَدَّىٰ ⑥ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبَ ⑦ وَأَمَّا مَنِ جَاءَكَ يُسَبِّحُ ⑧ وَهُوَ يَخْشَىٰ ⑨ فَأَن تَعْنَهُ لِلَّهِ ⑩ ، ولاحظ قوله تعالى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ وقوله ﴿وَمَا عَلَيْكَ﴾، الدال على عدم معرفته ﷺ بمن يستحق هذا الفضل من الله، فينبغي على الداعي أن يدعو الجميع بلا إعراض عن أحدهم، ويترك نتائج دعوته لله تعالى.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى تأكيد معنى أن الهداية فضل من الله تعالى، فبين علو شأن هذا القرآن العظيم: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا لَذِكْرٌ ⑪ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ⑫ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ⑬ رُّفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ⑭ يَأْبَىٰ سَفَرَهُ ⑮ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ⑯﴾، فالخاسر من أعرض عن هذا الهدى الإلهي السامي.

ثم انتقل السياق إلى ذكر موقف الإنسان من هذا الفضل الإلهي، فهو معرض عن هدى الله وهو الذي خلقه وأمدّه بما يحييه: ﴿قُلِ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرُ ⑰ مِنْ أَي شَيْءٍ خَلَقَهُ ⑱ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ⑲ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ ⑳ ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ ㉑ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ㉒ كَلَّا لَمَّا بُقِضَ مَا أَمَرُوا ㉓ فَلْيَنْظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ㉔ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ㉕ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ㉖ فَأَبْيَأْنَا فِيهَا حَبًّا ㉗﴾، ولاحظ ذكر أصل الإنسان بصيغة التحقير من شأنه، وهذا متلائم مع موقف المستغنيين عن الهدى المذكورين أول السورة، ولاحظ أن السياق ركز على نعمتي الخلق والإمداد، وهما نعمتان تستوجبان على الإنسان أن يؤمن ويطيع ربه، لا أن يعرض عن هدايته.

فأنت تلاحظ أن السياق يبين أن الواجب على الإنسان أن يؤمن ويلتزم هدى ربه، لا أن يكفر ويعرض عن هدايته، وبعد هذا البيان الوافي فالهدى لله يهدي من يشاء وعلى الداعي أن يدعو، وهذا متنسق مع محور السورة والدلالة السياقية لاسم السورة عليه.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لكل ما سبق، وذلك من خلال عرض شيء من أهوال يوم القيامة ومصير المؤمنين والمعرضين فيه: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ ㉘ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ㉙ وَأُخُوهِ ㉚ وَأَصِحْبَيْهِ وَبَنِيهِ ㉛ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُّغْنِيهِ ㉜﴾، ولاحظ بيان أن القرابة لا تجدي نفعاً في ذلك اليوم، وذلك يؤكد حقيقة أن المقاييس عند الله تعالى لها اعتبار خاص، فالذي يتفهمهم يومئذ ويحقق لهم الأمان هو فقط الإيمان واتباع الهدى.

وكما افتتحت السورة ببيان أن الداعي إلى الله يدعو وهو لا يعلم من يستحق فضل

الهداية من الله، ختمت بذكر مصير المؤمنين بهدى الله ومصير المعرضين عنه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۖ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۚ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَافِرٌ ۙ زَهَقَهَا فَذُرَّةُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُ الْفَجَرَةُ ۚ﴾ (٤٢)، وأعتقد أن التركيز على وصف الوجوه متلائم مع دلالة اسم السورة وهو متعلق بالوجه، فهو ﷻ ومن آمن معه سيكونون سادة الوجوه المسفرة في ذلك اليوم، وهكذا التقى البدء والختام على المحور المذكور الذي دلّ عليه اسم السورة.



سورة عبس

سورة تصحيح فكر الداعية إلى الله بما يلائم قيمة الدعوة وتوجيهها

<p>الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٠)</p> <p>المقدمة التي تحوي معاتبه للنبي ﷺ في حادثة ابن أم مكتوم:</p> <p>■ افتتحت السورة بعتاب النبي ﷺ في حادثة ابن أم مكتوم رضي الله عنه: ﴿عَسَىٰ وَرَأَىٰ﴾ (١) ﴿أَنَّ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ (٢) ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَرْوَىٰ﴾ (٣).</p> <p>■ وبينت أن الداعي لا يدري أين تكون ثمار دعوته: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَرْوَىٰ﴾ (٤) ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الْذِكْرَىٰ﴾ (٥).</p> <p>■ وعاتب المقدمة النبي ﷺ في تصديهِ للمستغني المكذِّب، وإعراضه عن الساعي لطلب الهدى، وهذا فيه تصحيح لفكر الداعية متلائم مع قيمة الدعوة وتوجيهها: ﴿أَمَّا مِنِ اسْتَفْتَىٰ﴾ (٦) ﴿فَأَن تَلَمْ صَدَقَ﴾ (٧) ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْوَىٰ﴾ (٨) ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ﴾ (٩) ﴿وَهُوَ يَخْتَصِمُ﴾ (١٠) ﴿فَأَن تَعَنَّ لِلْعَنِ﴾ (١١).</p>	<p>الموضوع الثاني: (الآيات: ١١-٣٢)</p> <p>بيان لنعم الله على الإنسان تستوجب عليه أن يؤمن بخالقه ويقبل هداه:</p> <p>■ بيّن السياق علو شأن القرآن الذي أنزل فيه الهدى على النبي ﷺ: ﴿كَأَلَّا إِنَّمَا تَذَكَّرُ﴾ (١١) ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ (١٢) ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ (١٣) ﴿رُفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ (١٤).</p> <p>■ ثم أيد السياق دعوة النبي ﷺ ببيان قبح موقف الإنسان المُعرِض عن هدى خالقه، رغم أنه هو الذي أوجده من العدم: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ﴾ (١٥) ﴿مِنَ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقْتُمُ﴾ (١٦) ﴿بَنَ تَطْلُقُ خَلَقْتُمُ فَقَدَرْتُمُ﴾ (١٧) ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ﴾ (١٨).</p> <p>■ وبين السياق موقف الإنسان المُعرِض عن هدى خالقه الذي أمّده بنعمة الإمداد بعد نعمة الإيجاد: ﴿كَأَلَّا لَنَّا يَقُضَ مَا أَمَرُ﴾ (١٩) ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ (٢٠) ﴿أَنَّا صَبَّأْنَا الْهَآءَ صَبًّا﴾ (٢١) ﴿ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَفَآءً﴾ (٢٢) ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ (٢٣).</p>	<p>الموضوع الثالث: (الآيات: ٣٣-٤٢)</p> <p>الخاتمة المؤكدة لما سبق:</p> <p>■ عرض الخاتمة بعض أهوال يوم القيامة، مما يؤكد أن على الإنسان قبول هدى خالقه قبل أن يصيبه عذاب ذلك اليوم: ﴿فَإِذَا جَاءَتْ أَفْصَلَةُ﴾ (٣٣) ﴿يَوْمَ يُعْرَأُ الْقُرْآنُ مِنْ أَيْنِهِ﴾ (٣٤) ﴿وَأَيْنِهِ وَأَيْنِهِ﴾ (٣٥).</p> <p>■ وكما افتتحت السورة ببيان أن الداعي يدعو إلى الله دون أن يعلم أين تكون ثمار دعوته، ختمت ببيان مصير من اتبع هدى الله الذي أنزله على النبي ﷺ ومصير من أعرض عنه: ﴿وَجُودُ يَوْمَئِذٍ مُّشْفَرَةٌ﴾ (٣٦) ﴿صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ (٣٧) ﴿وَجُودُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْنَا عَبْرَةٌ﴾ (٣٨) ﴿رَعَاهَا فَرْدٌ﴾ (٣٩) ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ (٤٠).</p>
--	--	--

سورة التكوير

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس: «كور: الكاف والواو والراء أصل صحيح يدل على دور وتجمّع، ومن ذلك الكُور: الدّور، يقال: كَارَ يَكُورُ إذا دار ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ۝ ۱ ۝ كأنها جمعت جمعاً»^(١)، ويؤكد ذلك الإمام الأصفهاني إذ يقول: «كور الشيء: إدارته وضم بعضه إلى بعض، ككورِ العمامة»^(٢). وأما الدلالة السياقية فتعود إلى حدث تكوير الشمس يوم القيامة «فتكوير الشمس: فساد جرمها لتداخل ظاهرها في باطنها بحيث يختل تركيبها فيختل لاختلاله نظام سيرها»^(٣). فاسم السورة يدل على أن من جعل للشمس مداراً خاصاً بها في الدنيا، قادر على إفساد جرمها يوم القيامة، ونسبة المصدر «التكوير» إلى الشمس يعطي دلالة على أنه لا تكوير للشمس إلا في ذلك اليوم الذي سيدمر فيه العالم الدنيوي ليبدأ العالم الأخروي.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة التهديد بيوم الوعيد وإثبات حقيقة الوحي، واختير اسم «التكوير» لأنه يشير إلى أحد أعظم حوادث يوم القيامة المذكورة في السورة، أو لأن تكوير الشمس هو الحدث الأول، أو لأن الخراب إنما يبدأ من السقف، والشمس أبرز آيات السماء التي هي من فوقنا، والسورة فيها إيقاع عام أشبه بحركة جائحة تنطلق من عقالها

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٩١٢.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ٧٢٩.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ١٤١.

فتقلب وتهزّ كل شيء^(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة: إثبات حقيقة اليوم الآخر من خلال حدث تكوير الشمس، كونه أحد أحداث يوم القيامة الدالة على سرعة دمار الكون بعد أن كان منتظماً، واختير تكوير الشمس اسماً للسورة للدلالة على المشيئة الإلهية المنفردة في هذا الكون، فكما شاء أن يكون هذا الكون منتظماً على أحسن صورة، فهو قادر على تدميره يوم القيامة بمشيئته. ولأن الشمس أبرز الكواكب التي يعرفها الناس فهم يرونها كل يوم في حياتهم، فكان ذلك أوقع أثراً في نفوسهم، فاسم السورة دال على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان سرعة انصياح الكون لمشيئة الله المعلنة بدء يوم القيامة.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

تحوي السورة مقدّمةً فيها ذُكر اثني عشر ظرفاً تدل على سرعة التدمير الحاصل يوم القيامة مع الخضوع والاستسلام التام لمشيئة الله ربّ العالمين، ثم قَسَمَ بعددٍ من الظواهر الكونية المنتظمة في الدنيا على صدق الوحي وصدق النبي ﷺ، ثم خاتمةً تبين تفرد مشيئة الله في خلقه^(٢).

(١) ينظر: البقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٣٣٥، والمهايمي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٣٩٠، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٨٣٦، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ١٤٠، وأ. د مسلم وزملاؤه، التفسير الموضوعي، ج ٩، ص ٤٨. والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٥٠٢، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية دلالات وإشارات، ص ١٧١، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(٢) المقدّمة شملت الآيات ١-١٤، والقَسَم على صدق الوحي وصدق النبي ﷺ: ١٥-٢٥، والخاتمة: ٢٦-٢٩. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور تدل على قدرة الله على تدمير الكون يوم القيامة: أ) فقوله ﴿وَإِذَا الثُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾: ٢، لم يذكر إلا هنا، ب) كذلك قوله ﴿وَإِذَا أَلْبَاظُ سُجِرَتْ﴾: ٦، وقريب منه في سورة الطور ﴿وَالْبَحْرِ أَلْسُجُورُ﴾: ٦، ج) وكذلك قوله ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾: ١١، لم يتكرر، ثانياً: ومنها أمور دالة على قدرة الله إذ خلق الكون منتظماً في الدنيا: أ) فالقَسَم بالنجوم الخُسن لم يذكر إلا هنا: ١٥، ب) وكذلك وصفها بـ ﴿الْجَوَارِ الْكُنُوسِ﴾: ١٦، =

أولاً: جاء في مقدمة السورة اثنا عشر ظرفاً تحوي دلالة على السرعة في حصول التدمير، وكلها تدل على الخضوع التام والاستسلام لمشئته الله عز وجل، فانظر الظروف التالية: ﴿إِذَا السَّمَاءُ كُورَتْ ①﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ② وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ③، ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ④﴾، ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ⑤﴾، تجد أن الأفعال التي اختيرت في التعبير كلها تدل على السرعة في الخروج عن الانتظام، ومع الخضوع لمشئته الله: كما ترى في تكوير الشمس، وانكدار النجوم، وتسيير الجبال (مع التشديد)، وتسجير البحار (مع التشديد)، وكشط السماء، فكلها أفعال منسجمة مع دلالة اسم السورة من ناحيتين: السرعة في حصول التدمير، والخضوع التام للمشئته الربانية. وقد دلّ على ذلك أنها بصيغة المبني للمجهول، مما يؤكد على وجود مشئته إلهية متحكّمة بها.

وانظر الظروف التالية الدالة على كمال الخضوع للمشئته الإلهية: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ⑥﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ⑦، ﴿وَإِذَا الْتُفُوسُ زُوِّجَتْ ⑧﴾ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سِيلَتْ ⑨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنِلَتْ ⑩ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ⑪، ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ⑫﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أَزْلِفَتْ ⑬، ولاحظ أيضاً مجيء هذه الأفعال بصيغة المبني للمجهول مما يدل على المشئته الإلهية وراءها.

وقد كان الجواب الوحيد على كل تلك الظروف الاثني عشر: ﴿عِلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ⑭﴾، فقط، وهو جواب جامع للغاية المقصودة من اليوم الآخر، وقد اكتفى السياق بهذا الجواب لأنه ليس من المقصود التركيز على ما سيحصل للناس في ذلك اليوم، بل المقصود التركيز على كمال الخضوع للمشئته الإلهية، مما يتناسب مع دلالة اسم السورة.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى القَسَمِ بعددٍ من الظواهر الكونية التي يراها الناس بشكل يومي، والدالة على الانتظام التام والاستسلام للمشئته الإلهية، ووجه الربط بين هذه الظواهر وبين ما جاء في أول السورة مما يدل على الدمار وسرعة الخروج عن الانتظام واضح، فإن الذي شاء أن يكون هذا الكون منتظماً لا مجال فيه للخطأ، هو الذي شاء أن

= ج) وقوله تعالى عن الليل ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ⑮﴾ : ١٧، د) وقوله عن الصبح ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ⑯﴾ : ١٨. وبإمكانك أن تضيف أن عبارة: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ⑰﴾ لم تذكر إلا هنا: ٢٩، وفي سورة الإنسان: ٣١. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

يخرج هذا الكون عن انتظامه لبدء يوم القيامة، فالمشيئة الإلهية ظاهرة في سياق السورة كلها: ﴿فَلَا أَمِمْ بِالْغَيْبِ ۚ﴾ (١٥) ﴿الْجَوَارِ الْكُنْزِ ۚ﴾ (١٦) ﴿وَأَنزِلْ إِذَا سَعَسَ ۚ﴾ (١٧) ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ ۚ﴾ (١٨)، ولاحظ أن القسم يأتي الليل والنهار مترابط بشكل واضح مع الشمس، فدوران الأرض حول الشمس ينتج الليل والنهار، وكأن السياق يقول: هذه الآيات الدالة على كمال الانتظام والتي ترونها كل يوم ومن أبرزها الليل والنهار، وراءها مشيئة إلهية هي التي جعلتها بهذه الروعة، وهذه المشيئة ذاتها هي مشيئة الإله وحده القادر على جعل كل تلك الظواهر تخرج عن انتظامها معلنة بدء يوم الحساب. كل ذلك دلّ عليه اسم السورة «التكوير»، حقاً إنها سورة عجيبة!

أما جواب القسم فقد كان: ﴿إِنَّمَا لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۚ﴾ (١٩) ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۚ﴾ (٢٠) ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۚ﴾ (٢١) ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَحْجُونٍ ۚ﴾ (٢٢) ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْيَمِينِ ۚ﴾ (٢٣) ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۚ﴾ (٢٤) ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيزٍ ۚ﴾ (٢٥)، ويلاحظ في جواب القسم خضوع الوحي (جبريل عليه السلام) والنبي ﷺ للمشيئة الإلهية، ولاحظ قوله تعالى ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيزٍ ۚ﴾، وكأنه يقول: بعد أن بيّنا لكم خضوع كل المخلوقات لمشيئتنا، وأقسمنا بذلك على صدق وحنينا ورسولنا، فأنتى يكون للشياطين دور يجعلها تخرج عن مشيئتنا فتفتري علينا!

ثالثاً: بقيت الخاتمة وهي أيضاً تبرز المشيئة الإلهية وخضوع الكل لها: ﴿فَأَن تَذَهَبُونَ ۚ﴾ (٢٦) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۚ﴾ (٢٧) ﴿لَمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۚ﴾ (٢٨) ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۚ﴾ (٢٩)، ولاحظ قوله تعالى: فأين تذهبون؟ المتناسق مع ما بيّنته السورة من خضوع كل مخلوق لمشيئته تعالى، فهو القادر على بعثكم في اليوم الذي يكون فيه تكوير الشمس أحد الأمثلة على خروج الكون عن انتظامه معلناً اليوم الآخر.

ولاحظ ختام السورة: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۚ﴾ (٢٩)، المشير إلى أن الذي جعل لهذا الكون نظاماً إلى أجل مُسمّى هو الله الذي شاء ذلك، والذي جعل لهذا الكون نهاية في أجل مُسمّى - وقد ذكر لكم بعض أحداث تلك النهاية وسمّى السورة بأبرز تلك الأحداث إلى أبصاركم - هو الله الذي شاء ذلك، فأين مشيئتكم أنتم؟ فاسم السورة «التكوير» يدلّ على المحور الذي التقى عليه البدء والختام في هذه السورة.

بقي سؤالان: لم لم تُسمَّ السورة بـ «تكوير الشمس» بل اختير المصدر فقط؟ أعتقد أن السبب في ذلك تركيز الاهتمام على قدرة المكوّر سبحانه وتعالى، وليس على عظمة حجم ما سيقع عليه التكوير. والله أعلم.

والسؤال الآخر: لم لم تُسمَّ السورة سورة «الكشط» أخذاً من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ ، فكشط السماء آية أعظم من تكوير الشمس؟ والجواب: إن دلالة تكوير الشمس الدالة على السرعة في الخروج عن الانتظام متسقة أكثر مع باقي الآيات الدالة على ذلك في السورة أكثر من كشط السماء، ثم إن الشمس آية أبرز عياناً للناظر من السماء، لأنها جرم يستطيع الإنسان النظر إليه كجرم كامل، والسماء ليست كذلك، وثالثاً أن آيتي الليل والنهار المذكورتين في السورة والناجتين عن الشمس متسقتان مع الشمس أكثر من كشط السماء. والله أعلم.



سورة التكوير

سورة بيان سرعة انصياح الكون لمشيئة الله المعلنة بدء يوم القيامة

الموضوع الثالث:
(الآيات: ٢٦-٢٩)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:
■ فكما افتتحت السورة
بذكر اثني عشر ظرفاً
تدل على سرعة انصياح
الكون لمشيئته تعالى
يوم القيامة، ختمت
بدعوة البشر للاستقامة
الله القادر، مع بيان أن
لا مشيئة في الكون حقاً
إلا الله رب العالمين:
﴿فَإِنْ تَذَهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ هُوَ
إِلَّا يَذْكُرُ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾
لَئِنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ
﴿٢٨﴾ وَمَا نَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٥-٢٥)

القَسَمُ بعدد من الظواهر الكونية
المنتظمة في الدنيا على صدق
الوحي وصدق الرسول ﷺ:
■ ثم انتقل السياق إلى القَسَمِ بعدد
من الظواهر الكونية الدنيوية
المنتظمة: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْحَقِّ ﴿١٥﴾
الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ
﴿١٧﴾ وَالشُّجِّ إِذَا نَفَسَ ﴿١٨﴾﴾.
■ وجواب القَسَمِ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ
كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ
﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ
بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾.
■ إن القَسَمَ مع جوابه يدلان على
أن من جعل هذه الظواهر الكونية
منصاعة لمشيئته في الدنيا، قادر
على جعلها تنصاع لمشيئته يوم
القيامة، وفي هذا أبلغ تصديق
للوحي وللنبي ﷺ.

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٤)

المقدمة التي تحوي اثني عشر ظرفاً
تدل على سرعة التدمير الحاصل يوم
القيامة:
■ افتتحت السورة بذكر اثني عشر
ظرفاً معبرة عن أحداث يوم
القيامة وتدل على سرعة
انصياحها لمشيئة الله المعلنة بدء
يوم القيامة، فيومئذ تتكور
الشمس، وتتكدر النجوم، وتُسِيرُ
الجبال، وتعطل العشار، وتحشر
الوحوش، وتسجر البحار،
وتزوج النفوس، وستسأل
الموءودة لم قُتلت، وستنشر
الصحف، وتكشط السماء،
وتسعر الجحيم، وتزلف الجنة.
■ واقتصر جواب هذه الظروف على
قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا
أَحْضَرَتْ ﴿١﴾﴾ فقط، لأن التركيز
على سرعة انصياح الكون لإرادة
الله وليس على ما سيحصل
للناس في ذلك اليوم.

سورة الانفطار

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾
وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس: «فطر: الفاء والطاء والراء أصلٌ صحيح يدلّ على فَتَحَ شيء وإبرازه»^(١). وزاد الإمام الأصفهاني: «أصل الفَطر: الشَّقَّ طَوْلًا»^(٢). وأما الدلالة السياقية فتعود إلى وصف السماء بالانفطار مما يعطي دلالة بأنها ستشقُّ شقاً عظيماً متزايداً يؤدي بالنهاية إلى دمارها. وإضافة المصدر «الانفطار» إلى السماء يعطي دلالة على أنه ليس للسماء انفطار إلا في ذلك اليوم. فاسم السورة يدلّ على كمال قدرة الله تعالى.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن مقصودها التحذير من الانهماك في الأعمال السيئة اغتراراً بإحسان الرّب وكرمه، ونسياناً ليوم الدّين الذي سيحاسب فيه على النّقيير والقطمير، ولا تغني نفس عن نفس شيئاً، واسمها «الانفطار» أدل ما فيها على ذلك، لأنه يدل على الانقلاب الكوني الذي سيحدث يوم القيامة، وهي تحوي لمسات عتاب وإن كان في طياته وعيد، وبيّنت أن علّة الجحود والإنكار هي: التّكذيب بالدّين، أي: الحساب^(٣).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة: إثبات حقيقة يوم

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٨٤٩.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ٦٤٠.

(٣) ينظر: الفيروزآبادي، البيان بمقاصد القرآن، ص ١٢٦، البقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٣٤٧. قطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٨٤٦. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ١٧٠. وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ٥٦، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٥٠٤، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ١٧٩، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

الدِّين - الذي هو يوم المجازاة حسب الأعمال - وأنه يوم عظيم الهول، من خلال حدث انفطار السماء التي هي أعظم آية عرفها الإنسان، وهو الحدث الأعظم من أحداث يوم القيامة المذكورة في السورة، ولما كان انفطار السماء دالاً على كمال قدرة الله على بعث الناس ليوم الدين، اختير ليكون اسماً للسورة دالاً على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة تهويل أمر «يوم الدين».

ومن خلال تتبّع موضوعات السورة تظهر العلاقة المترابطة بينها وبين دلالة اسم السورة «الانفطار» وبيان ذلك:

تحتوي السورة مقدّمة فيها أربعة ظروف تفيد تهويل شأن يوم الدين، مع جواب هذه الظروف، ثم عتاباً للإنسان الجاحد مع بيان سبب جحوده، وبيان مصير المؤمن ومصير المكذّب يوم الدين، ثم خاتمة لتأكيد التهويل المذكور أول السورة^(١).

أولاً: جاء في المقدّمة أربعة ظروف تظهر التهويل الشديد ليوم القيامة: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ ١، ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ ٢، ﴿وَإِذَا الْيَبَاؤُ فَجَرَتْ﴾ ٣، ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ ٤، ولا بُد من مقارنة بعض الأمور المشتركة بين هذه السورة والتي سبقتها «التكوير» من أجل بيان مدى ترابط اسم السورة مع موضوعاتها في السورتين، فمعلوم أن انفطار السماء أعظم آية من تكوير الشمس، فالسماء أعظم آية عرفها الإنسان، ولذلك لاحظ التهويل الزائد ليوم الدين على ما جاء في التكوير، فلاحظ أولاً: وصف السماء بالانفطار، بينما في التكوير كان الحديث عن تكوير الشمس، وهي ليست إلا جرمًا صغيراً جداً يسبح في السماء، ثم لاحظ وصف الكواكب بالانتثار الناتج عن ذلك الانفطار، بينما في التكوير وصفت النجوم

(١) المقدّمة شملت الآيات: ١-٥، والعتاب والمصير: ٦-١٦، والخاتمة: ١٧-١٩. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وهي أمور دالة على عظم أهوال يوم القيامة: (أ) ف قوله ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾: ٢، لم يتكرر في القرآن، (ب) وكذلك قوله ﴿وَإِذَا الْيَبَاؤُ فَجَرَتْ﴾: ٣، (ج) وكذلك قوله ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾: ٤، وقريب منه في سورة العاديات ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾: ٩، (د) هي الوحيدة التي تكررت فيها عبارة «يوم الدين»: ١٥، ١٧، ١٨، (هـ) ويامكانك أن تضيف أن قوله تعالى عن ذلك اليوم ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ نَقِيرَ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾: ١٩، لم يتكرر بهذه الصيغة. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

بالانكدار، وانتشار الكواكب أعظم آية من انكدار النجوم، وثالثاً أن البحار وصفت بالتفجير مما يتناسب مع دلالة الفطر، بينما في التكوير وصفت بالتسجير، والتفجير أعظم من التسجير، وكان التسجير مرحلة تؤدي بالنهاية إلى التفجير، ثم لاحظ قوله تعالى: (وإذا القبور بعثرت)، وهو ملائم جداً لوصف السماء بالانفطار، فبعثرة القبور لا تحصل إلا إذا انفطرت الأرض لتخرج منها الأجساد.

ولاحظ وجواب الظروف الأربعة: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۖ﴾، بينما في التكوير قال تعالى: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا أَخْفَرَتْ ۖ﴾، تجد أن السياق زاد في الانفطار في التفصيل لإفادة مزيد التهويل لذلك اليوم. فأنت ترى أن دلالة اسم السورة «الانفطار» مترابطة مع مقدمة السورة الدالة على تهويل ذلك اليوم أكثر مما في التكوير.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى توجيه عتاب إلى الإنسان الجاحد مع بيان سبب جحوده: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۖ﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾، وكان السياق يقول: مع كل هذا الإنعام الدال على قدرتنا على بعثكم كما خلقناكم أول مرة بأحسن صورة، تكذبون بالحساب والجزاء يوم القيامة؟! فتهيل يوم القيامة الذي فيه الحساب بارز بوضوح، ثم لاحظ كلمة الردع والزجر: (كلا)، وحرف الإضراب: (بل)، اللذين يفيدان تهويل يوم الدين. ثم إنك لا تجد في سورة التكوير خطاباً موجهاً للإنسان بنفس القدر الذي جاء في الانفطار، لأن التركيز في التكوير كان على مشيئة الله تعالى بشكل أكبر من التركيز على هول يوم القيامة الذي غفل عنه الإنسان كما في الانفطار. إن قلّة مخاطبة البشر في التكوير مناسب لإبراز مشيئة الله، ومعاينة الإنسان في الانفطار مناسب لبيان هول ذلك اليوم.

ثم انتقل السياق إلى ذكر الملائكة الكتبة الكرام، وأرى أن ترابط ذلك مع دلالات اسم السورة يعود إلى أن يوم الدين مع أنه عظيم الهول كما دل على ذلك اسم السورة «الانفطار»، إلا أنه لا مجال فيه للظلم، بل كل يحاسب بما هو مكتوب في صحائفه، وذلك العدل المطلق: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۖ﴾.

ومما يفيد التهويل أيضاً لذلك اليوم العظيم التقرير في مصير الأبرار والفجار بـ «إن»

المفيدة للتوكيد ومزيد الاهتمام مرتين، ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ ١٣ ﴿وَلِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ ١٤ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ١٦ ولاحظ التهويل في مصير الفجار، فأنت ترى أن دلالات اسم السورة «الانفطار» قد أضفى طابع التهويل على كل موضوعات السورة.

ثالثاً: بقيت الخاتمة، وتجد فيها السؤال التجهيلي المفيد للتهويل أيضاً: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ١٧ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ١٨﴾ ١٩ ولاحظ تكرار عبارة ﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾ مرتين، وفي الآية الأخيرة لفظة ﴿يَوْمَ﴾ العائدة على يوم الدين مرتين أيضاً، كل ذلك يطلعك على مدى التهويل ليوم الدين المتناسق مع دلالات اسم السورة «الانفطار»، الدال على المحور الذي التقى عليه البدء والختام في هذه السورة.



سورة الانفطار

سورة تهويل أمر "يوم الدين"

الموضوع الأول: (الآيات: ٥-١)
المقدمة التي تهوّل شأن يوم الدين:

- افتتحت السورة بذكر أربعة ظروف تفيد تهويل شأن يوم الدين: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَكَرَتْ ② وَإِذَا أَلْبَاخٌ فُجِّرَتْ ③ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ④﴾.
- وقد جاء جواب القسم دالاً على أن الإنسان سيحاسب في يوم الدين على ما قدّم وأخّر: ﴿عَمَتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ⑤﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٦-١٦)
عتاب للإنسان الجاحد، مع بيان مصير المؤمن ومصير المكذب يوم الدين:

- ثم انتقل السياق إلى عتاب الإنسان الجاحد لربه وخالفه: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ⑥ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ قَعْدَكَ ⑦ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ⑧﴾.
- وبين أن سبب جحود الإنسان لربه أنه لا يؤمن بيوم الدين الذي سيحاسب فيه: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ⑨﴾.
- ثم بين السياق أن يوم الدين مع شأنه العظيم إلا أنه لا ظلم فيه، إذ سيحاسب فيه كل امرئ بما كُتب في صحيفته: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩ كِرَامًا كُنِينًا ⑪ يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ ⑫﴾.
- ومما يؤكد تهويل شأن يوم الدين أن السياق بين مصير الأبرار ومصير الفجار بأسلوب التأكيد: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ⑬ وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ⑭﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٧-١٩)
الخاتمة المؤكدة لما سبق:

- فكما اختتمت السورة بذكر أربعة ظروف تدل على تهويل شأن يوم الدين، ختمت بالتأكيد على الموضوع ذاته: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ⑮ ثُمَّ مَّا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ⑯ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ⑰ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ⑱﴾.

سورة المطففين

﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ ① الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ② وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ③ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ④ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ⑤ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ⑥﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الطاء والفاء يدلّ على قلة الشيء، يقال: هذا شيء طفيف، والتطفيف: نقص المكيال والميزان»^(١)، وزاد الإمام ابن منظور رحمه الله: «التطفيف (في الإناء): أن يؤخذ أعلاه ولا يُتَمَّ كيّله، وطفّف على الرجل: إذا أعطاه أقلّ مما أخذ منه»^(٢). فوصفهم بالمطففين يدلّ على أنهم إذا كان لهم الحقّ أخذوه مع زيادة، وإن كان عليهم الحقّ أعطوه مع تخسير، والذي دفعهم لذلك هو عدم إيمانهم بميزان العدل الإلهي يوم القيامة.

أقوال بعض المفسّرين والكاّتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاّتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أنها نزلت لتعالج حالة التطفيف في الكيل أو سائر الحقوق والواجبات، التي تعتبر إحدى حالات الظلم والانحراف الأخلاقي في التعامل الذي كان سائداً في الجاهلية، فقد كان إدراكهم أن الدين يحطم كل أساس جاهلي تقوم عليه أوضاعهم ومصالحهم، وكان يقودهم إلى التكذيب بحقائق الدين التي من أهمّها الحساب يوم الدين، حتى استحقّوا الوصف بالفجار، والتحذير من هذا الفعل يجعل السورة تبني في نفوس المؤمنين الرقابة من الله تعالى ومن يوم حسابه، قبل البناء القانوني لتحريم التطفيف^(٣).

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٦١٦.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج ٩، ص ١٢٥. بتصرف.

(٣) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٣٩٢، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٣٥٤، وقطب، في ظلال =

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان عدل الجزاء الإلهي في يوم القيامة لكل من الفجار المجرمين، والأبرار المؤمنين، ولما كان التحذير من تطفيف الميزان أو الحقوق في الدنيا مشيراً إلى عدم إقامة المطففين حساباً لميزان الآخرة العادل، جعل اسماً للسورة للدلالة على المحور المذكور، وللتحذير من هذا الفعل. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة التحذير من الميزان الإلهي العادل في الآخرة، الذي يكذب به المطففون في كيل ميزان الدنيا.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: مقدّمة تحذّر المطففين في الميزان والحقوق في الدنيا من عدل ميزان الآخرة، ثم عرض للجزاء العادل حسب ميزان يوم القيامة لكل من الفجار والأبرار، ثم خاتمة مؤكدة لما سبق^(١).

= القرآن، ج ٦، ص ٣٨٥٤-٣٨٥٦، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ١٨٨، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ٦٥، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٥٠٥، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ٥٢٥-٥٢٧، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٢٢٧-٣٣٠.

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٦، وعرض الجزاء العادل للفجار والأبرار: ٧-٢٨، والخاتمة: ٢٩-٣٦. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه ومن ذلك، أولاً: هي الوحيدة التي امتازت بقوله تعالى عن المطففين: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ بدلاً من «من الناس»، وذلك يدل على طغيانهم، كما أنها الوحيدة التي فيها قوله ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾، ثانياً: هي الوحيدة التي فيها وصف يوم القيامة بـ «يوم عظيم»: ٥، بدون إضافة تفيد التخصيص مثل «عذاب» أو «مشهد»، وهو وصف يدل على تهويل شأنه وشأن ما فيه من الميزان والحساب، كما أنها الوحيدة التي فيها قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْآَلَمِينَ﴾: ٦، مع ذكر «الناس» من أجل الحساب العادل، بينما انظر قريباً منه في سورة غافر: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾: ٥١، وفي سورة النبا: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾: ٣٨، ثالثاً: هي الوحيدة التي فيها قوله تعالى عن الفجار: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ (٧) وَمَا أَذْرَكَ مَا سَحْبٍ: ٧-٩، وذكر الكتاب وموقعه وبيان أنه مرقوم يدل على أنه لا زيادة فيه ولا نقصان ولا غش، في مقابل إجرام المطففين بالزيادة والنقصان والغش، بينما انظر قوله تعالى في سورة الانفطار: ﴿وَإِنَّ الْفَجَارَ لَفِي حِمِيمٍ﴾: ١٤، الذي يصف المصير النهائي فقط، وكذلك امتازت سورة المطففين بقوله تعالى عن الأبرار: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ (١٨) وَمَا أَذْرَكَ مَا عَلَيْنَ ﴿١٩﴾ كِتَابَ تَرْقُومٍ: ١٨-٢٠، بينما انظر في سورة الإنسان: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَوْنَ مِنْ

أولاً: جاء في مقدمة السورة تحذير للمطففين الذين يطغون على الناس في كيلهم أو حقوقهم، من عدل ميزان الله تعالى يوم الدين، إذ سيحاسبهم على إجرامهم هذا: ﴿وَيَلِّ الْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾، ولاحظ توعدهم بالويل، وهو بمثابة حرب من الله عليهم، وهذا يدلنا على أن المطففين «كانوا طبقة الكبراء ذوي النفوذ، الذين يملكون إكراه الناس على ما يريدون، فهم يكتالون «على الناس» لا من الناس، فكان لهم سلطاناً على الناس بسبب من الأسباب، يجعلهم يستوفون المكيال منهم الميزان منهم استيفاءً وقسراً، . . . وإذا كالوا للناس أو وزنوا كان لهم من السلطان ما يجعلهم ينقصون حق الناس، دون أن يستطيع هؤلاء منهم نصفه ولا استيفاء حق . . . وإن مجرد الظن بأنهم مبعوثون لذلك اليوم كان يكفي لصدّهم عن التطفيف، ولكنهم ماضون في التطفيف وكأنهم لا يظنون أنهم مبعوثون»^(١).

إذا فتوعد الله لهم لم يكن لمجرّد أنهم يطففون الكيل ويبخسونه، بل لأنه كان نتيجة لطغيانهم وتكبرهم وظلمهم الناس، وهو ناتج عن عدم إقامتهم حساباً لميزان الله العادل يوم القيامة، وإنما اختير اسم السورة من أقلّ هذه الأعمال التي كانوا يعملونها شأنًا، للتأكيد على دقة الحساب يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رُبُّكَ أَحَدًا ۝﴾ (الكهف: ٤٩).

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى بيان الميزان العدل يوم القيامة، إذ سيحاسب الناس فيه، وسيلاقون جزاء أعمالهم: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝ كِتَابٌ مَرْقُومٌ

= كَأَن يَكُن مِرَاجُهَا كَافُورًا ۝: ٥، وفي سورة الانفطار ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝: ١٣، وهما يصفان المصير النهائي لنعيم الأبرار، وسورة المطففين هي الوحيدة التي فيها قوله عن الإبرار ﴿يَسْقَوْنَ مِنْ رَحِيٍّ مَخْثُورٍ ۝: ٢٥﴾ حَتَّىٰ يَسْتَكْبَهُ ۝: ٢٦، وهو وصف يدل على أنه لا زيادة ولا نقصان ولا غش فيه. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

(١) قطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٨٥٥، ٣٨٦٥. بتصرف.

﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الْبَلِّ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ، فأعمال الفجار محفوظة في كتاب مرقوم لا زيادة فيه ولا نقصان، وليس كميزان الدنيا الذي يستغله المطففون لمصالحهم، ولاحظ بيان أنهم كانوا يكذبون بيوم الدين، من أجل ذلك لم يحسبوا له حساباً، وبيان أنهم معتدون آثمون، وهما وصفان متلائمان مع ظلمهم الناس، ولاحظ أن بيان أعمالهم التي كانوا يكسبونها (ومنها التطفيف) جعلت قلوبهم في غفلة عن لقاء الله، حتى استحقوا الجحيم.

ثم انتقل السياق إلى بيان جزاء الأبرار العادل، وبذلك يكتمل بيان عدل الميزان الإلهي، ويلتقي الترهيب مع الترغيب: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَمُهُ مَسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَرْآئِهِمْ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ، وهم أيضاً أعمالهم محفوظة في كتاب مرقوم، لكنه في علو لا يشهده إلا الملائكة المقربون فقط، ولاحظ أنهم جزاء لحفظهم حقوق الناس وعدم غشهم إياهم، حفظ الله لهم رحيقهم في الجنة، وجعله مختوماً بالمسك فلا زيادة ولا نقصان فيه ولا غش، ولاحظ وصفهم بالمقربين كما وصف الملائكة، وهو وصف يقابل قوله تعالى عن الفجار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾.

فسياق السورة كما ترى يبرز العدل المطلق لميزان الله وجزائه يوم القيامة، وهو الميزان الذي كذب به المطففون في الدنيا فأكلوا حقوق الناس.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد ذكرت بعض الأعمال التي كان يقوم بها المجرمون في الدنيا، وهي أعمال قادهم إليها تكذيبهم بالآخرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ، ولاحظ أن الله تكفل حفظ أعمالهم وجزائهم عليها، ولم يوكل بذلك أحداً من البشر، مما يؤكد عدل الميزان الإلهي

في مقابل تطفيف هؤلاء المجرمين في كيلهم .

وكما افتتحت السورة ببيان أن الذي دفع المطففين إلى التطفيف هو عدم إقامتهم حساباً لميزان القيامة العادل ، ختمت ببيان استهزاء المؤمنين بهم يوم القيامة الدال على تحقق الجزاء العادل لكلا الفريقين في ذلك اليوم : ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٦٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يُنْظَرُونَ ﴿٦٣﴾ هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ ، وبذلك يلتقي البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور ، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة .



سورة المطففين

سورة التحذير من الميزان الإلهي العادل يكذب به المطففون في كيل ميزان الدنيا

الموضوع الأول:
(الآيات: ١-٦)

المقدمة التي تحذر
المطففين من الميزان
والحقوق في الدنيا، من
عدل ميزان الآخرة:

■ افتتحت السورة بتهديد
المطففين بأن لهم
الويل: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ
﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى
النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا
كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ
﴿٣﴾﴾.

■ وبيّنت أن الذي دفعهم
إلى الظلم والبخس إنما
هو عدم إيمانهم بالآخرة
التي فيها ميزان العدل
الإلهي: ﴿أَلَا يَظُنُّ
أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾
لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ
النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٧-٢٨)

عرض للجزاء العادل حسب ميزان
يوم القيامة لكل من الفجار والأبرار:

■ ثم بيّن السياق أن أعمال الفجار
محفوظة في سجين في كتاب
مرقوم لا مجال فيه للزيادة أو
النقصان أو الغش: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ
الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَزِدُّكَ مَآ يَحِيقُ
﴿٨﴾ كِتَابَ مَرْثُومٍ ﴿٩﴾﴾.

■ ثم بيّن أنهم بسبب تكذيبهم بالآخرة
وبآيات الله، سينالون جزاءهم
العادل يوم القيامة فيُصلّون
الجحيم.

■ وبيّن أن أعمال الأبرار محفوظة في
عليين في كتاب مرقوم لا مجال
فيه للزيادة أو النقصان أو الغش.

■ وبيّن أنهم لإيمانهم سينالون
جزاءهم العادل في النعيم،
فيُسقون من رحيق مختوم، ختامه
مسك، قد حفظه الله لهم كما
حفظوا حقوق الناس في الدنيا ولم
يخسوها.

الموضوع الثالث: (الآيات:
٢٩-٣٦)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ ذكرت بعض الأعمال التي
كان يقوم بها المجرمون في
الدنيا، وقد قادهم إليها
تكذيبهم بالآخرة: ﴿إِنَّ
الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٣٧﴾ وَإِذَا مَرُّوا
بِهِمْ يَسْتَفْزِرُونَ ﴿٣٨﴾﴾، وقد
بيّنت أن الله تكفل بحفظ
أعمالهم ليجازيهم بها حسب
ميزان العدل يوم القيامة.

■ وكما افتتحت السورة ببيان أن
الذي دفع المطففين إلى
التطفيف هو عدم إقامتهم
حساباً لميزان الآخرة،
ختمت ببيان استهزاء المؤمنين
يوم القيامة بهم مما يدل على
تحقق الجزاء العادل للفريقين
يوم القيامة: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٩﴾ عَلَى
الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٤٠﴾ هَلْ نُؤِثِّبُ
الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾.

سورة الانشقاق

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ
﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس: «شقّ: الشين والقاف أصل واحد صحيح يدلّ على انصداع في الشيء، ثم يحمل عليه ويشقّ منه على معنى الاستعارة، تقول: شققتُ الشيء أشقّه شقاً، إذا صدعته»^(١). وأكد ذلك الإمام الأصفهاني بقوله: «الشَّقُّ: الخَرْمُ الواقع في الشيء»^(٢). وأما الدلالة السياقية فتعود إلى وصف السماء بالانشقاق يوم القيامة، وهو يدل على تصدّعها وتقطّعها وسَمْعها لربها وطاعتها له في أمره، فاسم السورة يدل على كمال قدرة الله تعالى، وكمال خضوع واستسلام الكون له يوم القيامة^(٣).

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر بعض المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن مقصودها بيان أن أولياء الله ينعمون، وأعداءه يعذبون، لأنهم كانوا لا يقرّون بالبعث ولا بالعَرَض على المَلِك الذي أوجدهم، فينقسمون حين ذلك إلى أهل ثواب وأهل عقاب، واسم السورة «الانشقاق» أدلّ دليل على ذلك بتأمّل الظرف وجوابه. وقد أكّدت السورة ذلك بعرضها مشاهد الانقلاب الكوني المتميّزة بطابع الاستسلام لله، استسلام السماء والأرض في طواعية وخشوع ويُسْر، وذلك يناسب خطاب الإنسان بلهجة البصير المشفق الرحيم، خطوة خطوة، وفي راحة ويسر، ثم التعجيب من حال الذين لا

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٥١٩.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ٤٥٩.

(٣) وهناك قول آخر: أي: تشققت السماء بالغمم لنزول الملائكة، أخذاً من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّ وَيُؤَلِّقُكَ تَزِيلًا﴾ (الفرقان: ٢٥). ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج ٤، ص ٧١٢.

يؤمنون بعد ذلك كله^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: إثبات حقيقة اليوم الآخر من خلال بيان كمال خضوع واستسلام السماء والأرض لأمر الله تعالى في الآخرة، ولما كان انشقاق السماء يوم القيامة أدل آيات السورة على المحور المذكور، سُميت السورة به ليدل على المحور. وقد تميزت هذه السورة بأنها سورة بيان خضوع واستسلام السماء والأرض والإنسان لأمر الله يوم القيامة.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وإليك بيان ذلك:

تحتوي السورة مقدمة تتحدث عن حال السماء والأرض يوم القيامة، وبيان كمال خضوعهما واستسلامهما لربهما، ثم مخاطبة للإنسان مع بيان مصير المؤمنين ومصير المكذبين وبيان أنه ليس لهم إلا الاستسلام لأمر ربهم في ذلك اليوم، مع تأكيد ذلك ببيان خضوع الآيات الكونية لله تعالى في الدنيا، ثم خاتمة فيها عتاب ودعوة للإيمان بيوم القيامة^(٢).

(١) البقاعي، الفيروزآبادي، البيان بمقاصد القرآن، ص ١٢٧، نظم الدرر، ج ٨، ص ٣٦٧، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٨٦٤، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٢١٧، وأ. دمسلم وزملاؤه، التفسير الموضوعي، ج ٩، ص ٧٤. والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٥٠٧، وطبارة، تفسير جزء عم، ص ٧١، وطهماز، من سورة الطور إلى سورة الناس، ص ٤٠٥. وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(٢) المقدمة شملت الآيات: ١-٥، ومخاطبة الإنسان: ٦-١٩، والخاتمة: ٢٠-٢٥. ومن لطائف هذه السورة أنها تميزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة ببيان خضوع السماء والأرض لله تعالى يوم القيامة: (أ) قوله تعالى عنهما ﴿وَأَذِنتُ لِرَبِّهَا وَخَفَّتْ﴾: ١، ٥، لم يتكرر في القرآن، (ب) وكذلك قوله ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾: ٣، (ج) وقوله ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾: ٤، ثانياً: ومنها أمور متعلقة ببيان خضوع الآيات الكونية لله تعالى في الدنيا: (أ) فالقسم بالشفق لم يذكر إلا هنا: ١٦، (ب) وكذلك القسم بـ ﴿وَالْأَيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾: ١٧، وكذلك ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾: ١٨. ثالثاً: ومنها أمور تدل على خضوع الإنسان لله تعالى يوم القيامة: (أ) فقوله تعالى عن الإنسان: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا مَلْفَقِيهَ﴾: ٦، لم يتكرر في القرآن، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحْمُورَ﴾: ١٤، وقوله: ﴿لَنَرَكُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾: ١٩. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

أولاً: تبتدئ السورة بذكر مشهد انشقاق السماء وخضوعها التام لأمر ربها جلّ وعلا، ثم خضوع الأرض لأمر ربها أن تُمدّ وتلقي ما فيها فلا يبقى فيها شيء، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۖ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ﴾، ولاحظ تكرار عبارة: وأذنت لربها وحقت، الدال على كمال الخضوع والاستسلام، ثم إن هذه السورة هي الوحيدة التي جاءت فيها هذه اللفظة.

ومعلوم أن انشقاق السماء آية أقلّ تهويلاً من انفطار السماء كما في سورة الانفطار، ولذلك لا بد من المقارنة بين الأمور المشتركة بين السورتين لبيان مدى ارتباط موضوعاتهما بالاسم، فأول ما يلاحظ أن سورة الانشقاق لم تفصل في الأحداث الكونية يوم القيامة على الوجه الذي تراه في سورة الانفطار، لأن مقصودها الدلالة على كمال الخضوع والاستسلام وليس التهويل كما في الانفطار، ويلاحظ ذكر خضوع الأرض واستسلامها في الانشقاق، ولا تجد ذكراً للأرض بشكل مباشر في الانفطار.

وأن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۖ﴾ متناسق مع الدلالة اللفظية للانشقاق، الدال على التصدّع، وصيغة الماضي للأفعال، والفعل المبني للمجهول في قوله (مدّت)، تؤكد كمال الخضوع، وكأنه أمر قد حصل وانتهى.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى دعوة الإنسان إلى الإيمان باليوم الآخر وبيان مصير المؤمن والكافر فيه: ﴿بَتَّائِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ۚ فَأَمَّا مَنْ أُوَفِّيٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَسَوْفَ يُجَاسَّبُ جَسَابًا يَسِيرًا ۚ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۚ وَأَمَّا مَنْ أُوَفِّيٰ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۖ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۚ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۚ﴾، لاحظ بيان أن الإنسان سيلاقي جزاء كدحه في الدنيا، وقد أكد السياق ذلك بحرف الفاء، مما يدل على مزيد الخضوع والاستسلام، ويلاحظ هنا مزيد التفصيل في ذكر مصير الفريقين: المؤمنين والمكذّبين على نحو لا تجده في الانفطار، فزيادة هذا التفصيل في الانشقاق دال أيضاً على كمال خضوع الإنسان واستسلامه لأمر الله في ذلك اليوم، ولاحظ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَن لَّنْ يَحُورَ ۚ بَلَّٰلَ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ۚ﴾ الدال على خضوع الإنسان لأمر ربه بالبعث، سواء شاء الإنسان ذلك أم أباه.

وإذا قارنا ما جاء في سورة الانفطار حول موضوع جزاء الإنسان يوم القيامة مع سورة الانشقاق، وجدنا أن سياق سورة الانفطار يركّز على جزاء الإنسان في «يوم الدين» الذي سيلقي فيه جزاء أعماله، مما أضفى تهويلاً على ذلك اليوم، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ (١) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (٢) كِرَامًا كَنِينِينَ (٣) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (٤)﴾، بينما في سورة الانشقاق كان التركيز على كمال خضوع الإنسان واستسلامه لأمر ربه تعالى.

ثم انتقلت السورة إلى القَسَم ببعض المظاهر الكونية الدالة على الخضوع والاستسلام التام لربّ العالمين في الدنيا: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ (٥) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (٦) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (٧)﴾، ولا يخفى ارتباط هذه الآيات الكونية بالسماء التي أضيف إليها الانشقاق أول السورة، ولاحظ قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (٨)﴾، إذ إن اتساق القمر آية تكاد تكون عكس انشقاق السماء تماماً. وكأن السياق يقول: إن الذي خلق هذه الآيات على نحو تكون فيه كاملة الخضوع والاستسلام، هو القادر على بدء يوم القيامة بانشقاق السماء ومد الأرض باستسلام وخضوع أيضاً، وانظر جواب القَسَم الدال على خضوع البشر لأمر ربهم شأؤوا أم أبوا: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (٩)﴾^(١). إن ذكر خضوع هذه الآيات لأمر ربها في الدنيا يؤكد خضوعها وخضوع الإنسان لأمر ربه يوم القيامة، وهذا ما أكدته جواب القَسَم.

ثالثاً: وفي خاتمة السورة تجد التعجيب من حال الكافر الذي لا يؤمن باليوم الآخر بعد ذكر هذه الآيات وتبشيرهم بالعذاب الأليم الذي يستثنى منه المؤمنون الذين لهم أجر عند ربهم غير ممنون: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (١١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ (١٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (١٣) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (١٤) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (١٥)﴾، والالاف للنظر أن السياق دعا خلال ذلك إلى السجود

(١) يقول سيد قطب: «أي لتعانق حالاً بعد حال، وفق ما هو مرسوم لكم من تقديرات وأحوال. وكأن هذه الأحوال مطايا يركبها الناس واحدة بعد واحدة. وكل منها تمضي بهم وفق مشيئة القدر الذي يقودها ويقودهم في الطريق، فتنتهي بهم عند غاية تؤدي إلى رأس مرحلة جديدة، مقدرة كذلك مرسومة، كتقدير هذه الأحوال المتعاقبة على الكون من الشفق، والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق. حتى تنتهي بهم إلى لقاء ربهم». في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٨٦٩ بتصرف.

لرب العالمين حينما يذكرهم القرآن ببيان أن كل ما في الكون مستسلم خاضع لله عز وجل، كما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا إِنَّهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ ۝١٥﴾، وكذلك قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝١٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٢٠﴾. وكما افتتحت السورة ببيان استسلام وخضوع السماء والأرض والإنسان لأمر الله يوم القيامة، ختمت بعرض مصير الفريقين من الإنسان في ذلك اليوم، للتأكيد على استسلام الإنسان وكمال خضوعه لأمر الله يوم القيامة.

فأنت ترى أن دلالات الخضوع والاستسلام التي دل عليها اسم السورة «الانشقاق» قد أضفى دلالاته على كل موضوعاتها، فهو لا شك أدل ما في السورة على المحور المذكور الذي التقى عليه البدء والختام فيها.



سورة الانشقاق

سورة بيان خضوع واستسلام السماء والأرض والإنسان لأمر الله تعالى يوم القيامة

الموضوع الأول: (الآيات: ٥-١)

المقدمة التي تبين خضوع واستسلام السماء والأرض لأمر الله يوم القيامة:

■ افتتحت السورة ببيان استسلام السماء وخضوعها لأمر الله يوم القيامة: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَخَفَّتْ ②﴾.

■ ثم بينت أن حال الأرض كذلك: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ③ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخَلَّتْ ④ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَخَفَّتْ ⑤﴾.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٦-١٩)

بيان خضوع الإنسان لأمر ربه يوم القيامة، مع تأكيد ذلك ببيان خضوع الآيات الكونية الدنيوية لأمر ربها:

■ ثم بين السياق حال الإنسان يوم القيامة، إذ ليس له إلا الاستسلام لأمر الله، وابتدأ السياق بعرض مصير المؤمنين: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ ⑥ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ⑦ فَمِمَّا مِنْ أَوْفَىٰ كِتَابٍ يَسْبِيهِ ⑧ فَسَوْفَ ⑨ يُحَاسَبُ حِسَابًا سَعِيرًا ⑩ وَنَقْلُبُ إِلَىٰ ⑪ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ⑫﴾.

■ وبيّنت مصير الكافرين: ﴿وَمِمَّا مِنْ ⑬ أَوْفَىٰ كِتَابٍ وَرَأَىٰ ظَهْرَهُ ⑭ فَسَوْفَ يَدْعُوا ⑮ ثُبُورًا ⑯ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ⑰﴾.

■ ثم أكد السياق حقيقة استسلام الإنسان وخضوعه لأمر ربه في الآخرة، ببيان استسلام وخضوع الآيات الكونية الدنيوية لأمر ربها: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ⑱ وَاللَّيْلِ ⑲ وَمَا وَسَقَ ⑳ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ㉑ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ㉒﴾.

الموضوع الثالث: (الآيات: ٢٠-٢٥)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت ذكر الحال العجيب للإنسان الكافر بآيات الله تعالى، بعد بيان السورة أن كل ما في الكون مستسلم لأمر الله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ㉓ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ㉔﴾.

■ وكما افتتحت السورة ببيان استسلام وخضوع السماء والأرض والإنسان لأمر الله يوم القيامة، ختمت بعرض مصير الفريقين في ذلك اليوم للتأكيد على الاستسلام لأمر ربهم: ﴿يَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ㉕ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ㉖ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ㉗ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ㉘﴾.

سورة البروج

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْوَعْدِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُلْ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الباء والراء والجيم أصلان، أحدهما: البروز والظهور، والآخر الوَزَرُ والملجأ»^(١)، وقال الإمام الأصفهاني رحمه الله: «البروج: القصور، وبه سُمِّيَ بروج السماء لمنازلها المختصّة بها»^(٢)، فوصف نجوم السماء بالبروج يدل على أن الله تعالى خلقها على نحو بارز منيع لِيُسْتَدَلَّ بها على عظمته تعالى وكمال قدرته، وهذا ما دلت عليه الدلالة السياقية لاسم السورة، فقد أقسم الله بالسماء التي خلق الله فيها هذه البروج، ليؤكد حقيقة أن خالق هذه البروج شاهدٌ على ما يجري في كونه، وأنه قادر على إنزال بطشه بالظالمين، وأن ينعم المؤمنين في جنات النعيم.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة هو تسليّة المؤمنين بأن ما أصابهم من الفتن قد أصاب غيرهم ما هو أكثر منه، وأن الله تعالى قادر على تنعيم المؤمن الولي، وتعذيب الكافر الشقي، واسم السورة يدل على ذلك من أكثر من وجهة، فلما كانت الأخاديد خطوطاً جعلت في الأرض مستعرة بالنار لفتن المؤمنين، أقسم بما تضمنته السماء من بروج للنجوم تشبه مدارات متألّثة بأنوار النجوم الملتهبة على أنه منتقم من الظالمين، ومن جهة أخرى تتشابه بروج النجوم ذات المنازل العالية، مع حادث الأخدود الذي بلغ في الشناعة مبلغاً متجاوزاً،

(١) ينظر: ابن فارس، المقاييس، ص ١٢٨.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ١١٥.

ومن الممكن أن تكون دلالة القَسَم بهذه البروج مشتركة مع المنازل العالية للمؤمنين المفتونين الذين ماتوا شهداء^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان أن بطش خالق السماوات والأرض، والشهيد على ما يجري فيها، والقادر على بعث الخلق، أن بطشه واقع بالظالمين سواء في الدنيا أو في الآخرة، ولما كان القَسَم بالسماء ذات البروج دالاً على كمال علم الله تعالى وكمال قدرته، جُعِل هذا القَسَم اسماً للسورة ليدل على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة التحذير من بطش خالق البروج الشهيد على ما يجري في كونه.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام، أولها: مقدمة تحوي القَسَم من الله تعالى على أن انتقامه من الظالمين حاصل لا محالة، وثانيها: تعقيب يؤكد وقوع بطشه تعالى بالظالمين في الدنيا والآخرة ونصره للمؤمنين، وثالثها: الخاتمة المؤكدة لما سبق^(٢).

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٣٩٦، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٣٧٦، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٨٧١ و ٣٨٧٢، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٢٣٧، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ٨٧ و ٨٨، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٥٠٩، ووادي، ومنها، من دلالات أسماء السور، ص ٣٣١ - ٣٣٣.

(٢) مقدمة السورة شملت الآيات: ١-٧، والتعقيب بيان وقوع بطشه تعالى بالظالمين ونصره للمؤمنين: ٨-١٦، والخاتمة: ١٧-٢٢. ومن لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك، أولاً: منها ما يتعلق بالقَسَم، أ) فالقَسَم بالسماء بوصفها ﴿ذَاتُ الْبُرُوجِ﴾: ١، لم يذكر إلا هنا، وكذلك القسم بيوم القيامة ووصفه بـ: ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: ٢، بصيغة اسم المفعول، وكذلك القَسَم ﴿رَاشِدٍ وَشَهِيدٍ﴾: ٣، إذ يعود اسم الفاعل «شاهد» - فيما اعتقد - على الله تعالى، بينما ذكر اسم الفاعل ﴿شَاهِدٌ﴾ عائداً على الله تعالى في موضعين آخرين ولكن بدون القَسَم، في سورة آل عمران: ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾: ٨١، وفي سورة الأنبياء: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾: ٧٨، ب) لم يأت في القرآن جواب القَسَم بلفظة ﴿قِيلَ﴾ الدالة على اللعنة والنقمة إلا هنا ﴿قِيلَ أَخَذُوا الْأَخْيَارَ﴾: ٤، بينما ذكرت هذه اللفظة في مواضع أخرى ولكن لم تكن جواباً للقَسَم، في سورة الذاريات: ﴿قِيلَ الْفَرْصُونَ﴾: ١٠، وفي سورة المدثر: ﴿قِيلَ كَيْفَ نَذَرَ﴾: ١٩، وفي سورة عبس: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ﴾: ١٧، ثانياً: منها ما يتعلق بالله =

أولاً: جاء في المقدمة قَسَمٌ من الله تعالى ببعض مظاهر كمال قدرته على أن بطشه واقع بالظالمين لا محالة: ﴿وَأَسْمَاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ ١ ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ ٢ ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ ٣ ﴿قُلْ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ ٤ ﴿أَلْتَارِ ذَاتِ الْوُفُودِ﴾ ٥ ﴿إِذْ هُرِّعَتْ عَلَيْهَا قُوعُودٌ﴾ ٦ ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ ٧ ، فالقسم بالسماء التي جعل الله نجومها كالبروج لضخامتها وكثرة عددها وارتفاعها، يدل على أن من خلقها وجعل لها مدارات خاصة إلهٌ قدير منتقم، وكذلك القَسَمُ باليوم الموعود، وهو يوم القيامة الذي سيجازي الله فيه الخلائق بعد أن يبعثهم، وقد أقسم تعالى بذاته كونه شاهداً على ما يجري في كونه ومنه فعلة أصحاب الأخدود، والأقسام الثلاثة تؤكد المحور المذكور.

ولاحظ جواب القَسَمِ الدال على أن نقمة الله تعالى وبطشه واقع بأصحاب الأخدود الذين فتنوا المؤمنين، وقد يسأل سائل: لم لم تذكر السورة أن الله تعالى قد انتقم منهم في الدنيا؟ والجواب أن دلالة القَسَمِ وجوابه تفيد أنه تعالى أخر وقوع بطشه بهم إلى اليوم

== تعالى، أ) فقله تعالى ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ بذكر هذين الاسمين الجليلين بعد لفظ الجلالة لم يأت إلا هنا، بينما ذكر هذان الاسمان في موضعين آخرين ولكن بدون ذكر لفظ الجلالة، في سورة إبراهيم: ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾: ١، وفي سورة سبأ: ﴿وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾: ٦، (ب) وقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾: ٩، لم يذكر في القرآن إلا هنا وفي سورة المجادلة وبالعبارة ذاتها: ٦، ومعلوم أن محوري السورتين مشتركان في دلالة هذه العبارة، (ج) وقوله تعالى ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾: ١٢، لم يذكر إلا هنا بهذه الصيغة، وقريب منه في سورة الدخان: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ الْبُظُفَّةُ الْكَبِيرَةُ إِنَّا نُنَقِّصُونَ﴾: ١٦، وفي سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ أُنذِرْتُمْ بِطُغْيَانِكُمْ فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾: ٣٦، (د) لم يذكر الاسمان الجليلان ﴿الْفَقُّورُ الْوَدُودُ﴾ مجتمعين إلا هنا، بل لم يذكر ﴿الْوَدُودُ﴾ إلا هنا وفي سورة هود على لسان شعيب عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّيَ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾: ٩٠، ومعلوم أن السورتين قد اشتركتا بذكر مصير فرعون وثمود، (هـ) لم يذكر اسم الله تعالى ﴿الْحَمِيدُ﴾ إلا هنا: ١٥، وفي سورة هود أيضاً على لسان الملائكة الكرام: ﴿رَحِمَتْهُمُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾: ٧٣، في سياق تبشير إبراهيم عليه السلام بقدرة الله على رزقه بالولد، ومن اللطيف أن هذا مشترك مع قوله تعالى في سورة البروج: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُخْتِئُ﴾: ١٣، الدال على قدرته على الخلق والبعث، (و) وقوله تعالى ﴿فَمَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾: ١٦، لم يذكر إلا هنا، وفي سورة هود: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾: ١٠٧، في سياق بيان مصير الأشقياء يوم القيامة، وهذا أمر مشترك مع سورة البروج، (ز) وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾: ٢٠، لم يذكر إلا هنا بهذه الصيغة، وقد وصف علم الله بالمحيط في مواضع كثيرة، ومن اللطيف أن من هذه المواضع ما جاء في سورة هود أيضاً على لسان شعيب عليه السلام: ﴿إِنَّكَ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾: ٩٢، وقد قال شعيب أيضاً فيها لقومه ﴿وَإِنَّ أَخَافَ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾: ٨٤. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

الآخر، وذلك أفضع من وقوعه بهم في الدنيا. ثم إن السورة ذكرت وقوع بطش الله تعالى بأقوام آخرين في الدنيا.

وقد بين السياق سبب استحقاقهم لنزول هذا البطش الإلهي بهم، فهم قد حفروا في الأرض أخذوداً وأضرموا فيه النار، وقعدوا ينظرون إلى المؤمنين وهم يحترقون فيها، وكأنهم يتمتعون بهذا المشهد الفظيع، وذكر أنهم شهود على فعلتهم متلائم مع بيان كونه تعالى شاهداً على ما يجري في كونه، إذاً فالمقدمة تبرز بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى، لتؤكد حقيقة وقوع بطشه بالظالمين، والقسم بالسماء ذات البروج يؤكد هذا.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى تعقيب يؤكد حقيقة وقوع بطشه تعالى بالظالمين، وأنه سبحانه سينصر المؤمنين: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَنَوُوا الْكُفْرَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَبُوءُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ أَفْوَزُ الْكَبِيرِ ۝١١﴾، ولاحظ بيان مدى ظلم أصحاب الأخدود، فهم فعلوا فعلتهم بالمؤمنين لمجرد أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد، وبيان كونه تعالى مالك السماوات والأرض، ليدل على تمام قدرته، وبيان كونه تعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ليدل على كمال علمه.

وقد أكد السياق أن بطش الله تعالى سينزل بأصحاب الأخدود وغيرهم ممن فتن أهل الإيمان يوم القيامة، وأنه سيذيقهم من عذاب جهنم وما فيها من عذاب الحريق، فهما عذابان وليسا عذاباً واحداً، وتخصيص عذاب الحريق بالذكر متلائم مع فعلتهم بالمؤمنين، وأما أهل الإيمان فسيحقق لهم النصر التام يوم القيامة بدخولهم الجنات، وذلك الفوز الكبير، ولا يعني ذلك أنه تعالى لن ينصر أهل الإيمان في الدنيا.

ولتأكيد حقيقة وقوع بطشه تعالى بالظالمين ونصره للمؤمنين، ذكر السياق بعض الصفات الإلهية المؤكدة لذلك: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَبَعِيدٌ ۝١٣ وَهُوَ أَفْوَزُ الْوَدُودِ ۝١٤﴾، ولتأكيد بـ«إِنَّ» واللام، فبطشه تعالى شديد، أشد من بطش الظالمين، وهو سبحانه كما بدأ الخلق قادر على إعادتهم ليوم القيامة، ومع كونه تعالى ذا القدرة التامة والبطش الشديد، فهو سبحانه غفور ودود لمن تاب وآمن وأحسن

عملاً، وذكر كونه تعالى ذا العرش، متلائم مع دلالة اسم السورة الدال على ضخامة نجوم السماء وارتفاعها، ولاحظ صيغة المبالغة (فَعَال) المؤكدة للمحور المذكور.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التذكير بوقوع بطش الله بالظالمين بذكر أنموذجين مشهورين: ﴿هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۖ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝١٨﴾، وسبب اختصاص هذين الأنموذجين - فيما اعتقد - أن فرعون ادّعى الإلهية، فبيان هلاكه هو وجوده يدل على أن الله تعالى هو وحده ذو القدرة المطلقة، وأما ثمود فهم مشهورون بنحت الصخور في جبال، وهذا متسق مع حفر أصحاب الأخدود أخذودهم في الأرض، فكما أن الله تعالى قادر على إهلاك ثمود وهم أحذق قوم في نحت الصخور وظنوا أنها ستؤمنهم من عذاب الله - كما بينت سورة الحجر - قادر على إهلاك أصحاب الأخدود الذين حفروا أخذوداً في الأرض، وظنوا أنهم سينجون بفعلتهم ولن يحاسبوا.

وكما افتتحت السورة بالقسم ببعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى لتؤكد حقيقة وقوع بطشه بالظالمين، وأنه على كل شيء شهيد، ختمت ببيان كونه تعالى محيطاً بأعمال الكافرين وبتكذيبهم وسيجازيهم عليه، وبيان أن القرآن قد أخبر بوقوع بطشه تعالى بهم، وأنه تعالى لديه لوح محفوظ فيه علم كل شيء: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ۝١٩ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ۝٢٠﴾ بل هو قَرَأَنٌ مُّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾، وهكذا التقى البدء والختام على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ دلالة.



سورة البروج

سورة التحذير من بطش خالق البروج الشهيد على ما يجري في كونه

<p>الموضوع الأول: (الآيات: ٧-١)</p> <p>المقدمة التي تحوي قسماً من الله على أن انتقامه من الظالمين حاصل لا محالة:</p> <p>■ افتتحت السورة بقسم الله بالسماء وما فيها من النجوم التي كالبروج لضخامتها وارتفاعها، وبالقسم باليوم الموعود الدال على قدرته تعالى على البعث كما هو قادر على الخلق، وبالقسم بذاته سبحانه كونه شاهداً على ما يجري في كونه ومنه فغلة أصحاب الأخدود.</p> <p>■ وجواب القسم: ﴿يُنْذِرُ أَصْحَابَ الْأُخْدُودِ﴾ أي: نزلت بهم لعنة الله وسيرون بطشه في الآخرة بهم وهو أقطع من بطشه بهم في الدنيا.</p>	<p>الموضوع الثاني: (الآيات: ٨-١٦)</p> <p>تعقيب يؤكد حقيقة وقوع بطش الله تعالى بالظالمين، وأنه سينصر المؤمنين:</p> <p>■ بين السياق المصير الأخروي للظالمين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّفْسَ الْكَافِرَةَ وَالْمُؤْمِنَةَ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمُ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾.</p> <p>■ ثم بين المصير الأخروي للمؤمنين الفائزين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾.</p> <p>■ ثم ذكر السياق بعض صفات الله الدالة على المحور المذكور: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾. إِنَّهُ هُوَ بَازٍ وَبَعِيدٌ ﴿١٢﴾ فهو المتقمم العظيم سبحانه، وكما هو قادر على الخلق، فهو قادر على البعث والمجازاة.</p> <p>■ ثم بين السياق أنه سبحانه مع ذلك فهو غفور ودود لمن آمن وعمل صالحاً: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾.</p> <p>■ وهو سبحانه عظيم الملك قادر على كل شيء: ﴿ذُرِّ الْعَرْشِ لَلْجِدِّ﴾. فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ.</p>	<p>الموضوع الثالث: (الآيات: ١٧-٢٢)</p> <p>الخاتمة المؤكدة لما سبق:</p> <p>■ أكدت حقيقة وقوع بطش خالق البروج من خلال ذكر أنموذجين مشهورين على ذلك: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ الْجَنَّاتِ﴾. ﴿فَرَعُونَ ثَمُودَ﴾.</p> <p>■ وكما افتتحت السورة بالقسم بمظاهر كمال قدرته تعالى على أن بطشه بالظالمين واقع لا محالة، وأنه شهيد على كل شيء، ختمت بالتأكيد على كونه تعالى محيطاً بأعمال الكافرين، وبتحذيرهم من بطشه الذي سينالهم، وأن لديه سبحانه لوحاً محفوظاً فيه علم كل شيء: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾. وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٥﴾ هُوَ قَرِيبٌ أُنْجِيهِ ﴿٢٦﴾ فِي لَوْجٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٧﴾.</p>
--	---	---

سورة الطارق

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَتْهَا حَافِظٌ ﴿١﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

ذكر الإمام ابن فارس رحمه الله للجذر «طرق» أربعة أصول، يعنينا منها الأول والثاني: «أحدها الإتيان مساءً، والثاني الضرب»^(١)، وقال الإمام الأصفهاني رحمه الله: «الطارق: السالك للطريق، لكن خُصَّ في التعارف بالآتي ليلاً... وعُبر عن النجم بالطارق، لاختصاص ظهوره بالليل»^(٢)، فالدلالة اللفظية تعود لمعنيين، أحدهما مجازي كنائي، وهو أن يكون وصف النجم بالطارق عائداً على ظهوره ليلاً، أو عائداً على طرق الشهب للشياطين المسترقة للسمع، والثاني حقيقي وهو يدل على «النجوم النيوترونية شديدة التضاضط، والمعروفة باسم النجوم النابضة، وهي نجوم ذات كثافة وجاذبية فائقة وحجم صغير، ولذا تدور حول محورها بسرعات عالية، مطلقة كميات هائلة من الموجات الراديوية ولذا تعرف باسم: النواض الراديوية... ولعلها المقصودة بالوصف القرآني لأنها تطرق صفحة السماء وتثقب صمتها بنبضاتها سريعة التردد»^(٣)، وجاء اسم السورة على صيغة اسم الفاعل التي تعطي دلالة تمكّن النجم من الطرق على نحو بالغ.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً من الربط بين اسم السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة إقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته وبلغ حكمته وسعة علمه، وذلك ببيانها لبعض مظاهر قدرة الله تعالى، وقد كان النجم

(١) ينظر: ابن فارس، المقاييس، ص ٤٤٩/٣.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ٥١٨. بتصرف.

(٣) أ. د. زغلول النجار، السماء في القرآن الكريم، ص ٢٦٩ - ٢٧١. بتصرف. وينظر: أ. د. محمد راتب النابلسي، آيات الله في الأفاق، ص ٧٥. الذي له التفسير العلمي ذاته تقريباً.

الطارق الثاقب أحدها، فدلالة القَسَم والمُقَسَم عليه تدل على صدق القرآن في إخباره بتنعيم أهل الإيمان، وتعذيب أهل الكفران، وقد اشتركت موضوعات السورة ببيان بعض مظاهر الحفظ، ليتلاءم ذلك مع المُقَسَم عليه ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: إثبات قدرة الله على البعث والمجازاة من خلال بيان بعض مظاهر علم الله الحفيظ في مخلوقاته صغيرها وكبيرها، وقد كان القَسَم بالنجم الطارق أدل ما في السورة على المحور المذكور، فسُميت السورة به. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة عرض مظاهر علم الله الحفيظ، الدالة على قدرته على البعث والمجازاة.

وبتأمل في موضوعات السورة يبرز له الترابط التام بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام، أولها: مقدّمة تحوي قَسماً من الله عزّ وجلّ بحفظه السماء ونجومها على أن أعمال العباد محفوظة، ثانيها: بيان بعض مظاهر علم الله الحفيظ في خلق الإنسان، ثالثها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق^(٢).

أولاً: جاء في مقدّمة السورة قَسَم من الله تعالى ببعض مظاهر حفظه للسماء ونجومها،

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ٣٩٧، وقد فسّر الطارق بالشهب المنفضة على من يسرق السمع من الشياطين، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٣٨٥، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٨٧٧، وأ. د. مسلم، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ١٠٠. والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ص ٥١١، ٥١٢، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(٢) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٤، وبيان بعض مظاهر الحفظ في خلق الإنسان: ٥-١٠، والخاتمة: ١١-١٧. ومن لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه وفيما يلي بيان ذلك، أولاً: منها ما يتعلق بحفظ السماء والنجوم والأرض، أ) لم يوصف النجم بـ ﴿الطَّارِقُ﴾ و﴿النَّاقُطُ﴾ إلا هنا، وهما وصفان يدلان على أن الله جعل للنجم مساراً خاصاً به، ب) لم توصف السماء بـ ﴿ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ إلا هنا: ١١، ليدل على حفظه تعالى لما نزل منها من الماء وما يرجع إليها، ج) لم توصف الأرض بـ ﴿ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ إلا هنا: ١٢، ليدل على حفظه تعالى لما يخرج منها من النبات، ثانياً: ومنها ما يتعلق بحفظ أعمال الإنسان، أ) ف قوله تعالى ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾: ٤، لم يذكر إلا هنا، وقريب منه في سورة الأنعام ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾: ٦١، وفي سورة الرعد ﴿لَهُ مُعَقِّتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُوكَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾: ١١، وفي سورة

على أن أعمال العباد محفوظة أيضاً: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝﴾ إنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿١﴾، وسواء كان الطارق هو النجم الذي يثقب بضوئه الظلام ويرز للناس ليلاً، أو هو النجم النيوتروني النابض كما يقول أصحاب التفسير العلمي - ولعله الوجه الأقرب لأن في السورة إشارات علمية لم تكتشف إلا حديثاً - فالقَسَم يدل على أن الله تعالى حفظ السماء ونجومها، فجعل لكل منها مساراً خاصاً به، مهما كان حجم هذا النجم وسرعته وكثافته.

ولاحظ أن المُقَسَم عليه بهذا القَسَم العظيم هو أن أعمال العباد محفوظة جميعاً، أكد ذلك أسلوب الحصر والقصر، فهو سبحانه «لا يغيب عن علمه نجمٌ في السماء، فهل يغيب عنه شيء في الأرض؟»^(١)، ودلالة المُقَسَم عليه تعود بلا شك إلى إثبات حقيقة اليوم الآخر، فالله تعالى حافظ لأعمال العباد في الدنيا، ثم يوم القيامة يجازيهم بها، كلٌّ بحسب ما كُتِب في صحيفته.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى تأكيد حقيقة البعث لليوم الآخر من خلال التذكير ببعض مظاهر علم الله الحفيظ في أصل الإنسان: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝ يَوْمَ بُلِيَ السَّرَائِرُ ۝ فَا لَمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝﴾، ولاحظ التفصيل في بيان أصل هذه النشأة، فقد وصف السائل المنويَّ بالماء الدافق، هذا السائل الذي يزيد فيه عدد النطاف المنويّة على ثلاث مئة مليون، يُسهّل حركتها باتجاه البويضة، ويحميها من ظروف الرحم الغير ملائمة، إلى أن يصل واحد فقط من هذه النطاف إلى البويضة ويلقحها، فالله تعالى الحفيظ يعلم ما في هذا السائل، وهو الذي يهيئ للنطاف

= الانفطار ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝﴾: ١٠، ١١، ب) وكذلك قوله تعالى ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝﴾: ٩، وقريب منه في سورة يونس ﴿هُنَالِكَ تَبْلَوْنَ كُلَّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ ۝﴾: ٣٠، ثالثاً: ومنها ما يتعلق بحفظ الإنسان في أصل نشأته، فقولته تعالى عن الإنسان ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝﴾: ٦، ٧ لم يذكر إلا هنا، وقريب منه في سورة النور ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ ۝﴾: ٢٥، وفي سورة الفرقان ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۝﴾: ٥٤، وفي سورة المرسلات ﴿أَلَمْ تَخْلُقْ مِنْ مَّاءٍ نَهِينٍ ۝﴾: ٢٧. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

(١) أ. د محمد النابلسي، آيات الله في الآفاق، ص ٧٧.

الظروف المناسبة للوصول إلى البويضة^(١)، فقد حفظ الله تعالى تلك الحيوانات المنوية في الرحم حتى يصل أحدها إلى البويضة فيلقحها.

إن الذي حفظ الإنسانَ وأصله من بويضةٍ ملقحة من حيوان منويٍّ واحد، قادر على إرجاعه ليوم القيامة بعد أن تأكل الأرض جسده، ولاحظ أنه في ذلك اليوم تبلى السرائر، فالله تعالى يعلم بما يُسرُّ الإنسان في نفسه من النوايا التي يخبئها عن غيره من البشر، وسبحانه عليها .

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت ذكر بعض مظاهر علم الله الحفيظ في السماء والأرض: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ۝ وَمَا هُوَ إِلَّا نَزْلٌ مِّنْ سَمَاءٍ سَاطِعَةٍ أَمَّاسٍ ۝ وَبُخَارٍ تُرِجِعُ بِالْإِزْمِيلِ ۝﴾، فقد أقسم الله تعالى بالسماء التي تُرجع بخار الماء الصاعد إليها غيثاً، فهو سبحانه يعلم كمية البخار الصاعد وكمية الماء النازل^(٢)، وأقسم سبحانه بالأرض التي تتصدع بخروج النبات منها حال نزول الغيث، فهو يعلم أعداد هذه النباتات وجميع تفاصيلها، ولاحظ أن جواب القَسَم هو بيان أن الوعد بيوم القيامة قولٌ فَصْل، وليس بالهزل، فالله تعالى الحفيظ بهذه المخلوقات حافظ لأعمال العباد، وسيجازيهم عليها.

وكما افتتحت السورة بالقَسَمِ بالسماء والطارق الدال على كمال علم الله الحفيظ على أنه حافظ لأعمال العباد التي سيجازيهم بها يوم القيامة ، ختمت ببيان علمه وحفظه تعالى لكيد الكافرين ، وسيجازيهم به يوم القيامة : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَنَّهُمْ رُوِيَٓا ۝١٧ ﴾ ، وهكذا التقى البدء والختام على المحور المذكور ، والذي دل عليه اسم السورة بأبلغ الدلالة .



(١) ينظر: أ. د. محمد راتب، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: آيات الله في الإنسان، ص ١٥٩.

(٢) أ. د محمد راتب، آيات الله في الآفاق، ص ٤٤، وقد ذكر ثلاثة أوجه أخرى لتفسير الآية، لكن الوجه المذكور هو الأقرب لسباق السورة.

سورة الطارق

سورة بيان بعض مظاهر علم الله الحفيظ الدال على قدرته على البعث والحجازة

<p>الموضوع الأول: (الآيات: ٤-١)</p> <p>المقدمة التي تحوي قسماً من الله بحفظه للسماء ونجومها على أن أعمال العباد محفوظة وسيجازيهم عليها:</p> <p>■ افتتحت السورة بالقسم بالسماء وما فيها من النجوم التي تكون كالطارق الذي يطرق ليلاً دلالة على بروزها في الليل، أو ما فيها من النجوم النيوترونية التي تطرق طريقها بنبضاتها الراديوية وكأنها تشقب الفضاء ثقباً: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ② النَّجْمُ الثَّاقِبُ ③﴾.</p> <p>■ وجواب القسم: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ④﴾ يدل على حفظه تعالى لأعمال العباد كما هو حافظ للسماء وما فيها من النجوم.</p>	<p>الموضوع الثاني: (الآيات: ٥-١٠)</p> <p>بيان بعض مظاهر علم الله الحفيظ في خلق الإنسان:</p> <p>■ ولتأكيد كونه حافظاً لأعمال العباد وسيجازيهم عليها، عرض السياق بعض مظاهر علم الله الحفيظ في خلق الإنسان: ﴿فَيَنْظُرُ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ⑤ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ⑥ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ⑦﴾، فكما أن الله يحفظ الحيوان المنوي في رحم المرأة حتى يلقي البويضة فيتنكح الجنين، فهو سبحانه حافظ لأعمال العباد.</p> <p>■ فالقسم الأول من السورة يدل على علم الله الحفيظ بأحد أكبر المخلوقات، والقسم الثاني يدل على علمه بأحد أصغر المخلوقات.</p> <p>■ أكد هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَلَى رَجَبٍ لَقَادِرٌ ⑧ يَوْمَ بُلَى السَّرَافِرُ ⑨﴾، فما لم من قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ⑩، فسيجازي الله الإنسان بما تخفيه سرائره مما لا يعلمه إلا الله.</p>	<p>الموضوع الثالث: (الآيات: ١١-١٧)</p> <p>الخاتمة المؤكدة لما سبق:</p> <p>■ أعادت ذكر بعض مظاهر علم الله الحفيظ في الكون، فهو سبحانه يعلم الصاعد من البخار إلى السماء، والراجع منها ماءً إلى الأرض، وهو يعلم ما يصدع الأرض من النبات، فالقسم بهذه الظواهر يدل على أنه تعالى قادر على بعث الخلق لمجازاتهم:</p> <p>﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجَمِ ⑪ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّالِعِ ⑫ إِنَّهُمْ لَقَوْلٌ قَصَلٌ ⑬ وَمَا هُوَ بِأَمْرٌ ⑭﴾.</p> <p>■ وكما افتتحت السورة بالقسم بالسماء والطارق على أنه تعالى حافظ لأعمال العباد التي سيجازيهم بها، ختمت ببيان علمه تعالى وحفظه لكيد الكافرين الذي سيجازيهم به يوم القيامة: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ⑮ وَأَكِيدُ كَيْدًا ⑯ فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَنفُسَهُمْ رَوِيًا ⑰﴾.</p>
---	---	---

سورة الأعلى

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «العين واللام والحرف المعتلّ، ياءً كان أو واواً أو ألفاً: أصل واحد يدلّ على السُّمُوّ والارتفاع»^(١)، وزاد الإمام ابن منظور رحمه الله: «الأعلى: هو الله الذي هو أعلى من كل عالٍ، واسمه الأعلى: أي صفته أعلى الصفات»^(٢)، فوصف الله تعالى بهذا الوصف على صيغة أفعل التفضيل يدل على التفضيل المجازي المطلق لله تعالى، بمعنى التنزّه والتسامي والترفع عن أيّ شائبة نقص.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن السورة تتضمّن الثابت من قواعد تصوّر الإيمان، من توحيد الرّب الخالق، وإثبات الوحي الإلهي، وتقرير الجزاء في الآخرة، وهذه مقومات العقيدة الأولى، ثم تصل العقيدة بأصولها البعيدة بذكر صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام، فالسورة تدل على وحدة الحقّ، ووحدة العقيدة، وهو الأمر الذي تقتضيه وحدة الجهة التي صدر عنها أنه حقّ واحد يرجع إلى أصل واحد، وهو الله الأعلى المنزّه عن النقائص^(٣).

(١) ابن فارس. المقاييس، ص ٦٩٠.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج ١٠، ص ٢٦٩.

(٣) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٣٩٨، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٣٩٣، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٨٨٣ و ٣٨٩٤، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٢٧٢، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ٤١٣، ٤١٤، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ١٠٨. وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى التوحيد من خلال عرض بعض مظاهر كمال قدرته تعالى في آياته الكونية وآياته القرآنية الدالة على أنه الربّ الأعلى، وبيان ما أعدّه الربّ الأعلى جزاءً لمن كذب، وما أعدّه الربّ الأعلى ثواباً لمن آمن. ولما كان وصف الله تعالى بـ «الأعلى» معبراً عن المحور المذكور، جعل هذا الوصف اسماً للسورة. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة الدعوة إلى عدم إيثار الحياة الدنيا على اتباع هدى وحي الربّ الأعلى الموصل إلى ما ارتضاه الربّ الأعلى جزاءً للمؤمن في الآخرة التي هي خير وأبقى.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام، أولها: مقدّمة تبرز بعض مظاهر كمال قدرة الربّ الأعلى في الآيات الكونية، وثانيها: بيان بعض مظاهر كمال قدرته من خلال الآيات القرآنية، مع بيان مصير من كذب ومن آمن، وثالثها: الخاتمة المؤكّدة لما سبق^(١).

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٥، وذكر آيات الله القرآنية: ٦-١٥، والخاتمة: ١٦-١٩. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك، أولاً: منها أمور متعلقة بالله تعالى وبالنبي ﷺ: (أ) فلم يذكر فعل الأمر «سَجِّحْ» مع «أَسْرَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» إلا هنا: ١، وقد ذكر هذا الفعل مع «اسم ربك العظيم» في سورة الواقعة: ٧٤، ٩٦، والحاقة: ٥٢، (ب) لم يوصف الله تعالى بـ «الأعلى» إلا هنا: ١، وفي سورة الليل: «إِلَّا أَنْفَاءً وَبِجَوْ رَبِّهِ الْأَعْلَى»: ٢٠، لكن لاحظ أن الوصف في سورة الأعلى لم يقيد بالوجه بل جاء مطلقاً، وانظر قريباً منه: «وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى»: النحل: ٦٠، و«وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى»: الروم: ٢٧، (ج) لم يذكر الفعل «سَوَّى» العائد على الله تعالى بدون ذكر المفعول به إلا هنا «الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى»: ٢، وفي سورة القيامة: «ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَلَمَّا فُتِقَ فَسَوَّى»: ٣٨، والفعل في سورة الأعلى أعمّ كما لا يخفى، (د) لم يخصص النبي ﷺ بقوله تعالى: «وَيُنِيرُكَ لِلنَّهَارِ» إلا هنا: ٨، وقريب منه: «فَسَيَّرُهُ لِلْيَسْرَى»: ٧، ولم تذكر كلمة «اليسرى» الدالة على التفضيل في موقع آخر في القرآن، ثانياً: ومنها أمور متعلقة بالآخرة: (أ) لم يوصف المكذّب بـ «الأسقى» بصيغة أفعل التفضيل إلا هنا: ١١، وفي سورة الليل: ١٥، (ب) لم توصف النار بـ «الكبرى» إلا هنا: ١٢، (ج) ولم توصف الآخرة بأنها «خَيْرٌ وَأَبْقَى» بهذا العموم الذي دلّت عليه صيغة أفعل التفضيل إلا هنا: ١٧، وانظر قريباً منها: «وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى»: الضحى: ٤، وهي مختصة بالنبي ﷺ، وقريب منها وصف الدار الآخرة أو أجرها بأنه خير للذين يتقون في كل من السور التالية: الأنعام: ٣٢، الأعراف: ١٦٩، النحل: ٣٠، يوسف: ٥٧، ١٠٩. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس. وكثرة صيغة أفعل التفضيل الدالة على العموم في سورة الأعلى متلائمة مع الدلالة اللفظية لاسم السورة الدالة على العموم - أي: أنه تعالى منزّه عن أيّ نقص - كما لا يخفى.

أولاً: جاء في مقدمة السورة بعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى الدالة على أنه الربّ الأعلى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ① الَّذِي خَلَقَ سَمَوَاتِي ② وَالَّذِي قَدَّرَ فَهْدَى ③ وَالَّذِي أخرجَ الْمَرْعى ④ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ⑤﴾، لاحظ بيان أنه تعالى بيده الخلق والتقدير والهدى، ولاحظ وصف الدنيا بالغثاء الأحوى، أي: العشب اليابس، واختصاص سورة الأعلى بهذا الوصف للدنيا متلائم مع دلالة اسم السورة، فالربّ الأعلى لا يقبل أن تكون هذه الدنيا دار جزائه، فلا ينبغي لمن أراد الربّ الأعلى أن يتلهم بهذه الدنيا عن الإيمان به والعمل الصالح، وسيأتي أن الآخرة هي التي رضىها الربّ الأعلى للجزاء.

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى بيان أن الله تعالى هو الربّ الأعلى من خلال ذكر الآيات القرآنية بعد ذكر الآيات الكونية: ﴿سُقُوطُكَ فَلَا تَسْقَى ① إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ② وَيُخَوِّفُ لِّلْيسرى ③ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ④ سِذْكُرْ مِّن يَّحْشَى ⑤ وَبِجَنَّتِهَا الْأَشْقَى ⑥ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ⑦ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ⑧ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَرَكَّى ⑨ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ⑩﴾، ولاحظ بيان أن من يتذكر بالقرآن ويخشى الربّ الأعلى ويتزكى سييسره الله لليسرى ويدخله الجنة، وهي المقام الذي ارتضاه الربّ الأعلى ثواباً لمن آمن، وأن من كذب بالقرآن سيجنّه الله عن الجنة وسيصلى النار الكبرى، وهي المقام الذي رضىه الربّ الأعلى عقاباً لمن كفر. ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التحذير من التلهي بالحياة الدنيا عن الآخرة التي ارتضاها الربّ الأعلى داراً خالداً لثواب من آمن، وعقاب من كفر: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا ⑪ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ⑫﴾.

وكما افتتحت السورة بذكر بعض مظاهر قدرة الله في آياته الكونية الدالة على أنه الربّ الأعلى، ختمت ببيان أن الآيات القرآنية وآيات الوحي للأنبياء السابقين تشهد أن الله هو الربّ الأعلى: ﴿إِنَّ هَذَا لَنبَى الصُّحُفِ الْأُولَى ⑬ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ⑭﴾، فالكون والوحي هما من الربّ الأعلى، فهو وحده المستحق للعبادة، وينبغي على الإنسان التزام هدى الربّ الأعلى، لينال الجزاء الأوفى في الآخرة التي هي خير وأبقى. وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ وأجمل دلالة.

سورة الأعلى

سورة الدعوة إلى عدم إيثار الحياة الدنيا على اتباع هدى وحي الرّب الأعلى الموصل إلى ما ارتضاه الرّب الأعلى جزاءً للمؤمن في الآخرة التي هي خير وأبقى

الموضوع الثالث: (الآيات: ١٦-١٩)
(١٩)

الخاتمة المؤكدة لما سبق:

■ أعادت التحذير من التلهي بالحياة الدنيا عن الآخرة، التي ارتضاها الرّب الأعلى ثواباً لمن اتبع هدى الوحي: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (٧٧) .

■ وكما افتتحت السورة ببيان بعض مظاهر كمال قدرة الرّب الأعلى في آياته الكونية، ختمت ببيان أن الآيات القرآنية وآيات الوحي إلى الأنبياء السابقين، تشهد أن الله هو الرّب الأعلى: ﴿إِنَّ هَذَا لَنِيَّ الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۖ صُحُفِ الْإِزْهَامِ وَمُؤَسَّسٍ﴾ (٨٨) .

■ فالكون والوحي هما من الرّب الأعلى، فينبغي على الإنسان اتباع هدى الوحي لينال الجزاء الأوفى في الآخرة التي هي خير وأبقى.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٦-١٥)
(١٥)

بيان بعض مظاهر كمال قدرة الرّب الأعلى من خلال الآيات القرآنية:

■ بيّن السياق أن الله سيحفظ نبيّه ﷺ من نسيان شيء مما يوحي إليه، وأمره بالتذكير بهدى وحي الرّب الأعلى سبحانه: ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ ۚ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۚ وَنُبَشِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۚ فَذَكِّرْ ۚ إِنَّ فَعْمَيَ الدُّكْرِ ۚ﴾ (٦) .

■ وبيّن السياق أن من يتذكّر بهذا الوحي إنما هو من يخشى .

■ وأن من أعرض عن هدى الوحي سيصلى النار الكبرى التي جعلها الرّب الأعلى جزاء لمن كفر وكذب .

■ وبذلك يكون المفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلّى، واتبع هدى وحي الرّب الأعلى سبحانه .

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٥)
(٥-١)

المقدمة التي تبرز بعض مظاهر كمال قدرة الرّب الأعلى في الآيات الكونية:

■ افتتحت السورة بالدعوة إلى التسبيح باسم الرّب الأعلى، لأنه وحده المستحق للعبادة، بما برز من مظاهر قدرته تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ ۚ الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّىٰ ۚ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۚ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۚ فَجَعَلَهُ غُثَاً أَحْوَىٰ ۚ﴾ (١) .

■ إن تشبيه الحياة الدنيا بالغثاء الأحوى ليدل على أن من أراد الرّب الأعلى لا يقبل أن تكون الدنيا داراً لجزائه، فلا يتلهي بها عن اتباع هدى الرّب الأعلى سبحانه .

سورة الغاشية

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس: «غشي: الغين والشين والحرف المعتل أصل صحيح يدل على تغطية شيء بشيء، والغاشية: القيامة؛ لأنها تغطي الخلائق بإفزعائها»^(١)، وقد أكد ذلك الإمام الأصفهاني بقوله: «الغاشية: كل ما يغطي الشيء، كغاشية السرج، وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (يوسف: ١٠٧)، أي: نائبة تغشاهم وتجللهم، وقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ كناية عن القيامة»^(٢). وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى بيانها بعض ما يغشى الناس من أهوال ذلك اليوم، فينعكس أثره على وجوههم، فمنها وجوه خاشعة عاملة ناصبة، ومنها وجوه ناعمة لسعيها راضية، ومجيء اسم السورة على صيغة اسم الفاعل مع أل التعريف أفاد أنه لا غاشية حقاً غير يوم القيامة.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن سورة الغاشية سُميت بذلك لما فيها من تأكيد الإنذار بتهويل يوم القيامة، فقد عرضت بعض أحداث يوم القيامة وآيات الله في خلقه الدالة على قدرته، كما وأن من مقاصد هذه السورة بيان تشويه حالة المكذبين الأشقياء يوم القيامة، وبيان نعومة حالة المؤمنين الأتقياء في ذلك اليوم»^(٣).

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٨١٦.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ٦٠٧.

(٣) المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٣٩٩، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٤٠٤، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٨٩٥، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٢٩٣. وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ١١٥، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٥١٥. وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود منها بالدراسة.

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: إثبات حقيقة يوم القيامة من خلال بيان مدى تأثير يوم القيامة على حالة الناس في ذلك اليوم، فمن كانت أعماله سيئة غشيته حالة البؤس، ومن أحسن العمل غشيته حالة الرضا، فوصف يوم القيامة بالغاشية يدل على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان أثر غشيان القيامة على وجوه الناس في ذلك اليوم.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الارتباط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام، أولها: مقدّمة جاءت بصيغة السؤال المفيد للتهويل، مع بيان أثر غشيان يوم القيامة على حالة الكافر والمؤمن، وثانيها: أدلة عقلية على إثبات حقيقة قدرة الله على البعث، وثالثها: خاتمة تبيّن أن ليس على الرسول ﷺ إلا التذكرة وعلى الله الحساب^(١).

أولاً: جاء مفتتح السورة بالاستفهام الذي وصف يوم القيامة بالغاشية، وأضفى عليه صبغة التهويل، وقد بيّنت بعض دلالات وصف يوم القيامة بهذا الاسم: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾.

ثم انتقلت السورة إلى بيان ما يغشى حالة الناس من أهوال ذلك اليوم، فابتدأت بالمكذّبين، وبيّنت بعض ما يغشى حالتهم بسبب أعمالهم: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۖ عَامِلَةٌ ۙ نَّاصِبَةٌ ۖ تَصَلَّىٰ نَارًا ۙ حَامِيَةً ۖ تُشَقَّىٰ مِنْ عَيْنِي ۙ أَيْنِمْ ۖ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۖ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغَمِّقُ ۖ﴾.

(١) جاء السؤال الذي يعتبر مقدّمة للسورة في الآية الأولى، والحديث عن حالة الكافرين في الآيات: ٢ - ٧، وحالة المؤمنين: ٨ - ١٦، والأدلة العقلية: ١٧ - ٢٠، والخاتمة: ٢١ - ٢٦. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها أمور متعلقة ببيان تأثير يوم القيامة على حالة الكافرين: (أ) فقوله تعالى ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۖ عَامِلَةٌ ۙ نَّاصِبَةٌ﴾: ٣، ٤، لم يتكرر في القرآن بالصيغة ذاتها، (ب) وأما قوله ﴿تَصَلَّىٰ نَارًا ۙ حَامِيَةً ۖ تُشَقَّىٰ مِنْ عَيْنِي ۙ أَيْنِمْ ۖ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۖ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغَمِّقُ ۖ﴾: ٥، لم يتكرر بذات الصيغة، ثانياً: ومنها ما يتعلق ببيان تأثيره على حالة المؤمنين: (أ) فقوله ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۖ لِّسَعْيَاهُمْ رَاضِيَةٌ﴾: ٨، ٩، لم يتكرر في القرآن بالصيغة ذاتها، (ب) وأما قوله ﴿فِي جَنَّةٍ ۙ عَالِيَةٍ ۖ﴾: ١٠، فقد ذكر هنا وفي سورة الحاقة فقط: ٢٢. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

يُقْنَى مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾، ويلاحظ أن السياق ابتداءً بذكر أثر غشيان حالتهم على الوجه كونه أكرم أعضاء الإنسان، وكونه أبرز ما يُظهر مدى غشيان تلك الحالة. ويؤكد ذلك التعبير: ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾، و﴿تُثَقِّقُ مِنْ عَيْنٍ آيَةٍ﴾، مع أن الصَّلَى والسقي فعلاَن يعود أثرهما على كافة الجسد، فكان من الممكن أن يقال: يصلون ناراً حامية، ويسقون من عين آية.

واللافت للنظر في حديث السورة عن فريق المكذّبين أنك تجد السياق قد بيّن أن سبب غشيان حالة البؤس على وجوههم إنما هو أعمالهم السيئة، فانظر قوله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ ﴿٢٠﴾، ولم تذكر كلمة «ناصب» في سورة أخرى من القرآن، ولا يخفى مدى ارتباطها باسم السورة «الغاشية»، فهي تبيّن غشيان حالة النصب على وجوههم.

ثم انتقل السياق إلى بيان الحالة التي تغشى المؤمنين يوم القيامة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ لِّسَعِيَهَا رَاضِيَةٌ﴾ ﴿١﴾ في جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢﴾، ولاحظ أولاً أن السورة لم تعطف بيان حالة وجوه المؤمنين على حالة وجوه الكافرين، فلم يقل: وجوه يومئذ ناعمة، بل جعل لهم جملة تعطي خبراً مقطوعاً عما سبق، وذلك يؤكد الاهتمام ببيان مدى تأثير الحالة التي تغشى القسم الثاني من الناس يوم القيامة. وثانياً التركيز على الوجوه، فهي أكرم الأعضاء، وهي أبرز ما يُظهر الحالة التي تغشاها، وثالثاً نسبة الرضا عن السعي إلى الوجوه، فقد كان من الممكن أن يقال: لسعيهم راضون. كل ذلك يطلعك على مدى ارتباط دلالة اسم السورة «الغاشية» على وجوه هذين القسمين من الناس يوم القيامة: المؤمنين والكافرين.

ثانياً: ثم انتقلت السورة إلى بعض الأدلة العقلية على قدرة الله على بعث الناس وحسابهم، وفي ذلك دعوة للإيمان والعمل الصالح، فإن مَنْ خَلَقَ الْإِبْلَ وَرَفَعَ السَّمَاءَ وَنَصَبَ الْجِبَالَ وَسَطَحَ الْأَرْضَ، قَادِرٌ عَلَى بَعَثِ النَّاسِ لِيَوْمِ الْغَاشِيَةِ، ولاحظ قوله ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ الدال على أنه ينبغي استعمال النظر الذي يكون في الوجوه للوصول إلى الإيمان، فتكون هذه الوجوه ناعمة يوم القيامة، وأما الوجوه التي لا تستدل بالنظر في خلق الله على قدرته على البعث، ولا تؤمن بيوم الغاشية، فهي وجوه خاشعة عاملة ناصبة في ذلك اليوم.

ثالثاً: ثم ختمت السورة ببيان أن ليس على النبي ﷺ إلا التذكرة، فليس هو عليهم

بمسيطر، بل المسيطر والمحاسب لهم إنما هو الله تعالى الذي خلقهم. واللافت للنظر أنك تجد في خاتمة السورة قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۖ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ ، الذي يؤكد محور السورة، فإياب الخلائق كلها إلى الله وسيحاسبهم على أعمالهم في يوم الغاشية الذي تغشى فيه كل إنسان الحالة التي تناسب أعماله. وبذلك يلتقي البدء والختام في هذه السورة على المحور الذي دلّ عليه اسمها أبلغ الدلالة.



سورة الغاشية

سورة بيان أثر غشيان القيامة على الناس في ذلك اليوم

<p>الموضوع الثالث:</p> <p>(الآيات: ٢١-٢٦)</p> <p>الخاتمة التي تبين أن ليس على الرسول ﷺ إلا التذكرة، وعلى الله الحساب:</p> <p>■ بعد عرض تلك الأدلة العقلية التي يراها الناس يومياً، بينت الخاتمة أن النبي ﷺ ليس له إلا التذكير بالوحي: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾.</p> <p>■ وكما افتتحت السورة بتهويل شأن الغاشية، ختمت بتأكيد قدرة الله على بعث الناس لذلك اليوم الذي ستغشى فيه كل فرد منهم الحالة التي تناسبه بحسب أعماله: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ۖ فَعِذَّةُ اللَّهِ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ ۖ إِنَّ الْعَذَابَ يُنْزِلُهَا بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۚ﴾.</p>	<p>الموضوع الثاني: (الآيات: ١٧-٢٠)</p> <p>عرض أدلة عقلية تؤكد قدرة الله على البعث ليوم الغاشية كما هو قادر على الخلق:</p> <p>■ ثم انتقل السياق إلى تأكيد قدرة الله على بعث الناس لذلك اليوم من خلال أدلة عقلية يرونها يومياً: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۖ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۖ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۖ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۖ﴾.</p> <p>■ هذه الأدلة العقلية تدل على أن القادر على خلق الإبل بأحسن هيئة، والقادر على رفع السماء ونصب الجبال وسطح الأرض، قادر بلا شك على بعث الناس ليوم الحساب.</p> <p>■ فمن استفاد من هذه الأدلة المرئية فأمن حفظ وجهه من أن تغشاه حالة البؤس، بل تغشاه حالة الرضا يوم القيامة، ومن لم يؤمن بهذه الأدلة غشيت وجهه حالة البؤس، وحرّم من حالة الرضا.</p>	<p>الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٦)</p> <p>المقدمة التي تهوّل أمر الغاشية، وتبين أثر غشيانها على الكافرين والمؤمنين:</p> <p>■ افتتحت السورة بسؤال تجهيلي يهوّل أمر الغاشية: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۖ﴾.</p> <p>■ ثم بينت أثرها على حال الكافرين: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خُشِعَةٌ ۖ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۖ﴾، وهم سيصلون النار، ويسقون من عين آنية، ولا يأكلون إلا الضريع الذي لا يسمن ولا يغني من جوع.</p> <p>■ وبينت أثرها على حال المؤمنين: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ۖ لِسْعًا رَاضِيَةٌ ۖ﴾ في جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۖ، وهم هانئون فيها لا يسمعون لغواً، ويشربون من العين الجارية، ويتنعمون بها بالسرر المرفوعة، والنمارق والزرابي.</p>
---	--	---

سورة الفجر

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَالْأَيْلِ ۝٤ إِذَا يَسَّرَ ۝٥﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ۝٦

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية إلى وقت الفجر، وهو وقت ابتداء ظهور نور الشمس حينما تأخذ ظلمة الليل في الانصرام، وهو وقت مبارك، فيه ينتهي وقت النوم، وفيه صلاة الفجر، ومن ثمَّ يبدأ وقت الإقبال على أعمال الحياة، وكأنه يعلن عن الحياة بعد الموت، هذا إذا حُمل على المعنى العام، ومن المفسرين مَنْ خصص هذا الفجر بيوم محدد، وهو فجر يوم النحر الذي يكون فيه الحجيج بالمزدلفة، والذي دفعهم لذلك القسم بالليالي العشر، وقالوا هي ليالي العشر من ذي الحجة، وعلى كلا الاعتبارين فالقسم بالفجر والليالي العشر يدل على بديع صنع الله وسعة قدرته فيما أوجد من نظام لهذا الكون^(١).

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة هو الاستدلال على يوم القيامة وما فيه من عذاب الكافرين، وأدل ما فيها على هذا المحور الفجر، لأنه يعلن عن يوم جديد وليل قد انقضى، وينتج عنه انبعاث النيام، فكأنه بعث جديد بعد موت متكرر، والقَسَم بالفجر وما تبعه من الأزمان يدل على بديع صنع الله تعالى وقدرته، وإن فُسِّر الفجر بفجر يوم النحر، دل على بعث الناس للحساب، كما يجتمع الناس لأداء الحج^(٢).

(١) ممن اعتمد القول بأن الفجر المقصود هو الصبح أو صلاة الصبح: الإمام الطبري، جامع البيان، ج ١٠، ص ٨٦٠٩، والإمام الزمخشري، الكشاف، ج ٤، ص ٧٣٤، وممن ذكر القولين من دون ترجيح: الإمام ابن

كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٦٨٣، والإمام ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٣١٢.

(٢) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٤٠٠، وقد خصَّ الفجر بيوم عرفة، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، =

وأعتقد أن تفسير الفجر بالصبح هو الأقرب للصواب، فيمكن تلخيص محور السورة بأنه: إثبات قدرة الله على البعث، من خلال القَسَم بأن الله تعالى هو خالق الزمن ومُسَيِّرُهُ والقائم عليه، وهو الذي جعل فيه أوقاتاً مباركة، فَمَنْ أحسن استغلالها فقدَّم لنفسه كانت له الجنة، ومَنْ أساء استغلالها كان له العذاب الشديد يوم القيامة، ولما كان القَسَم بالفجر يدل على بداية اليوم، والقَسَم بالليل إذا يسري يدل على نهايته، والقَسَم بالليال العشر والشفع والوتر يدلان على الأوقات المباركة، أقسم الله بها للدلالة على المحور المذكور، واختص الفجر لاسم السورة؛ لأنه أكثر الأوقات بركة، وأكثرها دلالة على الحياة بعد الموت ويتجدد كل يوم وليس في موسم خاص كل عام كالليالي العشر. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة الدعوة إلى استغلال الزمن وما فيه من الأوقات المباركة للإكثار من العمل الصالح لملاقاة الله تعالى يوم القيامة.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام، الأول: المقدمة التي تحوي قَسَماً بالزمن وما فيه من أوقات مباركة على أن يوم القيامة حقّ، والثاني: بيان هلاك الأمم المكذبة مع تعقيب وتوجيه، والثالث: الخاتمة المؤكدة لما سبق^(١).

== ص ٤١٣، وقد خصّ الفجر بيوم النحر، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٩٠٢، وقد فسّر الفجر بالصبح، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ١٢٦، وقد فسّروا الفجر بالصبح، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٣١٢، وقد ذكر الوجهين ولم يرجح، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٥١٧. وقد فسّر الفجر بالصبح، والجابري، أسماء السور القرآنية، ص وقد فسر الفجر بالصبح ٤٤٩، ٤٥٠. ووادي، ومنها، من دلالات أسماء السور، ص ٣٣٤-٣٣٦، وقد فسّرا الفجر بالصبح.

(١) مقدمة السورة شملت الآيات: ١-٥، وبيان هلاك الأمم المكذبة مع التعقيب والتوجيه: ٦-٢٠، والخاتمة: ٢١-٣٠. ومن لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: لم يقسم الله تعالى بالفجر إلا في هذه السورة، ولم تذكر الليال العشر والشفع والوتر في القرآن إلا هنا، وقد أقسم الله بها ليؤكد على هذه الأوقات المباركة، ولم يقسم بالليل حالة كونه يسري للدلالة على تجدده إلا هنا، ثانياً: وُصف الغافلون في هذه السورة بأوصاف لم تذكر في موضع آخر: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاكِي أَكْلًا لَمًّا﴾ ﴿وَحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾: ١٩، ٢٠، و﴿وَأَنَّهُ لَئِنْ أَذْكَرُونَ﴾ ﴿يَقُولُ يَكْفُرُونَ قَدْ أَفْلَحَ﴾: ٢٣، ٢٤، =

أولاً: جاء في مقدّمة السورة قَسَم من الله تعالى الذي خلق الزمن، والذي جعل فيه أوقاتاً مباركة ينبغي استغلالها للتقرّب إليه والاستعداد ليوم القيامة: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيْلٍ عُشْرِ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ ۝٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ۝٥﴾، فالقَسَم بالفجر يدل على بداية اليوم، ويقابله القَسَم بالليل إذا يسري، الدال على نهاية اليوم، فهذان القسمان - فيما أعتقد - يعطيان دلالة على قدرة الله تعالى، فهو الذي يجعل اليوم يبتدئ بالفجر وينتهي بالليل على مدى الزمن.

وقد أقسم الله تعالى بما جعل في هذا الزمان من أوقات مباركة ينبغي استغلالها في التقرّب إلى الله، وهذه الأوقات هي الليال العشر والشفع والوتر، وأعتقد أن تفسير هذه الليالي بالليالي العشر الأوّل من شهر ذي الحجة، وتفسير الشفع والوتر بيومي عرفة والنحر، فيوم عرفة هو التاسع، ويوم النحر هو العاشر من ذي الحجة، أعتقد أن هذا التفسير هو الأقرب للصواب، وذلك لأن المخاطبين بالمقام الأول في هذه السورة هم المشركون في مكة، ولا يُستبعد أنهم يعلمون ميزة هذه الليالي العشر فيما تبقى لديهم من دين إبراهيم عليه السلام، ولا يتعارض هذا مع كون السورة مكية، بل من أوائل السور المكية.

ويؤكد هذا ما جاء في السيرة النبوية من أنه ﷺ كان يعرض نفسه على القبائل التي تأتي مكة للحج أو العمرة، وفي بيعة العقبة الثانية خرج المسلمون من الأنصار من حجاج قومهم من أهل الشرك في موسم الحج، وواعدهم النبي ﷺ في العقبة وسط أيام التشريق^(١).

ثم إن هذا التفسير مترابط مع السورة اللاحقة وهي سورة البلد، والبلد هو مكة المكرمة، وهي التي تُؤدى فيها أعمال الحج كما لا يخفى.

إذاً فقد كان العرب يعرفون فضل هذه الأيام ويعرفون موسم الحج، لكنهم أساءوا استغلاله وجعلوه موسماً للتجارة بدلاً من العبادة، ولاحظ التعقيب على القَسَم بقوله تعالى:

== وثالثاً: وُصف العاملون لليوم الآخر بأوصاف لم تذكر في موضع آخر: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ۝٥﴾، ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝٢٩ وَأَدْخِلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾. وينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس، ومن اللطيف أن عدد آيات السورة مطابق لعدد أيام الشهر، وكأنها تشير إلى تجدد الشهور في السنة على مرّ الزمان.

(١) ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ص ٢١٤ - ٢٢١.

﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ۝﴾، أي: هل منكم ذو عقل يجعله يسارع باغتنام الأوقات المباركة فيقترب إلى الله، ويمنعه عقله من الغفلة والتلهي والتكذيب باليوم الآخر.

فالمقدمة إذا تدل على أن الله خالق الزمن والقائم عليه، وهو الذي جعل فيه أوقاتاً مباركة، وهو القادر على بعث العباد لمجازاتهم على أعمالهم.

ثانياً: ثم عرض السياق مصير بعض الأمم المكذبة، التي كذبت الرسل وكذبت بقاء الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ آلِي لَمٍ يَخْلُقُ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ ۝ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝ الَّذِينَ طَعَفُوا فِي الْبَلَدِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلِرَّصَادٍ ۝﴾، لاحظ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ۝﴾، الدال على أن الله تعالى الذي خلق الفجر والليل وأقسم بهما ليدل على أنه خالق الزمان، هو الذي أهلك من سبق من الأمم المكذبة، ومن ناحية ثانية يدل هذا القول على تهديد قريش، فإن الذي جعل لهم أوقاتاً مباركة ينبغي استغلالها - كالليالي العشر ويوم عرفة ويوم النحر - هو الذي أهلك من سبقهم من الأمم المكذبة، فينبغي أن يكون هذا القسم دافعاً لهم ليحسنوا التصرف، فيؤمنوا ويعملوا للقاء الله.

ولاحظ أن السياق يركّز في عرض مصير هؤلاء الأقوام الثلاثة على بيان أن اغترارهم بقوتهم هو الذي دفعهم للتكذيب، فقد وصف عاداً بكونها ذات العماد ليدل على ارتفاع مبانيهم، وبيّن أنهم لم يخلق مثلها في البلاد، وبيّن أن ثمود أوتوا من القوة ما يمكنهم من نحت الصخر فيجعلوها بيوتاً لهم، ووصف فرعون بذي الأوتاد ليدل على ارتفاع مبانيه، أو أن يكون الوصف عائداً على الأهرامات.

ولاحظ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ طَعَفُوا فِي الْبَلَدِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ۝﴾، الدال على أن اغترارهم بقوتهم دفعهم إلى التكذيب بقاء الله والطغيان والفساد، وقوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلِرَّصَادٍ ۝﴾، وهو فيما أرى مترابط مع القسم بالفجر والليل إذا يسري، فالله تعالى هو خالق الزمان والقائم عليه، وهو عليم بما يفعله الظالمون ومحاسبهم عليه.

ثم انتقل السياق إلى تعقيب على عرض مصير الأمم المكذبة، وعرض حالة الإنسان الغافل عن الاستعداد للقاء الله كما يجب، فهو يعبد الله على حرف، فإن أكرمه الله ووسع عليه رزقه شكر، وإن ابتلاه وضيق عليه رزقه كفر: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَّهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ

فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَنَنِ ﴿٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تَكْفُرُونَ
 الْيَتِيمَ ﴿٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٨﴾ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿٩﴾ وَتُحِبُّونَ
 أَلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿١٠﴾ ، فبعد القَسَم بما يدل على أن الله هو خالق الزمان والقائم عليه ، وهو
 عليم بما يفعله الظالمون ومحاسبهم عليه ، كان من المفترض أن يكون الإنسان شاكراً في
 حال الرخاء ، صابراً في حال الشدة ، ولاحظ بيان أنهم لا يكرمون اليتيم ، ولا يحضون على
 طعام المسكين ، وسبب طغيانهم هذا حبهم الشديد للمال ، حتى اغتروا به ونسوا من رزقهم
 به ، ولم يؤدوا حقه فيه .

فالملاحظ إذاً أن القَسَم بالفجر والليل إذا يسري ، يعطي دلالة على قدرة الله تعالى كونه
 خالق الزمان والقائم عليه ، فينبغي على الإنسان أن يستعدّ ويعمل للقاء هذا الخالق ، لا أن
 يظلم نفسه بالكفر والطغيان .

ثالثاً : جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق ، فكما افتتحت بالقَسَم بالفجر للدلالة على قدرته
 على البعث ، كما هو خالق الزمان والقائم عليه ، عرضت الخاتمة بعض مشاهد اليوم الآخر
 لتأكيد قدرته تعالى على البعث والمجازاة : ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿١١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ
 وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿١٢﴾ وَجِئَتْ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَاقٍ لَهُ الذِّكْرَى ﴿١٣﴾ يَقُولُ
 يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَمدًّا ﴿١٥﴾ ، ولاحظ بيان أن الإنسان حينئذ يتحسر
 على ما فاتته من التقديم لنفسه بالأعمال الصالحة ، وأول ما يدخل في هذا السياق تفويت
 الإنسان استغلال الأوقات المباركة التي أقسم الله بها في المقدمة . وذكر عذاب هذا
 المكذب الغافل ووثاقه متلائم مع محور السورة من كونه تعالى خالق الزمان والقائم عليه ،
 والمجازي للعباد بحسب أعمالهم .

وكما افتتحت السورة بالقَسَم بالفجر والليل إذا يسري وما جعل الله من أوقات مباركة
 ينبغي لأولي الألباب استغلالها للاستعداد للقاء الله ، ختمت ببيان مصير من استغلّ حياته
 كما يجب وتقرّب إلى الله بالطاعات حتى بلغ منزلة من التزكى يستحقّ بها دخول الجنة :
 ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿١٦﴾ أَرْجَىٰ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْتَبَةً ﴿١٧﴾ فَأَدْخُلْ فِي عِبْدِي ﴿١٨﴾ وَأَذْخُلْ جَنِّي ﴿١٩﴾ ،
 وهكذا التقى البدء والختام على المحور المذكور ، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ دلالة .

سورة الفجر

سورة الدعوة إلى استغلال الزمن وما فيه من الأوقات المباركة للإكثار من العمل الصالح لملاقاة الله تعالى

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٠)

(5)

المقدمة التي تحوي قسماً
بالزمن وما فيه من أوقات مباركة
على أن يوم القيامة حق:

■ افتتحت السورة بالقَسَمِ
بالفجر الدال على بداية
اليوم، وعلى قدرته تعالى
على إحياء الأموات بعد
موتهم، وبالقَسَمِ بالليالي
العشر من ذي الحجة،
وبیومي الشفع والوتر وهما
يوما عرفة ويوم النحر،
وبالقَسَمِ بالليل إذ يسري
الدال على نهاية اليوم،
وعلى قدرة الله على إماتة
الأحياء: ﴿وَالْفَجْرِ ۝۱﴾
عَشْرِ ۝۲ وَالشَّفْعِ ۝۳ وَالْوَتْرِ ۝۴
وَالْأَيْلِ إِذَا يَسَّرُ ۝۵

■ وعقب سبحانه على القَسَمِ بقوله: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ مَقَمٌ لِّىِٕىٰ حَمْرِ ۝﴾، أي هل منكم ذو عقل فيسارع باغتنام الأوقات المباركة والعمل الصالح لملاقاة الله يوم القيامة.

الموضوع الثاني : (الآيات : ٦-٢٠)

وتوجيه : بيان هلاك الأمم المكذبة مع تعقيب

■ ثم بين السياق إهلاك الله عاداً الذين اغتروا بأجسامهم القوية، وغفلوا عن الإيمان والاستعداد لليوم الآخر، وكذلك بين إهلاك الله نمود الذين اغتروا بقدرتهم ومهارتهم في نحت الصخور، حتى ظنوا أنها تنجيهم من عذاب الله، وكذلك بين إهلاك الله فرعون ذا الأوتاد الذي اغترّ بمبانيه المرتفعة.

■ هؤلاء جميعاً جحدوا ربهم سبحانه، وطغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد بدلاً من الإيمان والعمل الصالح، حتى لحق بهم العذاب.

■ ثم عقب السياق بذكر موقف الإنسان، فهو يشكر ربه إذا أكرمه ونعمه، وإذا ابتلاه وقدر على رزقه ضجر، وهو لا يسعد للقاء الله فلا يكرم اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين، وقد ألهاها حبُّ المال عن العمل الصالح استعداداً للقاء الله تعالى..

الموضوع الثالث: (الآيات:

(३०-२१)

الخاتمة المؤكدة لما سبق :

■ عرضت مشاهد من اليوم
الآخر لتؤكد قدرته تعالى
على البعث: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ
الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ ﴿١١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ
وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ ﴿١٢﴾ .

■ وَبَيَّنَتْ حَسْرَةَ الْإِنْسَانِ الَّذِي
لَمْ يَسْتَعِدَّ لِلْقَاءِ رَبِّهِ ، وَلَمْ
يَسْتَغْلِ مَا فِي الزَّمَنِ مِنْ
أَوْقَاتٍ مُبَارَكَةٍ : ﴿يَقُولُ
بَلَيْسَ فَلَئِمْتُ لِحَاثِي﴾ ﴿٦٦﴾ فَوَيْلٌ
لَا يَعِذُّ عَبْدًا أَحَدٌ ﴿٦٧﴾ وَلَا
يُؤْنِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٦٨﴾ .

وكما افتتحت السورة بالقَسَمِ
بالزمن وما فيه من الأوقات
المباركة التي ينبغي أن
يستغلها أرباب العقول
ليستعدوا للقاء ربهم،
ختمت ببيان مصير من
استغل حياته كما يجب
وتقرب إلى الله بالتزكّي
والعمل الصالح: ﴿يَا أَيُّهَا
النَّفْسُ الْطَّمِئَةُ ۖ ارْجِعِي إِلَىٰ
رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۖ فَادْخُلِي فِي
عِندِي ۖ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ۖ

سورة البلد

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَالْوَالِدِ
وَمَا وَلَدٌ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ۝﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى القَسَم بمكة، وهي البلد الحرام، وقد أقسم الله بها للدلالة على أن الإنسان خُلِق في كَبَد، والقَسَم متلائم مع المُقَسَم عليه من حيث طبيعة الحياة العسيرة في البلد الحرام، فهو بلد شديد الحرّ، قليل الماء والثمار^(١)، والبلد الحرام هو الذي نزل فيه الوحي على النبي ﷺ ليخرج الناس من ضنك الدنيا إلى رغد الآخرة.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وبموضوعاتها، فذكروا أن مقصود هذه السورة هو الدلالة على نفي القدرة عن الإنسان، وإثباتها لخالقه سبحانه، بذكر ما للإنسان من هموم الحياة وضنكها، وهي تذكر السبب المخلص من هذا الضنك والموصل إلى السعادة الأبدية، وهو اتباع هدى الله عزّ وجلّ، وأما من أعرض عن هدى الله فسينتهي إلى الكبد الأكبر يوم القيامة، ويكون من أخسر الأخسرين. وتأملُ القَسَم والمُقَسَم عليه أدل ما في السورة على هذا المقصود، فهو بلد عسير ظروف المعيشة، وهو أيضاً منطلق الدعوة النبوية^(٢).

(١) ذكر الإمام ابن هشام في السيرة النبوية عن ابن إسحاق أن زعماء قريش قالوا يوماً للنبي ﷺ: «يا محمد، فإن كنت غير قابل منّا شيئاً مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيّق بلداً ولا أقلّ ماء ولا أشدّ عيشاً منّا، فسَلّ لنا ربك فليسرّ عتّا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا، وليسّط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق...». السيرة النبوية، ص ١٤٨. بتصرف.

(٢) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٤٠٢، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٤٢٥، وقطب، في ظلال القرآن، ٣٩٠٩، ٣٩١٠، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٣٤٥، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير =

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى اتباع هدى الوحي المنزل في البلد الحرام، ليتحقق للمؤمن الراحة الأبدية يوم القيامة، وبيان أن الكافر بهذا الوحي سيبقى في الكبد الدائم يوم القيامة، ولما كانت طبيعة الحياة عسيرة في البلد الحرام، وكان هو مهبط الوحي ليخرجهم من ضنك الدنيا إلى رغد الآخرة، أقسم به وجعله اسماً للسورة ليدل على المحور المذكور. وقد تميزت هذه السورة بأنها سورة الدعوة إلى الخروج من كبد الدنيا لنيل الراحة الأبدية، باتباع هدى الوحي المنزل على النبي ﷺ في البلد الحرام.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: مقدمة تحوي قسماً بالبلد الحرام ذي الظروف العسيرة، ويكون مهبط الوحي على أن الحياة الدنيا حياة الكبد، ثم بيان لحال أكثر الناس في هذه الحياة، مع دعوة إلى إحسان العمل، ثم خاتمة مؤكدة لما سبق^(١).

= الموضوعي، م ٩، ص ١٣٣، ١٣٤، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٥٢٠، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور، ص ٣٣٧ - ٣٣٩.

(١) مقدمة السورة شملتها الآيات: ١-٤، وبيان حال أغلب الناس في الدنيا: ٥-١٦، والخاتمة: ١٧-٢٠. ومن لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: لم يأت القسم بالبلد الحرام متبوعاً بكون النبي ﷺ حالاً فيه إلا هنا: ١، ٢، وذلك ليدل على سبيل الخلاص من ضنك الدنيا إلى رغد الآخرة عن طريق اتباع الوحي، بينما جاء القسم بالبلد الحرام دون ذكره ﷺ صراحة في سورة التين: ٣، ثانياً: منها أمور تبين طبيعة الحياة الدنيا: أ) فقله تعالى واصفاً حال الدنيا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾: ٤، لم يذكر إلا هنا، ب) وكذلك وصف الفئات المستضعفة فيها، كوصف العبيد بقوله: ﴿فَكَرِهَ﴾: ١٣، ووصف اليتيم والمسكين بـ ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ (١٥) أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ﴾: ١٥، ١٦، ج) وكذلك وصف المجاعة بقوله: ﴿فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾: ١٤، ثالثاً: منها أمور تختص بالإنسان الغافل، أ) كقوله: ﴿يَقُولُ أَفُنَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾: ٦، ولم يجتمع الفعل (أهلك) مع المال إلا هنا، ولم يوصف المال بالبلد إلا هنا، ب) وكقوله تعالى عن الإنسان الغافل: ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْقَعْبَةَ﴾ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَعْبَةُ﴾: ١١، ١٢، لم يذكر إلا هنا، ج) وصف الكافرين يوم القيامة بكونهم ﴿أَصْحَابُ لَظْلَمَةٍ﴾ لم يذكر إلا هنا: ١٩، وفي سورة الواقعة: ٩ (مرتين)، ووصف مصير الكافرين يوم القيامة بقوله ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ لم يذكر إلا هنا: ٢٠، وفي سورة الهمزة: ٨، ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس. ومن اللطيف إنك إذا راجعت سياق السور الثلاث: الواقعة والبلد والهمزة، فيما يتعلق بحال الكافرين في الدنيا ومصيرهم في الآخرة؛ ستجد أنها تشترك ببيان غفلتهم واغترارهم بمالهم حتى كان مصيرهم الكبد الأكبر يوم القيامة.

أولاً: جاء في مقدمة السورة قَسَمَ بالبلد الحرام، والنبِيُّ ﷺ مقيم فيه يحذّر قومه بما يأتيه من الوحي، على أن الحياة الدنيا طبيعتها الكبد: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَالْوَالِدِ وَمَا وَلَدَ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ۝﴾، فهذا البلد هو من أعسر البلاد معيشة، وقد اختاره الله مهبطاً للوحي، وأنزل الوحي على النبي ﷺ المقيم فيه ليخرج الناس من ضنك الدنيا إلى رغد الآخرة، ويتلاءم ذِكْرُ النبي ﷺ وما كان يكابده من أذى قومه مع القَسَمَ بالبلد الحرام ذي الطبيعة العسيرة^(١)، ومع جَوِّ الكبد الغالب على السورة، ولاحظ القَسَمَ بالوالد وما ولد ليؤكد حقيقة أن الإنسان خلق في كبد، فمن المعلوم أن الوالدين يعانيان مع المولود في كل مرحلة من حياته، فالوالدة تعاني من الحمل تسعة أشهر، ثم تعاني بالولادة والرضاعة، والأب يعاني بتربية المولود وجلب حاجاته، يعاني بتربيته طفلاً، ثم يعاني بتربيته غلاماً، ثم يعاني بتربيته شاباً. . . ، فحياة الوالدين كلها كَبَدٌ في كَبَدٍ.

ثانياً: وبعد أن أقسم الله بالبلد الحرام، وبيّن أنه هو الذي يوحى لعبده ﷺ المقيم فيه، وأنه تعالى هو خالق الإنسان وأنه قضى على هذه الدنيا طبيعة الكبد، انتقل السياق لبيان حال أكثر الناس، إذ هم يعرضون عن الهدى الذي أنزله خالقهم بالوحي على أنبيائه، ويغترون بأموالهم وكأنه لا حساب بعد الموت: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝ يَهْدِيَهُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ ۝ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتَرَبَةٍ ۝﴾، ولاحظ بيان أن الله تعالى هو الذي جعل للإنسان عينين ولساناً وشفَتين، وهو الذي بيّن له طريق الهدى من طريق الضلال، وذلك عن طريق الوحي، فالسياق إذاً يبيّن أن الإنسان إذا اتبع هدى الوحي ضمن الحياة الرغيدة في الآخرة، وإن لم يتبع هدى الوحي فسيفقى في الكبد الأكبر يوم الآخرة.

ولاحظ أن السياق يدعو إلى الإكثار من الأعمال الصالحة، وخص منها ما يتعلق بالمال، فعلى الإنسان أن يسعى بماله لفكّ الرقاب، أو إطعام اليتامى والمساكين، بدلاً من

(١) أشار لذلك الإمام البقاعي رحمه الله في نظم الدرر، ج ٨، ص ٤٢٦ وقال: «أقسم الله بسيد البلاد وسيد العباد ﷺ»، وهو قول ظريف.

إهلاك المال في الوجوه الباطلة، والسياق بذلك يقرّر المحور المذكور من أن اتباع هدى الوحي يوصل إلى الحياة الرغيدة في الآخرة.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد قرّرت أن من آمن واتبع هدى الوحي وعمل صالحاً، ضمن الحياة الرغيدة الأبدية في الآخرة: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَةِ ۖ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْيَمِينَةِ ۖ ﴿٨﴾﴾.

وكما افتتحت السورة بالقسم بالبلد الحرام، وبالوحي الذي نزل فيه ليخرج الناس من كبد الدنيا إلى رغد الآخرة، ختمت ببيان مصير من أعرض عن هدى الوحي، وأنه سيبقى في الكبد الأكبر في الآخرة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَابِعُنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۖ ﴿٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ۖ ﴿١٠﴾﴾، وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة البلد

سورة الدعوة إلى الخروج من كبد الدنيا لنيل الراحة الأبدية، باتباع هدى الوحي
المنزل على النبي ﷺ في البلد الحرام

<p>الموضوع الثالث: (الآيات: ١٧-٢٠)</p> <p>الخاتمة المؤكدة لما سبق:</p> <p>■ قررت الخاتمة أن مَنْ آمَنَ واتبع هدى الوحي المنزل في ذلك البلد وعمل صالحاً، صَمِنَ الراحة الأبدية يوم القيامة: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۝١٨﴾.</p> <p>■ وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى الخروج من كبد الدنيا باتباع هدى الوحي، ختمت ببيان أن من كفر بالوحي فسيبقى في الكبد الأبدي الأخروي بعد الكبد الدنيوي: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ۝٢٠﴾.</p>	<p>الموضوع الثاني: (الآيات: ٥-١٦)</p> <p>بيان حال أكثر الناس في الحياة الدنيا، مع الدعوة إلى إحسان العمل:</p> <p>■ ثم بيّن السياق حال أغلب الناس، إذ هم يعرضون عن هدى وحي خالقهم ويغترّون بأموالهم وكأنه لا حياة بعد الموت: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَّنْ يَدْرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَفَلَكُم مَّالٌ لُّبَدًا ۝٦ ائْتَسِبُ أَنْ لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۝٧﴾.</p> <p>■ ثم دعا السياق إلى الإيمان بهدى الوحي والعمل الصالح: ﴿أَلَمْ تَجْعَلْ لَّمْ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَا النُّجُودَيْنِ ۝١٠ فَلَا أَفْنَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكٌ رَّقِيعٌ ۝١٣ أَوْ إِطْلَعَتْ فِي يُومٍ ذِي مَسْغَبٍ ۝١٤﴾.</p>	<p>الموضوع الأول: (الآيات: ١-٤)</p> <p>المقدمة التي تحوي قَسَمًا بالبلد الحرام ذي الظروف العسيرة، ويكونه مهبط الوحي، على أن الحياة الدنيا حياة الكبد:</p> <p>■ افتتحت السورة بالقَسَم بالبلد الحرام الذي يَجِلُّ فيه النبي ﷺ وينزل عليه الوحي فيه، وبالقَسَم بالوالد وما يعانیه من تربية أولاده وتدبير أمورهم: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝١ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝٢ وَالْوَالِدُ وَمَا وَلَدٌ ۝٣﴾.</p> <p>■ وجواب القَسَم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾، فكل هذه الحياة كبد في كبد، فمن آمن واتبع هدى الوحي المنزل في ذلك البلد، خرج من الكبد الدنيوي إلى النعيم الأبدي، ومن كفر به بقي في الكبد الأبدي بعد الكبد الدنيوي.</p>
--	--	---

سورة الشمس

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ① وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ② وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ③ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ④ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا ⑤ وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا ⑥ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا ⑧ فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ⑩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ⑪﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى القَسَم بالشمس، كونها أحد أبرز مظاهر كمال قدرة الله تعالى، على أن المفلح من آمن وزكى نفسه، وأن الخائب من كفر واتبع هواه. فالقَسَم بالشمس يدل على أن مَنْ خلقها وجعل الليل والنهار ناشئين عنها، هو الذي أنزل القرآن الحكيم، فمن اتبع هداه وتركى كان من المفلحين، ومن كفر به واتبع هواه كان من الخائبيين.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن مقصود هذه السورة إيقاظ النفس البشرية واستعداداتها الفطرية، ليتحمّل الإنسان دوره في شأن نفسه، وتبعته في مصيرها، وربط ذلك بالقَسَم بالظواهر الكونية الدالة على الخالق، ولما كان من غرض السورة تهديد المشركين بأن يصيبهم مثل ما أصاب ثمود، قدّم بالقَسَم بأشياء معظمة وذكر من أحوالها ما هو دليل على بديع صنع الله تعالى، فهو المنفرد بالإلهية^(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى

(١) ينظر: البقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٤٣٧. وقطب. في ظلال القرآن، ج ٦، ٣٩١٥، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٣٦٦، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ١٤٥. والغزالي. نحو تفسير موضوعي، ص ٥٢٢، ود. شحاتة، أهداف كل سورة، ج ٥، ص ١٧٦ - ١٨١، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

الإيمان من خلال بيان أن المفلح من آمن بالوحي وزكى به نفسه، وأن الخائب من كفر بالوحي واتبع هواه، ولما كان القَسَم بالشمس وما تبعها يدل على أن من خلق هذه المخلوقات وجعلها دالة عليه، هو مَنْ أرسل الأنبياء بالوحي للناس ليؤمنوا بالخالق ويزكوا أنفسهم، جُعِل هذا القَسَم اسماً للسورة ليدل على المحور المذكور. وقد تميزت هذه السورة بأنها سورة الدعوة إلى التزكي باتباع هدى وحي خالق الشمس والقمر والليل والنهار سبحانه وتعالى.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى قسمين، أولهما: القَسَم ببعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى على أن المفلح من آمن وتزكى، وأن الخائب من كفر واتبع هواه، وثانيهما: تأكيد القسم الأول من خلال عرض أنموذج لمن كفروا واتبعوا هواهم وبيان مصيرهم^(١).

أولاً: جاء في مقدمة السورة قَسَم ببعض مظاهر كمال قدرة الله تعالى، على أن مَنْ آمن

(١) القسم الأول شملته الآيات: ١- ١٠، والقسم الثاني: ١١- ١٥، ومن لطائف هذه السورة أنها تميزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها ما يتعلق بالقَسَم، (أ) لم يأت في القرآن قَسَم بالشمس إلا هنا، (ب) والقَسَم بالقمر بهذه العبارة ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا﴾: ٢ كذلك الأمر، وقد أقسم الله بالقمر في ثلاثة مواضع بعبارات مختلفة: في سورة المدثر: ٣٢، وفي سورة الانشقاق: ١٨، (ج) وكذلك القَسَم بالنهار بعبارة ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىهَا﴾: ٣، وقد أقسم الله بالنهار في موضع آخر فقط: في سورة الليل: ٢، (د) وكذلك القَسَم بالليل بعبارة ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾: ٤، وقد أقسم الله بالليل في ستة مواضع أخرى: المدثر: ٣٣، والتكوير: ١٧، والانشقاق: ١٧، والفجر: ٤، والليل: ١، والضحى: ٢، (هـ) وكذلك القَسَم بالسماء بعبارة ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾: ٥، وقد أقسم الله بالسماء في أربعة مواضع أخرى: الذاريات: ٧، البروج: ١، الطارق: ١، (و) وكذلك القَسَم بالأرض بعبارة ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا حَمَلَهَا﴾: ٦، وقد ذكر القَسَم بالأرض في موضع آخر فقط: الطارق: ١٢، (ز) وكذلك القَسَم بالنفس بعبارة ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾: ٧، وقد ذكر القَسَم بالنفس في موضع آخر فقط: القيامة: ٢، ومن اللطيف أن القسم بالسماء والأرض انتهى عند الآية السادسة، مما يتناسب مع ما هو معلوم من أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثانياً: ومنها ما يتعلق بالنفس: (أ) لم تذكر هذه العبارة ﴿تَأْمَنَّا مَجُورًا وَنَقُولُهَا﴾ إلا هنا: ٨، إذ لم يضاف المصدر (فجور) والمصدر (تقوى) إلى النفس بصيغة المفرد إلا هنا، (ب) وكذلك هذه العبارة ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ دَكَّهَا﴾: ٩، وانظر قريباً منها: طه: ٦٤، المؤمنون: ١، الأعلى: ١٤، (ج) وكذلك هذه العبارة ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾: ١٠، وانظر قريباً منها: طه: ٦١، ١١١، وإبراهيم: ١٥، (د) وكذلك هذه العبارة ﴿إِذْ أُلْبِثْتُ شَقْنَهَا﴾: ١٢، وقد ذكرت لفظة ﴿الْأَشَقَى﴾ في موضعين آخرين فقط: الأعلى: =

بالوحي وزكّى به نفسه فهو المفلح، وأن من كفر بالوحي واتبع هواه فهو الخائب: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَلَكَ ۚ﴾ (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَوَّاهُ (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَىٰ (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهُ (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهُ (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهُ (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهُ (١٠)﴾، فقد أقسم الله بالشمس وهي آية النهار، وبالقمر وهو آية الليل، وهما آيتان يراهما الناس بشكل يومي، وهما من أدل الآيات على عظمة الخالق سبحانه، ولما أثبت القَسَم أن الله هو خالق الشمس والقمر، أقسم بالسماء عظمة البناء ليثبت أن خالق هذه المخلوقات العظام واحد عظيم القدرة، وناسب عطف القَسَم بالأرض على القَسَم بالسماء، لبيان أن الذي بسطها وسهل السير فيها هو خالق السماء، وآخر القَسَم بالنفس كونها أفلّ المذكورات شأنًا.

وقد اختص اسم السورة بالشمس دون غيرها كالسماء مثلاً مع أنها أعظم منها شأنًا؛ لأن الشمس وما ينتج عن دوران الأرض حولها من الليل والنهار أدل آيات السماء على قدرة الله تعالى بالنسبة للبشر، فالشمس آية عظيمة يراها الناس يومياً ولهم منها فوائد كثيرة في حياتهم، وإن كانت السماء أعظم منها شأنًا.

ولاحظ جواب القَسَم الذي يبيّن أن الله ألهم النفس فجورها وتقواها، وذلك عن طريق الوحي، فمن آمن بالوحي واتبع أوامره واجتنب نواهيه، زكّى نفسه وكان من المفلحين، ومن كفر بالوحي ولم يلتزم بما جاء به من الأوامر والنواهي، فهو متبع لهواه ويدسّ نفسه في الضلال، وكان من الخائبين.

فالمقدمة كما ترى تثبت أن الخالق العظيم، الذي خلق هذه المخلوقات العظيمة، هو الذي أرسل رسوله العظيم ﷺ بالوحي، ليزكّى به النفوس ويتحقّق لها الفلاح، وأن من

= ١١، والليل: ١٥، ثالثاً: ومنها ما يتعلق بالله تعالى: أ) لم تذكر هذه العبارة ﴿قَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ يَذِئِبُهُمْ﴾ إلا هنا: ١٤، ب) وكذلك ﴿سَوَّاهُ﴾ في سياق العذاب، بينما ذكرت هذه اللفظة في سياق بيان النعم في موضعين فقط: الشمس: ٧، والنازعات: ٢٨، ج) لم تذكر هذه العبارة ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ إلا هنا: ١٥. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس. ومن اللطيف أن عدد آيات هذه السورة خمس عشرة آية، وهو نصف عدد أيام الشهر، وقد أقسم الله في بدايتها بالشمس وما ينتج عنها من الليل والنهار، ومعلوم أن الليل والنهار يمثل أحدهما غالباً - نصف أيام الشهر.

أعرض عن وحي الله العظيم، ستتحقق له الخيبة. وأعتقد أن هذا يتلاءم مع قوله تعالى في سورة البقرة الذي يؤكد هذه الحقيقة: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١٦١) .

ثانياً: ثم انتقل السياق إلى عرض مصير أنموذج ممن كذب بالوحي واتبع هواه وكانت الخيبة مصيرهم: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَنِهَا﴾ (١٢١) ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ (١٢٢) ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ (١٢٣) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ (١٢٤) ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ (١٢٥) ، وأعتقد أن اختصاص ثمود بالعرض يتلاءم مع محور السورة من حيث إن أمر نبيهم عليه السلام إياهم بعدم التعرض لناقة الله بسوء، يشابه ما جاء به الوحي من الأمر بعدم ارتكاب ما حرم الله، ولاحظ أن السياق بين مصير تكذيبهم لنبيهم عليه السلام، وارتكابهم لما نهاهم عنه، فقد أرسل الله عليهم عذاباً مطبقاً فسواهم بالأرض، وهذا العذاب يتلاءم مع الآيات العظيمة الدالة على الله تعالى المُقسَم بها أول السورة، وكما أن الله القدير جعل الأرض مستوية - كما ذكر أول السورة - ليدل على عظمته، فكذلك تسويته لثمود بالأرض يدل على قدرته وعظمته.

وكما افتتحت السورة بالقسم بعدد من مظاهر كمال قدرة الله تعالى وعظمته، واختص منها الشمس اسماً للسورة، ليدل على أنه هو الذي يوحي للأنبياء ليتزكى من يؤمن، ختمت ببيان أن هذا الخالق العظيم هو القادر على إلحاق الخيبة بمن كذب وأعرض عن وحيه، ولا يخاف من عاقبة إنزال عذابه بهم شيئاً. وهكذا التقى البدء والختام على المحور الذي دل عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الشمس

سورة الدعوة إلى التزكي باتباع هدى وحي خالق الشمس
والقمر والليل والنهار سبحانه وتعالى

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٠)

القَسَمَ ببعض مظاهر كمال قدرته تعالى على أن
المفلح مَنْ آمَنَ بالخالق العظيم واتبع هدى
وحيه، وأن الخائب من اتبع هواه وكفر:

■ ﴿وَالشَّمْسُ وَحُجَّتْ ۖ وَإِذَا نَلَّهَا ۖ وَالنَّهَارُ
إِذَا جَلَّهَا ۖ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ۖ﴾، فالمُقَسِّم
سبحانه هو الإله الخالق العظيم الذي يوحى
بالهدى لأنبيائه ورسله.

■ ثم بيّن السياق أن الله يوحى لأنبيائه لبيّن
طريق الفجور من طريق التقوى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا
سَوَّاهَا ۖ فَأَمَّا هِيَ فَبُذِرَتْ وَفُقِّرَتْ ۖ فَذَلِكُنَّ ۖ
فَالْمُفْلِحُ ۖ﴾، وقد حَاطَ مَنْ دَسَّاهَا ۖ ﴿۱۰﴾.

■ فالمفلح مَنْ اتبع هدى وحي الخالق العظيم،
والخائب من أعرض عنه.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١١-١٥)

تأكيد الموضوع الأول من خلال ذِكر أنموذج
تحذيري لمن كفروا واتبعوا أهواءهم مع بيان
مصيرهم:

■ ثم بيّن السياق موقف ثمود الذين طغوا ولم
يتبعوا أمر نبيهم الذي أوحى الله إليه بأن لا
يتعرّضوا لناقة الله وسقياها، ولكنهم كذبوه.

■ وكما افتتحت السورة بذكر مظاهر عظمة الله
وكمال قدرته للحث على اتباع هدى وحيه،
بيّنت الخاتمة مصير مَنْ أعرض عن هدى هذا
الخالق العظيم والخيبة التي نالتهم:
﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ
فَذَلَّلَهُمْ فَسَوَّاهَا ۖ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۖ﴾. ﴿١٥﴾.

سورة الليل

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۝ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۝﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى القَسَم بالليل حال كونه يغطي الأشياء في ظلامه الدامس، والمراد من هذا القَسَم الدلالة على أن الله الذي خلق الليل يعلم ما يغطيه هذا الليل وما يجري فيه من أمور غيبية في الخفاء، وفي ذلك تأكيد على أنه تعالى يعلم جميع أعمال البشر وأنه قادر على مجازاتهم عليها.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن مقصود هذه السورة بيان التصرف الإلهي التام في النفوس بإثبات كمال قدرته، فالسورة تقرّر حقيقة الجزاء والعمل، من خلال الإيحاء بما وراء تقلّب الليل والنهار من يد تدير هذا الفلك، فإن الذي يدير الفلك هكذا يدير حياة البشر، ولا يتركهم سُدى ولا يخلقهم عبثاً، كما وأن الليل والنهار اللذين أقسم الله بهما يتناسبان مع المُقَسَم عليه وهو أن سعي الناس منه خير وشرّ، وهما مماثلان للنور والظلمة، وقد اختير القَسَم بالليل والنهار لبيان البون بين حال المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة^(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان بعض مظاهر شمول علم الله تعالى في كونه وإحاطته بأعمال البشر التي سيحاسبهم عليها الحساب التام يوم القيامة، ولما كان القَسَم بالليل والنهار والذكر والأنثى من المخلوقات دالاً على

(١) ينظر: البقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٤٤٥، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٩٢٠ و ٣٩٢١، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٣٧٧ و ٣٧٨، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ١٦٩ و ١٧٠. والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٥٢٣، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ٤٥٩، ٤٦٠، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى واهدي ومحمود مهنا بالدراسة.

شمول وإحاطة علم الله تعالى، أقسم الله بها واختص الليل لاسم السورة؛ لأنه أدل ما فيها على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان علم الله التام بأعمال عباده التي سيجازيهم بها، كما أن علمه تام بخفايا كونه ومخلوقاته.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين محور السورة ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى قسمين، أولهما: القَسَم بالليل والنهار والذكر والأنثى على شمول علمه تعالى بأعمال البشر ومجازاته العادلة لهم، كلٌ حسب عمله، وثانيهما: تأكيد القسم الأول من خلال بيان مصير من كذب وتولى، ومصير من آمن واتقى يوم القيامة^(١).

أولاً: جاء في القسم الأول من السورة قَسَم من الله تعالى يدل على علمه التام بأعمال البشر وقدرته على مجازاتهم عليها: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۝ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۝ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَافَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ

(١) القسم الأول شملته الآيات: ١- ١٣، والقسم الثاني: ١٤- ٢١، ومن لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور التي تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها ما يتعلق بالقسم، أ) فالقسم بالليل والنهار بعبارة ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ دون تحديد المفعول به لم يتكرر في القرآن، بينما في سورة الشمس السابقة ذكر ضمير المفعول به الذي يعود على الشمس، وعدم ذكر المفعول به في سورة الليل أدل على شمول علم الله لكل ما يغشاه الليل وكل ما يجليه النهار، ب) القسم بخلق الذكر والأنثى لم يتكرر في القرآن، وهو يدل على كمال قدرة الله وشمول علمه، ج) عبارة ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ التي هي جواب القسم لم تتكرر أيضاً في القرآن، وهي تدل على المحور المذكور بلا شك، ثانياً: ومنها ما يتعلق ببيان شمول وإحاطة علم الله وكمال قدرته، أ) فقوله تعالى ﴿فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۝ ٧﴾، و ﴿فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۝ ١٠﴾، لم يتكرر في القرآن بالصيغة ذاتها، وقريب منه قوله تعالى في سورة الأعلى ﴿وَنُفِثَ لَكُمْ فِي الْيُسْرَى ۝ ٨﴾، وهي متعلقة بسيدنا محمد ﷺ، بينما لفظة (العسرى) لم تتكرر في القرآن، وهما عبارتان تدلان على الجزاء العادل حسب العمل، ب) وصف المكذب المتوَلَّى بـ ﴿لَا يَمْلِكُ إِلَّا الْآلُفُ﴾ لم يذكر إلا هنا: ١٥، وفي سورة الأعلى: ١١ ﴿وَنَجَّيْنَاهُ الْآلُفُ﴾ وهي عبارة تدل على الجزاء العادل، ج) وصف المؤمن بـ ﴿وَسَجَّيْنَاهُ الْآلُفُ﴾ لم يذكر في القرآن بصيغة أفعل التفضيل إلا هنا: ١٧، ووصف جزائه بعبارة ﴿وَلَسَوْفَ يَرَى ۝ ٢١﴾، كذلك لم تتكرر بذات الصيغة، وقريب منها قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آتَايَ الْآلِ فَسَجَّ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ۝ طه: ١٣٠﴾، وقوله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ۝ الضحى: ٥﴾، ومن اللطيف أنهما عبارتان تختصان بسيدنا محمد ﷺ أيضاً. وينظر للمراجعة، عبد الباقي، المعجم المفهرس.

وَأَسْتَفْقَى ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى ۝٩ فَسَيَسْأَلُهُ الْمُسَرَّى ۝١٠ وَمَا يُعْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ۝١٣، ولاحظ تقديم ذكر الليل، لأنه أدل على كمال علم الله تعالى بما يغشاه من الأشياء والأحداث الخفية، ولاحظ عدم ذكر المفعول به لما يغشاه الليل وما يجلبه النهار، ليؤكد حقيقة كونه تعالى عالماً بكل ما يجري في كونه ليلاً أو نهاراً خفية أو جهرية، ولم يحدد السياق بيان نوع الذكر والأنثى، فهو وصف لكل المخلوقات، وفي هذا زيادة في الدلالة على المحور المذكور.

ولاحظ جواب القسم الذي يبين أنه تعالى عليم بأعمال البشر مهما اختلفت مقاصدها من خير أو شر، وبناء على ذلك فالله يجزي كلًّا بحسب عمله، فيُسّر للخير مَنْ عمل خيراً، ويسر للشرّ مَنْ عمل شراً، ولاحظ التأكيد على أنه سبحانه بيده الدنيا والآخرة، وهذا يؤكد المحور المذكور. فهذا القسم الأول من السورة يثبت أن الله العليم بمخلوقاته وبكل ما يجري في كونه، عليم أيضاً بأعمال البشر التي سيجازيهم عليها.

ثانياً: وجاء في القسم الثاني تأكيد لما تقدم، وذلك ببيان مصير المكذب والمؤمن يوم القيامة، وبذلك يتجلى بيان شمول وإحاطة علم الله تعالى وكمال قدرته بأبلغ صورة: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ۝١٤ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۝١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ۝٢١﴾، ولاحظ وصف المكذب المتولّي بالأشقى، ووصف المؤمن المتزكي بالأتقى، مما يدل على أنه سبحانه يعلم من بلغ من دركات الشقاء حتى وصل إلى الوصف بالأشقى، وهو سبحانه يعلم من ارتقى بدرجات التزكية حتى بلغ إلى الوصف بالأتقى.

وكما افتتحت السورة بالقسم الدال على أنه تعالى يعلم جميع أعمال البشر وسيجازيهم عليها، وكان القسم بالليل أدل هذه الأقسام على ذلك، ختمت ببيان شرط قبول الأعمال، وهو أن تكون النية خالصة لوجه الله تعالى، ليجزي الله مَنْ قام بالأعمال وفق هذا الشرط بما يرضي هذا العامل المخلص، وفي ذلك دلالة أيضاً على أنه تعالى يعلم مَنْ تحقق في عمله هذا الشرط ممن لم يتحقق به، وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور الذي دلّ عليه اسم السورة بأبلغ دلالة.

سورة الليل

سورة بيان علم الله التام بأعمال عباده التي سيجازيهم بها،
كما أن علمه تام بخفايا كونه ومخلوقاته

الموضوع الأول: (الآيات: ١-١٣)

القَسَم بالليل والنهار والذكر والأنثى على شمول علمه تعالى بأعمال البشر، ومجازاته العادلة لهم يوم القيامة:

■ أقسم الله تعالى بالليل وما يغشاه من الأسرار والأحداث الخفية، وبالنهار وما يجليه من الكائنات، وبكل أنواع الذكر والأنثى من المخلوقات على أن أعمال البشر شتى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ۚ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ۚ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۚ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۚ﴾، وعدم تحديد المفعول به للفعلين: "يغشى، تجلى"، وعدم بيان نوع الذكر والأنثى، يدل على كمال علمه تعالى بكونه وبمخلوقاته ما خفي منها وما ظهر.

■ ثم بين السياق مصير من أحسن العمل: ﴿فَأَمَّا مَنْ عَطَى ۖ وَالْفَقْرَ ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۖ﴾.

■ وبين مصير من أساء العمل: ﴿وَأَمَّا مَنْ يَخِلْ وَاسْتَكْفِرْ ۖ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ﴾.

■ وتحديد مصير الفريقين يبرز كمال علم الله بأعمال خلقه الظاهرة والخفية.

الموضوع الثاني: (الآيات: ١٤-٢١)

تأكيد الموضوع الأول من خلال عرض مصير من كذب وتولى، ومصير من آمن واتقى يوم القيامة:

■ بينت السورة مصير من كذب بآيات الله واستكبر عنها: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ۚ لَا يَصْنَعُهَا إِلَّا الْإِنْفَى ۚ﴾.

■ وبينت مصير من آمن واتقى وأحسن العمل: ﴿وَسَيَجْزِيَنَّ الْإِنْفَى ۚ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۚ﴾.

■ وكما افتتحت السورة بالقسم الدال على علم الله التام بأعمال البشر، ختمت ببيان شرط قبول الأعمال عند الله، وبيان علم الله بمن تحقق فيه هذا الشرط ممن لم يتحقق فيه: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۖ إِلَّا إِتْيَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۖ﴾.

سورة الضحى

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَتَّوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الضاد والحاء والحرف المعتل: أصل صحيح واحد يدل على بروز الشيء»^(١)، وزاد الإمام ابن منظور رحمه الله: «الضَّحُوُّ والضَّحْوَةُ والضَّحِيَّةُ: ارتفاع النهار... والضحى: حين تطلع الشمس فيصفو ضوءها»^(٢)، أما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى قَسَم الله تعالى بهذا الوقت الدال على ابتداء النهار على أنه تعالى ما ترك سيّدنا محمداً ﷺ منذ خلقه، وما كرهه منذ أحبه، وفي ذلك ردّ على امرأة من قريش زعمت أن الوحي انقطع عنه ﷺ؛ لأن ربّه قد تركه بغضاً له^(٣).

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً للربط بين دلالة اسم هذه السورة ومحورها، فذكروا أن مقصود هذه السورة بيان أن النبي ﷺ في عين الرضا دائماً، لا ينفك عنه في الدنيا ولا في الآخرة، وأن انقطاع الوحي لفترة ما ليست دليلاً على القلى، بل هو ابتلاء له حكمة، فالسورة كلّها تسرية وتسلية وترويح وتطمين له ﷺ، واسمها دالّ على ذلك، لأنه قَسَم بأشرف أوقات النهار، وهو ﷺ أشرف الخلق، ونور الضحى الحسى يشبه نور النبي ﷺ

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٦١٣.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، ج ٩، ص ٢١، بتصرف.

(٣) حادثة تلك المرأة مع النبي ﷺ أخرجه الإمام البخاري رحمه الله في الصحيح، كتاب التفسير، برقم: ٤٥٦٩، والإمام مسلم رحمه الله في الصحيح، كتاب الجهاد والسير، برقم: ٣٣٥٥.

المعنوي، ثم إن الضحى بما يحمل من دلالة الأنس بابتداء حركة الناس، متلائم مع تأنيسه ﷺ في بداية الدعوة، أضف إلى ذلك ما في هذه السورة من ألفاظ ذات موسيقى سارية التعبير وشجبة الإيقاع^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: تأنيس النبي ﷺ وتبشيره على دعوته إلى ربه، من خلال بيان أن الله تعالى لم ولن يتخلّى عنه، لا قبل البعثة ولا بعدها. وقد أقسم الله بالضحى لإثبات هذا المحور؛ لأن دلالات هذا القسم تحقق الأنس له ﷺ. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة تأنيس الله لنبيه ﷺ في الدنيا والآخرة.

وبتأمل السورة يبرز الترابط بين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وبين آياتها، وفيما يلي بيان ذلك^(٢): ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا ۝٧﴾

(١) ينظر: المهاييمي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٤٠٥، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ٤٥٢، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٩٢٥-٣٩٢٨، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٣٩٤، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ٢٠٠، والندوي، دراسات قرآنية، ص ٢٢٨-٢٣٣، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٥٢٤، ود. شحاتة، أهداف كل سورة، ص ١٩٣-١٩٨، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور، ص ٣٤٠-٣٤٢.

(٢) من لطائف هذه السورة: أولاً: أن الضمير العائد على الله تعالى في سياقها جاء كله بضمير المفرد: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ۝١﴾، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ ۝٤﴾، ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَوَىٰ ۝٦﴾، لأنه كفى به مؤنساً سبحانه وتعالى، وثانياً: امتازت هذه السورة بألفاظ لم تذكر في سورة أخرى، على نحو يحقق له الأنس ﷺ، وفيما يلي بيان ذلك: (أ) لم يوصف الليل بالفعل ﴿سَجَىٰ﴾ إلا هنا، (ب) لم يذكر الفعل (ودّع) إلا هنا وقد جاء في سياق النفي، وكذا الفعل ﴿قَلَىٰ﴾، (ج) لم يذكر في القرآن كونه ﷺ يتيماً إلا هنا، بينما لفظة «الضحى» ومشتقاتها فقد ذكرت في القرآن سبع مرات، منها مرتان تعطيان دلالة الأنس بالناس: ﴿أَرَأَيْتَ أَقَلُّ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾: الأعراف: ٩٨، و﴿وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ أَتَانًا ضُحًى﴾: طه: ٥٩. وبإقاي المرات تعطي دلالات متعددة، فمنها ما يدل على أن وقت الضحى أقل أوقات النهار حرّاً: ﴿وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾: طه: ١١٩، فقد نفى حصول الظمأ لآدم عليه السلام في الجنة بأنه لن يشعر بالحر، ولذلك استخدم أقل أوقات النهار دلالة على الحر، ومنها ما يدل على قدرة الله تعالى في خلق النهار من بدايته: ﴿وَأَنفُثْنَا لَهَا وَأَخْرَجَ مُخْتَلِئًا﴾: النازعات: ٢٩، ﴿وَالنَّجْمِ ثِيَابًا﴾: الشمس: ١، ومنها ما يدل على قصر هذا الوقت وأخفها أثراً على الناس: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ رَوَّعْتَا لَوْ يَلْتَوُونَ إِلَّا عِيشَةً أَوْ مَخْمَصًا﴾: النازعات: ٤٦، فالضحى مع كونه أقصر أوقات النهار ولكنه أكثرها دلالة على الأنس والنشاط والخفة ونفي الحر، وهو دليل على قدرة الخالق، ولذلك استخدمت هذه اللفظة دون غيرها، والله أعلم. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

فَهْدَى ۖ (٧) وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَقْنَ (٨) فَأَمَّا اللَّيْمُ فَلَا نَقَهَرَ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا نَنْهَرَ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ، لاحظ القَسَمَ بوقت الضحى وهو أكثر أوقات النهار دلالة على الأنس ببدء حركة الناس بنشاط ، وهو ألطف الأوقات وأكثرها دلالة على نفي الحرّ ، ولعل ذلك يطلعنا على سرّ عدم استخدام ألفاظ أخرى للقَسَم ، مثل «الفجر» لأنه أقلّ دلالة على الأنس بالناس ، فمعظم الناس نائمون في ذلك الوقت ، ومثل «النهار» لأنه يدل على الحرّ ، وإحساس الناس بالتعب ، ومثل «الليل» لأنه وإن دل على الأنس باجتماع الناس في بيوتها للنوم ، لكنه أقلّ دلالة على الأنس من الضحى كما لا يخفى ، فالليل يدل على نهاية الأنس ، والضحى يدل على بدء الأنس ، وأعتقد أن دلالة الضحى على نشاط الناس متلائمة مع تثبيت النبي ﷺ على دعوته بأن يقوم إليها بنشاط .

ولاحظ القَسَمَ بالليل إذا سجي ، فهو آخر أوقات اليوم ، وفيه دلالة على الأنس أيضاً لاجتماع الناس في بيوتها من أجل النوم ، فالضحى أعطى دلالة الأنس من أول اليوم ، والليل أعطى دلالة الأنس في آخره ، ثم لاحظ وصف الليل بالفعل «سجى» دون غيره مثل «يغشى» ، أو «عسّس» ، أو «يسر» ، بالفعل «سجى» يعطي دلالة الهدوء والراحة النفسية ، مع الإشارة إلى طول هذا الوقت المريح ، وليس في حروفه حرف استعلاء أو حرف مفخّم مثل «يغشى» أو «يسر» - في حال الوقوف على الرائ - ، فالفعل «يغشى» مناسب لسياق الدلالة على قدرة الله تعالى وليس الأنس ، والفعل «يسر» يوحى بسرعة انقضاء هذا الوقت ، فهو أقلّ دلالة على الأنس من الفعل «سجى» ، ولا يخفى أن الفعل «سجى» أشدّ دلالة على الهدوء والراحة من الفعل «عسّس» ، لأن «عسّس» يدل على بدء الليل بإقبال ظلامه ، فهو مناسب أيضاً في سياق الدلالة على قدرة الله ، بينما «سجى» يدل على تمكّن حالة الهدوء والراحة في الليل وطول هذا الوقت المريح .

ولاحظ ذكر الضمير العائد على النبي ﷺ مع الفعل «ودّع» ، لأن التوديع لا يكون إلا لحبيب ، ولم يذكر هذا الضمير مع الفعل «قلّى» لأن القلى لا يكون إلا لبغض ، وأيّ تعبير يفيد تشبّهه ﷺ على دعوته أكثر من ﴿وَلَا آخِرَ خَيْرٍ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (١) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) ؟ مع التوكيد باللام والفاء .

ولاحظ التعبير عن حاله ﷺ قبل البعثة، فانظر الفعل «وجدك» الدال على تحقيق الأنس، والفعل «فأوى» المؤكد بالفاء، وكذلك لم يتخل عنه ربه سبحانه إذ هداه الله إلى الإيمان وحقائقه، وقد كان ﷺ ذا عيال فأغناه ربه، وأعتقد أن عدم ذكر الضمير العائد عليه ﷺ مع هذه الأفعال الثلاثة، من أجل أن لا يقتصر الإيواء والهداية والإغناء من الله تعالى على نبيه ﷺ فقط، بل هو ﷺ أشرف أنموذج لمن تحقق له ذلك، فالله تعالى آواه ﷺ وآوى غيره، وهداه وهدى غيره، وأغناه وأغنى غيره.

وبعد أن تحقق الأنس له ﷺ من الله تعالى بأكمل صورة، ناسب ذكر التوجيه بعدم قهر اليتيم، فكما كنت يتيماً وآواك الله ولم يتخل عنك، فلا تقهر اليتيم ولا تتخل عنه، وكما كنت ذا عيال فأغناك الله ولم يتخل عنك، فلا تنهر السائل وتتخل عنه، ولاحظ الدعوة إلى القيام بمهمة تبليغ الرسالة، وهي أجلُّ نعمة من الله تعالى عليه ﷺ، والتحديث بها يكون عن طريق تبليغها للناس بهمة ونشاط، فكما يبتدىئ الناس يومهم ضحى بهمة ونشاط، فانهمض إلى دعوة ربك بهمة ونشاط.

فأنت تلاحظ أن هذه السورة بسياقها تحقق له ﷺ الأنس والتثبيت في دعوته، وهو المحور الذي دل عليه اسم السورة «الضحى» ألطف وأجمل دلالة.



سورة الضحى

سورة بيان تأنيس الله لنبيه ﷺ في الدنيا والآخرة

- أقسم الله بأكثر أوقات النهار دلالة على الأُنس بالناس، وأكثرها خِفَّةً ولطافة: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١﴾ .
- وأقسم بالليل واصفاً إياه بأبلغ الأوصاف دلالة على الهدوء السكينة والاستئناس والراحة: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ .
- وجواب القَسَمِ يحقق أن الله لم يترك نبيه ﷺ منذ خلقه، ولم يبغضه منذ أحبه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ .
- وحقق له الأُنس في الآخرة أيضاً: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾ .
- وليس أكثر من هذه العبارة دلالة على الأُنس والرضا: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ .
- ومما يؤكد حصول الأُنس له ﷺ أن الله أواه حين كان يتيماً: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾ ، وهدهاه إلى الإيمان وحقائق الوحي حين كان غافلاً عنها: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ ، وأغناه حين كان فقيراً ذا عيال: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ .
- وبعد تحقق الأُنس له ﷺ والرضا في الدنيا والآخرة، وكما آواه الله وقد كان يتيماً، فعليه أن لا يقهر اليتيم، وأن لا ينهر السائل، وأن يحدث بنعمة الله عليه فينهض للدعوة إلى الله بهمة ونشاط: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ .

سورة الشرح

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ
ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ
يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام الأصفهاني رحمه الله: «أصل الشرح: بسط اللحم ونحوه، يقال: شرحت اللحم وشرحته، ومنه شرح الصدر: أي بسطه بنور إلهي وسكينة من جهة الله وروح منه»^(١)، وزاد الإمام ابن منظور رحمه الله: «وشرح الله صدره لقبول الخير فانشرح: وسَّعه لقبول الحق فاتسع»^(٢)، فالدلالة اللفظية تفيد بسط النفس وإزالة الشدة في قلبه ﷺ من تحمّل أعباء الرسالة، وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فمن الممكن أن تعود لأمرين اثنين: أحدهما حسّي يعود على حادثة شق صدره ﷺ حين كان غلاماً وإخراج حظ الشيطان منه^(٣)، والثاني معنوي مجازي بالمعنى اللغوي المذكور.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً من الربط بين دلالة اسم هذه السورة ومحورها، فذكروا أنها جاءت كتكملة لسورة الضحى التي سبقتها، فالتحديث بنعمة الله المذكور في سورة الضحى يكون بالنَّصَب في عبادة الله والنَّصَب إليه، والرغبة إليه بتذكّر إحسانه وعظيم رحمته، كما وفيها ظلّ العطف الندي، وفيها روح المناجاة للحبيب، وفيها استحضار مظاهر العناية، واستعراض مواقع الرعاية، والبشرى باليسر والفرج، وكل ذلك

(١) الأصفهاني، المفردات، ص ٤٤٩.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج ٨، ص ٥٠.

(٣) حادثة شق صدر النبي ﷺ أخرجها الإمام مسلم رحمه الله في الصحيح، كتاب الإيمان، برقم: ٢٣٦.

يدل عليه اسم السورة دلالة واضحة^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: تأنيس النبي ﷺ وتثبيته على دعوته إلى ربه، من خلال بيان أن الله تعالى قد أعانه على حمل أمانة الدعوة وخفف عنه قبل البعثة وبعدها، فالتيسير من الله حليفه ﷺ. والدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة «الشرح» أدل ما في السورة على هذا المحور، ولذلك سُميت به. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان التخفيف الإلهي لأعباء الدعوة عن النبي ﷺ.

وبتأمل السورة يبرز الترابط بين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وبين آياتها، وفيما يلي بيان ذلك^(٢): ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۚ﴾ (١) ﴿الَّذِي أَقْنَصَ ظَهْرَكَ

(١) ينظر: الفيروزآبادي، البيان بمقاصد القرآن، ١٣٤، والمهايمي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٤٠٦، والباقعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٤٦٠، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٩٢٩، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٤٠٧، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ٢١٩، والندوي، دراسات قرآنية، ص ٢٣٤-٢٤٧، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٥٢٦. وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(٢) من لطائف هذه السورة: أولاً: أن الضمير العائد على الله فيها جاء كله بضمير الجمع ﴿نَشْرَحْ﴾، ﴿وَضَعْنَا﴾، ما عدا ﴿لَكَ فَارْغَبْ﴾، وذلك لأن ضمير الجمع أنسب لسياق التخفيف عن النبي ﷺ، أما الموضع الأخير فقد جاء بضمير المفرد لأنه يعبر عن الربوبية، وهي أيضاً مناسبة لسياق التخفيف من (والينا فارغب) مثلاً، ثانياً: امتازت هذه السورة بألفاظ لم تذكر في سورة أخرى، على نحو يحقق له التخفيف في حمل الأمانة ﷺ، وفيما يلي بيان ذلك: أ) لم يصف «الوزر» إلى النبي ﷺ إلا هنا، وقد جاء في سياق وضعه عنه ﷺ، ب) وكذلك عبارة ﴿الَّذِي أَقْنَصَ ظَهْرَكَ﴾، ج) وعبارة ﴿وَضَعْنَا لَكَ وِزْرَكَ﴾، ومن اللطيف أن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ الشعراء: ٨٤، قريب من آية الشرح، لكن سيدنا إبراهيم عليه السلام نال هذه الدرجة بعد أن طلبها، بينما سيدنا محمد ﷺ نالها فضلاً من الله دون طلب منه ﷺ، أما مشتقات الجذر «شرح» فقد ذكرت في القرآن خمس مرات، أحدها في سياق الذم: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ النحل: ١٠٦، وكان شرح الصدر لا يكون إلا بالإسلام، وهي الحقيقة التي عبرت عنها الآيات: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ الزمر: ٢٢، و﴿مَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ الأنعام: ١٢٥، و﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، ومن اللطيف أيضاً أن سيدنا موسى عليه السلام طلب شرح الصدر ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ طه: ٢٥، بينما سيدنا محمد ﷺ شرح الله له صدره بلا طلب منه ﷺ، وأما مشتقات الجذر «عسر» فلم تتكرر مرتين إلا في هذه السورة وقد جاءت معرفة بال فالكلمتان تعطيان الدلالة نفسها، وأما مشتقات الجذر «يسر» فلم تتكرر مرتين إلا هنا وفي سورة الطلاق، وقد جاءت بلا تعريف بل بالتنكير «يسراً» فالكلمتان تعطيان دلالات مختلفة، ولذلك قيل: لن يغلب عسرٌ يُسرَيْن. ذكر النقطة الأخيرة الدكتور صلاح الخالدي في كتابه إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، ص ٢٣٩. وينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾ ، ولاحظ فعل الشرح المضارع، وهو يفيد الاستمرارية، وهو أبلغ من لو قيل: (أما شرحنا لك صدرك) مثلاً، وأعتقد أنه بدلالة هذا الفعل المضارع يمكن الجمع بين حادثة شق صدره ﷺ حينما كان غلاماً، وقد نزع منه حظ الشيطان، وهو الشرح الحسني، وقد استمر أثر ذلك الشرح إلى أن بعثه الله نبياً، وشرح صدره بالإسلام، وهو الشرح المعنوي، بينما وضع الوزر جاء بالفعل الماضي وهو يؤكد أن الوزر كان من أيام الجاهلية على اعتبار أن الوزر بمعنى الإثم، ولكنني أرى أن الأرجح أن يكون الوزر بالمعنى اللغوي وهو الثقل، فقد وضع الله عن نبيه ثقل الدعوة منذ البداية وخفف أمرها عليه ﷺ، ويؤكد ذلك - فيما أرى - قوله ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ ﴿٣﴾ ، وهو فيه مزيد من التمسّن عليه ﷺ، فقد كاد ثقل الدعوة أن ينقض ظهر النبي الكريم ﷺ، ولاحظ تكرار الضمير العائد على الله تعالى بصيغة الجمع، وهو أبلغ في الدلالة على التخفيف عنه ﷺ.

ولم يقتصر الفضل الإلهي على نبيه ﷺ على ما يتعلق بالدعوة وأثقالها فقط، بل رفع الله ذكر نبيه ﷺ إلى يوم الدين، فلا يُعتبر الإنسان مؤمناً إلا بعبارة (لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ)، ولاحظ استخدام أسلوب التوكيد بحرف (الفاء) و (إن) لإثبات حقيقة أن اليسر يغلب العسر، بالإضافة إلى أن العسر جاء معرفاً بـ (أل) التعريف، فالدلالة واحدة للكلمتين، بينما اليسر لم يُعرف بـ (أل) وجاء منكراً، فالكلمتان تعطيان دلالات مختلفة.

ولما حصل له ﷺ التخفيف من ربه عز وجل، وبين له أن التيسير حليفه، فعليه أن ينصب إذاً بهمة ونشاط في دعوته، ويرغب إلى ربه تعالى الذي تكرم عليه بشرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر واليسر.

فأنت تلاحظ إذاً أن السورة بسياقها تدور حول محور التخفيف عن النبي ﷺ أثقال الدعوة، وهو المحور الذي دلّ عليه اسم السورة «الشرح» ألطف وأجمل دلالة.

سورة الشرح

سورة بيان التخفيف الإلهي لأعباء الدعوة عن النبي ﷺ

■ افتتحت السورة ببيان أن الله قد شرح صدر نبيه ﷺ، فلا يجد في صدره حرجاً مما كلفه الله به، أو أن يكون المعنى أن الله قد أزال من صدره حظّ الشيطان حينما شرح صدره ﷺ وهو غلام: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ﴾ (١).

■ وقد وضع الله عن نبيه ﷺ ثقل الدعوة الذي كاد ينقض ظهره: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ۖ﴾ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿۝﴾ (٣).

■ وله ﷺ زيادة على تخفيف أحمال الدعوة أن رفع الله ذكره إلى يوم الدين: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۖ﴾ (٤)، فلا يقبل إيمان العبد إلا بشهادة أن لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

■ وبين الله له أن العسر الواحد لن يغلب يُسرَيْن: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ﴾ (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿۝﴾ (٦).

■ وبعد هذا التخفيف عن النبي ﷺ، فعليه أن ينصب ويرغب إلى ربه ويتقرب منه بهمة ونشاط شكراً له تعالى على هذا التخفيف: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ﴾ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿۝﴾ (٨).

سورة التين

﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية إلى القَسَمِ بالتين والزيتون، وهما نوعان معروفان من الأطعمة، وقد اختلف المفسرون في المقصود من هذا القَسَمِ، فمنهم من اعتمد على ظاهر القَسَمِ وقالوا إنه يبرز قدرة الله في الخلق العجيب لهذين النوعين وما فيهما من فوائد جمة للإنسان، وذكروا أن ذلك يتناسق مع ما بيّنته السورة من قدرة الله في خلق الإنسان، ومنهم من اعتبر القَسَمِ بهذين النوعين من الأطعمة كناية عن البلد المشهورة بزراعة هذين النوعين، وهي بلاد الشام، وأشرفها أرض بيت المقدس، ويكون ذلك إشارة إلى رسالة سيدنا عيسى عليه السلام، وذكروا أن ذلك يتناسق مع طور سينين وهو موضع رسالة سيدنا موسى عليه السلام، والبلد الأمين وهو مكة موضع رسالة سيدنا محمد ﷺ. وأعتقد أن الاعتبار الكنائي للقَسَمِ هو الأجدر للقبول، وذلك لأنه متناسق ومترابط مع سياق السورة كما سيأتي^(١).

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن الحقيقة الرئيسية التي تعرضها هذه السورة هي حقيقة الفطرة

(١) من المفسرين الذين رجّحوا القول بأن القَسَمِ على ظاهره: الطبري، جامع البيان، ج ١٠، ص ٨٦٩٧، والزمخشري، الكشاف، ج ٤، ص ٧٦٣، ومن المفسرين الذين رجّحوا القول بأن القَسَمِ كناية عن البلد: الألوسي، روح المعاني، ج ١٥، ص ٣٩٤، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٧١٧، وقد قال عن ترتيب هذه البلدان الثلاثة: «ولهذا أقسم بالأشرف - يقصد سيدنا عيسى عليه السلام - ثم الأشرف منه - يقصد سيدنا موسى عليه السلام - ثم الأشرف منهما - يقصد سيدنا محمد ﷺ -». وهو قول جميل.

القيمة التي فطر الله الناس عليها، واستقامة طبيعتها مع طبيعة الإنسان، والوصول بها معه إلى كمالها المقدور لها. فإن كان القَسَم أول السورة يقصد منه نوعي الأطعمة فهو يدل على كمال قدرة الله في خلق الأطعمة والفطرة البشرية، وإن كان يقصد منه بلدان الرسالات الثلاثة كناية فهو يدل على كمال قدرة الله وعظيم حكمته في إرسال الرسل وتبليغ الدين^(١).

وأعتقد أن الوجه الكنائي للقَسَم هو الأقرب للصواب، والله أعلم، فمن الممكن أن يلخص محور السور بالقول بأنه: الدعوة إلى اتباع هدى أحكم الحاكمين الذي يوحى إلى أنبيائه بالوحي الحكيم، لأن في ذلك انسجاماً بين هدى وحي الخالق وبين الفطرة القويمة التي خَلَقَ الإنسانَ عليها، فمن اتبع هدى الوحي ولزم فطرته القويمة وعمل صالحاً فسينعم خالدًا في الجنة، ومن كذب بالوحي وأساء العمل وخالف فطرته القويمة فسيُعَذَّب خالدًا في النار، ولما كان القَسَم بالتين والزيتون يشير كناية إلى أرض بيت المقدس، وهي أرض رسالة سيدنا عيسى عليه السلام، وما تبعه من القَسَم بأرض رسالة سيدنا موسى وأرض رسالة سيدنا محمد عليهما السلام، لما كانت هذه الأقسام أدل ما في السورة على المحور المذكور، جُعل القَسَمُ بها اسماً للسورة ليدل على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة الدعوة إلى اتباع هدى وحي أحكم الحاكمين المنسجم مع الفطرة القويمة التي فطر الإنسانَ عليها.

وبتأمل آيات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك^(٢): ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا

(١) ينظر: البقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٤٦٨ - ٤٧٠، وقد ذكر الوجهين ولم يرجح، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٩٣٢ - ٣٩٣٣، وقد رجح المعنى الكنائي، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٤١٩، وقد رجح المعنى الكنائي، وأ.د. مسلم، وملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ٢٣٨، وقد ذكروا الوجهين دون ترجيح. والندوي، دراسات قرآنية، ص ٢٤٨ - ٢٥٢، وقد رجح المعنى الكنائي، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٥٢٨، وقد رجح المعنى الكنائي، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ٢١٧، ٢١٨، وقد اعتمد القول بأن التين هنا هو نوع الفاكهة، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(٢) من لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها ما يتعلق بالقَسَم، إذ لم يقسم الله تعالى بالتين والزيتون إلا هنا، بل لم يذكر التين في القرآن إلا هنا، =

الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾ .

فقد أقسم الله ببلاد الشام المشهورة بكثرة هاتين الشجرتين فيها، وأشرف بقعة فيها أرض بيت المقدس، وهي أرض رسالة سيدنا عيسى عليه السلام، وأقسم بطور سينين وهو البقعة التي أوحى الله بها إلى سيدنا موسى عليه السلام، وبالبلد الأمين، وهو مكة التي أوحى الله فيها إلى سيدنا محمد ﷺ، فالأقسام الثلاثة تدل على أن الله تعالى هو الذي أوحى إلى هؤلاء الرسل الثلاثة عليهم السلام، وأنزل عليهم الوحي ليؤمن الناس ويعملوا صالحاً.

ولعل اختصاص اسم التين الذي يشير إلى عيسى عليه السلام باسم السورة بدلاً من الزيتون أو طور سيناء أو البلد الأمين، يعود إلى أن الطور قد أقسم الله به وجعله اسماً لسورة كاملة وجعل اسمها مشيراً إلى موضع رسالة موسى عليه السلام، وكذلك البلد فقد أقسم الله به وجعله اسماً لسورة كاملة وجعل اسمها مشيراً إلى موضع رسالة محمد ﷺ، فجاءت هذه السورة ليشير اسمها إلى موضع رسالة عيسى عليه السلام. وقد ذكرت في الهامش سبب اختيار التين اسماً للسورة بدلاً من الزيتون.

واعتقد أيضاً أن اختيار اسم التين المشير إلى عيسى عليه السلام يعود إلى أنه أكثر الأنبياء الذين دارت حولهم الفريات الضالة، لا سيما فيما يتعلق بادعاء الإلهية له ولأمه

== بينما ذكر الزيتون في القرآن في أربعة مواضع أخرى بشكل صريح: الأنعام: ٩٩، ١٤١، والنحل: ١١، والنور: ٣٥، وذكر إشارة في سورة المؤمنون: ٢٠ ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصِيغَ لِلْأَكْلِينَ﴾، ولعل هذا يطلعنا على سبب تقديم ذكر التين على الزيتون في السورة التي نحن بصدها، أما القسم بطور سينين فقد جاء معنا في سورة الطور، ولم يقسم الله تعالى بالطور في موضع آخر غيرهما، وكذلك القسم بالبلد الأمين فقد جاء معنا في سورة البلد، ولم يقسم الله به في موضع آخر، ومن اللطيف أن البلد ذكر في سورة البلد مرتين: ﴿لَا أَقِيمُ هَذَا الْبَلَدِ﴾ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾: ١، ٢، وجاء القسم به في سورة التين في الآية الثالثة، وثانياً: ومنها ما يتعلق بالله تعالى، إذ لم يوصف خلق الإنسان بأنه ﴿أَحْسَنَ تَقْوِيمٍ﴾ إلا هنا: ٤، ولم يوصف جزاء المعرض عن الوحي بقوله تعالى ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ إلا هنا: ٥، بينما وُصف أجر المؤمنين بأنه ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ هنا: ٦، وفي سورة فصلت: ٨، والانشقاق: ٢٥، وفي سورة القلم: ٣ في حق النبي ﷺ، ولم يذكر الاستفهام التقريري ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ في القرآن إلا هنا: ٨، وجاء قريب منه في سورة هود على لسان نوح عليه السلام ﴿وَأَنْتَ أَكْرَمُ الْحَاكِمِينَ﴾: ٤٥. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

عليهما السلام، فالْقَسَمُ بالأرض التي نزلت عليه الرسالة فيها يدل على أنه مجرد عبدٌ لله أرسله الله وأيده بالوحي، بالإضافة إلى قول الإمام ابن كثير رحمه الله المذكور قبل قليل من أن الترتيب روعي به شرف المكانة، فقدّم الأشرَف ثم الأشرَف منه ثم الأشرَف منهما ﷺ.

ولاحظ جواب الْقَسَمِ المفيد أن الله تعالى بقدرته التامة وحكمته المطلقة خلق الإنسان في أحسن تقويم، وأكرم ما في الإنسان عقله، الذي من المفترض أن يقوده إلى الإيمان بالوحي واتباع هداياه لا الإعراض عنه، فيحقق بذلك الانسجام بين هدي الخالق وبين الفطرة القويمة، فجواب الْقَسَمِ متلائم مع الأقسام الثلاثة التي تدل على أن الله بحكمته أوحى إلى الأنبياء ليؤمن الناس ويعملوا صالحاً.

وقد بين السياق أن من كذب بالوحي وأعرض عنه فسيرد إلى أسفل سافلين في نار جهنم يوم القيامة، لأن في ذلك مخالفة للفطرة القويمة التي خلق الله الإنسان عليها، ويقابل ذلك أن من آمن وعمل صالحاً سيخلدون في النعيم غير المنقطع في الجنة، وكما افتتحت السورة بِالْقَسَمِ بأماكن الوحي للدلالة على حكمة الله تعالى، ختمت بسؤال الإنسان عن سبب تكذيبه بالدين بعدما بينت هذه السورة أن الله هو أحكم الحاكمين، إن كان في وحيه وتشريعه، أو في إحسان خلقه، أو في عدل جزائه، وهكذا التقى البدء والختام على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة التين

سورة الدعوة إلى اتباع هدى أحكم الحاكمين المنسجم
مع الفطرة القويمة التي فطر الإنسان عليها

- افتتحت السورة بالقَسَم ببلاد الشام وأهمها فلسطين، الأرض المباركة التي هي مهبط الوحي على سيدنا عيسى عليه السلام.
- ثم بالقَسَم بطور سنين مهبط الوحي على سيدنا موسى عليه السلام.
- ثم بالبلد الأمين مهبط الوحي على سيدنا محمد ﷺ.
- وجواب القَسَم أن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، فهو سبحانه أحكم الحاكمين في وحيه، كما أنه أحكم الحاكمين في خلقه.
- وبيّنت السورة أن مَنْ أعرض عن هدى أحكم الحاكمين سيُرَدُّ أسفل سافلين في نار جهنم.
- واستثنت السورة من ذلك الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فلهم أجر غير ممنون.
- وبعد أن بيّنت السورة أن الله أحكم الحاكمين إن كان في وحيه أو في خلقه، لم تبق للمكذّبين حجة: ﴿مَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ
- يَالَّذِينَ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ الْهَكِيمِينَ ﴿٨﴾﴾.

سورة العلق

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ
الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «العين واللام والقاف: أصل كبير صحيح يرجع إلى معنى واحد، وهو أن يناط الشيء بالشيء العالي»^(١)، وزاد الإمام الأصفهاني رحمه الله: «العلق: التشبث بالشيء»^(٢)، وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى الإشارة إلى أصل الإنسان في رحم أمه، إذ تعلق البويضة المخصبة في جدار رحم الأم لتأخذ منه غذاءها، وتنمو لتصبح مضغة، ثم يكون الله فيها العظام، ثم يكسوها لحماً، ثم تكون جنيناً متكاملًا. فاسم السورة يشير إلى قدرة الخالق سبحانه.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة هو بيان عظيم قدرة الله، وذلك ببيان خلق الإنسان من علق، وقدرة الله تعالى على تعليمه بعد خلقه، وبعثه بعد موته، وفي ذلك دلالة على أنه سبحانه ذو الفضل الواسع والرحمة السابغة، والإنسان لا يملك شكر هذه النعم ولو قضى عمره ساجداً، فنزلت هذه السورة لتذكّر بالله وتدعو لعبادته^(٣).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٦٩٥.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ٥٧٩.

(٣) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٤٠٧، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٤٧٨، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٩٣٦-٣٩٣٨، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٤٣٤، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ٢٢٩، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ص ٥٣٠، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ٢٢٧، ٢٢٨، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٣٤٣-٣٤٦.

التوحيد وعبادة الخالق المنعم سبحانه، من خلال بيان نعمتي الإيجاد والتعليم، والقدرة على البعث والجزاء يوم القيامة، ولما كان خلق الإنسان من العلق هو أدل ما في السورة على نعمة الإيجاد، سُميت به للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة الدعوة إلى عبادة الربّ الأكرم الذي أنعم على الإنسان بالإيجاد والتعليم.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة إلى ثلاثة أقسام: مقدّمة فيها بيان نعمتي الإيجاد والتعليم من الله على الإنسان، ثم تحذير من موقف الجاحد لنعم خالقه والمكذب بآياته، ثم الخاتمة المؤكّدة لما سبق^(١).

أولاً: جاء في مقدّمة السورة ذكر نعمتي الإيجاد والتعليم من الله تعالى على الإنسان: ﴿أَفَرَأَى بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ أَفَرَأَى الرَّبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾، ولاحظ أن السياق خصّ بالذكر أهمّ نعمتين على الإنسان، فلو أوجد الله الإنسان ولم يعلمه، لما كان الإنسان أحسن حالاً من البهائم، لكن الله منّ عليه وأكرمه بالتعليم، ولاحظ الأمر بالقراءة، لأن الدين كلّ قائم على العلم، والقراءة وسيلة التعلّم، إن افتتح السورة بذكر هاتين النعمتين فيه أبلغ دعوة إلى عبادة هذا الربّ الأكرم سبحانه وتعالى، واعتقد أن اختصاص «العلق» بالذكر مناسب؛ لأنه أول مراحل تكوّن الجنين بعد أن تلقّح «النطفة» البويضة، ولم تذكر النطفة؛ لأنها من المنيّ، وهو سائل وُصف في القرآن

(١) مقدّمة السورة شملتها الآيات: ١-٥، وعرض موقف الجاحد: ٦-١٤، والخاتمة: ١٥-١٩. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وهي أمور تدل كلها على كمال قدرته تعالى وعظيم نعمته على الإنسان: (أ) فالفعل «خلق» دون ذكر المفعول به ذكر هنا: ﴿أَفَرَأَى بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝﴾: ١، وفي الأعلى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوْفَ ۝﴾: ٢، والفلق: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝﴾: ٢، ولا يخفى أن آية العلق أدلّه على كمال قدرته تعالى على الخلق، (ب) قوله تعالى ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝﴾: ٢، لم يتكرر بالصيغة ذاتها، فلم يذكر «العلق» في مكان آخر، بل ذكرت «العلقة»، والمصدر «علق» أدل من «العلقة» على القدرة، (ج) قوله تعالى ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝﴾: ٣، لم يتكرر في القرآن، (د) وكذلك ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝﴾: ٤، ٥، لم يتكرر بالصيغة ذاتها (هـ) وكذلك قوله تعالى الدال على قدرته على البعث: ﴿إِنَّ بِكَ رَبِّكَ أَرْجَى ۝﴾: ٨. ينظر للمراجعة، عبد الباقي، المعجم المفهرس.

بالماء المهيّن، وجوّ سورة العلق جَوّ الكرم الإلهي، فلا تناسبه النطفة، بل العلق هو الأنسب.

ثانياً: وبعد ذكر هاتين النعمتين الدالّتين على كمال قدرة الله وعظيم نعمه على الإنسان، انتقل السياق إلى عرض موقف الصادّ عن سبيل الله والمكذّب بآياته، وفي ذلك مزيد تقييح لموقفه بعد بيان نعمة الله عليه: ﴿كَلاَّ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ (١) أَن رَّاهُ اسْتَفْتَىٰ (٢) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٣) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٤) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (٥) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهَدْيِ (٦) أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَىٰ (٧) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٨) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (٩)﴾، ووصف الإنسان المكذّب بآيات الله بالطغيان هو أنسب وصف، لأنه ينكر نعمة الله عليه، ولذلك تراه ينهى عن عبادة الله وحده، وينهى عن هدى الله وعن تقواه، ويصرّ على التكذيب والتولّي، وهذا أقبح موقف يكون عليه الإنسان بعد أن عرف نعمة ربه الذي خلقه من العلق، ولاحظ التهديد بقوله ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨)﴾ الدال على أن خالق الإنسان من علق، قادر على إرجاعه للحساب بعد موته، ولاحظ التهديد بقوله ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (٩)﴾ الدال على أن الخالق الذي يرى الجنين في بطن أمه قبل تكوّنه، ويرعاه حالاً بعد حال، عالم بموقف هذا المكذّب، وعالم بأحوال البشر جميعاً، وسيجازيهم عليها. فالسورة كما ترى تدعو إلى التوحيد وعبادة الخالق العظيم المُنعم على الإنسان، والإنسان يصرّ على التكذيب.

ثالثاً: جاء في الخاتمة تأكيد لما سبق، فقد أعادت التأكيد على قدرة الله على الحساب والعقاب من خلال بيان مصير ذلك المكذّب إن أصرّ على تكذيبه: ﴿كَلاَّ لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِرَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانَةَ (١٨)﴾.

وكما افتتحت السورة بأمر النبي ﷺ بالدعوة على طريق العلم والهدى تقرّباً للخالق الأكرم، ختمت بأمره ﷺ بالتقرّب إلى الخالق العظيم والسجود له، وهذا هو الموقف الذي ينبغي أن يكون عليه الإنسان المخلوق من العلق، لا أن يصرّ على التكبر والتكذيب بخالقه الأكرم: ﴿كَلاَّ لَا تُطَعَّمُهُ وَاَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۝ (١٩)﴾، وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

سورة العلق

سورة الدعوة إلى عبادة الربّ الأكرم الذي أنعم على الإنسان بالإيجاد والتعليم

الموضوع الأول: (الآيات: ٥-١)	الموضوع الثاني: (الآيات: ٦-١٤)	الموضوع الثالث: (الآيات: ١٥-١٩)
<p>المقدمة التي فيها بيان نعمتي الإيجاد والتعليم من الله تعالى على الإنسان:</p> <ul style="list-style-type: none"> ■ افتتحت السورة ببيان أن الله هو الذي أنعم على الإنسان بنعمتي الخلق والإيجاد: ﴿أَفَرَأَى بِأَيْمٍ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۖ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۚ﴾. ■ ثم ذكرت نعمة التعليم، التي لولاها لما كان حال الإنسان بأحسن من البهائم: ﴿أَفَرَأَى رَبَّكَ الْأَكْرَمَ ۚ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۚ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۚ﴾. 	<p>التحذير من موقف الإنسان الجاحد لنعم خالقه، والمكذب بآياته:</p> <ul style="list-style-type: none"> ■ بعد بيان نعمتي الإيجاد والتعليم من الله تعالى على الإنسان، حذّر السياق من موقف الإنسان الجاحد المكذب: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ﴾. ■ ويبيّن أن الله قادر على إرجاعه للحساب يوم القيامة، كما خلقه أول مرة من علق: ﴿إِنَّ إِلَهَ رَبِّكَ لَشَدِيدُ ۚ﴾. ■ وعرض السياق موقف الإنسان المكذب من هدى وحي خالقه سبحانه: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۚ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَىٰ ۚ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۚ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ۚ﴾. ■ إن عرض موقف هذا المكذب الجاحد يبيّن شناعة وقبح تصرفاته بعد أن علّم نعم خالقه الذي خلقه من علق، وفي ذلك تحذير من مثل موقفه. 	<p>الخاتمة المؤكدة لما سبق:</p> <ul style="list-style-type: none"> ■ أعادت التأكيد على قدرة الله على الحساب والعقاب، كما هو قادر على الخلق أول مرة: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْهَ لَنَنْتَفِعْ بِالْأَمِينِ ۚ نَاصِيَةً كَذِبِهِ خَاطِئَةٌ ۚ فَلْيَنْدِعْ نَادِيَهُ ۚ سَنَكُفِّرْ زَوَائِدَهُ ۚ﴾. ■ وكما افتتحت السورة بالدعوة إلى التقرب للخالق الأكرم الذي أنعم على الإنسان بالإيجاد والتعليم، ختمت بالدعوة إلى عبادة هذا الخالق الأكرم سبحانه: ﴿كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۙ﴾.

سورة القدر

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُوتُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «القاف والذال والراء: أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته، فالقَدْر: مبلغ كل شيء»^(١)، وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى وصف الليلة التي أنزل فيها القرآن، وبيان أنها بلغت الغاية في الشرف ورفعة المكانة عند الله، وكأنه ليس ليلية غيرها قَدْر.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محورها بيان عِظم ليلة القدر التي تميّزت بابتداء نزول القرآن فيها، فهي ليلة الاتصال المطلق بين الأرض والملا الأعلى، وهو الحدث العظيم الذي لم تشهد الأرض مثله في عظمته وآثاره على البشرية جميعاً، والقَدْر إما أن يكون معناه التقدير والتدبير، وإما القيمة والمقام، وكلاهما يتفق مع ذلك الحدث الكوني العظيم، فهو أعظم حدث، وأدل حدث على التقدير والتدبير في حياة العيد^(٢).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٨٧٦.

(٢) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٤٠٨، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٤٩٠، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٩٤٤، ٣٩٤٥، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٤٥٥، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ٢٦١، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٣٤٧-٣٤٨.

الإيمان بالقرآن عظيم القدر، من خلال بيان فضل الليلة التي تشرّفت بنزوله فيها حتى سُميت ليلة القدر، وجعل الله ثوابها خيراً من ألف شهر، فتسمية السورة بوصف تلك الليلة دال على عظمة قدر القرآن الذي بسببه اكتسبت هذا الوصف. وقد تميّزت هذه السورة عن السور التي تشاركها بأسمائها المشيرة إلى القرآن الكريم بأنها سورة بيان عظمة ليلة القدر التي اكتسبت القدر من نزول القرآن عظيم القدر فيها.

وبتأمل آيات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك^(١): ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝﴾، لاحظ افتتاح السورة بأسلوب التأكيد (إنا) وهو يدل على التعظيم لا سيما باستخدام ضمير الجمع، ولاحظ تكرار (ليلة القدر) ثلاث مرات، مع السؤال التجهيلي (وما أدراك)، وبيان أن فضل قيامها يزيد على ألف شهر، وهذه كلها أمور تدل على عظمة تلك الليلة.

ولكن لا بدّ من التنبيه إلى أن هذه الليلة اكتسبت القدر من نزول القرآن فيها، فبيان فضلها يدل على فضل القرآن الذي بفضلها حظيت بتلك المكانة، ولاحظ بيان تنزل الملائكة والروح، وذكر الروح - جبريل - مناسب جداً، لأنه المَلَكُ الموكل بالوحي، وهو من أعلى الملائكة قدراً، وكما افتتحت السورة ببيان فضل ليلة القدر الذي يعود إلى نزول القرآن عظيم القدر فيها، والذي نزل لتحقيق السلامة دنیا وآخرة للمؤمنين والعاملين بما جاء فيه، ختمت ببيان أن تلك الليلة يتحقق فيها السلام من الله حتى مطلع الفجر فلا ينال المؤمنون فيها مكروه، وبذلك التقى البدء والختام على محور الدعوة إلى الإيمان بالقرآن عظيم القدر والعمل بما جاء فيه، وهو المحور الذي دل عليه أبلغ دلالة اسم السورة، العائد على تلك الليلة التي اكتسبت القدر بفضل نزول القرآن فيها.

(١) من لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أ) عبارة ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ العائدة على القرآن لم تذكر في القرآن بهذه الصيغة إلا هنا: ١، وفي سورة يوسف: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾: ٢، وسورة الدخان: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَرَّكَةٍ﴾: ٣، ب) لم يذكر المصدر «القدر» مع ال التعريف إلا هنا: ١، ٢، ٣، ج) وكذلك وصف ليلة القدر بأنها ﴿خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾: ٣، د) ووصفها بأنها ﴿سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾: ٥، ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس. وسأذكر مزيداً من أوجه العلاقة بين هذه العبارات واسم السورة.

سورة القدر

سورة بيان عظمة ليلة القدر، التي اكتسبت القدر من نزول القرآن عظيم القدر فيها

- افتتحت السورة بالتوكيد ونون العظمة مع الفعل الماضي المؤكد للحدث: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١﴾.
- ثم بذكر السؤال التجهيلي المفيد للتعظيم: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢﴾.
- ثم ببيان عظم أجر تلك الليلة: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾.
- وذلك بسبب تنزل الروح - جبريل عليه السلام - وهو من أعظم الملائكة قدراً، مع الملائكة فيها من كل أمر: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾.
- وكما نزل القرآن في تلك الليلة ليكون سلاماً لمن آمن به في الدنيا والآخرة، ختمت السورة ببيان أن ليلة القدر سلام للمؤمنين لا ينالهم فيها مكروه حتى مطلع الفجر: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝٥﴾.

سورة البينة

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝^(١)
 رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝^(٢) فِيهَا كُتِبَ قِیمَةٌ ۝^(٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا
 الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ۝^(٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
 حَقًّا ۚ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ۝^(٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
 الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۝^(٦) إِنَّ الَّذِينَ
 آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝^(٧) جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۝^(٨)﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الباء والياء والنون: أصل واحد وهو بُعد الشيء وانكشافه . . . وبان الشيء وأبان: إذا اتضح وانكشف»^(١)، وزاد الإمام الأصفهاني رحمه الله: «البينة: الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة»^(٢)، فوصف النبي ﷺ وما أنزل عليه من القرآن بالبينة يدل على أن رسالته حجة واضحة وعلامة على الصدق، وأنه يبين الحق والباطل من الاعتقاد، والحلال والحرام من الأحكام.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة وردت في مورد إقامة الحجة على الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب والمشركين، بأنهم متنصلون من الحق مصرّون على الكفر عناداً، ولإثبات ذلك تضمّنت

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ١٦٤، بتصرف.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ١٥٧.

السورة حقائق تؤكد هذا، منها أن بعثة الرسول ﷺ كانت ضرورية لتحويلهم عن ضلالهم وانحرافهم إلى الهدى، وأن أهل الكتاب لم يتفرّقوا عن جهل، بل تفرّقوا بعدما جاءهم العلم، وأن أصل الأديان واحد، وقواعده بسيطة ينبغي أن تجمع الناس لا أن يتفرّقوا عنها، واسم السورة الذي يصف النبي ﷺ وما أنزل عليه من القرآن بالبينّة يدل على ذلك^(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان من خلال بيان إقامة الحجّة على البشر بإرسال الرسل بالبينات، وآخرهم سيدنا محمد ﷺ، ولما كان وصف بعثة النبي ﷺ وما أنزل عليه من القرآن بـ «البينة» معبراً عن المحور المذكور، جعل اسماً للسورة. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة إقامة الحجّة على البشر بإرسال النبي ﷺ وما أنزل عليه من البينة.

وبتأمل قسَمي السورة يبرز الترابط بينهما وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة لقسمين، الأول: إقامة الحجّة على أهل الكتاب والمشرّكين ببعثة النبي ﷺ بالبينّة، والثاني: بيان مصير كلّ من الكافرين والمشرّكين والمؤمنين يوم القيامة^(٢).

(١) ينظر: الفيروزابادي، البيان بمقاصد سور القرآن، ص ١٣٦، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٤٩٥، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٩٤٧، ٣٩٤٨، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٤٦٨-٤٧٣، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ٢٦٨، ٢٦٩. والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٥٣٣، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(٢) القسم الأول من السورة شملته الآيات: ١-٥، والقسم الثاني: ٦-٨، ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه ومن ذلك، أولاً: هي السورة الوحيدة التي وصفت إصرار الكافرين والمشرّكين على ضلالهم بأنهم لم يكونوا ﴿شَفِيقِينَ﴾: ١، ولم تذكر مشتقات المصدر «فكّ» في موضع آخر إلا في سورة البلد: ﴿فَكَرَّجَ﴾: ١٣، ثانياً: هي السورة الوحيدة التي وصفت القرآن بأنه «صحف مطهرة»: ٢، ثالثاً: لم تذكر كلمة «القيمة» بزيادة التاء - المتلازمة مع اسم السورة - في القرآن إلا هنا، مرة لوصف القرآن ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾: ٣، ومرة لوصف الدين الحق ﴿وَذَلِكَ رِبُّ الْقِيمَةِ﴾: ٥، بينما وُصف الدين بـ «القيّم» في سورة التوبة: ٣٦، ويوسف: ٤٠، والروم: ٣٠، ٤٣، وُصف القرآن بـ «القيّم» أيضاً في سورة الكهف: ٢، رابعاً: هي السورة الوحيدة التي وصفت الكافرين والمشرّكين بـ ﴿شَرُّ الْآلِيَةِ﴾: ٦، والوحيدة التي وصفت المؤمنين بـ ﴿حَيْرُ الْآلِيَةِ﴾: ٧. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

أولاً: جاء في القَسَم الأول من السورة بيان أن الله تعالى يرسل الرسل بالبينات ليقيم الحجة على البشر، فلا يكون بعد ذلك أيّ داع لهم إلى عدم الإيمان: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ﴾ ① رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۖ ② فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۖ ③ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ ④ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۖ ⑤ ، فقد أخبر العالم بما في الصدور أن الكافرين من أهل الكتاب والمشركين لم ينفكوا عما هم عليه من الضلال والانحراف إلا بعد بعثة النبي ﷺ ، فلما بعث ﷺ ، منهم من انفك عن ضلاله واتبع الهدى من الله ، ومنهم من أصرّ على ما هو عليه ، فبذلك تثبت الحجة من الله تعالى على البشر إذ بعث فيهم رسولا منهم ، وأيده بالآيات المطهرات القيمات البينات ، فلم يبق لهم داع إلى الكفر .

ولا ينبغي - فيما أعتقد - الوقوف على ظاهر النص والقول بأنه مختصّ بكفار أهل الكتاب ومشركي قريش فقط ، بل هو شمل الناس جميعاً ، إذ إن الناس قبل بعثة النبي ﷺ قسمان : قسم أرسل الله إليهم الرسل مؤيدين بالكتب التي فيها الآيات البينات ، وقسم لم يرسل إليهم رسول بعد ، فكان ﷺ هو الرسول لهم وللعالمين جميعاً ، إذ لا رسول بعده ، فكانت بعثته حجة على البشر جميعاً .

ومما يؤكّد ذلك أن النص قد بيّن أن الله تعالى أرسل إلى أهل الكتاب رسلاً وأيدهم بالكتب التي فيها الآيات البينات ، وعلى رأسهم موسى وعيسى عليهما السلام ، ولكن أهل الكتاب تفرّقوا بعد موت الرسل ، واختلفوا في كتبهم ، فحرفوا الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ، فقد أقام الله عليهم الحجة ابتداءً ببعثة الرسل بالبينات فيهم ، وها هو أخيراً ببعثة سيدنا محمد ﷺ وما في القرآن من البينة ، يقيم الحجة عليهم مرة أخرى ، وعلى من لم يُرسل إليه رسول من الناس ، ولاحظ ذكر أن أهل الكتاب أمروا بعبادة الله مخلصين له الدين ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وهي ذات التعاليم التي أرسل بها نبينا ﷺ ، وهذا يدل على أن مُرسل الرسل واحد ، والمحتوى الأساس للرسالات واحد .

فهذا القَسَم من السورة كما ترى يدعو إلى الإيمان من خلال بيان أن الله تعالى ببعثة

النبي ﷺ وما أنزل عليه من الآيات البينات، يقيم الحجة على البشر، كما أقامها على أهل الكتاب ببعثة الرسل فيهم. وعلى هذا دل وصف بعثته ﷺ وما أنزل عليه من القرآن بالبينة.

ثانياً: وبعد إقامة الحجة على البشر، ولكي يكتمل الترهيب والترغيب فيكون أدعى للإيمان، عرض القسم الثاني مصير من أصرّ على كفره وشركه بعد أن أقام الله عليه الحجة ببعثة الرسول ﷺ بالبينة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۖ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۖ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۝٨﴾، ووصف أهل النار بـ «شَرُّ البرية» ملائم جداً، لأنهم بعد أن أُقيمت عليهم الحجة بإرسال الرسل بالبينات، لم يستفيدوا من عقولهم وأفئدتهم شيئاً، فأعرضوا عن هدى الله، وما انفكوا عن ضلالهم وانحرافهم، فهم أسوء حالاً من الأنعام.

ووصف أهل الجنة بـ «خير البرية» في المقابل ملائم جداً أيضاً، لأنه يدل على أنهم استفادوا من عقولهم وأفئدتهم، فمن أهل الكتاب والمشرِكين من انفك عن ضلاله وانحرافه فأمن، ومن أمة الإسلام من لزم الهدى من الله، حتى استحقوا جميعاً هذا الثواب العظيم. وكما افتتحت السورة بإقامة الحجة على الكافرين من أهل الكتاب والمشرِكين ببعثة النبي ﷺ بالبينة، ختمت ببيان مصير من خشي الله تعالى فاتبع البينة واستحق الثواب، وبذلك يلتقي البدء والختام على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة بأبلغ الدلالة.



سورة البينة

سورة بيان إقامة الحجّة على البشر بإرسال النبي ﷺ وما أنزل عليه من البينة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٥)

إقامة الحجّة على أهل الكتاب والمشرّكين ببعثة النبي ﷺ:

■ افتتحت السورة ببيان أن الله يرسل الرسل ليقم الحجّة على البشر: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ۖ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ۖ﴾ ، فبعد بعثة النبي ﷺ بالصّحف المطهرة أقيمت الحجّة على الناس جميعاً، أهل الكتاب منهم والمشرّكين.

■ وبيّنت السورة أن الله ببعثه الأنبياء السابقين لأهل الكتاب، قد أقام الحجّة عليهم، ولكنهم اختلفوا بعد ما جاءتهم البينة على أيدي رُسُلهم.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٦-٨)

بيان مصير كلّ من الكافرين والمشرّكين والمؤمنين يوم القيامة:

■ بعد إقامة الحجّة على الناس ببعثة النبي ﷺ بالبينة، بيّنت السورة مصير الكافرين والمشرّكين الذين لم ينفكوا عن ضلالهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۖ﴾ .

■ وبيّنت مصير من انفكّ عن الضلال فأمن ببعثة النبي ﷺ بالبينة، ومصير من لزم الهدى من أمته ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۖ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ أَبَدًا ۖ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ حَسِبَ رَبَّهُ ۖ﴾ .

سورة الزلزلة

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ② وَقَالَ
الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ③ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ إِنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ⑤
يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَلُهُمْ ⑥ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ⑧﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام الأصفهاني: «الزَّلَّة في الأصل: استرسال الرجل من غير قصد، والتزلزل: الاضطراب، وتكرير حروف لفظه تنبيه على تكرير معنى الزَّلَل فيه، قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ①﴾ وقال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]»^(١)، وزاد الإمام ابن منظور: «الزلزلة والزلال: تحريك الشيء، قال أبو إسحاق في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ①﴾ المعنى إذا حُرِّكَت حركة شديدة»^(٢). وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى بيان ما يطرأ على الأرض يوم القيامة من الحركة والاضطراب، وفي ذلك دلالة على قدرة الله على البعث، وقد أفاد ذلك مجيء الاسم على صيغة المصدر، وإضافة «أل» التعريف له تدل على أنه لا زلزلة للأرض حقيقة إلا في ذلك اليوم.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن السورة إنما سُمِّيت بذلك لحديثها عن هول زلزلة الأرض يوم القيامة، والأرض هي بداية قصة استخلافتنا، والأرض هي نهاية هذه القصة، واسم السورة يشير أيضاً إلى زلزلة القلوب في ذلك اليوم، ويشير إلى انكشاف الأمور وظهور المقدور من انقسام الناس

(١) الأصفهاني، المفردات، ص ٣٨١.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، ج ٧، ص ٥٢.

في الجزاء إلى أهل سعادة وشقاء^(١).

ويمكن تلخيص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: إثبات حقيقة يوم القيامة من خلال أكثر الأحداث هولاً من الأحداث الأخروية المذكورة فيها، ألا وهو زلزلة الأرض، فاسم السورة يدل على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان أن القيامة زلزلة للأرض ولقلوب البشر.

وبتأمل آيات السورة يظهر الترابط بينها وبين دلالات اسم السورة، وإليك بيان ذلك^(٢):

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۚ وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۚ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۚ يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا ۚ﴾ (١) ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۚ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّسُرُورِ أَعْمَلِهِمْ ۚ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۚ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۚ﴾ (٢)، تجد في الآية الأولى تأكيد الفعل: زُلْزِلَتْ، بالمصدر: زلزالها، والتوكيد بالمصدر أشد صيغ التوكيد، مما يفيد تهويل ذلك الزلزال، وكأن الأرض اختصت به فهو الزلزال الوحيد، بمعنى أن الزلازل التي سمعنا عنها في حياتنا لا تذكر أمام ذلك الزلزال العظيم. ولاحظ إظهار لفظة ﴿الْأَرْضُ﴾ في الآية الثانية بدلاً من الضمير، إذ كان من الممكن أن يقال: وأخرجت أثقالها، وذلك لأن السياق يريد التركيز على ما سيقع عليه الزلزال، ألا وهي الأرض الشاهدة على أعمال البشر، ثم لاحظ أيضاً قوله تعالى: ﴿أَثْقَالَهَا﴾، بالجمع، مما يفيد بيان مدى قوة

(١) ينظر: المهايمي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٤١٠، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٥٠٤، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٩٥٤، وأ. د. مسلم وزملاؤه، التفسير الموضوعي، ج ٩، ص ٢٨٥. ود. شحاتة، أهداف كل سورة ومقاصدها، ج ٤، ص ٢٣٥. وعفيف طبارة، تفسير جزء عم، ص ١٥٦. وأحمد الوتاري، فقه السورة القرآنية، ص ٥٠ - ٦١. وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

(٢) من لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: (أ) لم تكرر مشتقات الجذر «زلزل» إلا هنا: ١ (مرتين)، وفي سورة الأحزاب: ١١ (مرتين)، (ب) وأما قوله ﴿وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾: ٢، فلم يتكرر، (ج) وكذلك قوله ﴿يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَخْبَارَهَا﴾: ٤، وأما قوله ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾: ٥، فلم ينسب الوحي من الله إلى غير البشر والملائكة، إلا إلى الأرض كما تجد هنا، وإلى النحل كما في سورة النحل: ٦٨، وإلى السماء كما في سورة فصلت: ١٢. ينظر للمراجعة، عبد الباقي، المعجم المفهرس.

ذلك الزلزال، إذ إن الأرض ستخرج تلك المليارات البشرية التي دفنت فيها خلال حياتهم عليها. وأمراً آخر: وهو نسبة الأثقال إلى الأرض وكأنها اختصت بها، مما يشير إلى كونها هي الشاهدة على تلك الأثقال، ومما يفيد التركيز على الأرض التي أضيف إليها اسم السورة: تكرار الضمير العائد إليها خمس مرات، ولاحظ قوله تعالى: ﴿أَخْبَارَهَا﴾، بالجمع لا الإفراد، فهي ستخبر عن أفعال العباد بالتفصيل الذي يفيد الفعل: ﴿تُحَدِّثُ﴾، وهذا يؤكد المحور المذكور.

وأثر تلك الزلزلة لا يقتصر فقط على الأرض، بل هو سيزلزل قلوب الناس أيضاً ويسبب لهم الهلع والجزع، فقوله تعالى: ﴿أَشْنَاءًا﴾، يدل على ذلك، وكذلك تكرار عبارة: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، وهي متلازمة مع قوله تعالى أول السورة: ﴿أَنْقَالَهَا﴾، فالذي سيأمر الأرض لتخرج كل تلك الأثقال، قادر على أن يحقق العدل بين الناس على أقلّ مثقال. وكل ذلك يفيد مدى أثر تلك الزلزلة التي ستؤدي إلى الحساب على قلوب البشر، وبذلك يلتقي البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسمها أبلغ الدلالة.



سورة الزلزلة

سورة بيان أن القيامة زلزلة للأرض وقلوب البشر

■ افتتحت السورة ببيان أن القيامة زلزلة للأرض، تُخرج فيه أثقالها، وتحدث فيه أخبارها: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۖ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۚ يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۚ إِنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۚ﴾.

■ ثم بينت السورة أنه بعد خروج الناس من الأرض، سيصدرون أشتاتاً ليحاسبوا حسب ميزان العدل الإلهي الذي لا يظلم مثقال ذرة من خير أو شر: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَلُهُمْ ۚ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۚ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۚ﴾.

سورة العاديات

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ① فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ② فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ③ فَأَثَرْنَ بِهِ ④ نَقْعًا ⑤ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمًّا ⑥ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ⑦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ⑧ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ⑨ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ⑩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ⑪ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ⑫﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

يقول الإمام ابن فارس رحمه الله: «العين والذال والحرف المعتلّ: أصل واحد صحيح يرجع إليه الفروع كلّها، وهو يدلّ على تجاوز في الشيء وتقدّم لما ينبغي أن يقتصر عليه»^(١)، فوصف الخيل بالعاديات يدل على تمكّنها من حال العَدُوِّ، أكّد هذا وصفها بصيغة اسم الفاعل، وفي القَسَم بالخيل العاديات إشارة إلى وجوب تسخير هذه النعمة في سبيل الله وليس للصدّ عنه.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم هذه السورة ومحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة تبين طبيعة الإنسان، فهو جاحد لنعم ربه، بخيل لحبه المال، مهمل للاستعداد ليوم القيامة، وقد حوت السورة علاج ذلك الذي يكون بتذكّر البعث وما فيه من الجزاء، وهذا يتلاءم مع اسم السورة، فالعاديات تكون لمن جعلها في سبيل الله أجراً، وتكون لمن جعلها للصدّ عن سبيل الله وزراً، كما أن الاسم يدل على السرعة، وينسجم مع سرعة قدوم يوم القيامة، وهو يدل على المفاجأة أيضاً، والقيامة تأتي فجأة، ثم إن وصف هذه السورة لأحداث يوم القيامة جاء بإيقاع يدل على الخشونة والدمدمة والبعثرة، ليتلاءم مع جوّ الكنود والشُّخ، فلما أريد لهذا الوصف إطاراً مناسباً، اختير من

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٧٤٦.

الجوّ المعقّر الصاحب الذي تثيره الخيل العاديات، فجاء الإطار من الصورة والصورة من الإطار، والقَسَم بالعاديات يدل على أن لها قيمة في ميزان الله تعالى^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان علم الله التّام بأعمال البشر ونواياهم، فهو سبحانه يعلم مَنْ يُسَخِّر نَعَمَ الله عليه في سبيل الله، ويعلم مَنْ يُسَخِّر نَعَمَ الله عليه للصّدّ عن سبيل الله ولما كانت الخيول العادية هي الأداة الأولى للقتال، الذي قد يكون في سبيل الله فيحز ذلك المقاتل أعظم الأجر من الله، وقد يكون في سبيل الصّدّ عن دين الله فيكون ذلك أبرز مظاهر كنود الإنسان لله، أقسم الله بها للدلالة على المحور المذكور، ليدل على وجوب تسخير هذه النعمة من أجل الله تعالى. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان وجوب تسخير نَعَمَ الله تعالى في سبيله وليست للصّدّ عنه.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة لقسمين: أولهما يحوي قَسَمًا بالخيول العاديات على أن الإنسان جاحد لنعم ربه وهو شاهد على ذلك، وثانيهما يحوي تأكيداً للأول إذ يبيّن كمال علم الله تعالى بأعمال الناس ونواياهم يوم القيامة الذي سيحاسبهم فيه^(٢).

(١) ينظر: البقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ٥٠٨، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٩٥٧، ٣٩٥٨، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٤٩٨، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ٢٩٥-٢٩٧، والندوي، دراسات قرآنية، ص ٢٥٣-٢٥٥، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٥٣٦، ود. حسن باجودة، تأملات في سورة العاديات، ص ٩-١٤. ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ٢٣٥-٢٣٧، والوناري، فقه السورة القرآنية، ص ٣٠، ٦٦، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور، ص ٣٤٩-٣٥١.

(٢) القسم الأول شملته الآيات: ١-٨، والقسم الثاني: ٩-١١، ومن لطائف هذه السورة أنها امتزجت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: منها ما يتعلق بالقَسَم، إذ لم يقسم سبحانه بالخيول العاديات ضبحاً الموريات قدحاً المغيرات صبحاً المثيرات نقعاً، إلا هنا: ١-٤، وكذلك قوله تعالى ﴿فَأَثَرُنَا بِهِ قَبْعًا ۖ وَكَأَنَّهُ جَمْعًا﴾، وهذا القَسَم مع الصورة التشبيهية يدل على أهمية الخيل للقتال، وثانياً: منها أمور متعلقة بكمال علم الله تعالى بأعمال الناس ونواياهم وأنه سيجازيهم عليها يوم القيامة، إذ لم يوصف الإنسان في القرآن بـ (الكنود) إلا هنا: ٦، ولم تذكر عبارة ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ إلا هنا: ٩، ١٠، وقريب منها في سورة الانفطار ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾: ٤، ولم تدخل لام التوكيد على =

أولاً: جاء في القَسَم الأول قَسَم من الله تعالى بالخيل العاديات على أن الإنسان جاحد لِنِعَم ربه، والإنسان شاهد على ذلك بسوء تصرفاته: ﴿وَالْعَدِيَّتِ ضَبْعًا ۝۱﴾ فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا ۝۲ فَالْغَيْرِيَّتِ ضَبْعًا ۝۳ فَأَثَرَنَ بِهِ نَقْعًا ۝۴ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝۵ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝۶ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝۷ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝۸﴾، ولاحظ التفصيل في وصف العاديات، فقد وصف صوتها، وأثر حوافرها، ووقت إغارتها، وصنيعها بالعدو حتى وصلت إلى قلب مركزه، وأعتقد أن هذا التفصيل يدل على أهمية الخيل في القتال، للدلالة على أنها نعمة عظيمة من الله تعالى ينبغي أن تُسَخَّر في سبيله.

والقَسَم - فيما أعتقد - مرتبط بجوابه من حيث إن معظم الناس يسخر هذه النعمة في الصَّد عن سبيل الله بدلاً من تسخيرها في سبيله، إنني أعتقد بما أن السورة مكية بل من أوائل المكي، أن القرآن يشيد - إشارة - بمبدأ القتال في سبيل الله تعالى من خلال اسم هذه السورة، فالقتال أعظم أساليب محاربة دين الله، كما هو أعظم أساليب نصره دين الله، ولم يصرَح النص القرآني بهوية المغار عليهم في هذه السورة مما يدل على أن القتال أمر ذو وجهين، فمن الممكن استخدام نعمة الخيل في الصَّد عن سبيل الله وهذا أكبر مظهر لكون الإنسان كنوداً لربه، وحينها يكون فعله هذا بمثابة شهادة منه على ذلك، ومن الممكن استخدام الخيل في سبيل الله تعالى وبذلك يحقق الإنسان أعظم الأجور من الله تعالى. وفي ذلك بيان لعلمه تعالى بنوايا من يستخدم الخيل للقتال.

ولا ينبغي - فيما أعتقد - الوقوف على ظاهر النص على الخيل العاديات فقط، بل إن القَسَم بها كان لأنها الوسيلة الأولى للقتال في ذلك الوقت، ومن الممكن استنباط الدلالة من اسم السورة في زماننا على كل وسيلة للقتال، ينبغي أن تسَخَّر للقتال في سبيله الله، وليس في سبيل الصَّد عنه.

ولما كان القتال محتاجاً إلى الاستعداد المادي كما هو محتاج للاستعداد النفسي، ذكر

= الاسم الجليل: (الخبير) في القرآن إلا هنا ﴿إِنَّ رَحْمَ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾: ١١، وفي سورة فاطر ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾: ٣١. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

السياق كون الإنسان شديد الحُبِّ للمال، وذلك يدعوه إلى البخل، وهذا مظهر ثانٍ من مظاهر جحوده لنعم ربه عزّ وجلّ.

ثانياً: وبعدما بيّن السياق كون الإنسان جاحداً لربه يستغلّ نعمه للصدّ عن سبيله، أعقب ذلك ببيان أن الله تعالى عالم بنوايا البشر ومحصل لأعمالهم جميعاً، وسيجازيهم عليها: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۖ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ ١١، ولاحظ وصف قيام الناس من قبورهم بالبعثرة، ليتلاءم ذلك مع بعثرة الخيول للحجارة في عدوها السريع، وكما أقسم الله تعالى بالخيول العاديات ليدل على أنه سبحانه عالم بنوايا مَنْ يعتلي تلك الخيول، فمنهم مَنْ يسخرها للقتال في سبيله، ومنهم من يسخرها لمحاربته، ختم السورة ببيان أنه خبير بما في صدور البشر يوم القيامة، وأنه سيحاسبهم بالعدل. وبذلك التقى الختام مع دلالة القَسَم أول السورة على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة العاديات

سورة بيان وجوب تسخير نِعَم الله تعالى في سبيله وليس للصّد عنه

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٨)

القسم بالخيول العاديات على أن الإنسان كنود لربه وهو شاهد على ذلك:

■ افتتحت السورة بالقسم بالخيول العادية، مع وصف صوتها: ﴿وَالْعَدِيَّتِ صَبَاً﴾ ❶، وأثر حوافرها: ﴿وَالْمُورِيَّتِ قَدَاً﴾ ❷، ووقت إغارتها: ﴿وَالْمُخَيَّرِيَّتِ صَبَاً﴾ ❸، وصنيعها بالعدو إذ وصلت إلى مركزه: ﴿فَأَنزَنَ بِهِ نَعْمًا﴾ ❹ فَوَسَطَنَ بِهِ جَمْعًا ❺.

■ إن الوصف الدقيق للخيول يدل على أنها نعمة عظيمة ينبغي أن تُسخر في سبيل الله.

■ ولم يحدّد القسم المغيرين ولا المغار عليهم، مما يؤكّد ضرورة تسخير هذه النعمة في سبيل الله.

■ وجواب القسم: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ ❶، فمن سخر نعمة الخيول للصّد عن سبيل الله، كان هذا أبرز مظهر لكونه كنوداً لربه، وفعله هذا بمثابة شهادة منه على نفسه: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ ❷.

■ ومن سخر نعمة الخيول العادية في سبيل الله كان له أعظم الأجر عند الله، وكما يحتاج القتال إلى الاستعداد النفسي، فهو يحتاج للاستعداد المادي، وقد بيّن السياق أيضاً موقف الإنسان من هذا الاستعداد أيضاً: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ ❸، ثم إن المال نعمة أخرى من الله ينبغي أن تُسخر في سبيل الله دون بخل.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٩-١١)

تأكيد الموضوع الأول ببيان كمال علم الله بأعمال الناس ونواياهم التي سيحاسبهم عليها يوم القيامة:

■ ثم بيّن السياق أن الله سيبيح الموتى من قبورهم وسيحصّل أعمالهم ونواياهم وسيحاسبهم عليها: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ ❶ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ❷.

■ وكما افتتحت السورة بالقسم بالخيول العاديات ليدل على أنه سبحانه عالم بنوايا من يعتلي تلك الخيول، فمنهم من يُسخرها للصّد عن سبيل الله فهو كنود لربه، ومنهم من يسخرها في سبيل الله فهو مؤمن تقي، ختمت ببيان أنه تعالى عالم بما في صدور خلقه جميعاً وسيحاسبهم عليه يوم القيامة: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ ❸.

سورة القارعة

﴿الْقَارِعَةُ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةُ ١٠ نَارٍ حَامِيَةٍ ١١﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس: «القاف والراء والعين، معظم الباب ضرب الشيء، يقال: قرعْتُ الشيء أقرعه: ضربته، والقارعة: الشديدة من شدائد الدهر، وسُميت بذلك؛ لأنها تقرع الناس، أي: تضربهم بشدتها، والقارعة: القيامة؛ لأنها تضرب الناس بإقراعتها»^(١)، وأكد ذلك الإمام الأصفهاني فقال: «الْقَرْعُ: ضرب شيء على شيء، ومنه: ضربته بالْمَقْرَعَةِ»^(٢). وأما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى بيان أنها شديدة التأثير على الناس وكأنها تضربهم ضرباً، ومجيء الاسم على صيغة اسم الفاعل يؤكد هذا، ويدل على تمكُّنها من القرع إلى حَدِّ يعجز عن وصفه إلا الخالق العظيم، كما وأن إضافة «أل» التعريف للاسم تدل على أنه لا قارعة سوى يوم القيامة.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن اسم السورة يدل على مقصودها وهو إيضاح يوم الدين بتصوير أحواله في مبدئه ومآله، ثم تقسيم الناس إلى ناجٍ وهالك، كما وأن اسم السورة يلقي ظلاً وجرساً تشترك فيه حروفه كلها مع آثار القارعة في الناس والجبال سواء، تمهيداً لما ينتهي إليه المشهد من

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٨٨١.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ٦٦٦.

حساب وجزاء^(١).

ويمكن تلخيص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة: تأكيد حقيقة يوم القيامة من خلال بيان آثار قرعها على الجبال والناس في ذلك اليوم، ودلالات اسم السورة تُدل على المحور، وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان أثر قرع القيامة على الناس والجبال.

من الممكن أن تقسم السورة لقسمين: أولهما مقدّمة تهوّل أمر القارعة، وثانيهما بيان أثر قرعها على الناس، وفيما يلي بيان مدى ارتباط اسم السور بهذين القسمين^(٢):

القسم الأول: تبدأ المقدّمة «بالقاء الكلمة مفردة وكأنها قذيفة: ﴿الْقَارِعَةُ﴾»، بلا خبر ولا صفة، لتلقي بظّلّها وجرسها الإيحاء المدوّي المرهوب، ثم أعقبها سؤال التهويل: ما القارعة، ثم أجاب بسؤال التجهيل: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾، فهي أكبر من أن يحيط بها الإدراك، وأن يُلمّ بها التصوّر^(٣). وأعتقد أن مخرج الهاء من الجوف عند الوقوف على «القارعة» ثلاث مرات يعطي دويّاً للقارعة وكأنها قذيفة حقاً. لكن سيّد قطب رحمه الله لم يذكر أن دويّ «الحاقة» ذات حرف القاف المفخّم المشدّد والمَدّ اللازم المثقل أعظم من دويّ «القارعة».

ثم انتقلت السورة إلى بيان مدى قرع يوم القيامة على الناس والجبال بإشارة موجزة،

(١) البقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٥١٣، قطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٩٦٠. والصابوني، صفوة التفاسير، ج ٣، ص ٥٦٨، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ٣٠٦، ود. شحاتة، أهداف كل سورة ومقاصدها، ج ٤، ص ٢٤٩. والوتاري، فقه السورة القرآنية، ص ٧٣-٨٤، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٣٥٢.

(٢) مقدّمة السورة في الآيات الخمس الأول، وبيان أثر القارعة على الناس: ٦- ١١. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أ) فمما يتعلق بالناس قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾: ٤، وهو لم يتكرر، ومما يتعلق بالجبال قوله ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾: ٥، ولم يتكرر أيضاً إلا في سورة المعارج لكن دون كلمة «المنفوش»: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾: ٩، ج) وانظر قوله تعالى عن المؤمنين الآمنين من قرع يوم القيامة ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾: ٧، ولم يذكر إلا هنا وفي سورة الحاقة فقط: ٢١، د) وانظر قوله عن مصير الكافرين ﴿فَأُتُّهُمُ كَوِيَّةً﴾: ٩، الذي لم يتكرر، وهو دال على أثر قرع القيامة عليهم بأهوالها. ينظر للمراجعة، عبد الباقي، المعجم المفهرس.

(٣) قطب، في ظلال القرآن، نفس الجزء والصفحة الآنف الذكر. بتصرف.

فشَبَّهت حال الناس في ذلك اليوم بصورة عهدوها في حياتهم، وكأن مجموعة من الفراش تجمعت في مكان واحد ثم سمعت صوتاً مدوياً فتطايرت متبعثرة بسرعة وهلع. هذه الصورة لحال الناس يوم القيامة متناسقة مع دلالة لفظ: القارعة، ولاحظ أن السياق شبه الناس بأحد أضعف وألطف المخلوقات: الفراش، في مقابل وصف يوم القيامة بأحد أكثر الألفاظ دويًا: القارعة. لتكون الصورة أبلغ في التشبيه.

وشبه السياق الجبال في ذلك اليوم بصورة معهودة أيضاً، فبعد أن قُرعت الجبال ببعضها أصبحت فتاتاً لا يكاد يكون لها وزن، كقطعة من الصوف تتطاير في الهواء. ولا يخفى التناسق بين وصف الجبال بهذه الصورة المفزعة وبين دلالات اسم السورة. لا سيما بزيادة كلمة «المنفوش» الدالة على زيادة أثر قرع القيامة على الجبال.

القسم الثاني: ثم انتقلت السورة في الختام لبيان مصير الناس بعد أن قرعتهم القارعة بأهوالها، ويلاحظ أن السورة اقتضرت على وصف الجبال بآية واحدة فقط، وفصلت في وصف حال البشر، وذلك متناسق مع الهدف العام من نزول القرآن، أعني وعظ البشر، فهم المقصودون بالمقام الأول، ولاحظ أن من ثقلت موازينه قد وصف مصيره بأنه: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾، وهو وصف ملائم لبيان الحالة الآمنة التي صار إليها بعد حالة الخوف والهلع التي وُصف بها الناس أول السورة بسبب القارعة.

وأما الصنف الثاني من الناس: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ٨ ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ ٩ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾ ١٠ ﴿نَارُ حَامِيَةٍ﴾ ١١، لاحظ فيه أسلوب السخرية البديع: في بداية السورة تبين لنا مدى الخوف والجزع الذي تلحقه «القارعة» بالناس، وهنا عند الحديث عن مصير من خفت موازينه، وصف مصيره بأنه أمٌّ، وهي في الأصل مصدر الأمان لدى الطفل، لكن السياق القرآني العجيب قلب مفهوم هذه اللفظة المشعرة بالأمان إلى مفهوم مجزع، سيما وأنه وصفها بالهاوية، فمن خفت موازينه يهوي بتلك الدار التي سيلزمها كما تلزم الأم ابنها إلى أن يقرع قعرها. فأنت ترى أن وصف يوم القيامة بـ «القارعة» ودلالاته المخيفة، قد تناسق مع موضوعات السورة أشد التناسق، وقد دلّ على المحور المذكور أبلغ الدلالة.

سورة القارعة

سورة بيان أثر قرع يوم القيامة على الناس والجبال

<p>الموضوع الثاني: (الآيات: ٦-١١)</p> <p>تأكيد الموضوع الأول ببيان مصير الإنسان في ذلك اليوم:</p> <ul style="list-style-type: none"> ■ وبعد بيان أثر قرع القيامة على الناس والجبال، بيّنت السورة المصير النهائي للإنسان في ذلك اليوم، فمصير المؤمن: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ■ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ■ ومصير الكافر: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ■ فَأُتِيَ هَاسِرَةً ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾، فكما افتتحت السورة بتهويل شأن يوم القيامة، ختمت ببيان المصير المهول للإنسان الكافر في ذلك اليوم. 	<p>الموضوع الأول: (الآيات: ١-٥)</p> <p>تهويل أمر القارعة مع بيان قرعها للناس والجبال:</p> <ul style="list-style-type: none"> ■ افتتحت السورة بسؤال تجهيلي مكرر يهول أمر القارعة: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾. ■ ثم عرضت أثر قرعها على الناس: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾. ■ وعرضت أثر قرعها على الجبال: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾.
--	---

سورة التكاثر

﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ① حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الكاف والطاء والراء: أصل صحيح يدلّ على خلاف القِلَّة»^(١)، وزاد الإمام الأصفهاني رحمه الله: «المكاثرة والتكاثر: التباري في كثرة المال والعزّ»^(٢)، وأما الدلالة السياقية فتعود إلى التحذير من التلهّي بتكثير المال ومتاع الدنيا عن الموت الذي هو أول منازل الآخرة التي فيها الحساب.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة ذمّ الاشتغال بمظاهر الحياة واللهو عن النظر في دلائل القرآن، إلى أن يصيروا إلى القبور التي لا تكاثر فيها ولا تفاخر، مع حثهم على التدبّر فيما ينجيهم، فاسم السورة يصرّح بأن سبب الهلاك يوم الجَمْع هو الجمع للمال، فالسورة تدلّ على أن النعمة مسئولية عظيمة^(٣).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان محاسبة

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٩١٨.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ص ٧٠٣.

(٣) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٤١١، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٥١٦، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٩٦٢، ٣٩٦٣، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٥١٨، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ٣١٨، ٣١٩، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٥٣٨، والوتاري، أحمد عدنان، فقه السورة القرآنية، ص ٨٥-٩٨، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٣٥٢-٣٥٥.

الإنسان يوم القيامة على ما جمعه من نعيم الدنيا، ولما كان بيان أن التكاثر في نعيم الدنيا يلهي عن الإعداد لذلك اليوم، جعل اسماً للسورة للدلالة على المحور المذكور وللتحذير منه. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة التحذير من أن يكون التكاثر في نعيم الدنيا الفاني منسياً العذابَ الأخرويَّ الباقي.

وبتأمل موضوعات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك^(١): ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ ① حَتَّىٰ ذُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧ ﴿أَلْهَنَكُمْ﴾ ⑨، وكأن التلهي بالتكاثر فطرة في البشر لا ينجو منها إلا من أقام لحساب الآخرة حساباً، وثانياً: اختصار حياة الإنسان في الآيتين الأوليين، فهو ينتقل من الدنيا وما فيها من اللهو والتكاثر، إلى حفرة من حفر المقابر، وثالثاً: التأكيد على الجزاء يوم القيامة بتكرار كلمة الردع الزجر ﴿كَلَّا﴾ و﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وبيان أن الجزاء يوم القيامة علم اليقين، وسيرونه عين اليقين، ومع ذلك يتلهى الإنسان بالتكاثر عن تلك الحقيقة، ورابعاً: تكرار الفعل ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ مع التشديد المفيد التأكيد، ولم يذكر الجنة؛ لأن السياق سياق ردع وزجر وترهيب، وهي مفهومة ضمناً من قوله ﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾، فمن تنعم في الدنيا بما أحله الله وأدى حق الله فيه، كسب معه نعيم الآخرة المقيم، ومن تنعم في الدنيا بما حرّمه الله، ولم يؤدِّ حق الله فيه، خسر نعيم الآخرة.

(١) تميّزت هذه السورة بعدد من الأمور تؤكد المحور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: (أ) قوله ﴿أَلْهَنَكُمْ﴾: ١، لم يتكرر في القرآن بهذه الصيغة، (ب) لم يذكر ﴿التَّكَاثُرُ﴾ في القرآن إلا هنا: ١، وفي سورة الحديد: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾: ٢٠، وهما تدلان على عدم التلهي بمتاع الدنيا، (ج) هي السورة الوحيدة التي تكررت فيها كلمة الردع والزجر «كلا» ثلاث مرات متتالية: ٣، ٤، ٥، وكأنها تردعهم وتزجرهم عن تلهيهم بالتكاثر، (د) هي الوحيدة التي تكررت فيها كلمة «اليقين» العائدة على الجزاء في الآخرة: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾: ٥، ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾: ٧، ومع ذلك يتلهى عنها الناس، (هـ) هي الوحيدة التي فيها قوله ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾: ٨، وانظر قريباً منه في سورة النحل: ﴿لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾: ٥٦، و﴿لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: ٩٣. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

فالسورة كما ترى تثبت حقيقة السؤال عن نعيم الدنيا في يوم القيامة، وكما افتتحت السورة ببيان تلهي الإنسان بالتكاثر في نعيم الدنيا عن الحساب في الآخرة، ختمت ببيان أنه سيُسأل يوم القيامة عن كل ذلك النعيم، وحينها سيعرف مصيره، وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة التكاثر

سورة التحذير من أن يكون التكاثر في نعيم الدنيا الفاني مُنسياً للعذاب الأخروي الباقي

■ افتتحت السورة ببيان أن التلهي بالدنيا أمر غالب على الإنسان إلا مَنْ رحم الله: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ②﴾.

■ وبيّنت أن الحساب يوم القيامة أمر حق لا مرية فيه: ﴿كَأَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑦﴾.

■ وقد ذكر السياق الجحيم لأن سياق السورة للتحذير والترهيب، والجنة مفهومة ضمناً، فمن تنعم بما أحله الله في الدنيا وأدى حق الله فيه، نال النعيم الباقي أيضاً في يوم القيامة.

■ وكما افتتحت السورة ببيان تلهي الإنسان بالتكاثر عن الآخرة، ختمت ببيانها أن كل إنسان سيُسأل عن نعيمه في الدنيا، وحينها سيعلم كل إنسان مصيره: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧﴾.

سورة العصر

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُشْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى القَسَم بالعصر، الذي هو - على أرجح الأقوال التي قيلت من وجهة نظري - الجزء المعروف من النهار، وهو «ما بين آخر وقت الظهر إلى حين اصفرار الشمس، فمبدؤه إذا صار ظِلُّ الجسم مثله، بعد القدر الذي كان عليه عند زوال الشمس، ويمتدّ إلى أن يصير ظِلُّ الجسم مثلي قدره بعد الظلّ الذي كان له عند زوال الشمس. والعصر مبدأ العَشِيِّ، ويعقبه الأصيل واحمرار الشمس عند المغيب»^(١). والقَسَم به يدلّ على قِصَر مدّة حياة الفرد من الإنسان في هذه الدنيا، وذلك من نواحٍ عدّة سيأتي بيانها إن شاء الله.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وآياتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً للربط بين اسم هذه السورة ومحورها وآياتها، فذكروا أن المقصود من هذه السورة حَثّ الإنسان على تدارك ما بقي من عمره ليؤمن ويعمل صالحاً، وإلا كان من الخاسرين، فالقَسَم بالعصر، وهو الوقت المعروف من النهار، يدلّ على قِصَر وقت حياة الإنسان في الدنيا، وذلك لأنه يؤذّن بانتهاء النهار، ففيه إيماء بمَثَل الحياة حين تدنو الآجال بعد مضيّ طور الشباب، وفي هذا الوقت يحسب التاجر غلّته بعد العمل في النهار ليرى أرباح أم خسر، وفي العصر يتحقّق الناس للإقبال على بيوتهم للمبيت والتأنيس بأهلهم وأولادهم، وكأنه يعلن عن انتهاء حياة ويؤذّن ببدء أخرى، وكأن القَسَم

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٥٢٨. بتصرف، وقد ذكر المفسّرون تفسيرات مختلفة للقَسَم بالعصر، فذكروا أنه قَسَم بعصر النبي ﷺ، أو عصر يوم الجمعة الذي خلق فيه آدم عليه السلام، أو صلاة العصر. والوجه المذكور أعلاه هو الأقرب للسياق فيما أعتقد.

بالعصر يقول: بعض النهار باقٍ، لتحت الإنسان على تدارك ما بقي والتوبة عما سبق. كما وأن السورة تمثل المنهج الكامل الذي يريده الإسلام، وهو المنهج الوحيد الناجي الرابع في جميع الأعصار، وما سواه خاسر يؤدي للهلاك^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان قصر مدة لبث الإنسان في الدنيا، فالحاسر حقاً من كذب وأعرض عن المنهج القرآني ليجازى بالخلود في الخسران يوم القيامة. والرابع حقاً من اتبع المنهج القرآني في حياته لينال أجر ربحه الخالد يوم القيامة، ولما كان القسَم بالعصر يدل على قصر حياة الإنسان في الحياة الدنيا، جعل من القسَم به اسماً للسورة ليدل على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة دعوة الإنسان إلى تدارك ما بقي من عُمره بالإيمان والعمل الصالح.

وبتأمل آيات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك^(٢): ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِرٌ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾، ولاحظ القسَم بوقت العصر للدلالة على قصر حياة الإنسان في هذه الحياة، وهو أنسب وقت يُقسَم فيه لهذا السياق، إذ لو أقسم بالفجر لدل ذلك على بدء الحياة والنشاط، ولو أقسم بالضحى لدل على الأُنس بالناس الذين يغدون إلى

(١) ينظر: الرازي، التفسير الكبير، ج ٣٢، ص ٨٤-٨٦، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٥٢١، ٥٢٢، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٩٦٤، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٥٢٨-٥٣٠، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ٣٢٥-٣٢٧، ٣٣٦، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ٥٣٩، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ٤٦٧، ٤٦٨، والوتاري، فقه السورة القرآنية، ص ٩٧-١٠٨، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور، ص ٣٥٦-٣٥٩.

(٢) من لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: لم يقسم الله تعالى بالعصر إلا في هذه السورة، بل لم يُذكر هذا الوقت من النهار إلا هنا، بينما جاءت مشتقات الجذر (عصر) في القرآن لدلالات أخرى: ﴿فَأَمَّا بَنُو إِسْمَاعِيلَ إِذْ قَالُوا اقْبَلْ بِهَذَا الْغَنَاءِ الَّذِي كَفَّرْنَا بِهِ عَنْ آلِهَتِنَا يَا إِسْمَاعِيلُ﴾ البقرة: ٢٦٦، و﴿قَالَ أَتَدْعُونِي أَنْ أَدْبُرَ عَنْكَ وَفِي الدُّنْيَا كُنْتُ خَاسِرًا﴾ يوسف: ٣٦، و﴿عَامٌ فِيهِ يَغَاتُ الْإِنْسَانُ﴾ يوسف: ٤٩، و﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ النبا: ١٤، ثانياً: لم يذكر المصدر (خسر) بدون ألف ونون إلا هنا: ٢، وفي سورة الطلاق ﴿وَكَانَ عَقِبَهُ اثْنَانِ خَيْرًا﴾: ٩، والآيتان تتحدثان عن عرض عن هدى الله تعالى، ثالثاً: لم تُذكر هذه العبارة ﴿وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ﴾ إلا هنا: ٣، وكذلك عبارة ﴿وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ لم تذكر إلا هنا، وفي سورة البلد: ١٧، وهما عبارتان توصيان بالتزام المنهج الرباني. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

أعمالهم، ولو أقسم بالظهر لدل ذلك على انشغال الناس بأعمالهم أيضاً، بينما القَسَم بالعصر الذي هو الوقت الفاصل بين آخر النهار وأول الليل، يدل على أن الدنيا في إدبار والآخرة في إقبال، بالإضافة إلى ما ذكره الأفاضل قبل قليل، ولو أقسم بالمغرب أو الليل، لدل ذلك على الحياة الآخرة ولفاتت الدلالة على قصر الحياة والدنيا، ولفاتت أيضاً الدعوة إلى تدارك ما تبقى من الوقت للتوبة.

وليس القَسَم - فيما أعتقد - للدلالة على صلاة العصر، إذ لو كانت الصلاة هي المقصودة لقال: (وصلاة العصر)، يؤيد ذلك أن القرآن قد ذكر في سورة النور صلاة الفجر وصلاة العشاء بلفظ صريح: ﴿يَتَأْتِيهَا اللَّيْلُ ءَامِنُونَ لِيَسْتَنِدَكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ (النور: بعض الآية ٥٨)، فلو كانت الصلاة في سورة العصر هي المقصودة لذكرها صراحة.

ولاحظ أسلوب الحصر والقصر مع التوكيد، للدلالة على أن الخسر يحيق بكل من أعرض عن المنهج الرباني، والخسر يتحقق يوم القيامة، فإذا فات عمر الإنسان - وهو قصير - في الدنيا ولم يتبع هذا المنهج، فسيخلد في النار ويكون من الأخسرين، ومن تدارك عمره القصير في الدنيا واتبع المنهج الرباني القائم على الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فسيخلد في الجنة ويتحقق له الريح الأكبر.

وكما ابتدأت السورة بالقَسَم بالعصر للدلالة على قصر حياة الإنسان في هذه الدنيا، بيّنت خاتمتها أن من قواعد المنهج الرباني لتحقيق الريح التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وكأن أحدهم لا يدري متى ينتقل من هذه الحياة القصيرة، فيوصي إخوانه بالتمسك بالحق والصبر عليه ليتحقق لهم الريح جميعاً يوم القيامة. وهكذا التقى البدء والختام على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة العصر

سورة دعوة الإنسان إلى تدارك ما بقي من عمره بالإيمان والعمل الصالح

■ افتتحت السورة بالقَسَم بالعصر:
﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ ، وهو الوقت الفاصل
بين النهار والليل، الدال على إدبار
الدنيا وإقبال الآخرة، وكأن القَسَم
يقول: «بعض النهار باقٍ»، ليدرك
الإنسان ما بقي من عمره فيؤمن ويعمل
صالحاً.

■ وجواب القَسَم دال على أن الجنس
البشري في خسر، إن لم يدركوا ما
بقي من عمرهم القصير في الدنيا
ليؤمنوا ويعملوا صالحاً، وإلا
سيُعَذَّبون بالعذاب الخالد يوم القيامة:
﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ۝٢﴾.

■ واستثنى من جواب القَسَم مَنْ أدرك
عمره القصير في هذه الدنيا فآمن
وعمل صالحاً وتواصى بالحق
وتواصى بالصبر، وهؤلاء الذين
سينعمون بالنعيم الخالد يوم القيامة:
﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾.

سورة الهمة

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝۱ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝۲ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝۳ كَلَّا لَيُبَدِّلَنَ فِي الْخُطْمَةِ ۝۴ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ ۝۵ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ۝۶ أَلَّى تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْقَدَةِ ۝۷ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ۝۸ فِي عَمَرٍ مُّمدَّدَةٍ ۝۹﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن منظور رحمه الله: «الهُمَّازُ وَالْهُمَزَةُ: الذي يَخْلُفُ النَّاسَ من ورائهم ويأكل لحومهم . . . وَالْهُمَزَةُ الذي يهزم أخاه في قفاه من خلفه - أي: بغيبته - واللمز في الاستقبال، . . . فالهُمَّازُ الْعِيَابُ فِي الْغَيْبِ، وَاللِّمَازُ الْعِيَابُ بِالْحَضَرَةِ»^(١)، وذكر الإمام العسكري قولاً يؤكد أن الهمز أشد من اللمز فقال: «المشهور عند الناس أن اللمز: العيب سراً، والهمز: العيب، . . . وَالْهُمَزَةُ: الذي يعكس بظهر الغيب، واللمزة: الذي يعكس في وجهك»^(٢)، وعليه يكون الهمز أشمل وأكثر تنوعاً في الأساليب من اللمز، أما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى وصف الشخص الذي دفعه حُبُّ المال وجمعه إلى التكبر على الناس لدرجة أنه يغتابهم بما يؤذيهم، وقد بلغ به حبه للمال إلى درجة الظن أن ماله سيخلده في الدنيا، وأنه لن يحاسب عليه.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة تعرض صورة اللثيم الصغير النفس، الذي يؤتى المال فتسيطر به نفسه، ويشعر أن المال هو القيمة العليا في الحياة، التي تهون أمامها جميع القيم والأقدار،

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج ١٥، ص ٩٠، ٩١ بتصرف، وقد أكد كلامه حينما عرف «اللمزة»: ج ١٣، ص ٢٣١.

(٢) الحسن بن عبد الله العسكري، الفروق اللغوية، ص: ٦٥. بتصرف، وذكر عن غيره وجوهاً أخرى.

أقدار الناس والمعاني والحقائق، وأنه قد ملك كرامات الناس وأقدارهم بلا حساب، فالسورة تحلل الدافع إلى هذا السلوك وتظهر خطورته وتبين جزاءه، إذ سيُحطَّم في الحطمة نتيجة تكبره^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان مصير مَنْ دفعهم حُب المال وجمعه إلى التكذيب بيوم القيامة، ولما كان همزهم الناس سلوكاً دالاً على ما في قلوبهم من التكبر وعدم الإيمان بالحساب، اختير هذا الوصف ليكون اسماً للسورة للدلالة على المحور المذكور، وللتحذير من هؤلاء. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان مصير مَنْ دفعهم حُب المال وجمعه إلى التكبر على الناس والتكذيب بالآخرة.

وبتأمل قسمي السورة يبرز الترابط بينهما وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك:

من الممكن أن تقسم السورة لقسمين: أولهما: بيان صفة الهمة واللمزة والداعي الذي دعاهم للهمز واللمز، وثانيهما: بيان مصيرهم يوم القيامة^(٢).

أولاً: جاء في القسم الأول من السورة تعريف بالهمة اللمزة، وبيان السبب الذي

(١) ينظر: المهايمي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٤١٢، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٥٢٥، ٥٢٦، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٩٧٢، ٣٩٧٣، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٥٣٥، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ٣٤١، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ٥٤٠، والوتاري، فقه السورة القرآنية، ص ١٠٩ - ١٢٢، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٣٦٠ - ٣٦٢.

(٢) القسم الأول شملته الآيات: ١ - ٣، والثاني: ٤ - ٩. ومن لطائف هذه السورة أنها تميّزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه ومن ذلك، أولاً: منها أمور متعلقة ببيان صفة الهمة، (أ) فهي وسورة المطففين الوحيدتان اللتان افتحتا بذكر «الويل» وهما مشتركتان في الحديث عن دفعهم حُب المال إلى الظلم، (ب) قوله تعالى ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾: ٢، ذكر هنا فقط، وانظر قريباً منه في سورة المعارج ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ (١٧) ﴿وَجَعَلَ قُلُوبَهُمْ غَافِلِينَ﴾: ١٧، ١٨، ثانياً: ومنها أمور متعلقة ببيان مصيره، (أ) فقوله تعالى عن الهمة ﴿يُكْبِدَنَّ﴾: ذكر هنا فقط: ٤، (ب) ووصف جهنم بـ ﴿الْخَطَّةِ﴾ هنا فقط: ٤، ٥، وكذلك وصفها بـ ﴿الْمُوقَدَّةِ﴾: ٦، وبأنها ﴿تَطْلُعُ عَلَى الْأَقْيَدَةِ﴾: ٧، وبأنه فيها ﴿عَمْرٌ مُدَدِّمٌ﴾: ٩، بينما وصفها بـ ﴿نُؤْمِنَةٌ﴾ ذكر هنا: ٨، وفي سورة البلد: ٢٠، وهما مشتركتان في بيان مصير من جمع المال ولم يؤدِّ حقَّ الله فيه. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس. وسأبين مناسبة هذه الألفاظ بالتفصيل مع اسم السورة.

دعاهم لذلك: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۚ﴾ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾، فلاحظ توعدهم بالويل، وليس ذلك لمجرد أنهم يهمزون الناس ويلمزونهم، بل بسبب تكبرهم الذي دعاهم إليه جمع المال، حتى حسبوا أنهم سيتمتعون به خالدين وبلا حساب، فانشغالهم بجمع المال وحساباته أنساهم الآخرة وحسابها.

ولاحظ تقديم الهمزة على اللزمة، وذلك لأن الهمزة الذي يغتاب الناس في غيبتهم أذاه أشد وأبلغ من اللزمة الذي يهزأ بالناس بحضرتهم، يؤكد هذا قوله تعالى عن الهمزة في موضع آخر: ﴿هَمَزَ مَسَاءً يَنِيمُ ۚ﴾ (القلم: ١١)، وقوله تعالى عن اللزمة: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ﴾ (التوبة: ٧٩)، فالهمزة يسترسل في غيبة الناس وتعيبهم فيكون أذاه أكبر، ولذلك اختير «الهمزة» ليكون اسماً للسورة بدلاً من «اللزمة». وقد اختير اسم السورة من الفعل الظاهر على سلوك من دفعه جمع المال إلى التكذيب بالحساب، فجمع المال إلى درجة التكذيب أمر خفي، ولكنه يبرز للناس من سلوك الهمز واللمز الدال على التكبر، وفي ذلك تحذير للمؤمنين منهم.

ثانياً: ثم بينت السورة مصير هؤلاء الذين يحسبون أنهم لا يحاسبون: ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۚ﴾ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفَاقَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَسَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾، ولاحظ كلمة الردع والزجر ﴿كَلَّا﴾، أي: ليس الأمر كما يحسبون، بل سيحاسبون وسيعذبون، ولاحظ قوله ﴿لَيُنْبَذَنَّ﴾، وهو متلائم مع نبذهم الفقراء في الحياة الدنيا، فجوزوا بالنبذ في الحطمة، ووصف النار بـ ﴿الْحُطَمَةِ﴾ ملائم لتحطيمها كبرياءهم، ووصفها بـ ﴿الْمَوْقُودَةِ﴾ ملائم لإصرارهم على جمع المال وتعديده حتى قادهم إلى الإصرار على التكبر، ووصفها بأنها ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الْآفَاقَةِ﴾ ملائم لما في قلوبهم من التكبر البالغ درجة التكذيب بالحساب، وهما أمران خفيان محلها الفؤاد.

وكما افتتحت السورة ببيان صفة الذين يهمزون الناس ويلمزونهم بسبب جمع المال الذي قادهم إلى التكبر وإنكار الحساب، ختمت ببيان أنهم سيُعذبون بنار مؤصدة عليهم كما

كانوا يوصدون «الخزانات» على المال ويحرمون الفقراء من حقّ الله فيه، وبأن فيها عمداً ممّدة يوثقون بها؛ جزاء حرمانهم الفقراء حقّهم، أو أن النار موصدة أبوابها عليهم بعمد ممّدة فلا تُفتح؛ لزيادة تبتليسهم من الخروج منها، وهكذا التقى البدء والختام في هذه السورة على المحور المذكور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الهمة

سورة بيان مصير مَنْ دفعهم حُبُّ المال وجمعه إلى التكبر على الناس والتكذيب بالآخرة

الموضوع الأول: (الآيات: ١-٣)

بيان صفة الهمة والداعي الذي دعاهم إلى
الهمز واللمز:

- افتتحت السورة بالتوعد لكل همزة يغتاب الناس بغيبتهم، ولكل لمزة يغتاب الناس بحضرتهم: ﴿وَبَلَّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ ۖ﴾.
- ثم بيّنت صفتهم: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾.
- وبيّنت الداعي الذي دعاهم إلى التكبر وهمز الناس ولمزهم: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾.
- فهم انشغلوا بجمع المال وعده حتى أنساهم حساب الآخرة.

الموضوع الثاني: (الآيات: ٤-٩)

بيان مصير الهمة واللمزة يوم القيامة:

- ثم بيّنت السورة مصير الذين يحسبون أنهم لا يحاسبون: ﴿كَلَّا لَيُبَدِّلَنَّ فِي السَّعَةِ ۖ﴾.
- جزاء نبذهم الفقراء في الدنيا.
- ﴿وَمَا أَزِيدُكَ مَا الْخَطْمَةُ ۖ تَارَ اللَّهُ الْمُؤَقَّدَةُ ۖ﴾.
- سُمِّيت بالخطمة؛ لأنها تحطم كبرياءهم، وبالموقدة لإصرارهم على التكبر والاستهزاء بالفقراء.
- ﴿الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْقَةِ ۖ﴾ جعلها الله تطلع على أفئدتهم لما علم ما فيها من الكبر وازدراء الناس حتى وصلوا إلى إنكار الآخرة وحسابها.
- ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ۖ﴾ كما كانوا يوصدون "خزائنهم" على الأموال ويحرمون الفقراء من حق الله فيها.
- ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ۖ﴾ يؤثقون بها في النار ويُخَرِّمُونَ الحرية كما كانوا يخرمون الفقراء حقهم، أو أن أبواب النار موصدة عليهم بعمد ممددة فلا تفتح؛ جزاء حرمانهم الفقراء حقهم.

سورة الفيل

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى حديثها عن حادثة إهلاك الله لأصحاب الفيل حينما أرادوا هدم بيت الله الحرام، وهي حادثة مشهورة يعرفها العرب تماماً لمعاينتهم إياها، فاسم السورة يؤكد قدرة الله على إهلاك الطغاة، ومن ناحية ثانية يدعو المشركين إلى الإيمان بالله الذي أنعم عليهم بحفظ بلدهم.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة تدل على رعاية الله لبيته الحرام، وهو المكان الذي اختاره ليكون محضن العقيدة الجديدة، وليكون النقطة التي يبدأ منها زحف المؤمنين بهذه العقيدة لمطاردة الجاهلية في أرجاء الأرض، فهي تدل على من الله على قريش بهذه النعمة ليدعوهم إلى الإيمان بالرسول ﷺ الذي بعثه بهذه العقيدة، فاسم السورة يشير إلى عظم كيد أصحاب الفيل، وعظم العقوبة التي نزلت بهم، وفي ذلك تهديد لقريش ببيان أنه مهما عظم كيد الكافرين، فإن كيد الله أكبر وأعظم^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان بالله العظيم مُرسل النبي محمد ﷺ، من خلال بيان قدرة الله على إهلاك الكافرين، ولما كانت حادثة إهلاك أصحاب الفيل دالة على قدرة الله على الإهلاك التي شاهدها

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٤١٣، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٥٢٨، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٩٧٤-٣٩٨١، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٥٤٣، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ٣٤٩، ٣٥٠، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ٢٧٩-٢٨٢، والوتاري، فقه السورة القرآنية، ص ١٢٣، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٣٦٣-٣٦٥.

الكافرون عياناً، سُميت السورة به للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة الدعوة إلى الإيمان ببيان قدرة الله على إهلاك الكافرين.

وبتأمل آيات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك^(١): ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدُهُمْ فِي تَضَلِيلٍ ۚ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ مَّا كُؤِلِمَ ﴿٥﴾ ۚ﴾ لاحظ قوله ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ مع أن النبي ﷺ وُلِدَ في ذلك العام، وذلك يدل على أن إخبار الله عن أمرٍ يعدُّ بمشابهة المعاينة، ثم إن في ذلك لفتَ نظر لقريش الذين رأوا هذه الحادثة بأعينهم، ولاحظ قوله ﴿رَبُّكَ﴾، الدال على أن الذي أهلك أصحاب الفيل هو مَنْ بعث محمداً ﷺ في قريش، فينبغي أن يكونوا أول من يؤمن به اعترافاً منهم بذلك الفضل لله، وبيان أن كيد أصحاب الفيل قد جُعِلَ ﴿فِي تَضَلِيلٍ﴾، يلفت نظر قريش كذلك إلى أنهم ينبغي أن يجتمعوا على الإيمان بالرسول ﷺ لا أن يضلّوا بالتفرّق عنه.

وأعتقد أن بيان إرسال جماعات الطير بالحجارة من سجيل على أصحاب الفيل، متلائم مع ما بيّنته آيات أخرى من أن الآلهة التي يعبدوها المشركون ستكون حصباً في جهنم كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ۝﴾ (الأنبياء: ٩٨)، فكما أن إرسال الحجارة من سجيل دال على قدرة الله، فلا يبعد أن يجمع المشركين وآلهتهم ليكونوا حصباً لجهنم، وبيان أنه جعلهم كعصف مأكول يؤكّد معاينة قريش لتلك الحادثة برويتهم جثث أصحاب الفيل، وفي ذلك مزيد تهديد لهم ببيان قدرة الله على إهلاك الكافرين، وبذلك يلتقي البدء والختام على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة، كون حادثة الفيل أبرز مظاهر قدرته تعالى على إهلاك الكافرين لرؤيتهم إياها بأعينهم.

(١) تميّزت هذه السورة بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أ) فقوله ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يَجْعَلْ كَيْدُهُمْ فِي تَضَلِيلٍ﴾ ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، وقريب منه في سورة غافر ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾: ٢٥، ب) لم تذكر «الطير الأبابيل» إلا هنا، ج) قوله ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِيلٍ﴾ ذكر هنا فقط بهذه الصيغة، وقريب منه: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارًا مِّن سِجِيلٍ مَّنْشُورٍ﴾: هود ٨٢، و﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارًا مِّن سِجِيلٍ﴾: الحجر: ٧٤، وهما يختصّان بقوم لوط عليه السلام. ينظر للمراجعة، عبد الباقي، المعجم المفهرس.

سورة الفيل

سورة الدعوة إلى الإيمان ببيان قدرة الله على إهلاك الكافرين

- افتتحت السورة ببيان أن الذي أهلك أصحاب الفيل هو رَبِّ محمد ﷺ الذي بعثه في قريش: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ﴾.
- ثم بيّنت قدرة الله على إهلاك أعدائه الكافرين، فقد جعل كيد أصحاب الفيل في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل.
- وختمت السورة ببيان معاينة قريش لجثث أصحاب الفيل، فهم أيقنوا أن الله هو الذي أهلكهم، فينبغي أن يكون أهل قريش أول مَنْ يؤمن بالرسول الذي بعثه الله إليهم، فكما أن الله أرى قريشاً قدرته على إهلاك أصحاب الفيل، فلا يبعد أن يهلك المكذّبين من قريش وغيرهم إن أصرّوا على التكذيب.

سورة قريش

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ۚ إِلَٰهٌ لَّهُمْ رَحْمَةُ الشَّاءِ وَالصَّيْفِ ۚ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۚ﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى قبيلة قريش، الذين أنعم الله عليهم بنعم جليلة، إذ هيأ الله لهم رحلتَي الشتاء والصيف بأمان، وذلك لأنهم سُكَّان البيت الحرام الذي حفظه الله من كيد أعدائه، وجعل أهله آمنين من الجوع والخوف، فينبغي لقريش أن تخصَّ الله وحده بالعبادة؛ لأنه وحده الذي أنعم عليهم بهذه النعم.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن هذه السورة تذكير لقريش بمنن الله عليهم، فقد مكَّن الله لهم السير في الأرض للتجارة صيفاً وشتاءً لا يخشون عادياً يعدو عليهم، وذكرهم بمَنَّة الرزق الذي أفاضه عليهم بهاتين الرحلتين، ومَنَّة تأمينهم في الحرم من الخوف، وذلك ليستحيوا مما هم فيه من عبادة غير الله، وهو رَبَّ هذا البيت الذي يعيشون بجواره آمنين طاعمين، ويسIRON مرعيين ويعودون سالمين^(١).

ومن الممكن أن تلخَّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: دعوة قريش للإيمان والتوحيد، من خلال بيان بعض نِعَم الله عليهم، وفي تسمية السورة بهم رفعة لشأنهم

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٤١٤، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٥٣٣، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٩٨٢، ٣٩٨٣، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٥٥٤، ٥٥٩، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ٣٦٥، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٥٤٢، والوتاري، فقه السورة القرآنية، ص ١٣٣-١٤٠، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٢٦٦-٢٦٩.

وتحفيز لهم على الإيمان والتوحيد. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان بعض نعم الله على قريش التي تدعوهم إلى الإيمان بالمنعم سبحانه.

وبتأمل آيات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك^(١): ﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ ۚ إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۚ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۚ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۚ﴾، فلاحظ افتتاح السورة بذكر ما ألفته قريش من رحلتَي التجارة صيفاً وشتاءً، التي كانت أهم سبب لكسب أقواتهم ورزقهم، وقد آمن الله هاتين الرحلتين لهم بسبب أنهم عمّار المسجد الحرام، فلا يتعرّض لهم أحد بسوء، بينما يتخطف الناس من حولهم.

وفي توجيه حرف اللام الداخل على الإيلاف أقوال ثلاثة كلّها تدل على أن هذا الإيلاف نعمة عظيمة من الله، فاللام إما أن تكون لام تعليل مرتبطة بسورة الفيل قبلها، فيكون المعنى قد أهلكنا أصحاب الفيل ليكون إيلاف قريش في رحلتَيْهم آمناً، أو أن تكون مرتبطة بقوله (فليعبدوا)، فيكون نظم الكلام: لتعبد قريش ربّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف بسبب رحلتَي الشتاء والصيف، وإما أن تكون متعلقة بفعل محذوف مقدر (اعجبوا)، أي: اعجبوا من ترك قريش عبادة ربّ هذا البيت، وهو الذي هيأ لهم الرحلتين^(٢).

وبعد أن بيّن السياق هذه النعمة الجليلة التي كانت أهم سبب لكسب القوت في قريش، انتقل السياق إلى الدعوة إلى التوحيد بذكر النعمة الكبرى عليهم، إذ جعلهم آمنين من خوف

(١) من لطائف هذه السورة أنها امتازت بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: هي الوحيدة التي ذكرت إيلاف قريش المتمثّل في رحلتَي الشتاء والصيف، والوحيدة التي جاء فيها عبارة ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ لبيان اختصاص الله بإنعام هذه النعمة عليهم، والوحيدة التي فيها عبارة ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾، وانظر قريباً منها في سورة الأنعام: ﴿وَمَا يُلْمُوكَ وَلَا يَطْعُمُونَ﴾: ١٤، وهي الوحيدة التي فيها عبارة ﴿وَمَا آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ وانظر قريباً منها في سورة القصص: ﴿أَوَلَمْ تُكُنْ لَهُمْ حَرَمًا مَبِينًا يَنْبَغِي إِلَيْهِ تَمَرُّتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾: ٥٧، وفي سورة العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَبِينًا وَيَخْطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾: ٦٧. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

(٢) ينظر: الطبري، جامع البيان، ج ١٠، ص ٨٧٧٩، والزمخشري، الكشاف، ج ٤، ص ٧٩٥، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٥٥٤.

الاعتداء عليهم بسبب جوارهم لهذا البيت الحرام، فالله وحده هو الذي آمن لهم الرحلتين، وهو وحده الذي أطعمهم من الجوع بالرغم من صعوبة ظروف معيشتهم، وهو وحده الذي آمنهم من أعدائهم، فلا تجوز العبادة بعد ذلك إلا لله وحده.

ففي تسمية السورة باسمهم دعوة وتحفيز لهم لعبادة الله وحده والإيمان برسوله ﷺ، وهذا هو المحور الذي دلت عليه آيات السورة، وكان اسمها دالاً عليه أبلغ الدلالة.



سورة قريش

سورة بيان بعض نعم الله على قريش التي تدعوهم إلى الإيمان بالمنعم سبحانه

- افتتحت السورة بذكر نعمة إيلاف رحلتي الشتاء والصيف، اللتين هياهما الله لقريش ليكسبوا بهما رزقهم وقوتهم.
- ثم أمرت السورة قريشاً بعبادة الله المنعم عليهم، وهو رب البيت الحرام الذي يعيشون بجواره آمنين.
- وختمت السورة بذكر أكبر نعمة من الله عليهم، إذ هيا لهم الرحلتين فضمنوا رزقهم وقوتهم، وقد جعلهم الله آمنين من اعتداء المعتدين لمجاورتهم بيت الله، فضمنوا حفظ أنفسهم، فالواجب عليهم التوجه بالعبادة لله وحده الذي أنعم عليهم بهذه النعم الجليلة.

سورة الماعون

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ أَلِيَّتَهُ
﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ
صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الميم والعين والنون: أصلٌ يدلّ على سهولة في جريانٍ أو غير ذلك، ومعن الماء: جرى»^(١)، وزاد الإمام ابن منظور رحمه الله: «المعن والماعون: المعروف كلّهُ، لتيسُّره وسهولته لديننا، بافتراض الله إياه علينا . . . والماعون: هو اسم جامع لمنافع البيت كالقِدر والفأس وغيرها مما جرت العادة بعاريته»^(٢)، وأما الدلالة السياقية فتعود إلى بيان أن المكذّبين بالدين بلغ بهم السوء إلى درجة أن يمنعوا الناس من الماعون مهما كان بسيطاً ومتيسراً، وذلك يدل على عدم إيمانهم بالجزاء يوم القيامة على الإحسان.

أقوال بعض المفسّرين والكاتّبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتّبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة هو بيان أن التكذيب بالبعث لأجل الجزاء يجرّئ على مساوئ الأخلاق، فمَنع الماعون إما أن يكون بداية التكذيب إذ تصل بهم الدناءة إلى حبس المعروف، أو أن يكون نهايةً أو نتيجةً للتكذيب بالدين، فلا يدفعهم إيمانٌ بالأجر الأخروي إلى فعل أقلّ المعروف، كما وأن السورة تبين أن الدين ليس مظاهر وطقوس تعبدية، فهي لا تغني ما لم تكن صادرة عن إخلاص لله وتجرّد، يدفع

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٩٨٩.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج ١٤، ص ١٠١. بتصرف.

القلب إلى العمل الصالح يرقى به الناس في الأرض^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان والعمل الصالح من خلال بيان مصير المتكبرين الذين يظلمون اليتيم والمساكين والضعفاء، لدرجة أوصلتهم إلى التكذيب بالدين وحرمان الماعون لعدم إيمانهم بما بينه الدين من الجزاء يوم القيامة، ولما كان حرمانهم الماعون وهو أقل المعروف دالاً على المحور المذكور، سُميت السورة به للدلالة على المحور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان الانحراف السلوكي الاجتماعي والانحراف التعبدية لمن يكذب بالدين.

وبتأمل آيات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك^(٢): ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْذِّبِ ۚ﴾ ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۚ﴾ ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۚ﴾ ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۚ﴾ ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ﴾ ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۚ﴾ ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۚ﴾، فقد ابتدأت السورة ببيان الإثم الأكبر لهم، فهم يكذبون بالدين وما جاء به من الجزاء على العمل يوم القيامة، ثم عرض السياق من أعمالهم ما يدل على ذلك، فهم يدعون اليتيم ولا يشفقون عليه، ولا يحث بعضهم بعضاً على إطعام المساكين، ولو أنهم آمنوا بما في الآخرة من الجزاء على العمل لكانت صفاتهم عكس هذه

(١) ينظر: المهاييمي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٤١٤، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٥٤١، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٩٨٤-٣٩٨٦، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٥٦٤، وأ. د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ٣٧٧، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٥٤٣، والوتاري، فقه السورة القرآنية، ص ١٤١، ووادي، ومنها، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٣٧٠-٣٧٢. ود. أحمد نوفل، النسق القرآني وأثره في الترجيح، سورة الماعون أنموذجاً، بحث محكم في مجلة الدراسات الإسلامية، ص ١٩٣-٢٠٠.

(٢) تميّزت هذه السورة بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: (أ) فعبرة ﴿يُكَذِّبُ بِالْذِّبِ﴾ لم تذكر إلا هنا: ١، وفي سورة الانفطار: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾: ١٨، (ب) وعبرة ﴿يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾: ٢، لم تذكر إلا هنا، (ج) وعبرة ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾، لم تذكر إلا هنا: ٣، وفي سورة الحاقة: ٣٤، (ج) وعبرة ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾: ٤، للمصلين المرائين لم تذكر إلا هنا، وكذلك عبارة ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾: ٥، وكذلك ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾: ٦، وقريب منها ﴿رَاءُونَ النَّاسَ﴾ النساء: ١٤٢، وأما عبارة ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾: ٧، فلم تذكر إلا هنا. وكلها عبارات تدل على مدى سوء الذي يبلغه المكذب بالدين وجزاء الآخرة. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

الصفات الشنيعة تماماً، هذا في الجانب السلوكي الاجتماعي. فيُفهم ضمناً أن السورة تحت على إكرام اليتيم، وإطعام المسكين، بشرط الإيمان والنية الصادقة، لينال المؤمن الأجر من الله يوم القيامة.

أما في الجانب التعبدي فقد كانت الأعمال التعبدية للمكذّبين دالة على تكذيبهم بيوم الدين أيضاً، فهم ساهون عن الصلاة الحقيقية التي أمرهم الله بها في وحيه إلى نبيه ﷺ، وهم يصلّون كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (الأنفال: ٣٥)، فصلاتهم تصفير وتصفيق وصياح، ونيّتهم في صلاتهم هذه أن يراهم الناس فيصفونهم بالتدين، والحقيقة أن صلاتهم هذه لا تمت للدين بصلة، فضلاً عن نيّتهم الباطلة، ولذلك استحقوا الويل من الله، فلا هم مؤمنون بالجزاء يوم القيامة في الجانب الاجتماعي السلوكي، ولا في الجانب التعبدي أيضاً. ولو آمنوا بجزاء الآخرة لأقاموا الصلاة كما أرادها الله تعالى وبنية خالصة له، وهذا حثّ للمؤمنين على أداء الصلاة على حقيقتها يفهم ضمناً ليقينهم بالأجر يوم القيامة.

وكما افتتحت السورة ببيان الإثم الأكبر وهو التكذيب بالدين وجزاء الآخرة، ختمت ببيان ما نتج عن ذلك من منعهم الماعون وهو أقلّ المعروف، للدلالة على أن تكذيبهم بالدين أثر سلباً حتى في أقلّ الأعمال الصالحة شأناً، فحرموا أنفسهم من أجرها، وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور، والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



سورة الماعون

سورة بيان الانحراف السلوكي الاجتماعي والانحراف التعبدي لمن يكذب بالدين

- افتتحت السورة بالتعجب من حال المكذب بيوم الدين ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ .
- ثم بينت انحرافات السلوكية الاجتماعية، فهو يدعُ اليتيم ولا يحضُّ على طعام المسكين .
- ثم بينت انحرافاتهم التعبدية، فهم لا يصلُّون كما أمرهم الله، وساهون عن الصلاة الحقيقية التي أمرهم الله بها، وهم يراءون في صلاتهم ليصفهم الناس بالتدُّين ويحفظوا مكانتهم .
- وكما افتتحت السورة ببيان الإثم الأكبر لهم إذ هم يُكذِّبون بيوم الدين، ختمت ببيان حرمانهم أقلَّ المعروف شأنًا فهم يمنعون حتى الماعون، وما ذلك إلا لأنهم لا يقيمون للجزاء يوم الدين اعتباراً .

سورة الكوثر

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الكاف والشاء والراء: أصل صحيح يدلّ على خلاف القِلّة . . . ثم يزداد فيه للزيادة في النعت، فيقال الكوثر: الرجل المعطاء»^(١)، وزاد الإمام ابن منظور رحمه الله: «الكوثر: الكثير من كل شيء، وقيل: الكوثر نهر في الجنة وهو للنبيّ ﷺ»^(٢)، وأما الدلالة السياقية فتعود إلى بيان ما منح الله نبيه ﷺ من الخير الكثير، لعلّ منزلته وفضله ﷺ، وفي ذلك ترغيب بالإيمان به حتى يحظى المؤمن بشيء من هذا الكوثر.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة بيان المنحة الإلهية لسيدنا محمد ﷺ بكل خير يمكن أن يكون، ودعوته إلى الاستجابة لله والتجرّد له في كل الأمور، وبيان أن اتباعه ﷺ فيه الخير الكثير والخلود الحقيقي، فالسورة تمثّل حقيقة الهدى والخير والإيمان، والضلال والشّرّ والكفران، الأولى كثرة وفيض وامتداد، والثانية قلة وانحسار وانبتار^(٣).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان بدعوة النبيّ ﷺ وعبادة الله وحده، من خلال بيان الجزاء الذي أعطاه الله لنبيّه ﷺ

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٩١٨، بتصرف.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج ١٣، ص ٢٧، بتصرف. وقال: «وجميع ما جاء في تفسير الكوثر قد أعطيه النبيّ ﷺ: أعطى النبوة وإظهار الدين الذي بُعث به على كل دين، والنصر على أعدائه، والشفاعة لأمته، وما لا يحصى من الخير، وقد أعطى من الجنة على قدر فضله على أهل الجنة ﷺ». ص ٢٨.

(٣) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٤١٥، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٥٤٧، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٩٨٧-٣٩٨٩، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٥٧٢، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ص ٥٤٤، والوتاري، فقه السورة القرآنية، ص ١٥٣-١٦٦، ووادي، ومهند، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٣٧٣-٣٧٥.

ولمن آمن معه في الدنيا والآخرة، وبيان جزاء من كفر به ﷺ، فاسم السورة «الكوثر» دال على الجزاء الخير الذي أعطيه ﷺ ومن آمن به، ففيه ترغيب بالإيمان به، ولذلك جعل اسماً للسورة. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان فضل نبي هذا الدين ﷺ، وحرمان من أعرض عنه.

وبتأمل آيات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك^(١): ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ۝ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝﴾، لاحظ حرف التوكيد مع ضمير العظمة، والفعل الماضي ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾، وكأنه وعد قد تحقق من الله، مع أنه وعد يشمل الخير في الدنيا والآخرة، وفي بيان الخير الذي مُنحه ﷺ دعوة للإيمان به، لأن هذا الفضل سينال كل من آمن به واتبع هداياه، وبعد بيان هذا الفضل، انتقل السياق إلى الدعوة إلى الالتزام بأحكام الدين، فيجب التوجه بالصلاة والنحر إلى الله وحده، لأنه وحده القادر منح هذا الخير، واختصاص الصلاة والنحر بالذكر؛ لأنهما من أبرز الأعمال التعبدية التي كان يعرفها العرب، لكنهم كانوا يقومون بها بانحراف في التطبيق كما كانت صلاتهم تصفياً وتصغيراً، أو بانحراف في التوجه كما كانوا ينحرون لألهتهم، وكما افتتحت السورة ببيان الفضل الذي أعطيه ﷺ، ختمت ببيان مصير المكذّبين، فكما أعطي ﷺ من وجوه الخير كلّها في الدنيا والآخرة، قُطع المكذّبون من نيل شيء من هذه الوجوه في الدنيا والآخرة، وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور الذي دلّ عليه اسم السورة أكرم دلالة^(٢).

(١) تميّزت هذه السورة بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: (أ) هي إحدى السور الأربع المفتتحة بحرف التوكيد مع ضمير العظمة «إِنَّا»، وهنّ: سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، ونوح: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾، والقدر: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، والكوثر: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، فمنهنّ اثنتان تبينان الفضل الذي أعطيه ﷺ، وسورة القدر تبين فضل رسالته ﷺ، ب) عبارة ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾ لم تتكرر في القرآن، وقريب منها ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَىٰ﴾ في سورة الضحى: ٥، ج) قوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ ذكر هنا فقط، د) وصف عدوه ﷺ بقوله تعالى ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ذكر هنا فقط. ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

(٢) يقول سيّد قطب رحمه الله: «إذا أراد أحد أن يتتبع هذا الكوثر الذي أعطاه الله لنبيه ﷺ فهو واجده حينما نظر أو تصوّر، فهو واجده في النبوة... وفي الملاء الأعلى الذي يصلي عليه... وفي سنته الممتدة على مدار القرون... وفي الخير الذي فاض على البشرية بسببه... وأين الذين كانوا يقولون عن محمد ﷺ قولتهم اللثيمة، أين هم؟ أين ذكراهم؟ وأين آثارهم؟ إلى جوار الكوثر من كل شيء، ذلك الذي أوتيّه مَنْ كانوا يقولون عنه: الأبتَر»، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٩٨٨، ٣٩٨٩. بتصرف شديد.

سورة الكوثر

سورة بيان فضل نبي هذا الدين ﷺ، وحرمان مَنْ أَعْرَضَ عنه

- افتتحت السورة بالتأكيد على أن الله تعالى قد أعطى نبيه ﷺ الخير من كل شيء في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝﴾ .
ويفهم ضمناً أن هذا الخير سيعطى أيضاً لمن آمن به ﷺ .
- فيجب إذاً عليه ﷺ وعلى مَنْ آمن به أن يتوجهوا بعباداتهم لخالقهم الذي أعطاهم هذا الخير: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ۝﴾ .
- وختمت السورة ببيان حرمان المُبْغِضِ للنبي ﷺ المُعْرِض عنه من أي خير: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝﴾ .

سورة الكافرون

﴿قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم هذه السورة إلى النداء الموجه في مفتحتها للكافرين، وهو يتضمن التبرؤ منهم ومما هم عليه من الشرك، وقد جاء النداء بصيغة اسم الفاعل وعلى جمع المذكر السالم، للدلالة على مدى عراقتهم في الكفر، التي أوجبت هذا التبرؤ منهم، لأن دين الإيمان والتوحيد ودين الكفر والشرك لا يلتقيان أبداً.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة إعلام الكافرين بالبراءة منهم من كل وجه، فلا مطمع للوفاق بين أهل الإيمان وأهل الكفر في أن يقاربهم النبي ﷺ في أن يعدل بربه أحداً في زمن من الأزمان، وذلك بسبب الاختلاف في جوهر الاعتقاد وأصل التصور وحقيقة المنهج وطبيعة الطريق بين الفريقين، فالسبيل الوحيد للالتقاء بينهما هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإيمان بجملته، فالسورة تدعو إلى التوحيد العملي^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان والتوحيد من خلال التأكيد على أن العبادة الحقّة لله تعالى وحده لا تتغير في أيّ زمن

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ٤١٦، والباقعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٥٥٥، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٩٩٠-٣٩٩٣، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٥٨٠، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ٤٠٥، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ص ٥٤٥، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ٣٦٥-٣٦٧، والوتاري، فقه السورة القرآنية، ص ١٦٧-١٧٦، وهي من السور التي لم يتناولها الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا بالدراسة.

من الأزمان، فطالما أصرّ الكافرون على الكفر والشرك فهم منفصلون عن دين التوحيد. وقد سُمّيت السورة باسمهم؛ لأنه يدل على المحور المذكور، وفي ذلك تحذير منهم ومن شركهم. وقد تميزت هذه السورة بأنها سورة المفاصلة المُطلقة بين أهل الإيمان والتوحيد، وبين أهل الكفر والشرك.

وبتأمل آيات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك^(١): ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ ۖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۖ وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۖ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۖ وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۖ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۖ﴾، لاحظ افتتاح السورة وختمها بجملتين مثبتتين، وبينهما أربع جمل منفية، وافتتاح السورة بهذا النداء يدل على العموم، فيشمل كل كافر أو مشرك إلى يوم الدين، ولاحظ أن النبي ﷺ نفى عن نفسه عبادة غير الله تعالى بصيغتين، فعلية: ﴿لَا أَعْبُدُ﴾، واسمية: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ﴾، والفعلية تدل على الزمن الذي نزلت فيه السورة، وكأنه قال: لا أعبد الآن ما تعبدون، والاسمية تدل على المستقبل، وكأنه قال: ولا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم، كما وأن الفعلية تدل على نفي العبادة مهما قصر الزمن، أي: لا أعبد ما تعبدون ولو للحظة، والاسمية تدل على الدوام، أي: ولا يكون من شأني أن أكون عابداً لما عبدتم. فقد قطع منهم الرجاء في أن يعبد شيئاً من دون الله في جميع الأزمنة ومهما قصُرت مدة العبادة.

ثم انظر كيف أنه لما خاطبهم بالصورة الاسمية فقال: ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ﴾، نفى

(١) من لطائف هذه السورة أنها تميزت بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه ومن ذلك، أولاً: هي السورة الوحيدة التي ذكر فيها النداء الموجه للكافرين: ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ﴾: ١، ثانياً: وهي الوحيدة التي جاءت فيها عبارة ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾: ٢، بهذه الصيغة، وانظر قريباً منها: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: الأنعام: ٥٦، وغافر: ٦٦، ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: يونس: ١٠٤، ثالثاً: والوحيدة التي جاءت فيها عبارة ﴿وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾: ٣، ٥، رابعاً: وكذلك عبارة ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾: ٤، خامساً: وكذلك عبارة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾: ٦، وانظر قريباً منها في سورة الزمر: ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي ۖ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِي﴾: ١٤، ينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس. وقد جاء فيها كل ضمير يعود على النبي ﷺ بصيغة المفرد، ليناسب دين التوحيد، وكل ضمير يعود على الكافرين بصيغة الجمع ليناسب الشرك الذي هم عليه.

عنهم العبادة الحقّة بالصورة الاسمية أيضاً فقال: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، فإنهم لما اتصفوا بكفرهم على وجه الثبات، نفى عنهم عبادة الله على وجه الثبات أيضاً، وهو تناظر جميل . . . فإصراره هو ﷻ على طريقه أقوى من إصرارهم، وحاله أكمل من حالهم، والنفي عنه أدام وأبقى من النفي عنهم^(١).

وأعتقد أنه من الممكن أن تجعل كل جملة منهما متعلقة بالجملة التي سبقتها، فتكون: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ الأولى متعلقة بجملة: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ فيكون المعنى: أي: ليس من شأنكم أن تكونوا عابدين لما أعبد ولو للحظة، وتكون ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ الثانية متعلقة بجملة ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾، فيكون المعنى: وليس من شأنكم أن تكونوا عابدين لما أعبد في المستقبل، ووجه نفي العبادة عنهم في هذا السياق متعلق بالإصرار على الشرك، فإذا عبدوا الله مع عبادتهم لغيره لا تعتبر تلك عبادة حقّة، وإذا تخلّصوا من شركهم وعبدوا الله وحده خرجوا من دائرة النفي.

وكما افتتحت السورة بجملة مثبتة فيها نداء للكافرين، ختمت بجملة مثبتة أيضاً فيها النتيجة النهائية لما ترتّب على الجمل الأربع المنفيات بين هاتين الجملتين، وهي المفاصلة المطلقة بين أهل الإيمان والتوحيد، وبين أهل الكفر والشرك إذا ما أصرّوا على ما هم عليه، وبذلك التقى البدء والختام على المحور الذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.



(١) أ. د. فاضل صالح السامرائي، التعبير القرآني، ص ٢٩ بتصرف.

سورة الكافرون

سورة المفاصلة المطلقة بين أهل الإيمان والتوحيد، وبين أهل الكفر والشرك

■ افتتحت السورة بنداء كل كافر أو مشرك إلى يوم الدين: ﴿قُلْ يَكْفُرُونَ ۝١﴾ .

■ وأعلنت على لسان النبي ﷺ براءته من عبادة غير الله بالصيغة الفعلية: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ ، الدالة على الزمن الذي نزلت فيه السورة، أي: لا أعبد الآن ولو للحظة ما تعبدون.

■ ونفت عن الكافرين المشركين عبادة الله بالجملة الاسمية: ﴿وَلَا أَنُتَّعِ عِبَادُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣﴾ ، الدالة على تحجر موقفهم وثباتهم عليه، فطالما يشركون مع الله أحداً بالعبادة فهم لا يعبدون الله عبادة حقة.

■ وأعلنت على لسان النبي ﷺ براءته من عبادة الله بالجملة الاسمية: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۝٤﴾ ، الدالة على ثبات موقفه المستمر، فهو ﷺ لن يعبد مع الله أحداً لا في زمن نزول السورة، ولا حتى بعده إلى حين وفاته ﷺ.

■ وأعادت ذكر موقفهم بذات العبارة الدالة على تحجر عقولهم: ﴿وَلَا أَنُتَّعِ عِبَادُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥﴾ .

■ ثم ختمت بالمفاصلة المطلقة بين دين الإيمان والتوحيد، ودين الكفر والشرك: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ .

سورة النصر

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ
اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «النون والصاد والراء: أصل صحيح يدل على إتيان خير وإيتائه، ونصر الله المسلمين: آتاهم الظفر على عدوهم»^(١)، وأما الدلالة السياقية فتعود إلى بيان أن الله تعالى سينصر رسوله ﷺ على أعدائه ويظهر دينه، وسيكون النصر شأن أمته طالما التزمت بدين ربها، أثبت ذلك إضافة النصر إلى الله تعالى، وكأنه لا نصر لغير هذه الأمة.

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور السورة هو الوعد من الله بالنصر الكامل للمؤمنين، وهو الذي سيُغلب فيه الطغاة، وتزول به عوائق انتشار الدين بين الناس، فالسورة تكشف عن طبيعة هذه العقيدة وهذا المنهج الرباني، ومدى ما يريد أن يبلغ من البشر من الرفعة والكرامة والتجرد والخلوص، الذي لم تبلغه البشرية قط إلا في ظل الإسلام^(٢).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى الإيمان من خلال بيان مستقبل هذا الدين، إذ سيكون النصر حليفه، طالما التزم المسلمون

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ١٠٣٠.

(٢) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٤١٦، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٥٥٩، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٩٩٤-٣٩٩٨، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٥٨٩، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ص ٥٤٦، ود. الجابري، أسماء السور القرآنية، ص ٤٢٥-٤٢٧، والوتاري، فقه السورة القرآنية، ص ١٧٧-١٨٨، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٣٧٣-٣٧٥.

بأحكامه . ولا تخفى العلاقة بين هذا المحور واسم السورة المضاف إلى الله تعالى . وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان أن النصر الإلهي هو لهذا الدين فقط .

وبتأمل آيات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه ، وفيما يلي بيان ذلك^(١) : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّكُمْ كَانَتْ تَوَّابًا ۝ ﴾ ، لاحظ إضافة النصر إلى الله تعالى ، وكأنه لا نصر إلا لهذه الأمة المحمدية ، ولاحظ وصف دخول الناس في دين الله «بالفتح» الدال على انتشار هذا الدين في أرجاء الأرض ، فالنصر هو الخطوة الأولى للفتح ، ولذلك اختصّ النصر باسم السورة دون الفتح ، بالإضافة إلى أن النصر يبرز فيه جهد المقاتلين المجاهدين المؤيدين بنصر ربّهم ، وليس الفتح كذلك بل هو ناتج عن النصر ، ولاحظ إضافة الدين إلى الله ، فليس في الوجود دين ينسب إلى الله غير الإسلام ، ودخول الناس أفواجاً في هذا الدين دالٌّ على مدى قوّة النصر الذي سيمنحه الله لهذه الأمة ، ودالٌّ على عدل المسلمين رغم ما أوتوه من النصر ، إذ سيرغب الناس في دخول الدين أفواجاً طوعاً ، ولا يعني منح النصر للأمة الإسلامية أن تتخلى عن ربّها بعد النصر ويصير حالها حال البطر والأشر والبطش ، ولذلك أمرت السورة بتسبيح الرّبّ المانح للنصر واستغفاره بشكل دائم ، للدلالة على التزام المؤمنين واعترافهم بفضل ربّهم سبحانه ، وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ دلالة وأكثرها بشارة .

(١) تميّزت هذه السورة بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه ، ومن ذلك : أ) عبارة ﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾ ذكرت هنا ، وفي سورة البقرة : ٢١٤ (مرتين) ، والروم : ٥ ، فقط ، ب) عبارة ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ لم تتكرر في القرآن ، وهي دالة على نصر الأمة بلا شك ، ج) عبارة ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ لم تتكرر في القرآن مع ذكر الاستغفار ، وهي دالة على إخلاص التوجّه لله المانح للنصر ، د) عبارة ﴿إِنَّكُمْ كَانَتْ تَوَّابًا﴾ لم تتكرر في القرآن بذات الصيغة دون ذكر «الرحيم» أو «الحكيم» ، وهي دالة على فضل الله المانح للنصر سبحانه وتعالى . ينظر للمراجعة : عبد الباقي ، المعجم المفهرس .

سورة النصر

سورة بيان أن النصر الإلهي لهذا الدين فقط

- افتتحت السورة ببيان أن نصر الله وفتحه سيأتي لهذا الدين: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝﴾ .
- ثم بينت أن الناس سيرغبون فيه طوعاً؛ لما علموا أن النصر والفتح الإلهي حليفه: ﴿وَرَأَيْتَ الْنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝﴾ .
- وختمت السورة ببيان أن النصر والفتح أمران داعيان إلى تسبيح الله واستغفاره والتوبة إليه، لا أن يكونا داعيان إلى الطغيان: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۝ إِنَّكَ كَانَ نَوَّابًا ۝﴾ .

سورة المسد

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا
ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الميم والسين والذال أصل صحيح يدل على جذل شيء وطيه، فالمسد: ليف من جريد النخل، والمسد: حبل يتخذ من أوبار الإبل . . والمسد: الليف لأن من شأنه أن يُفْتَل للحبل»^(١)، أما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى وصف حالة امرأة أبي لهب في النار يوم القيامة، إذ سيُجعل في عنقها حبل مفتول ليدل على ذلها وإحكام السيطرة عليها بخشونة، جزاء ما كانت تقوم به في الدنيا من وضع الشوك في طريق النبي ﷺ على المعنى الحسي، أو جزاء ما كانت تسعى به من إيقاع الفتنة وصد الناس عن النبي ﷺ على المعنى المجازي. وإنما اختص ذكر حالة أبي لهب؛ لأنه قال للنبي ﷺ - حينما صعد على الصفا ودعا بطون قريش للإيمان في أوائل البعثة - : تَبَّا لك ألهذا جمعتنا؟^(٢).

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً من الربط بين دلالة اسم هذه السورة ومحورها، فذكروا أن تسميتها بالمسد يدل على الخسران الكلي المفضي إلى الهلاك لمنكري هذا الدين الحق، فالسورة ترد على الحرب المعلنة من أبي لهب وامرأته، مع كونه أشد الناس قرابة إلى النبي ﷺ، وقد تولى الله سبحانه عن رسوله ﷺ أمر المعركة، فسجلت في صفحات هذا الكتاب الخالد صفحة تنطق بغضب الله وحربه على أبي لهب وامرأته والكائدين لدعوة الله في الدنيا. واسم السورة «المسد» بما يدل عليه من الذل والخشونة

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٩٨٥.

(٢) حادثة أبي لهب مع النبي ﷺ أخرجه الإمام البخاري رحمه الله في الصحيح، كتاب التفسير، برقم: ٤٩٧٣، والإمام مسلم رحمه الله في الصحيح، كتاب الإيمان، برقم: ٣٥٥.

والإحكام أدل ما فيها على المحور المذكور^(١).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان مصير الهلاك المذل لمن حارب دعوة الله تعالى، وأنه لن يغني عنه شيء من ذلك المصير، وإنما اشتق من حالة امرأة أبي لهب في النار اسم السورة ليكون ذلك أكثر دلالة على الإذلال والتحقير لمن حارب دعوة الله. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة بيان المصير المذل لمن حارب دعوة الله تعالى.

وبتأمل السورة يبرز الترابط بين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه وبين آياتها، وفيما يلي بيان ذلك^(٢): ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝﴾، لاحظ أن السياق لم يكتفِ ببيان هلاك يَدَي أَبِي لَهَبٍ، بل أكّد ذلك بهلاكه كلّ، فقد هلك

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٤١٧، والباقعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٥٦٧، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٩٩٩-٤٠٠١، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٦٠٠، وأ.د. مسلم، وزملؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ٤٣٥، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسورة القرآن، ٥٤٧، والوتاري، فقه السورة القرآنية، ص ١٨٩-٢٠٢، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور، ص ٣٧٩-٣٨١.

(٢) من لطائف هذه السورة: أنها امتازت بالفاظ ذكرت فيها على نحو لم يذكر في سورة أخرى في القرآن، وهي تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وبيان ذلك: أولاً: لم تتكرر مشتقات الجذر «تب» مرتين إلا هنا، وقد ذكرت مرة في سورة غافر: ﴿وَمَا كَانُوا يَفْقَهُوا ۖ فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ ۖ وَاسْتَغَاثُوا بِالْحَبْلِ ۖ وَاسْتَفْزَعُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: ١٠١، وإنك لتعجب أن وصف كيد فرعون بالتباب متلائم مع وصف كيد أبي لهب، أضف إلى ذلك وجهاً آخر من التناسق لاختصاص فرعون بهذا الوصف، وذلك أن الله تعالى مدح موقف امرأة فرعون المؤمنة في سورة التحريم، وهذا يقابل ذم موقف امرأة أبي لهب الكافرة، أما آية سورة هود فهي تتحدث عن مصير من اتخذ الأصنام آلهة، وهو مصير مشابه لموقف أبي لهب وامرأته، وبإمكانك أن تضيف لطيفة أخرى وهي أن رقم هذه الآية: ١٠١، ورقم سورة هود: ١١، ورقم سورة المسد: ١١١، ثانياً: لم تتكرر لفظة «لَهَبٍ» إلا في هذه السورة، وقد ذكرت مرة واحدة فقط في سورة المرسلات: ﴿لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾: ٣١، ثالثاً: لم يذكر الجيد إلا هنا، ومعلوم أنه في سياق الذم، رابعاً: لم تذكر لفظة «حبل» بصيغة المفرد وكان يراد بها الدلالة الحقيقية إلا هنا، بينما ذكرت في مواضع أربعة أخرى في القرآن بدلالة المعنى المجازي الكفائي: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾، و﴿صُرِّبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ ۖ إِنَّ مَا تُفْعَلُونَ إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ الْإِنسَانِ﴾، آل عمران: ١٠٣، و ١١٢، و﴿حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾: ق: ١٦. وقد أشار للنقطة الأخيرة مؤلفاً كتاب من دلالات أسماء السور: ٣٨١. وينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

بسبب الأعمال التي كان يقترفها بيديه، وسيتحقق له الهلاك الكامل المذل في النار ذات اللهب، ولاحظ بيان أن ماله وكسبه لم يغنيا عنه شيئاً، ليكون ذلك أبلغ في الإذلال، هذا إذا اعتبرت الواو عاطفة، أما إذا اعتبرتها استئنافية فذلك يدل على أنه لم يكسب كسباً خيراً ينجيه من عذاب النار، ولاحظ وصف النار بذات اللهب، ليتناسق ذلك مع كنيته، فيتحقق له السخرية مع الإذلال.

ولما كانت امرأته تساعده في إيذاء النبي ﷺ فقد نالها نصيبها من العذاب المذل أيضاً، فوصفها بحمالة الحطب في الدنيا يعطي دلالتين: أحدهما على المعنى الحقيقي الحسني، بمعنى أنها كانت تحتطب الشوك وتضعه في طريق النبي ﷺ إيذاءً له، وقد كانت تبتغي بذلك محاولة إذلاله ﷺ، والدلالة الثانية معنوية مجازية، بمعنى أنها لما كانت تسعى في إشعال نار الفتنة بين النبي ﷺ ومن آمن معه والصد عنه، فشبه سعيها هذا بحمالة الحطب التي تستخدم لإيقاد النار، ولذلك جاء وصف عذابها يعطي دلالتين أيضاً: أحدهما معنوي مجازي بمعنى أن لها حبلاً تُشد به من رقبتها في النار بشكل مذل، وهذا يكافئ سعيها لإيقاع الأذى والفتنة والصد عن النبي ﷺ، والثانية حسية بمعنى أن الحبل الذي كانت تستخدمه لجمع الشوك وإلقائه في طريق النبي ﷺ، سيصبح يوم القيامة في عنقها تشد به في النار بشكل مذل يكافئ محاولتها إذلال النبي ﷺ.

بقي عدد من الأسئلة قد تدور في ذهن حول تسمية السورة بالمسد، وليس بغيره مثل سورة (أبي لهب) أو (اللهب) ولماذا جعل المسد في جند امرأته وليس في جنده، أما السؤال الأخير فقد حاول الباحثان عيسى وادي ومحمود مهنا الإجابة عنه فقالا: «يبدو أن الدور المركزي والنصيب الأكبر في إحكام الكيد للرسول ﷺ كان لزوجة أبي لهب، والأصل في الجند أنه المكان الذي تضع فيه المرأة زينتها، . . . ولعل في ذلك إشارة إلى تابعة أبي لهب لزوجته بسبب جمالها وذهاب شخصيته أمام جمالها»^(١).

أقول: أعتقد أن الأمر أعمق من ذلك، فأرى أنه لما كان المقصود بيان المصير المهلك

(١) من دلالات أسماء السور، ص ٣٨١. بتصرف.

المذل لمن يعادي دعوة النبي ﷺ، كان بيان مصير امرأة أبي لهب التي اشتركت معه في هذه الجريمة، واشتقاق اسم السورة من عذابها أبلغ في الإذلال، فمن المعروف أن العربي تأخذه الحمية والغيرة إذا بلغه أن أحداً مدح جانباً جمالياً في امرأته، فما بالك وقد ذمّت هذه السورة امرأة أبي لهب وهو سيّد قومه، وبيّنت مصيرها المذل. إن بيان مصيرها المذل يحقق بطبيعة الحال الإذلال لزوجها. أضف إلى ذلك أن أخذ الموقف المعادي مع اتخاذ موقف عملي يدل على هذه المعادة - كما كانت امرأة أبي لهب تصنع - أمر مستبعد من طبيعة جنس النساء، ولذلك كان بيان مصيرها أذمّ لها؛ لأنها أخذت موقفاً مستبعداً من جنسها.

ولو سُمّيت السورة بسورة (أبي لهب) مثلاً، لفات جانب التعمّق في الإذلال من خلال اشتقاق اسم السورة من صورة عذاب امرأته، ولربما كان في تسميتها سورة (أبي لهب) شيء من التكريم له، ولو سُمّيت بسورة (اللهب) مثلاً لفات جانب التعمّق في الإذلال أيضاً. والله أعلم.

فأنت ترى إذاً أن هذه السورة بسياقها تبين المصير المذل لمن يعادي الدعوة إلى الله، وقد اشتقّ من صورة عذاب امرأة أبي لهب في النار اسم للسورة ليكون أدلّ على هذا الإذلال.



سورة المسد

سورة بيان المصير المذل لمن حارب دعوة الله تعالى

- افتتحت السورة ببيان هلاك أبي لهب بسبب ما اقترفته يداه في الصدّ عن سبيل الله: ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ ۝﴾.
- وبيّنت أن جاهه وماله لن يغنيا عنه شيئاً من عذاب الله: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝﴾.
- وبيّنت مصيره النهائي المذل: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝﴾.
- وعابت على زوجته التي كانت تعمل عملاً مستقبحاً من بني جنسها، إذ كانت تضع الحطب في طريق النبي ﷺ، أو كانت تُشعل نار الفتنة بينه وبين أصحابه ﷺ: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝﴾.
- وختمت السورة ببيان المصير المذل لها، واشتقّ منه اسم السورة ليكون ذلك أبلغ في الإذلال لمن حارب دعوة الله: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسْلَمٍ ۝﴾.

سورة الإخلاص

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾

الدلالة اللفظية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الخاء واللام والصاد: أصل واحد مطرد وهو تنقية الشيء وتهذيبه»^(١)، وزاد الإمام الأصفهاني رحمه الله: «إخلاص المسلمين: أنهم قد تبرؤوا مما يدعيه اليهود من التشبيه، والنصارى من التثليث... فحقيقة الإخلاص: التبري عن كل ما دون الله»^(٢)، ولم يذكر اسم السورة داخلها، لكنه متعلق بما فيها من توحيد الربوبية والإلهية والتوجه إلى الله تعالى، من حيث إنها أمور مبنية على الإخلاص، فليس لها اعتبار عند الله إلا بالإخلاص، وكأن الدين كله ضُغَط في هذه الكلمة.

أقوال بعض المفسرين والكاتين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن مقصود هذه السورة بيان حقيقة الذات الأقدس ببيان اختصاصه بالانصاف بأقصى الكمال، للدلالة على صحيح الاعتقاد للإخلاص في التوحيد بإثبات الكمال، ونفي النقص عنه والاعتماد عليه في جميع الأحوال، وهذه هي الخطوط الرئيسة في حقيقة الإسلام الكبيرة، فالسورة تدعو إلى التوحيد العملي^(٣).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٣٢٧.

(٢) الأصفهاني، المفردات، ٢٩٢. بتصرف.

(٣) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٤١٧، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٥٧٥، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٤٠٠٢-٤٠٠٥، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٦١٢، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ٤٤٩، والغزالي، نحو تفسير موضوعي، ٥٤٩، ٥٥٠، والوتاري، فقه السورة القرآنية، ص ٢٠٣-٢١٤، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ٣٨٢-٣٨٤.

التوحيد من خلال نفي الشريك والمثيل عن الله تعالى، بإثبات أحديته في الربوبية والإلهية، ولما كان التوحيد قائماً على الإخلاص لله تعالى بالعبودية والتوجه، جعل اسماً للسورة للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة دعوة المؤمن إلى الإخلاص في توحيد إلهية الله وربوبيته.

وبتأمل آيات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك^(١): ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾، لاحظ ضمير الشأن «هو» الدال على مزيد التأكيد والتعظيم، وبيان أنه تعالى ﴿أَحَدٌ﴾ دال على صفة الوجدانية، وقوله ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ دال على توحيد الربوبية، فهو وحده الربّ المتوجّه إليه لقضاء الحوائج، وقد تقدّم بيان أنه تعالى ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ على بيان أنه ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾؛ لزيادة النفي عما كان يعتقد العرب وغيرهم من وجود أبناء وبنات لله تعالى، ثم نفى عن ذاته الوالد للمبالغة في النفي وإن لم يقل بذلك أحد من البشر، وكما افتتحت السورة بإثبات الوجدانية لله، ختمت ببيان نفي وجود مثيل مشابه له تعالى في القدرة، وبذلك تكون هذه السورة دالة على التوحيد من كل النواحي، فالواجب على البشر بعد أن عرفتهم هذه السورة برّبهم أن يعبدوه وحده ويتوجهوا إليه وحده لقضاء حوائجهم، وهذان أمران مبنيان على الإخلاص لكي يستحقّ العبد الأجر من الله، ولذلك سُمّيت السورة بالإخلاص للدلالة على المحور المذكور.



(١) تميّزت هذه السورة بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: (أ) منها ما يتعلق بصفة الوجدانية: فقوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ لم يتكرر في القرآن، وكذلك قوله ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، (ب) ومنها ما يتعلق بتوحيد الربوبية بإخلاص التوجه له تعالى، فقوله ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ لم يتكرر، (ج) ومنها ما يتعلق بنفي المثل عن الله تعالى، فقوله ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لم يتكرر. وكلها أمور مبنية على الإخلاص كما لا يخفى.

سورة الإخلاص

سورة دعوة المؤمن إلى الإخلاص في توحيد ربوبية الله وإلهيته

- افتتحت السورة بدعوة المؤمن إلى الإخلاص في الإيمان بصفة الوجدانية لله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾ .
- وبدعوته إلى الإخلاص في توحيد الربوبية لله بالتوجه إليه وحده لقضاء الحوائج: ﴿أَلَلَّهُ ۝﴾ .
- وبدعوته إلى الإخلاص في توحيد الإلهية لله تعالى: ﴿لَمْ يَكِلْهُ وَلَمْ يُولَدْ ۝﴾ .
- وكما افتتحت السورة بذكر صفة الوجدانية لله تعالى، ختمت بدعوة المؤمن إلى نفي الكُفْرِ عن الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ .
- كل هذه الأمور يجمعها «الإخلاص»، ودون الإخلاص لا يكون لها اعتبار عند الله تعالى، ولذلك سُمِّيت السورة بهذا الاسم الجامع لمحتواها.

سورة الفلق

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾

الدلالة اللفظية والسياقية لاسم السورة:

قال الإمام ابن فارس رحمه الله: «الفاء واللام والقاف أصل صحيح يدل على فرجة وبينونة في الشيء.. والفَلَق: الصبح، لأن الظلام ينفلق عنه.. والفَلَق: الخلق كله، كأنه شيء فُلِقَ عن شيء حتى أبرز وظهر»^(١)، أما الدلالة السياقية لاسم السورة فتعود إلى بيان أن الله هو ربّ الفَلَق وهو المستعاذ، ووجه الاستعاذة على حسب المعنيين المذكورين لغوياً «فالاستعاذة برّب الصبح الذي يؤمن بالنور من شرّ كل مستور، والاستعاذة برّب الخلق الذي يؤمن من شرّ خلقه»^(٢).

أقوال بعض المفسرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن مقصود السورة هو التوجيه إلى الاعتصام بالله من شر كل ما انفلق عنه الخلق الظاهر والباطن، على وجه الإجمال والتفصيل، فالشرور لها معنى الظلمة حقيقة أو مجازاً، والاستعاذة برّب الفلق من باب الفأل الحسن لتبديد ظلمات الشرور جميعها^(٣).

ومن الممكن أن تلخص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: بيان أن الله وحده المستعاذ به من شرور الخلق، ولما كان بيان أنه ربّ الفلق دالاً على أنه الخالق وأنه بيده وحده الضّر والنفع، فجعل اسماً للسورة للدلالة على المحور المذكور. وقد تميّزت هذه

(١) ابن فارس، المقاييس، ص ٨٢٧.

(٢) قطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٤٠٠٧.

(٣) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٤١٨، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٦٠٣، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٤٠٠٦-٤٠٠٩، وأ.د.مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ٤٦٤-٤٦٥، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٥٥١، والوتاري، فقه السورة القرآنية، ص ٢١٥-٢٢٨، ووادي، ومهنا، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ص ٣٨٦، ٣٨٧.

السورة بأنها سورة الدعوة إلى الاستعاذة بنور ربّ الفلق، من ظلمات شرّ ما خلق.

وبتأمل آيات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك^(١): ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤﴾: فالله وحده هو ربّ الفلق، فهو ربّ الخلق جميعاً، أو هو ربّ الصبح، والإضافة إلى الفلق الدال على النور مناسبة لعلم الله الكاشف لكل الخبايا، وقوله ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ شمل جميع المخلوقات التي يمكن أن تصيب بالشرّ كالآدميين والجنّ أو الدواب، ومن اللطيف أن الشرّ أضيف إلى الليل الغاسق الذي تمكّن ظلامه، وهذا يقابل إضافة الربّ إلى الفلق، فهو سبحانه النور في مقابل ظلمة الشرور، ولاحظ تنكير الغاسق لإفادة العموم، ومعلوم أن الليل لتمكّن ظلامه تكثر فيه الشرور لغفلة الإنسان حينها إما بالنوم أو لعدم أو ضعف الإبصار.

فهذا التعوذ من شرور كل المخلوقات، وهو عام، ثم انتقل إلى الأخصّ وهو السحر، فالسورة تفيد أن الله هو المستعاذ به حتى من السحر وأهله، وكما افتتحت السورة ببيان أن الله هو ربّ الخلق أو هو ربّ الصبح للدلالة على كمال قدرته وعلمه، فيكون بذلك وحده هو المستعاذ به من الشرور عامة، ختمت ببيان أنه المستعاذ به حتى من أخصّ الأخصّ وهو الشرّ الكامن في قلب الحاسد، وهو أخفى أنواع الشرور، وذكر الحاسد بصيغة الأفراد والتنكير زاد ذلك تأكيداً. وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

(١) تميّزت هذه السورة بعدد من الأمور تؤكّد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أولاً: لم يضاف المصدر «فلق» إلى الله تعالى إلا هنا: ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾: ١، ثانياً: هذه السورة هي أكثر سورة في القرآن تكرر فيها ذكر المصدر «شرّ»، وذلك أربع مرات، وإليك التفصيل: أ) لم تذكر الشرور عامة بقوله تعالى ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ إلا هنا: ٢، ودون تحديد مفعول به للفعل «خلق»، وقد ذُكر هذا الفعل من غير تحديد المفعول به في سورة العلق: ١، والأعلى: ٢، ب) ولم توصف شرور الليل الخفية بقوله ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾: إلا هنا: ٣، وقد ذكر غسق الليل في سورة الإسراء فقط: ٧٨، ج) لم توصف شرور الساحرات والسحرة بقوله ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ إلا هنا: ٤، د) ولم توصف شرور الحاسدين بقوله ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ إلا هنا: ٥، وقد ذكرت سورة البقرة حقد الحاسدين من أهل الكتاب: ﴿وَوَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَكًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ﴾: ١٠٩.

سورة الفلق

سورة الدعوة إلى الاستعاذة بنور رب الفلق من ظلمات شر ما خلق

- افتتحت السورة ببيان أن الله هو الرَّبُّ الخالق: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ، فهو ربُّ الخلق جميعاً، أو هو ربُّ الصبح، فهو النور في مقابل ظلمة الشرور.
- ولما كان هو وحده الخالق، كان هو وحده المستعاذ به من شرور خلقه التي لا يعلمها إلا هو: ﴿وَمِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ، فهذه الاستعاذة العامة من شرور كل المخلوقات.
- ثم انتقل إلى التخصيص، فبيّن أنه المستعاذ به من شَرِّ ظلمة الليل وما فيها من الشرور الخفية: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ .
- ثم انتقل إلى الأخصّ، فبيّن أنه المستعاذ به من شرور السحر وأهله: ﴿وَمِنْ شَرِّ الْفَقْهِنِ فِي الْعُقَدِ﴾ .
- ثم ختم ببيان أنه المستعاذ به من أخصّ الأخصّ وهو الحسد الخفيّ الذي يكون في قلب الحاسد: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ .
- فهو سبحانه لعلمه المنير بخلقه، كان وحده المستعاذ به من ظلمات شرور خلقه الخفية.

سورة الناس

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾

الدلالة السياقية لاسم السورة:

تعود الدلالة السياقية لاسم السورة إلى بيان أن الله وحده هو ربّ الناس وملكهم وإلههم، فهو سبحانه لكمال قدرته وشمول علمه المستعاذ به من شرور وساوس الجنة وغواية الإنس.

أقوال بعض المفسّرين والكاتبين في ربط اسم السورة بمحورها وموضوعاتها:

ذكر عدد من المفسّرين والكاتبين أوجهاً لربط اسم هذه السورة بمحورها وموضوعاتها، فذكروا أن محور هذه السورة التوجيه إلى الاعتصام والاستعاذة بالإله الرّبّ الخالق الملك من شرّ الخلق الباطن، مع استحضار المؤمن معاني هذه الصفات، إذ لا قبل للمؤمن بدفع هذه الشرور إلا بعون ربّه سبحانه، فليس الإنسان مغلوباً على أمره، فمن يذكرون الله في حفظ من الشرّ ودواعيه الخفية، فالسورة تلخّص الصراع بين الحقّ والباطل، وتدل على أن الاستمسك بالله وبدينه سيكون عاصماً من قوى الشرّ الجنية منها والإنسية، التي هي الشرّ الأعظم ضدّ الناس^(١).

ومن الممكن أن تلخّص الأقوال السابقة بالقول بأن محور السورة هو: الدعوة إلى

(١) ينظر: المهامي، تبصير الرحمن، ج ٢، ص ٤٢٩، والبقاعي، نظم الدرر، ج ٨، ص ٦١١، وقطب، في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٤٠١٠-٤٠١٢، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣٠، ص ٦٣٢، وأ.د. مسلم، وزملاؤه، التفسير الموضوعي، م ٩، ص ٤٧٧، ٤٧٨، والوتاري، فقه السورة القرآنية، ص ٢٢٩-٢٣٩، والغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن، ص ٥٥٢.

التوحيد من خلال بيان أن الله وحده هو الرب المستعاذ به من شرور الجنة والناس، ولما كان بيان أنه تعالى رب الناس وملكهم وإلههم، وهم الذين يراهم الجن من حيث لا يرون هم الجن، فهم الفريق الأضعف، سُميت السورة بهم لبيان أن الله هو المستعاذ به لهم. وقد تميّزت هذه السورة بأنها سورة الدعوة إلى الاستعاذة بقدرة رب الناس من شرّ غواة الجنة والناس.

وبتأمل آيات السورة يبرز الترابط بينها وبين المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، وفيما يلي بيان ذلك^(١): ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾، ولاحظ إضافة الإله والملك إلى «الناس» في كل مرة، بدلاً من الضمير فيقال مثلاً: قل أعوذ برب الناس وملكهم وإلههم. إن في ذلك مزيد تأكيد على أن الله وحده هو الرب والملك والإله، كما وإن في ذلك زيادة دعوة وتنبيه للناس إلى الاستعاذة بربهم وملكهم وإلههم، ولاحظ أنه وُصف أولاً «بأنه ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾، ثم الرب قد يكون ملكاً وقد لا يكون، كما يقال رب الدار.. فلا جرم يتنه بقوله ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾، ثم الملك قد يكون إلهاً وقد لا يكون، فلا جرم يتنه بقوله ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾، لأن الإله خاصّ به سبحانه لا يشركه فيه غيره»^(٢).

فهذه الآيات الثلاث تدعو الناس إلى الاستعاذة بربهم وملكهم وإلههم، ثم بينت السورة ما هي الشرور المستعاذ بالله منها، وهي الشرور الناتجة عن إغواء كل وسواس خناس، يوسوس في صدور الناس، من الجنة والناس، ولاحظ عدم تحديد الوسواس بصفة معينة سوى أنه خناس، وهذا يدل على العموم فيشمل كل وسواس، ويدل على الخفاء، لأنه

(١) تميّزت هذه السورة بعدد من الأمور تؤكد المحور المذكور ودلالة اسم السورة عليه، ومن ذلك: أ) عبارة ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ و﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ و﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ كلها لم تتكرر في القرآن بالصيغ ذاتها، ب) هي الوحيدة التي تكرر فيها ذكر الوسوسة: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾، كما وأنها الوحيدة التي أضيفت فيها الوسوسة للناس، والوحيدة التي وصف فيها الوسواس بالخناس، وكلها عبارات تدل على شرور الجنة والناس، وأن المستعاذ به منها هو الله وحده. وينظر للمراجعة: عبد الباقي، المعجم المفهرس.

(٢) الرازي، التفسير الكبير، ج ٣٢، ص ١٩٦. بتصرف.

وسوستهم خفية لا يملك لها الإنسان دفعاً إلا بذكر الله تعالى، ولاحظ ذكر الصدور بالجمع، للدلالة على أنهم يتمنون إغواء الناس جميعاً لو استطاعوا، وكما افتتحت السورة ببيان أن الله تعالى هو ربّ الناس وملكهم وإلههم فهو وحده المستعاذ به لهم، كونهم الفريق الأضعف إذ الجنة تراهم والناس لا يرون الجنة، ختمت السورة ببيان أن الله المستعاذ به من شرور وساوس الجنة كونهم أقوى في التأثير عبر الوسوسة، وهو أيضاً المستعاذ به من شرور غواية الناس وإن كان إدراك خطرهم واضحاً لإمكان رؤيتهم، فهو سبحانه المستعاذ به من الخطر الأكبر ومن الخطر الأقل شأناً. وبذلك التقى البدء والختام على المحور المذكور والذي دلّ عليه اسم السورة أبلغ الدلالة.

فسورة الفلق السابقة أثبتت أن الله هو المستعاذ به من شرور كل الخلق، وسورة الناس أثبتت أنه المستعاذ به من شرور عدو الناس، وهم غواة الجنة وغواة الناس، فبهاتين السورتين يثبت أنه تعالى المستعاذ به من الشرور جميعها، عامّها وخاصّها؛ لأنه هو الخالق لكل شيء على وجه العموم والخصوص.



سورة الناس

سورة الدعوة إلى الاستعاذة بقدرية رَبِّ الناس من شَرِّ غواة الجنة والناس

- افتتحت السورة ببيان كمال قدرة الله تعالى، فهو وحده رَبِّ الناس، وهو وحده ملك الناس، وهو وحده إله الناس.
- ثم بيّنت أنه لكمال قدرته وشمول علمه المستعاذ به من شَرِّ الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس.
- وختمت ببيان أنه المستعاذ به من شرور غواة الجنة، لأنهم أشدَّ خطراً لأنهم يرون الناس، بينما الناس لا يرون الجنة، وبيان أنه المستعاذ به من شَرِّ غواة الناس أيضاً، وهم أقلَّ خطراً من الجنة لإمكان رؤيتهم.

الخاتمة

أحمد الله ربَّ العالمين الذي أعانني على إتمام هذا الكتاب والذي خلص إلى نتائج وتوصيات كثيرة، فلقد لفت موضوع العلاقة بين أسماء السور وموضوعاتها أنظار عدد من المفسرين والكاتبين في علوم القرآن قديماً وحديثاً، ممّا يدلّ على أهمية هذا الموضوع، وكان حديثهم عن هذا الموضوع بحاجة إلى تميم، إذ منهم من انطلق من مبدأ أن اسم السورة له علاقة مباشرة بمحورها، دون التطرّق إلى بيان وجه العلاقة بين اسم السورة وموضوعاتها بشكل مستوفٍ، ومنهم من اقتصر على نظرة عجلية على السياق الذي جاء به اسم السورة، دون التطرّق إلى بيان وجه العلاقة بينه وبين المحور أو الموضوعات، فبقيت الحاجة قائمة إلى دراسة وافية لأوجه العلاقة بين اسم السورة ومحورها وموضوعاتها.

وإن من أبرز النتائج التي توصّلت إليها :

- وجوب الاعتماد على الدلالة السياقية لاسم السورة، وإردافها بالدلالة اللفظية له إن لزم الأمر، ثم التفكير في الربط بين اسم السورة ومحورها وموضوعاتها، للإجابة عن الأسئلة الكثيرة التي تدور في ذهن حول هذا الموضوع.

- أن لكل سورة محوراً يربط موضوعاتها، وأن موضوعاتها مترابطة مع بعضها أشدّ الترابط وكأنها عقْد درّ منظم.

- أن مقدّمة السورة وخاتمتها تلتقيان على المحور الجامع لكل موضوعاتها، وأن الخاتمة في السورة تحوي خلاصة مؤكّدة لموضوعات السورة، وأن اسم السورة أدلّ ما فيها على المحور، ولذلك يمكن وصف اسم السورة بأنه: «يمثّل روحها العام».

- أن الوصول إلى معرفة المحور الجامع لموضوعات السورة يقوم على تتبّع الألفاظ المتكرّرة بشكل لافت فيها، والألفاظ التي انفردت السورة المتناولة بها، ثم محاولة الربط بينها وبين موضوعات السورة، حتى يصبح بالإمكان في النهاية صياغة محور السورة بشكل سليم مانع جامع.

- أن معرفة المحور الجامع لموضوعات السورة، ومعرفة وجه العلاقة بينه وبين اسمها، تساعدان المفسّر على تفسير السورة بشكل أدقّ وأصحّ، وتجنّبه الانحرافات التي تخرجه عن روح نصّ السورة.

- أن كثيراً من السور تشترك في المحور الجامع لموضوعات السورة، ولكن لكل سورة أسلوبها الخاص في عرض موضوعاتها بما يتناسب مع هذا المحور، وأن معرفة وجه العلاقة بين اسم السورة ومحورها يساعد في التمييز بين أساليب هذه السور المختلفة، والتي يجمعها المحور الواحد، وتبقى كل سورة تعرض ما يناسب المحور من زاوية معينة تختلف بها عن باقي السور.

- وقد تناولتُ في هذا الكتاب بعض السور التي يجمعها موضوع يوم القيامة، فتناولت سور (التكوير والانفطار والانشقاق)، وبيّنت جانباً من الأسلوب المميّز لكل منها، والعلاقة بين اسمها وبين هذا الأسلوب، وبيّنت ما يؤكد المحور المذكور لكل سورة من بعض الألفاظ المتكرّرة فيها، وبعض الألفاظ التي انفردت كل واحدة منها بذكرها.

- وتناولت سورتي: (الحجر والكهف) اللتين يعود اسمهما لموضوع القصص القرآني، ويجمعهما محور واحد، وبيّنت ما يؤكّد المحور المذكور لكل سورة من بعض الألفاظ المتكرّرة فيهما، وبعض الألفاظ التي انفردت كل واحدة منهما بذكرها، وبيّنت جوانب متعدّدة من أوجه الترابط والتناسق بين السورتين.

- وتناولت كذلك سورتي: (النمل وسبأ) فاسمهما أيضاً يعود إلى موضوع القصص، وبيّنت الدراسة ما يؤكّد المحور المذكور لكل منهما، وبعض الألفاظ التي انفردت كل واحدة منهما بذكرها، وبيّنت جوانب متعدّدة من أوجه الترابط والتناسق بين السورتين.

- وتناولت كذلك سورتي: (الأنفال والتوبة) وسورتي (الأحزاب والفتح) فاسمهما يعود إلى أحداث السيرة النبوية، وبيّنت الدراسة ما يؤكّد المحور المذكور لكل منهما، وبعض الألفاظ التي انفردت كل واحدة منهما بذكرها، وبيّنت جوانب متعدّدة من أوجه الترابط والتناسق بين السورتين.

كانت هذه أهمّ الخلاصات التي توصّلت إليها في هذا الكتاب، سائلاً المولى عزّ وجلّ التوفيق والسداد لي ولجميع المسلمين.

هذا، والله أعلم، وعلمه أحكم، وصلى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم، والحمد لله ربّ العالمين، أللهمّ اجعل عملي هذا خالصاً لوجهك الكريم، واجعله في ميزان حسناتي وميزان حسنات كل من أسهم فيه، وميزان حسنات كل من قرأه فذكرني والمسلمين بدعوة صالحة.



المصادر والمراجع

- الآلوسي، محمود (ت ١٢٧٠ هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ط ١، ١٦ م، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١.
- الأصفهاني، الحسين بن محمد (ت: ٤٢٥ هـ)، مفردات ألفاظ القرآن، ط ٣، (تحقيق صفوان داوودي)، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٢.
- باجودة، د. حسن محمد، الوحدة الموضوعية في سورة يوسف، ط ١، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٧٥.
- باجودة، د. حسن، تأملات في سورة الحاقة، ب ط، دار بوسلامة، تونس، ١٩٨٢.
- باجودة، د. حسن، تأملات في سورة محمد ﷺ، ب ط، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٩.
- باجودة، د. حسن، تأملات في سورة العاديات، ب ط، دار بوسلامة، تونس، ١٩٨٢.
- باجودة، د. حسن، تأملات في سورة يس، ط ٣، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٧.
- البخاري، محمد بن إسماعيل (ت: ٢٥٦ هـ)، الجامع المسند الصحيح، ط ١، دار الأرقم، بيروت، ١٩٩٥.
- البقاعي، إبراهيم بن عمر (ت: ٨٨٥ هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ط ٤، ٨ م، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١١.
- البهي، د. محمد، تفسير سورة الصافات، ط ١، دار الفكر، بيروت، ١٩٧١.
- البيضاوي، عبد الله بن عمر (ت: ٧٩١ هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣.
- الترمذي، محمد بن عيسى (ت ٢٧٩ هـ)، جامع الترمذي، ط ١، دار الأفكار، عمان، ٢٠٠٤.
- الجابري، د. سيف راشد، أسماء السور القرآنية دلالات وإشارات، ط ٣، بدون دار نشر، ٢٠٠٣.
- حجازي، د. محمد محمود، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، ط ١، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٧٠.
- خاروف، محمد فهد، وراجح، كريم، الميسر في القراءات الأربع عشرة، ط ٤، دار ابن كثير، دمشق، ٢٠٠٦.

الخالدي، د. صلاح عبد الفتاح، إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، ط ١، دار عمار، عمان، ٢٠٠٠.

- الدبل، محمد بن سعد، النظم القرآني في سورة الرعد، ب ط، عالم الكتب، الرياض، ١٩٨١.
- دراز، د. محمد عبد الله، النبأ العظيم، ب ط، دار الثقافة، الدوحة، ١٩٨٥.
- الدوسري، د. منيرة محمد، أسماء سور القرآن وفضائلها، ط ١، دار ابن الجوزي، الدمام، ١٤٢٦ هـ.
- الرازي، محمد بن عمر (ت: ٦٠٦ هـ)، مفاتيح الغيب، ط ٣، ١٦ م، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٥.
- رجب، أ. د. مصطفى، فيض المنان في علوم القرآن، ط ١، مؤسسة طيبة، القاهرة، ٢٠١٣.
- رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ١٢ م، ط ١، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٧.
- رفعت، د. محمد، الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، ط ٢، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٧.
- الرقب، د. أحمد سليمان، سورة ﴿ص﴾، ط ١، دار المأمون، عمان، ٢٠٠٨.
- زاهدة، عطية، فواتح السور والحروف السبعة، ب ط، ب دار نشر، ١٩٨٠.
- الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان، ط ٢، مجلد واحد، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، ب ط، مجلد واحد، (تحقيق أبي الفضل الدمياطي)، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦.
- الزمخشري، محمود بن عمر (ت: ٥٣٨ هـ)، تفسير الكشاف، ط ٤، ٤ م، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦.

السامرائي، أ. د. فاضل صالح، التعبير القرآني، ط ٤، دار عمار، الأردن، ٢٠٠٦.

سبحاني، د. محمد عناية الله، البرهان في نظام القرآن في الفاتحة والبقرة وآل عمران، ط ١، دار عمار، عمان، ٢٠٠٥.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الإنشاق في علوم القرآن، ب ط، ٢ م، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣.

شحاتة، د. عبد الله، أهداف كل سورة ومقاصدها، ٥ م، ط ٤، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٨.

الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، ب ط، ٣ م، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠١.

الصواف، محمد محمود، نظرات في سورة الحجرات، ط ٤، دار الرسالة، بيروت.

طبارة، عفيف، تفسير جزء عم، ط ٢، دار العلم للملايين، بيروت، ب ت.

- الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ط ٤، ١٠ م، (ت: أحمد البكري وزملائه) دار السلام، القاهرة، ٢٠٠٩.
- طهماز، عبد الحميد، من سورة الطور إلى سورة الناس، ط ١، دار القلم، دمشق، ١٩٩٨.
- طهماز، عبد الحميد، العواصم من الفتن في سورة الكهف، ط ١، دار القلم، دمشق، ١٩٨٧.
- طهماز، عبد الحميد، النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب، ط ١، دار القلم، دمشق، ١٩٨٦.
- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ب ط، دار سحنون، تونس، ١٩٩٧.
- عباس، أ. د فضل حسن، إتيان البرهان في علوم القرآن، ط ٢، ٢ م، دار النفائس، عمان، ٢٠١٠.
- عباس، أ. د فضل، قصص القرآن الكريم، ط ٢، دار النفائس، عمان، ٢٠٠٧.
- عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ب ط، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠١.
- العريض، د. علي حسن، فتح الرحمن في تفسير سورتي الفاتحة ولقمان، ب ط، دار الإصلاح، الدمام، ١٩٨١.
- العسكري، الحسن بن عبد الله (ت: ٤٠٠ هـ)، الفروق اللغوية، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩.
- علي، د. عادل حسن، الجمان في علوم القرآن، ب ط، مكتبة المتنبي، الدمام، ٢٠٠٦.
- عمر، أحمد عطا، تفسير جزء ﴿قد سمع﴾، نُشر في عمان بدون دار نشر، ٢٠٠٤.
- عمر، أحمد عطا، تفسير سورة الأنعام، ط ١، دار الفكر، عمان، ٢٠٠٠.
- أبو عودة، أ. د عودة، شواهد في الإعجاز القرآني، ط ١، دار عمار، عمان، ١٩٩٨.
- الغزالي، محمد، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، ط ١٣، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٣.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت: ٣٩٥ هـ)، معجم المقاييس في اللغة، ط ١، (تحقيق شهاب الدين أبو عمرو)، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣ م.
- الفراهي، عبد الحميد، دلائل النظام، ب ط، الدائرة الحميدية، حيدر آباد، ١٣٨٨ هـ.
- الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب (ت ٨١٧ هـ)، البيان بمقاصد القرآن، ط ١، (تحقيق إسلام بن عيسى العبادي)، المكتب الإسلامي، عمان، ٢٠١٣.
- قطب، سيد، في ظلال القرآن، ط ٣٤، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٤.
- قطب، سيد، التصوير الفني في القرآن، ط ١١، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٤.

- قطب، محمد، دراسات قرآنية، ط ٨، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٤.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ)، تفسير القرآن العظيم، ط ٢، ٤ م، مؤسسة الريان، بيروت، ٢٠٠٥.
- المثنى، د. عبد الفتاح محمود، نظرية السياق القرآني، ط ١، دار وائل، عمان، ٢٠٠٨.
- المجالي، أ. د محمد خازر، الوجيز في علوم الكتاب العزيز، ط ٣، منشورات جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، ٢٠٠٦.
- مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١ هـ)، المسند الصحيح، ط ١، دار الأرقم، بيروت، ١٩٩٩.
- مسلم، أ. د مصطفى، وزملاؤه، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ط ١، مطبعة المعارف، الشارقة، ٢٠١٠.
- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم (ت: ٧١١ هـ)، لسان العرب، ط ٤، ١٧ م، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٥.
- المهايمي، علي بن أحمد (ت: ٨٣٥ هـ)، تبصير الرحمن وتيسير المتان بعض ما يشير إلى إعجاز القرآن، ط ٢، ٢ م، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣.
- النبلسي، أ. د محمد راتب، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: آيات الله في الإنسان، ط ٢، دار المكتبي، دمشق، ب ت.
- النبلسي، أ. د محمد، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: آيات الله في الآفاق، ط ٢، دار المكتبي، دمشق، ب ت.
- النجار، أ. د زغلول، السماء في القرآن الكريم، ط ٢، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥.
- النجار، أ. د زغلول، الأرض في القرآن الكريم، ط ٢، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٦.
- الندوي، أبو الحسن علي الحسني، المدخل إلى الدراسات القرآنية وتأملات في سورة الكهف، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٤.
- الندوي، أبو الحسن، دراسات قرآنية، ط ١، (إعداد سَيِّد الغوري)، دار ابن كثير، دمشق، ٢٠٠٢.
- نوفل، د. أحمد إسماعيل، سورة يوسف: دراسة تحليلية، ط ٢، دار الفرقان، عمان، ١٩٩٩.
- نوفل، د. أحمد، تفسير سورة القصص، دراسة تحليلية موضوعية، ط ١، منشورات جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، ٢٠٠٥.

نوفل، د. أحمد، تفسير سورة الإسراء: دراسة تحليلية موضوعية، ط ١، منشورات جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، ٢٠١٤.

نوفل، د. أحمد، الحرب النفسية من منظور إسلامي، ط ١، دار الفرقان، عمان، ٢٠٠٤.

نوفل، د. أحمد، قراءة في آية: ﴿إِذَا تَمَتَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، ط ١، دار الفضيلة، عمان، ٢٠٠٧.

ابن هشام، عبد الملك (ت: ٢١٣ أو ٢١٨ هـ)، السيرة النبوية، ب ط، مجلد واحد، مؤسسة المعارف، بيروت، ٢٠٠٥.

وادي، عيسى إبراهيم، ومهنا، محمود عبد الكريم، من دلالات أسماء السور في القرآن الكريم، ط ١، (مراجعة الأستاذ بسام جرار)، دار الرضوان، عمان، ٢٠١٢.

الوتاري، أحمد عدنان، فقه السورة القرآنية، ط ١، طبع على نفقة جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ٢٠١١.

ومن الأبحاث العلمية المحكمة:

خليفة، أ. د إبراهيم عبد الرحمن، اسم السورة يمثل روحها العام، بحث مستل من حولية كلية أصول الدين، القاهرة، العدد: ٩، ١٩٩٢.

نوفل، د. أحمد، النسق القرآني وأثره في الترجيح، سورة الماعون أنموذجاً، بحث محكم في مجلة الدراسات الإسلامية، المجلد ٢، العدد: ٢، رمضان، ١٤٣٤ هـ.



فهرس المحتويات

٥	الإهداء :
٧	تقديم بقلم الدكتور أحمد نوفل :
١١	المقدمة :
١٥	التمهيد :
٢٥	سورة الفاتحة :
٢٩	سورة البقرة :
٥٠	سورة آل عمران :
٦٢	سورة النساء :
٧٢	سورة المائدة :
٨٤	سورة الأنعام :
٩٥	سورة الأعراف :
١٠٧	سورة الأنفال :
١١٧	سورة التوبة :
١٢٨	سورة يونس :
١٣٧	سورة هود :
١٤٧	سورة يوسف :
١٥٧	سورة الرعد :
١٦٥	سورة إبراهيم :
١٧٤	سورة الحجر :
١٨٤	سورة النحل :
١٩٦	سورة الإسراء :
٢٠٨	سورة الكهف :
٢٢٠	سورة مريم :
٢٣١	سورة طه :
٢٤٠	سورة الأنبياء :
٢٤٧	سورة الحج :
٢٥٧	سورة المؤمنون :
٢٦٦	سورة النور :
٢٧٥	سورة الفرقان :
٢٨٣	سورة الشعراء :
٢٩٣	سورة النمل :

٣٠٤	سورة القصص:
٣١٢	سورة العنكبوت:
٣٢٠	سورة الروم:
٣٢٧	سورة لقمان:
٣٣٤	سورة السجدة:
٣٤٠	سورة الأحزاب:
٣٥١	سورة سبأ:
٣٦١	سورة فاطر:
٣٦٩	سورة يس:
٣٧٦	سورة الصافات:
٣٨٥	سورة ص:
٣٩٣	سورة الزمر:
٤٠٢	سورة غافر:
٤١١	سورة فصلت:
٤١٩	سورة الشورى:
٤٢٦	سورة الزخرف:
٤٣٥	سورة الدخان:
٤٤٢	سورة الجاثية:
٤٤٩	سورة الأحقاف:
٤٥٨	سورة محمد:
٤٦٤	سورة الفتح:
٤٧٣	سورة الحجرات:
٤٧٩	سورة ق:
٤٨٤	سورة الذاريات:
٤٩٢	سورة الطور:
٥٠٠	سورة النجم:
٥٠٦	سورة القمر:
٥١٠	سورة الرحمن:
٥١٦	سورة الواقعة:
٥٢٣	سورة الحديد:
٥٢٩	سورة المجادلة:
٥٣٧	سورة الحشر:
٥٤٥	سورة الممتحنة:

٥٥٠	سورة الصف :
٥٥٥	سورة الجمعة :
٥٦٠	سورة المنافقون :
٥٦٥	سورة التغابن :
٥٧٠	سورة الطلاق :
٥٧٥	سورة التحريم :
٥٨٠	سورة الملك :
٥٨٥	سورة القلم :
٥٩٢	سورة الحاقة :
٥٩٧	سورة المعارج :
٦٠٣	سورة نوح :
٦٠٨	سورة الجن :
٦١٢	سورة المزمل :
٦١٧	سورة المدثر :
٦٢٢	سورة القيامة :
٦٢٦	سورة الإنسان :
٦٣١	سورة المرسلات :
٦٣٧	سورة النبأ :
٦٤٢	سورة النازعات :
٦٤٩	سورة عبس :
٦٥٤	سورة التكويد :
٦٦٠	سورة الانفطار :
٦٦٥	سورة المطففين :
٦٧١	سورة الانشقاق :
٦٧٧	سورة البروج :
٦٨٣	سورة الطارق :
٦٨٨	سورة الأعلى :
٦٩٢	سورة الغاشية :
٦٩٧	سورة الفجر :
٧٠٣	سورة البلد :
٧٠٨	سورة الشمس :
٧١٣	سورة الليل :
٧١٧	سورة الضحى :

٧٢٢	سورة الشرح :
٧٢٦	سورة التين :
٧٣١	سورة العلق :
٧٣٥	سورة القدر :
٧٣٨	سورة البينة :
٧٤٣	سورة الزلزلة :
٧٤٧	سورة العاديات :
٧٥٢	سورة القارعة :
٧٥٦	سورة التكاثر :
٧٦٠	سورة العصر :
٧٦٤	سورة الهمزة :
٧٦٩	سورة الفيل :
٧٧٢	سورة قريش :
٧٧٦	سورة الماعون :
٧٨٠	سورة الكوثر :
٧٨٣	سورة الكافرون :
٧٨٧	سورة النصر :
٧٩٠	سورة المسد :
٧٩٥	سورة الإخلاص :
٧٩٨	سورة الفلق :
٨٠١	سورة الناس :
٨٠٥	الخاتمة :
٨٠٨	المصادر والمراجع :
٨١٣	فهرس المحتويات :



الإخراج الفني

موسى وحيد مصطفى